بيتر جران

ما بعد المركزية الأوربية

نظرة جديدة فى تاريخ العالم الحديث

ترجمة

د. عاطف أحمد   إبراهيم فتحى   محمود ماجد

إشراف وتحرير

د. رءوف عباس



١٩٩٨

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Beyond Eurocentrism

A New View of Modern World History

by

Peter Gran

Syracuse University Press

1996

مقدمة المحرر

الدكتور بيتر جران من أبرز المؤرخين الأمريكيين المتخصصين بتاريخ مصر الحديث ، وأحد أهم المؤرخين المشتغلين بالتاريخ الاجتماعى ، والمهتمين بالبحث عن تفسير لحركة المجتمع العربى خارج إطار المقولات ، التى روجت لها المدرسة الاستشراقية . ولذلك كان كتابه الأول «الجذور الإسلامية للرأسمالية ، مصر ١٧٦٠ – ١٨٤٠» مثار جدل واسع بين المتخصصين على الصعيدين العالمى والإقليمى ، فقد خرج من دراسته لتاريخ مصر الاجتماعى منذ عصر على بك الكبير إلى نهاية مشروع محمد على باشا ، أن مصر كانت تسير بخطى وئيدة على طريق التحول الرأسمالى ، وأن قدوم الغرب قطع عليها هذا الطريق ، وقد نشرت الترجمة العربية عن دار الفكر عام ١٩٩٢ وترجمها : محروس سليمان ، وتولى مراجعة الترجمة صاحب هذا القلم .

وها نحن نقدم اليوم للقارئ العربى عملا هاما استغرق إعداده عدة سنوات ، قام فيه بيتر جران بتقديم رؤية جديدة لتاريخ العالم فى إطار نظرية أنطونيو جرامشى (١٨٩١ – ١٩٣٧) المفكر الماركسى الإيطالى الذى عرف باهتمامه بالعلاقة بين القاعدة والبنية الفوقية ، وبين البروليتاريا والمثقفين ، والثورة الثقافية ، ودور الأيديولوجية فى التطور الاجتماعى ، وذلك من خلال دراساته للواقع الإيطالى والثقافة الإيطالية .

واختار المؤلف أن يتحدى الفكرة السائدة عن «المركزية الأوربية» فى أطرها المختلفة : الليبرالية أو الماركسية أو المحافظة ، التى تذهب إلى أن تاريخ العالم لا يمكن أن يفهم إلا على ضوء التطورات الراهنة لتاريخ أوربا ، وتتمحور حول «المركزية الأوربية» نخب تواريخ الأقاليم الأخرى . ويرى جران فى التاريخ الاجتماعى المشدود إلى «طرق» جرامشى منطلقا لدحض فكرة «المركزية الأوربية» الكامنة فى النماذج التفسيرية السائدة . واختار المؤلف عقدى السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر نقطة انطلاق لدراسة «الطرق» أو نماذج التطور التى قدمها لنا فى هذا الكتاب ، وهما العقدان اللذان شهدا الاهتمام بدراسة الدولة القومية ، التى تمثل هنا بؤرة اهتمام المؤلف الذى يركز على دراسة الهيمنة . ولما كانت الثقافة تمثل مظهر الهيمنة ، فإن بيتر جران يطرح على المؤرخين ما يحفزهم إلى الاستغراق فى البحث لاختبار الافتراضات التى يطرحها هذا الكتاب .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى عشرة فصول ، وضع فيها عددا من الدول القومية على أحد «طرق» جرامشي ، فنجده يصنف تحت «الطريق الروسي» كل من الاتحاد السوفيتي / روسيا والعراق ، باعتبار العراق ذات تاريخ تطور على طريق روسيا ، ويصنف تحت «الطريق الإيطالي» إيطاليا ، والهند ، والمكسيك ، وتحت ما أسماه «الطريق القبلي – الاثني (العرقي) كل من ألبانيا ، والكونغو البلچيكي/ زائير ، واختار على «طريق الديمقراطية البورجوازية» بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

ورغم اتساع نطاق المادة التي استخدمها المؤلف الطموح ، إلا أنه نجح في التحكم فيها بصورة مبهرة ، فنجده يقدم لنا تحليلا عميقا للبلاد التي وضعها على «طرق» التصنيف الذي اتبعه ، مفسرا التطور الراهن لعدد من بلاد العالم في ضوء طبيعة الهيمنة ، وتوظيف الثقافة لتدعيمها ، وتوجيه دراسة التاريخ لخدمتها في إطار تحليل عميق للواقع الاقتصادي – الاجتماعي لكل بلد من تلك البلاد مبرزا العلاقة الجدلية بين الشمال والجنوب التي تشكل لب نظرية جرامشي .

ولا شك أن عملا بهذا الحجم والاتساع والشمول والإطار النظري لابد أن يثير الكثير من الجدل في أوساط المتخصصين والمثقفين على حد سواء ، وخاصة ما اتصل بالتناقضات التي قد يلمحها القارئ هنا وهناك بين الإطار النظري الذي صاغه المؤلف في الفصل الأول ، والنتائج التي خرج بها في خاتمة الكتاب ، وبين تفاصيل وظروف تطور كل واحد من البلاد التي تصدى لها بالدراسة في الكتاب وصفُها على «طريق» معلوم ، بل وعشرات النماذج الأخرى التي قد تحيد عن «طرق» بيتر جران الجرامشية . ولكنه يمثل مساهمة متميزة لرؤية تاريخ العالم خارج نطاق المركزية الأوربية ، وإيجاد الأرضية التي قد تقوم عليها فكرة «الندية» في العلاقات الدولية في عالم يمر بمرحلة صياغة جديدة ، وتأكيد على قدرات الشعوب على شق طريقها دون وصاية من هيمنة أكبر ، ويطرح على بساط البحث من جديد مقولات نظرية التبعية ، وينفي فكرة القلب والأطراف ، ويقدم محاولة لفهم العالم المعاصر من منظور تاريخي . وانضمام الكتاب إلى المكتبة العربية يفتح الباب لجدل ثري حول النظرية التي يطرحها الكتاب وأسلوب تطبيقها ، ويلفت النظر إلى أهمية البحث في التاريخ الاجتماعي لفهم الواقع المعاصر فهما جيدا .

وما كان الكتاب ليرى النور لولا ذلك الاهتمام الخاص الذي حظي به من جانب الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة ، والعناية التي لقيها من

الأستاذ لمعى المطيعى مستشار النشر بالمجلس ، وما كان إخراج هذه الطبعة العربية ممكنا لولا الجهد الفائق الذى بذله فى ترجمة ثلاثة من المترجمين المرموقين : د. عاطف أحمد ، الأستاذ إبراهيم فتحى ، والأستاذ محمود ماجد ، وكل من قرأ العمل بالإنجليزية يدرك قيمة الجهد الذى بذل فى الترجمة ، أما دور صاحب هذا القلم فى مراجعة الترجمة وتحرير الكتاب فتقديره متروك للقارئ الكريم .

وما القصد إلا بعث قدر من الحركة فى حياتنا الثقافية لعل وعسى ..

القاهرة فى ٤ مارس ١٩٩٧

د. رءوف عباس

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

أصبح من المسلم به فى الدراسات التاريخية الجادة منذ جيل ، على الأقل منذ أن كتب «فرانز فانون» كتابه «معذبو الأرض» فى سياق النضال الجزائرى فى سبيل الاستقلال ؛ أن الدراسات القائمة على النزعة المركزية الأوربية ليست بذات فائدة تذكر ، لا بالنسبة للبلدان الغربية ولا لسواها ؛ وأن ثمة حاجة إلى إعادة بناء الخريطة القديمة للتاريخ التى صاغها هيجل ، بعد إدخال تعديلات كبرى عليها . وقد اتخذ رد فعل بعض المؤرخين على استمرار سيادة نظرية التحديث عدة مسارات ، فمنهم من جعل محور دراساته حول العالم العربى نظرية التبعية ؛ ومنهم من تبنى فكرة الوحدة الثقافية أو الدينية لدول المنطقة ؛ ومنهم من أنكر بصورة جذرية أهمية التاريخ الحديث كنقطة انطلاق فى المحل الأول . وثمة نقطة ترد كثيرا فى الدراسات الحديثة هى أننا نعيش فى قرية كونية ، فأى فرق يمكن أن تحدثه فكرة الدولة القومية ما دامت الرأسمالية ذات طابع عالمى بالفعل . رغم ذلك فنحن نعلم أن الرأسمالية كانت دائما ذات طابع عالمى ، وأن الدول القومية استمرت تحتل مركز الأهمية . وإذا كانت التكنولوجيا الجديدة قد فعلت شيئا فى معظم البلدان فهو أنها منحت دولها قدرات أكبر فأكبر على التدخل فى حياة مواطنيها .

وهذا الكتاب يستهدف التغلب على مشكلة المركزية الأوربية كما يفهمها شخص تشكل وعيه فى إطار الثقافة الغربية ، وهو يستند على وعى متزايد أصبح الآن شائعا لدى من يقرأ بالإنجليزية حول الطرق الجديدة للنظر إلى العلاقة بين الحكام والمحكومين كما نجدها فى كتابات فوكو وجرامشى . كما أنه يعبر بنفس القدر عن جيل اتسمت معرفته بالتاريخ الاجتماعى ، بأنها متزايدة النمو ، وبأنها أصبحت منظمة بصورة فعالة بفضل ثورة الكومبيوتر .

والكتاب يطرح نقطتين تعدان موضع اختلاف فى هذا السياق ، هما : أولاً : أن التاريخ يوجد حيثما يوجد الناس ، وأن الأحداث التى تؤثر فيهم والتى يشاركون فيها هى التى تعرّف التاريخ الحديث ، وثانيًا : أنه فى عالمنا الذى يتكون من دول قومية رأسمالية حديثة توجد أربع استراتيجيات رئيسية تمارس الطبقات الحاكمة الحكم بواسطتها ، ولكل منها أمثلة وتنويعات كثيرة . وهاتان النقطتان توضعان فى مواجهة

إحداهما الأخرى على طول الكتاب . فمعظم الناس لا يمتلكون من النقود إلا قليلا ، ولا يشكلون فى معظم الأحوال جزءاً من الرأسمالية ؛ على الرغم من ذلك ، فالرأسمالية تسود الدول التى يعيشون فيها .

والنقطة الثانية الخاصة بوجود أربعة أشكال للهيمنة ، هى التى تبرز بوضوح فى هذا الكتاب . فالعالم يتكون من أربعة نماذج مختلفة من الدول القومية الحديثة . وتشترك هذه الدول جميعا فى المراحل العريضة للرأسمالية ، لكنها تختلف عن بعضها البعض وفقا للنضالات التى تشن من داخلها ضد شكل الهيمنة المفروض عليها .

ويبدأ الجزء الأساسى فى الكتاب بفصلين مخصصين للبلدان التى تتخفى فيها العلاقات الطبقية وراء التكوينات الطائفية ، وهى البلدان التى تسمى هنا «ذات الطريق الروسى» . وهى روسيا / الاتحاد السوفيتى والعراق .

والمنطق القائم وراء هذا الاختيار هو أننا إذا أردنا أن نضع نموذج «أوربا فى مقابل باقى العالم» موضع تساؤل ، فإن علينا أن ندلل علي أن ثمة أجزاء من أوربا يمكننا أن نفهمها بصورة أفضل إذا نحن رجعنا إلى ما عليه الحال خارج أوربا وليس العكس ، وقد وقع اختيارى على العراق فى أوائل الثمانينيات وهو البلد العربى الوحيد الذى تناولته هذه الدراسة ، فقد دفعنى الفضول فى ذلك الوقت إلى التساؤل عن السبب الذى يجعل العراق مستعصيا على الفهم داخل الدراسات الدولية ، عن السبب الذى يجعل بلداً بهذه الدرجة من الحداثة ومن المركزية يبدو فى كثير من الكتابات قبليًا أو إثنيًا . ويمتد نطاق «الطريق الروسى أو الحكم عن طريق التكوين الطائفى» ، ليشمل دراسة سوريا بعد عام ١٩٧٠ كما يشمل تركيا وإيران بطبيعة الحال .

ويمضى الكتاب متناولاً أمثلة للحكم عن طريق التمايز الإقليمى أو التمايز الثقافى الإقليمى ، وقد تم اختيار ثلاثة أمثلة هنا : إيطاليا كمثال مستمد من القارة الأوربية ؛ والمكسيك ممثلا لأمريكا اللاتينية ، والهند كمثال مستمد من آسيا . وأنا أدلل هنا على أن جميع هذه البلدان تتخفى فيها العلاقات الطبقية وراء وضع «الشمال» فى مواجهة «الجنوب» .

وقد كانت فى ذهنى وأنا أكتب هذه الدراسة ، تطبيقاتها داخل العالم العربى أيضاً . متمثلة فى سوريا فيما بين أواخر القرن التاسع عشر و١٩٦٦ ، ثم فى مثال يثير اهتمامى بشكل خاص هو مصر منذ عصر إسماعيل حتى الوقت الراهن .

وما أعتبره نموذجا مهيمنا وأكثر ميلا للمركزية الأوربية فى دراسة مصر الحديثة ، هو أحد تنويعات «الطريق الروسى» الذى ينبنى على نظرة خاصة لمحمد على وعرابى وعبد الناصر ، ويجعل مصر دولة حربية على غرار روسيا أو مصر العثمانية ، دولة هى دائما فى حالة رد فعل على الأحداث الخارجية ؛ بحيث تصبح دينامياتها الداخلية ذات أهمية ثانوية . ومن خلال هذا المنظور ، تصبح القاهرة هى موسكو ، وتصبح القومية العربية أيديولوجية إقليمية مثل الوحدة السلافية أو البولشفية ، ويصبح الخط الفاصل الرئيسى فى المجتمع هو ذلك الذى يفصل ما بين الريف والحضر . وعلى الرغم من أن ثمة درجة من الصواب فى هذا النموذج ، إذا أخذنا فى الاعتبار التاريخ الاجتماعى والسلطانى (الديمغرافى) ، إلا أننا نجد أن القاهرة أقرب إلى أن تكون روما منها إلى أن تكون موسكو . وأنه ليس ثمة نظير فى مصر للنخبة الحاكمة (النومنكلاتورا) فى روسيا ، فالنخبة الدينية فى أواخر القرن التاسع عشر لم تعد تتحدث التركية ولم تعد تعيش بمعزل عن الآخرين ، يفصلها عنهم تكوينها العقلى الخاص القائم على الثقافة الرفيعة أو الرؤية المنفتحة على العالم . بل كانت القاهرة – وهى المثال الرئيسى للمدن المصرية – مزيجا من أهل الشمال والجنوب ، وكانت مثلها مثل روما أو نيودلهى أو مدينة المكسيك (مكسيكوسيتى) ، آخذة فى اكتساب طابع ريفى بل ربما بدرجة أكبر . وفضلا عن ذلك ، فثمة بنية ثقافية تجعل بعض أجزاء القاهرة و«الدلتا» تكوّن معًا «شمالاً» ، أو «بيدمونت» ، يعتبر بمثابة مركز تاريخ مصر الحديث ؛ و«جنوبا» يتكون من باقى أجزاء القاهرة ومصر العليا (الصعيد) ، ويعتبر بمثابة أرض الفولكلور والنخبة الثقافية ، ويصبح «العقاد» هنا النظير المصرى «لكروتشه» .

ومثال المكسيك الذى تناوله هذا الكتاب يثير الاهتمام بشكل خاص نظراً لوجود منطقة وسطى فى مصر تشمل الفيوم وبنى سويف والتى ليست شمالاً ولا جنوباً . فهناك منطقة مماثلة فى المكسيك هى «موريلوس» ، وهى موطن الزعيم الفلاحى العظيم «زاباتا» ، كذلك يبدو مثال «الهند» وثيق الصلة بدراسة مصر المعاصرة ، حيث توجد «مسألة جنوبية» بتعبير جرامشى ، وحيث ترتبط أيضا بالصراع الطائفى الذى أعتقد أنه نتاج الاستعمار البريطانى . وهناك أيضا فى الهند المعاصرة حركة هندوسية جديدة تتخذ «الجنوب» معقلا لها مثلما يفعل التيار الإسلامى فى مصر .

وبالنسبة لدراسة «سوريا» تبدو فكرة «الطريق الإيطالى» كشكل للهيمنة تبدو صالحة لتفسير كيف أن مواطنى «حمص» و«حماه» كانوا بلا حول أو قوة أمام

السياسات المتغيرة فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات . والذين قتلوا منهم كانوا يظنون أنهم يتمتعون بالحماية التى يوفرها لهم كونهم مواطنين فى مجتمع مدنى «شمالى» ، ولم يدركوا أنهم قد أصبحوا فى واقع الأمر بعد عام ١٩٧٠ ، بمثابة فلاحين يمكن الاستغناء عنهم .

ويعالج النصف الثانى من الكتاب شكلين من أشكال الهيمنة تتضمن معالجتهما أكبر قدر من النظرة التعديلية . أولهما : هو «الدول الإثنية - القبلية» التى تتخفى فيها العلاقات الطبقية وراء العلاقات القائمة على روابط الدم أو بتعبير أكثر عمومية على النوع الجنسى . وثانيهما : هو «دول الديمقراطيات» التى تتخفى فيها العلاقات الطبقية وراء النزعة العرقية . وبهذين الموضوعين يصل الكتاب إلى ذروة مهمته التنظيرية ؛ حيث يندهش القارئ الذى نشأ فى إطار الدراسات التقليدية حين يجد أن ما يعتبر حديثا وما يقيد متخلفا قد أصبح متساويا مع باقى الدول .

وقد وقع الاختيار على دولتين ممثلتين للطريق الإثنى - القبلى إحداهما من أوربا هى ألبانيا ، والأخرى من إفريقيا هى الكونغو البلچيكى - زائير ، والفصلان الخاصان بهما يدللان على التشابه الداخلى بينهما ، واختيار ألبانيا يواجه كتابة التاريخ ذات الأسلوب القديم بحقيقة أن ثمة دولاً كثيرة داخل أوربا تتكون من تجميعات اثنية - قبلية ، وأن أوربا ليست مجرد ديمقراطية ، كما هو الاعتقاد الشائع ، كذلك تؤكد ألبانيا أن أوربا متدينة ، وأن الإسلام هو أحد الأديان الأوربية ، وأخيرا ، يدلل اختيار ألبانيا على أن التاريخ الألبانى يُفهم بصورة أفضل كثيرا ، ليس من خلال الأيديولوجيا الشيوعية بل من خلال منطق الدول الإثنية - القبلية . وهذه النقطة الأخيرة تمثل نقطة انطلاق لمقارنة ألبانيا ليس فقط بالكونغو ، بل بعديد من دول العالم العربى أيضا ، بما فيها دول الشمال الأفريقى ودول الشرق العربى باستثناء سوريا والعراق .

وثمة نقطة يتم التأكيد عليها فى هذا الجزء من الكتاب وفى الخاتمة هى أن الدول ذات الهيمنات المختلفة تفهم بعضها البعض وفقا للمنطق الخاص بكل منها مما يؤدى إلى كثير من سوء الفهم ، ودللت على أننا لو أخذنا أوربا - وهى القارة المشهورة بكثرة حروبها - فإننا نجد أن جميع دبلوماسييها يعرفون الإنجليزية والفرنسية لكنهم يتحدثون فى اتجاهات متباينة ، ومعنى ذلك أن الواحد منا لا يفهم الآخر بمجرد معرفة لغته بل من خلال فهم شىء من الخبرة التى تشكل «الحس العام» للآخر داخل لغته . وأعتقد أن هذه النقطة يمكن تعميمها والاستفادة منها فى دراسة الشرق الأوسط .

ولنأخذ مثلا الفترة المتسمة بالتشوش والتى جرت فيها محادثات الوحدة بين مصر وليبيا وسوريا والسودان . فقد كانت محاولات التفاهم تجرى على وجه السرعة ثم تنتهى فجأة .

وتتناول الدراسات التاريخية التى تأخذ بالمركزية الأوربية حاليا موضوع المرأة كطريقة للدفاع عن الوضع المتميز للغرب . فإذا كانت الدول الإثنية - القبلية تتخذ النوع الجنسى كقناع ثقافى تتخفى وراءه العلاقات الطبقية ، فمن المؤكد أن النساء فى هذه المجتمعات تعانى من القهر بدرجة أكبر كثيرا مما فى أى مكان آخر . وما إذا كان ذلك صحيحا أم لا يظل سؤالا مطروحا ، لكن أيا كانت الإجابة عليه فما يلفت النظر هو الطريقة التى يستخدم بها موضوع المرأة ؛ إذ يترتب عليه اعتبار الإسلام ومجتمع الشرق الأوسط مصدرا للمشاكل ، وهذا موضوع لا تخلو منه أية دراسة ذات طابع عام ، ولا يتوجه الاهتمام هنا إلى نوع الهيمنة التى تسود فى المجتمعات المعنية . لماذا هذا الفهم الانتقائى ؟ هل يرجع ذلك إلى أن هذه الدول حليفة طيبة للغرب يصبح تشويهها بعض الشىء أمراً مطلوباً ؟

وأخيرا يأتى الجزء الخاص بالديمقراطيات ، والذى يعرض هنا من خلال دراسة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى . وبريطانيا العظمى يتم تصويرها باعتبارها مختلفة تماما عن باقى الدول الأوربية مثلما هى مختلفة تماما عن الولايات المتحدة أيضًا . وهذا الجزء من الكتاب له فوائد جمة بالنسبة لدراسة العالم العربى : فهو أولا ، يقوم بتفكيك مصطلحى : أوربا ، والقوة العظمى . ويحاول أن يجد تفسيرا لنوع التحالف الطبقى الداخلى الذى يمنح بعض الدول الأوربية وليست كلها ، الحيوية التى ميزت فترات بعينها . وثانيا ، يحاول شرح كيف تعيد هذه الأنظمة إنتاج نفسها ، ونوع النظام الثقافى الذى تحتاجه ، ولماذا تصبح نظرية التحديث ضرورة بالنسبة لها ؟ وأخيرا ، يلقى هذا الجزء من الكتاب بعض الضوء على دراسة إسرائيل .

ونحن نعلم أن إسرائيل بعد عام ١٩٦٧ لم تقم بطرد عرب الداخل ، وإنما عملت على احتوائهم داخل الدولة كطائفة عرقية دنيا ، وهم بذلك ، وإن كانوا متمتعين بالحماية القانونية إلا أنهم يواجهون تمييزا ثقافيا وبيروقراطيا ، ونتيجة للركود الاقتصادى الطويل أصبحت الكتلة الجماهيرية أكثر إحباطا وذات نزعة استيطانية أشد . ودراسة الولايات المتحدة وبريطانيا تقدم سياقا نستطيع من خلاله أن نفهم هذه الديناميات وأن نعرف لماذا سلكت إسرائيل على هذا النحو .

والخلاصة ، أن هذا الكتاب يقدم رؤية تعديلية جادة للتاريخ ولمنهجية التاريخ ، تتحول فيها النظرة التقليدية لتاريخ العالم التى لا ترى فيه إلا مجرد ذيل للتاريخ السياسى القومى أو لتاريخ الرأسمالية ؛ إلى نظرة جديدة لتاريخ العالم بوصفه تاريخا اجتماعيا ، تتميز داخله صيغ عديدة ومختلفة للحداثة . وحيث يتم التركيز على فاعلية الأغلبية وتهبط فيه الموضوعات التقليدية مثل منازعات القوى العظمى ، ودور الحروب العالمية والاقتصاد الدولى إلى مستوى الأغلبية . وعلى مستوى الأغلبية ، تعد «الدولة» الحقيقة الثابتة المباشرة ، وماعدا ذلك من أمور يقع فى خلفية الصورة ، وفى سياق التركيز على كيف تحكم الدولة فى الواقع الفعلى ، تعطى الدراسة بكاملها وزنًا كبيراً لدور الإقناع ولدور المثقفين سواء من كان منهم فى خدمة الدولة أو يعارضها ، وهو موضوع مألوف فى الدراسات العربية .

وأخيراً ، يحاول هذا الكتاب أن يواجه مشكلات تعد جديدة بالنسبة لطلاب هذا العصر ، وأن يشير إلى الاتجاه المحتمل للمستقبل ويتوفر الآن فيض من المعلومات الخاصة بدراسة معظم البلدان . فهناك مواد للقراءة أكثر مما نستطيع قراءته . وليس ثمة بديل ، لمواجهة هذا الوضع ، سوى أن نصرف اهتمامنا إلى التدريب النظرى بصورة أفضل . فبغير ذلك لا نستطيع أن نطرح أسئلة مفيدة على المجتمع وأن نجد لها إجابات معقولة . والنظرية تتطلب مفاهيم ، والمفاهيم تتبنى على دراسة مختلف الحالات . وقليلا ما كان المؤرخون فى الماضى ، يشغلون أنفسهم بمثل هذه المسائل ، وإنما كانوا يستعيرون مفاهيم جاهزة من علماء الاجتماع ونقاد الثقافة . لكن المؤرخين يدركون أن ذلك ، لم يكن كافيا فى معظم الأحيان . فليس من اليسير تطويع المفاهيم ، والبديل عن ذلك فيما يبدو ، هو أن نستمد المفاهيم من المادة التى نتعامل معها ، لكن ذلك أيضا ثبت عدم كفاءته لأن الباحث لا يستطيع أن يحتفظ بمسافة بينه وبين موضوع البحث . ولم يعد هناك سوى بديل واحد حقيقى هو أن يشغل المؤرخون بعض الوقت بالتنظير ، وأن يطلعوا على علم الاجتماع التاريخى فى المستوى المتوسط ، الذى يعد هذا الكتاب نموذجا له . تحقيقا لهذا الهدف ألحقت بكل فصل جزءا مطولا خاصا بالحواشى . وحاولت أن أشير فيه إلى نطاق واسع من المصادر المفيدة التى تتناول مختلف أنواع الهيمنات ومختلف الموضوعات التى تتكرر فى أكثر من نوع من الهيمنة . وأتوقع أن يبدأ الطلاب الذين يشرعون فى دراسة موضوع ما هذه الأيام فى تكوين علاقات مع طلاب البلدان الأخرى عن طريق المراسلة ، لكى يطلعوا على ما يجرى حولهم خاصة

أنه لا يوجد تقريبا من يستطيع تحمل نفقات السفر ، أو شراء عدد كبير من الكتب ، أو إجادة كثير من اللغات . والجمعيات التاريخية ، يمكن أن تكون ذات فائدة للجيل الجديد من الطلاب حين تسهل مثل تلك الاتصالات ، وربما أيضا من خلال توفيرها لخدمات البريد الإلكتروني .

بيتر جران

الفصل الأول :

المركزية الأوربية ودراسة تاريخ العالم

هذا الكتاب ثمرة دراسة بحثية تعديلية ، جدالية ، وهو تجربة بحثية تستهدف بصورة إجمالية علم التاريخ والعلوم الاجتماعية . وقد اتخذ صيغة دراسة اجتماعية تاريخية للعالم المعاصر ، أو بتعبير آخر ، اتخذ صيغة دراسة تاريخ العالم وفقا لمنطق التاريخ الاجتماعى ، ويمكن شرح عنوانه على النحو التالى : يركز التاريخ الاجتماعى على دراسة حياة غالبية الناس ، إلا أن الدراسة التقليدية لتاريخ العالم لم يفعل ذلك ، إذ ركزت اهتمامها على دراسة حياة النخب ، خاصة نخب العالم الغربى . وبالنسبة للتاريخ الاجتماعى ، فإذا كانت الغالبية تعيش عموما فيما يسمى بالعالم الثالث ، فمركز تاريخ العالم لا يمكن أن يكون هو الغرب ، بل يجب أن يكون العالم الثالث ، وعلى ذلك ، فموضوع تاريخ العالم ، يجب ، وهذه نقطة جدالية ، أن تتم مراجعته بحيث يتغلب على مركزيته الأوربية ، إلا أن الرؤية التعديلية المطلوبة ليست أمرًا بسيطًا ، ولكنها مصدر الصعوبة الحقيقية . فإذا كانت الغالبية العظمى من سكان العالم الثالث تحيا على زراعة الكفاف فى الريف أو على اقتصاد المقايضة فى الأحياء الفقيرة فى المدن ، وهى أمور واردة ، فكيف يمكن بناء تاريخ للعالم مستمد من خبرتها تلك وهل من المعقول أن نصنف العالم الثالث على أنه يمثل الأطراف بالنسبة للرأسمالية العالمية على الرغم من كونه مركز سكان العالم الذى تقع الرأسمالية على أطرافه ؟ ما العمل إذن ؟

واجهتنى هذه المشاكل عندما كنت أحاول إقناع طلبتى بأن فهمهم للتاريخ الاجتماعى للعالم الثالث سوف يفيدهم كثيرا . وغالبية أولئك الطلاب يدرسون مقررا بعنوان «مدخل إلى تاريخ العالم الثالث» كمتطلب أساسى للدراسة الجامعية . وأستطيع أن أقرر أن معظمهم لا يتوقع أن يجد شيئا ذا أهمية بالنسبة له كغربى فى مثل هذا النوع من الدراسة ، بل إن فكرة التاريخ ذاتها – أى تاريخ – قد تكون موضع نقد لدى الكثير من النابهين منهم . ولا أستطيع أن أخطئ طلبتى فى افتراضهم هذا ، فما يفترضونه ، إنما هو فى نهاية الأمر ، نموذج المعرفة السائد أو الأكثر بروزًا لديهم .

وعلى الرغم من أن هناك تغيرات تجرى على نقيض تلك النظرة للعالم وللتاريخ ، إلا أنها نادراً ما تكون موضع إدراك الطالب العادى . ولمواجهة مشكلة التدريس ضد التيار السائد ، شعرت بالحاجة إلى الإسراع فى عملية تفيد الكيفية التى يفهم بها تاريخ العالم ، وبالذات ، الإسراع فى حل التناقض الكامن فى النموذج السائد حول المركزية الأوربية . ولتحقيق ذلك ، أمسكت بالخيوط الواهنة لمنهجية علم التاريخ

الاجتماعي ، وحاولت أن أنسج منها تفسيرا لتاريخ العالم ، ولما كان ثمة نقص في الإطار المفاهيمي اللازم ، فقد تحولت إلى النماذج المتاحة خارج علم التاريخ التمس منها بعض العون .

والجزء الأول من هذا الفصل ، يبين كيف أن المركزية الأوربية قد أثرت في كل الكتابات التاريخية التي أنجزت في العصر الحديث تقريبا ، خاصة ما اتصل منها بتاريخ العالم ، حتى ظهور التاريخ الاجتماعي على أقل تقدير . والأدلة على ذلك ، كما يقترح هذا الفصل ، يمكن التوصل إليها من خلال النظر في تاريخ كتابة التاريخ ، ومن فلسفة تاريخ العالم ، ومما وجده الحكام من أن الحفاظ على هذا المفهوم باعتباره جزءا من نظرتهم إلى العالم ، إنما يخدم مصالحهم ، وينتهي الجزء الأول إلى أن المركزية الأوربية تنطوي على خطورة متزايدة حتى بالنسبة للنخب ذاتها ، وأن هناك طريقة أخرى للمعالجة أكثر دقة في فهم العالم ، ويلي ذلك تحديد لمعالم هذه الطريقة ، واستنادا إلى أفكار جرامشي ، وفوكو ، فإنني أبين بعد ذلك كيف أن تحدي مفهوم المركزية الأوربية أصبح ممكنا في الوقت الراهن .

والقول بأن المركزية الأوربية هي أساس كتابة تاريخ العالم ، إنما يرتبط بالدرجة الأولى بتاريخ الكتابة التاريخية وبتنظير التاريخ . فالأوربيون ، والألمان على الأخص ، هم الذين أنشأوا مبحث التاريخ الحديث ككل ، وقسمت إلى مباحث فرعية مختلفة ، كان تاريخ العالم واحدا منها . وقد تطورت المعرفة التاريخية بعد ذلك ، غير أن التقسيمات التي وضعها الألمان ظلت كما هي .

وقد كان الفيلسوف الألماني هيجل ، هو المنظر الأكبر في القرن التاسع عشر . ففي دراسة شهيرة عن تاريخ العالم ، افترض هيجل أن الحضارات تعاقبت الواحدة بعد الأخرى منذ القدم ، إلى أن زالت جميعا ولم يبق منها سوى حضارة واحدة ، هي بروسيا . فنمو حضارة بروسيا ، والحضارة الأوربية بالتالي ، يمثل خلاص العالم بأسره . وزعم المؤرخون الذين ادعوا السير على درب هيجل أن أوربا ، كانت ولا تزال ، مركز تاريخ العالم ، وأصبحت المركزية الأوربية ، بالتالي ، هي النموذج البحثي السائد في دراسات تاريخ العالم (1) .

وكان على أوربا أن تحتفظ بدورها القيادي البارز ، لتضفي شرعية على هذه النظرية المليئة بالشعور بالعظمة . إلا أن أوربا ، منذ منعطف هذا القرن ، أخذت تضعف في نواح معينة ، وأخذت تفقد بريقها في المواجهة الاستعمارية . وبعد سنوات

قليلة ، وقعت الحرب العالمية الأولى ، لتمثل لحظة أخرى من لحظات الأفول ، مما دعا عددا من الكتاب الأوربيين المحيطين إلى القول بأن أوربا أقل تحضرا من أن تنقل الحضارة إلى الآخرين .

وهكذا ظل تاريخ العالم ، على الأقل حتى عام ١٩٤٥ ، مبحثا متخصصا فى دراسة «التوسع الأوربى» . فأوربا ، وأمريكا بالتالى ، ظلا يعاملان على أنهما القوى المهيمنة فى العالم ، وبالتالى فقد كان من المنطقى أن يرتكز تاريخ العالم على سرد الأحداث السياسية والدبلوماسية العظمى التى أثرت عليهما . أما بقية أجزاء العالم فقد ظلت مجرد ذيل لأوربا وأمريكا ، ولما بدأ هذا النموذج يهتز فى السنوات التالية ، سعى إلى تدعيم نفسه تبنى مفهوم اقتصادى يقسم العالم إلى مركز وأطراف ، ومفهوم استشراقى يقسم الثقافة إلى ثقافة غربية وثقافة غير - غربية . وأفسح مجالا للدراسات المتعلقة بالمناطق الأخرى بوصفها طريقة لفهم ما ليس «غربى» ، بل استوعبت أيضا الدراسات الباكرة الخاصة بأوضاع المرأة . ثم بدأ مؤخرا يفسح مكانا داخله لكتابات مثقفى السلطة فى العالم الثالث . فماذا بقى إذن ؟

الواقع أنه لولا أن الحكام ، فى الوقت الحالى ، تسببوا ، بأساليب حكمهم الاستبدادية ، فى اغتراب مجتمعاتهم ، لربما ظلت المباحث الأكاديمية بعيدة عن أن تكون موضع نقد ذى بال ، ولربما واصل النموذج السائد فى تلك المباحث سطوته دون تحدٍ ، ولربما ظل مبحث التاريخ الاجتماعى ، كما اعتاد أن يكون - وكما هو عليه فى أماكن كثيرة - جزءًا من الفولكلور .

فاستبدادية الحكام ، كما برزت فى السنوات الأخيرة ، أدخلت الثقافة فى أزمة . فقد شهد علم التاريخ ظهور المؤرخين الاجتماعيين كقوة مؤثرة فى مجال البحث التاريخى ؛ بحيث لا ترضى بالفكر المسيطر على هذا العلم ، والذى كانت أبرز سماته المركزية الأوربية ، ويمكن تحديد تسع خصائص فى المركزية الأوربية ، كانت موضع نقد من جانب المؤرخين الاجتماعيين ، وهو نقد يمتد من المنطق إلى السياسة .

فتاريخ العالم كما يتبدى فى النموذج السائد ، ووفقا للسمات التى حددها نقاده ، يجب أن يكتب من خلال المفاهيم التالية :

(أ) مفهوم مركز القوة الواحد ، الذى يتحدد جغرافيا «بأوربا» ، ولكن أوربا أضعف من أن تحتل هذا المركز .

(ب) «الغرب» وهو مفهوم يتساوى تقريبا مع مفهوم «أوربا» .

(جـ) إن «أوربا» أو «الغرب» تتميز بشدة عن «باقى» العالم ، أى عن العالم الثالث .

(د) إن باقى العالم ، إما أنه غريب أى مختلف أساسا عن الغرب ؛ أو أنه «مماثل» للغرب ، مع مراعاة الفروق الشاسعة فى مستوى النمو بينهما .

(هـ) إن إحدى السمات الرئيسية للعالم الثالث هى ما يمتلكه من «عصور ذهبية» ، وإن بعض هذه العصور كان مصدر إلهام لعدد من حركات «الإحياء» ، التى تبحث الشعوب «التقليدية» من خلالها ، عن هوية جديدة لها داخل العالم الحديث .

(و) إن كل الأحداث المعروفة التى تقع فى العالم الثالث ، أو معظمها على أقل تقدير ، إنما تقع نتيجة لأفعال يقوم بها «الغرب» .

(ز) إن الأحداث أو التغيرات التى تقع إنما تحدث من خلال العلاقات المتبادلة بين النخب ، فالعلاقات ذات الأهمية هى العلاقات الأفقية ذات الطابع الدولى ، وليست هى العلاقات الراسية ذات الطابع المحلى كالعلاقات الطبقية مثلا .

(ح) إن تاريخ العالم ، إما أن يقبل الحاضر قبولا مطلقا أو يرفضه رفضا مطلقا ، وفى كلا الحالين ، فإنه يواجه مشاكل خطيرة فى تعامله مع الوقائع الجارية ، فإذا كان منغمسا فى الحاضر ، فسيكون ملتزما بفكرة التقدم وبخاصة التقدم التكنولوجى ، وإذا كان رافضا للحاضر فسيصبح فائق الرومانسية ، ويصبح عليه أن يستلهم النماذج الثقافية للعصور السحيقة الماضية ، غافلا لإنجازات القرون الحديثة .

(ط) وأخيرا ، فتاريخ العالم كما يبتدى فى النموذج السائد ، دفاع عن الوضع الراهن ولما كان ذلك فى صالح العناصر المهيمنة فقد عملت على إعادة إنتاجه .

أما بالنسبة للمؤرخين الاجتماعيين ، فلا يوجد لديهم ما يسمى بمركز القوة الواحد ، وإذا كان المؤرخون قد وصفوا أوربا بأنها تتكون من «قوى عظمى» و«قادة عظام» فى فترات معينة ، فلم يكن ذلك لأن أوربا كانت فعلا مركز القوة الوحيد وأن الأجزاء الأخرى من العالم كانت بلا قوة ولا قادة ، وإنما لأنها تتميز بنوع معين من

العلاقات الاجتماعية ، فمثلا ، حين ينشأ حلف داخلى قوى بين الجماعات المختلفة المرتبطة بالدولة ويصاحب ذلك ضعف فى التيارات المقاومة للهيمنة ، فإن ذلك يضفى على الدولة المعنية قوة . وتفسير كيفية حدوث هذا الوضع أو دلالته ، نادرا ما يتطلب استخدام الفكرة الشائعة وغير النقدية حول القادة العظام .

فالاختيارات يصنعها الناس جميعا ، وعلى ذلك ، فالتاريخ الاجتماعى حين يتصدى لتفسير ظهور بسمارك أو غيره من الأفراد ، على سبيل المثال ، فإنما يفسر ذلك من خلال نجاحه فى تجسيد التحالفات المختلفة وفى معالجته للشئون السياسية داخل إطار الإرغام الذى خلقته تلك التحالفات وليس من خلال خاصية نوعية ما القادة الأوربيين ، وبتعبير آخر ، فإنه على عكس التفسيرات المتمحورة حول الإرادة الحرة كما نجدها فى النموذج السائد ؛ يقوم التاريخ الاجتماعى بالمزج بين الإرادة الحرة وبين الحتمية .

والواقع أن تاريخ العالم المتعارف عليه يركز الاهتمام على البلدان الغربية ، ونخبها ، وثقافتها الرفيعة ، بحيث لا يسمح بأى تحليل نقدى حتى من جانب الغرب . فتاريخ العالم هنا ، يكتب بنفس الطريقة التى كان يكتب بها التاريخ القومى فى القرن التاسع عشر : مركز واحد هو أوربا ، غرب ، فاعلين محدودين ، ثقافات معينة ، أو منتجات بشرية ، عصور حرب وسلم ، معلومات عن التجارة ، وبتعبير آخر ، يكتب التاريخ على صورة تقويم يسجل الأحداث ولا يغنى بتحليلها إلا قليلا . ويبدو الأمر على هذا المنوال ، سواء نظرنا فى أعمال مثل «صعود الغرب» لوليام مكنيل ؛ أو فى «نظام العالم الحديث» لإيمانويل ڤالير شتاين ؛ أو فى «أوربا والشعوب التى بلا تاريخ» لإريك ڤولف ؛ أو فى «تاريخ مقارن للأفكار» لهاچيمى ناكامورا ؛ وهى أربعة مؤلفات مختلفة جدا كلها ناجحة فى إطار هذا المجال .

وما يريده المؤرخون الاجتماعيون على نقيض ذلك ، فهم يريدون أن يعكس البحث التاريخى الفرضية الأساسية لمجال البحث وهى أن الجماهير هى التى تصنع التاريخ ، وأن غالبية هذه الجماهير فلاحون يعيشون فى العالم الثالث ، وهم يصنعون التاريخ ليس فقط فى لحظات الأحداث العظام ، وإنما يصنعونه أيضا من خلال ممارستهم للحياة اليومية ، كيف يمكن للمسارات اليومية لفلاحى العالم الثالث أن تؤثر على تاريخ الغرب ؟ هذا هو السؤال الذى طرحه علىّ طلبتى ، ومن الواضح أن الدراسات السائدة لتاريخ العالم ليست ملائمة للبحث عن إجابة شافية لهذا السؤال .

فالتركيز على النخب يستتبعه إقصاء الجماهير العملية التاريخية . إذ يمكن مثلا ، ملاحظة أن مؤلفى المراجع التقليدية لا يستطيعون إشراك عدد كبير من الناس فى لعب دور تاريخى إلا عرضا ، مثلما يحدث فى أوقات الحروب ، كما أنهم لا يفسحون مكانا لتعقيدات العلاقات الاجتماعية بين الناس الذين يتناولونهم بالبحث ، خاصة إذا كانوا فقراء .

فعلى سبيل المثال ، نجد أن تناول الأنظمة العالمية بالدراسة لا يسمح بدراسة الشعوب الواقعة تحت تأثير اقتصاد السوق ، ولكنه يخفق عامة فى تفسير أمور كثيرة تهم المشتغلين بالتاريخ ، مثل الحركات الدينية والثقافية والسياسية التى تقع داخل نطاق السوق ، وثانيا : فإن غالبية شعوب العالم ليست جزءًا من الشعوب التى تدخل فى نطاق دراسة الأنظمة العالمية . ويبدو من غير المنطقى أن نتصور أن أولئك المبعدين عن نطاق البحث إنما يعملون من أجل الرأسمالية ، ويخدمون الرأسمالية كما يدعى بعض الكتاب . وعلى أية حال ، فإن تلك الشعوب أى الأغلبية ، صاحبة دور تاريخى هام ، على عكس ما افترض ماركس وكل الكتاب الآخرين تقريبا . ولنضع فى اعتبارنا أن الطبقات الغنية فى كثير من البلدان تخشى تلك الشعوب ربما أكثر من خشيتها من الاتحادات النقابية وغيرها من المنظمات التى تم احتواؤها شكليا داخل العالم الرأسمالى . وهذا يعنى أن أولئك «المهمشين» يمتلكون أسباب القوة ، سواء تمثلت تلك القوة فى الثورة الإيرانية ، أو فى حركة الهجرة «غير الشرعية» أو فى ما عدا ذلك .

وكما يتضح من النقطة «ب» ، فقد جنح النموذج السائد إلى العنصرية ، وهى سمة تدعو للريبة حينما ترد فى الفكر التاريخى ، على الأقل فى نظر المؤرخين الاجتماعيين ، فإذا كان مركز القوة فى العالم هو الغرب ، كما تذهب المركزية الأوربية ، فماذا يحدث حينما يجد الغرب نفسه فى حاجة إلى اليابان لكى يبدو قويًا ؟ عند هذه النقطة تتآزر العنصرية مع العلم لتجعل اليابان فى أحسن الأحوال جزءًا «مغربًا» من آسيا ، وإذا كانت هذه الصياغة غير كافية نظريا فهى أيضا غير كافية عمليًا . فأوربا كانت دائما متنوعة ، تشابهت بعض أجزائها مع العالم الثالث ، ويسرى ذلك على بعض جهات أمريكا واليابان . وكثير من المؤرخين المعاصرين حينما يواجهون بتلك الاعتبارات يلجأون إلى المراوغة ، فهم يريدون مركزا ، ويفضلون أن يكون هذا المركز هو أوربا ، ولكى يحققوا ذلك ، يتخلون عن النظر إلى أوربا من حيث طابعها الحداثى ، ويلجأون إلى فكرة أن الغرب إنما يستمد مكانته من التراث الغربى . والتراث الغربى

يشهد بأن أوربا كانت مستودع الحضارة العالمية ، أما التفاصيل التى أتت بها القرون الحديثة فلا تهم .

فإذا انتقلنا إلى النقطة التالية ، لنا أن نتساءل : هل أوربا وغير أوربا من بلاد العالم تقف على طرفى نقيض ؟ إن هذه الفكرة جزء من التصور الاستعمارى ، أو هى جزء من كتابة التاريخ باعتباره رواية تروى ؟ يميل المؤرخون الاجتماعيون إلى الرأى الأخير ، متوافقين فى ذلك مع النقد الأدبى الجديد ، الذى استلهمه فوكو ، حينما ربط بين النهج الروائى والسلطة . الواقع أن البحث الأدبى يبين حاليا أن أحد الاستخدامات الهامة للرواية هو استخدامها كأداة تمكن الكاتب الأوربى من أن يؤكد من خلالها هيمنته على من ليس أوربيًا .

إن ما يصدق على الأدب يصدق بكل تأكيد على التاريخ . فالصدارة فى كتاب التاريخ ، مثلما فى الرواية ، تكون حيث تكون القوة أى حيث يكون الأوربيون ؛ أما الخلفية فتكون لمن لا قوة له أى للعالم الثالث . لكن الواحد منهما يعتمد على وجود الآخر . لذلك حتى تظل فكرة «أوربا» حية فإنها توجد لنفسها «ما ليس أوربيا» أى ما يشكل خلفية جمعية لها . ويصبح عليها أن تحطم أى مفهوم بديل للتاريخ ، بمقدوره أن يتحدى ثنائية «أوربا / غير أوربا» . لأن «أوربا» فى هذا النموذج تظل قائمة فقط لأنها مختلفة عن «غير أوربا» ، وما ليس أوربيا يجب أن يظل على طرف نقيض أى أن يظل غير متخلفا أو يظل غريبا أو بدائيًا . لذلك يلجأ بعض المؤرخين إلى إضفاء طابع غريب على ما ليس أوربيا ، فينشئون «تاريخا - عرقيا» و«معاهد استشراق» ، أو يجالسون العالم بأسره ، بما فيه ما ليس أوربيًا ، فينشئون عالما من الكائنات البشرية المتغايرة فيما بينها تشكل جميعا أجزاء معتمدة على بعضها البعض ، تنتمى إلى «القرية الكونية» وفقا لمستوى نمو كل منها ، على أن تظل أوربا هى الجزء الفائق النمو فى نموذج دراسات التنمية .

كيف يشارك الباحثون غير الأوربيين فى نموذج الفهم التاريخى السائد ؟ يرفض هؤلاء الباحثون دعوى الانغماس فى الحاضر كما يرفضون فكرة الحداثة ، ويميلون إلى التحول من الموقف الوضعى إلى الموقف الرومانسى . فسيحضرون ، كمحاولة تعويضية ، صوراً عن «عصور ذهبية» لا تمنعهم فيما يبدو من دعم النموذج الذى يهمش ثقافاتهم طالما أنه يمنحهم كأفراد دورا معينا كنقطة التقاء .

فالمركزية الأوربية ، تجد فى العالم الثالث كما فى الغرب ، مدافعين عنها من اليسار واليمين علي السواء . ذلك أننا لو قبلنا الفرضية القائلة بأن كل ما هو مهم يتحكم فيه «الغرب» وأن السياق المحلى لا يهم ؛ لأصبح قادة العالم الثالث غير مسئولين عما يقع فى بلدانهم من مساوئ . وقد استخدم المؤرخون الماركسيون فى العالم الثالث – يشاركهم فى ذلك المؤرخون الأوربيون المتعاطفون معهم – هذه الفكرة استخداما واسع المدى ، بأن جعلوا الاستعمار الغربى هو السبب فى مشكلات بلادهم .

وأخيرا ، هناك المشكلة التى لابد أن يواجهها الباحث فى التاريخ ، وهى مشكلة العلاقة بين الماضى والحاضر فالذين يعملون داخل النموذج السائد هم إما منغمسون بالكامل فى الحاضر ، أو رومانسيون (ماضويون) بالكامل ، وهى مواقف يتضح عند النظرة الدقيقة أنها لا تزيد عن أن تكون لغوا فارغا ، كما أنها فى كل الأحوال لا تستطيع استيعاب معطيات التاريخ الاجتماعى إلافيماندر .

فالذين يتبنون موقف الانغماس الكامل فى الحاضر ، مثلا ، غالبا ما يساوون الحاضر بالتغير والتقدم ، بأن يذكروا الإنجازات التى تحققت فى العلم ، أو فى صنع السلاح ، أو فى مستوى المعيشة أو فى تفوق معارف اليوم عن الأمس . وأيا كانت ملاءمة كلمة «التقدم» وأيا كان مدى ما فيها من طابع عرضى أو ذاتى ؛ فإن الكاتب الذى يستخدم النموذج السائد يستطيع أن يختار شيئا ما أكثر جدة ويفسره على نحو يبرر ابتعاده بنفسه عن الماضى ، وكما يبين هذا الكتاب ، فإن جدوى هذه الطريقة موضع تساؤل ، فقد فاقت الاستمرارية التغير طوال القرن الأخير . فالأنماط السياسية والاقتصادية والثقافية الرئيسية فى القرن الماضى مازال معظمها مستمرا حتى اليوم ، بحيث يظل السؤال مطروحا عن أى لحظات هذا القرن كان فيها المجتمع البشرى أكثر تقدما .

تبقى ملاحظة أخيرة . فعلى الرغم من أن مفهوم المركزية الأوربية قد بنى مصالح القوى المسيطرة ، إلا أنه كمذهب أو كموقف علمى ينطوى على خطورة متزايدة حتى بالنسبة للنخبة المسيطرة ذاتها ، فاعتقاد الأوربيين ، مثلا ، أنهم لكونهم أوربيين ، فإن ذلك يحميهم من بعضهم البعض على أساس أنهم يملكون أشياء كثيرة مشتركة ؛ إنما يمنحهم فى الواقع شعوراً زائفا بالأمان . فقد نشبت بينهم الحروب عدة مرات فى هذا القرن وحده . وفى عام ١٩٩٢ ، نشبت حرب أخرى ، وكانت هذه المرة فى يوغوسلافيا ، ومثل الحروب الماضية ، تهدد أوربا كلها إن لم تهدد العالم بأسره .

والخطر قائم أيضا فى أفريقيا وفى أمريكا اللاتينية وفى العالم العربى ، حيث يعتقد السياسيون الذين يفكرون وفقا للنموذج السائد أن لديهم مبررا للثقة فى علاقتهم بشعوب لديها نفس الخلفية الثقافية بينما الواقع ينفى ذلك . وقد نشأت فى هذه المناطق أيضا حروب لا مبرر لها ، وأعتقد أن هذه المخاطر هى كعب أخيل للنموذج السائد . إذ باستطاعة أنظمة القوة بل باستطاعة مجتمعات بأسرها أن تواصل تبنى أفكار عن العالم يدرك عدم فعاليتها ، طالما أنها لا تكلفها شيئا . لكن مع تناقص الموارد فى العالم يتغير الوضع ، وتصبح الحروب غير المجدية ترفا زائداً .

فإذا كان من المرجح أن النموذج المسيطر سوف يتوارى عاجلا أم آجلا سواء أكان لأسباب فكرية أم لأسباب عملية بحتة ، فلماذا لا نتوقع هذا التحول فى النموذج ، ونخطط لجعله عقلانيا قدر الإمكان . فنقبل من النموذج المسيطر أن أساس تاريخ العالم المعاصر هو التاريخ القومى وإن كان ليس ببساطة تاريخ البلدان الأوربية . ونقبل من التاريخ الاجتماعى أن التاريخ القومى ، سواء أكان تاريخ أوربا أم سواها ، إنما يحتاج إلى تطوير . فهو يحتاج أن يكون أكثر تنوعا لما نعتبره حديثاً .

فحينما نضع تلك البديهيات فى الاعتبار ، أجد أن بإمكاننا أن نبدأ بملاحظة عامة حول ما يفعله حكام الدول القومية الحديثة ؛ فهم يقومون بتمويه الصراع الطبقى . والبعض منهم يفعل ذلك بأن يجعل ثقافة معينة فى مواجهة ثقافة أخرى ، والبعض الآخر يضع عنصراً عرقيا معينا فى مواجهة عنصر عرقى آخر ، أو يضع نوعا جنسيا أو طائفة اجتماعية فى مواجهة نوع أو طائفة أخرى . وبينما كل هذه الأنواع من الاستراتيجيات يمكن أن توجد فى جميع البلدان ، فبإمكاننا تحديد نوع الهيمنة وتحديد منطلقها من خلال أى من أنواع الاستراتيجيات هذه جعل لها الحكام الأولوية على الأنواع الأخرى .

فالحكم الفعال هو الذى يقسم الكتلة الجماهيرية فى بلد ما ضد نفسها ، عن طريق التلاعب بالعواطف الغريزية لدى الجماهير ، وخلال هذه العملية يخفى على الجماهير ما هو مشترك بينها جميعا وهو الاضطراد الواقع عليهم من قبل القوى الطبقية .

لكن كيف يمكن لشىء شديد الوضوح مثل الاضطراد الطبقى أن يظل خافيا طوال الوقت ؟ هل لأن كثيرا من الجماهير تظل مهمشة خارج النظام الطبقى بحيث لا

تستطيع أن تراه ؟ رغم أن هذه النقطة لا يمكن استبعادها ، إلا أن الملاحظة الدقيقة للدول الحديثة تبين لنا أنها تحتل موقعا قويا جداً في ميزان القوى مع جماهيرها ، وأن فرق القوة هذا في حد ذاته وفي تحققاته يوقف التفكير لدى غالبية المواطنين . وتبعا لذلك ، تميل غالبية المواطنين إلى تصديق ما تقوله لهم حكوماتهم أو على الأقل تميل إلى التفكير داخل نطاق القيم المحددة مثل : العنصر ، أو الطائفة ، أو النوع الجنسي ، وما إلى ذلك ، أو هي بتعبير جرامشي تكتلت Massified . فليس سرا أن كل الدول توظف قدراً كبيرا من الوقت ومن الجهد ومن الموارد ، لكي تقنع رعاياها بأن يقبلوا المنطق الذي تقوم على أساسه وأن يجدوا حلولاً للمشكلات من خلال لغة ذلك المنطق . وبتعبير آخر ، فالحكم يتضمن – أكثر كثيرا مما يسمح به المؤرخون التقليديون – ليس فقط استعمال أدوات مثل البوليس والجيش أو وسائل الإكراه غير الحاذقة للنظام الاقتصادي والإداري ؛ بل يتضمن أيضا وسائل للإقناع ، سواء أكان نظام الحكم «ديكتاتوريا» أم «ديمقراطيا» .

خذ مثلا ، اهتمام الدولة بالطريقة التي تنشيء بها الأسرة أطفالها ، والطريقة التي ينظم بها التعليم ، وإطاره التي تقدمها أجهزة الإعلام ، وما يلقنه النظام الديني للأفراد ، وما يستهلكه الناس أو لا يستهلكونه ، واللغة التي يتحدث بها الناس وكيف يتحدثون بها ، وكيف يقضون أوقات فراغهم ، وما إلى ذلك . فالهيمنة تصبح فعالة حينما يكون لدى معظم أفراد المجتمع مصلحة ما في استمرار جزء على الأقل من نظام الأفكار السائد ، وهي مصلحة نستطيع أن نتصور أنها تعتمد على التركيبات التي صاغها الحكام .

فهل هذه الهيمنات بما لديها من كل هذه الاستراتيجيات ونظام العالم بالتالي ، تعتبر ناجحة ؟ هل تمتلك ما يسميه العلم السياسي بالشرعية ؟ هنا تتنوع الإجابات كثيرا سواء بين الدول التي تعتمد على نفس نمط استراتيجية الهيمنة ، أو بين المراحل التاريخية المختلفة لدولة بعينها . وتتنوع أيضا وفقا للكيفية التي يختارها المؤرخ ليربط بين ما يسمى بالتكتكية وبين الشرعية ، أو وفقا للكيفية التي يحل بها المؤرخ مسألة احتواء أو إقصاء الجماهير المهمشة في بحثه . ومن الجلي – على أية حال – أننا لو أمعنا النظر في الأدبيات الثانوية النمطية المتصلة بالتاريخ الاجتماعي لأي بلد من البلاد ، سنجد أن الجماهير تقاوم السلطة المفروضة عليها . وعلى ذلك ، لا يوجد أي شكل من أشكال الهيمنة يحظى بالشرعية .

على أن الحكام ، خلال الفترة التى يدرسها هذا الكتاب ، لا يزالون فيما يبدو أقرب إلى النجاح منهم إلى الفشل . ذلك أنه لم يكن ميسرا لحركات المعارضة أن تنظم نفسها لمواجهة تكتل الهيمنة أو حتى لأن تتحرر من القوى الاستعمارية . فالثورات ، التى حدثت ، كانت ثورات غير كاملة ، لأنها فى الغالب كانت تغير الأيديولوجية أكثر من تغييرها لتحالفات الهيمنة .

ويبدأ هذا الكتاب بدراسة روسيا ، وهى بلد يعتبره الكتاب المنتمون إلى النموذج السائد جزءاً من أوربا لكن بصورة جزئية فقط . فروسيا ، بالنسبة لهم تنطوى على تناقض ذاتى : فهى متقدمة تكنولوجيا لكنها ليست ديمقراطية ، وإنما هى مجتمع يقوم على حكم طائفة شبه مغلقة على المجتمع المدنى المفتوح للجماهير . ولكى يجد هذا البلد مكانا له داخل النموذج السائد ، يجب أن يكون آسيويا بصورة جزئية مثل اليابان أو الصين . فهذا التصور هو الذى يفسر كون أن جزءاً منه غير ديمقراطى . ففهم روسيا على أنها بلد آسيوى جزئيا يتيح لمن يفكر داخل النموذج السائد أن يظل محتفظا بفكرة أوربا الجغرافية دون أن يكون عليه أن يفهم روسيا وفقا لخصائصها الذاتية . وعلى العكس من ذلك ، يصر هذا الكتاب على أن روسيا كانت دائما مفهومة لمواطنيها وفقا لخصائصها الذاتية ، ويجب أن تكون كذلك أيضا بالنسبة للمؤرخين ، فليس ثمة ما يدعو لتهميشها ، وللإصرار على أن تاريخها ينطوى على تناقض ذاتى ، أو على أنها بلد يصعب فهمه ، أو أن الروس فصاميون . فيجب أن يكون لتاريخها منطقا عاما ، والفصل الثانى يفصل هذا المنطق . والفرضيات التى يتبناها هذا الكتاب هى ، أولاً : أن التاريخ الروسى والسوفيتى هو حالة خاصة من شكل أعم من أشكال الهيمنة ، نطلق عليه هنا : «الطريق الروسى» . وثانيًا : فبالنسبة للحالة الخاصة بروسيا/ الاتحاد السوفيتى ، فقد نجحت الدولة ، منذ ستالين ، فى رشوة الطبقة العاملة لجيل أو جيلين ، محققة بذلك نتائج على المستوى العالمى ؛ حيث أصبح الاتحاد السوفيتى «قوة عظمى» . ومنذ عهد ستالين أيضا ، يمكن رصد بدايات اتساع الطائفة الحاكمة ، وهى الطائفة أو الشريحة الطبقية التى تسمى فى الاتحاد السوفيتى بـ «الطبقة الجديدة» . هذا التوسع أدى فى نهاية الأمر إلى إمكان انهيار الاتحاد السوفيتى ، حين أخذت «الطبقة الجديدة» تضم أعدادا أكبر فأكبر من غير العنصر الروسى .

فإذا أخذنا فى الاعتبار هاتين الفرضيتين معا ، توصلنا إلى فرضية ثالثة هى : أن التاريخ الروسى فى بدايات القرن العشرين يمنحنا سابقة تاريخية وسندا عقليا يمكننا من تفسير لماذا يبدو أن ذوى الأصل العرقى الروسى يقبلون اليوم أن يصبحوا شبه مستعمرة للولايات المتحدة ولأوربا الغربية . ألا يتطلع هؤلاء الروس ، الذين بدأوا يفقدون مؤخرا دعم الطبقة العاملة للنظام ، إلى انتهاز هذه الفرصة لكى يستعيدوا سلطتهم الطائفية التى فقدوها خلال جيل من الليبرالية ، التى سمحت بدخول عناصر غير روسية إلى الطبقة ؟ يبدو أن الأمر كذلك .

ويتناول الفصل الثالث العراق ، فيقدم مثالا آخر لدولة تنتمى للطريق الروسى ،

لم تتم رشوة الطبقة العاملة إلا مؤخرا ، حيث إن اتساع الطائفة الحاكمة لم يحدث إلا فى الستينيات ، وبصعوبة فائقة ، وكانت النتيجة هى النزوع الأخير المفاجئ لهذه الطائفة للتحول إلى صيغة القوى العظمى متمثلاً فى غزو الكويت .

وعلى الرغم من أن اختيار العراق لم يكن مخططا له أن يسير على هذا النحو ، إلا أنه كان له ما يبرره ، على الأقل فى توقعه أن كثيرا من دول العالم سوف تشارك فى الحرب وتقتل عددا كبيرا من العراقيين . وهذه الدول تجد تبريرا لسلوكها فيما يتبناه النموذج المسيطر والمقبول دوليا ، من أن القتل عمل مشروع ، وأن العراقيين لا يقيمون وزنا لحياة الأفراد لأنهم متوحشون ، وبالتالى فليس على العالم أن يقيم أى وزن لحياتهم ، وحتى أوائل ١٩٩٤ ، كانت لا تزال هذه الفكرة سائدة .

وحرب الخليج ، هى بطبيعة الحال ، حدث صغير فى التاريخ العراقى ، ويجب أن ينظر إليها على أنها نقطة عابرة فى هذه المناقشة . أما النقطة الأكثر أهمية فهى أن النموذج المسيطر ، لم يستطع أبدا على مر السنين ، أن يفسر بوضوح أى شىء مما يجرى فى هذا البلد ، فالتحولات والانعطافات فى التاريخ السياسى للعراق ظلت دائما موضع دهشة ، وظلت لغزا بالنسبة للمؤرخين التقليديين ، وعوضا عن النموذج المسيطر فإننى أقدم هنا معالجة مراجعة للتاريخ العراقى ، تعتمد على منطق الدينامية الداخلية للعلاقة بين الحكام والمحكومين ، فالانعطافات السياسية التى ظلت تحير المؤرخين داخل النموذج السائد ، تبدو ، كما يبين الفصل الثالث ، أمثلة مباشرة تماما للتأرجحات بين الأوتوقراطية والليبرالية التى نجدها فى أى بلد يسير وفقا للطريق الروسى . فالتركيز المبالغ فيه على بغداد ، كما على موسكو ، أدى إلى انحراف تفسير الهيمنة ، جاعلا إياها أكثر عنفا وأكثر علمانية وأقل منطقية مما هى عليه فى الحقيقة .

واختيار إيطاليا فى الفصل الرابع ، يواصل أداء المهمة التى بدأت فى الفصل الثانى ، وهى تحدى فعالية فكرة «أوربا» . ذلك أن اختيار إيطاليا يكشف ملمحا آخر من ملامح الممارسة التاريخية السائدة . إذ بينما يقبل الكتاب وفقا للنموذج المسيطر فكرة أن إيطاليا هى جزء من أوربا ، أى أنها ليست جزءا من أى شىء آخر مثلما كانت روسيا ، إلا أنها تظل مع ذلك ناقصة الأوربية . إذ المفروض أن أوربا برجوازية ديمقراطية متجانسة . ولما كانت إيطاليا ليست كذلك ، فقد لجأ النموذج المسيطر إلى خلق فكرة التدرج فى الأوربية . فهناك من هم أكثر أوربية مثل إيطاليو الشمال ، وهناك من هم أقل أوربية مثل إيطاليو الجنوب . والنموذج المسيطر حينما يفعل ذلك إنما يموه استغلال الشمال للجنوب ، ويقدم إيطاليا على أنها خليط من خصائص متداخلة ، على أنها بلد بلا بنية وبلا منطق . والنتيجة الهامة التى يصل إليها هى إخراج الجنوب من سياق الفهم ، وبالتالى تسهيل عملية استغلاله .

ونحن ندرس إيطاليا هنا ، مثلما درسنا روسيا والعراق ، من خلال ديناميات‌ها الداخلية . فالجزء الخاص بالاقتصاد السياسى يعيد تقديم وينبنى على رؤى جرامشى حول المسألة الجنوبية وحول الفاشية ، ويرى أن خصوصية هذا البلد يمكن تحديدها فقط من خلال مقارنتها بالبلدان الأخرى التى تنتمى إلى ما نسميه فى هذه الدراسة بالطريق الإيطالى لنمط الهيمنة . وعلى ذلك فمن الصعب فهم إيطاليا من خلال مقارنتها بديمقراطيات الشمال الأوربى كما يحدث غالبا .

وعلى العكس من ذلك ، يمكن فهم إيطاليا إلى حد كبير بمقارنتها بالهند ، وقد كان ذلك أحد الأسباب التى دعت إلى اختيار الهند لدراستها فى هذا الكتاب ، فثمة تشابهات بين كلا البلدين حتى على مستوى الخطاب السياسى ، فالسياسيون فى كلا البلدين يستخدمون كلمة «الديمقراطية» لتأكيد الرابطة الآرية التى تربط بلادهم بالشمال الأوربى منذ فجر التاريخ ، وهى رابطة يفترض أنها تثبت أن «شمالهم» أو «مناطقهم المتقدمة» تشترك مع هذه الديمقراطيات «الأخرى» حتى فى الأصل العرقى . وفى كلا البلدين ، نجد أن الشمال - كما لاحظنا سابقا - يستغل الجنوب ، الذى يرد على ذلك بمقاومة هذا الاستغلال ، وفى حالة إيطاليا ، فالجنوبيون يخوضون هذا النضال بمفردهم ، فاليسار الإيطالى - باستثناء جرامشى - يتجاهل نضالهم ، أما فى حالة الهند ، فإننا نجد أن نضال الجنوبيين ونضال اليسار يتداخلان ، لذلك نجد أن إيطاليا قد أصبحت دولة رفاهة بالنسبة للشمال ، أما الهند فقد أخذت تدريجيا فى التفكك .

وقد كان من دواعى اختيار الهند أيضا ، على ضوء الفكرة الأشمل فى هذا الكتاب ، حقيقة أنها إحدى بلدان العالم الثالث الموجودة فى آسيا ، فالنموذج السائد يريد أن يجعل تاريخ الهند يتوافق مع ذلك النوع من التاريخ الذى يختص ببلدان العالم الثالث أو بآسيا ، الذى هو شيء مختلف عن التاريخ الأوربى ، ومن هنا نظرتهم للهند على أنها «ديمقراطية أسيوية» ، ومن الصحيح ، طبعا ، أن كثيرا من بلدان العالم الثالث ، مثل الهند والعراق ، تشترك فى أشياء كثيرة ، فهذان البلدان مثلا ، كان كلاهما مستعمرة بريطانية حصلت على استقلالها ثم انضمت إلى حركة عدم الانحياز ، إلا أن كلا منهما اتخذ لنفسه نمطا خاصا للهيمنة ، على نحو ما توضحه الدراسة الخاصة بهما .

واختيار الهند أو العراق هنا ، إنما هو وسيلة لبيان أن مؤرخى النموذج السائد لا يقومون إلا تفسيراً محدودا حينما يصفون بلدا ما فى العالم الثالث أو فى آسيا أو فى الغرب .

ودراسة المكسيك كمثال على الطريق الإيطالى يدعم الفكرة سالفة الذكر ، ويضيف إليها نقاطا أخرى ؛ منها أن بلاد أمريكا اللاتينية لا يمكن وضعها كلها فى سلة واحدة ، أو وضعها داخل مسمى العالم الثالث أو العالم الجديد كما يفعل غالبا مؤرخو النموذج السائد ، وأنه لكى نجعل المكسيك مفهومة ، علينا أن نقارنها بالبلدان المشابهة لها ، وبلدان مثل إيطاليا والهند تصلح لهذا الغرض . فلدينا هنا ، كما يذهب هذا الكتاب ، ثلاثة بلدان ، تتبنى طبقاتها الحاكمة نفس الاستراتيجية السياسية للحكم ، ولدينا هنا ثلاثة بلدان ، تختلف إحداها عن الأخرى ، نتيجة لاختلاف مسار النضالات المضادة للهيمنة ، فاليسار المكسيكى والجماهير المكسيكية الهندية ، تتبنى استراتيجيات وسطاً بين أقرانها فى كل من إيطاليا والهند ، وبذلك تحدد مسار التاريخ المكسيكى .

ويدرس الجزء الثالث من هذا الكتاب ، الدول الإثنية – القبلية ، وهى دول ، يحيلها نموذج تاريخ العالم السائد إلى علم الأنثروبولوچيا والعلم السياسى ، فإذا حظيت إحدى هذه الدول بالدراسة ، كالبلقان مثلا ، فإنما يحدث ذلك بفضل كونها تقع على «هامش» التاريخ الأوربى ، ومع ذلك فهى غالبا ما تحمل عناء أوزار التاريخ الأوربى ، فأحداث البلقان مثلا ، تلقى عليها مسئولية نشوب الحرب العالمية الأولى ، وأحداث الكونغو أو ڤيتنام تلقى عليها مسئولية تصادم القوى العظمى فى تلك المناطق .

والتاريخ الاجتماعى ، كما تبين هذه الدراسة ، يسمح للباحث أن يدمج تاريخ الدول الإثنية – القبلية فى التاريخ الحديث ، أو يدمجها – على نحو أكثر عمومية – بفكرة الحداثة ، دون أن يواجه صعوبات ذات شأن ، ففى الدول الإثنية – القبلية ، تضع العناصر المهيمنة ، بمفردها أو بالتواطؤ مع الأجانب ، استراتيجية للحكم بحيث تخفى الصراع الطبقى وراء الصراع الإثنى – القبلى ، وتخفى الصراع الإثنى – القبلى بدوره وراء التناقض البدائى أى التناقض النوعى (الذكورى / الأنثوى) ، ففى هذه البلدان ، التى بعضها أكثر إثنية ، وبعضها أكثر قبلية ؛ نجد أن بعض الفئات من الذكور (الرجال) الذين ينتمون إلى عناصر إثنية أو قبلية مضطهدة ؛ يقبلون وضعيتهم المتدنية داخل النظام الطبقى لأنهم على الأقل ليسوا فى قاع المجتمع ، مثلما هو حال النساء ، وما توضحه الدراسة هو أن صيغة الهيمنة هذه ، حدثت وتحدث فى بلدان كثيرة سواء فى أوربا أو فى العالم الثالث ، وبالتالى مقدم قدرة النموذج السائد على إدماج هذه البلدان فى تاريخ العالم ، يعتبر نقطة ضعف حقيقية .

واختيار الكونغو البلچيكى/ زائير مثالا للدولة الإثنية – القبلية له عدة مبررات ، فهى أولاً ، بلد إفريقى شبه صحراوى ، وإفريقيا شبه الصحراوية بصفة خاصة لم تنل سوى أقل العناية من النموذج السائد لتاريخ العالم ؛ وهى ثانيا ، بلد كبير ومؤثر . وهى ، أخيرا ، تقدم مثالا نموذجيا لشكل خاص من أشكال الهيمنة المضادة تجده فى كثير من البلدان الإثنية – القبلية فى إفريقيا ، وفى غيرها .

والنموذج السائد يصور الكونغو البلچيكى/ زائير على أنها بلا تاريخ خاص بها ، وبالتالى فالمواقف التى تتخذ منها تتم لحساب البلاد التى لها تاريخ ، فتمنح أهمية خاصة للأوربيين فى الكونغو ، ولأزمة الكونغو عام ١٩٦٠ ، والتفاصيل المتعلقة بتصدير المعادن ، أما ما عدا ذلك فهو غير قابل للفهم . وعلى ذلك ، فالمؤرخ الذى يكتب من خلال النموذج السائد لتاريخ العالم ، يلتمس له العذر حينما يحيد فى تاريخه للكونغو عن الأصول المتعارف عليها فى التأريخ ، ويقدم بدلا من ذلك قناعا احتفاليا مفزعا كأنما يريد أن ينبه القارئ إلى أن الكونغوليين مختلفون عنا ، وبينما يمكن بطبيعة الحال ، اعتبار أن كل البلدان فى الواقع مختلفة عن بعضها البعض ، إلا أننا نلاحظ – بمناسبة هذا الاختلاف المفترض – أن الموسيقى الزائيرية تعتبر من مصادر الإلهام لمن هم مهتمون بالموسيقى الحديثة فى كل أنحاء العالم ، ومثل هذه الميول لإضفاء الغرابة على الآخر ، والمليئة بمثل تلك التناقضات ، توجد أيضا بوفرة فى المعالجات التى تقدمها لأمور

أخرى ، فالتاريخ السياسى الحديث يصور النظام السياسى فى زائير على أنه بغيض ، لكن بدون موبوتو ، القائد ، البغيض لنا ، لن يكون ثمة نظام أصلاً ، كذلك لا يبدو أن ثمة أهمية لما يتوصل إليه الكاشف فى المعالجات التقليدية لتاريخ الاقتصاد الزائيرى ، طالما أنه يتحدث عن الزائيريين وحدهم ، وعلى ذلك فقد توصل البعض إلى أن زائير غنية ، بينما توصل آخرون إلى أنه بلد فقير .

والنتائج التى توصلنا إليها هنا حول تاريخ الكونغو البلچيكى/ زائير تؤكد حقيقة أنه على الرغم من الصورة التى ترسم للنظام هناك ، والتى تجعله قائما على العنف ، فإن لدينا أدلة كثيرة تشير إلى أن الدولة قد نجحت فى تنظيم الثقافة ، وتمتعت بالتالى بقدر كبير من الشرعية ، فلدينا هنا ، طبقة حاكمة تتكون من البلچيكيين والكونغوليين ، الذين يتميزون بأنهم أتوا من أصول اجتماعية ذات طبيعة إثنية - قبلية ، فاكتسبوا بالتالى خبرة بهذا النوع من تنظيم الثقافة ، وتتميز الكونغو فى هذه النقطة عن سواها من البلدان التى كانت تحت الحماية البريطانية أو الإيطالية أو الفرنسية . فقد استطاع الكونغوليون والبلچيك فى الكونغو أن يعملوا معًا على تكييف المسيحية والسياسة العلمانية وفقا لاحتياجاتهم الخاصة ، وأن يؤسسوا خلال هذه العملية طريقة موحدة للتحكم فى الثقافة هى ما نسميه فى هذه الدراسة : (*) المعرفة الروحية Gnosis وهى طريقة قادرة على التعامل مع أشكال المعرفة التى يمكن أن تهدد الهيمنة بأن تنحاز إليها وتتبناها ثم تقدمها على نحو يجعلها بلا تأثير ، ويبدو أن نجاح هذه الطبقة الحاكمة فى تنظيم الهيمنة ، قد فتح شهيتها للمزيد من الثروة وللتمادى فى استغلال الطبقة العاملة إلى درجة يصعب أن نجعلها نظيراً ، وأدى هذا النهم إلى توافر المبررات لحركات الهيمنة - المضادة التى حدثت .

ودراسة ألبانيا كمثال للدولة الإثنية - القبلية يقارن بالكونغو البلچيكى/ زائير ، تكشف عن نمط محتمل آخر للهيمنة - المضادة التى نجدها فى دول هذا الطريق ، فبينما كانت المعارضة فى زائير انفصالية أساسًا ، كانت فى ألبانيا ، على سبيل المقارنة ، أكثر اتساعا ، إذ تكونت فى البداية من القوميين ثم بعد ذلك من الشيوعيين والحركة النقابية ، ويبدو أنه من المنطقى أن نفترض أن هذا الدعم الذى حظى به

(*) Gnosis المعرفة الروحية . معرفة الله التى يوحى بها إلى الصفوة من البشر والتى تقودهم إلى طريق الخلاص . وهى هنا تستخدم على نحو خاص جدًا ، كأسلوب فى احتواء الثقافة التى تهدد الهيمنة وإفراغها من مضمونها ، لذلك فضلت ترجمها إلى «المعرفة الروحية» (المترجم) .

الشيوعيون هو الذى مكنهم من الوصول إلى السلطة ، هذا من ناحية ، لكن يبدو أيضا، من ناحية أخرى ، أن الشيوعيين ما إن وصلوا إلى السلطة حتى ووجهوا بمعارضة قوية ، ذلك أنه حتى الحركة النقابية ، التى هى قوة الدعم الأساسية ، لم تكن لها جذور عميقة داخل المجتمع ذى التكوين الاثنى ، ولم تكن هناك أية وسيلة يستطيع بها الشيوعيون أن يقتلعوا الهوية الاثنية ، وألبانيا ، من حيث البنية العامة للفكرة التى أطرحها ، هى جزء من أوربا ، على الرغم من أن القارئ العادى للتاريخ الأوربى نادراً ما يتنبه إلى هذه الحقيقة ، فكتّاب النموذج السائد وجدوا أن التاريخ الألبانى غريب على الفهم لدرجة جعلتهم يقتطعون جزءاً من التاريخ الأوربى ويطلقون عليه اسم تاريخ البلقان حيث تجد ألبانيا لنفسها مكانا داخله ، ومن المفارقات ، أنه لم تكن ثمة ضرورة لكل ذلك ، فألبانيا شاركت فى الحروب العالمية ، وفى الحرب الباردة ، وفى الأحداث العظام الأخرى التى صنعت التاريخ الأوربى والعالمى الحديث ، وإن ظلت هذه الحقائق مجهولة ، ويدل ذلك على أنه رغم الأهمية التى تعزى لأوربا ، فإن أوربا تظل فى الواقع مصدر عدم ارتياح لكتّاب النموذج السائد .

والجزء الرابع من هذا الكتاب يدرس الديمقراطيات البرجوازية ، والنموذج السائد يقوم أساسا على فكرة أن الديمقراطيات البرجوازية هى النموذج للإنسانية كلها ، وأن كل البلاد الأخرى تتوق إلى أن تصبح ديمقراطية ، وتبين هذه الدراسة أن هذا الادعاء هو أحد نقاط ضعف هذا النموذج وأنه يفتقر إلى الوقائع التى تؤيده ، فهو فى الواقع تحريف للأمور ، وهو يسهم فى اضطهاد الأفراد الذين يعيشون فى ظل تلك الديمقراطيات ، والذين جُعلوا يشعرون بأن العالم يغار مما لديهم وأنه والحالة هذه لا يهم ما يعانون من إحباطات ، بل عليهم أن يضعوها جانبا وأن يشعروا بالامتنان لكونهم حيث هم ، ففى النهاية ، ليس هناك فى أى مكان آخر حكم بالأغلبية مثل الذى لديهم ، على أننى أطرح تعريفا للديمقراطية أقرب إلى الصواب من ذلك الذى يتضمنه النموذج السائد ، وهو التعريف الذى يقوم على فكرة أن الديمقراطية البرجوازية هى نمط للهيمنة يقوم على الحكم عن طريق التفوق العنصرى .

واختيار المملكة المتحدة والولايات المتحدة كمثالين لهذه الديمقراطيات يعكس أهمية هذين البلدين فى الحفاظ على استمرارية النموذج السائد ، فكتّاب النموذج السائد الذين يدرسون هذين البلدين يطرحون ادعاءات تؤثر على تاريخ العالم بأسره ، فهم يدعون أنهم وجدوا فى هذه البلدان موافقة إجماعية ولم يجدوا صراعا ، ويدللون بذلك

على الاختلاف واسع المدى بين الديمقراطيات وبين الهيمنات الأخرى التى من المعروف أنها محملة بالصراع ، وهذا الكتاب لا يؤيد تلك الادعاءات ويعتبرها نوعا من التضليل ، فالصراع فى الواقع متأصل فى كل أنواع الهيمنات .

وتمثل المملكة المتحدة ، فى هذه الدراسة ، نوعا من الديمقراطية يتم فيه رشوة الطبقة العاملة فى المجال العنصرى ثم المجال الاقتصادى وتصبح الدولة فيه قادرة على إقامة «عقد اجتماعى» ، بينما تمثل الولايات المتحدة نوعا من الديمقراطية لم تتم فيها رشوة الطبقة العاملة فى أىٍ من المجالين ، فلجأت الدولة فيه إلى استخدام المزيد من التنظيم والقمع .

فإذا كان النموذج السائد لكتابة تاريخ العالم هو المركزية الأوربية ، أى تاريخ أوربا أساسًا مكتوب بتوسع ، فأوربا يجب أن تكون هى نقطة البداية فى فهم طبيعة هذه الطريقة فى فهم التاريخ ، وعلى ذلك ، أخذنا مثالا واحدا لكل نمط من الأنماط الرئيسية المهيمنة ، من قارة أوربا ، فهل هناك طريقة أفضل من هذه لتوضيح الطبيعة غير تامة التكوين لفكرة «أوربا» ؟ كذلك يركز النموذج السائد على مغايرة العالم الأفريقى – الآسيوى لأوربا ، وعلى مغايرة العالم الجديد للعالم القديم ، فهل هناك طريقة أفضل لتحدى هذه الأفكار من تقديم الأمثلة الأوربية جنبا إلى جنب أمثلة لما يفترض أنه «مغاير» ؟

فما ندعو إليه إنما هو إعادة التفكير فى الاقتصاد السياسى . هو الابتعاد عن النخب والاقتراب من مجتمعات الجماهير ، فباستطاعتنا – وهذا ما يفترضه هذا الكتاب – أن ندرس علاقة الحاكم بالمحكوم فى بلد أو اثنين من البلدان التى تمثل هيمنة معينة ، وبذلك فإننا نلقى الضوء ليس على هذين البلدين فحسب ، بل على كل بلدان العالم التى تنتمى إلى هذا النمط من أنماط الهيمنة ، وباستطاعتنا عندئذ أن نكرر هذه العملية ؛ فندرس أنماط الهيمنة واحدا بعد الآخر حتى نغطى بلدان العالم كله ، وهى طريقة بسيطة وبإمكان أى مؤرخ أن يستخدمها بهدف تفكيك الخريطة التقليدية أو تأسيس خريطة جديدة ، وعلينا ، أولا ، أن ننتقى عدة بلدان داخل منطقة تعتبر وحدة ثقافية واحدة ، مثل أوربا أو أفريقيا ، وهى وحدة تجعلنا نتوقع أن البلدان داخلها ستكون متشابهة فى كثير من الجوانب ، ثم دعنا نحلل علاقة الحاكم بالمحكوم فى هذه البلدان ، وسرعان ما سيتضح لنا – على خلاف الحكمة التقليدية – أن بعض الديناميات الداخلية ، فى أوربا مثلا ، هى أقرب إلى بلدان معينة بعيدة عنها ، فى

أفريقيا مثلا ، منها إلى البلدان المجاورة لها . وفى الوقت نفسه ، سنجد أن علاقة الحاكم بالمحكوم فى بلدان أوربية أخرى أقرب إلى تلك العلاقة فى بلدان إفريقية أخرى ، وهكذا كلما مضينا قدما فى التحليل ، سنجد أن النموذج القديم الذى يضع أوربا فى تضاد مع باقى العالم ، وهو ما نسميه هنا بالمركزية الأوربية ، يخلى المكان لتاريخ للعالم متعدد المراكز بدرجة أكبر ، إذا استعرنا تعبير عالم الاقتصاد السياسى ، سمير أمين .

ولا أستنتج من كل ذلك ، أنه لا وجود لإفريقيا أو لأوربا ، بل إنها ما زالت حتى اليوم كيانات ذات نوعية معقدة للغاية وغير مستقرة ، فبينما يمكن لأوربا أن تكون ذات سوق مشتركة ، فإنها تظل قارة من النادر أن تعرف نفسها أو يعرفها الآخرون ، تظل مثالا للأمن الكاذب ، فأوربا الحقيقية ، التى كان علىّ أن أقوم بتفكيكها لأكتب هذا الكتاب ، لا تتكون فقط من أنماط الهيمنة الأربعة ، بل تتكون من سلسلة كاملة من أنواع النظم . فهى نظم تتراوح ما بين تلك التى تتعاون فيها الجماهير مع الحكام لتصنع قوة عظمى ، وبين تلك التى تقاوم فيها الجماهير سياسات ومبادرات الطبقة الحاكمة على الطريقة الشائعة بين بلدان الأطراف فى السوق العالمى ، والاتحاد السوفيتى هو مثال حديث للانتقال من نظام إلى آخر .

وأخيرا فإن تاريخ العالم كما نراه من خلال منظار التاريخ الاجتماعى ، يمتلك شيئا جديرا بأن نتعلمه لا نجده فى تواريخ العالم الأخرى ، فإذا كان لدينا ، على سبيل المثال ، بلدان يتبعان نمطا معينا من الهيمنة وكان مسار النضال فى كل منهما قد اتخذ طريقا مختلفة ، كما هو المتوقع ، فإن هذه الطريقة فى البحث ستكون هى الوحيدة التى بإمكانها أن تحدد لنا ما هو العام المشترك بين هذين البلدين ، وما هو الخاص المميز لكل منهما ، وبعبارة أخرى ؛ إذا كان التاريخ القومى يسهم فى تكوين تاريخ العالم ، فإن تاريخ العالم بدوره يسهم فى تكوين تفسيرات جديدة للتاريخ القومى .

وآخذا فى الاعتبار هدف هذا الكتاب ونطاقه ، كما ذكرت فى البداية ، فإننى أتوجه به إلى نوعين من القراء : المؤرخين وعلماء الاجتماع ، وأعنى بالمؤرخين : أولئك المتخصصين فى دراسة التواريخ القومية باعتبارها تاريخا للعالم ، وهى بمعناها الدقيق اختصاص فئة ضئيلة نسبيا من الناس ، وآمل أن يجد المؤرخون البعد المقارن الذى يدرس النظائر المهمة بدرجة تغريهم بأن يستخدموا خبرتهم ببلد ما فى دراسة بلدان أخرى ، وفى الوقت نفسه ، أرجو أن ينظر علماء الاجتماع إلى الكتاب على أنه يحتوى على وجهة نظر ، لأنه كذلك فعلا ، لذلك فقد حرصت على جعل الكتاب فى

متناول كلا النوعين من القراء ، وقد عالجت فيه مسائل تقنية ، لكنى أعدت صياغتها بلغة الدراسات المقارنة على نحو يجعلها مفهومة تماماً .

وهذه النقطة ، أيضا ، تتطلب تعليقا ، فلغة الدراسات المقارنة التى تستخدم هنا ، كما فى الكتب الأخرى ؛ مستمدة تاريخيا ، بصورة رئيسية - لحسن الحظ أو لسوءه - من خلال مقولات اللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، وقليل منها مستمد من الألمانية ، ومن المادة اللغوية الرومانية ، كما أن بعض التعبيرات المتخصصة مستمدة من اللغة الروسية ، ومن بعض اللغات الأخرى . فعلى سبيل المثال ، فإننى أفترض هنا أن باستطاعتى تفسير نظم الثقافة فى هيمنة ما من خلال الطريقة أو الدرجة التى تستخدم إحدى وجهات النظر الأربع للعالم ، التى حددتها من خلال لغتها الإنجليزية على النحو التالى : الوضعية Positivism ؛ (*) الرومانسية Romanticism ؛ الماركسية Marxism ؛ (**) الفوضوية Qnarchism ، وأنا أفترض أننى بعد ذلك يجب أن أصبح قادرا على تمييز نوع ما من الليبرالية أو الرومانسية ، الخ ، المميزة لكل من تلك الهيمنات ، على الرغم من أن لغة المصطلح هنا قد تكون أقل قابلية للتحديد . وأخيرا ، فإننى أفترض أن وجهات النظر للعالم تميل إلى أن تكون جزءاً من تكوينات ترابطية Solidarities رأسية ، وهى تختلف فى ذلك عن الأيديولوچيات ، التى تميل أكثر إلى أن تكون جزءاً من تكوينات ترابطية أفقية .

فإذا افترضنا أو اعتبرنا أن اللجوء إلى مفردات مفاهيمية معينة هو نوع من ممارسة الوضعية ، فإن ذلك سيصل بنا إلى حالة من الانغلاق ، من شأنها أن تعوق مشروعا مثل هذا يهدف إلى تجاوز المركزية الأوربية ، لكن الأمر ليس كذلك . فاختيار المصطلح على هذا النحو هو مجرد بداية واشتمال الدراسات فى المستقبل على عدد أكبر من الحالات الممثلة لنمط معين من أنماط الهيمنة يسوغ بل قد يستوجب استخدام مصطلح مختلف ، فربما تستمر اللغة الإنجليزية - كما نعرفها - فى تحمل عبء الدراسات المقارنة ، وهذا واحد من الاحتمالات ، وربما تتوارى بفعل لغة الكومبيوتر ، وبدلا من ذلك ، ربما تصبح اللغة الإنجليزية - كما نعرفها - مستقبلاً أو تكون حاليا ، واقفة تحت تأثير عملية إعادة تشكيل ، فربما يضيف الفلاسفة الصينيون أو اليابانيون ،

(*) الرمانسية تعنى هنا التفكير من خلال مبادئ وغايات متعالية ، والاحتفاء بالشعر والعواطف والخيال .

(**) الفوضوية تعنى هنا التفكير الرافض لأية سلطة تنظيمية . (المترجم) .

إلى اللغة الإنجليزية ، ليس مجرد مفاهيم بل أنظمة فكر ؛ أو ربما يضيف الكتّاب الأفارقة إليها ، لغاتهم ذات الطبيعة الجمالية ، وتصبح هذه اللغات هى أساس التحليل المقارن ، فكل هذه تأملات مقصود بها أن تحفز القارئ ذى الاهتمامات المتخصصة ، والذى يمكن أن يقبل على هذا النوع من العمل النظرى ؛ على أن يظل منفتح الذهن على مسارين لغويين محتملين : أحدهما هو استعمال اللغة الإنجليزية أو الفرنسية الحالية بطرق أكثر تنوعا ؛ والثانى هو الاتجاه نحو «إضفاء طابع عالمى» على الثقافة ، والذى من شأنه أن يجعل الطريقة التى نفكر بها حاليا من خلال الإنجليزية أو الفرنسية ؛ أكثر اتقاناً ، أما الاحتمال الثالث فيما يختص بالتعامل مع المركزية الأوربية ، وهو احتمال أقل أهمية ، فيتمثل فى أننا – ببساطة – سنضيف إلى الوسط اللغوى الحالى ، والمكتظ بما فيه الكفاية ؛ ألفاظا مستعارة لا ضرورة لها .

وتلخيصاً لما سبق ، فإنه يمكن القول بأننا حاولنا فى الجزء الأول من هذا الفصل ، أن نحدد معالم فرضية ما إذا كان بإمكاننا ، فيما لو اتخذنا مختلف أشكال الهيمنة التى تظهر فى العالم الحديث ، نقطة انطلاق لدراسة تاريخ العالم ؛ أن نجعل دارس هذا التاريخ قادرا على تجاوز المركزية الأوربية ، وهل يمكن لتاريخ العالم ، مفهوما على هذا النحو ، أن يصبح لغة عامة ، بحيث يشكل جزءاً من ثقافة العالم لا مجرد أدلة لتقسيمه إلى حكام ومحكومين ؟

وما يلى فى الجزء الثانى من هذا الفصل هو محاولة إثبات معقولية هذه الفرضية من خلال الرؤية الثقافية الأوسع التى صيغت هذه الفرضية وفقا لمفاهيمها .

فنحن ، فى تسعينات هذا القرن ، نقف على الجانب الآخر مما يمكن تسميته بـ «المنعطف الفوكوى» ، أى التحول واسع المدى فى الاهتمامات الذى بدأ فى السبعينيات والثمانينيات ، فقد شهدت هذه السنوات اهتماما كبيرا مجددا بالتفكيك كأداة منهجية ، وبالتالى ، برز تأثير فوكو فى الحياة الفعلية لكثير من البلدان ، والتفكيك ، بطبيعة الحال ، موجود فى كل الثقافات ، وهو سابق على كتابات فوكو ، لكن فكرة اعتبار تلك الفترة بمثابة «منعطف فوكوى» هى فكرة مفيدة ؛ لأنها تتيح لنا إعادة التفكير فى الاهتمام الحالى للدارسين بمشكلات تم تجاهلها طوال هذا القرن ، الأمر الذى أدى إلى سيطرة الدارسين التقليديين على مثل هذا المبحث المسمى بتاريخ العالم ، والآن ، حينما بدأ هذا النوع من كتابة التاريخ يتعرض للتفكيك ، فإن موضوعات مثل المركزية الأوربية ، وجدت سبيلها إلى المناقشة داخل الدوائر الأكاديمية ، ولنضرب بعض الأمثلة :

فقد أشار فوكو ، فى معرض حديثه عن التفكيك ، إلى أن علينا أن نبحث عن المسكوت عنه فى الخطابْ ، وأن نفكر فيما يعنيه ذلك السكوت ، وقد بدأ بعض الكتاب الموهوبين من المتخصصين فيما يسمى «الخطاب ما بعد الاستعمارى» والسائرين على نهج فوكو ، فى مناقشة معنى غياب الهندى أو الشرق أوسطى فى الكتابات الغربية التى يفترض أنها تخاطب هؤلاء ، ومع تزايد انتقادات هؤلاء الكتاب الجدد ، أصبح من الصعب الشك فى أن كتابة تاريخ الدول الغربية القديمة السابقة على التاريخ الاجتماعى ليس بمقدورها أن تناقش موضوع الاختلاف أو رؤية الآخر بدرجة كافية ، بل لا تحاول ذلك فى كثير من الأحيان ومعنى ذلك ببساطة أن هناك مساحات معتمة طويلة المدى .

كذلك فقد أشار فوكو إلى أن علينا ألا نثق بالمنطق الخطى وأن نتبنى بدلا منه المنطق التجاورى ، وقد استند كتّاب الحركة النسائية وطلاب الدراسات الفلاحية إلى ذلك فى تحديهم للتمايزات أو الأسبقيات التى تحفل بها كتابة الرواية التاريخية التقليدية ، فهذه الروايات تدور عموما حول قلة من الشخصيات الغربية الذكرية ؛ وكل ما عداها يقع فى خلفية المشهد ، وكانت هذه الحكايات ، فى نظر نقادها ، تستدعى التساؤل عن هذا النوع من التاريخ : تاريخ من ، ولمن كتب ؛ ولم تلق هذه التساؤلات إجابات كافية فى كتابة التاريخ التقليدية .

بالإضافة إلى ذلك ، يعلمنا فوكو أن نضع موضع التساؤل الفرضية القائلة بأن الدولة تمتلك القوة بينما الجماهير العادية لا تمتلكها ، فهو يصر على أن القوة منبثة فى المجتمع وليست مقصورة على الصفوة كما هو سائد بين المؤرخين وعلماء التاريخ الاجتماعى ، وعلينا ، تبعا لذلك ، أن نضع جانبا نوع التحليل القائم على ثنائية الصفوة – الجماهير وأن نتبنى بدلاً من ذلك منظور التاريخ الاجتماعى . وإذا كانت القوة فى كل مكان ؛ فمعنى ذلك ، أن مبادرات الجماعات الصغيرة وحتى الأفراد ، يمكن أن تحدث تغييرا ، وأن تفعل ذلك من أى مكان داخل النسق ، ونظرية فوكو ، فى مجملها ، لا تتحدى الدعاوى الغربية ضيقة الأفق حول بناء القوة فحسب ، بل تتحدى أيضا انغلاق أو تجمد المباحث القائمة ، بما فيها الأنواع الأدبية .

إلى أين يؤدى ذلك بكتابة التاريخ ؟ المفروض أن ميراث فوكو هو من النوع الذى يجعل المؤرخين يقيمون علاقة الحاكم – المحكوم من حيث هى علاقة ترابط متداخل ، كما يجعلهم يعالجون التراتب الاجتماعى وكيفية تكوينه وتفككه ، وهو كذلك ، من النوع الذى يجعلهم يعيدون النظر فى أهمية تداخلات الأفراد والجماعات الصغيرة فى هذه

العملية ، فهو يطرح السؤال ، دون أن يجيب عليه بالكامل ، حول كيف يمكن للمرء أن يقيم هذه التداخلات ، وأخيرا ، فهو يعطى أهمية لما يسميه المؤرخون بالتاريخ الاجتماعى ، أكبر من تلك التى يعطيها لما يسمونه بالتاريخ السردى (الرواية) .

كيف يمكن أن توظف رؤى فوكو داخل دراسة تاريخ العالم ؟ من الواضح أن هذا سؤال يظل مطروحا ، وربما كان أحد المداخل للإجابة عليه هو إعادة هيكلة الكتابات التقليدية المتمركزة حول الغرب ، فيما يتعلق بالتجارة الدولية ، والسوق العالمى أو العلاقات الدولية ، بحيث تصور نشاطات شعوب العالم الثالث على نحو أكثر دقة ، وهو أمر لا شك أنه قابل للحدوث وسيحدث بالفعل آجلاً أم عاجلاً ، على الرغم من أنه - لأسباب سبق ذكرها - يبدو أمرا ذا طابع طابع نخبوى إلى حد ما .

وإذا كانت القوة منتشرة داخل الجماهير الواسعة لمختلف الدول ، فالطريق الأكثر مباشرة هو أن نجعل الدول ذات الكثافة السكانية العالية - لا التجارة العالمية ولا النظام العالمى - هى حجر الزاوية فى تاريخ العالم ، وأن ننظر لتاريخ العالم باعتباره انعكاسا أو نتاجا ثانويا لتاريخ تلك الدول .

وامتدادا لهذه النقطة ، يبدو من المفيد أن نشير إلى أنطونيو جرامشى . فكتاباته ، من عدة نواحى ، تصور ما جاء فيما بعد لدى فوكو ، فضلا عن أن مكانته تتزايد فى الدوائر المشتغلة بالنظرية ، وقد كان جرامشى ، مثل فوكو ، دارسًا شديد الاهتمام بالدولة الحديثة ، وقد طور أيضا أفكارا عن الهيمنة والهيمنة - المضادة ، وعن الثقافة ، واللغة ، وعن تكون الذات ، وقد قدم لنا جرامشى ، أكثر من فوكو ، وصفا للكيفية التى تمارس بها الدولة الرأسمالية الحديثة الحكم ، والكيفية التى تتم عن طريقها مقاومة هذا الحكم .

وبينما تحظى التصورات المستمدة من جرامشى باهتمام تزايد لدى المنظرين ، فإننا نجد لدى الدوائر الأكاديمية تحفظا خاصا فى استخدام نظرية جرامشى ككل ، على أن حياة جرامشى كانت شديدة التعقيد وكتاباته كان من الصعب فهمها . لذلك ، يظل السؤال مطروحا إلى حد كبير عمن هو جرامشى وعن الكيفية التى يمكن أن تستخدم بها أفكاره . وأود هنا أن أكشف بعض الغموض فى أفكار جرامشى ، على الأقل بالنسبة لهذا العمل ، عن طريق إبداء الملاحظات التالية حوله . فقد شارك جرامشى فى تأسيس الحزب الشيوعى الإيطالى . والكتّاب الذين يستندون إلى هذه

الواقعة كمدخل إلى كتاباته ، يؤكدون على اهتمام جرامشى «بالتايلورية» و «الفوردية» وعلى إيمانه بالحزب بوصفه أمل المستقبل . وهذا الفهم ينطوى فيما أرى على التقليل من شأن جرامشى . إذ يبدو هنا كأنه لم تكن ثمة أسباب تجعله مهموما بعدم قدرة الصناعة الإيطالية على المنافسة ، كما يبدو وكأن النموذج البلشفى لم يكن ذا دلالة فى العشرينيات . وثمة مدخل آخر لفهم جرامشى هو ذلك الذى يذهب إلى أنه كان ماركسيا هيجليا تكون من خلال ارتباطه بالفيلسوف الإيطالى بندتوكروتشه . وبصرف النظر عما إذا كانت الكتابات الباكرة لكروتشه هيجلية أم لا ؛ فيمكن الاتفاق على أن قناعة جرامشى بأن الماركسية ليست علما بل هى فلسفة ممارسة ، هى قناعة يشترك فيها مع كروتشه . لكن يبدو أن مفهوم الممارسة لدى كل منهما كان مختلفا عنه لدى الآخر بدرجة تجعلنا لا نمضى بعيدا فى عقد المقارنة . فقد كان جرامشى ماركسيا ثوريا ، بينما ذهب كروتشه إلى القول بأنسنة النخبة عن طريق الفن والمثل الأخلاقية . وثمة مدخل آخر أيضا لفهم جرامشى هو الذى يمكن تسميته المدخل الليبرالى ، الذى يؤكد على الأهمية التى يمنحها جرامشى للديمقراطية وللمجتمع المدنى . وبينما يمكن القول بأن لكل مدخل من هذه المداخل بعض الفائدة ، كما سيتبين فى الحديث عن التاريخ الإيطالى فى الفصل الرابع ؛ فالقراءة الأكثر قيمة فى نظرى هى تلك التى تعتبر جرامشى ماركسيا – فوضويا ، وهى قرأءة تجعل جرامشى ، فيما أعتقد ، أقرب إلى فوكو منه إلى أى مفكر آخر . فقد كان هدف جرامشى فى كتاباته الصحفية الباكرة هى التوصل إلى صحيفة يمكن عن طريقها تحرير فلاحى الجنوب ، وإنهاء «المسألة الجنوبية» : أى وضع نهاية لا للرأسمالية فحسب بل للتراتبية ذاتها . وكانت الصيغة التى توصل إليها هى التحالف بين عمال الشمال وفلاحى الجنوب . ولما كانت هذه الفكرة موضع جدال شديد ، فقد كان عليه أن يتخلى عنها ، فأخذت المسألة الجنوبية تنحسر عن تفكيره بالتدريج خلال العشرينيات حيث جذبت انتباهه أمور أخرى ، إلى أن توارت تقريبا وقت كتابته لـ «كراسات السجن» . على الرغم من ذلك ، فما زالت هذه الفكرة ذات قيمة ، مثلها مثل الأفكار الفريدة المستمدة من خبرته الباكرة ، والتى تشمل أفكارا مثل : كيف يتعلم المثقف من الجماهير ؟ وكيف يمكن للدولة أن تحافظ على «الحس المشترك» ، وعلى «تكتيل الجماهير Mossi Fication » ؟ وهى كلها أفكار موجودة فى «كراسات السجن» .

وبالنسبة لهدف هذا الكتاب ، فقد كان جرامشى ، باعتباره «جنوبيا» مهما كناقد لخاصيتين من خصائص النمط المسيطر فى إيطاليا · هما الانغماس فى الحاضر ؛ والخطية . فجرامشى يذهب إلى أن التاريخ إنما يتغير حينما يغيره الناس . فالماضى فى رأيه ليس خطا يقود إلى الحاضر ، بل هو سلسلة من الطرق التى لم تتم المضى فيها . والمستقبل ، من خلال هذا الرأى ، هو كتاب مفتوح ، والشئ الوحيد الأكيد هو أنه لا توجد حلول تأتى من أعلى ، لا توجد أزمة رأسمالية منتظرة تأتى فتأخذ الشيوعيين إلى السلطة .

ومعظم الإنجليز والأمريكان ، مثلهم مثل معظم الإيطاليين الشماليين آنذاك وحاليا ، يدافعون عن الانغماس فى الحاضر ، ويدعون إلى القطيعة مع الماضى ، استنادا إلى هذا السبب أو ذاك . فيستندون مثلا إلى ثورة الكومبيوتر وإلى تكوين مجتمع كونى جديد . لكن ليس كل الناس كذلك . فهناك اليوم بعض الناس يتفقون مع رأى جرامشى فى أن التكنولوجيا الحديثة ، رغم فائدتها ، فإنها عرض ثانوى . فهى لم تضع حدا للتمايز الاجتماعى ولا الرأسمالية ، ولا يبدو أنها ستفعل ذلك فى يوم من الأيام . وهى مسألة تشكل تحديا هاما للمؤرخين .

فلو أننا عشنا مائة عام منذ الآن ثم نظرنا إلى الوراء إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فهل ستبدو لنا مختلفة عن الفترات السابقة ، أى هل سنظل نطلق عليها ، كما يفعل كثير من المنظرين الآن ، رأسمالية متأخرة ؟ إن ما توصلنا إليه فى هذا الكتاب يقول بغير ذلك .

وبينما نجد أن جرامشى ، من خلال القراءة التى قدمناها هنا – وربما من القراءات الأخرى أيضاً – أكثر وضوحا فيما يتعلق ببنية القوة من فوكو ، فإن عمله يتشابه مع فوكو فى افتقاده للتفاصيل الكافية عن الاقتصاد السياسى ، باستثناء الاقتصاد السياسى لإيطاليا ، وفى افتقاده للجهاز المفاهيمى الذى علينا أن نتجاوزه لكى نكتب تاريخ العالم . فما هى الهيمنات الحديثة التى تشبه الهيمنة الإيطالية لكن تختلف معها فى التفاصيل ؟ وما هى الهيمنات التى تختلف عنها فى الأسس ؟ وكيف يمكن لنا أن نكتب تاريخ العالم ككل ؟ فلا جرامشى فى العشرينيات ولا فوكو فى الستينيات استطاع أن يوضح هذه النقاط بدرجة كافية .

ويتخذ هذا الكتاب ، من بعض الأقوال والملاحظات المستمدة من جرامشى ، نقطة انطلاق له فى هذه الأمور . وسوف أشير إليها هنا للقارئ الذى لديه فكرة عما تضمنته

«كراسات السجن» . فالهيمنة فى إيطاليا تختلف فى الأساس عن الهيمنة فى روسيا ، ولهذا الاختلاف دلالة بالنسبة لاستراتيجيات الهيمنة - المضادة ؛ كما تختلف فى الأساس عنها فى الولايات المتحدة ؛ حيث أوجدت «الفوردية» مجتمع مستهلكين داخل الطبقة العاملة ، كذلك تختلف فى الأساس عنها فى بعض دول الشمال الأفريقى ، وهذه نقطة لم تفصل بعد ؛ إلا أن الهيمنة الإيطالية تتشابه مع فرنسا أثناء الثورة الفرنسية . وقد رأى جرامشى فى اليعاقبة (*) مثالا مهما بالنسبة لليسار الإيطالى .

وبطبيعة الحال ، فلدى الباحثين اليوم مصادر للمعلومات أكثر مما أتيح لجرامشى فى السجن . على الرغم من ذلك ، فمازلنا ، فى ضوء ما توصلنا إليه ، مدينين لجرامشى وفوكو بصورة واضحة .

بل إن فوكو نفسه يعتبر مدينا لجرامشى من نواح معينة . فمعالجة جرامشى للهيمنة بوصفها صراعا لتفتيت أبنية القوة بين الحكام والمحكومين كانت إرهاصا يوضح فكرة فوكو حول انتشار القوة (السلطة) فى المجتمع . كذلك فمعالجة جرامشى لتنظيم الثقافة ، إنما نجد نموذجها المكتمل فى فكرة فوكو حول الأنظمة الرقابية . وأفكار هذين الرجلين ، تلهمنا بنوع جديد تماما من التاريخ الاجتماعى ؛ حيث تصبح الأبنية دينامية .

ولنتحول الآن إلى بحث المخطط العام لتاريخ العالم من منظور مغاير . فمن الواضح أن جميع البلدان ، بصرف النظر عن نوع الهيمنة فيها ، وعن التفكك النسبى للسياسة والاقتصاد والنظام الاجتماعى داخلها ؛ أخذت تدخل فترة تكوين فيما بين ١٨٦٠ - ١٨٨٠ . وأصبحت الرأسمالية ، للمرة الأولى ، عند هذه النقطة ، هى النظام المسيطر ، دافعة الدول إلى تبنى استراتيجيات سياسية متميزة لتضمن بقاء الأمور تحت السيطرة . فخلال هذه الفترة ، نشأت البيروقراطيات فى كل مكان ؛ حيث تكونت فى القمة درجة من الوحدة تكفى لتفويض المسئولية .

وفى أعقاب فترة التكوين ، مرت جميع البلدان بثلاث مراحل اقتصادية رئيسية ، وبنفس الترتيب : المرحلة الأولى : مرحلة الليبرالية الكلاسيكية ؛ حيث تسيطر على الحكم طبقة واحدة تتكون فى غالبيتها من الرأسماليين الماليين ، وتستمر من

(*) اليعاقبة : Jacobins . كتلة سياسية راديكالية فى الثورة الفرنسية . ارتبطت التسمية بعد ذلك بالجناح السياسى اليسارى المتطرف (المترجم) .

سبعينيات القرن التاسع عشر حتى ما بين ١٩١٧ والأربعينيات . ومرحلة ثانية : هى مرحلة السلطة (*) الإدماجية Corporatist وتتميز بتحالفات طبقية وأحيانا بنزعة للتصنيع ، وتمتد من أواخر الفترة الليبرالية حتى أواخر الستينيات . ومرحلة ثالثة : هى مرحلة ليبرالية ثانية تبدأ من حوالى ١٩٧٠ وحتى الوقت الراهن . وكثير من الأمور التى يجدها بعض المعلقين - ما بعد الحداثيين وغيرهم - غير مألوفة فى السبعينيات والثمانينيات ، تجد سوابقها فى الفترة الليبرالية الأولى وليس فى فترة السلطة الإدماجية السابقة على الفترة الحالية مباشرة .

وقد يطرح ، عند هذه النقطة ، كثير من الأسئلة ذات الطابع العام ولعل أهم هذه الأسئلة هى كيف يمكن لطريقة ما من طرق معالجة التاريخ ، حتى لو كانت لا تقدم للاقتصاد السياسى التقليدى للرأسمالية سوى أقل التنازلات ؛ أن تتفادى مشكلات النظرة الغائية والتنموية ، وهى المشكلات الشائعة المرتبطة بنماذج تاريخ العالم القائمة على المركزية الأوربية ، التى وجهنا إليها النقد فيما سبق . والإجابة التى تمت صياغتها فى الفصول التالية على المستوى التجريبى هى أن الأحداث التى يتم وصفها لا تختزل إلى ولا تقترن بغاية واحدة . إذ يمكن النظر إليها على أنها عملية نمو تطورى فى فترة تتسم بالاتصال إلى درجة كبيرة ؛ ويمكن النظر إليها على أنها عناصر تتكرر دوريا داخل إطار التاريخ الحديث ؛ ويمكن النظر إليها ، من خلال منطق التجاور الذى تحدث عنه فوكو ، على أنها تتخذ مسارات جانبية حول العالم بصورة متماثلة . وأخيرا ، فيمكن فهمها على أنها سلسلة من الفرص الضائعة للثورة ، من خلال طريقة للمعالجة ، تسمى هنا ، بالطريق التاريخى .

وتعبير «الطريق التاريخى» يستخدم مجازًا ، فالفهم الحرفى له سيفتح الباب ثانية للتاريخ الخطى . وعلى ذلك ، فالطريق يعنى هنا طريقة ما ، ومجموعة من الإمكانات المتاحة لهذه الطريقة ، والاثنان معًا ينتجان صيغة خاصة للهيمنة مصحوبة بـ «حسها المشترك» ، أما إلى أين يؤدى هذا الطريق ؟ فهو سؤال مطروح وإن لم يكن مفتوحا بالكامل . فإحدى النهايات التى قد يؤدى إليها الطريق التاريخى ، وإذا وضعنا فى الاعتبار الحس المشترك الخاص به ، هو الثورة . فليس من المستبعد على الإطلاق أن يأتى ، فى يوم من الأيام ، أحد القادة الثوريين الذين يملكون القدرة على توحيد جماهير الشعب معه ، فيتغلب على هذه الهيمنة أو حتى يفككها تماما ، فيخلق بذلك

(*) انظر Corporatism فى هامش لاحق . (المترجم) .

شيئا جديدا ، ربما كان نظاما أكثر مساواة . وبطبيعة الحال ، فليست هناك ضرورة لحدوث مثل هذا الأمر ، لكنه لو حدث ، سيكون متوافقا مع – أو يكون عليه أن يتوافق مع – عناصر من الحس المشترك ، وهى ، مع كونها عناصر ، إلا أنها تظل كامنة فى الوعى الجماهيرى فى انتظار مشروع التحرير .

وبالنسبة للفترة التى نبحثها هنا ، لم نواجه ، فى الغالب الأعم ، تغيرا من ذلك النوع ، ربما بسبب التكاليف الضخمة التى تواجهها النخبة لإقامة روابط من نوع معين ، وربما بسبب المخاطر الكامنة فى التغير ، والتى قد تتعرض لها قطاعات كبيرة فى معظم المجتمعات . فعلى المستوى التجريبى على الأقل ، لم نلتق ، سوى نادراً ، بأمثلة لبلدان غيرت نمط الهيمنة والطريق التاريخى الخاص بها ، خلال الفترة التى تناولتها هذه الدراسة . وما يبدو لنا أنه تغير فى الهيمنة ، فإنه ليس كذلك عموما ، وإنما هو عادة انتقال ما ، من الليبرالية إلى الإدماجية مثلا ، هو حركة تستهدف تفادى التغير .

وموضوع الطرق التاريخية ، بما يتضمنه من أمور كثيرة ، هو موضوع كبير ومعقد . لذلك فالمكان المناسب لمناقشته إنما هو داخل النص نفسه حيث يمكن أن يصبح ملموسا بقدر أكبر . وعلى ذلك ، فالفصل الخاص بروسيا والاتحاد السوفيتى لا يدرس تاريخهما باعتباره تاريخا خاصا فحسب ، وإنما يدرسه كذلك بوصفه نموذجا سوسيولوجيًا «للطريق الروسى» ، الذى ينطبق أيضًا على بلدان عديدة أخرى . والجزءان اللذان يتكون منهما ذلك الفصل يدعم كل منهما الآخر ويوضحان معًا من خلال عملية الدراسة ملامح النموذج ، وأصول تسميته على هذا النحو ، والأساس العقلانى لاختيار روسيا أولاً ، ثم العراق ثانيًا كأمثلة توضيحية . وبالطريقة نفسها ، تقدم الفصول التالية نبذة عن «الطريق الإيطالى» ؛ و «الطريق الاثنى – القبلى» ، و «الطريق الديمقراطى» .

وعلى سبيل الإيجاز ، فإن «المنعطف الفوكوى» ، وأكثر من ذلك تأثير جرامشى ، يبدو أنهما قد حررا المؤرخين من أثقال الماضى ، وسمحا بالتالى بالإقدام على مخاطرة كهذه . فقبل ذلك ، فيما أعتقد ، لم يكن بالإمكان نقد المركزية الأوربية نقداً فعالاً ، سواء أكانت لدينا مكتشفات التاريخ الاجتماعى أم لم تكن . كذلك فالتحولات التى أحدثها فكر جرامشى وفوكو ، رفعت التاريخ إلى مكانة لم يحظ بها من قبل ، وهذه نقطة سأتحدث عنها بتفصيل أكثر فيما بعد . وبالإضافة إلى ذلك ، فهذه التحولات ، فرضت فى الوقت نفسه على مؤرخى المستقبل ، الإحاطة بقدر من الفكر الإبستمولوجى

(المعرفى) أكثر تعقيدا بكثير . وأصبح عليهم أن يتخلوا عن بعض الأساليب والمفاهيم التى اعتادوا أن يحللوا عن طريقها المادة المتجمعة لديهم ، مثل الغائية ، والرواية السردية ، والخطية ، وتحليل النخبة ، وما إلى ذلك . وبدلا من ذلك أصبح عليهم أن يتبنوا منطق المجاورة ، ولا مركزة القوة ، والاهتمام بمن شهدوا الأحداث ، وباللغة ذاتية التكوين لصياغة فقرات طويلة تزيد معها أحجام الكتب .

وقد وجدت ، خلال عملية بحث وصياغة بنية جديدة لتاريخ العالم الحديث ، أن علم التاريخ كمبحث أكاديمى ، يلعب دورا هاما فى الهيمنة ، رغم الاختلاف الواسع حول معنى التاريخ ودوره ، وهذا الوضع يضفى على الحياة العامة وعلى كتابات من أسميهم عمداء المهنة ، بعض الأهمية ، بسبب وجهات النظر التى يتبنونها وبسبب الدور الذى تلعبه وجهات نظرهم فى تشكيل خطابات الهيمنة المختلفة . وعلى ذلك ، يضع هذا الكتاب التاريخ الأكاديمى فى اعتباره .

وثمة نقطة متعلقة بذلك تحتاج إلى بعض التفصيل . فالتاريخ الأكاديمى لا يتوزع بالتساوى بين جميع الهيمنات . فبعضها يستخدم المؤرخين بدرجة أكبر كثيرا من البعض الآخر . وهذه الحقيقة لها ما يترتب عليها هنا . أليس التاريخ الاجتماعى متجذرا بدرجة أعمق فى الهيمنات الديمقراطية عنه فى الهيمنات الأخرى ؟ ألا ينطوى الاستناد على هذا النوع من البحث على شبهة تبنى المركزية الأوربية ؟ الإجابة هنا بالنفى . فكل الهيمنات تراتبية الطابع ولا تدخل الجماهير بدرجة كبيرة فى صياغتها للتاريخ . والمؤرخ الاجتماعى ، مثله مثل العالم ، على عكس ما يبدو فى الظاهر ، هو ناقد للحياة اليومية – حتى فى الديمقراطيات . وإذا كان التاريخ الاجتماعى يكتب فى الديمقراطيات أكثر منه فى سواها ؛ فإن ذلك لا يعنى أنه يتم تمثله فيها .

والواقع ، أن هذا الفرع من التخصص حينما ابتعد عن التاريخ السياسى والدبلوماسى ، واقترب من التاريخ الاجتماعى ، فى بلدان الديمقراطيات شهد انقساماً حاداً .

وتظل مسألة جرامشى مطروحة هنا . فجرامشى ، فى نهاية الأمر ، لا يرتبط بالمركزية الأوربية ، ولا بمشكلات تاريخ العالم . ولذلك ، فشعبيته الحالية أقل لدى المؤرخين منها لدى المتخصصين فى المباحث الأخرى . ألا توجد خيارات أكثر ملاءمة ؟ من المهم هنا أن نشير إلى أن تأثير جرامشى على نموذج الصراع الذى يتبناه هذا

الكتاب ، هو تأثير غير مباشر . على الرغم من ذلك ، يمكن القول : إن الاقتصاد السياسى الذى قدمه جرامشى يضفى شرعية على التاريخ الاجتماعى وعلى النظرة التاريخية الاجتماعية لتاريخ العالم بأكثر مما تفعل كتابات الكثيرين ممن يطرحون مشكلة المركزية الأوربية ؛ ليتخذوا منها مجرد شعار أو قضية . فقد كان جرامشى ، فى نهاية الأمر ، هو الذى أدخل السياسية فى الاقتصاد السياسى ، كما أدخل فيه أيضا الرأسمالية المحلية وما قبل الرأسمالية ، وهى عملية تنطوى على أشياء كثيرة . فمع السياسة تأتى دينامية القومية المحلية ، ومع الرأسمالية المحلية يأتى تحققنا من أن معظم الرأسماليين يعملون داخل السياق القومى والمحلى لا السياق العالمى . والخلاصة ، أن إدخال السياسة والاقتصاد المحلى فى نسق مفاهيم الاقتصاد السياسى ، نقل تاريخ العالم إلى المستوى القومى . وهو الأمر الذى يفسر : لماذا جرامشى ؟

لكننا نستطيع أن نفترض أن وراء جرامشى ، كان هناك ماركس . فلماذا إذن لم نؤسس هذا الكتاب بأكمله على أفكار ماركس ، بدلا من أن نقصر استخدامها على نظرية الطريق الروسى ؟ الواقع أن فكر ماركس ، كما لابد أن يتذكر كثير من القراء ، مر بعده مراحل ، لكل منها قيمتها . لكنها لا تلتقى معًا فى نقطة واحدة ، سواء على المستوى النظرى أو المستوى العملى . فقد بدأ ماركس كفيلسوف فى ثلاثينيات القرن الماضى . وبدءاً من الأربعينيات وحتى «البيان الشيوعى» (١٨٤٨) تركزت كتاباته فى السياسة . ومع الستينيات بدأ ينشغل بدرجة أكبر بمنطق الرأسمالية ، وهذه المرحلة الأخيرة من حياته هى التى يتذكرها الاقتصاديون السياسيون اليوم بصورة جيدة . وعند هذه النقطة ، أراد ماركس أن يعيد تعريف الصراع الطبقى بحيث يصبح مقصورا على نضال النقابات العمالية ، وهو موقف يمثل تراجعا كبيرا عن الموقف الذى تبناه فى كتاباته الفلسفية أيام الشباب . وهذا التحول فى تفكيره هو الذى قلل من فائدته لهذا العمل .

وأخيرا ، ترتكز الفصول التالية من هذا الكتاب على ما ذهبت إليه فى هذا الفصل ، وكل منها يبدأ بعرض للنموذج السائد كما يتجلى من خلال دراسة البلد موضوع البحث . وهذا الجزء التمهيدى يقدم الخلفية لدراسة الاقتصاد السياسى والطريق التاريخى . ويتبع ذلك جزء آخر يختص بدراسة تنظيم الثقافة . وهو يبين سعى الطبقة الحاكمة لخلق قناعات . وفى بعض الفصول ، مثل تلك التى تدرس الهيمنات الاثنية – القبلية ، والديمقراطيات البرجوازية ، يبدو تأثير المفكرين الفوضويين ، مثل فوكو ،

واضحا تماماً . وفى البعض الآخر ، مثل الفصول التى تدرس دول الطريق الإيطالى ، يبدو تأثير جرامشى أكثر وضوحاً . ويختتم كل فصل بجزء يختص بكتابة التاريخ ، وبالمؤرخين ، فى البلد موضع البحث . وهو استمرار منطقى للجزء السابق له ، إلا أنه كتب بصورة مستقلة لكى يقيم رابطة بين إعادة إنتاج النموذج السائد وبين موضوع الهيمنة فى تلك البلدان .

ودراسة التاريخ الروسى – كما ذكرت من قبل – تبدو ملائمة تماماً لأن تفتتح بها هذه الدراسة . فكون هذا البلد «نصف أوربى ونصف آسيوى» ، والموقع الخاص به ، بالإضافة إلى منطقه الداخلى ، كل ذلك يجعله مصدر حيرة بالنسبة للخبير التقليدى ، إذ يجعل من هذا البلد نوعاً من الظاهرة المجاوزة للتاريخ . فما هو ، إذن ، التاريخ الروسى ؟ .

هوامش الفصل الأول

The Political Economy of Aesthetics : Modes of Domination in Modem Nation States Seen Thiough Shakespeare Reception, " Dialectical Anthropology 17 (1992) : 171 - 188; The Islamic Roots : نقد المركزية الأوربية هنا مأخوذ من كتابى المشار إليه في النص وهو of Capitalism : Egypt, 1760 - 1840 (Austin: Univ. of Texas Piess, 1979)' " Political Economy as a paradigm for the study of Islamic Histoiy " International Journal of Middle East Studies 12(1980) : 511 - 526 ' see also samir Amim, Eurocentrism (New York · Monthly Review Press, 1989) .

الفصل الثانى :

الطريق الروسى

التجربة الروسية والسوفيتية (١٨٦١ - ١٩٩٠)

يصور التاريخ الروسى فى أواخر القرن التاسع عشر من خلال النمط السائد ، من زاوية إخفاقه فى النمو على طريقة البلدان الغربية أو من زاوية تجسيده للنزعة السلافية ؛ وكذلك يصور التاريخ السوفيتى من نفس الزوايا تقريبا . وهذا الفصل ، والفصول التالية ، بينما تتناول بالتحليل زوايا النظر تلك ، وهى معروفة جيدا ، فإنها تتبنى وجهة نظر مختلفة . فهى تعالج تاريخ روسيا الحديث وتاريخ الاتحاد السوفيتى باعتبارهما مثالاً لنمط عام من أنماط الهيمنة نسميها «الطريق الروسى» (1) . وبتبنيها لزاوية النظر هذه ، فإنها تطمح إلى التغلب على بعض المشكلات التى واجهها المؤرخون فى دراساتهم المتخصصة من جراء تأكيدهم على قابلية روسيا للمقارنة بصورة عامة بالبلدان الأخرى . ترى .. فيما تشترك هذه البلدان وفيما تختلف ؟ وما الدور الذى تلعبه فى تاريخ العالم ؟

يتكون هذا الفصل من أربعة أقسام . يتعرف القسم الأول على الملامح الرئيسية للطريق الروسى . بينما يقدم القسم الثانى تحليلا للاقتصاد السياسى لروسيا والاتحاد السوفيتى باعتبارهما ممثلين للطريق الروسى . وهو يقسم الفترة من ١٨٦١ إلى ١٩٩٠ إلى ثلاثة فترات : شهدت الفترة الأولى الممتدة من ١٨٦١ إلى ١٩٣٢ انتشار الرأسمالية ، وصعود نظام هو صورة باهتة للعصر الليبرالى ، باركته الثروة البترولية الطائلة ، لكن صعود طبقة متوسطة دنيا شكل تحديا تدريجيا له ؛ والفترة الثانية ، التى تمتد من ١٩٣٢ إلى ١٩٥٦ ، شهدت تكوين الدولة الإدماجية واقتسام السلطة ؛ بينما شهدت الفترة الثالثة ، الممتدة من ١٩٥٦ فصاعدا ، عودة فى اتجاه الليبرالية . أما القسم الثالث من هذا الفصل فيتناول موضوع الهيمنة من زاوية تنظيم الثقافة خلال الفترة من ١٨٦١ إلى ١٩٩٠ . بينما يتناول القسم الرابع كتابة التاريخ فى روسيا والاتحاد السوفيتى باعتباره جزءًا من تنظيم الثقافة .

والاتجاه العام لدراسة التاريخ الروسى والسوفيتى ، فى الدراسات المعاصرة ، يقع - كما يشير الفصل الأخير - تحت تأثير منطق النمط المسيطر . إلا أن بعض المؤرخين الاجتماعيين ، الذين اهتموا بالدراسات الفلاحية الروسية ، بدأوا يتخذون هذا النمط المسيطر ، فأخذوا يوسعون من مادتهم التاريخية ويقدمون تفسيرات جديدة للأحداث العظمى : من ثورة ١٩١٧ ، إلى الستالينية ، إلى الحرب العالمية الثانية .

وما سيرد فى هذا الفصل ، إنما هو محاولة لجمع وتنسيق بعض الرؤى التى توصل إليها هذا الفرع الجديد من الدراسة التاريخية ، بحيث تشكل «طريقًا روسيًا»

أى : شكلاً حديثا متميزا للهيمنة ، يقف قائما بذاته ، وله أمثلة عديدة ، وهو شكل تقدم فيه الطبقة الحاكمة بتمويه الصراع الطبقى عن طريق التقسيم الطائفى . وفى حالتنا هذه ، فإن الفئة الحاكمة أو «النومينكلاتورا» : سكان موسكو ولينينجراد ، والنخب الناطقة بالروسية من القوميات ، وقطاعات من الشرائح العرقية الروسية ؛ فى تداخل مع الطبقة المسيطرة اقتصاديا . ويتم جعل هاتين الفئتين تقفان فى تضاد مع باقى المجتمع كل بطريقتها الخاصة .

والدراسة المدققة لهذه الثنائية تكشف ليس فقط عن أمور خاصة بالطبقة ، واللغة والسكن ، بل أيضا عن أمور خاصة بالزواج ، وبالثقافة ، وبصورة أعم ، عن طقوس للاحتواء والاقتصاء . وبينما يمكن لفكرة الثنائية أن تعبر عن مظهر هذه العملية بصورة جيدة ، فإن التعبير الأدق ، لمثل هذه المقارنة ، هو التقسيم الطائفى .

والمجتمع المدنى ، فى الطريق الروسى ، مجتمع ضعيف ، فقد بينت الأبحاث أن الغالبية العظمى من الناس تلجأ إلى استراتيجيات قريبة من تلك التى يلجأ إليها الفلاحون أكثر من تلك التى نجدها لدى المواطنين . فهم مثل الفلاحين ، يتجنبون الدولة عن طريق دفع الرشاوى بدلاً من أن يحاولوا التأثير عليها من الداخل ، كما يفعل المواطنون ، بمشاركتهم فى المؤسسات السائدة .

ويتميز الطريق الروسى أيضا بالدور الذى يلعبه القيصر أو القوميسير (رئيس الحكومة» كموحد بين جزئى بنية السلطة ، وهما : البيرواقراطية العلمانية ، التى بيدها الإدارة الفعلية للأمور ، رغم أنها ظاهريا تبدو بعيدة عنها ، وهى تتسم بالتسلطية والتجبر ؛ والبيروقراطية الدينية ، مثل الكنيسة الأرثوذكية الروسية ، التى تبدو فى الظاهر منفصلة عن الدولة ، وفى خدمة الجميع ، ومتسمة بالرحمة ومانحة للغفران (٢) . وقد ظل هذا الانقسام إلى علمانى ودينى تحت قيادة ذات نمط قيصرى ، مستمرا حتى خلال الجيل الذى حاول فيه البلاشفة إلغاء الدين . ومع عودة الكنيسة ، بعد عام ١٩٤٣ ، أصبحت القيادة الدينية ، مرة أخرى ، جزءا باديا للعيان من الهيمنة . وفى بعض الأحيان ، حينما قمعت الكنيسة ، كان القادة البلاشفة يقيمون ويشاركون فى احتفالات شعبية يندمج فيها وجها الحكم كتعويض عن غياب أحدهما (٣) .

وثمة سمة أخرى مميزة للطريق الروسى ، تختص بنموه التاريخى ، إذ يتميز بتذبذب واضح بين المراحل الليبرالية والتسلطية . فقد أخذ القادة الروس منذ منتصف

القرن التاسع عشر ، يتبعون بحذر طريق التنمية الرأسمالية . فخلال الفترات التى يسميها المؤرخون «الفترات الليبرالية» أو «فترات الإصلاح» كان القادة السياسيون يشجعون صراحة النمو الاقتصادى من خلال السوق المفتوح ويجنون منه الأرباح . لكن رأسمالية السوق المفتوح تؤدى إلى تكوين الطبقات مما يؤدى بدوره إلى الصراع الطبقى . والطبقات الحاكمة فى بلدان الطريق الروسى ، تتسم بأنها عندما تواجه احتداما للصراع الطبقى ، تشعر بعدم القدرة على السيطرة على الجماهير الشعبية ، فتلغى الليبرالية وتحل محلها السلطة الأوتوقراطية ، وتضحى بالتجارة الرابحة فى سبيل الأمن . وهذا التذبذب بين المراحل الليبرالية والتسلطية يضفى على الطريق الروسى تعقيداً خاصًا . ذلك أن وجود مراحل طويلة المدى من الليبرالية والإدماجية ، هو أمر مألوف بالنسبة لبلدان الهيمنات جميعا ، لكن حدوث تذبذبات قصيرة المدى بين هذين النظامين داخل المراحل طويلة المدى ، ليس أمراً مألوفًا .

والرأسمالية الحديثة ، تتسم بأنها تزيد من المخاطر السياسية بالنسبة للحكام فى جميع الأنظمة السياسية ، إلا أن هذه المخاطر ، تصبح أكبر بالنسبة للحكام فى بلدان الطريق الروسى عندما تتساوى العوامل الأخرى . فالطبقة العاملة ، فى هذه البلدان ، لديها مساحة غير عادية للمناورة . إذ تقع على الحدود بين الداخل والخارج فى التقسيم الطائفى ، وهى تمتلك شيئا تحتاجه الدولة ، هو عملها . لذلك ، فالثورات شائعة فى أنظمة الطريق الروسى . بينما يذهب المؤرخون إلى أن ثورة ١٩١٧ تعبر عن سمة خاصة بأسرة «رومانوف» ، هى عدم قدرتها على مواجهة مخاطر التنمية ؛ فإننا نجد فى الواقع أن معظم أنظمة الطريق الروسى مثل الصين ، وإيران ، وتركيا ، والعراق ، شهدت ثورات لم يشهد مثلها إلا القليل من بلدان الطرق التاريخية الأخرى . على أننا نستثنى من بلدان الطريق الروسى ، اليابان ، التى أنجزت التصنيع دون ثورة سياسية ، لكن اليابان ليست نموذجا خالصا للطريق الروسى .

وبالإضافة إلى ذلك ، تتميز أنظمة الطريق الروسى ، بحدة الصراع الطبقى فيها . ففى البلدان الغربية ، يتجه العمال ، فى حالة اشتداد الصراع الطبقى ، إلى النظام القانونى وإلى الثقافة التى يشتركون فيها مع رؤسائهم ، باحثين فيها عن حلول . أما العمال ، فى بلدان الطريق الروسى ، فلا يتاح لهم ذلك . وبتعبير آخر ، لا يوجد لدى أنظمة الطريق الروسى ، ما يقلل من حدة الصراع الطبقى فيها . فإذا لم يعد الإجماع قائما ، أصبح الحاكم تقريبا معزولا عن الجماهير . وفى مثل هذا الوضع ، يصبح

الأمل الرئيسى لديه أن ينهى القمع العنيف الإضراب بسرعة قبل أن ينتشر . فما زالت ذكرى ثورة بوجاتشيف الفلاحية فى القرن الثامن عشر ، التى خرجت عن حدود السيطرة ؛ تطوف بخيال الروس حتى اليوم .

كذلك تواجه أنظمة الطريق الروسى مشكلات ناشئة عن طبيعة الثقافة السياسية فيها . إذ كيف يمكن للثنائية أن تستمر إذا كانت السخرة قد ألغيت وكان بمقدور نسبة متزايدة من السكان أن تقيم دعاوى ضد النظام ؟ (٤) . ففى الواقع ، ليس لدى الحاكم أية مبررات أيديولوجية للإقرار بالتحرر كمبدأ عام . لذلك تقتضى المحافظة على الثنائية فى بلدان الطريق الروسى موازنة التحرر ، بالإبقاء على ثقافة السخرة (٥) . وقد تمثل ذلك ، فى حالة روسيا ، حتى الخمسينيات ، فى إبقائها على عمل السخرة فى الزراعة والصناعة ، وهو أمر يفتقر إلى الاتساق والتذبذب فى المراحل التاريخية فى بلدان الطريق الروسى ، يساعد على قطع الطريق على الثورات ، إلا أنه يؤدى إلى تبدلات كبيرة فى المواقع ، أو خسارة الشخصيات القيادية ، التى تجد نفسها مضطرة ، مع كل ذبذبة فى البندول ، إلى التقاعد أو الرحيل إلى المنفى ، فاللاجئون السياسيون من بلدان الطريق الروسى ، من «ألكسندر هيرزن» فى القرن التاسع عشر ، إلى «لينين» ، إلى اللاجئين الحديثين ، متميزون من بين اللاجئين والمهاجرين السياسيين فى العالم ، بأنهم يظلون طوال حياتهم منشغلين بالسياسة ، وبإحساسهم بأنهم لم يكملوا دورهم التاريخى ، وهو إحساس صحيح تماما .

كذلك فأنظمة الطريق الروسى ، بنخبتها السياسية الصغيرة وبمجتمعها المدنى الضعيف ، تتميز بأنها أكثر بيروقراطية بصورة أوضح من أنظمة الهيمنات الأخرى . والأنظمة السياسية البيروقراطية معروفة عموما بعديد من السمات الخاصة المستقلة عن منطق البنية الأعرض للمجتمع ؛ وأنظمة الطريق الروسى ليست استثناء من ذلك . تتضمن هذه السمات : فساد شامل على كل المستويات ؛ أخلاق مهنية متدنية ؛ ضعف سيادة القانون ؛ عبادة الحاكم ؛ سياسات انشقاقية . ومن المرجح أن هذه السمات مترابطة فيما بينها إلى حد ما . وفى حالة روسيا ، فإن فترات حكم القيصر والبولشفيك تقدم أمثلة عديدة لهذه السمات ، وقد أدرك المراقبون منذ وقت طويل المخاطر التى تنطوى عليها هذه السمات إن سمح لها بالبقاء . لكن جهود الإصلاح ، داخل مثل هذه البيروقراطية العريضة فى بلدان الطريق الروسى ؛ غالبا ما تؤدى ببساطة إلى تفاقمها . فكثير ممن حاولوا الإصلاح ، قاموا به – ومعهم الحق – باسم

القائد حتى يتجنبوا الانشقاق . لكن ذلك ، كان يؤدى ، مع الأسف ، إلى تقوية الانشقاق . فالتأثير التراكمى للتنافس الانشقاقى كان يؤدى إلى مزيد من الديكتاتورية [٦] .

وإحدى السمات الأخرى المميزة لأنظمة الطريق الروسى ، هى التنمية غير المتكافئة للمدن . إذ تركز التنمية على مدينة أو مدينتين كبيرتين ، بينما تترك باقى مدن بعيدة عن مجال الاهتمام ، الأمر الذى يعيد إنتاج الثقافة القومية على مستوى بسيط . ففى حالة روسيا ، فإن مدينة كبيرة مثل كييف ، سمح لها أن تصبح العاصمة الثقافية لأوكرانيا عن طريق الخطأ ؛ وفى العراق ، نجد أن السليمانية واربيل فيها ثقافة جامعية غير متطورة لا تقارن ببغداد وتعبر جزئيا فقط عن بيئتها الكردية . فالمدن الكبيرة هى حصون الدولة ، التى تمنع بصفة عامة الهجرة الداخلية إليها . بل وترغم أحيانا المهاجرين «غير الشرعيين» القادمين من مناطق أخرى على العودة إليها .

وأنظمة الطريق الروسى ، مثل غيرها من الأنظمة ، تقوم بتنظيم الثقافة ، وهى تعتمد فى ذلك على «مثقفى الدولة» باعتبارهم الصوت المعبر عنها فى استمالة العقول . والتحدى الذى يواجه هذه الأنظمة مثل غيرها هو كيفية الاحتفاظ بالثنائية التى تحدثنا عنها سابقًا وكثير من المثقفين يعملون فى حقل السياسة اللغوية . وإذا كان النثر هو المعبر عن البيروقراطية أو عن الثقافة المدينية الرسمية وكان الشعر يلقى قبولا لدى الجماهير ؛ رسمت الدولة سياستها بناء على هذا الانقسام . فرعاية الدولة وتعظيمها للروائيين الكبار فى روسيا ، يخدمها فى خلق تراتبية فى الثقافة ؛ ودعم النظام للشعراء يحفظ مكانتهم فى قلوب الجماهير . فكل له مكانه وإن كان منفصلاً .

والسياسة الثقافية القائمة على إبراز الطابع الفولكلورى للثقافة ، هى أيضا جزء من عملية الإبقاء على الثنائية ، التى هى سمة مشتركة بين أنظمة الطريق الروسى . فالحكومة تفتتح الكثير من المتاحف للاحتفاء بالثقافة الإقليمية ، والثقافة الاثنية ، وثقافة الطبقة العاملة ؛ باعتبارها ثقافات فولكلورية . إلا أن نفس المادة الثقافية ، كان يمكن لها ، فى بلدان طرق تاريخية أخرى ، أن تكون مصدرا لدراسة التاريخ الاجتماعى ، لكن بلدان الطريق الروسى ، تتعمد الحد من مثل هذه الدراسة لأنها يمكن أن تقضى على الثنائية عن طريق إحداث تكامل فى المجتمع . لذلك تحل دراسة الفولكلور محل دراسة التاريخ الاجتماعى . ويقتصر التاريخ المقبول رسميا ، على التاريخ السياسى أساسًا ، الذى يعالج تاريخ الدولة والطبقة الرسمية . وقد اتجه كثير من المؤرخين الكبار فى بلدان الطريق الروسى ، إلى دراسة تاريخ العالم ، لأن مثل هذا التاريخ يربط بين دولتهم وثقافة النخبة فيها ، وبين الغرب .

كيف يعمل مثل هذا المنهج الخاص بالطريق الروسى ، عندما يطبق على تاريخ روسيا والاتحاد السوفيتى ؟

الاقتصاد السياسى لروسيا والاتحاد السوفيتى

١٨٦١ - ١٩٩٠

سوف يوضح هذا القسم كيف أن نمو الرأسمالية كان يشكل تهديدا للاستقرار السياسى ، وكيف أن مخاطر هذا التهديد قلت تدريجيا خلال القرن العشرين مع اتساع قاعدة النظام السياسى ومع قدرة الدولة على نقل مراكز التصنيع العدائى خارج الاتحاد السوفيتى إلى بلدان شرق أوربا والعالم الثالث . إذ سادت آنئذ فترة من السلام الصناعى ، وأظهر الرأسماليون قدرة على العمل كموظفين فى الدولة داخل إطار الخطاب الاشتراكى ، كما قبل العمال العقد الاجتماعى الذى قدم لهم . وقد حث السلام الاجتماعى العناصر المسيطرة على التخلى عن حذرها التقليدى من السماح لعدد متزايد من غير الروس بالدخول فى صفوف الطائفة الحاكمة بطريقة مفجعة . فعندما عادت الليبرالية فى ١٩٥٦ شكل ذلك الوضع - أى دخول غير الروس فى الطائفة الحاكمة - مشكلة سياسية كبرى .

ويبدأ التاريخ الروسى الحديث بمرحلة ليبرالية بمعنى مزدوج . ففى المدى الطويل تمثلت الليبرالية فى حكم طبقة واحدة تسيطر عليها الرأسمالية المالية . وفى المدى القصير تمثلت فى التأرجح فى اتجاه اقتصاد السوق المفتوح . ومرحلة المدى القصير تلك لا تنسى لأنه تم فيها إلغاء الإقطاع . وهذا الحدث ، الذى وقع عام ١٨٦١ ، إنما يرمز مثل غيره من الأحداث إلى التغيرات السياسية التى تصاحب ابتداء الرأسمالية فى لعب دورها على مستوى الدولة القومية (٧) .

ففى ذلك العام ، خلال حكم ألكسندر الثانى (١٨٥٦ - ١٨٨١) قام مستشارو القيصر الليبراليون ، ومن بينهم نيكولاى ميليونين ، وزير الداخلية الجديد ، بسن قانون إنهاء الإقطاع فى الأراضى من خلال قانون إلغاء السخرة الذى صدر فى ذلك العام . ومن خلال ذلك القانون التزمت الحكومة بتعويض السادة ملاك الأراضى الذين صودرت أراضيهم ، كما التزمت بجمع مبالغ من الفلاحين الذين تسلموا الأراضى مقابل تحررهم . وقد كان القصد من ذلك أساسا هو حفز الرأسمالية الزراعية المحلية وثانيا منح سلطة للمزارع الرأسمالى داخل الإطار القائم . وعلى ذلك نشأت بعد عدة سنوات

فى أواخر ١٨٦٤ مؤسسة جمعيات الأقاليم (سمزتفوس) ، وبدأ الليبراليون يحلمون بحكم القانون .

والعصور الليبرالية ، فى الطريق الروسى مثله مثل سواه ، لها ديناميات يمكن التنبؤ بها . فهى تولد الثروة لكنها لا تملك ميكانزمات لتوزيعها . فينتج عن ذلك مليونيرات من ناحية ومعدمون من ناحية أخرى . وقد تحققت فى الجماعات اليهودية الروسية ، التى انتعشت فيها الليبرالية ، ثروات هائلة لدى عائلات مثل بولياكوف ، التى بنت السكك الحديدية ؛ وبرودسكى ، الذين كانوا ملوك السكر فى جنوب غرب روسيا ، وكذلك عائلات زيتسيف وأشينازيس وغيرهم . وفى الطرف الآخر كان يوجد من أفقرهم تراكم هذه الثروة ، من اليهود وغيرهم . وبدءاً من ستينات القرن التاسع عشر فصاعدا ، أخذ التقليد الراديكالى يمعن التفكير فى كيف يمكن للمضطهدين فى روسيا أن يتحدوا للإطاحة بالقيصر ؟ وكيف يمكن للطائفة والطبقة أن يتحدا ؟

ولم تكن هذه هى كل المعارضة . فلليبرالية معارضوها حتى من داخل النظام . فمنذ ذلك الوقت وحتى اليوم ، ظلت المراتب العليا للكنيسة الأرثوذكسية الروسية تعارض الإصلاح . ونتيجة لمعارضتها فشلت كثير من الإصلاحات الليبرالية . ومن المفارقات ، أن خدام الأبرشيات من رجال الدين كانوا من بين الجماعات التى عانت نتائج هذا الفشل ، فقد حالت المراتب العليا للكنيسة بين رجالها أنفسهم وبين الاستفادة من الإصلاحات التى كان المجتمع ككل يتمتع بها .

وخلال الأعوام من ١٨٦٧ إلى ١٨٧١ أخذ قساوسة الأبرشيات يطالبون بالحق فى مرتب منتظم ؛ إلا أن المراتب الكنسية العليا رفضت الفكرة . أليست الكنيسة هى المؤسسة الحقيقية الواحدة للشعب الروسى ؟ وهكذا أصبح خدام الأبرشيات أضحوكة للفلاحين الذين لم يكن أمام الإكليروس سوى تسول عيشهم منهم .

وفى نفس هذه الفترة حين كانت قضية حقوق المرأة آخذة فى التقدم ، أخفقت حركة قامت بها أرامل القساوسة للحصول على أية مكاسب أو حقوق ، مرة أخرى ، بسبب معارضة المراتب العليا للكنيسة ، مما جعل النساء المتزوجات من رجال الدين يتخوفن عواقب موت أزواجهن . وقد ظل الشعور بعدم الأمان لدى زوجات رجال الدين مشكلة حتى القرن العشرين . وفى فترة «النيب» (السياسة الاقتصادية الجديدة) الليبرالية ، طالبت الزوجات مرة أخرى بوضع أكثر أمانا ، مضيفات إلى مطالبهن هذه

المرة تهديدا بأنه إذا لم تتم الاستجابة لهذه المطالب فسيتركن الكنيسة إلى الشيوعية [٨] .

وإذا انتقلنا إلى سبعينيات القرن التاسع عشر ، نجد أن السياسات الليبرالية قد أدت إلى حدوث أزمة فى الأرياف . فحينما أخذت الإصلاحات الناشئة عن قانون إلغاء السخرة تتقدم ، فقد كثير من الفلاحين أراضيهم أو أصبحوا فقراء . وقد وجد المؤرخون الذين درسوا تلك الفترة أن السبب فى هذه الانتفاضات يكمن فى الضرائب المبالغ فيها وفى مستوى الإيجارات ، التى رفعتها الحكومة متوقعة زيادة الإنتاجية الزراعية .

وقد أخذت مظاهر الخلل الاجتماعى تتصاعد منذ سبعينيات القرن التاسع عشر ، فقد ارتفع - على سبيل المثال - معدل الدعارة ارتفاعا حادا . وأصبحت كثير من الأسر فى حالة أزمة . وفيما بين ١٨٧٣ - ١٨٧٤ أخذ راديكاليون المدن ، رجالا ونساء ، ينظمون حركات فقراء الريف . وقد ظهرت صورة من هذا النوع من النشاط ، وإن كان فى فترة متأخرة قليلا ، فى رواية مكسيم جوركى الشهيرة «الأم» . ومع انتشار الراديكالية فى السبعينيات ، بدأ البوليس القيصرى فى اتخاذ تدابير مشددة . وفى عام ١٨٨١ ، قام الراديكاليون باغتيال القيصر ألكسندر الثانى . وانتهت بذلك المرحلة الليبرالية .

ويتعجب المرء ، كيف يمكن للأزمات أن تتعاظم إلى هذه الدرجة ؟ والإجابة الظاهرة تكمن فى الحقيقة الغريبة القائلة بأن الدولة الروسية كانت أكثر اطمئنانا من سواها من الدول إلى ما لديها من عائد هائل من البترول . فبينما كانت الأزمات فى كل مكان ، فإن هذه الطمأنينة جعلت رد فعل الدولة بطيئا .

وكانت الفترة ١٨٨١ - ١٩٠٥ أوتوقراطية . فالقيصر ألكسندر الثالث (١٨٨١ - ١٨٨٤) وخلفه القيصر نيكولا الثانى (١٨٩٤ - ١٩١٧) حاولا تعطيل الإصلاحات الليبرالية حتى فاق ذلك القدرة على الاحتمال مع ثورة ١٩٠٥ . وقد حاولا فى سياستهما الاقتصادية ، أن يضعا القيود على الرأسماليين المحليين ، بينما يسمحان للأجانب والأقليات أن يلعبا دورا أكبر فى التجارة والصناعة .

وفى مجال السياسة ، قلت أهمية المؤسسات الليبرالية مثل الزمستفوس Zemstvos وانتهى الأمر بعدد من المثقفين الذين ساندوها إلى مغادرة البلاد أو التقاعد . فلم تعد هناك حاجة إليهم ، إذ أصبح القياصرة الآن يعتمدون على نصائح المستشارين . وبعد

عام ١٨٨١ ، كان أهم أولئك المستشارين كونستانتين بوبيدو لوستيف (١٨٢٧ - ١٩٠٧) مفوض المجمع المقدس ، وديمترى تولستوى وزير الداخلية .

وبدءاً من عام ١٨٨١ ، بدأ ألكسندر الثالث بنشاط يحول مسارات الخط لدى الفلاحين إلى الدين وإلى نزعة العداء للسامية وبعيدا عن المسائل السياسية والاقتصادية الأكثر أهمية . ويبدو أن سياسته تلك قد حققت من النجاحات ما جعلها تستعاد مرات عدة فى المراحل الأوتوقراطية اللاحقة .

وقد أخذت ميول ألكسندر الثالث المعادية للسامية تظهر منذ بداية حكمه . وكرد فعل فورى ، ترأس إيفزل جينزبرج ، وهو يهودى ورجل بنوك بارز ، وفداً يهوديا ، لمقابلة القيصر الجديد ومحاولة استرضائه ، إلا أن البعثة فشلت ، ومضى ألكسندر قدما فى سن التشريعات التى تميز ضد اليهود فى ملكية الأرض . ويستنتج الباحثون من ذلك أن سياسة تبنى العداء للسامية من أعلى شجعت الممارسات المعادية للسامية فى المستويات الأدنى . وهو أمر بدا واضحًا بعد ١٨٨١ . فمثيرو الشغب وحتى البوليس المحلى شعر بأنه لا قيد عليه فى إدانة اليهود والليبراليين . لكن الدراسات الحديثة لتلك الأحداث أوضحت ملامح أخرى . فاضطهاد البوليس لليبراليين واليهود سبق فى الواقع اللحظة الحاسمة فى ١٨٨١ حين بدأ النظام رسميا يهاجم الليبراليين ، الأمر الذى يجعلنا نتبنى منظورا مغايرا يعتبر أن البوليس هو الذى ساعد فى التمهيد للتحول إلى الأوتوقراطية . وكما تشهد كتابات المؤرخ روى ميدفيديف الذى سنستشهد به لاحقا ، وكتابات ليبرالية أخرى ؛ فإن البوليس كمؤسسة قومية - شعبية ما زال يواصل هذه الممارسات حتى اليوم .

وخلال فترة حكم ألكسندر الثالث ، وبينما كانت الثقافة الليبرالية الرأسمالية محاصرة ؛ شهدت روسيا صعودا مفاجئا للتدين وللنشاط التبشيرى . وفجأة شعرت القيادات الدينية بقدرتها على استئناف جدول أعمالها . فأخذت تطالب الدولة بالعودة إلى اضطهاد (*) المؤمنين القدماء واليهود ، و «بروسنة» بولندا بدرجة أكبر ، وبأن تضمن الكنيسة لنفسها السيطرة على نظام التعليم الابتدائى ، وأخيرا ، بأن تعترف الدولة بمكانة الشخصيات الدينية الشعبية مثل : أنّا كاشينسك .

(*) المؤمنون القدماء (القدامى) : المنتمون لحركات دينية حدثت داخل الكنيسة الأرثوذكية الروسية ، والتى رفضت قبول إصلاحات الكنيسة التى أدخلها البطريرك «نيكون» فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . (المترجم) .

وخلال تلك الفترة تبلورت قوة الكنيسة فى مثقف ذى مكانة عالية جدا وشخصية محبوبة هو اللاهوتى فلاديمير – ولوڤييڤ (١٨٥٣ – ١٩٠٠) ، وهو أحد شخصيات التاريخ الروسى الحديث ، تطاول مكانته مكانة لينين . وقد كان سولوڤييڤ ، مثل كثير من القيادات الكنسية الروسية ، مؤمنا بوحدة الوجود . وبصفته تلك أدى شرحه [*] لمذهب «صوفيا» العرفانى إلى جعل معرفة الله فى متناول الروس الأرثوذكس العاديين ، مجددا بذلك مكانة الكنيسة ومعظما من قوتها الخلاصية .

وقد شهدت روسيا ، فى عصر سولوڤييڤ ، كثرة زيادة أديرة الرهبان والراهبات والالتحاق بها ، وتحول كثير من النساء الفقيرات إلى رسم الأيقونات مصداقا – فيما يبدو – لتأكيدات سولوڤييڤ على الطبيعة الخلاصية للحياة المسيحية .

ويبدو أن نساء الطبقات الفقيرة كن يفضلن الأوتوقراطية والكنيسة على المؤسسة الليبرالية ، على الرغم من أن بعضهن ، بعد اتضاح عدم قدرة الكنيسة ومن بعدها الحزب على حمايتهن ، أفاق من الوهم أو انسحب من السياسة . ولذلك نجد أنه فى «الثورة الثقافية» ، وهى فترة أوتوقراطية لدينا معلومات وفيرة عنها ، تبين الدراسات أن النساء ، وكثير منهن فقيرات غالبا ، أصبحن ذوى أهمية فى المستويات المحلية للحزب وفى حركات الشباب ، وهو أمر كان يحدث للمرة الأولى . والسبب فى عملية «التسييس» هذه يبدو واضحا . فالنساء تتخذن هذه المواقف لتكسبن شيئا معنيا أو لتستعدن شيئا مفقودا . فقد عادت قوانين الطلاق ، مع مجئ الثورة الثقافية ، إلى ما كانت عليه فى فترة حكم القيصر ألكسندر الثانى . وبتعبير آخر ، أصبح الطلاق ، فيما بعد عام ١٩٢٨ ، يتطلب اتخاذ إجراءات رسمية ولا يتم عرضا . فالطلاق الذى يتم عرضا يسبب الضرر لفقراء النساء ، وقد حاربن ضده عدة مرات من خلال النظام وربحن القضية ، إلا أن هذه العملية أساءت – دون قصد – إلى نساء المدن العاملات ، اللائى حصلن على حريتهن من خلال قوانين الأحوال الشخصية الأكثر ليبرالية فى الفترات الليبرالية مثل «النيب» [٩] . وعلى سبيل المقارنة ، فإن عضوية نساء الطبقة الدنيا فى المنظمات الحكومية ، انخفضت فى الفترات الليبرالية : فى القرن التاسع عشر ، وفى

(*) مذهب «صوفيا» : Sophia mysticism · مفهوم يرد فى الفلسفة الكلاسيكية والوسيطة ويرتبط بإدراك الأشياء على أنها مليئة بالمعنى وذات نظام متناسق ، وكان اللاهوتيون الروس يستخدمونه بمعان مختلفة . والجانب الأرضى فيه يشير إلى المبدأ التنظيمى المتمثل فى وحدة كل البشر المتجسدة فى الكنيسة المسيحية . (المترجم) .

فترة «النيب» ، وفى سنوات الوفاق الدولى الحديثة . فالعضوية لم تكن من بين اهتماماتهن .

وربما كان من المفيد هنا التأكيد على أنه لا الكنيسة ولا القيصر كان باستطاعته حماية الطبقات الدنيا من حقائق الرأسمالية القاسية . فالأوتوقراطية ، بوصفها الغطاء على الصراع الطبقى تكون قد أدت دورها . إلا أن الأرباح التى تأتى بها الليبرالية تجعلها ذات جاذبية مرة أخرى على الرغم من أنها خيار يحمل أخطاراً متزايدة . وقد شهد عام ١٩٠٥ انعطافا إلى الليبرالية ، كما شهد أيضا ثورة عنيفة . والواقع أنه منذ ١٩٠٠ ، لاحظ المصلحون أن الفلاح كان ينتظر منه أن ينتج أكثر بينما لا يسمح له بإبداء الرأى فى الأمور . لكن ذلك كان جزءاً من منطق الأوتوقراطية . فخوفا من قوة الكومونات الفلاحية ، عين القيصر ألكسندر على رأسها ناظرا للزراعة كان يتم اختياره من بين طبقة النبلاء المحليين . وبذلك ، سمحت الدولة للصيغتين الأساسيتين المتناقضتين : إقطاعية النبلاء ، ورأسمالية أغنياء الفلاحين ، أن تظهرا على السطح وتتصادمان . وهذا الوضع لم يكن ليشكل أهمية فى بلد مكتمل التصنيع ، لكن روسيا فى ١٩٠٥ كانت لا تزال بلدا زراعيا . فليس من المدهش أن تكون ثورة ١٩٠٥ ، التى حركتها أزمات من أعلى ومن أسفل ، راديكالية للغاية بصورة جعلتها فى الواقع تهدد النظام [١٠] .

وبدءاً من عام ١٩٠٥ ، رسخت الليبرالية وجودها حتى عام ١٩١٧ . فقد كانت تلك هى الفترة البرلمانية ، التى شهدت ازدهار «الدوما» وفى ١٩٠٥ تمت استعادة مكاسب الطبقة الوسطى . وأصبح بإمكان النساء أن يلتحقن من جديد بالجامعات المحلية ، ولم يعد الموسرون مضطرون إلى إرسال بناتهم للدراسة فى سويسرا [١١] . على أن الليبرالية حتى فى سنوات مجدها كان عليها أن تشارك فى الانتكاسات أيضا . فقد وقعت الهزيمة فى الحرب الروسية - اليابانية ١٩٠٤ - ١٩٠٥ ، ثم تلتها الخلخلات والانتكاسات التى سببتها الحرب العالمية الأولى .

وقد حاولت الإصلاحات الزراعية الكبيرة ، إصلاحات «ستوليبين» فى ١٩٠٦ ، تعميق الرأسمالية فى الريف عن طريق تقوية علاقات الملكية . فاتخذت تدابير احتياطية للتغلب على ميراث الكومونات ، لكنها فشلت مثلما فشلت أيضا الجهود التى بذلت لزيادة التراتب الطبقى داخل العائلة عن طريق حصر الملكية فى رأس الأسرة . وعلى أية حال ، فقد جلبت رأسمالية السوق الحر الدمار ، كما فعلت فى الماضى ممهدة الطريق للانعطافة التالية إلى الأوتوقراطية ، التى جاءت مع ثورة ١٩١٧ .

فقد شملت الفترة فيما بين ١٩١٧ – ١٩٢٢ فى الواقع ثلاث مراحل (ثورة ١٩١٧ ، الحرب بين الشيوعية ويسار العمال ، والانتقال إلى النيب) ، تمثل جميعا تحركا للبندول من الليبرالية إلى الأوتوقراطية . فقد جاء البولشفيك إلى الحكم ، ليحلوا محل الملكية والارستقراطية . إذ استولوا على السلطة بوصفهم طليعة الطبقة العاملة . لكن سرعان ما وجدوا أن ليس باستطاعتهم الاحتفاظ بهذه الصورة . فقد كانت الطبقة العاملة الروسية أكثر راديكالية مما كتب عنها ماركس ، وأكثر مما كتب عنها البولشفيك من قبل . لذلك ، عندما استولوا على السلطة ، شعروا أن ليس هناك مفر من قمع الطبقة العاملة .

وقد حاول البولشفيك تأسيس قاعدة لهم وسط عمال موسكو ولينينجراد المهرة ذوى الميول المحافظة ، لكن الغالبية العظمى من العمال ، فى عام ١٩١٧ ، لم تكن تتكون من العمال المهرة أو المحافظين ، بل كانت جذورها ما تزال ضاربة فى الريف وفى الكنيسة ، وكانت تعتنق أفكارا راديكالية واسعة المدى . وبالإضافة إلى ذلك ، لم يكن العمال يبحثون عن قيادة جديدة ، فقد كانت لديهم منذ زمن طويل سياساتهم وتحالفاتهم .

وعلى ذلك ، فبدءًا من ١٩١٧ ، جاء الحزب ليمثل جنين الطائفة الحاكمة التى كانت الطبقة العاملة تقف خارجها . ويبدو أن لينين ، وحده من بين القادة البولشفيك ، هو الذى أدرك مدى المأساه التى يعيشها الحزب . وجاءت نهاية حلم الثورة تحت ضغوط «الحرب الشيوعية» ؛ ففى عام ١٩٢١ ، وجد البولشفيك المنتصرون أنفسهم فى مواجهة العمال والفلاحين كما حدث فى المراحل الأوتوقراطية السابقة . وكان على الليبرالية أن تعاود الظهور على وجه السرعة .

وقبل أن نتناول بالتفصيل الليبرالية السوفيتية ، علينا أن نناقش مسألة أخيرة . فما هو نوع التفسير للثورة الروسية الذى يتسق مع شكل الاقتصاد السياسى الخاص بالطريق الروسى ؟ هل علينا أن نؤكد على الاتصال أم الانقطاع فى التاريخ الروسى ؟ إذ يبدو من الواضح أن هذه كانت ثورة بالمعنى العام للكلمة ، وإن لم تكن بالمعنى الذى تصوره ماركس ، ولا بمعنى أنها غيرت وجه الطريق الروسى .

لقد ظل الإقطاعيون والرأسماليون يحكمون الجماهير ، منذ آلاف السنين . ومع الثورات البرجوازية ، مثل ثورات ١٧٧٦ ، و١٧٩٨ ، أعلنت الطبقة الوسطى نهاية التاريخ ، فقد أصبح بإمكان الفرد «ذى الجدارة» أن ينال ما هو جدير به على الأقل فى

ظل الديمقراطية . وقد كانت الثورة الروسية علامة أخرى على التقدم فى طريق التحرر الإنسانى . فقد جاءت بجزء من الطبقة العاملة إلى السلطة وأقصت عنها أجزاء من الطبقة الحاكمة القديمة . فمهما كانت أوجه الخلل ، ومهما كانت الإخفاقات فى قيادتها ، ومهما كان قصر الفترة التى عاشتها ، فإنها كانت الحدث الأول من نوعه . فقد أثبتت أن حكم الملكية الخاصة ليس أبديا ، فحتى الطبقات الحاكمة البرجوازية وأبنية السلطة الخاصة بها يمكن الإطاحة بها ؛ وأن هناك بالتالى أملاً فى أن تتحقق الحرية ذات يوم للكثيرين وليس فقط للقلة من المحظوظين فى إطار الأنظمة الديمقراطية . فبهذا المعنى هزت الثورة الروسية العالم .

وفيما بين عامى ١٩٢٢ - ١٩٢٨ ، شهد الاتحاد السوفيتى انعطافة من الأوتوقراطية إلى الليبرالية ، كانت مزيجا غريبا من الاشتراكية والليبرالية تسمى «السياسة الاقتصادية الجديدة» (نيب) . وكانت فترة زاخرة بالتناقضات . فقد كان البولشفيك معزولين دوليا ، ومشغولين برفع مستوى الإنتاجية فى الزراعة من خلال وسائل رأسمالية ، وغير قادرين على إرغام الفلاحين على توريد محاصيلهم إلى السوق حتى من خلال عمليات رأسمالية . وقد كانت «النيب» ، فى أحسن الأحوال ، حلاً مؤقتا ، وواجهت أزمة فى أواخر العشرينات . وقد دفعت مقاومة الفلاحين لمطالب الدولة ، ستالين والعديد من القادة إلى الاعتقاد بأن الكولاك يختزنون الإنتاج الزراعى أو يقومون بتخريبه ، وهو اعتقاد ظهر فيما بعد أنه كان مبالغا فيه . وأيًا كانت الأحوال ، فقد قرر الحزب عند هذه النقطة أن يتحرك . فاتخذ قرارا بإنشاء المزارع الجماعية ، وبالمضى قدما فى طريق التصنيع أيًا كانت التكلفة .

وقد كانت «الثورة الثقافية» (١٩٢٨ - ١٩٣٢) فترة معقدة فى التاريخ الروسى . فقد كانت مؤشرا إلى الانعطاف قصير المدى إلى الأوتوقراطية ، لكنها انعطافة من نوع جديد ، من نوع محموم إلى حد كبير ، والسبب فى ذلك هى أنها كانت أيضا مؤشرا لتغير جديد طويل المدى ، يسمى فى هذه الدراسة (*) «إدماجية» (corporatism) وهو تغير يعلن عن دخول الطبقة المتوسطة الدنيا إلى الساحة السياسية ، وهو حدث يعرف عموما فى الدراسات التاريخية على أنه صعود الطبقة الجديدة . فأحد زوايا النظر إلى الفترة من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٢ هى أنها كانت آخر المراحل الأوتقراطية التقليدية ؛ وكانت

(*) الإدماجية : النظام الإدماجى : نظام سياسى يقوم على إدماج المؤسسات السياسية والاقتصادية والنقابية فى بنية الدولة حيث تخضع لرعايتها وإشرافها ورقابتها . (المترجم) .

بنفس الدرجة ميلاداً للمجتمع المعاصر ، إذ تمثل تغيرا فى الطريق الروسى ؛ حيث بطأت فيه حركة البندول واتسعت حتى أصبحت حلزونية ، وهذه الحركة الحلزونية ظلت حتى ١٩٥٦ أكثر سلطوية ثم أصبحت بعد ذلك أكثر ليبرالية .

ومفتاح فهم هذه التغيرات التى أدت إلى الإدماجية وإلى توسيع نطاق النظام السياسى ، هو ارتباطها بتقدم التصنيع السوفيتى . فقد أدى التصنيع إلى تكون طبقة جديدة ، وأرغم النظام السياسى على الانفتاح . فإذا كانت الطبقة الحاكمة فى العصر الليبرالى تتميز بأنها تتكون من مجموعة صغيرة مغلقة على نفسها من المستثمرين الماليين ؛ فإن الطبقة الحاكمة فى فترة الإدماجية كانت أكبر كثيرا وأقل تجانساً ، وأكثر انتشاراً خارج حدود الاتحاد السوفيتى ، الذى كان متجها إلى لعب دور «الدولة العظمى» .

على هامش ظاهرة القوة العظمى

ويظهر الاتحاد السوفيتى ، أيضا ، عند هذه النقطة ، سمة أخرى من سمات النظام الحديث للهيمنات هى : ظاهرة القوة العظمى . والديناميات التى أبقت الاتحاد السوفيتى فى وصفية القوى العظمى منذ نهاية الثورة الثقافية حتى التفاهم الدولى فى عهد بريجنيف ، تمثلت فى الائتلاف الطبقى بين الطبقة الحاكمة وبين الطبقة العاملة ، وهو الوضع الذى أتاح للنومينكلاتورا السوفيتية درجة غير عادية من الحرية فى السعى إلى تحقيق مصالحها . فطالما أن الطبقة العاملة تأخذ نصيبها من ارتفاع مستوى الحياة ، فلن تكون هناك تحديات . فخلال هذه الفترة ، أصبح الرأسماليون قادرين على إعادة تنظيم أماكن العمل وعلى تحديث التكنولوجيا وفقا لإرادتهم . وكان بمقدور السياسيين الدخول فى مغامرات فى السياسة الخارجية . كذلك ، فإن وضعية القوى العظمى أتاحت للدولة قدرا أكبر من إضفاء السرية على اتفاقاتها ، فاتحة الباب بذلك لاتفاقات حتى مع الجريمة المنظمة ، وهو ما يسمى الآن فى الولايات المتحدة «بالسياسات العميقة» . وقد بدأت ظاهرة القوى العظمى فى الذبول فى فترة «دفء العلاقات» . ففى هذه الفترة ، أخذت الطبقة العاملة تنسحب من الائتلاف بتأثير شعورها بأن التضافر بين هجرة الوظائف إلى الجنوب وإلى أوربا الشرقية والعالم الثالث من ناحية ، واحتمالات الميكنة من ناحية أخرى ؛ يضعف من وضعها . وتلت ذلك الفترة المسماه بفترة «دفء العلاقات» ، التى تميزت بإبرام عدد من الاتفاقات التهادنية مع الغرب . وظاهرة القوى العظمى ، كما ستبين الفصول التالية ، هى حالة شاذة ،

تتميز بالتوسع ، وبالعسكرة ، وبالسعى الحثيث إلى التفوق التكنولوجى . وكثيرا ما تكون القوى العظمى مصدرا للقلاقل فى العالم . وهى تميل إلى أن تكون غيورة على وضعها وتشعر بأن القوى الأخرى منافسة لها ، الأمر الذى يفسر لماذا تكون هذه الدول مهيأة للدخول فى حروب مع أكثر من طرف فى وقت واحد ، مثلما هو الحال بالنسبة لألمانيا والعراق ؟

والقوى العظمى لا تنشأ جميعا عن هيمنات الطريق الروسى ، لكن كثيرا من دول هذا الطريق تفعل ذلك ، مثل اليابان والصين والعراق . وفى حالة السوفيت ، أدى نمو «الإدماجية» كمرحلة فى تاريخ هذه البلدان إلى ظاهرة القوة العظمى بصورة سريعة . غير أن الظاهرة ليست نتاجا للإدماجية فى جميع الحالات . ومن المؤكد أنه ليست كل الدول التى تصل إلى الإدماجية تتحول إلى قوى عظمى ، فمعظمها لا يفعل ذلك .

ودعونا نوضح فى هذا السياق شيئا موجزا عن حالة المملكة المتحدة وألمانيا . فهذان البلدان هما مثالان من أمثلة القوى العظمى ، التى نشأت من الليبرالية بدلا من الإدماجية .

ففى حالة المملكة المتحدة ، نجد أن الطبقة العاملة ، منذ أواخر العصر الفيكتورى ، كانت حليفا موثوقا به ، بصورة متزايدة ، للدولة . وقد حدث ذلك قبل مجئ الإدماجية بسنوات عديدة . واللافت للنظر هنا هو أن مرحلة القوى - عظموية كانت متطابقة مع سنوات قمة الإمبراطورية وليست مع النظام الإدماجى الذى امتدت مرحلته إلى ما بعد ذلك . وقد حدث انهيار كل من القوى - عظموية والإمبراطورية أثناء الحرب العالمية الثانية ؛ حيث شعرت الطبقة العاملة أنه بينما كانت ثروتها تتزايد ، كانت قوتها تضعف . فلم يكن لها مستقبل لا مع القوى - عظموية ولا مع الإمبراطورية . فالعمالة تذهب إلى الخارج ، ومهاجرو المستعمرات يأتون إلى الداخل ؛ والدولة لم تكن تمنع الهجرة ، ولم تكن تقيم الحواجز الجمركية ، ولا كانت تعيد بناء الصناعة .

أما فى حالة ألمانيا ، فقد جاءت العلامات الأولى للقوى - عظموية مع بسمارك ، فقد وعد الطبقة العاملة أن يقوم لها دولة الرفاهية مقابل ولائها السياسى والاقتصادى وهو ما منحته إياه على أقل تقدير . لكن ألمانيا ، فى ذلك الوقت ، لم تكن ديمقراطية ، وإنما كانت من بلدان الطريق الإيطالى . فالجنوب كان فلاحياً سوقًا للعمل الرخيص . وكانت الطبقة العاملة تشكل جزءاً قليلا من قوة العمل وتعيش أساسا فى الشمال .

وفلاحو الجنوب لم يستجيبوا لبسمارك . وهذا ما جعل بسمارك يقف على الحدود الخارجية لصراعات القوى العظمى فى زمانه . ولم تصبح ألمانيا شريكا قويا فى هذه الصراعات إلا فى سنوات جمهورية فايمار وهتلر الأخيرة . ففى ذلك الوقت ، كانت الهيمنة فى ألمانيا قد تغيرت : فالألمان الجنوبيون أصبحوا مواطنين ، والبلد أصبحت برجوازية ديمقراطية ، والمواطنون الجنوبيون مثل المواطنين الشماليين كانوا منجذبين إلى الدولة .

وقد يسأل سائل : لماذا نأخذ فى الاعتبار هذين البلدين دون سواهما ؟ هل يعنى ذلك أن بلدان الديمقراطية والطريق الروسى هى البلدان التى لديها نزعة لتكوين قوى عظمى ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فهل تقوم هذه الفكرة على تصور علاقة حتمية بين التكنولوجيا وبين ظاهرة القوى العظمى ؟ هلى تعنى أن بسمارك كان ينقصه شئ مثل القنبلة الذرية ؟ من الواضح أن القدرة على إنتاج أسلحة متقدمة هى أحد أشكال القوة . على الرغم من ذلك ، فإذا كانت بعض بلدان الديمقراطيات والطريق الروسى قد اتجهت للتحول إلى قوى عظمى فمعظم البلدان الأخرى من نفس الطريق لم تفعل ذلك . والأمر البادى هو أن بعض البلدان تملك قدرات نووية لكنها لا توظفها فى صنع أسلحة ، بينما هناك بلدان أخرى لا تملك مثل هذه القدرات لكن لديها الدافع والقدرة على سرقة الأسلحة . والخلاصة : أن المعلومات المتوفرة لدينا ، تلقى ظلالاً من الشك على وجود رابطة بين التكنولوجيا ونوع الهيمنة من ناحية ، وبين ظاهرة القوى العظمى من ناحية أخرى .

ومن الواضح أن هناك أمثلة للقوى – عظموية فى الهيمنات الأخرى . ألم يقدم لنا الطريق الإيطالى مثلا : إيطاليا – موسولينى ، أو مصر – ناصر ، أو هند – نهرو ، هذا إذا صرفنا النظر عن ضرب أمثلة من طرق تاريخية أخرى مثل الطريق الاثنى – القبلى مثل كوريا – كيم ال سونج ، أو فيتنام – هوشى منه . فنحن هنا أمام بلدان قوية بدرجة تجعلها تستثير عداء القوى العظمى الأخرى القائمة وقتها . تذكر مثلا حرب فيتنام .

وأخيرا ، هل من المفيد أن نعتبر أن ظاهرة التحول إلى قوة عظمى صفة ثابتة لمرحلة معينة أم أنها – بدرجة أكبر – مسألة مد وجذر ؟ ففى حالة الولايات المتحدة ، جاءت الموجة الأولى للقوى – عظموية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . وأنتجت حكاما شديدى الثقة بأنفسهم مثل ماكيندى وروزفلت . ثم جاءت فترة سكون ؛ حيث عانت النخبة السياسية «الشرقية» من ردة انعزالية . ثم تلى ذلك ، عودة للقوى –

عظموية من الثلاثينيات حتى السبعينيات ، تعلو وتهبط لكنها لم تكن تسير بسلاسة . فالعلاقة الائتلافية بين العمال والدولة لم تكن نامية أبدا فى الولايات المتحدة مثلما كانت لدى بعض القوى العظمى الأخرى . فالعمال لم يكونوا أبدا عنصريين ولا مخلصين بدرجة تجعل الرأسماليين يثقون فيهم ، وأخيرا ، فحينما أخذ القلق يتزايد لدى الطبقة العاملة أثناء حرب فيتنام ، بدأت الواجهة تنحسر . تذكر «الحروب الباردة» ، و «الرعب الأحمر» ، و «الحرب ضد الجريمة» ، وما إلى ذلك .

وإجمالا ، فإن المفاهيم السائدة حول القوى - عظموية لم تتأسس بعد بالدرجة الكافية بالقياس إلى متطلبات الاقتصاد السياسى والتاريخ الاجتماعى ، مما يفسر هذا الهامش الطويل إلى حد ما . فمن الواضح أن التواطؤ ، وهو العامل الذى تم التركيز عليه هنا ، يجب أن يدرس أكثر . فهو لا يعنى تآمرا ، ولا إجماعا ، وإنما هو أقرب إلى الصراع الطبقى ، ويجب أن يدرس فى هذا الضوء . فحينما يصبح هذا التواطؤ بلا فائدة للطبقة العاملة ، فإنها تميل إلى التخلى عنه مما يعنى نهاية القوى - عظموية . على أن التاريخ الحديث للولايات المتحدة ، يعتبر استثناءً جزئيا من ذلك ، إذ بيّن أن القوى - عظموية يمكن أن تمتد حتى فى فترة الليبرالية عن طريق تصعيد حدة العنف الداخلى ضد منتقديها .

وبينما شهدت «الثورة الثقافية» بلا شك تغيرات سياسية واقتصادية بسريعة وعنف غير مسبوق ، فإنها لم تشهد أى تغير أساسى فى الهيمنة ، حيث إن العناصر المسيطرة كانت مستعدة لتقديم التنازلات الضرورية للسماح لمزيد من الأفراد بالدخول فى «الطبقة الجديدة» ، التى هى القاعدة الجديدة للطبقة الحاكمة . وحينما أصبحت الثورة الصناعية أكثر قوة ودعمت الطبقة الجديدة موقعها ، كبحت الدولة جماح العنف . ووصلت «الثورة الثقافية» إلى نهايتها ، وانبعثت مرحلة أوتوقراطية جديدة .

وبدءًا من هذه الفترة ، أصبح لدى النظام ، ولأول مرة ، الدافع والقدرة على تحويل التناقضات الطبقية بعيدا عن أرضه إلى مناطق أكثر بعدا مثل آسيا الوسطى وأوربا الشرقية . وقد قبلت الطبقة العاملة والمتوسطة الدنيا هذه السياسات وكانت هذه نقطة حاسمة . فالنظام الإدماجى يعنى اقتسام السلطة . وعامل المصنع فى ١٩٣٢ لم يكن هو نفس عامل ١٩٠٥ . فقد كان لديه حق الرفض ، مما يلزم بنية القوة أن تنصت له ، وقد أنصتت . فالحقيقة ، أنه بحلول الخمسينيات ، أصبحت الحكومة تجرى

استطلاعات رأى منتظمة ، وفى الثمانينيات ، كان بمقدور الرأى العام أن يفرض التغيير [١٢] .

وكان الريف السوفيتى أيضا جزءاً مهما فى عملية التحول إلى الإدماجية ، وإن كان دوره مختلفا عن دور المدينة . وقد كان أحد أولويات «الثورة الثقافية» هو تكوين مزارع جماعية . فمثل هذه الخطوة لم تكن تمنح الدولة السيطرة على الإنتاج الزراعى الذى تريده فحسب ، بل كان من شأنه أيضا أن يفصم روابط الطبقة العاملة الروسية عن جذورها الريفية . إذ كان يعنى تحويل العامل إلى بروليتارى أكثر اعتمادا على الأجر مما جعله أقل راديكالية .

ولكى يتحقق هذا التحويل البروليتارى وتتحقق تهدئة الأوضاع ، كانت الدولة السوفيتية على استعداد ليس فقط لتشجيع الصناعة بل أيضا لتشجيع عدد متزايد من العمال المثاليين على الدخول فى «الطبقة الجديدة» . وتشير الدلائل إلى أنه مع تصاعد مقاومة الفلاحين لسياسات الدولة الزراعية ، كانت الدولة تقدم مزيدا من التنازلات لقوى العمل الصناعية ، سامحة لها كلما أمكن باستخدام عمل السخرة توفيرا للنفقات ، آملة بذلك أن تستبقيها كحليفة لها .

وما برز هنا ، إذن ، هو قوة المعارضة التى أوجدها النظام الإدماجى والمزارع الجماعية فى الأرياف . ففى وجه المزارع الجماعية ، كان الفلاحون يقاومون ، فيتمسكون بشدة بأراضيهم الخاصة وبأكبر قدر من الماشية يستطيعون الاحتفاظ به . وحينما طلبت الحكومة الماشية للمزارع الجماعية ، قام الفلاحون كحل أخير بذبحها ليمنعوا ذلك الإجراء . وقد بينت دراسة قامت بها الحكومة فى ١٩٣٨ أن الأراضى الخاصة تبلغ مساحتها ٣٫٩٪ فقط من الأرض المزروعة ، لكنها تنتج ٤٥٪ من الناتج الإجمالى ، وكانت بالتالى الدعامة الأساسية للعائلة الروسية . وكان الانطباع العام فى الأرياف هو أن العائلات التى لا تعمل فى المزارع التعاونية تتمتع بأحوال معيشية أفضل من تلك التى تعمل بها . كما سرت إشاعات تتعلق بالناحية الجنسية مفادها أن نساء الفلاحين لم يكن يردن العمل فى المزارع الجماعية لأن بها علاقات جنسية حرة . وقد كشفت دراسة حديثة عن أن العدد الإجمالى لأعضاء الحزب هبط فى الريف بدرجة كبيرة خلال سنوات ١٩٢٧ - ١٩٣٩ [١٣] .

وقد مضت عملية التصنيع بسرعة ، على الرغم من ، أو كما أتصور أنا ، بسبب ، المقاومة فى القطاع الزراعى . فمن الواضح أن عمل السخرة قد لعب دوراً فى هذا

النمو السريع . إذ يبدو أن مصالح كل من الحكام والطبقة العاملة التقت عند هذه النقطة . فقد تخلصت أعمال السخرة من منتقديها مثل الأوكرانيين والبولنديين وحتى بسجناء الحرب . وثانيا ، أنه انجز عمل السخرة أكثر أجزاء العمل الصناعى مشقة . وثالثا ، كان عمل السخرة مقبولا لدى الطبقة العاملة الروسية . وهذا طبعا حكم مستنتج من حقيقة أن العمال لم يقاوموه . فقد كان نضال الطبقة العاملة فى تلك الفترة ، يدور حول القرارات المؤثرة على معايير الإنتاج ، واستخدام التدابير النظامية والسيطرة على وسائل الاتصال من قبل الإدارة ، لكنه لم يدر حول عمل السخرة . (١٤) وفى الثلاثينيات أيضا ، قامت مجموعة صغيرة ولكن مؤثرة من العمال ، غالبا فى الصناعة الثقيلة ، بتحدى المعدلات اليومية المعلنة للإنتاج مصرّين على أنها مخفضة عمدا . كانت هذه هى مجموعة الستاخانوفيين . وقد ظهر الستاخانوفيون باعتبارهم فئة عمالية صاعدة ، لقيت المديح من المسئولين فى موسكو ، وصب عليها اللعنات المديرون المحليون وفئات العمال العاديين . ويعتبر صعودهم جزءاً من إعادة صياغة البناء الاجتماعى التى عرفت بصعود «الطبقة الجديدة» (١٥) .

وأخيرا ، يجب ملاحظة أن نمو الطبقة العاملة ، ونمو «الطبقة الجديدة» ، وحتى نمو المدن ، يعتبر تحديا ، كل بطريقته ، لنظام الطريق الروسى . لقد نشأت ولاءات جديدة ، كان يجب السيطرة عليها .

فخلال السنوات من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٩ ، زاد تعداد سكان مدن الاتحاد السوفيتى من ١٨ إلى ٢٤٪ من إجمالى السكان . وفى نفس الفترة تقريبا ، زاد عدد الطلبة الجامعيين من ١٦٨٠٠٠ إلى ٨١٢٠٠٠ (١٦) .

وهذه أمثلة على مكاسب الطبقة العاملة أو عدم قدرة الدولة على التحكم فى الوضع ، ومع استمرار هذا النمو ، ارتفعت طلبات المستهلك ، وبدأت الأوتوقراطية تنحل مرة أخرى .

إلا أنه خلال الثلاثينيات إلى الأربعينيات ، ومع رشوة الطبقة العاملة ، كان الاتحاد السوفيتى يلعب دورا هاما فى الشؤون العالمية . ويرى كثير من الباحثين أن تلك الفترة كانت أوج القوى العظموية السوفيتية .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، استمر الاتحاد السوفيتى فى امتلاك القوة الكافية لتجنب مشاكله وإلقائها على أوربا الشرقية التى استعملها كحجاب حاجز ضد الغرب ،

وكمنطقة لنهب قطع الغيار الصناعية ، وكمورد للعمالة الماهرة ، وكسوق محتكر لمنتجاته هو . وفيما بين ١٩٤٥ – ١٩٥٣ ، فرض الاتحاد السوفيتى اقتصادا موجها على هذه البلدان التى تألقت فى «ضوء منعكس» . وبعد ١٩٥٦ ، مع التحرر من الستالينية ، تخلص الاتحاد السوفيتى من زوائد هذه العملية لكن دون قطيعة حقيقية من النموذج نفسه [١٧] .

وطوال الفترة من ١٩٢٨ إلى ١٩٥٦ ، كانت المسائل الإقليمية مصدرا للتوتر بالنسبة للهيمنة . وهو ثمن يتحتم دفعه مقابل نقل الصراعات الطبقية من قلب البلاد إلى الأطراف [١٨] .

وبلغة السياسة ، كان الثمن الذى تحتم دفعه أن أصبحت الحاكمة أقل توحداً . إذ لم يقتصر الأمر على حدوث تمايز عنصرى ناشئ إلى حد ما عن اشتمال النظام فى نموه على عناصر غير روسية الأصل ؛ بل كانت هناك أيضا أزمة شبابية . فالشباب ، خصوصا فى المدن ؛ وهو المستفيد من الثورة ، لم يكن لديه دافع لتقديم التضحيات مثلما فعل آباؤهم . فلماذا يتعين عليه أن يفعل ذلك ؟

وبعد عام ١٩٥٦ ، اتجهت حركة البندول إلى الليبرالية ، وكان السبب فى ذلك هو الانقسامات داخل القيادة واغتراب الطبقة العاملة . وعلى ذلك ، أصبحت الطبقة الرأسمالية الروسية غير راغبة فى المشاركة فى السلطة . فالنشاط الرأسمالى ذو الطبيعة المغامرة يحقق لهم أرباحاً أكثر ، والربح بالنسبة إليهم أهم كثيرا من الحفاظ على الوضع الدولى للبلاد أو على ميراث الثورة .

والواقع ، أنه مع صعود الليبرالية الجديدة ، تم التنكر للماضى إلى حد كبير . وفى المؤتمر العشرين للحزب عام ١٩٥٦ ، وجهت لستالين الاتهامات بارتكاب الجرائم . وهو شئ غير مسبوق فى التاريخ الروسى والسوفيتى .

وبعد عام ١٩٥٦ ، استفادت نساء الطبقة المتوسطة ، كما حدث فى الفترات الليبرالية الباكرة ، فقد احتلت الحركة النسائية مكانة هامة ؛ إذ تم الاعتراف بالنساء كمشارك هام فى «الاقتصاد الخفى» ، وفى حركات «الحقوق المدنية» ، وحركات «اليمين الجديد» ، والاحتجاج البيئى ، والاحتجاجات من أجل بضائع استهلاكية جديدة وذات مستوى جيد [١٩] .

وبحلول السبعينيات ، أخذ الاقتصاد المالى الدولى يعجل من تأثير الليبرالية الجديدة فى الاتحاد السوفيتى .

وقد استطاع الأعضاء الهامشيون «للطبقة الجديدة» ، بعد شعورهم بالإحباط لعدم قدرتهم على السيطرة على مراكز اتخاذ القرار بموسكو ، أن يتوجهوا إلى البنوك والأعمال الدولية ، وإلى المصالح المرتبطة بالخارج . فقد اتجه الجنوبيون إلى البلدان الإسلامية ؛ بينما فعل ذو الأصول الروسية ذلك أملا فى الحصول على دعم سوف يحتاجونه لتحقيق مشروع مستقبلى خاص بإعادة مركزة «الاتحاد» من خلال شروط أكثر ملاءمة لهم . وتم التخلى ، فى المدى القصير ، عن التمسك بالوحدة القومية وعن المحافظة على الأيديولوجية . ولا يزال ثمة شعور ضئيل بأن السوفيت تخلوا عن الطريق الروسى . «فالليبرالية الجديدة» ، هنا ، كما فى البلدان الأخرى التى تناولها هذا الكتاب ، يبدو أنها تضع بذور نهايتها المبكرة من خلال إشاعة الفوضى ، وبذلك تفتح الباب لعودة النظام الإدماجى دون أن تحدث أى تغير حقيقى . وفى الاتحاد السوفيتى كما فى غيره من البلدان ، كان المستفيد من انهيار الاقتصاد الإنتاجى هو اليمين الدينى .

وماذا إذن عن الهيمنة المضادة ؟ ولماذا فشلت ؟ فى القرن التاسع عشر ، كانت راديكالية الطبقة العاملة لا يناظرها إلا القليل ، وكانت النضالات الفلاحية أيضا ذات شأن . ومع خمسينيات القرن العشرين ، انتقلت ساحة الهيمنة المضادة لكن ذلك لم يؤد إلى تحالفات من نوع جديد ، تحتاجه الطبقة العاملة لمواجهة النظام . وكان أحد أسباب ذلك أن الطبقة العاملة كانت إلى حد ما جزءاً من النظام . وربما جعل ذلك كثيرا من العمال لا يستطيعون رؤية مصالحهم الطبقية من منظور سياسى . فلم يستطيعوا مثلا أن يدركوا أن مصالحهم تكمن فى تحالفهم مع الشباب . والشباب الذى نعنيه هنا ينتمى للطبقة الوسطى . وثورتهم كانت ثورة ضد المستقبل وليست ضد الحاضر . كذلك أيضا لم يستطع العمال أن يروا مصلحتهم فى تحالفهم مع الجماعات الاثنية القومية فالمشاركة بينهم فى وضعية القهر لم يستطع العامل ذو الأصل الروسى إدراكها ، لأنها كانت محتجبة ورا اعتزازه بنفسه من حيث إنه متمكن من اللغة الروسية . واللغة الروسية ، هى فى نهاية الأمر ، لغة التقدم والتطور . كذلك غابت بالمثل رؤية العمال للعلاقة بالكنيسة . وفى ضوء هذه الانقسامات ، نرى من المفيد إلقاء نظرة أخرى على الدولة ، وأن نبحث الطريقة التى تنظم بها الثقافة وإقناع الجماهير ، فليس من قبيل المصادفة أن تكون التيارات التقدمية مجزأة على هذا النحو .

فإذا اتجهنا إلى بحث عملية تنظيم الثقافة داخل الطائفة المتميزة وجدنا أيضا

مجموعة معقدة من المشاريع الهادفة للفصل بين هذه الطائفة واهتماماتها وبين المجتمع ككل . وتتراوح هذه المشاريع ما بين اللغة من ناحية وبين العلم من الناحية الأخرى .

تنظيم الثقافة فى روسيا والاتحاد السوفيتى

كانت إحدى السمات الرئيسية للسياسة الثقافية للروس ثم السوفيت هى تشجيعهم للثنائية اللغوية بين الطبقات المتعلمة ؛ وهذا يعنى معرفة اللغة الروسية ، وبخاصة لهجة موسكو ، ومعرفة الفرنسية أو الألمانية أو الإنجليزية . وبينما تشكل اللغة علامة مميزة للطائفة ، فإنها تقوم بهذه الوظيفة بصورة أكثر فعالية حينما تكون الجماهير أمية تقريبا . وهو وضع بدأ يتناقص تدريجيا فى القرن العشرين . فعدد من يقرأ من الناس أخذ يتزايد ، والصحافة أصبحت شيئا مهما . وحتى أكون أكثر وضوحا ، فالصحفيون يميلون إلى استخدام لغة عامية ، وهذا بدوره يؤدى إلى تكوين دائرة متزايدة الاتساع من اللغة ذات المستوى العلمى ، وهى لغة تزيح جانبا أية لغة أخرى [٢٠] .

فأى قدر من العامية تسمح الدولة باستخدامه ؟ وفى أى موضع تصبح وظيفة اللغة كوسيلة اتصال فى تناقض ، مع دورها فى الإبقاء على الازدواجية الثقافية ؟

هذا سؤال صعب . وربما نستطيع أن نبدأ بأن نرى كيف تم تناوله بأن نلاحظ الاختلافات فى السياسة اللغوية بين المرحلتين : الليبرالية والأوتوقراطية . ففى المرحلة الليبرالية ، اكتسبت اللغة الروسية وبسرعة كلمات أجنبية مستعارة من اللغات الأخرى . وفى الفترات الأوتوقراطية ، اهتم الحكام «بالروسنة» بصورة أكثر حماسا ، ليس فقط عن طريق تقليل الكلمات المستعارة وإنما أيضا عن طريق زيادة استعمال الروسية الكلاسيكية بوصفها معارضة للروسية العامية لدى القوميات . وفى الفترة ١٩٤٦ – ١٩٥٥ كانت حملة «الكفاح ضد العالمية» المعروفة ، تستهدف الحد من استعادة الكلمات من الغرب . كذلك فاستعادة الروس لكلمات من لغات الاتحاد السوفيتى الأخرى كانت دائما محدودة فى أى الأحوال . إلا أن بعض الأنواع النادرة من التعبيرات التى استعارها الروس من لغات القوميات كانت تتعلق بالجريمة . من ناحية أخرى ، فإن تأثير اللغة الروسية على اللغات القومية الأخرى كان كبيرا .

لقد بدأت سياسة الازدواج الثقافى بأشكال اللغة ، لكن كان عليها فى نهاية الأمر أن تكون ذات محتوى خاص أيضاً . فالدولة يجب أن تكون قادرة على تصوير نفسها على أنها تجسيد للثقافة الرفيعة وأن تصور الجماهير من خلال الثقافة الشعبية ، أى

أن تضفى عليها طابع الفولكلور ، فليس مدهشا إذن ، أن تخصص لدراسة الفولكلور ولتطوير متاحفه مشاريعا هامة . لكن النظم الروسية والسوفيتية ، على أية حال ، واجهت ضغوطا متنوعة فى تنفيذ تلك السياسات . فالجماعات المسيطرة تريد عادة أن تكون مناطقها ممثلة لصورة بارزة ، بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى . لكن مع صعود الطبقة الجديدة تم وضع سياسة «عقلانية» ، وإن كانت متمركزة لصورة مبالغ فيها ، تختص بمجالات الفولكلور والآثار .

لقد ركز الباحثون ، فى القرن التاسع عشر ، على فولكلور الجنوب ، وأكدوا بالذات على اتسامه بالغرابة . وفى السنوات التى تلت الثورة البلشفية اتجه التركيز على «الثقافة الشعبية خاصة تلك التى توجد فى المناطق الهامة سياسيا مثل : روسيا القديمة ، بيلاروسيا ، وأوكرانيا .

وخلال نفس الفترة ، تركزت أبحاث علم الآثار أيضا على الجنوب ؛ ومن بين الموضوعات التى جذبت انتباه الباحثين كانت مسألة احتمال وجود رابطة بين الحضارات الروسية والهلينية والسيثنية (*) Seythian ، وفى القرن العشرين ، تحولت دراسة الآثار مثلما حدث بالنسبة لدراسة الفولكلور إلى الشمال ، فقد أصبح الاهتمام الجديد منصبا على اكتشاف الأصول القديمة للدولة الروسية الحديثة .

وتجد التوجه إلى الشمال فى تلك المجالات ، فى الصحافة وفى المؤسسات الدراسية . ففى ١٨٦٧ ، وافق القيصر ألكسندر الثانى على إصدار صحيفة متخصصة فى الاثنوجرافيا تغطى روسيا كلها ، تصدرها «الجمعية الجغرافية الإمبراطورية» . ثم افتتح ألكسندر الثالث ، فى ١٨٨٣ ، «متحفا تاريخيا» فى موسكو مخصصًا لمنتجات الطبقة الروسية العليا ، وفى تسعينيات القرن التاسع عشر ، تم إنشاء عدد من المعارض ، والمؤسسات المتخصصة الجديدة ، بل ومتحفا جديدا فى بتروجراد (لينينجراد) ، بهدف دراسة حياة الطبقة العليا فى المجتمع الروسى . وقد قام البولشفيك فى ١٩١٧ ، بتوسيع هذا المتحف بحيث أصبح يضم سبعا وأربعين قاعة تصف تاريخ الشعب الروسى .

ومع صعود «الطبقة الجديدة» فى الفترة الستالينية ، نما اتجاه لإقامة مؤسسات

(*) السيثنية : نسبة إلى شعب من البدو الرحل هاجر من سهوب روسيا فى القرن الثامن قبل الميلاد إلى منطقة شمال البحر الأسود . (المترجم) .

مركزية . مثال ذلك : «المتحف المركزى للدراسات القومية» بموسكو ، الذى أسسه البولشفيك فى وقت باكر وأعيد تنظيمه فى الثلاثينيات ؛ و «متحف شعوب الاتحاد السوفيتى» ؛ و «متحف الدولة لاثنوجرافيا شعوب الاتحاد السوفيتى» فى ليننجراد ؛ و «معهد الأبحاث العلمية لمناهج الدراسات الإقليمية» ، الذى أنشئ عام ١٩٢٠ ليقوم بالإشراف على المتاحف المحلية .

مع الستينيات ، وبينما كانت الليبرالية تشهد مزيدا من التقدم ، وكانت المسائل القومية تتطلب إجماعا أكثر فأكثر ، فتر الدافع لدى المركز للسيطرة على الثقافات المحلية . وبدأ انتشار المتاحف الشعبية المفتوحة فى أنحاء البلاد [٢١] .

أما مجال العلم ، وهو أحد مجالات الاهتمام الأخرى منذ القرن التاسع عشر ، فقد كان للدولة سياسة متميزة إزاءه . ففى المراحل الليبرالية للقرن التاسع عشر ، تبنت أكاديمية العلوم الإمبراطورية الاتجاه العالمى المعاصر «للعلوم البحتة» . لكن مع حلول المرحلة الأوتوقراطية مع ألكسندر الثالث وهى فترة تتجه أكثر إلى الداخل ؛ انتقدت الحكومة مدير الأكاديمية لسماحه للأجانب بالسيطرة عليها وبالإخفاق فى خدمة الأمة .

وقد أبدى أحد الباحثين المحدثين رأيا أوجز فيه تاريخ الأكاديمية وتاريخ العلم الروسى قبل الثورة بقوله : إنه من خلال تغيير السياسات ، فإن النظام يضع من بين أهدافه حل صراعاته الداخلية ذاتها . فهو يحتاج العلم لكنه لا يريد أن يقع تحت سيطرة الخارج . وأخذت الأبحاث الأساسية تجرى بصورة متزايدة داخل المؤسسات الأصغر المرتبطة مباشرة بالمراكز الصناعية ، وسمحت الأكاديمية لنفسها أن تصبح مركزا رمزيا للعلم [٢٢] .

وقد قامت «الأكاديمية الروسية للعلوم» (١٩١٧ – ١٩٢٥) ، فى الفترة التالية للثورة ، بإنجازات فى نظرية الاحتمالات وفى مجالات أخرى فى الرياضيات ؛ لقيت قبولا دوليا لكنها كانت غير متوافقة مع المادية التاريخية كما سيتضح فيما بعد . وأدى ذلك إلى حدوث صدامات . فالبولشفيك الأوائل ، كأنما كانوا يقتفون أثر ألكسندر الثالث ، إذ أخذوا يميلون بصورة متزايدة لأن يحددوا سياسة قومية للعلم ، ولأن يفرضوا على الأكاديمية طريقتهم فى التفكير أيضًا . وأخذوا يقيمون المؤتمرات التى تؤكد الرابطة بين العلماء وبين العمال الآخرين ؛ حيث إنهم يواجهون مشكلات مشتركة . أما خلال

فترة «النيب» فقد فتر هذا الصراع . واعترفت الحكومة بالوظيفة التى تؤديها أكاديمية العلوم ، وأكد م. ت. پوكروفسكى ، رئيس «الأكاديمية الشيوعية» ، على أن أكاديمية العلوم الروسية تعمل فى تكامل مع الأكاديمية التى يرأسها .

وحينما بدأت «الثورة الثقافية» ، دعا أ. م. ديبورين ، القائد المدافع عن الفكر الديالكتيكى ، إلى «علم سوفيتى» متحرر من العقلية الميكانيكية . وبحلول ١٩٢٩ ، أصبحت الأكاديمية هدفا للديبورنيين . فلم يكن بالأكاديمية عضو واحد جمع بين أن يكون عالما وأن يكون ماديا ديالكتيكيا ، وأكثر من ذلك ، وعلى أية حال كان البحث العلمى يجرى عام ١٩٢٩ فى عدد كبير من المؤسسات . وبذلك أصبح من الممكن التهجم على الأكاديمية دون أن يعنى ذلك المخاطرة بعمل حقيقى مطلوب إنجازه أو دون أن يمس موقف الروس داخل الثقافة العلمية للعالم . وفى عام ١٩٢٩ ، أدى نفوذ ديبورين إلى تكوين مجموعة مرتبطة بالحزب مكونة من العمال التقنيين «للطبقة الجديدة» ، خصوصا العمال التابعين «لرابطة عمال الاتحاد السوفيتى للعلم والتكنولوجيا من أجل التعاون فى البناء الاشتراكى» (ڤارنيتسو) . وقد شنت هذه المجموعة المرتبطة بالحزب حملة افتراءات أدت إلى طرد أعضاء الأكاديمية (٢٣) .

وفى القرن العشرين ، كان ستالين كغيره تجسيدا لهذا النوع من تنظيم الثقافة . فإذا بحثنا فى البنية المنطقية لكتابات ستالين ، وجدنا أنه ينتمى إلى الاتجاه الماركسى الوضعى . فاللغة ، كما يقول ، لا تنتمى لا للبنية التحتية ولا العلوية ، فهى إذن خارج الديالكتيك (٢٤) . ونصل من ذلك إلى أن اللغة يمكن تنظيمها كما ينظم العلم .

ويبدو أن النزعة الوصفية أخذت تكتسب شعبية مع صعود الاتحاد السوفيتى . فقد اكتسب ستالين شعبية كبيرة من خلال هجومه على مبالغات «الثورة الثقافية» مبيناً فى ذلك قيما وضعية . فقد رأى أن الإيمان السحرى بالمادية الديالكتيكية والميتافيزيقا الرومانسية ، يؤثر سلبا على التطور الهندسى والصناعى ، وحينما يقول ستالين بأن الاشتراكية يمكن أن تتحقق بالأسلوب العلمى وفى بلد واحد ، فإنه يعنى أنها تتحقق من خلال النزعة الوضعية لا من خلال الفلسفة الميتافيزيقية . ولما كان إيمان ستالين بأهمية الهندسة وخط تفكيره العام المتسم بالبراجماتية ، يمس وترا عميقا ؛ إذ يشير باحتمال ضعف الهيمنة ، فإننا نجده فى مناسبات معينة يضفى الشرعية على سياساته من خلال تبنى النزعة الرومانسية ، مثلا : من خلال عبارة الشخصية ، ومن خلال الاحتكام للتقاليد .

ومحاولة الطبقة الجديدة خلق نخبة ثقافية قائمة على العلم والتقاليد ، منحت الكنيسة الأرثوذكسية فرصتها لاستعادة دورها التقليدى كحارس على نظرة معينة للعالم خاصة وبالذات النظرة الرومانسية . ودعونا نختتم هذا القسم بمناقشة كيف انتهزت الكنيسة الفرص المتاحة لها فى العصور الحديثة ؟ وبتعبير آخر ، كيف لعب نضال الكنيسة دوراً فى تنظيم الهيمنة (٢٥) ؟

وبداية ، يجب أن نتذكر أن الهيمنات لا تتكون فقط من نظام تراتبى علمانى فحسب ، بل ومن تراتبيات دينية أيضاً . فهذا هو الحال فى جميع الهيمنات وهى تظل كذلك حتى فى الأوقات التى تكون فيها الكنيسة ممنوعة قانونًا . وفى حالة روسيا ، فإن ضعف الثقافة العلمانية للنخبة فى أواخر القرن التاسع عشر ، بالإضافة إلى قوة الكنيسة فى علاقتها بالجماهير جعلت الكنيسة منافساً خطيراً للعلمانيين .

ومع ثورة ١٩١٧ ، حاول البولشفيك دفع الكنيسة إلى العمل فى الخفاء (٢٦) .

لكن الكنيسة كانت شديدة القوة ، فبحلول عام ١٩٤٣ ، كان ستالين هو الذى طلب معاونة الكنيسة (٢٧) .

وإحدى النقاط التى يمكن البدء منها لمناقشة دور الكنيسة هى العودة إلى سيرة حياة فلاديمير سولوفييف (١٨٥٣ - ١٩٠٠) . فقد كان سولوفييف ، كما لاحظنا من قبل ، أكثر المثقفين الروس فى القرن التاسع عشر تأثيرا على الروسى العادى . وكان مدافعا عن الحكم اللاهوتى المسيحى لروسيا ، مؤسسا موقفه تارة على تعاليم الكنيسة ، وأخرى على التصوف القائم على المحبة . وقد كانت إحدى أهم لحظات التطور العقلى لسولوفييف خلال عام ١٨٨١ عندما طلب من القيصر ألكسندر الثالث ، استنادا إلى التعاليم الدينية ، العفو عن قتلة ألكسندر الثانى . إذ قوبل هذا الطلب برفض غاضب ووضع نهاية لمسار سولوفييف الأكاديمى ، كما أدى إلى تدهور علاقاته بذوى النزعة السلافية أو المثقفين من ذوى النزعة الرومانسية .

وقد كانت الفكرة المحورية لسولوفييف ، والتى تبدت فى كتاباته الفلسفية الناضجة هى : إنسانية الوجود الإلهى Godmanhood ، فهى المركب النهائى للحقيقة كلها ، وهى فكرة قائمة على مذهب وحدة الوجود أساسا ، يمكن أن تهدد الازدواجية الثقافية الروسية ذاتها . فتأكيده على إنسانية الوجود الإلهى ، يعلن سولوفييف إمكانية معرفة الله بالإدراك ، فمعرفة الله ، وفقا لذلك ، تصبح مسألة شخصية ، ولا تعتمد بالتالى على التقليد الكنسى .

ووحدة الوجود عند سولوفييف تظهر بوضوح فى معالجته للموضوع الذى ذاع به صيته ، وهو موضوع «الحكمة الإلهية» Divine Sophia ، التى هى «الأنثى الأبدية» ، القوة الفعالة فى الكون ، القوة المحولة للحب الإنسانى الأرضى «للروح الأنثوية ، التى هى الحكمة المقدسة للرب» . فحتى غير الراديكاليين بدرجة كبيرة ، يجدون سولوڤييڤ محركا للمشاعر . فقد أبدع دستويفسكى فى إحدى رواياته شخصية رئيسية مستوحاة من سولوفييف ، كما نجد تأثيره واضحا لدى كتاب كبار من أوائل القرن العشرين مثل : ألكسندر بلوك ، وأندريه بيلى ، وسيرجى بولجاكوف ، والواقع أنهم كانوا يرتادون صالونا ثقافيا كانت تناقش فيه أفكاره (٢٨) .

وإجمالا ، يمكن القول ، إن هذا القسم ، حاول رسم الخطوط العريضة لتنظيم الثقافة فى التاريخ الروسى والسوفيتى الحديث ، مدخرا القسم الأخير للحديث عن مسار دراسة التاريخ ، باعتباره أحد الأمثلة الهامة لتنظيم الثقافة . والظاهرة التعديلية فى هذا التناول يتمثل فى التركيز على تحليل دور الثقافة فى بلد يحكم ، وفقا للنموذج السائد فى دراسة التاريخ ، عن طريق القمع . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا نضع روسيا فى مقدمة هذا الكتاب ، ونثبت أنه كانت لديها سياسة ثقافية قومية طويلة المدى ، هى جزء من الهيمنة ؟ فالطبيعة الديكتاتورية والقمعية للحكم السوفيتى التى يفترضها النموذج المسيطر فى دراسة التاريخ ، هى فى رأيى ، ببساطة ، فرضية كل ما تستطيع تفسيره هو كيف يمكن لبلد يعد من وجهة نظر النموذج السائد بلا خصوصية ، لأن جزءاً منه أوربى والآخر آسيوى ' أن يحافظ على وحدته . وهى فرضية ، كما يبين هذا القسم ، تميل إلى أن تكون ذات خصوصية طبقية . أليس الأكثر منطقية أن نفترض أن تنظيم الثقافة عملية هامة فى كل البلدان ، سواء كانت ديكتاتورية أو كانت غير ذلك تلعب دورا فى الإبقاء على حركات الهيمنة المضادة منقسمة على نفسها ؟ وأخيرا ، أليس الأكثر منطقية أن ننظر إلى روسيا الحديثة على اعتبار أنها أحد أنماط الطرق التاريخية بدلا من أن ننظر إليها ، كما يفعل النموذج المسيطر ، على أنها حالة شاذة ؟ الواقع أن كثيرا من دارسى التاريخ الروسى ، كما سيبين هذا القسم ، يوافقون على ذلك .

كتابة التاريخ

قام المؤرخون ، خلال القرن الماضى ، بتقديم خدمة للهيمنة حينما أكدوا على الهوة الفاصلة بين النخبة والجماهير . وخلال تلك العملية ، قدم المؤرخون الروس والسوفييت ، إسهامات كبيرة فى دراسة التاريخ السياسى والمجالات المتعلقة به . مثل تاريخ الدبلوماسية ، والسير التاريخية ، وتاريخ العالم ، إلا أن المجال الوحيد الذى تحاشى المؤرخون الروس معالجته كان التاريخ الاجتماعى ، وهو مبحث فى التاريخ يؤكد على التكامل الاجتماعى . والمؤرخون الروس والسوفييت ، يشعرون ، منهجيا ، بارتياح كبير فى ظل المناخ الليبرالى ، فهم يميلون سياسيا لأن يكونوا ليبراليين حتى لو كانوا يستخدمون بعض العبارات الماركسية (٢٩) . فمن المفارقات أن المؤرخين الماركسيين لعبوا – فيما يبدو – دورا أكثر تأثيرا فى البلدان الأخرى عنهم فى الاتحاد السوفيتى .

وقد كانت أكبر المدارس فى كتابة التاريخ من ١٨٦١ إلى ١٩١٧ هى «مدرسة الدولة» ؛ وكان أهم أعلامها ليبراليين . وكما يوحى اسمها كانت تركز البحث على الدولة ومؤسساتها ، التى يجسد تطورها فى تصورهم ، تطور الأمة نفسها . ومنذ مرحلتها الباكرة ، اعتبر كتاب هذه المدرسة أن موضوع المجتمع وموضوع القوميات التى تتكون منها الإمبراطورية ، مجرد هوامش لدراسة النخبة الروسية العظيمة . وتبنت المدرسة نظرية «روسيا العظمى» . فإحدى العبارات التى وردت على لسان أحد كتابها ، والتى تعبر عن هذه النزعة السوفيتية تقول : إن الروس بمقدورهم أن يطيعوا ، أما الأوكرانيون فلأنهم فرديون لا يستطيعون ذلك . ومن أهم المؤسسات التى ظهر فيها بوضوح تأثير «مدرسة الدولة» ، «الجمعية التاريخية الروسية» (١٨٦٦ – ١٩١٧) ، التى جمعت مصادر من مختلف الأرشيفات فى العالم لكى تدرس الدولة الروسية ، وقد لعبت «مدرسة الدولة» أيضادورا مهما فى مشروع «الجمعية التاريخية الروسية» لنشر أعمال مرجعية كبرى . ففيما بين ١٨٩٦ – ١٩١٨ ظهر «القاموس البيوجرافى الروسى» بمجلداته الخمسة تحت رعاية الجمعية .

وقد شارك اثنان من بين الثلاثة الذين أسسوا المدرسة هما : ك. ى. كافيلين (١٨١٨ – ١٨٨٥) وب. ن. شيشرين (١٨٢٨ – ١٩٠٤) بالكتابة لجريدة ألكسندر هرزن الشديدة الليبرالية التى سميت «أصوات من روسيا» التى كانت تطبع فى لندن . وكانا ، مثل الكثير من الليبراليين ، يشجعان تحرير الأكفان ، لكن فيما عدا ذلك ، كانا يعارضان الفوضويين والشعوبيين الراديكاليين باعتبارهم مصدر تهديد لمصالح الدولة .

وقد خلقت مواقفهما السياسية مشاكل لهما خلال الفترات الأوتوقراطية لكنها لم تحل بينهما وبين الاستمرار فى نشاطهما المهنى بوصفهما باحثين . فمثلاً ، فى ١٨٨٣ ، أبدى شيشرين فى كلمة ألقاها بوصفه رئيسا لبلدية موسكو ، استحسانا للتمثيل النيابى الشعبى . وبسبب ذلك ، عزله ألكسندر الثالث ذو الميول الأوتوقراطية ، من منصبه . أما المؤسس الثالث لمدرسة الدولة وهو س. سولوفييف ، الذى سنتحدث عنه بالتفصيل لاحقا ، فقد أمكنه تجنب هذه الصعوبات ، لكن تلميذه البارز فى جامعة موسكو ، ف. و. كليوتشيفسكى (١٨٤١ - ١٩١١) ، لم يكن محظوظا على هذا النحو . فحينما عارض كليوتشيفسكى السياسة الداخلية لألكسندر الثالث ونيكولا الثانى ، صبا عليه غضبهما ، وأصبح عليه أن يتوخى الحذر كى يعيش . لكنه كى يعيش حوّل مدار أبحاثه من تاريخ القوميات إلى تاريخ المحليات . ومع عودة الليبرالية فى ١٩٠٥ ، برز كمؤيد «للدوما» . وتحويل موضوع الأبحاث كان سمة مشتركة لعدد من المثقفين الليبراليين البارزين . فقد كان بمقدور أولئك الليبراليون أن يعيشوا إذا هم تجنبوا الصدام المباشر مع السياسات القومية . وقد خدمهم التاريخ المحلى من هذه الناحية ، بينما سمح لهم فى الوقت نفسه بجذب الانتباه إلى عدد من المشاكل الهامة المعقدة ، مثل مشاكل إدارة الزراعة على المستوى المحلى [٣٠] .

ويشتهر سيرجى م. سولوفيف ، أستاذ التاريخ بجامعة موسكو ومعلم الأسرة المالكة ، بعمله الخالد والذى ما زال مؤثرا : «تاريخ روسيا منذ العصور الباكرة» (سانت بترسبورج ، ١٨٥١ - ١٨٧٩) فى تسعة وعشرين مجلدا . ويشهد له الباحثون المحدثون من السوفيت والغرب ، بأنه بلغ فى هذا العمل مستوى مماثلا لأبرز الباحثين على نطاق العالم . وقد ركز سولوفيف فى هذا العمل على القرنين السابع والثامن عشر . وقد لاحظ أحد الباحثين المعاصرين دعمه القوى لبطرس الأكبر ، حتى فى وجه ذوى النزعة السلافية الذين أخذوا عليه سياساته التخريبية ، وقد كان سولوفيف ، بمدحه لبطرس الأكبر ولدور الدولة الذى مثله ، يوجه النقد لبعض الإصلاحيين الليبراليين فى عصره ، وهم الليبراليون الذين دافعوا عن فكرة أن على القيصر أن يلعب دوراً أقل من ذلك . وقد أسس سولوفيف ، مثل كثير من مورخى القرن التاسع عشر ، فكرة على فلسفة هيجل . فقد صور سولوفيف حركة الإصلاح التى قام بها بطرس ، على أنها الروح الهيجلية تحقق ذاتها . وصور قوى التقدم على أنها مشتبكة فى صراع ضار ضد عادات أهل موسكو القدماء . وبذلك ، كان بطرس ، بوصفه تجسيدا «للروح» ، بطلاً .

وافترض سولوفيف ، أن الفساد الذى ساد عصره على المستوى الرسمى ، كان مصدر ألم شديد لبطرس [٣١] .

ولما كان المؤرخون ليبراليين ، فقد واجهوا قدرا أكبر من المشاكل فى الفترات الأوتوقراطية . فى عهد ألكسندر الثالث ونيكولا الثانى قبل ١٩٠٥ ، وفيما بعد أثناء الثورة الثقافية ، حيث كان السياسيون يأخذون المبادرة من تلقاء أنفسهم لتغيير صورة الماضى دون أن يستشيروا المؤرخين المعاصرين لهم [٣٢] . فقد قام ألكسندر الثالث ونيكولا الثانى ، تقريبا من تلقاء أنفسهما ، بافتتاح المتاحف وإنشاء الجمعيات التاريخية بهدف إبراز مسائل معينة . وقد استمرت هذه الممارسات فى الفترات الأوتوقراطية بعد ١٩١٧ أيضا .

وهناك مثالان هامان لذلك حدثا فى تسعينيات القرن التاسع عشر . أولهما كان افتتاح نيكولا الثانى فى ١٨٩٩ متحفا لتاريخ قوزاق منطقة الدون تحت إشراف جمعية آثار الدون ، بهدف تعظيم الإقطاع . واستمر هذا الوضع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حيث أسرع النظام السوفيتى ، خلال مرحلة ليبرالية ، فى التخفيف من درجة تعظيم الإقطاع المتمثل فى هذه المؤسسة ، عن طريق افتتاح متاحف أخرى متنوعة[٣٣].

وثانيهما ، ويرجع تاريخه إلى ١٨٩٢ ، كان تشجيع ألكسندر الثالث لتكوين «الجمعية الأورثوذكسية الإمبراطورية للدراسات الفلسطينية» Iops (١٨٨٢ – ١٩١٧) ، وهى مؤسسة بحثية تستهدف دراسة تاريخ وثقافة شعوب الشرق الأوسط لتخدم أهداف السياسة الروسية . ومع مجئ رد الفعل الليبرالى مع ثورة ١٩٠٥ ، فقدت مؤسسات الفترة السابقة مكانتها . فعلى الرغم من الرعاية الملكية ، هبطت عضوية الإيوبس هبوطًا حادًا ، لكنها بفضل تلك الرعاية استمرت فى دعمها للبحوث . ففى عام ١٩٠٧ ، كانت الجمعية قد نشرت حوالى ثلاثمائة وسبعة وأربعين كتابا عن فلسطين . ومع زوال الليبرالية بعد الثورة الروسية فى ١٩١٧ ، غيرت الحكومة البلشفية اسم الجمعية إلى «الجمعية الروسية الفلسطينية» وألحقتها بأكاديمية العلوم السوفيتية . وعند هذه النقطة ، بدا أن الجمعية استعادت شيئا من رسالتها الدينية الأصلية . وقد طلب البولشفيك من الجمعية أن تلتزم بدراسة شعوب الشرق الأوسط وإيجاد تقارب معهم . وقد كان هذا الهدف وراء افتتاح المعهد الروسى بالقسطنطينية فى ١٨٩٤ الذى كان مركزا هاما للدراسات البيزنطية حتى ١٩١٧ [٣٤] . وكان يحمل أيضا مسحة من التبشير الدينى وما يرتبط به من التوسع الاستعمارى .

وقد كانت مشكلات المؤرخين فى الفترات الأوتوقراطية - ونحن نعود هنا للنقطة السابقة - ليست مجرد قناعاتهم بل محاولتهم الجمع بين خدمة الحكومة وبين أن يظلوا موضوعيين . فعلى سبيل المثال ، كتب أستاذ بالأكاديمية اللاهوتية بكازان ، فى ١٨٨٤ ، خطابا باسم ك. ب. بوبيدو نوستيف (١٨٢٧ - ١٩٠٧) والحكومة يفيد بأن طلبة وباحثى كلية اللغات الشرقية بسان بترسبورج ومعهد لازاريف بموسكو يؤدون عملهم بموضوعية ولذلك لا يمكن الاعتماد عليهم فى خدمة الحكومة أو التبشير . وقد كان هذا منطق الأتوقراطية . وخلال «الثورة الثقافية» كانت لدى بوكروفسكى ، وجهة نظر مماثلة لوجهة نظر شخص مثل المستعرب أ. كراتشكوفسكى ، إلا أن الأخير ، رغم ذلك ، أمكنه الاحتفاظ بمنصبه .

وقد كانت الأوتوقراطية تعارض بشدة التاريخ الاجتماعى . فقد أرغم المؤرخ الاجتماعى المعروف م. م. كوفاليفسكى (١٨٥١ - ١٩١٦) على ترك جامعة موسكو فى ١٨٨٧ خلال فترة الأوتوقراطية . فالتاريخ الاجتماعى جعله فى موقف ضعيف وقد أمكن للحكومة تمييزه بسهولة ، لأن الرأى العام بالمعنى الواسع كان بمقدوره أن يدرك أن عمله ذاك هدد سياسة الازدواجية الثقافية المستقرة منذ زمن طويل . إلا أنه ، على أية حال ، استمر فى البقاء ، وقد فعل ذلك بدون مظلة الدعم الدولى التى حظى بها روى ميدفيف فى وقت لاحق [٣٥] .

وقد كان المؤرخون الذين بقوا فى الاتحاد السوفيتى بعد ١٩١٧ ، يتوقعون أن يتمكنوا من التعايش مع النظام الجديد ، لكن أحدا لم يتوقع حالة الدمار التى حدثت بعد ١٩٢٨ ، فبالنسبة للباحثين ، كانت فترة الحرب الأهلية فترة فوضى أكثر منها سلطوية . على أن فترة الليبرالية البولشفية ، وهى حقبة التسامح الماركسى خلال فترة «النيب» ، شجعت عددا كبيرا من الباحثين الليبراليين التقليديين على البقاء .

وفى عام ١٩٢١ ، أسس البولشفيك «معهد التاريخ» كجزء من جامعة موسكو ، وكان ذلك تأكيدا لتقليد قديم . فالسياسيون يحاولون هنا مرة أخرى التأثير على محتوى كتابة التاريخ بأن يغيروا البنية المؤسسية التى تضطلع بها ؛ إلا أن المؤرخين ، هنا أيضا كما فى الماضى ، ظلوا أوفياء لتقاليد أساتذتهم . وبالنسبة «لمعهد التاريخ» ، فقد كانت قيادته الأولى تضم بالضرورة غير ماركسيين . وفى عام ١٩٢٥ ، استولى «اتحاد العلوم الاجتماعية السوفيتى» (رانيون) على المعهد من الجامعة ، واحتفظ الليبراليون بمواقعهم وواصلوا الكتابة .

وفى عام ١٩٢٩ ، صدمت «الثورة الثقافية» العاملين فى حقل التاريخ حينما استولت على «معهد التاريخ» وحولت تبعيته من «الرانيون» إلى «الأكاديمية الشيوعية» ، وحولت الحكومة الوظيفة الرسمية للمعهد من البحث إلى مساندة المواقف التى تتبناها النخبة السياسية ، وإلى الإسهام عامة فى التحديق والدعاية للماركسية - اللينينية . وأشرف على «الأكاديمية الشيوعية» مؤرخ قريب من بنية السلطة ، هو بوكروفسكى . لكنه لم يبذل أى جهد لحماية زملائه فى المعهد . بل على العكس ، قام بطرد ونفى عدد من المؤرخين البارزين ومن جراء ذلك لقى بعضهم حتفه . وجدير بالملاحظة هنا أن ثمة دلائل فى هذه الفترة تشير إلى أن بوكروفسكى ، رغم مكانته المرموقة ، لم يكن يتمتع باحترام المؤرخين من زملائه ، الذين واصلوا اتباع التقليد الليبرالى فى البحث التاريخى من خلال تأييد الماركسية - اللينينية بألسنتهم وتجنب الخوض فى المجالات التى تنطوى على اهتمام خاص من قبل الحزب رغم ذلك رأى فيه كثير من المؤرخين أبرز مؤرخى عصره ، كما رأوا أنه كان جديرا بالتقدير الذى ناله .

وفى عام ١٩٣٤ ، تغيرت مرة أخرى أهداف الحكومة فيما يتعلق بكتابة التاريخ وانعكس ذلك على تنظيم المؤسسات المختصة بذلك . فأولاً ، شجعت الحكومة المؤرخين على أن يكتبوا التاريخ بطريقة جذابة وسهلة التذكر حتى يصبح الطلبة أكثر رغبة فى تعلم الخطوط العريضة لتطورهم القومى ؛ فالمخططات المختزلة للماركسية - اللينينية فشلت فى تحقيق ذلك . وفى ١٩٣٦ ، ألغيت «الأكاديمية الشيوعية» ، ونقلت الحكومة تبعية «معهد التاريخ» إلى «أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتى» . وتضمنت وظائف المعهد فى وضعه الجديد ، مرة أخرى ، القيام بالأبحاث ، وتدريب الباحثين ، وأضيف إلى ذلك القيام بإنتاج أعمال شعبية . وعاد مرة أخرى التخصص الاحترافى والتوصيف الوظيفى الأكثر دقة . فالباحثون ، الذين كانوا يؤدون أعمالا إضافية للدولة ، كانوا يتلقون أتعابا خاصة مقابل تلك الأعمال . واتسع نطاق المادة التاريخية مرة أخرى . فبينما واصل المؤرخون دراسة ثورة ١٩١٧ ، فقد اتجه النظام إلى البحث عن مبررات تاريخية مستمدة من ماضى روسيا الأبعد ، لسياساته الحالية . وفى سبيل ذلك ، سمح بدراسة تاريخ الأبطال الروس أمثال : بطرس الأكبر وإيفان الرهيب . وعاد الفرد جزءاً من التاريخ .

وحيثما يكون لدراسة التاريخ دور تلعبه فى تنظيم الثقافة ، نجدها دائما معرضة للتعليقات والانتقادات السياسية ، الأمر الذى لا يحدث حينما يكون ذلك الدور أقل

تأثيرا . ففى ثلاثينيات القرن الحالى ، انتقد «الحرس القديم» المؤرخين لفشلهم فى وضع التاريخ الروسى داخل إطار ماركسى – لينينى مقنع ، واشتكت عناصر من «الطبقة الجديدة» ، فى نفس الفترة ، من أن المراجع الدراسية لا تعبر عن الاتحاد السوفيتى ككل . وانتقدت القوميات الجديدة الإمبريالية الروسية والسوفيتية لتجاهلها أوضاعهم . وقد دافع المؤرخون عن هذه السياسة ذاهبين إلى أن الإمبريالية الروسية كانت فى الواقع تمثل رسالة حضارية ، وأنها مهدت الأرض «للصداقة العظيمة» التى تحققت فى الفترة السوفيتية [٣٦] .

ويعتبر م. ن. بوكروفسكى (١٨٦٨ – ١٩٣٢) عنصرا أساسيا فى تفسير كتابة التاريخ السوفيتى الحديث للسنوات التى أدت إلى عصر النظام الإدماجى . وفضلاً عن ذلك ، فهو أمر أكثر الشخصيات شهرة وواحد من الذين يصعب فهمهم تاريخيا . فالدارسون لفترة الحرب الباردة يجدون فيه شخصية قوية ، بينما تذهب الدراسات الأحدث فى التاريخ الاجتماعى إلى أنه كان شخصية ضعيفة من الطراز القديم ، ولم يكن سياسيا بارعا .

وقد نظر الباحثون الغربيون ، أثناء الحرب الباردة ، إلى بوكروفسكى ، باعتباره تابعا لستالين ، وأداة لتصفية زملائه المؤرخين ، ثم بعد ذلك ضحية غامضة لغضب ستالين خلال الأيام الأخيرة «للثورة الثقافية» . لذلك فإعادة الاعتبار لبوكروفسكى فى الستينيات يلائم نموذج اللاستالينية (التحرر من ستالين) . لكن نظرة فاحصة تبين أن فهم بوكروفسكى من خلال «الحرب الباردة» يبرز أشياء ثانوية فيه بينما يترك أشياء هامة فى تاريخه . فالنظرة المبنية على «الحرب الباردة» تميل بصفة عامة إلى المبالغة فى أهمية المؤرخين . فلا يدهشنا أن يكون الدارسون قد جعلوا من ألقاب بوكروفسكى الرسمية ، مثل : نائب قوميا الشعب للتعليم ، ومن علاقاته بلينين ، وإنجازاته كإصلاحى فى مجالات مثل تعليم العمال والجامعة الشيوعية ، جزءًا من تاريخه المهنى كمؤرخ . فطبقًا للدراسات الحديثة ، كان هذان الدوران منفصلين فى الواقع . فهو كمؤرخ ذى ارتباطات سياسية ، كان يسعى لاقتناص مختلف المناصب ، ففى ١٩٢٥ مثلا ، أصبح أول رئيس «لجمعية المؤرخين الماركسيين» . لكن تصور أن انتقاداته لمنافسيه من مختلف الاتجاهات ، التى وجهها من موقعه ذاك ، كانت مسؤولة عن المصير الذى لاقوه فيما بعد ١٩٢٩ ؛ ينطوى على تسرع بالغ . فالنظرة الفاحصة تكشف عما هو أهم ، فلما كان يعمل بالسياسة ، فإن آراءه لم ترض ستالين .

لقد كان بوكرفسكى عالما . وكان يؤمن بقوانين شاملة وبتطبيقات خاصة لها . ودرس أنماط الإنتاج . ولم يكن يقيم وزنا كبيرا لدور الفرد أو حتى للقوة القومية . وبالإضافة إلى ذلك ، كان بوكروفسكى شديد الارتباط بحرفته ؛ فقد قدر فضائل كثير من المؤرخين الليبراليين فى القرن التاسع عشر ، الذين وجد أنهم كانوا على مستوى عالى من الحرفية . وقد قدر فيهم موضعيتهم واستخدامهم المدقق للمصادر . وبينما كان يؤمن بأن الدراسة التاريخية مفيدة لصناع السياسة ، وهو ما بدا فى كتابه «روسيا فى تاريخ العالم» ، إلا أنه لم يكن باستطاعته أن يكون مرنا أو انتقائيا . ومثله مثل تروتسكى ولينين وكثير من البولشفيك الأوائل ، كان بوكروفسكى دوليا وذا أفق عالمى ، مما يجعله هدفا سهلا «للثورة الثقافية» . وفى عام ١٩٢٩ ، كان بوكروفسكى فى موقف شبيه بموقف «مؤرخى العالم» الليبراليين وذوى النزعة السلافية فى القرن التاسع عشر فى عهد ألكسندر الثالث . وبينما كان مفيدا للأوتوقراطية ، إلا أنه لم يتعاطف مع مبادئها .

وهنا تفترق وجوه المقارنة . فبينما واصل غالبية الليبراليين القدماء البقاء ؛ فإن بوكروفسكى ، الذى كان محاصرا فى «الثورة الثقافية» بأعداء من أعلى ومن أسفل ، والذى كان فى الوقت نفسه مصابا بالسرطان ، لم يستطع الصمود .

وتقدم الأحداث التى تلت وفاة بوكروفسكى والتى لها علاقة بها ؛ بعض الأدلة على الوضع الهش لأولئك الذين لم يكونوا جزءاً من التقليد الليبرالى ، وحاولوا الاحتفاظ بوضعهم مع التحولات التى تجرى فى الشيوعية . ففى عام ١٩٣٤ ، بعد وفاة بوكروفسكى بعامين ، هاجمت الحكومة أولئك المؤرخين الذين اتبعوا خطة فى التفكير ، واتهموهم بأنهم يصوغون تاريخا مجردا مضادا – للماركسية وغير صحيح . ونتج عن ذلك أن بعض المؤرخين فقد وظائفه والبعض الآخر فقد حياته .

وكانت المؤرخة المفضلة لدى ستالين : أنّا بانكراتوفا ، هى التى قادت الهجوم . والتعارض بينها وبين بوكروفسكى ، إنما كان دلالة على تعارض طائفى فى عملية التطهيرات . فبينما كان بوكروفسكى والمؤرخون البارزون الآخرون من نخبة مثقفى موسكو وبحكم وضعهم هذا أنشأوا التخصص الحديث فى التاريخ ؛ جاءت بانكراتوفا من عائلة فقيرة بعيدة عن موسكو وشقت طريقها للصعود داخل منظمات الحزب فى المقاطعات ثم تمكنت من اختراق الطائفة والطبقات الحاكمة مؤخرا .

وتمت إعادة الاعتبار رسميا لبوكروفسكى فى ١٩٦١ ، وأعلن عن تبرئته من «أخطائه» . والجدير بالملاحظة هنا أن ذلك كان ، مرة أخرى ، قرارا سياسيا . وقد عارض عدد من المؤرخين إعادة الاعتبار لبوكروفسكى ربما لأنهم هم أيضا عرفوا طريقهم إلى داخل النظام حديثا [٣٧] .

وفى عام ١٩٥٦ ، سمح تدريجيا بتوسيع نطاق التيارات السياسية المباحة ؛ وقد حدث هذا فى العام الذى شهد بداية الانعطافة الحالية فى اتجاه الليبرالية . فالستالينية طرحت السؤال حول مدى جدوى عبادة الفرد فى عصر القيادة الجماعية ، لكن السؤال لم يكن من الممكن المضى فيه إلى النهاية ؛ لأن السياسيين لم تكن لديهم الرغبة فى القضاء على عبادة الفرد بصورة نهائية . وأصبحت الحرية الأكاديمية موضع استحسان ، وأصبح من المسلم به أن ستالين أساء استخدام الجامعات . لكن حتى فى هذه الفترة ، كان من الممكن للمؤرخين أن يتم طردهم لأسباب سياسية . ففى الخمسينيات ، لم تتردد الدولة فى طرد بورجالوف ، المؤرخ والناقد المعروف . وفى السبعينيات طردت ب. ف. فولوبيف ، المتخصص فى الثورة الروسية .

فإذا فحصنا التاريخ الروسى السوفيتى بعد حملة التطهير ، لاحظنا بوضوح استمرار الليبرالية الوضعية . وهى اتجاهات نشأت فيما بين الحربين كرد فعل على «الثورة الثقافية» واستمرت حتى ١٩٥٦ وما بعدها . وهى تذكرنا باتجاهات كتابة التاريخ التى تسبق فى مجملها مرحلة النظام الإدماجى . وقد كان من بين هذه الاتجاهات : «مدرسة الدولة» الحديثة ؛ المؤرخين الإقليميين ، مؤرخى الفلاحين ؛ والمؤرخين المهتمين بفلسفة التاريخ ؛ وأولئك المهتمين بالدراسات البيزنطية .

وكان ثمة مكان أيضا للرومانسية . ففى عام ١٩٣٩ ، افتتح قسم للدراسات البيزنطية بمعهد التاريخ ، لكن التعليمات الرسمية لتلك الفترة أكدت بوضوح ، وهى تعليمات لا تزال ذات أثر حتى اليوم ، أن الدراسات البيزنطية يجب ألا تستثير الحنين الرومانسى الذى يمكن أن يجعل الدين مفتاح تفسير التاريخ الحديث [٣٨] . وماذا يمكن أن يفعله سوى ذلك ؟ !

وقد كانت أفضل الدراسات التاريخية فى الفترة الليبرالية الجديدة هى العمل الذى أنجزه روى ميدفيديف فى كتابه «دع التاريخ يحكم» (موسكو ، ١٩٦٩) . واللافت للنظر فى هذا العمل هو تشابهه التام مع عمل سولوفيف . فكلا العملين يتخذان الدولة

مركزا يدور حوله البحث ، وكلاهما يفهم الديالكتيك من زاوية الخير والشر ، وكلاهما يخدم هدفا معاصرا من خلال التركيز على شخصية عظيمة من الماضى .

والمسار الشخصى لكلا الرجلين مختلف كل الاختلاف . فبينما كان سولوڤيڤ مؤرخا أكاديميا مرموقا ، أنشأ مدرسة فى جامعة موسكو ، ظل ميدڤيديڤ لسنوات وحتى وقت متأخر ، على الهامش . وكان معروفا أنه مدافع عن حقوق الإنسان أكثر منه باحثا فى التاريخ . وكان رجلا تحيط بحياته العلمية ظلال قاتمة ناشئة من أن والده كان أحد ضحايا حملة التطهير الكبرى . رغم ذلك ، فميدڤيديڤ ، هو - ربما بالصدفة - مؤلف عمل يعتبره الكثيرون أهم دراسة مفردة سوفيتية معاصرة للتاريخ .

و «دع التاريخ يحكم» إدانة قاسية لجرائم ستالين كتبت من داخل الخطاب الأكاديمى السوفيتى . وميدڤيديڤ لا يعتنق الرأسمالية ، وإنما يدافع عن الحرية باعتبارها اشتراكية جمعية . وانطلاقا من هذه الرؤية يتوقع المرء أن يجد كتابا فى التقليد الماركسى . إلا أن التحليل الإبستمولوجى يكشف أنه كان نقيض ذلك فلا يحتوى الكتاب على أى تحليل للبنية الاجتماعية ، وفى الواقع لا يكاد يكون فيه ما يمكن أن يعتبر ماديا ويعتبر هذا العمل عرضا لسيرة شخصية ، لكن المضمون الذى يعبر عنه يخلو من السياق . فالقناعة الأساسية فى الكتاب هى أن ستالين كان سيئا على الدوام ، منذ الشباب حتى استلام السلطة . وانطلاقا من هذه النقطة بالإضافة إلى وفرة المصادر التى يتعامل معها بتمكن ، نجد أنفسنا غارقين فى التجريبية . فإذا سلمنا مع ڤيدڤيديڤ بأن ستالين كان عبقريا شريرا ، ففيم يختلف عن معاصريه ؟ وكيف يمكن تفسير صعوده ؟ فميدڤيديڤ نفسه يشعر بالصدمة من المفارقة الساخرة التى جعلت فردا يصعد إلى القمة دون أن يواجه أية معارضة . فالنظرة الدياكلتيكية بما فيها الهيجلية تتطلب اكتشاف التعارض والتناقض . وقد كان ستالين تحقيقا فعليا لإرادة الفرد ، لكن ذلك يبدو كأنما قد حدث فى زمن ما بعد تاريخى وما بعد - ديالكتيكى . فماذا عن جماهير العمال ؟ فميدڤيديڤ يذهب إلى أن الجماهير ، لأنها كانت مبعدة عن مراكز القوة الحقيقية ، اتجهت سلبيا إلي عبادة ستالين ، كما لو كان إليها . وقد اعترف ميدڤيديڤ فى حديث خاص أن الطبقة البيروقراطية المتوسطة الدنيا ليست لها أية مصلحة فى الديمقراطية ، لذلك فقد لا ترى أن ما فعله ستالين يعتبر سلسلة من الجرائم . لكن مثل هذا التبصر لم يدفع ميدڤيديڤ ، مثلما دفع تروتسكى ، إلى التساؤل عما إذا كانت الستالينية ظاهرة جمعية أم مجرد انحراف فردى . وإنما

توصلت نتائج البحث إلى إبراز التقابل بين امتلاك ستالين للقوة وبين فقدان المجتمع لهذه القوة ، مما جعله يتساءل عن العبادة الدينية . ويختتم الكتاب بقائمة جرائم ستالين . فماذا لو كان سولوفيف عالج مسألة ستالين ؟ ألم يكن سيقوم بمعالجة مماثلة [٣٩] ؟

لقد جاء النقد المتعمق للماضى من مباحث أخرى غير التاريخ . ذلك أن المؤرخين أنفسهم حتى نهاية الثمانينيات كانوا جزءاً من النظام إلى حد كبير .

* * *

يؤسس هذا الفصل فكرة أن إحدى الاستراتيجيات العامة للهيمنة فى العالم الحديث هى الحكم عن طريق التقسيم الطائفى ، وإنها تعتمد فى ذلك ، على عكس الانطباع الشائع ، على الإقناع بنفس درجة اعتمادها على القمع . وأن ثمة نطاقا من المشاريع الثقافية يكفل لهذه الهيمنة البقاء فى مواقعها . ويشارك المؤرخون فى هذه المشاريع . وتقع أحد إسهاماتهم الرئيسية فى هذا الصدد فى حقل التاريخ السياسى . ويذهب هذا الفصل إلى أن تبنى دارسى التاريخ الروسى والسوفيتى لمثل هذه النظرة يوفر له ميزات لا تتوافر فى غيرها . وإحدى هذه الميزات هى أن هذا النموذج البحثى أكثر شمولية من النماذج الأخرى . فهو يقدم صورة معقدة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، بمقدورها أن تجعل الأحداث الرئيسية والقوى الاجتماعية فى القرن الماضى تتكامل فيما بينها بقدر أكبر من النماذج التى تتأسس على دور النخبة وعلى الغرب . وفضلا عن ذلك ، فهى ذات قيمة تحررية . فهى تشير إلى نوع النضال الذى يجب تبنيه فى ظل فهم المنطق العام للهيمنة وفهم خصوصية بلد مثل روسيا ، أو مثل العراق ، كما سيحاول الفصل التالى أن يبين .

وسنقدم فى الفصل التالى ، مثالا لدولة الطريق الروسى ، حيث نجد أن الدولة لم تستطع رشوة الطبقة العاملة إلا فى السنوات الأخيرة ؛ وهى دولة ، لم يستطع حكامها أبدا أن يتخلوا عن استراتيجيات القياصرة ، من مثل : هدف الخط العمالى فى مسارات مثل العداء للسامية والصراع الطائفى ، دولة أنتجت فيها البنية الدينية جناحا ثوريا وليس مجرد ناقد متصوف . هذا هو مثال العراق .

هوامش الفصل الثانى

١ – Teodor Shanin, Late Marx and the Russian Road (New York : Monthly Review Press, 1983)

عرض لآراء ماركس في مرحلته الأخيرة ، ففى هذه المرحلة ، تخلى ماركس عن عدد من الصياغات الأرثوزكسية ، متبنيا مدخلا أكثر رحابة فى الدراسة التاريخية عموما ودراسة التاريخ الروسى على وجه الخصوص . انظر تلخيصا لتلك الآراء في : Darek Sayer and Philip Corrigan, "Revolution Against the State : The Context and Significance of Marx's Later Writings, " Dialactical Anthropology 12(1987) : 65-825.

وأول من استعاد بهذه التبصرات ، فى سياق الدراسات الأكاديمية الغربية لروسيا ، هم طلاب الدراسات الفلاحية مثل: تيودور شانين وموش لوين ، وأول من عمم هذه التبصرات على الموضوع ككل هى : Sheila Fitzpatrick, "New Perspectives on Stalinism," The Russian Review 45(1986) : 357-373.

وحديثا ، حاولت دراسات متزايدة النطاق حول «مابعد الحرب الباردة» أن تضع التاريخ الروسى في إطار مقارن ، من بينها : Michael Urban, "Conceptualizing Political Power in the USSR : patterns of Binding and Binding," 18, no. 4(1985) : 207-226 ; Robert Kelley, "Comparing the Incomparable : Politics and Ideas in the United States and the Soviet Union, "Comparative Studies in Suviety and History 26(1984) ; 672 - 708 .

ومصطلح الطريق الروسى « المستخدم هنا يعبر عن الدينامية الاجتماعية بصورة أفضل من مصطلح «نمط المجتمعات السوفيتى» الذى ينطوى على توجه نخبوى ، والذى ظهر فى الأعمال السابقة فى Political Leditimation in Communist States, eds. H.Rigby and Ferrenc Feher (New York : St. Martin's Press, 1982).

ومن الأعمال التى قام السوفيت فيه بإعادة النظر فى تاريخهم الحديث ، يمكن ذكر مقال غريب لـ «ج . فوبولازوف » كتبه فى أواخر الستينيات وطرح فيه مسألة كيف كان بإمكان الشيوعيين فى ١٩١٧ أن يقوموا بثورة بروليتارية إذا كانت البروليتاريا غير مستعده لها . وهو يورد كتابات جرامش

ليفسر عواقب ثورة ١٩١٧ . مذكورا فى : Boris Kagarlitskky, The Thinking Reed : Intellectuals and the Soviet State 1917 to the Present (London : Werso , 1988) 292 .

والأمثلة الأخرى لبلدان الطريق الروسى فى العالم الحديث تتضمن : تركيا ، إيران ، بيرو ، وعدد من بلدان الكتلة الشرقية .

٢ – حول فكرة الزعامة الدينية «كشركاء صغار» فى بنية السلطة ، انظر : Jerry G. Pankhurst, "The Sacred and The Secular in the USSR," in Understanding Soviet Society, eds. Michael Paul Sacks and Jerry G. Pankhurst (Boston : Unwin Hymaen, 1988), 172ff .

٣ – Christel Lane, The Rites of Rulers: Ritual in Industrial Society : The Soviet Case (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1981).

٤ – دور التكنولوجيا الأجنبية تمت دراسته بتوسع ، وللاطلاع على دراسة حديثة ، انظر : Kendall E. Bailes "The American Connection : Ideology and the Transfer of American Technology to the Soviet Union, 1917 - 1-914, " Comparative Studies in Society and History 23, no. 3 (1981) : 421 - 448 .

٥ – لاحظ الباحثون ظاهرة التذبذب ، لكنهم كانوا يفسرونها غالبا بأن منشأها هو سمات الحكام ، بدلامن أن يكون مصدرها هو منطق البنية التى تستهدف حماية ذاتها ، وللاطلاع على فكرة أكثر بنيوية حول الحكام الشيوعيين ، انظر : Graeme Gill, "Personality Cult, Political Culture and Party Structure," Studies in Comparative Communism 17, no. 2(1984) : 111 - 121;

وللاطلاع على تصوير التاريخ السوفيتى الحديث بوصفه حركة لولبية ، انظر : Ivan Yefremov : Evolution is an upward Spiral , " Soviet Literature no. 406(1982) : 173-178 .

٦ – المظهر الخارجى يشير إلي أن الحاكم هو المسئول ، وأن النظام متماسك : والدراسات التقليدية كانت تلعب دورا فى تأكيد صورة التماسك السياسى . غير أن الدراسات الحديثة تشير إلى أنه حتى شخصيات بالغة القوة مثل ستالين ، ركبت موجات زمانها ، بينما كانت الكلمات توضع على ألسنتهم . انظر : Gabor Rittersporn, "Stalin in 1938 : Political Defeat Behind the Rheorical Apotheosis, " Telos no, 46 (Winter 1980 - 1981) : 6 - 42

وهو يوضح كيف كانت الجماعات الاجتماعية تستخدم اسم ستالين فى الصراعات فيما بينها ، ونفس الموقف المراجع يظهر فى :
Getty, Origins of the Great Purges-The Soviet Communist Party Reconsiderd, 1933 - 1938
(Cambridge Univ. Press, 1985), Conclusion.

والعمل الذى يناقش بشكل عام اكتساب روسيا للطابع البيروقراطى هو : Printer and Don Rowney, eds. Russinan Officialdon-The Bureaucratizaaion of Russian Society from the Seventeenth to the Twentieth Century (Chapel Hill : Univ. of North Carolina Press, 1980), 250-2, 316-317 .

ويذكر هذا البحث أنه فى الفترة التى أسميتها «الطريق الروسى» بدأت البيروقراطية تتشكل من عنصرين متناقضين : الاختصاصيون ذوو الخبرة ، والموالون للنظام .

وثمة موضوع آخر هو عبادة الشخصية . وتوجد دراسات عديدة ومتنوعة . وأحد أشكال عبادة الشخصية هو سير القديسين . التى لعبت دورا رئيسيا فى تطور الأدب الروسى ، انظر : Margaret Ziolkowski, Hagiography and Modem Russian Literature (princeton : Princeton Univ. Press, 1988) .

وللاطلاع على تطور عبادة الشخصية فى السنوات الحديثة إلى القيادة الجماعية ، انظر : Nancy Heer, "Political Leadership in Soviet Historiography : Cult or Collective?" in The Dynamics of Soviet Politice, eds. Paul cock et al (Cambridge : Harvard Univ, Press, 1976) , 37 .

٧ - Tim Mc,Daniel, Autocracy, Capitalism, and Revolution in Russia (Barkeley : Univ. of California Press, 1988), 1 ff

٨ - Dmitry Pospielovsky, The Russian Church under the Soviet Regime 1917 - 1982 (New York : St . Vladimir's Seminary press, 1984), 1 : Ch 2, 90 , 91 , 190 , 191 .

على أن الشعور الدينى المتواصل والذى قد يصل إلى درجة التعصب ، لدى النساء الفلاحات الروسيات ، كان أسطوريا بنفس الدرجة ، فمثلا ، أقدمت فرقة من النساء اللاتى أمرن بإحراق أحدى الكنائس ، على الانتحار ، وثمة أمثلة أخرى على مدى المعاناة التى يواجنها . انظر : ibid., 1 : 235 , 2 : 442; Gregory Freeze, The Parish Clergy in Nineteenth Century Russia ; Crisis : Reform , Counter- Reform (Princeton : Princeton Univ. press. 1983)

٩ - Barbara Holland, ed . Soviet Sisterhood (London : fourth Estate, 1985), 179 - 209; Michael Paul Sacks, Women's Work In Soviet Russia - Continuity in the Midst of Change (New York : Frederick A. Praeger, 1976), 32 - 33.

١٠ - Teodor Shanin, Russia as a Developing Soeiety (London : Macmillan 1985). 31, 66, 68, 134; see the Comments of Lawrence Langer on Laura Engelstein's, Moscow 1905 : Working Class Organization and Political Conflict in his "Russia in Revolution-Review Artical," Studies in Comparative Communism 17, no. 2(1984) : 140 - 141 .

١١ - Barbara Alpern Engel, Mothers and Daughters : Women of the Intelligentsia in Nineteenth Centur Russia (cambridge : Cambridge Univ. Press, 1983) . Ch. 10;

وهذا العمل يتبنى فكرة الحركة البنرولية فيما يتعلق بالعلاقة بين الأجيال : Christine Joganson, Women's Struggle for Higher Education in Russia, 1855-1900 (Kingston : McGill - Queens Univ., Press, 1987), 45. 6.

١٢ - ومن بين الملامح اللافتة للنظر فى الفترة الأخيرة ، بروز ظاهرة استطلاعات الرأى العام الرسمية فى الاتحاد السوفيتى ، انظر:

Walter D. Connor, "Public Opinion in the Soviet Union, " in Public Opinion in European Socialist systems eds. Walter S. Connor and Zvi y. Gitelman (new York : Frederick A. Praeger, 1977), Ch. 4 .

١٣ - Moshe Lewin, the Making of the Soviet System (New York : Pantheon, 1983), 86, 98 , 164, 176 , 178 , 180; Daniel Thorniley, The Rise and Fall of the Soviet Rural Communist Party. 1927-1939 (New York Martin's press, 1988), Conclusion.

١٤ - بخصوص الفترة الستالينية الباكرة ، انظر : J.k. Zawodny, "Grievances and Sources of Tension During Stalin's Regime as Reproted by Soviet Industrial Workers." Soviet Studies 14. no. 2 (1962) : 158 - 173 :

وبخصوص التحول إلى علاقات عمل أكثر براجماتية فى الخمسينيات ، انظر :

Vladimir Shlapentokh, Evolution in the Soviet Sociology of Work : From Ideology to Pragmatism (Pittsburgh : Univ. of Pittsburgh press/ Carl Beck Papers no. 404)' 1985); Mary McAuley, Labour Disputes in Soviet Russia (Oxford : Clarendon Press, 1969), 40;

وبخصوص موقف العمال من العاملين الأحرار وغير الأحرار ، انظر :

Vladimir Andrle, Workers in Stalin's Russia (New York : St Martin's Press, 1988), 202, 204 ff. ;

وبخصوص نقص العمالة فى أواخر الثلاثينيات ، وإغراءات البحث عن أسواق عمل أخرى ، انظر :

S. Swianiewicz, Forced Labour and Economic Development (Oxford : Oxford Univ. Press, 1985), 81 ff., 208;

وأخيرا ، ظهر اعتراف يسمى ، وإن كان غير مباشر ، بالشعور الفوضوى لدى الشعب الروسى ؛ فيما ذكره زادانوف من أن تصفية سيرجى كيروف في حملة تطهيرات ١٩٢٤ ذكرت الشعب بالأسلوب الفوضوى الذى يسلكه الشعب الروسى فى التعبير عن مطالبه . وعموما ، فقد تزايدت الدراسات السوفيتية حول الشعبوية الروسية ، بعد ستالين ، انظر : John E. Bachman, "Recent Soviet Historiography of Russian Revolutionary Populism," Slavic Review 29 (1970) : 599-612 .

١٥ - Donald Filtzer, Soviet Workers and Stalinist Industrialization (New York : M.E. Sharpe, Inc., 1986), Ch. 7, esp, 187

ولاتزال المشكلات التى دفعت إلى حركة الستانوفيين فى الثلاثينيات ، قائمة حتى اليوم بالنسبة لفئات متنوعة من العمال ذوى الضمير ومن بينهم من يسمون «نافخو الصفارة» (Whistle - blowers» .

Bruno Grancelli, Soviet Management and Labor Relations "Boston : Allen & Unwin, 1988), 189 ff.; Tim McDaniel, op. cit.

١٦ - Moshe Lewin, "Society, State and Ideoligy During the First Five Year Plan," in Cultural Revolution in Russia, 1928-1931, ed Sheila Fitzpatrick, (Bloomington: Indiana Univ. Press, 1978), Ch. 2; Sheila Fitzpatrick, " New Persprctives..", 367 citing evidence from Vera Dunham's In Stalin's Time : Middle Class Values in Soviet Fiction.

١٧ - Valerie Bunce, "The Empire Strikes Back : the Evolution of the East Bloc from a soviet Asset to a Sovite Liability," International organization 39, No. 10(1985) : 1 - 46, esp. 3ff.

١٨ - For the process of Sovietization, Michael Rywkin, "National Symbiosis : Vitality, Religion, Identity and Allegiance, " in The USSR and the Muslim World - Issues in Domestic and Foreign Policy ed. Yaacov Ro'i (London : George Allen & Unwin, 1984), 11; Paul

Henze, "The significance of Increasing Bilingualism, among Soviet Muslims," ibid., 127' more fanciful and "orientalist" is Marie Broxup, The Islamic Threat to the Soviet State (New York : st. Marin's Press, 1983) وهو يحاول التدليل على فكرة استمرارية المقاومة الاسلامية للسوفيت منذ سلطان جاليف قبل الحرب العالمية الأولى ، وحتى أفغانستان .

وحول الزواج بين الجماعات المختلفة اثنياً ، انظر :

Wesley Anrdrew Fisher, The Soviet Marriage Market (New York : Frederick A. Praeger, 1980), Ch. 7; on Changes in another region, the Ukraine, Boris Lewytzkj, Politice and Society in Soviet Ukraine, 1953 - 1980 (Edmonton : Univ. of Alberta Press, 1984) , 13 - 25 .

١٩ - Michael Paul Sacks, Women's Worl.... 67'

وحول اقتصاد المقايضة الجديد ، انظر :

Steven Sampson, " May Yon Live only by Your salary'. The Unplanned economy in Easten Europe "Social Justice 15, nos. 3-4 (1989) : 135 - 159

وحول اليمين عموماً ، انظر :

Alexander Panove, The Russian New Right-Wing Ideologies in the Contemporary USSR (Eerkeley : Univ. of California Press/iis, 1978) . Gff., 21 - 25, 113

٢٠ - Bernard Combrie and Gerald Stone, The Russian Language Since the Revolution (Oxford Univ. Press, 1978), 20, 144 - 145, 156 - 158 .

ويلاحظ أنه منذ زمن القياصرة ، هاجر كثير من الروس إلى مناطق القوميات بوصفهم استعماريين .

Max Adler, Marxist Linguistic Theory and Communist Practice-A Sociolinguistic Study (Hamburg : Helmut Busks, 1980), 112ff.

٢١ - Elizabeth A. Warner, "Collection and Study of Ethnographical Material in Russia," Folk Life 22(1983-4) : 107 - 118' John L. Wieczynski, ed. The Modern Encyclopedia of Russian and Soviet History (Gulf Breeze : Acadamic Press International, 1976), 2 : 51' 23 : 229 - 246 ' for a tourist book on old Russia, Alexander Milovsky, Ancient Russian Cities-A Travel Guide to the Historical and Architctural Monuments and find Arts museums (Moscow, 1946).

٢٢ - Alexander Vucinich, Empire of Knowledge- The Academy of Sciences of the USSR (1917-1970)(Berkeley : Univ. of California Press, 1984), Ch. 1 .

٢٣ - Vucinich, ibid., Chs., 2-3, esp. 126' Peter Kneen, Soviet Scientists and the State (London : Macmillan Press, 1984), 10ff .

٢٤ - دخل الفكر الديالكتيكى إلى الثقافة الروسية عن طريق المنشفيك وعن المهاجرين الروس العائدين . وكان أقوى فى المدن التجارية للبلطيق . ولدى الشخصيه المنشفيكية البارزة : أبرام ديبورين (١٨٨١ - ١٩٦٤) ، ولدى لينين بطبيعة الحال . على أن اللينية التى كان لها التأثير الأكبر على روسيا إنما كانت لينينية ستالين وليس لينين نفسه ، أى لينين «الدفاتر الفلسفية» .

James Edie et al., eds. Russian Philosophy (Knoxville : Univ. of Tennessee Press, 1976), 3 : 354ff .

وبخصوص وجهات النظر للعالم وبخاصة الرومانسية ، انظر :

Lauren G. Leighton, "The Great Soviet Debate Over Romanticism : 1957 - 1964," Studies in Romanticism 22 (Spring 1983) : 41 - 64'

وبخصوص المناخ العام للتحليل العلمى التقليدى للأدب ، انظر :

Gorky Institute of World Literatures, project of the History of World Literaturs, Yuri Vipper, "National Literary History in History of World Literatuer ' Theoretical Princpiles of treatment," in New Literary History 16(1985) : 545-558.

٢٥ - بخصوص نقد فكرة «دوركايم» عن الدين بوصفه اجتماعى ، انظر :

Gregory Freeze, "Handmaiden of the State ? The Church in Imperial Russia,A Journal of Ecclesiastical History 36 (1985) : 85 - 102.

فخلال الفترة الباكرة «للثورة» ، كانت البنية العلمانية لها اليد العليا بوضوح ، بل لقد حاولت ايجاد مراتبية روحية قابلة للسيطرة عليها بدرجة أكبر من الكنيسة هى «رابطة المناضلين غير المؤمنين» ، كما حاولت فرض ضرائب على الكنيسة باعتبارها مشروعاً .

٢٦ - ثورة ١٩١٧ ، ليست هى الثورة الوحيدة فى بلدان الطريق الروسى التى تدير ظهرها للبنية الدينية باعتبارها المنفذ المعبر عن الشعور الدينى أو الرومانسى . ففى الثورة التركية أغلق كمال أتاتورك أيضا المؤسسات الدينية وأحل «الكمالية» محل الإسلام العثمانى ، وكذلك ثورة ١٩٥٨ فى العراق .

٢٧ – للاطلاع على تفسير لبواعث العقيدة الأرثوذكسية من خلال مفاهيم بنية وتفاعلات العائلة الروسية التقليدية ، انظر :

Dinko Tomasic, The Impact of the Traditional Russian Culture on Soviet Communism (Glencoe : The Free Press, 1953), Section Three, 228 - 229

٢٨ – Edie, op. cit., 55-75' Samuel Cioran, Vladimir Solov, ev and the Knighthood of the Divine Sophia (Waterloo Wilfrid Laurier Press, 1977) , Ch. 2:

وحول تاثير الصالونات ، انظر :

Forrest A. Miller, "Solov'ev, Vladimir.." in John Wieczynski, op. cit. 36 : 152 - 5

٢٩ – من الأفكار الشائعة لدى المؤرخين أن التاريخ كعلم يعتبر أكثر أهمية لدى البلاشفة من العلوم الأخرى ، وربما كان الأمر كذلك ، فمن المؤكد أن المادية التاريخية تدين بالولاء للتاريخ ، لكن ذلك يتطلب تبنى خطا متشددا : أولا ، برفض الدور الذى يمكن أن تلعبه العلوم الأخرى فى الحفاظ على الإزدواجيه الثقافية للهمينة ، مثل : الأنثربولوجيا ، والهندسة ، واللغويات ، والاقتصاد ، وثانيا بإثبات أن كتابة التاريخ السوفيتية تمثل شيئا جديداً ، وأن كتابة – التاريخ السابقة لم تكن ذات أهميه للبلد .

Nancy Heer, Politics and history in the Soviet Union (Cambridge : MIT Press, 1971), 13ff.

وعلى مستوى الحالات الملموسة ، فإننا نجد أن المؤرخين الاثنين أو الثلاثة ، الذين أصبحوا ذوى أهمية سياسية ، أنما كانوا حالات منعزلة ، والمثال الأساسى للمؤرخين الذين تحولوا هو بوكروفسكى (١٨٦٨ – ١٩٣٢) ، وهو شخصية تحدثنا عنها بشيء من التفصيل فى القسم الأخير .. ويكفى هنا أن نذكر أن ستالين قد شمله فى التطهيرات من بين كثيرين اخرين .

Gaorge M. Enteen, The Soviet Scholar- Bureaucrat : M.N. Pokrovskii and the Society of Marxist Historians (Univ. Park : Pennsyl vania State Univ. Press, 1978).

ومن الفترة القيصرية ، برز مؤرخ ، كان نداً ليوكروفشكى ، إن لم يتفوق عليه ، فى تأثيره على بنية السلطة . هو كليوتشفشكى (١٨٤١ – ١٩١١) . وجدير بالذكر أن بحثه المتميز كان عنوانة « سير القديسين الروس القدماء بوصفها دراسات تاريخية

Gsorge Vernadsky, Russian Historiography-A History (Belmont : Nordland Publishing Co., 1978). 128 - 139 .

ولكن ، وهذه هى النقطة المهمة ، أن نربط بين نجاحه السياسى وبين مكانته كمؤرخ يبدو أمراً صعبا .

Joseph L. Black, "The State school, Interpretation of Russian History : A Reapprai- – ٢٠
sal of its Genetir Origins," Jahrbycher fur Geschichte Osteuropas 21(1973) : 509 - 530' J.L. Black' " State School' of Russian Historian," in John Wieczynski, op. cit 37 : 118 - 125; "Russian Historical Society" ibid., 32 : 96

وقد طرح مصدر آخر فكرة أن الجيل الثانى هو الذى شهد الصراعات بين المؤرخين وبين الدولة .

Vernadsky, op. cit., 116, 130, 317' Iu P. Bokarev, "Quantitative Methods and Resear ch on the History of the Traditional Soviet Peasantry," in Soviet Quantitative History ed, Don Karl Rowney (Bevely Hills : Sage Publications, 1984), Introduction, Chapter 4.

Paul Dukes, "Solov'ev's History of Russia," The Historical Journal 31. no. 1(1988) – ٢١
: 187 - 194; Sergei Solov'ev, History of Russa (Gulf Breeze : Academic International Press, 1981), 29:xii.

٣٢ – والمثل الطبيعى لذلك هى صورة بطرس الأكبر . فتيوبيدونستيف» صور بطرس الأكبر على أنه كان نموذجاً . خادما براجماتيا للدولة ، وقد تبنى ستالين هذه النظرة رغم أنها لم تظهر خلال فترة بوكروفسكى الذى كانت لديه مخاوف شديدة من تاثير الفرد . وبعد سنوات قليلة من وفاة بوكروفسكى ، كتب بيرنجارد ب.كافينكوز (١٨٩٤-١٩١٩) عملا كبيرا حول إعادة الاعتبار لبطرس ، طبع فى ١٩٤٠ .

Nicholas V. Riasanovsky, The Image of Peter the Great in Russian History and Thought (New York : Oxford Univ. Press, 1985), 216, 257-8.

P,J. Molchanov, "Museum of the History of the Don Cossack Host," in Wieczyslxi, – ٣٣
op. cit., 23 : 234 - 5.

Forrest A. Miller, "Russian Palestine Society," ibid., 32: 132 - 4; "Russian Pales- – ٣٤
tine Society of the Academy of Sciences," ibid., 134 - 50

Alexander Vucinich, Social Thought in Tsarist Russia (Chicago ; Univ. of Chicago– ٢٥
Press, 1976), 155

حول المبادرات الليبرالية فى الدراسات الاستشراقية ، انظر :

Richard Frye, "Oriental studies in Russia," in Russia and Asia, ed. Wayne S. Vucinich (Stanford : Hoover Institution Press, 1972), 46 - 49.

٣٦ - بالنسبة للتاريخ السياسى ، فإن صعود « الطبقة الجديدة » أصبح مدروسا بصورة جيدة للغاية ، أما بالنسبة لعلم اجتماع المعرفة أو الكتابة التاريخية فلم يحدث ذلك . وكمثال على مواد «جيل برجينيف» كاثر سياسى للثورة الثقافية ، راجع :

"Sheila Fitzpatrick, Cultural Revolution as Class War," in Cultural Revolution in Russia..., Ch. 1 .

وفيما يلى عرض لبعض العناصر الموجودة فى أعمال الباحثين فى كتابة - التاريخ ، والتى يمكن استخدامها فى التخلى عن نظام التزين القائم حول «ما قبل وما بعد ستالين» إلى ذلك الذى يرتكز «على الثورة الثقافية» باعتبارها نقطة التحول فى إنتاج المعرفة . ومن خلالها يمكن استنتاج أن التاريخ لم يكن متمحورا حول تنظيم الثقافة الذى يعكس ببساطة ما كان يجرى من أحداث . والذى ظل كذلك باستثناء بعض الشخصيات المعدودة وباستثناء الليبراليين الوضعيين وبعض الرومانسيين المرتبطين بالثورة الثقافية ».

فبخصوص التوجه العام ، انظر :

C.E. Black. "History and politics in the Soviet Union," in *Rewriting Russian History*, ed C.E. Black (New York : frederick A. Praeger, 1956), 3-32; Samuel H. Baron, "The Resurrection of Plekhaovism in Soviet Historiography," Russian Review 33(1974): 386-404 . .

وصعود «الطبقة الجديدة» لدى القوميات أنكره معظم الباحثين المحدثين ، حتى حينما كانت الدلائل على هذه الظاهرة واضحة ، مثال ذلك :

Lowell Tillett, *The Great Friendship : Soviet Historians on the Non-Russian Nationalities* (Chapel Hill : Univ. of North Carolina Press, 1969), 36ff.

حول القومية الأوكرانية فى أوائل الثلاثينيات .

وحول مؤرخى العلاقات الأرمينية السوفيتية: «أ.م. ماكوبيان» ، وميهينداك أرتاشيس» انظر :

L. Mikirtitchian, "Soviet Historiography of the Armenian Nation, "*Caucasian Review 9* (1959) : 98-122, esp. 120.

ومن الواضح أيضا أن دراسات الأثنيات القومية كانت ذات حدين بالنسبة «للطبقة الجديدة » فقد كانت مفيدة بالنسبة لمن ينكرون الاثنية فى موسكو ، لكنها كان يجب الحد منها بالنسبة لمن يناصرون المركزية الروسية لحماية وضع الطبقة الجديدة ككل .

وهذا الموقف المتناقض يظهر فى :

John Besarab, Pereiaslav 1654 : A Historiographical Study (Edmonton : The Univ . of Alberta Press, 1982), 179, 184ff

فيما يختص بالذكرى الثلاثمائة لمعاهدة بيرياسلاف ١٦٥٤» ، بين بحث «بيزاراب» أن المؤرخين الأوكرانيين المحدثين أصبحوا يميلون إلى الترحيب بالصياغة السوفيتية التقليدية للواقعة باعتبارها مؤشرا لإعادة توحيد الأوكرانيين والروس . وقد تبنت الدراسات التاريخية البولندية الحديثه اتجاها مشابها قائما على المركزية الروسية (١٨٢) ، وما قام به ستالين من رد للاعتبار للمؤرخ الأوكرانى ، ايفان كريبياكيفتش ، ليعبر عن نفس الموقف . وبعيدا عن التوجهات القومية التقليديه ، أخذت «الطبقة الجديدة» للمناطق الطرفية مثل : آسيا الوسطى ، وسيبريا ، والقوقاز ، تشارك حاليا فى هذا النوع من الدراسات . ولم يكن الحال كذلك فى الثلاثينيات .

ففى ذلك الوقت ، رحب المؤرخون وعلماء الآثار المنتمون لتلك المناطق بسقوط بوكروفسكى فى ١٩٣٤ ؛ حيث ظنوا أن ذلك سيتيح لهم تبنى منهجا فى دراساتهم يقوم على الروابط الأثنية ، كما يتيح لهم وضع نهاية للتغلغل الثقافى لروسيا العظمى . انظر :

V. A, Bulkin et al., "Attainments and Problems of Soviet Archeology, "*World Archeology* 13, no. 3(1981) : 272-295.

وثمة توجه أخر فى كتابة التاريخ ، وهو يعكس أيضا صعود الطبق الجديدة ؛ يركز علي موضوع الليبرالية ذاتها فى التاريخ الروسى . ومثال ذلك ، ماورد فى كتابات المؤرخ السوفيتى المعروف ، نيكولاى دروزينين ، فقد ذهب دروزنين ، علي خلاف بوكروفسكى ، إلى أنه كان ثمة عنصر تقدمى فى المشاركة الليبرالية فى انتفاضة الديسمبريين . انظر :

John Gooding, "The Decemberists in the Soviet Union," *Soviet Studis* 40(1988) : 196-209, esp. 198ff.

والمؤرخون الذين أتوا بعد بوكروفسى ، خالفوه الرأى حول طبيعة «انتفاضات بوجاتشيف» وحول طبيعة الحركات الفلاحية الأخرى فى عصر القياصرة ، فقد ذهب بوكروفسكى إلى أن انتفاضه بوجاتشيف لم تكن أنتفاضة فلاحية ولا كانت ذات اهداف سياسة بينما اتخذ الليبراليون ، خاصة بعد وفاته ، موقفا مناقضا . ثم قام الجيل الجديد من المؤرخين الذين ظهروا فى الخمسينيات ، بتحدى تفسيرات بوكروفسكى . انظر :

Leo Yaresh, "The, Peasant Wars, in Soviet Historiography," *American Slavic and East European Review* 16(1957) : 241 - 259, esp. 248.

وكانت دراسة العبودية فى التاريخ الروسى ، منذ نشأتها حتى إلغائها على يد بطرس الأكبر ، موضوعا أخر للاختلاف بينبوكروفسكى وبين المؤرخين الآخرين . ومسألة العبودية تثير بالضرورة ، فى الغالب الأعم ، الجدال حول سياسة العمل القسرى ، فيما بين الثلاثينيات ، والخمسينيات . فقد ذهب المؤرخون ، خلال الخمسينيات ، إلى أن العبودية لم تكن ذات أهمية قبل عهد بطرس

لأن نمط الإنتاج كان إقطاعيا . ومع حلول الستينيات ، وزوال العمل القسرى ، بدأت دراسة العبودية تتخذ منحى أكثر موضوعية .

Richard Hallie, "Recent Soviet Historiography on medieval and Early Modern Russian Slavery," Russian Review 35(1976) : 1-32.

وفى أوائل الستينيات ، تناول المؤرخ السوفيتى البارز ميليتزا نيشكينا ، بالمشاركة مع آخرين ، أحد الأفكار الأساسية عند بوكروفسكى ، وهى فكرة أن الاقتصاد هو محدد الأحداث السياسية ، بروح النقد . واختارت مجموعة نيشكينا كموضوع للبحث : الموقف الثورى فى الأعوام ما بين ١٨٥٩ و ١٨٦١ ، وهو الموقف الذى نشأ إلى حد كبير نتيجة الوعى السياسى لدى الفلاحين ، انظر :

Charles C. Adler Jr., "The, Revolutionary Situation 1859 - 1861,: The Uses of an Historical Conception," *Canadian, Slavonic Studies* 3, no. 2(1969): 383-399, esp, 388.

٢٧ - M.N Pokrovskii, Russia in World History (Ann Arbor : Univ, of Michigan Press, 1970), especially the editorial introduction by Roman Szpor luk, 10 - 12, 35 - 9; Hans Hecker, *Russische Universal geschi chtess chreibung* (Vienna : Verlag R. Oldenbourg, 1983)

الذى وجد أن «التاريخ العالمى» ساد روسيا من ١٨٦٠ - ١٩٥٥ ، بينما ساد فيها «تاريخ العالم» ، أى التاريخ الذى أصبحت فيه «الثورة الروسية» مركز الجاذبية ، من ١٩٥٥ - ١٩٦٥ . وقد كان بوكروفسكى جزءاً من الفترة الأولى .

٢٨ - Samuel H. Baron and Nancy Heer, eds. *Windows on the Russian Past* (Columbus : American Association for the Advancement of Slavic Studies, 1977), Introduction, 112, 145ff, 158-9; Black op. cit., ch. 6:

من بين الموضوعات التى اهتم بها التاريخ السوفيتى الحديث :

تاريخ اليسار غير البولشفيكى ؛ البحث فى نمط الإنتاج الآسيوى وتطبيقاته على الاستبداد الروسى ؛ دراسات فى النظريات المعرفية التى تتوامم مع هذه التحولات المراجعة في التفكير . وأحد هذه المحاولات كانت تتعلق باستخدام مفهوم «تعددية التشكيلات» والذى يعنى تعايش أشكال مختلفة من الأنظمة الاقتصادية فى لحظة تاريخية معينة . وهو تعبير ليس بعيدا عن تعبير «الطريق الروسى»

٢٩ - Roy A. Medvedev, *Let History Judge : The Origins and Consegyences of Stalinism* (New York : Vintage Books, 1971). 361 - 3, 316 .

الفصل الثالث :

تاريخ العراق (١٨٦٩ - ١٩٩٠)

نموذج شرق أوسطى للطريق الروسى

يعالج هذا الفصل بشئ من التفصيل كيف أن تاريخ العراق الحديث يقدم مثالا «للطريق الروسى» كنمط من أنماط الهيمنة كما تحدثنا عنه فى الفصل السابق .

والقسم الأول فى هذا الفصل يقدم هذه الطريقة فى المعالجة ، ويعقد الصلات بينها وبين نماذج البحث التقليدية التى يستخدمها الباحثون فى تفسير التاريخ العراقى . ويتناول القسم الثانى بالتفصيل الاقتصاد السياسى للعراق من منظور «الطريق الروسى» [1] . أما القسم الثالث فيعالج مسألة الهيمنة فى العراق كما تتبدى فى نطاق محدد هو تنظيم الثقافة . بينما يعالج القسم الرابع مسألة كتابة التاريخ فى العراق باعتبارها جزءاً من تنظيم الثقافة .

وقد كان النموذج البحثى الأكثر تأثيرا فى دراسة تاريخ العراق الحديث هو النموذج الليبرالى . ففى فترة الحرب العالمية الأولى ، ذهب الليبراليون ، بمن فيهم القوميون العرب والاستعماريون الإنجليز ؛ إلى أن وصولهم إلى العراق قادمين من الحجاز ، هو علامة ميلاد حقبة جديدة فى تاريخ العراق ، وأن الفترة العثمانية السابقة كانت مرتعا للفوضى ، وأن المصلح الكبير مدحت باشا ، لم يكن فى ١٨٦٩ سوى إرهاصة للأيام المقبلة ، وأن الثقافة السائدة فى هذا البلد لم تكن مجرد ثقافة دينية تقليدية بل كانت صوفية أيضًا ، أى كانت مختلفة تماما عن الثقافة الحديثة التى تأسست فى بغداد تحت الحكم البريطانى .

وقد ذهب الليبراليون ، فى دراستهم لتاريخ العراق ، إلى أنه شهد «عنصرا ذهبيا» فى «الفترة العباسية» ، ثم شهد انحدارا تحت حكم العثمانيين ، حيث أصبحت العراق قبلية بالدرجة الأولى ، ثم تلى ذلك اكتشاف البترول وميلاد الأزمنة الحديثة . وانتهت الحقبة العثمانية عمليا مع الاحتلال البريطانى عام ١٩١٧ ، وأعلنت العراق رسميا محمية بريطانية عام ١٩٢٣ . وفى عام ١٩٣٢ أصبح العراق دولة مستقلة عن الاستعمار المباشر ، ثم تحول إلى جمهورية فى ١٩٥٨ ، ثم إلى دولة «اشتراكية» عام ١٩٦٨ [2] .

والفضيلة الكبرى للمدرسة الليبرالية هى أنها صورت تاريخ العراق بطريقة شاملة إلى حد ما . إذ لا توجد لدى أى مدرسة أخرى مثل هذا المخطط الواضح لتفسير التاريخ . إلا أن هناك الكثير مما لا تستطيع النظرة التنموية تفسيره مما يؤدى بالمدرسة الليبرالية إلى التشاؤم وإلى التأكيد على الإخفاق . فبعض الكتاب مثلا ،

يؤكدون ببساطة على فكرة أن الجنوب فى العراق أخفق فى التنمية . على أن أكثر الدراسات تدقيقا فى تاريخ العراق ، وهى دراسة «حنا بطاطو» ، وإن كانت تتبنى مقدمات مأخوذة من المدرسة الليبرالية ، إلا أنها عدلتها بالرجوع إلى الاقتصاد السياسى . إذ يذهب بطاطو ، إلى أن التنمية ، التى هى مناط الاهتمام لدى الليبراليين ، لا تؤدى بالضرورة إلى مجتمع حديث ، بل إلى خليط من تركيبات مجتمعية حديثة وقديمة ، كالطائفية مثلا ومنظور «الطريق الروسي» هنا يدين بالكثير لهذا الكتاب (٣) .

وقد كانت المدرسة الرومانسية ، على مدى القرن الماضى ، هى المدرسة الرئيسية المعارضة للمدرسة الليبرالية . وقد ذهب الكتاب المنتمون إلى تلك المدرسة إلى التأكيد على قوة الاستمرارية طويلة المدى فى تاريخ العراق . إذ يرى الرومانسيون أن الاستمرارية بمقدورها تفسير وجود الأشكال الكلاسيكية أو القديمة فى الأزمنة الحديثة .

وفى العراق ، كانت الاتجاهات الرومانسية الرئيسية هى الحركات ذات الطابع الوحدوى الشامل ، ففى القرن التاسع عشر ، كانت حركة الوحدة الإسلامية تحتل مكانة هامة تماثل حركة الوحدة السلافية فى روسيا ، وفيما بعد ، جاءت حركة الوحدة العربية ، التى وإن كانت أكثر علمانية ، إلا أنها تحمل نفس القدر من الطابع الخلاصى ؛ لتحتل مكانا بارزا منذ الحرب العالمية الأولى فى نفس الوقت الذى كانت فيه البولشفية تمر بمرحلتها الرومانسية (٤) .

ووفقا لكتّاب الوحدة العربية ، فالعراق يمثل جزءاً من التاريخ العربى الأكبر . وهذه نظرة رومانسية تستمد جذورها من النظر إلى الماضى على أنه تراث مشترك . وهى تتميز عن الصيغ الأخرى للتوجهات القومية العربية والعراقية التى تتسم بالتركيز على الحاضر أو المستقبل والتى تستمد جذورها من النظرة الوضعية ومن فكرة التقدم . وقيادة الوحدة العربية على المستوى السياسى حاليا تتمثل فى حزب البعث العراقى .

وتشتمل ردود الفعل الرومانسية تجاه الوضعية الليبرالية ، على «مدرسة حضارة ما بين النهرين» التى تستند إلى دراسة الآثار ، وعلى الاتجاه الإسلامى الذى تم إحياؤه حديثا . ويؤكد كتّاب مدرسة ما بين النهرين على أن ثقافة ما بين النهرين تمثل السمة الثابتة للعراق منذ القدم حتى الوقت الراهن ، ويستندون فى ذلك على ملامح معينة يعنون بدراستها ، مثل الأمثال الشعبية ، ونظم الرى ، والطقوس الفلاحية ، وغيرها (٥) .

ويميل الاتجاه الإسلامى فى العراق إلى التأكيد على الاختلافات الطائفية باعتبارها أساس النظام السياسى العراقى ؛ ويتبنى الباحثون من هذا الاتجاه ، وجهات نظر تتفق فى مجملها مع الاستشراق الغربى (٦) . وينظر الاتجاه الإسلامى إلى الثقافة العلمانية الحديثة على أنها شئ فرضه الاستعمار الغربى لمساعدة الطبقة الحاكمة السنية فى بغداد ، ويعتبر أن الثقافة الحقيقية للعراق تتمثل فى المذهب الشيعى (٧) . ويرى أنصار هذا الاتجاه ، أن العراق قد دفع بعيدا عن مساره الحقيقى وهو الديمقراطية الشيعية ، ليصبح منتميا للطريق الاثنى - القبلى .

وقد كان للمدرسة الماركسية تأثير أيضا على كتابة التاريخ العراقى . فتناول الباحثون الشيوعيون العراقيون بالدراسة موضوعات مثل : الإمبريالية ، والبترول ، والطبقة العاملة ، والإقطاع ونمو الرأسمالية تأثرت بأفكار لينين ، بينما لم يصل الباحثون الماركسيون غير اللينيين إلى مثل هذا المستوى . فموضوعات مثل : الدور التاريخى للفلاحين ، والطبقة العاملة «غير الطليعية» ، والاضطهاد على أساس العرق أو النوع الجنسى ؛ ظلت متوارية فى الفكر الماركسى العراقى مثلما كانت فى الماركسية السوفيتية . وقليلون هم الذين شغلتهم ثغرات الفكر اللينينى ، وتبنوا فرضية أساسية هى أن «القديم» قد لا يكون مجرد قديم أو «ما قبل رأحالى» ، بل أحد النواتج الثانوية للنمو الرأسمالى غير المتكافئ .

ودعوى انتماء العراق للطريق الروسى تقف فى مواجهته دعوى أن العراق قد دفع إلى تبنى الدولة الاثنية - القبلية ، وفى مواجهة مقولة الليبرالية بأن العراق يقترب أكثر من الطريق الإيطالى . فكما سيبين هذا الفصل والذى يليه ، فالعراق يتميز بخصائص لا تتوافر فى دول الطريق الاثنى - القبلى ، ولو توافرت فيها لأصبحت معوّقة لها فى أداء وظائفها . من بين هذه الخصائص : المدينة المتسيدة : بغداد ، التى هى مركز الثقافة الرفيعة ذات الجذور الوضعية ، وهى ثقافة ذات أهمية خاصة فى دراسة التاريخ السياسى . يضاف إلى ذلك أن لدى العراق مدن مزارات مقدسة ، بينما فى دول الطريق الاثنى - القبلى نجد «مدن متحفية» . كذلك فدول الطريق الاثنى - القبلى ، تقوم على اتخاذ التمايزات العرقية والقبلية أساسا ظاهرا لتنظيم الدولة . أما فى العراق ، فبينما يلجأ الحكام أحيانا إلى إثارة المشاعر الطائفية ، فإن طليعة التنظيم السياسى فى تاريخه الحديث ، تعكس الانقسام بين المدينة والريف الذى يميز الطريق الروسى . وأخيرا ، فالتناقض الحقيقى فى دول الطريق الاثنى - القبلى هو النوع

الجنسى ، حيث يتم تجميد وضع المرأة ، بينما لا يمثل النوع الجنسى فى العراق تناقضا أوليا ، إذ إن وضع المرأة فيه متفاوت .

كذلك ، يمكن اكتشاف أن العراق لا ينتمى لدول الطريق الإيطالى ، حتى لو اكتفينا بالنقاط سالفة الذكر . فهو لم يستغل فقر الجنوب على نحو ما فعلت الطبقة الحاكمة فى إيطاليا . ففى التنظيم العراقى للثقافة لا نجد شخصية «الجنوبى» التى تمثل نمطا أدنى ، عرقيا وثقافيا ، عن بقية السكان . وربما كانت الطبقة الحاكمة العراقية قد اختارت الطريق الروسى لأن الوضع الاقتصادى لا يسمح لها باستيعاب الجنوبيين حينما يتركون أرضهم بحثا عن عمل آخر ، الأمر الذى يسمح به الاقتصاد الإيطالى ، وهذه فرضية نظرية . لكن المعروف جيدا أنه حدث فى الخمسينيات أن الدولة أعادت قسما عددا من الجنوبيين الذين وفدوا من الريف ليقطنوا المناطق العشوائية فى أطراف بغداد إلى المناطق التى جاءوا منها .

وعام ١٨٦٩ فى العراق ، يقابل عام ١٨٦١ فى روسيا . فهو العام الذى توصلت فيه الطبقة الحاكمة العراقية إلى كيفية التعامل مع الأزمات المصاحبة لانتشار الرأسمالية فى المجتمع العراقى ككل . وبدءا من هذا العام أصبحت السلطة مفوضة للبيروقراطية . وعلى ذلك ، فهو يعتبر لحظة ميلاد العراق الحديث .

وإذا استخدمنا نموذج الطريق الروسى فى فهم الاقتصاد السياسى فى تاريخ العراق ، فإننا نجد مراحل متعاقبة على النحو التالى : أولا مرحلة ليبرالية (١٨٦٩ - ١٩٦٣) ، ثم مرحلة إدماجية (١٩٦٣ - ١٩٦٨) ، ثم مرحلة ليبرالية جديدة (١٩٦٨ إلى الوقت الحاضر) . والمرحلة الليبرالية ، تتميز فى العراق كما فى غيره من البلدان ، بحكم طبقة واحدة وبسيطرة الرأسمالية المالية . وفى عام ١٩٦٣ جاءت الإدماجية حينما اتسعت القاعدة السياسية للنظام بدخول الطبقة الجديدة فيها وتبنت الطبقة الحاكمة سياسة التصنيع . كذلك أخذت الطبقة الوسطى تلعب دوراً نشيطاً فى السياسة . أما المرحلة الثالثة والأحدث ، وهى الليبرالية الجديدة ، فقد شهدت عودة حكم الطبقة الواحدة .

وما يعقد الأمور فى الديناميات السياسية لدول الطريق الروسى هو أنها لا تتميز فحسب بمراحل طويلة المدى تقيم روابط متبادلة بين الفئة المسيطرة وبين الرأسمالية العالمية ؛ بل تتميز أيضا بمراحل قصيرة المدى تعكس الجهود المبذولة للسيطرة على الصراع الطبقى المحلى . وهذان النوعان من الديناميات ، سواء فى روسيا والاتحاد

السوفيتى أو العراق ، يتداخلان مع بعضهما البعض كما يتضح من الرصد التالى للمراحل قصيرة المدى فى العراق : ١٨٦٩ - ١٨٧٦ ليبرالية ؛ ١٨٧٦ - ١٩٠٨ إدماجية ؛ ١٩٠٨ - ١٩٣٦ ليبرالية ؛ ١٩٣٦ - ١٩٣٧ أوتوقراطية ؛ ١٩٣٧ - ١٩٥٨ ليبرالية (باستثناء فترة قصيرة عام ١٩٤١) ؛ ١٩٥٨ - ١٩٦٣ أوتوقراطية ؛ ١٩٦٣ - ١٩٦٨ ليبرالية ، ١٩٦٨ - ١٩٧٥ أوتوقراطية ؛ ١٩٧٥ - ١٩٩٠ ليبرالية .

وهناك اختلافات بين الاتحاد السوفيتى وبين العراق ، واعتبارنا لهذه الاختلافات هو الذى يعطى كل منهما خصوصيته . فالطبقة الحاكمة السوفيتية حاولت احتواء الطبقة العاملة ، بينما مثيلتها فى العراق لم تحاول ذلك . وعلى ذلك ، فالتأرجح قصير المدى للبندول ، فى حالة الاتحاد السوفيتى ، اتسع ليصبح أكثر بطءاً وطولاً ، فيكون ما يسمى بالحركة الحلزونية . بينما ظل الصراع الطبقى فى العراق مفتوحا . ونتيجة لذلك ، ظلت حركة البندول قصيرة المدى . فقد تكونت الدولة العراقية بوصفها «دولة أزمة» ، فأصبحت سياستها أكثر عنفا وأصبح إنتاجها للمعرفة أقل استقرارا من مثيلتها الروسية [٨] .

فقد امتلكت روسيا ثروة بترولية بدءاً من القرن التاسع عشر ، أى قبل العراق بكثير ، ورغم أن سعى الطبقة الحاكمة إلى اكتساب ثقافة علمانية قوية وإلى تحرير السلطة السياسية من نفوذ البيروقراطية الدينية ، اتسم بالبطء الشديد ، إلا أنها استطاعت تجنب كثير من المتاعب التى واجهت العراق ، ولم تواجه سوى فترة من السيطرة شبه الاستعمارية .

وقد شهدت تجربة العراق أن الأنظمة الاستعمارية عادة ما تؤخر التنمية الصناعية . وعلى العكس من ذلك ، نما التصنيع فى روسيا خلال سنوات طويلة ، حينما بدأت الطبقة العاملة تنظم اضرابات كبيرة فى السنوات الأولى من هذا القرن . وبحلول الثلاثينيات ، كانت كثير من الصناعات الأولية قد انتقلت إلى الجنوب . وفيما بعد انتقلت إلى أوربا الشرقية ، وإلى العالم الثالث . الأمر الذى وفر للعمال الروس فرص العمل الذى يتطلب مهارة أكثر والذى يدر دخلا أفضل . بالإضافة إلى أنه جعل الطبقة العاملة الروسية تشعر بأنها مدينة بمستواها هذا إلى بلوغ الاتحاد السوفيتى درجة معينة من القوة على نطاق العالم . مما جعل الطبقة معتمدة إلى حد ما على الدولة . أما فى العراق ، فقد أخذت الدولة تستثمر أموالها فى التنمية الصناعية بدءاً من ١٩٥٨ وخاصة بعد ١٩٦٣ ، لكنها لم تستطع كسب دعم الطبقة العاملة لها . وكان باديا للعيان أن الدولة استطاعت بسهولة استخدام عائداتها النفطية فى استيراد

احتياجاتها . وبالإضافة إلى ذلك ، كان من الواضح بنفس الدرجة ، أن الدول لا تهتم بما إذا كانت المنتجات المصنوعة تباع أم لا . ومثل هذا النوع من التفاعل بين الحكام والمحكومين خلق جوا من عدم الثقة .

وهكذا نشأ العراق بوصفه دولة أزمة . فكان على الطبقة الحاكمة باستمرار أن تشغل الطبقة العاملة بعيدا عن المسائل الاقتصادية ، بهجومها على اليهود أو الأكراد أو الأشوريين ، الأمر الذى يذكرنا بالمذابح التى أقدم عليها القياصرة فى روسيا قبل التصنيع .

الاقتصاد السياسى للعراق (١٨٦٩ – ١٩٩٠)

يعتبر عام ١٨٦٩ ، علامة فارقة فى التاريخ العراقى ، مما يبرر اتخاذه نقطة البداية هنا . ففى النصف الأول من القرن التاسع عشر أغلقت الطبقات الحاكمة العراقية الباب أمام التوسع الرأسمالى بهدف حماية تجارة القوافل القديمة بين الشرق والغرب . ومع ارتفاع قيمة المنتجات الزراعية فى السوق العالمى ، أقدم التجار وشيوخ القبائل على الإنتاج الزراعى وسمحوا للقوى الرأسمالية أن تلعب دوراً أكبر .

وعلى ذلك ، ففترة حكم مدحت باشا ١٨٦٩ – ١٨٧٢ ، تعتبر علامة ميلاد الطريق الروسى فى العراق ، وقد كانت مرحلتها الأولى (١٨٦٩ – ١٨٧٦) ليبرالية . فقد شهدت محاولة الحكام فرض دستور على البلاد وربط بنية القوى الريفية بالدولة . وكانت وسيلة مدحت باشا إلى ذلك هى قانون الأراضى العثمانى ؛ حيث تمنح حكومة بغداد من خلاله : أملاكا خاصة وسكنا بالمدن وألقابا ، لشيوخ القبائل ، فى مقابل معاونة الحكومة على تسكين قبائلهم وجمع الضرائب . وقد احتل شيوخ القبائل الذين أظهروا تعاونا هم وأبناؤهم مكانة مرموقة فى تاريخ العراق الحديث . وقد لعب مدحت باشا أيضا دورا فى تاريخ التعليم الحديث . فقد أسس المدارس العسكرية ، وأدخل من خلال ذلك معلمين علمانيين إلى العراق . بل حاول ، وإن لم ينجح ، أن يقيم سلطة علمانية فى «المدن المقدسة» بادئًا بتشييد مبان حكومية جديدة فى كربلاء [٩] .

وبدءاً من منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر ، أخذت تظهر ردود فعل تجاه المرحلة الليبرالية . فأفراد القبائل الأكثر فقراً ، أخذوا ، فى أحيان كثيرة ، يتمردون باسم التكافل القبلى القديم . وقد أدت مقاومة رجال القبائل الفقراء لتحالف شيوخهم مع الحكومة إلى عدم الاستقرار الأمنى فى بغداد . مما يفسر لجوء الحكومة بصفة

عاجلة إلى سن عقوبات جديدة وقاسية ضد الطبقة الفلاحية الدنيا الآخذة في أن تصبح أكثر تجانساً . وأصبحت السخرة ، والعقاب الجماعى ، والجباية المفروضة على القبائل ، هى معالم التحول إلى الأوتوقراطية الذى حدث فى عام ١٨٧٦ (١٠) . وغالبا ما كانت المراحل الليبرالية تنتهى بهذه الطريقة ؛ حيث يصبح على الحكومة اتخاذ إجراءات صارمة للحد من الصراع الطبقى .

وشهدت الفترة من ١٨٧٦ إلى ١٩٠٨ مرحلة أوتوقراطية حكم خلالها السلطان العثمانى القوى عبد الحميد الثانى المقيم فى استانبول ، بغداد ، عن طريق مفوض عنه . مثلما حدث فى روسيا ، أخذ حكام العراق فى هذه الفترة يجمعون بين أيديهم ملكيات واسعة من الأراضى . وفى ١٩٠٨ ، انهارت الإمبراطورية ، ونشأ فى العراق نظام ليبرالى ، وانتهى احتكار الدولة لتلك الأراضى . وأخذت ملامح أخرى للطريق الروسى خاصة فى جانبه الأوتوقراطى تظهر فى هذه الفترة . من ذلك : ازدياد بروز مدينة بغداد ؛ وازدياد نفوذ رجال الأعمال من بين الأجانب والأقليات ؛ وصعود تيار الثقافة العربية الليبرالية فى مواجهة أيديولوجيا الوحدة الإسلامية . وارتفاع مكانة بغداد بالمقارنة بالمدن الأخرى يمكن استنتاجه من الأرقام التالية : كان العائد المتحصل يقسم إلى قسمين : يذهب أحدهما إلى استانبول ويبقى الآخر بالعراق ؛ حيث ينفق ٢٥٪ منه على الأمن المحلى ، ٢٤٪ على مرتبات الإداريين ، ويبقى ١٪ يوجه للخدمات الاجتماعية (١١) . واستخدام إيرادات الضرائب على هذا النحو هو الذى رفع مكانة بغداد فى المدى الطويل ، فبغداد ، هى فى نهاية الأمر ، مركز الأمن ومركز الإدارة .

وقد كانت بغداد أيضا هى المكان الذى بنيت فيه الجسور وشيدت فيه السجون فى تسعينيات القرن التاسع عشر . وبتعبير آخر ، فضآلة حصة المدن الأخرى من عائدات الضرائب هى التى أدت إلى تدهورها (١٢) .

وقد تزايدت قوة القيادات الشيعية أيضا خلال هذه الفترة يتجسد ذلك فى إنشاء منصب جديد هو «مرجع التقليد» الذى يجعل من واجب المؤمنين طاعة السلطة الدينية القائمة ، وتقديس العقيدة القديمة بطاعة «الإمام الغائب» . وقد ارتفعت مكانة «مرجع التقليد» فى زمن عبد الحميد لكنها تضاءلت مع صعيد الليبرالية زمن «الانتداب» . وقد كان من سلطة القيادة الشيعية ، فى زمن ازدهارها فى التسعينيات ، أن تمنع أتباعها من الالتحاق بالمدارس التى يديرها سنيون أو التى تدرس مقررات دراسية علمانية . كذلك كان بمقدورها أن تنظم عملية مقاطعة اقتصادية واسعة المدى لسلطة أجنبية مستوردة مثل التبغ (١٣) .

والمراحل الأوتوقراطية تتيح فرصا للاستثمار الأجنبى أكثر من المحلى ، لأن اعتبارات الأمن تصبح لها الأولوية على تعظيم الربح . مكان تقدير الحكام هو أن الأجانب بمقدورهم دائما أن يلبوا ما هو مطلوب منهم ثم يغادروا البلاد . لكن الربح بالنسبة للأجانب يتطلب إقامة صلات داخلية ، وهنا كانت الطائفة اليهودية العراقية تجد أمامها فرصة هامة ومربحة فى أن تلعب دور الوسيط . وثروة الأثرياء على الأقل كانت تزيد بزيادة صادرات العراق ، وهذا ما فعلوه . ففى الفترة ١٨٨٥ - ١٨٩١ مثلا ، استطاع المهندسون الفرنسيون التغلب على مشكلة نظام الرى الخاص بنهر الحلة وساعدوا على توسيع قاعدة الصادرات الزراعية فى تلك المنطقة .

وهذه التطورات أدت إلى تغييرات أخرى ليس أقلها التغير الثقافى . فبينما كان الاتجاه السائد فى ثقافة العراق هو الوحدة الإسلامية ، أخذت قطاعات من الطبقات الوسطى مسلمين ومسيحيين ويهود ، بحلول ١٩٠٠ ، تدعيم ثقافة عربية ليبرالية حديثة (١٤) . على أن سياسة الحكومة لم تتأثر ، فإسهامها فى مجال التعليم ظل مقصورا على التعليم العسكرى والدينى . فقد تخرج أكثر من ألف طالب ثانوى من المدارس العسكرية من ١٨٨١ إلى ١٩١٣ (١٥) .

وقد أحدثت ثورة جماعة الاتحاد والترقى فى تركيا تغييرات فى مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية . وأثرت فى السياسة العراقية فأدت إلى ظهور مرحلة ليبرالية - استمرت - رغم فترة الركود المصاحب للحرب العالمية ورغم الحكم الاستعمارى البريطانى - حتى الانقلاب العسكرى عام ١٩٣٦ . وكان من مظاهرها غلبة الثقافة العلمانية فى بغداد على الثقافة الدينية فى «المدن المقدسة» ، وإبعاد القيادات الشيعية التى رفضت المعاهدة العراقية الإنجليزية عام ١٩٢٣ .

وقد أعلن السياسيون فى بغداد ، غداة المرحلة الليبرالية ، مبادئ حرية الصحافة ، وأخذت الصحف تعلن مناصرتها لمسألة القومية العراقية والوحدة العربية (١٦) . وأنشأ الوالى ناظم باشا ، الذى وصل بغداد فى ١٩١٠ ، «غرفة تجارية» ، كما أنشأ أول شارع حديث بالمدينة ، وأقام كذلك سداً أنقذ المدينة من الفيضان (١٧) .

وفى السنوات القليلة التالية ، أصبحت العراق محمية بريطانية ، وكان هدف الإنجليز من ذلك حماية البترول . فهم يعتمدون عليه ، ويخافون لو لم يفعلوا ذلك لأمكن للألمان أن يستولوا على حقول البترول ويمنعونهم من الوصول إليه . ولم يكن الاستعمار ،

خاصة فى بدايته فى السنوات ١٩١٧ - ١٩٢٣ ، أمرا يسيرا بالنسبة للبريطانيين ، فقد أدهشت انتفاضات الفلاحين والقبائل فى وسط الفرات ، وفى كردستان ، البريطانيين . ولم يكن باستطاعة بريطانيا سحق هذه الانتفاضات بغير الاستطلاع والقصف الجوى ، واستخدام المجندين الأشوريين والجواسيس والمخبرين ضد القبائل العراقية . وبحدوث ذلك ، اتضحت الأمور ؛ إذ أصبح من الواضح أن الدعم المتوقع للحكم البريطانى سوف يأتى من الحضر أكثر من الريف . وأن على البريطانيين أن يعيدوا إقامة الروابط مع حلفائهم السابقين ، شيوخ القبائل فى وسط الفرات .

وكان عام ١٩٢٠ ذروة هذه الانتفاضات والنضالات السياسية التى حدثت خلال ١٩٠٨ - ١٩٣٦ ككل ، وهى التى سميت ثورة وسط الفرات أو ثورة «تشرين» التى مصلت فيها الحركة الوطنية إلى ذروتها ثم وقع الانقسام . وقد أخذ الرأى العام ، خلال ذلك العام ، يطالب بحريات عامة أكثر مما يحتمله أى نظام أجنبى ، وعارض الانتداب البريطانى من حيث المبدأ ، وعارض كذلك حكم الملك فيصل باعتباره دمية بريطانية فرضت على العراق ، غير أنه ، أثناء ذلك النضال ، ولأسباب لا تزال غير واضحة تماما ، وقع انقسام أيضا داخل الزعامة الدينية ، التى هى جزء أساسى من التحالف الوطنى . فجزء منها تزعم الثورة وتحالف مع قيادتها فى بغداد ، وجزء آخر امتنع . وقد أسهم هذا الانقسام فى هزيمة الوطنيين ، وأدى إلى نهاية المرحلة الليبرالية لفترة قصيرة . الأمر الذى سمح للبريطانيين ، الذين تحققت لهم السيطرة ، أن يقوموا بغزو عسكرى . وربما كان منطق المنقسمين من الزعامة الدينية هو أنه بانتصار البريطانيين ستأتى مرحلة أوتوقراطية ، وهى بالنسبة لهم أفضل من الليبرالية ، وعلى أية حال ، فقد أساءوا التقدير إلى حد بالغ . فالحكومة الجديدة على غرار بولشفيك نفس الفترة ، كانت على أتم الاستعداد لمحاولة الحكم بدونهم . وفضلا عن ذلك ، فقد تبنت الليبرالية بدرجة أكثر كثيرا مما توقع القادة الشيعيون ، الذين تضاءل نفوذهم إلى حد بالغ عقب الانتفاضة . وبحلول خمسينيات القرن العشرين ، انخفض عدد طلبة الدراسات الدينية من عدة آلاف فى العشرينيات إلى مئات قليلة . وبسبب ذلك ، ذهب بعض المعلقين العراقيين بعد العشرينيات ، على غرار المعلقين السوفييت فى ١٩١٧ ، إلى أن الدين لم يعد ذا أهمية سياسية [١٨] .

وعقب انتصار بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى وسحقها للنضال التحررى لثورة تشرين ، شرعت فى صياغة الهوية السياسية للعراق من خلال جهود جرترود بل

السكرتيرة الشرقية لدار المندوب السامى [١٩] . إذ تصورت أن ليس هناك وطن وأن ما يوجد ببساطة هو منطقة ما بين النهرين . فقرروا أن يؤسسوا دولة اثنية - قبلية ، فاختاروا للحكم الملك فيصل (١٩٢١ - ١٩٢٣) . وهو زعيم قبلى من الحجاز . وحينما جاء فيصل للحكم ، كان المتوقع أن يواصل التقاليد العربية المميزة للجماعات الاثنية - القبلية ، لكنه أدرك صعوبة ذلك فتأقلم سريعا . فهو لكى يحكم ، عليه أن يتعامل مع أفراد ، وليس مع كيانات جماعية . فالعراق لا ينتمى للطريق الاثنى - القبلى وإنما للطريق الروسى ، والوجود القبلى فيه شئ ثانوى ، بينما الأساس هو ثنائية المدنية - الريف .

ونظام القضاء فى العراق خلال العشرينيات يبين بوضوح الهوة القائمة بين الخطة القبلية للمستعمر البريطانى وبين واقع الطريق الروسى للعراق . فقد أقامت بريطانيا مجالس قبائل للقضاء فى الحالات الجنائية والنزاعات فى المناطق الريفية . وعين البريطانيون شيوخا قبليين لرئاسة تلك المجالس . وبطبيعة الحال جنى هؤلاء الشيوخ نفوذا كبيرا أو استعادوا ما كان لهم من نفوذ ، لكن النتائج لم تكن كما توقع البريطانيون «القبليون» . فقد أصبح الشيوخ طبقة عليا جديدة ، وضعفت روابطهم القبلية التقليدية حين أصبحوا معتمدين على الحكومة المركزية .

وشئ آخر أدهش البريطانيين ، هو أن الملك فيصل حينما تأقلم مع الوضع ، تبنى سياسات من شأنها تدعيم نمط الهيمنة الخاص بالطريق الروسى . فحينما فكر فى بناء جيش فعل ذلك عن طريق التجنيد العام . وقد عارض البريطانيون ذلك مفضلين الاعتماد على «الأجناس المحاربة» مثل الأشوريين . وفضلا عن ذلك ، عين فيصل أصدقاءه فى مناصب هامة فى حكومات الولايات (المحافظات) ، وكثير منهم «أشخاصاً جدد» كانوا ، من قبل ، ضباطا بالجيش أو سياسيين وطنيين . وكما ذكرنا سابقا ، كان البريطانيون يفضلون تعيين الشيوخ الموجودين ، وليس تكوين مجموعة سياسية جديدة .

والمراحل الليبرالية تخلق أثرياء جدد وفقراء جدد ، خاصة فى أنظمة الطريق الروسى . فتطويع الزراعة لمتطلبات السوق ، أفاد الشيوخ الذين يمتلكون الأراضى فى وسط الفرات . والبعض منهم سلك مسلك شيوخ القبائل السابقين ، فانتقلوا للإقامة فى بغداد ، تاركين الأرض تحت إدارة فئة من أعوانهم . الأمر الذى أضعف أكثر فأكثر الروابط الاجتماعية بين الحكام والمحكومين . وبحلول الثلاثينيات ، أصبح تأثير «الكساد الكبير» محسوساً فى الريف العراقى . وبدأت الهجرة الجماعية لفقراء الريف الذين بلا أرض ، إلى مدن العراق ؛ يتسع مداها .

وحتى ما قبل «الكساد الكبير» ، حدثت حركات عمالية منظمة احتجاجا على غياب العدالة فى عالم الغنى والفقر الجديد . ففى عام ١٩٣١ ، قاد محمد صالح القزاز ، أحد القادة العماليين الأوائل ، إضرابا ضد فرض ضرائب جديدة بموجب «قانون الرسوم البلدية» الذى صدر ذلك العام [٢٠] . واعتقلت الحكومة القزاز وأدانت حركته . وفى عام ١٩٣٤ ، نشأ داخل الوسط العمالى حزب شيوعى عراقى بهدف تحدى شرعية النظام السياسى العراقى . وفى الريف ، كانت هناك قلاقل أيضا . فالنضالات الفلاحية ، التى أطلق عليها صراعات «قبلية» ، واجهت الدولة طوال السنوات الأولى للثلاثينيات .

وبحلول عام ١٩٣٤ ، وجدت الأزمة الاجتماعية طريقها إلى الساحة السياسية . فقد وجد رئيس الوزراء على جودت الأيوبى نفسه ، وهو السياسى المنتمى للمدينة ، مضطرا إلى التلاعب فى الانتخابات ، فاستبعد الكثيرين بحيث لا يصل إلى المجلس إلا أتباعه الشخصيون . وكان من بين المستبعدين نواب عن الريف منهم شيخ شيعى بالغ القوة هو «عبد الواحد سكر» ، شيخ قبيلة «الفتلة» فى جنوب العراق . سرعان ما اشتعلت المعارضة فى جنوب وشمال العراق ضد حكومة الأيوبى . وأصدر الزعيم الشيعى ، الشيخ «كاشف الغطاء» ، فتوى ضد الحكومة ، فحواها أن أفعال الأيوبى خيانة للتفاهم السياسى الذى تم بين الملك فيصل والبريطانيين .

وفى عام ١٩٣٤ ، وصلت الليبرالية ، من حيث الجوهر ، إلى أقصى حدودها . فلم يعد ثمة مستقبل لأى سياسى ليبرالى يريد دفع التنمية الرأسمالية للريف . فقانون الأرض لسنة ١٩٣٢ منح مزيدا من الأرض للشيوخ الموالين لبغداد ؛ وقانون سنة ١٩٣٣ أثقل الفلاحين بالديون لتلك الأراضى ، حائلاً بذلك بينهم وبين إمكانية تشغيلهم فى أى مكان آخر داخل البلد [٢١] . وفى ١٩٣٤ ، كان الأيوبى فى مواجهة ، حقيقة أنه فيما عدا أجزاء محدودة فى «وسط الفرات» ، فإن الحصول على تأييد لليبرالية خارج المدن كان محدودا للغاية ؛ كيف يمكن إذن توسيع نطاق الرأسمالية إلا عن طريق الأوتوقراطية ؟

ولنعد الآن لبحث الأزمة التى أدت إلى سقوط الليبرالية ومجئ الأوتوقراطية . فعند موت الملك فيصل فى سبتمبر ١٩٣٣ ، خلفه «الأمير غازى» وهو شاب صغير عديم الخبرة ، مما أدى إلى خلق فراغ سياسى ؛ وحدثت بعد ذلك بوقت قصير «الأزمة الأشورية» . وقبل التعليق على هذه الأزمة ، علينا أن نلاحظ أن ثمة تغيرا آخر حدث . ذلك أن طبقة متوسطة دنيا بدأت تتبلور فى العراق . أعنى بذلك صغار ضباط الجيش ، وصغار التجار ، والصحفيين . فللمرة الأولى فى التاريخ الحديث ، يتسع حجم هذه

الطبقة بحجة جعلت النظام السياسى يستجيب لها . وللمرة الأولى بالتالى تصبح القومية العربية أيديولوجية يجب وضعها فى الاعتبار .

وفيما يختص بالأزمة الأشورية ، أدركت الجماعة الأشورية ، فى بواكير الثمانينيات ، أن خدمتهم بالقوات المسلحة كمجندين لن تستمر إذا أصبح العراق دولة مستقلة . ففى مثل هذا الوضع ستزيد قوة النزعة القومية بدرجة لا تنزع عنهم وضعهم المتميز فحسب ، بل تنفى مبرر وجودهم أصلا . لذلك فليس من المدهش أنه بتعاظم الحركة القومية أكثر فأكثر ، تزايد ضغط الأشوريين على الدولة الاستعمارية لكى تؤمن لهم وظائف دائمة . وفى عام ١٩٣٤ ، وبينما كانت جهودهم تلك ماضية فى طريقها ، حدثت مواجهة بين جماعة من القرويين الأشوريين وبين القوات العراقية ، ووقفت المذبحة ، وخرج الجنرال «بكر صدقى» من هذه العملية التى قد تصل إلى درجة المذبحة المدبرة ؛ بوصفه «منقذا للعراق» . فمن وجهة نظر «الغرفة التجارية» ونخبة ملاك الأراضى ، أفادت هذه المذبحة فى تحويل الاهتمام العام من مسائل العمل التى سبق ذكرها إلى المسألة القومية . وفى عام ١٩٣٦ ، وبينما أزمة الليبرالية آخذة فى الازدياد ، أصبحت مكانة «صدقى» القيادية حصينة [٢٢] . وبدأت الجماعة الأشورية فى التحلل .

وباستيلاء صدقى على السلطة فى أكتوبر ١٩٣٦ ، احتلت مكان الصدارة جماعة تجمع بين أفرادها رابطة العداء لليبرالية أكثر مما تجمع بينهم توجهات مشتركة . وما بدأ كحركة سياسية قومية عامة انتهى بوقوع الخلاف حينما طرحت التفاصيل للمناقشة . واستمر التحالف لمدة عام . وكان أهم أحداث العام هو إصدار قانون يدعم حقوق العاملين . فتحت تأثير «جماعة الأهالى» ، أصدر صدقى تشريع النقابات العمالية . وتحت تأثير روابطه بالجماعة الكردية ، استخدم صدقى صلاحياته الإدارية لوقف اتجاه الدولة لتعريب الثقافة الكردية كما استخدم نفوذه الشخصى ليقنع القائد الكردى الرئيسى ، «الملا مصطفى برزانى» ، بالبقاء فى السلمانية فى عام ١٩٣٦ ، وأن يمتنع عن شن حملة جديدة [٢٣] .

وقد نمت الدولة العراقية الحديثة عبر حليتها الليبرالية والأوتوقراطية تحت الحماية الاستعمارية . ووقعت على عاتق صدقى المهمة الطارئة الخاصة بصياغة أسلوب سياسى أكثر ملاءمة للعراق الذى أصبح «مستقلا» . وقد كان كل من «صدقى» و«حكمت سليمان» وزير داخليته مبهورين بالنظم السلطوية فى إيران وتركيا ، الجارتين المنتميتين للطريق الروسى ، وأرادا أن ينسجا نظام حكم العراق على منوالهما . وما راق لهما

فى إيران وتركيا الحديثة ، هو أن ضباطا فقراء من أصول إقليمية هبوا للاستيلاء على ثروات العائلات الليبرالية الثرية المقيمة فى العاصمة ، وأنهم فعلوا ذلك باسم الأمة . وبدت شخصيات «أتاتورك» و «بهلوى» ، فى نظر صدقى وسليمان ، رموزا «للخلاص القومى» . ورغم أن هذه النقطة لم تدرس بدرجة كافية ، إلا أن تأثير مثل ذلك النموذج على العراق يمكن أن يقدم تفسيرا مقنعا لبعض الملامح الغامضة والهامة لتلك الفترة ، من أبرزها الهجوم الذى تعرض له كثير من الليبراليين الأثرياء المعروفين فى بغداد ، بواسطة عصابات غير محددة الهوية [٢٤] .

وبنهاية ١٩٣٦ ، أصبح صدقى فى وضع ضعيف ، فالائتلاف الذى كونه أصبح مفككا . وكان عليه أن يؤسس حكمه على ما يتمتع به شخصيا من شعبية . فقد كانت مبادراته تلقى عدم قبول حتى من جانب مؤيديه . فعندما حاول مثلا ، توسيع نطاق الاستفادة من رعاية الدولة ، واجه معارضة حتى من داخل الائتلاف الخاص به . وعندما أشار إشارة بسيطة إلى الإصلاح الزراعى أثارت إشارته معارضة الشيوخ ، الذين تخلى البعض منهم عن دعمه . وفى أوائل ١٩٣٧ ، نشبت الاضرابات فى كركوك والبصرة وبغداد مما هدد الصناعات الكبيرة ، واستخدم صدقى الجيش لقمعها . وقد أثار استخدامه للجيش فى قمع العمال غضب حلفائه من «جماعة الأهالى» التى أعلنت انسحابها من الائتلاف . ونحيت جانبا مشروعات الإصلاح الاجتماعى بكاملها ، مما جعل نظام «صدقى السلطوى» يفقد شعبيته بصورة متزايدة .

وفى عام ١٩٣٧ ، قام أحد الجنود المتعاطفين مع القومية العربية باغتيال «بكر صدقى» ، وجاء إلى السلطة نظام ليبرالى برئاسة «جميل المدفعى» .

ولمدة عشرين عاما تلت ، أى حتى ثورة ١٩٥٨ ، توالت على العراق أنظمة ليبرالية ، مع انقطاع قصير عام ١٩٤١ ، سعت جاهدة للجمع بين تنمية تقوم على سوق مفتوحة ، وبين كبح التغيرات الاجتماعية التى يمكن أن تمنح القوة للقوميين أو لليسار ففى عام ١٩٣٧ مثلا ، أحكم المدفعى سن القوانين المعادية «للشيوعية» ، والفوضوية ، والعدمية ، والحركات المماثلة . وفضلا عن ذلك ، رحب بعودة رجال الدولة الليبراليين الذين نفاهم «صدقى» . وشكلت الانتفاضة الفلسطينية من ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، تحدياً للسياسيين الليبراليين . وانتهزت الزعامة الشيعية الفرصة ، فأصدرت فتوى تدعو للجهاد المقدس فى فلسطين . واستنكر المدفعى والقادة العلمانيون الآخرون تدخل رجال الدين فى السياسة

وزاد من إجراءات حماية اليهود فى بغداد وتحسب السياسيون لاحتمال أن يقوم المناضلون العراقيون العائدون من فلسطين بالهجوم على حكومة بغداد .

وفى عام ١٩٣٨ ، وقع انقلاب عسكرى آخر ، جاء إلى السلطة بسياسى آخر هو «نورى السعيد» ، لكن دون تغيير فى السياسة الليبرالية . وليحقق ذلك ، جرم وجود «الحزب الشيوعى» . وتحددت سياسته ، هو وحلفاؤه من بعده ، فى دفع الوصى على العرش «عبد الإله» ، لتكوين حكومة بمقدورها صرف انتباه الجيش عن المسألة الفلسطينية والمحافظة على الالتزام بالمعاهدة التى أبرمت مع بريطانيا . ورغم ذلك ، ففى أواخر الثلاثينيات ، تبنى الجيش ، والرأى العام الواسع المدى ، والسياسيون القوميون من أمثال : ناجى شوكت ورشيد عالى الكيلانى ؛ اتجاها مناصرا بصورة متزايدة للقومية العربية ، ولدول المحور ، وللقضية الفلسطينية [٢٥] .

وقد مثل انقلاب رشيد الكيلانى عام ١٩٤١ – وهو تدخل آخر من العسكريين فى الحكم – عودة قصيرة المدى إلى الأوتوقراطية . وعين الكيلانى وصيا جديدا على العرش ، وتحول إلى دعم «المحور» . وكان هدفه هو جعل العراق مستقلا استقلالا حقيقيا . وفى سبيل ذلك ، حدّ من تحركات القوات البريطانية فى العراق ، وهو موقف أثار المخاوف إلى حد دفع بعض الأجانب من الأمريكيين والإنجليز ، وبعض التجار من اليهود المحليين ، إلى الانتقال إلى مقر السفارات . وحينما بدأت الحرب بين الإنجليز والعراقيين ، تلقى الكيلانى دعما من بعض الزعامات الدينية . فالحاج أمين الحسينى من فلسطين ، ومختلف «العلماء» العراقيين أعلنوا الجهاد ضد بريطانيا ، معبرين بذلك عن موقف تقليدى يتسم به الطريق الروسى ، هو بروز دور رجال الدين فى المراحل الأوتوقراطية . وتحسنت العلاقات بين بغداد وكردستان ، وهذه أيضا إحدى سمات النموذج . بل وناشد الكيلانى البرزانى ، الزعيم الكردى ، أن ينضم إلى جانب الحكومة العراقية ، لكن بحلول شهر مايو ، بات من الواضح أن الشيوخ لا يؤيدون الحكومة ؛ وأن حركة «الشباب» التى أسسها الكيلانى لم تكن مجدية عسكريا ؛ وأن الرأى العام قد تحول ضد الكيلانى وضد الجيش ، نتيجة لتزايد مصاعب الحياة اليومية .

وعلى غير المتوقع لم يعمر نظام الكيلانى – أيا كانت أهميته بالنسبة للسياسة العراقية فى المستقبل – سوى فترة قصيرة من أبريل إلى يونيو ١٩٤١ . ولحظة سقوطه وقبل أن تكتمل إجراءات تولى حكومة «جميل المدفعى الجديدة» السلطة ؛ وقع حادث

آخر على نفس الدرجة من الأهمية بالنسبة لمستقبل العراق ، وهو ما يسمى بـ «الفرهود» ، وهو مذبحة مدبرة ضد اليهود وضد ممتلكات اليهود فى بغداد . وكان من الواضح أن «حركة الشباب» وضباط الجيش وراء تلك المذبحة ولكن الإنجليز العائدين للحكم أرضاهم ما حدث ، وغضوا الطرف عنه .

وشهد العراق ، فى الفترة من ١٩٤١ - ١٩٤٨ ، فترة من الليبرالية الموجهة فى خدمة الحرب البريطانية مثلما حدث فى الحرب العالمية الأولى . وبعد الحرب ، أى من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٨ ، عادت الليبرالية بصورتها التقليدية التى تحركها متطلبات السوق .

وخلال الفترة من ٤١ - ١٩٤٨ ، تبنى الحكام مرة أخرى سياسة للهيمنة تقوم على فرز البوليس للأشخاص «غير المرغوب فيهم» واعتقالهم . فقد اعتقد السياسيون أن وجود «خطر أحمر» سوف يجعل الرأى العام أكثر تقبلا للتحالف العراقى - البريطانى . وتحت مزاعم تخليص العراق من الأشخاص الخطرين ، برر البريطانيون لأنفسهم طرد المدرسين الفلسطينيين والسوريين ، وإغلاق مقر البعثة الدبلوماسية الإيطالية .

وفى عام ١٩٤٢ ، وسعت الحكومة من مدى حركة التطهير لتشمل وزارة التعليم . إذ رأت الحكومة أن موظفى الوزارة يتحملون بعض المسئولية عن تعاطف شباب المدن مع «المحور» وتجنيدهم الاستقلال السياسى الفورى . وفى نفس العام ، أصدر البريطانيون حكما بالإعدام على ثلاثة سياسيين عراقيين كانوا نشيطين فى فترة حكم الكيلانى ، ونفذت الأحكام . وفى مثل هذا المناخ ، شعرت الحكومة العراقية بدرجة من الأمان تكفى لإعلانها الحرب على دولة «المحور» ، مما جعلها تتلقى دعما اقتصاديا وماديا خلال فترة الحرب وفقا للاتفاقية الأمريكية الخاصة بذلك .

وعقب انتهاء الحرب عام ١٩٤٥ ، بدأت الحكومة تتخلى تدريجيا عن الليبرالية الموجهة لتعود إلى الليبرالية المفتوحة . وتبنت الحكومة ، فى نفس العام ، سياسة اللامركزية الإدارية ، فأنشأت «مجالس المحافظات» لتكافئ الشيوخ ، الذين وقفوا إلى جانبها أثناء الحرب ، بأن تمنحهم نفوذا أكبر . وأمسك الشيوخ ، خاصة فى وسط الفرات ، بهذه السلطة السياسية الجديدة ، ودفعوا بها إلى الأمام مع نمو الرأسمالية فى الزراعة . ومرة أخرى ، بدأت موجة واسعة من هجرة الفلاحين لأراضيهم بحثا عن عمل فى المدن وفى الشمال ، كانت انتفاضة كردية أخرى بسبيلها إلى الحدوث .

وفى عام ١٩٤٥ ، أخذ الصراع الطبقى يظهر على المكشوف من خلال الإضرابات [٢٦] . وفى مناطق البترول ، أطلقت القوات العراقية النار على العمال العراقيين لحماية منشآت البترول المملوكة للإنجليز ، ورد العمال بالمثل . وطالبت «حركة حقوق العمال» بأن تكون لها صحيفة خاصة بها ، وبنظام تأمينى ، بلجان تحكيم للأجور . وأعقب إضراب عمال البترول ، إضراب عمال الموانى والسكك الحديدية . واتخذت هذه الإضرابات أيضا منحنى سياسيا . وبرزت الشيوعية ، التى خطرت قانونا فى ١٩٣٨ ، بين عمال السكك الحديدية المضربين وانتشرت خارجهم بسرعة . وفى أوائل الأربعينيات ، بدأ موظفو الحكومة يعانون فى معيشتهم بشدة نتيجة التضخم الذى أتت به الثروات الناتجة عن الحرب . وفى أواسط الأربعينيات ، انخرط كثير منهم فى الصراع الطبقى ضد الحكومة نفسها ، وأصبحوا ذوى ميول شيوعية أو على الأقل تعاطفوا معها .

وفى ١٢ يناير ١٩٤٨ ، وقّع الوفد العراقى «معاهدة بورتسموت» مجددا التحالف العراقى – البريطانى . وأشعل توقيع هذه المعاهدة غير الوطنية ، فى جو التضخم والقلاقل العمالية ، الحركات السياسية المعارضة . ففى أبريل ١٩٤٨ ، وكرد فعل على توقيع هذه المعاهدة ، أضرب عمال محطة ضخ البترول ك ٣ ، ومضوا فى مسيرة عظيمة إلى بغداد ، وسط تأييد الجماهير . وتصدى البوليس لهم على بعد ٧٠ كيلو مترا من بغداد وظلت هذه المسيرة حتى اليوم ماثلة فى التراث السياسى باعتبارها الرمز البارز للنضال العمالى [٢٧] . ولجأت الحكومة للحكم العرفى ، من يونيه ١٩٤٨ حتى أوائل ١٩٤٩ . وظلت مظاهرات الإضراب المعارضة ، والطلبة والعمال ضد تجديد المعاهدة ، مستمرة طوال تلك الفترة ؛ وهى المظاهرات التى عرفت فى مجموعها باسم «الوثبة» . وأصيبت الحكومة بالذعر إزاء هذه الوثبة . وأمرت الجنود باستعادة النظام ، ولكى يفعلوا ذلك أخذوا يطلقون النار دون تمييز على المتظاهرين . وحمل الرأى العام البوليس مسئولية الإصابات التى وقعت . وكان الرأى العام من القوة بحيث أجبر الوصى على العرش ، ورئيس الوزراء صالح جبر ، على إعلان بطلان المعاهدة . واحتفلت فصائل المعارضة بهذا الإعلان باعتباره نصرا عظيما . وفى ٦ يناير ١٩٤٩ ، سقطت الحكومة ، التى انهتها الأحداث التى وقعت بسبب المعاهدة ، أثر نشوب خلاف بينها وبين الجيش حول مسألة التدخل فى فلسطين . وكان العمل الأخير لرئيس الوزراء آنذاك ، «مزاحم الباجهجى» هو حملة «تطهير» أخرى ضد الشيوعيين .

وفى عام ١٩٤٩ ، كانت ليبرالية السوق المفتوحة ما زالت مستمرة ، والمشكلات السياسية الكبرى ، مثل دور العراق فى فلسطين ، انتهت بهزيمة العرب . وانسحب الجيش منهيا بذلك نقطة صراع هامة بين الليبراليين وبين القوميين العرب . وكان من شأن قانون مارس ١٩٥٠ أن خفف من أحد مصادر الخلافات داخل العراق ، بأن نظم عملية ترحيل اليهود من العراق وإحلال الباكستانيين فى المواقع التى كانوا يحتلونها . ومثلما كان الحال فى العصور الليبرالية السابقة ، استمر موضوع لا مركزة السلطة موضع اهتمام ، وزادت الصلاحيات السياسية للأقاليم كما حددها «قانون إدارة الألوية» .

والجديد فى الفترة التالية لعام ١٩٤٩ ، هو وفرة الثروة التى جناها العراق من عائدات البترول . وأنشأت الحكومة «مجلس تنمية» لتحديد المشروعات التى تستحق أن تتولى الدولة إنجازها . وليس من المدهش ، أن يختار مجلس التنمية عددا من المشروعات التى تخدم مصالح كبار ملاك الأرض . منها مشروعات خاصة بإقامة السدود وبحل مختلف مشكلات الرى .

وشجعت السياسة الاقتصادية الليبرالية ، تركيز الملكية الخاصة للأرض ، وهى السياسة التى كثيرا ما كان ينتج عنها ، كما رأينا سلفا ، تزايد أعداد الفلاحين المعدمين ، الأمر الذى يؤدى إلى هجرة الفلاحين الجوعى ، إلى أطراف المدن ، ولم تكن هذه الفترة استثناء من ذلك . ففى السنوات من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٧ ، ارتفع عدد سكان بغداد من ٥٩٣٠٠٠ إلى ٧٩٣٠٠٠ نسمة . وقد أدى وفود هذا العدد الضخم من الفلاحين إلى تشديد إجراءات الأمن البوليسية ، كما أدى إلى تخفيض الأجور بالمدينة . وتوقع اليسار مجئ الثورة ، وحينما جاءت أخيرا فى عام ١٩٥٨ أصبحت أهم الثورات فى تاريخ العراق الحديث . وأعلنت بداية مرحلة أوتوقراطية استمرت حتى ١٩٦٣ ، وتعتبر ثورة ٥٨ من أصعب الأحداث تفسيرا . فبينما تتكون غالبية السكان من الفلاحين ، فإن أكثر أحداث الثورة أهمية وقعت فى شوارع بغداد . وفضلا عن ذلك ، فعلى الرغم من أن الشيوعيين أسهموا بنصيب وافر فى كثير من أحداث تلك الفترة ، لاحظ المراقبون أن معظم العمال والفقراء من سكان المدن الذين شوهدوا فى الشوارع لم تكن لهم صلة بالأحزاب السياسية . وبالإضافة إلى ذلك كان من الواضح أن النضال كان يجرى أحيانا فى الريف . وهذه الحقائق ما زال علينا أن نتفحصها بدقة .

والشخصية التى تولت السلطة فى ٥٨ ، كانت شخصية عسكرية كاريزمية : عبد الكريم قاسم . والتوجه السياسى لقاسم ، على خلاف بكر صدقى قبله ، كان توجها قوميا ، تقدميا ، انتقائيا ، مزقه الصراع الدائر بين حلفائه ، بين الليبراليين القوميين والشيوعيين من ناحية ، وبين القوميين العرب من ناحية أخرى [٣٠] .

وسار قاسم على درب الحكام السابقين داخل الإطار الأوتوقراطى . فوسع من سلطة الدولة من خلال المركزية الإدارية ففى عام ١٩٥٨ ، امتد نفوذ الدولة وعلى نطاق واسع ، إلى مجالات خدمية مثل : الصحة العامة والتعليم الابتدائى . وحاول قاسم ، بنفس طريقة المراحل الأوتوقراطية السابقة ، أن يحل المشكلة الكردية إداريا عن طريق منح الأكراد حكما ذاتيا داخليا [٣١] . وتحت تأثير الضغوط التى مارستها الروابط الفلاحية ، اضطر قاسم أيضا إلى إجراء إصلاح زراعى محدود . فقد أقر بوجود مشكلة زراعية ، لكنه وضع لها حلا لا يصل إلى أن يكون إصلاحًا زراعيا واسع النطاق . لكن بدون إصلاح زراعى واسع النطاق ، يظل ملاك الأرض الكبار محتفظين بأراضيهم وبنفوذهم ؛ ولا نندهش فى هذه الحالة أن نجد أن عددا محدودا من المعدمين امتلكوا أرضا . وفى مجالات مثل البترول والصناعات الحديثة الأخرى لم يتمكن قاسم أيضا من إجراء إصلاحات واسعة المدى .

وفى عام ١٩٥٨ ، قام قاسم بانعطافته الشهيرة إلى اليسار ، فى اتجاه حلفائه من الشيوعيين ومن نشطاء الحركة النسوية . فأصدر قانونا يمنع تعدد الزوجات ، وقانونا آخر يوحد نظم المواريث لدى السنة والشيعة ، وقانونا ثالثا يعطى المرأة حق المساواة فى الميراث [٣٢] . وكان اليد اليمنى لقاسم ، عبد السلام عارف ، قوميا عربيا عارض هذه القوانين وسانده فى موقفه أفراد من الليبراليين ، ومن طبقة ملاك الأرض ، ومن زملائه الضباط الذين كانوا ليبراليين اقتصاديا محافظين اجتماعيا . وشجعته هذه المساندة على تدبير انقلاب عسكرى بمساعدة القائد العسكرى ، أحمد حسن البكر ، لكن قاسم أحبط محاولة الانقلاب . وبعد ذلك ضم قاسم ممثلين للأحزاب فى وزارته ، لكنه جعل من نفسه القائد الأوحد .

وجاء تحد آخر لنظام قاسم من القوميين العرب ، متمثلا فى انتفاضة «الموصل» فى مارس ١٩٥٩ ، بقيادة عقيد بالجيش هو أحمد عبدالوهاب الشواف . لكن قاسم تمكن من البقاء . فقد تحالف كل من الأكراد الموالين لقاسم على أساس عرقى ، والشيوعيين الموالين لقاسم على أساس أيديولوجى ؛ فى إحباط انتفاضة الشواف .

وخلال هذه العملية ، برزت البغضاء الطبقية إلى السطح ، فقد أوقع مؤيدو قاسم ، وكثير منهم من الطبقات الدنيا ، خسائر فادحة في أرواح وممتلكات الطبقات الثرية بالمدينة . وحينما امتدت هذه الأحداث إلى كركوك وبغداد ، أفقدت قاسم دعم الطبقات الوسطى بالمدن . وتساءلوا كيف يقدم قاسم على التحالف مع هؤلاء المتعصبين . وفقدان هذا الدعم كان له تأثير سيئ . فما فقده قاسم لا يستطيع تعويضه من خلال الدعم الذي قدمه «العلماء» . فالعلماء ليسوا حلفاء حقيقيين . فقد كان كثير منهم ، ببساطة ، أشد عداء للقومية العربية منهم لليبرالية قاسم الراديكالية . فالليبرالية الراديكالية أقل عداء للدين من القومية العربية .

وتميزت فترة حكم قاسم بملمح مميز هو محاكمات التطهير أو كما كانت تسمى «محكمة المهداوي» . وعلى النقيض من محاكمات التطهير الستالينية الشهيرة ، كانت محاكمات قاسم تنظم من أعلى ، فلم يحدث بها «تطهير من أسفل» ، ولم تشهد لا عقلانية مماثلة لما شهدته محاكمات ستالين ، ولم يكن هناك «عهد رعب» . وفضلا عن ذلك ، كانت محاكمات التطهير ، بمعنى ما ، جزءا من صعود «الطبقة الجديدة» . تلك الطبقة التي اكتملت معالم صعودها ، على الأقل عام ١٩٦٣ . ورغم ذلك ، فمن زاوية الدراسات الستالينية المقارنة ، يعتبر استخدام قاسم للنظام القانوني مثالا مهما .

و «محكمة المهداوي» ، والتي عرفت أيضا باسم «المحكمة العسكرية العليا الخاصة» أو «محكمة الشعب» ، كانت تهدف إلى محاكمة من تآمروا ضد سلامة البلاد أو من ساهموا في إفسادها . وقد أصبح العقيد «فاضل عباس المهداوي» ، مدعي الحكومة ، مشهورا على نطاق واسع ، من خلال التغطية التليفزيونية للمحاكمات ، بأسلوبه الساخر وشتائمه البذيئة وسلوكه المليئ بالطرائف . وفي ظل تقاليد «الثورة الثقافية» تمت محاكمة القيادات الليبرالية السابقة على ١٩٥٨ ، وضباط الجيش الذين عارضوا القيادة ، وحتى الشباب الذين خططوا لاغتيال قاسم في سبتمبر ١٩٥٩ .

ولم تنته القومية العربية بسقوط عارف أو بمحاكمات المهداوي لكنها استمرت متمركزة حول بطل قديم ، سمح له قاسم بالعودة من المنفى ، هو رشيد عالي الكيلاني . وتحت مظلة الكيلاني ، أصبح القوميون العرب أكثر اعتدالا ، بل وأقاموا علاقات ودية مع الليبراليين ، وكان منزل الكيلاني ملتقى لشخصيات شديدة التنوع مثل : شيوخ قبائل وسط الفرات ، وأحمد حسن البكر ، القائد المستقبلي لحزب البعث . وكان الوقت ملائما لمثل هذه اللقاءات . وفي أوائل الستينيات ، أخذت الأحياء التقليدية للطبقة

الوسطى ببغداد ، الكرخ والأعظمية ، وهى الأحياء المعروفة بميولها الدينية ، فى التحول ضد قاسم مبدية تعاطفا مع القومية العربية . وكان انتقال قاسم لليسار بالإضافة للمصاعب الاقتصادية ، من عوامل ذلك التحول . وحينما شعر القوميون العرب لقوتهم أخذوا يخططون للإطاحة بقاسم . وأصبح قاسم معزولا . إذ لم يعد مقبولا لدى الليبراليين ، ولا تربطه أية روابط عميقة مع المؤسسة الدينية . ومثل بكر صدقى ، كان قاسم ينتسب جزئيا للأكراد بحكم المولد . واستخدم القوميون العرب هذه النقطة ضده . ومثل صدقى ، تم شنق قاسم (أو قتله) بواسطة أحد القوميين العرب .

وفى عام ١٩٦٣ ، غداة موت قاسم ، جاءت ثورة البعث الأولى ، المسماه «ثورة رمضان» ، وهى الحدث الذى أزعم ، أنه يفوق فى أهميته بالنسبة للعراق الحديث أهمية ثورة ١٩٥٨ . وفى هذا العام ، آذن مجئ عبد السلام عارف ، وهو قومى عربى ، يجئ النظام الإدماجى (corporatism) . وانتهت الدورة الطويلة للعصر الليبرالى ؛ فقد جاءت «الطبقة الجديدة» وجلبت ومعها الأيديولوجية الجديدة لحزب البعث ، واتسع النظام السياسى ، وإن ظل فى الوقت نفسه محافظا على سياسة السوق المفتوح فى مجال الاقتصاد . ونجم عن صعود «الطبقة الجديدة» فى ظل تلك الظروف عديد من التناقضات . فالعصر الليبرالى ، على سبيل المثال ، يرضى طموحات نساء الطبقة البرجوازية . لكن الحال هنا لم يكن على هذا النحو . فقد أيدت النساء «قاسم» . وعلى ذلك ، بدأ عارف بإعادة نظام تعدد الزوجات ، كما أعاد نظام الوراثة الذى يمنح المرأة الشيعية ميزات أكثر كثيرا مما يمنح المرأة السنية . وكانت هذه محاولة بجذب نساء الريف والإقطاع بعيدا عن تراث قاسم ، فهؤلاء النسوة أقل استفادة بالفرص التعليمية والمهنية التى أتاحها لهن قاسم ، من نساء العائلات السنية . والأوتوقراطى عامة فى كل من روسيا والعراق ينحاز للنساء الفقيرات أكثر من نساء الطبقة الوسطى . وانضمام نساء الطبقة الوسطى إلى حلف قاسم يعتبر شيئا جديدا فى الأعراف السياسية وقانون «عارف» للأحوال الشخصية يعتبر نوعا من تصفية الحساب .

والتحول إلى الليبرالية فى إطار النظام الإدماجى ، يجعل الصراع الطبقى بارزا ، وقد حاول نظام «عارف» توجيه الانتباه الشعبى بعيدا عن المسائل الطبقية بأن سن حملة تطهير للشيوعين . وكانت محاولته مرتبكة . فـ «الحرس الوطنى» ، وهو ميليشيا مدنية تابعة لحزب البعث ، شن هجوما على مدنيين ، كثير منهم لم يمارس نشاطا سياسيا من قبل ، جعلهم سوء الحظ يسمون شيوعيين . وفى سياق الدولة الإدماجية ، حققت الحملة عكس المستهدف منها ، وفقدت سمعة النظام بريقها .

وكمـا هو مـتوقع من النظم الليبرالية ، حاول «عـارف» القيـام بكل الإصـلاحات المعتـادة ، فـأجرى تعديلات على قـوانين الإصـلاح الزراعى التى أصـدرها «قـاسم» ، وجعلها فى صالح الطبقة المالكة ، وأعاد صياغة المسألة الكردية بحيث تصبح مسألة حقوق الأكراد مسألة حقوق أفراد لا جماعة . وسمح للحرب بين الأكراد وبين العراقيين أن تشتعل ، مستظلا بـ «الطبقة الجديدة» ذات الميول القومية العربية . وفى عام ١٩٦٣ ، قاد «عارف» المؤتمر السادس لحزب البعث الذى تبنى مفهوم القيادة الجماعية على النمط السوفيتى . وفى عام ١٩٦٦ ، حاول عبدالرحمن عارف ، خليفة عبد السلام عارف ، والذى أصبح رئيسا فى تلك السنة بعد موت الأخير ؛ أن ينهى الحرب الكردية وأن يمنح الأكراد قومية خاصة بهم فى ظل دولة عراقية متحدة . ومن وجهة نظر الدراسات المقارنة ، يعتبر هذا الحل ستالينيا من حيث الأساس . وفى ظل ظروف العراق ، يعتبر الحل ذى النمط القومى ، خاصة فى المراحل الليبرالية ، حلا غير واقعى . فقد أضر بنظام «عارف» فجميع الحلول الليبرالية فى الماضى ارتكزت على الفكرة العربية ، فإذا قام السياسيون الليبراليون بتشجيع القومية الكردية أدى ذلك إلى نتائج معاكسة . فالحل القومى الحقيقى منظورا إليه فى ضوء خبرة الاتحاد السوفيتى يعتمد على مستوى عال من التصنيع . وهذا الشرط لم يكن متوفرا للعراق ، لأن العراق لم يكن بمقدوره أن ينقل التصنيع الأولى ببساطة إلى كردستان [٣٣] . فالطبقة الإقليمية الحاكمة فى كردستان ، سيصبح بإمكانها ببساطة استخدام القوة الاقتصادية الممنوحة لها فى الانفصال عن العراق . وأصبح «عبد الرحمن عارف» بتبنيه سياسة معارضة لليسار ، ولليبراليين ، وللقوميين العرب ، أكثر انعزالا . وكان عليه ، مثل سابقيه ، أن يعتمد على مهارته السياسية الشخصية أكثر من اعتماده على قوة النظام . ولأن نظامه لم يكن متماسكا منذ البداية ، سقط فجأة عام ١٩٦٨ [٣٤] .

وكان صعود صدام حسين سويًا مع حسن البكر فى ١٩٦٨ ، أثناء ما سمى «ثورة البعث الثانية» مؤشرا لتحول البندول إلى مرحلة أوتوقراطية جديدة امتدت سبع سنوات . ولم تكن مجرد عودة للأوتوقراطية ولا لأوتوقراطية معدلة بفعل وجود «طبقة جديدة» ، وإنما اتسمت بمحاولة التمرد وبقطع الروابط مرة واحدة وإلى الأبد ، مع تحالفات النظام الإدماجى . كانت فترة حملات تطهير ، وفترة أزمة فى الثقافة العلمانية ، وفترة انبعاث تحدى الزعامة الدينية للسيطرة على الدولة . وبمرور بضع سنين ، أصبحت فترة بعث للاقتصاد الليبرالى الجديد .

وفيما بين عامى ١٩٦٨ و١٩٧١ ، شنت القيادة البعثية حملة تطهيرات شبيهة بحملة ستالين بعد ١٩٢٨ ، وشهدت هذه الفترة العصر الذهبى لرئيس أجهزة الأمن ، «ناظم كيزار» ، الذى كان موضع ثقة صدام ، والشخصية التى يمكن تسميتها : «بوكر» العراق (٣٥) . وأصبحت الأحداث اليومية بالنسبة للطبقة الوسطى فى العراق ، بمثابة كابوس مثلما كانت لدى الطبقة الوسطى السوفيتية فى فترة التطهيرات .

وفى عام ١٩٦٨ أيضا ، أعلن أن الإسلام دين الدولة . وعين سكرتيرا لهيئة الإرشاد الدينى فى النجف لإدارة شئون الزعامة الدينية التقليدية ، ربما متجاوزا بذلك حدود سلطته الفعلية .

وفى مواجهة هذه المبادرات ، أخذت الشيعة تشحذ قواها . وأخذة فى الاعتبار أن العراق أصبح حضريا بدرجة أكبر ، وأن كثيرا من الفلاحين أرغموا على ترك أرضهم للعيش فى الأطراف الفقيرة فى المدن ؛ شنت الزعامة الشيعية حملة تبشيرية شبه سرية وذات توجه حضرى هى ما تسمى «الدعوة الإسلامية» . وكانت نتائجها باهرة ، حتى لو سلمنا مع المنتقدين أنها أخذت على عاتقها القيام بأكثر مما يجب فى وقت أقل مما يجب . فبينما استطاعت المعارضة الشيعية للشاه فى إيران ، والسيطرة على التيار الثقافى الرئيسى ، كان ذلك متعذرا أو على الأقل أكثر صعوبة فى العراق . فحزب البعث فى العراق لم يتخل عن التمسك بالإسلام كما فعل شاه إيران . لذلك أصبحت سيطرة الشيعة على التيار الثقافى الرئيسى موضع منافسة مع البعث العراقى .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد أقدم أحد أجنحة التيار الدينى العراقى ، من بينهم العالم الدينى الشهير محمد باقر الصدر ؛ على إعلان تأييد دعوة الخمينى بولاية الفقيه . فلم تعد ثمة ضرورة للصمت والسرية . ففى زمن يصل فيه القهر إلى هذه الدرجة ، يصبح منطق الثورة الإسلامية واضحا . على أنه ، أيا كانت تقدمية نظرية «الصدر» هذه ، وهى كذلك بالفعل ؛ فإن القاعدة التنظيمية للثورة من أى نوع فى العراق ، لم تكن مهيأة بعد . فلم تكن ثمة أواصر تقارب بين الشيعة وبين نسبة من المنتمين للطبقة الوسطى ، ولا بينهم وبين الطبقة العاملة ، ولم تكن للزعامة الدينية جماهير واسعة . واحتمال التحالف مع اليسار لم يكن مطروحا . لذلك لم يكن ثمة ما يمنع حزب البعث من اعتقال وإعدام «الصدر» ، هو وشقيقته المعروفة «بنت الهدى» وعدد من الزعامات الدينية الأخرى ، بتهمة الخيانة العظمى . وقد وقعت هذه المأساة ، التى تعد فرصة مهدرة للهيمنة المضادة ، عام ١٩٨٠ (٣٦) .

وبعد عام ١٩٦٨ ، تغيرت سياسة حزب البعث تجاه الشيوعيين ، وتجه الطبقة العاملة ، بما يتفق مع منطق الأوتوقراطية . فبينما كان حزب البعث ، فيما بين ١٩٦٣ و١٩٦٨ ، معاديا من الناحية الفعلية للحزب الشيوعي وللطبقة العاملة ؛ شرع البعث بدءاً من ١٩٦٨ وحتى ١٩٧٥ على الأقل ، في ضمهم إلى الدولة وتزكية سياساتهم . فخلال السنوات من ٦٩ إلى ٧١ ، ومع نمو الصناعة الثقيلة ، أصدر «حزب البعث» عددا من القوانين تتعلق بحماية حقوق عمال الصناعة ورعايتهم صحيا . وخلال هذه الفترة أيضا تكونت اتحادات عمالية ، وسمح أخيرا للحزب الشيوعي بوجود رمزي [٣٧] .

وبعد عام ١٩٦٨ أيضا ، تطلب منطق الأوتوقراطية مركزة التوجيه السياسي في الريف كما تطلب إقامة جماعيات زراعية . وفي ١٩٦٩ ، ألغي «قانون المحافظات» الصادر في تلك السنة ، لا مركزية الحكم في القرى والمدن . وأعيدت جميع السلطات للحاكم الإقليمي (المحافظ) . وفي عام ١٩٧٠ ، اقترح حزب البعث برنامجا للتعاونيات الزراعية ، مستعارا في جانبه السياسي من قانون الأراضي الذي أصدره قاسم ، لكنه أضاف إليه موادا تتيح له سلطة سياسية في الريف أعلى بكثير . وقد توقع الحزب (وهو توقع خاطئ) ، مثلما فعل ستالين ذات مرة ؛ أن التعاونيات الزراعية ستؤدي إلى ارتفاع الإنتاجية الزراعية أكثر من الإصلاح الزراعي . لكن الإنتاجية لم ترتفع حينما حاولت الحكومة التحكم في الفلاح . فعلى الرغم من أن الحقوق القانونية للفلاح في ظل قوانين الزراعة التعاونية كانت أكثر من كل ما سبق ، كما يزعم حزب البعث ؛ أعلن الفلاحون أن حريتهم الحقيقية في الاختيار قد ضاق نطاقها . فليس من المدهش إذن ألا تزيد مستويات الإنتاج بل وأن تنخفض .

هل كان المسئولون الرسميون لحزب البعث مقتنعين بالمزارع الجماعية مثلما كان نظراؤهم السوفييت ؟ لا يبدو أن الأمر كان كذلك . ففي عام ١٩٧٢ ، كان ٣٪ من الملاك يملكون ٣٠٪ من الأرض ، ولم يحدث أي تحرك من جانب الحكومة لتغيير الموقف . وإذا كان ثمة تحرك ، فهو في اتجاه الليبرالية بعد ١٩٧٥ ، ظهرت مؤشرات تدل على أن العراق قد شرع في الاتجاه للعودة للملكية الخاصة للمزارع . والواقع أنه في عام ١٩٨٠ ، أخذت المزرعة العائلية تحل من حيث الأساس محل المزرعة الجماعية . وأنه خلال تلك الفترة ، توافرت أدلة كثيرة على أن مقاومة الفلاحين للجماعيات قد شلت يد

الدولة ، وهو أمر يمكن استنتاجه بسهولة من التنديدات الحادة التى وجهها المسئولو ن للفلاحين من ناحية ، ومن مشاعر الكراهية التى أبداها الفلاحون تجاه الموظفين المسئولين عن خدمات التنمية الزراعية [٣٨] .

وبعد عام ١٩٧٥ ، تشجع القطاع الخاص بوجود الثروة البترولية فنمى نشاطه خاصة فى مجالات التشييد والمقاولات . ونمو القطاع الخاص ساعد فى إعادة بعث الحياة فى المناطق وفى الجماعات التى كانت قد قمعت منذ ١٩٦٨ . على أن الدولة لم تترك الحبل على الغارب ، فالليبرالية هنا كانت مرة أخرى ليبرالية موجهة . وخلال هذه الفترة ، استمرت الدولة فى الاستثمار فى الصناعة الثقيلة .

وقد كان من أثر الثروة البترولية وتعاظم قوة الدولة بعد ١٩٧٥ أن أخذ الوضع السياسى للطبقة العاملة المنظمة وللطبقات الوسطى الدنيا فى الانقراض . وتدريجيا سمحوا لأنفسهم بأن «يباعوا» اقتصاديا مقابل صمتهم سياسيا . وسمح هذا الوضع ، مثلما حدث فى الاتحاد السوفيتى وفى بلدان أخرى ، بإطلاق يد الطبقة الحاكمة فى تجريب سياسات ليبرالية جديدة بل وسياسات هادفة إلى التحول إلى قوة عظمى .

وفى عام ١٩٨٠ ، هاجم العراق وإيران ، وكان من المقرر أن تكون حربا طويلة . والتحليل المستمد من نموذج الطريق الروسى بإمكانه إلقاء الضوء على ما حدث . ففى المراحل الأولى ، كانت المبادأة بيد العراق ، لكن ضاعت منه فرصة عسكرية كبيرة . فما حدث هو أن صدام حسين تردد فى الهجوم على إيران ثم فقد المبادأة . وليس فى ذلك ما يدهش . فمنذ حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، كانت استراتيجية العراق هى تقليل الخسائر فى جنود المشاه إلى الحد الأدنى ، مما دعاه إلى تفضيل الدفاع على الهجوم [٣٩] . فالهجوم أعلى تكلفة . والمنطق القائم وراء ذلك يبدو غير قابل للرفض . فجنود المشاه ينحدرون من الطبقات الدنيا ومن الريف ، وفى ظل أوضاع الطريق الروسى ، فإن ولاء هؤلاء للحكومة لا يمكن التنبؤ به . ولذلك ، فحتى عندما كان العراق صاحب اليد العليا ، فإن نموذج «معركة ستالينجراد» كان هو السائد لدى خبراء الاستراتيجية . وعلى النقيض من ذلك ، فبعد عام ١٩٧٩ فى إيران ، كان التحالف بين «الملالى» وبين سكان الأحياء الفقيرة ، أيًا كانت درجة شذوذ هذا التوجه «الشعبوى» فى ظل الطريق الروسى ؛ هو الذى سمح لنظام الخومينى أن يغامر بعمليات هجومية عديدة .

ويبدو أن الحرب أصبحت للدولة العراقية جزءاً من استمرار الحياة . فثروة النفط ، يستثمر جزء منها ، لكن معظمها ينفق على السلاح من أجل الحرب . فحالة الحرب تستنزف كثيرا من أفراد الطبقة الدنيا ، وتسمح بدرجة معينة من السيطرة الاجتماعية يحتاجها النظام إذا كان عليه أن يستمر فى الليبرالية ، وأن يتجنب اشتداد الصراع الطبقى . وعندما انتهت الحرب عام ١٩٩٠ ، أصبح «البحث» فى حاجة إلى حرب أخرى فأقدم على غزو الكويت . وكانت لدى الحكومة الأمريكية حاجة أيضا إلى الدخول فى حرب ما بسبب متاعب اقتصادية من نوع مماثل أثرت على أوضاعها السياسية . الأمر الذى أدى إلى حرب الخليج . وهزمت العراق وفقدت كثيرا من أفراد الطبقة الوسطى الدنيا من ساكنى الأحياء الفقيرة بفعل القصف الجوى . وفى أعقاب الحرب ، أصبحت الليبرالية فيما يبدو وفى وضع أمن .

وخلاصة الأمر ، أن صعود الهيمنة فى نموذج الطريق الروسى ، فى العراق ، لم تكن لها نفس نتائج تماثل نتائج صعودها فى الاتحاد السوفيتى . فاحتواء الدولة للطبقة العاملة العراقية بدأ منذ وقت حديث جدا ولم يتم إطلاقا بصورة كاملة ، هذا أولاً . وثانيًا ، لم تكن الطبقات الوسطى منقسمة فيما بينها تجاه المسائل القومية مثلما كان الوضع فى الاتحاد السوفيتى . فالطبقات الوسطى العراقية كانت تؤيد اتجاهات تآلفية واسعة المدى مثل : الليبرالية والشيوعية والإسلام .

وهنا تكمن خصوصية كل بلد . فالدولة السوفيتية لم تواجه فى نموها تحديات أساسية لسنوات عديدة ، لذلك سمحت بازدهار بنية مؤسسية عميقة جعلتها تجد نفسها فى نهاية الأمر فى مواجهة «طبقة جديدة» كبيرة أكثر مما يجب . بينما نمت الدولة فى العراق بوصفها «دولة أزمة» ، تشكل فيها الطبقات الوسطى والطبقة العاملة تحديا محتملا للفئة الحاكمة . لذلك أعاقت الدولة نمو مؤسسات الطبقات الوسطى مفترضة أن ذلك سوف يخدم مصالح معارضيها . والقسم التالى سيناقش هذه النقطة .

تنظيم الثقافة فى العراق

تحددت الملامح العامة لتنظيم الثقافة وفقا للطريق الروسى فى العراق فى منعطف القرن . وبعض هذه الملامح كان قديما ، بينما البعض الآخر كان أكثر جدة . وقد سعت الفئة الحاكمة ، حفاظا على استمرار الازدواجية الثقافية ، إلى ترويج ثقافة النثر الفصيح التى تمتد جذورها إلى اللغة التركية العثمانية واللغة العربية الفصحى واستهدفت وضعها فى تعارض مع الثقافة الريفية التى تتمحور أكثر حول الشعر

خاصة الشعر الشعبى وحول الموسيقى الشعبية . وكما سيوضح القسم التالى ، فبينما يقوم علم التاريخ بتسجيل أعمال طائفة الحكام المدينية ، يقوم الفولكلور ومتاحف التراث الشعبى بتسجيل ما عدا ذلك .

وقبل متابعة تفاصيل المجالات الثقافية الخاصة ، ربما كان من المفيد إبداء بعض الملاحظات حول ملامح تنظيم الثقافة الخاصة بالعراق أو «بدولة الأزمة» داخل الطريق الروسى ، وربما كانت أهم الملامح فى هذا الصدد هو الشعور بالتوجس لدى الحكومة تجاه تطور المنظمات الثقافية للطبقة الوسطى ، وثمة مثالان على ذلك ، هما : موقف الحكومة تجاه التنظيم المهنى للتعليم ، وتجاه أنشطة الصالونات الثقافية .

والسياسة التعليمية فى كافة الهيمنات هى ساحة للخلاف فى الرأى . ومن بين ما يدور حوله الخلاف ، فى دول الطريق الروسى ، مسألة هل يجب أن يكون هناك تعليم جامعى أم لا ؟ وإذا كان فكيف يدار ؟ أى كيف يوجد تعليم جامعى دون المساس بالازدواجية الاجتماعية بين المدنية والريف ؟ هذا أولا . وثانيا ، هل يمكن أن تسمح الدولة بوجود هيئة خاصة من أعضاء التدريس الجامعى ؟ ولنناقش هذه النقطة المتعلقة بمخاوف الدولة من وجود منظمات مهنية تعليمية .

فبينما النظرة العامة ، فى هذا القرن ، هى أن أى تخصص فى مجال التعليم أو المعرفة عامة يستفيد من التنظيم المهنى فى تحقيق تقدمه ؛ ينظر السياسيون العراقيون بين الحذر إلى نشاط مثل هذه التنظيمات بل حتى إلى وجودها . فالمنظمة المهنية يمكن أن تصبح ، رغم كل شئ ، مركزا للقوة يهدد الدولة . وهذا الموقف يتزايد بصورة طبيعية فى حالة «دولة الأزمة» .

ومنذ عام ١٩٢٣ فصاعدا ، أخذت الدولة العراقية تشجع التعليم المتخصص ، لكنها فى الوقت نفسه ، وقفت فى وجه تكوين التنظيمات المهنية التى تصاحب ذلك . ولنأخذ مثلا تدريس القانون ، الذى هو أحد أهم المجالات فى التعليم العالى فى العراق ؛ فبينما كان لدى العراق أول مدرسة للحقوق فى «الهلال الخصيب» ، لم يكن لديها نقابة للمحامين حتى عام ١٩٣٣ ، بعد أن تكونت مثل هذه النقابات فى كثير من البلدان بوقت طويل . كذلك لم تصدر بها مجلة للقانون حتى عام ١٩٤٢ ، ولم يكن لديها نظام معاشات للمحامين حتى عام ١٩٦٠ وحتى بعد إنشاء «نقابة المحامين» لم يكن للمحامين حرية إدارتها . ونفس الشئ حدث فى «نقابة الأطباء» التى أنشئت عام ١٩٥٢ . وكذلك فى المجالات المهنية الأخرى التى لم تنشأ تنظيماتها إلا بعد ثورة ١٩٥٨ (٤٠) .

وحينما تكون المنظمات المهنية قوية ، يصبح بمقدورها تنظيم الالتحاق بالمهنة . لكن ذلك لم يكن حال العراق . فالذين ينظمون الالتحاق بالمهنة فيه هم السياسيون . فمثلا ، كانت شروط الالتحاق بمدرسة الحقوق فى المرحلة الليبرالية مختلفة عنها فى المرحلة الأوتوقراطية . ففى المراحل الليبرالية ، على الأقل قبل صعود الطبقة الجديدة فى ١٩٦٣ ، كانت السياسة هى تقديم الطلبات وقبولها ، بينما فى المراحل الأوتوقراطية أصبحت هناك معايير للاختيار أضيق نطاقا . ففى المراحل الليبرالية ، كانت الحكومة ترغب فى السماح للطلبة الشيعة بالالتحاق بمدرسة الحقوق رغم تدنى مستواهم التعليمى ، وتجنبا للمشاحنات معهم ، كانت تختزل المناهج وتجعلها أكثر تقنية لإبعادهم عن الاحتكاك بالسياسة وبالفكر النقدى المثير للجدل . أما فى المراحل الأوتوقراطية فقد حل النظام المسألة بطريقة أخرى ؛ إذ وسع المناهج لكنه جعل الالتحاق أكثر انضباطا .

ولما كانت التنظيمات المهنية تواجه بمثل تلك المقاومة كانت إحدى استجابات الدارسين هى الانصراف عنها ببساطة ومواصلة عملهم من خلال الصالونات الأدبية التقليدية والمقاهى . وهى المؤسسات التى لعبت دورا حيويا فى الثقافة العراقية حتى وقت قريب ، والتى حاولت الدولة طويلا البحث عن طرق للسيطرة عليها .

والواقع أن المثقفين العراقيين ، كانوا لقرون عديدة ينتمون للنوادى الأدبية الخاصة : الصالونات أو المجالس . فكان الشعراء يلقون فيها شعرهم ، والباحثون يقرأون فيها أبحاثهم . ويمكن ملاحظة أنه بدءاً من الثلاثينيات أخذت الحكومة العراقية تبذل جهوداً جادة للسيطرة على هذه التنظيمات . وفى ضوء ذلك ، أخذ السياسيون يشجعون ويمتدحون تلك الصالونات التى تتبنى مواقف وطنية . مثل «نادى الكتاب العراقيين» و «نادى القلم العراقى» . ومنذ عام ١٩٤٥ فصاعدا ، أخذت الحكومة تنشئ منظمات ثقافية خاصة بها . مثل «لجنة التأليف والنشر» (١٩٤٥) و «المجمع العلمى العراقى» [٤١] . وفى المدى الطويل أدت مخاوف الحكومة من الصالونات والمقاهى الثقافية إلى تبنى سياسة محاصرتها عن طريق إنشاء المزيد من المؤسسات الثقافية الحكومية بما فيها المنظمات المهنية وحتى الجامعات .

كانت الحكومة تخشى تلك الصالونات من ناحيتين : من ناحية المعارف التى تنتجها والآراء التى يتم التعبير عنها فيها . هذا أولاً ، وثانياً كانت تخشاها من حيث

هى مكان تجتمع فيه بحرية شخصيات ذات نفوذ . ففى عام ١٩٣٤ ، كان «نادى الكتاب العراقيين» ، مثلا ، يضم شعراء معروفين ومؤرخين ومعلمين . وعندما انضمت إليه شخصيتان بارزتان من الشيعة هما : باقر ومحمد رضا شبيبى ، استحوذ النادى على الأضواء فى الحال . فهل كان ثمة برنامج سياسى وراء تلك التجمعات الثقافية ؟

إذا كانت الصالونات الثقافية فى بغداد ، فيما بين الحربين ، هى مركز ثقافة الطبقات الوسطى . فقد كانت المقاهى الثقافية هى مركز ثقافة باقى الفئات الحضرية . ولما كان كثير من المسئولين متقبلين للنزعة القومية فى ذلك الوقت ، أو حتى متعاطفين معها ، فقد أصبح من الممكن حتى لشعراء كبار ، من مرتبة «معروف الرصافى» و «جميل صدقى الزهاوى» أن يلقوا قصائدهم أمام جمهور المقاهى ، كما كانت المقاهى هى التى أتاحت للشعر أن يعبر عن المشاكل الاجتماعية . ولا يثير دهشتنا أنها كانت أيضا المكان الذى يلتقى فيه مثقفو اليسار . فعلى سبيل المثال ، كان الشاعر الشهير محمد مهدى الجواهرى ، يلتقى بمريديه فى تلك المقاهى .

ولنأخذ موضوع الجواهرى مثالا لما يجعل الحكومة مستفزة من الصالونات والمقاهى الثقافية . فبينما كان الجواهرى ينتمى أدبيا إلى التيار التقليدى المحافظ ، كان ينتمى سياسيا إلى التيار الراديكالى . ولم يكن الجواهرى شاعرا عظيما فحسب ، بل كان ملهما أيضا للشعراء من حوله . وبوصفه معلما ، كان ملهما لثلاثة من أشهر شعراء العربية على الإطلاق ، وهم عراقيون ذوو موقف نقدى فى السياسة . أولهم ، هو بدر شاكر السياب ، الذى كان شيوعيا ثم تحول إلى النقد الحداثى فى عراق ما بعد الحرب . وأخذ يلعب دوراً فى العالم العربى مشابها لدور برتولد بريخت فى أوربا . [٤٢] وثانيهم ، هو عبد الوهاب البياتى ، وهو شيوعى أيضا ، تنبأ فى شعره المتفرد بثورة ١٩٥٨ ، وكتب قصيدة ملحمية شهيرة عن الشعب الروسى فى معركة ستالينجراد . وثالثهم ، هى الشاعرة نازك الملائكة ، التى عرفت بارتباطها بثورة الشعر الحر فى عراق ما بعد الحرب ، وبإسهاماتها التالية فى حركة الحداثة [٤٣] . ثم ظهر لاحقا ، من خلال المقاهى الثقافية ، الشاعر الشعبى ، مظفر النواب . وعندما أخذ الطابع السياسى للمقاهى الثقافية يتزايد أخذت الأنظمة العراقية فى فترة ما بعد الحرب ، تبحث عن استراتيجيات جديدة للسيطرة على الثقافة تتزايد ، وافتتحت جامعة بغداد فى ١٩٥٧ ، وتلا ذلك تطور الإذاعة والتليفزيون .

واهتمام الجهات الرسمية بالسيطرة على المجال الثقافى يصل إلى نقاط الذروة فى الفترات الأوتوقراطية ، وكان عام ١٩٦٨ ، أحد هذه النقاط . حيث شرع حزب البعث فى الإعداد للسيطرة ليس على الثقافة المؤسسية للجامعة فحسب ، وهى نقطة سأعود إليها لاحقا ، بل أيضا على الشعر والنثر فى حد ذاتهما . وقد واتاه الحظر فنفذ ذلك فعلاً ، أولا عن طريق الرعاية المباشرة ، حيث تمكن من احتواء شعراء معروفين ممن لم يتم نفيهم ، مثل مهدى الجواهرى ، ومظفر النواب ، وثانيًا ، عن طريق تقديم الدعم لشعر الشباب ، خاصة ما يخلو من المضمون الاجتماعى ، من خلال مجلة «الطليعة الأدبية ، التى «تعنى بأدب الشباب» والتى تأسست فى ١٩٧٥ [٤٤] .

فإذا كان من الممكن أحيانا احتواء كتّاب الغد ، فهل يمكن ذلك بالنسبة للشعراء ؟ لقد حدث فى العصر العثمانى ، أن أجر السياسيون الشعراء علي أن يكونوا شعراء بلاط ، بأن يواصلوا التقاليد الشعرية ذات النفع بالنسبة للبلاط ، مثل المديح والرثاء ، والفكرة هنا هى أن الشعراء ما داموا قادرين على الاتصال بالجماهير ، فيجب توظيف موهبتهم بطريقة سليمة . فبينما يذهب نقاد الأدب إلى أن الشعر المدعوم من الدولة غير نزيه ، وأن ذلك يقلل من قيمته الفنية ، فإن هذه النقطة ، من وجهة نظر الاستراتيجية العملية أو الاحتياجات البيروقراطية ، ليست ذات أهمية [٤٥] . وكان مصدر الإزعاج دائما فى بلد مثل العراق ، هم الشعراء المتمردون ، فهناك بالتأكيد شعر يمتدح صدام حسين . لكن المشكلة بالنسبة له هم أولئك الشعراء الذين لا يمتدحونه . أما النثر ، فيعتبر الأساس الموثوق به بدرجة أكبر ، لثقافة المدينة وجمهور المتعلمين . وليس غريبا ، أن القادة العراقيين ، منذ العصر العثمانى فصاعدا كانوا يشجعون كتّاب النثر . ففى عام ١٩١٧ ، نشر «جون إس» ، وهو مبشر أمريكى فى العراق ، كتابا فى النحو هو «العربية المنطوقة فى العراق» لتيسير تطور أسلوب النثر وبمضى السنين ، ظهر عدد هائل من الكتابات النثرية خاصة فى بغداد والنجف . وأخذت الحكومة العراقية ، تتولى مهمة نشر الأعمال النثرية بل وتكفلت بتقديم برنامج إذاعى أسبوعى لتدريب المستمعين على الاستعمال الصحيح لأسلوب النثر [٤٦] . وفضلا عن ذلك فمع نمو الدولة ، أصبحت أكثر حرصا على تحديد نوعية ما تقدم له الدعم . فكتاب «جون إس» نحى جانبا على اعتبار أنه متساهل أكثر من اللازم مع اللغة المنطوقة . وما هو أكثر فائدة منه هو القواعد النحوية وشروحات المعانى التى تزيد من حدة الازدواجية الثقافية [٤٧] . وبعد ثورة ١٩٦٨ ، أعادت الدولة مرة أخرى تقييم دورها فى رعاية الكتابات النثرية .

وهذه المرة ، ومع الزيادة السريعة فى عدد المتعلمين ، توجس الحزب من أن شيوع قراءة الكتابات النثرية يمكن أن يؤدى إلى التكامل الاجتماعى . وكان رد فعل «البعث» تجاه ذلك ، على غرار السوفييت ، هو تشجيع الواقعية الاشتراكية بين الجماهير ، والسماح بكتابات سياسية مبتسرة لا تتاح قراءتها فعلا إلا للدوائر السياسية داخل المدينة . وأصبحت جريدة «الثورة» هى «برافدا» العراق .

وكما لاحظنا من قبل ، فمنذ الأربعينيات ، استخدم السياسيون أجهزة الإعلام على نطاق واسع جدا . أولا : الإذاعة ، ثم التليفزيون . والأنظمة الليبرالية تتعامل مع أجهزة الإعلام باعتبارها وسيلة لنشر فلسفتها فى تطوير المواطن المتعلم . وعلى خلاف ذلك ، نجد أن الأنظمة الأوتوقراطية تعلق آمالا كبيرة على أجهزة الإعلام بوصفها وسيلة للسيطرة على تفكير المواطن . وقد حدد حزب البعث فى ميثاق العمل الوطنى (١٩٧١) دور أجهزة الإعلام بأنها الموجه والمعلم والمرض والمصلح والمعبئ الجمعى .. وبسبب ارتباطها بالجماهير يجب أن تكون موضع رقابة دقيقة [٤٨] . وقد ظل إلقاء الأشعار جزءاً من البرنامج التليفزيونى لدى مؤيدى الليبرالية والأوتوقراطية على السواء ، إلا أن النثر كان هو الأسلوب السائد .

وبعد عام ١٩٧٥ ، تحول العراق من المرحلة الأوتوقراطية إلى الليبرالية ، واضمحل العصر الإدماجى ككل . تراخى نشاط حزب البعث ، واعترف بأن برامجه التليفزيونية لم تحظ إلا بقليل من المشاهدين ، وأن العراقيين يفضلون العروض الموسيقية التقليدية ، بل وأفلام القطاع الخاص ، على برامج الحكومة [٤٩] .

وتتسم أنظمة الطريق الروسى ، بأن القيادة الدينية تلعب فيها دورا هاما فى الهيمنة على الثقافة وتنظيمها . وهو موضوع لم ينل ما يستحق من الدراسة فى كل من روسيا والعراق . وقد يبرر ذلك جزئيا بأن القيادة الدينية فى كلا الحالتين ، أجرت حسابات خاطئة أفقدتها قوتها فى مواجهة البنية العلمانية . الأمر الذى يفسر لماذا بدا البلدان اللذان أخذناهما فى هذه الدراسة مثالية للطريق الروسى علمانيين بدرجة كبيرة ؟ ومن بين الحسابات الخاطئة التى مارستها القيادة الدينية العراقية ، حضها لأتباعها على عدم الالتحاق بالتعليم العلمانى . مما جعل النخبة الشيعية فيما بعد لا تجد لديها من هم مؤهلون لشغل الوظائف الحكومية التى أصبحت متاحة فى هذا القرن . ونتيجة لذلك ، هجر الطلبة المدارس الدينية إلى المدارس العلمانية . وبعد نصف قرن ، أخذت القيادة الدينية تراجع سياستها بهذا الشأن . واليوم ، أصبحت تلك القيادة هى

التحدى الرئيسى الذى يواجه السيطرة المستمرة لحزب البعث والعلمانية (٥٠) ، فكيف حدث ذلك ؟

وخلاصة القول ، هو أن تنظيم الثقافة كما مارسته الأنظمة المختلفة طوال القرن الماضى نجح فى إحداث انقسام فى قوى المعارضة . وإن كان بصعوبة بالغة . لقد كان حزب البعث أكثر من محظوظ حينما نجح فى عزل الصدر وإعدامه . فقد كان تحديه عملا هائلا ، لأنه جمع بين الإسلام وبين العلمانية اليسارية . وفى الجيل السابق ، كانت الدولة أيضا محظوظة للغاية حينما استطاعت إبعاد تأثير التحديات التى تشكلها القوى الشيوعية والقومية . وبينما لعب الحظ دوراً فى ذلك ، إلا أن الأمر لم يكن بكامله نتيجة للحظ .

ويتناول القسم الأخير من هذا الفصل : كتابة التاريخ فى العراق . فالتاريخ فى أنظمة الطريق الروسى ، يشكل ساحة هامة للهيمنة . وهو يكشف عن حنكة القيادة . والعراق ليس استثناء فى ذلك .

المؤرخون وكتابة التاريخ فى العراق

يختص هذا القسم بمعالجة موضوع المؤرخين وكتابة التاريخ فى العراق الحديث . وقد كانت نقطة الارتكاز فى كتابة التاريخ فى العراق ، مثلما كانت فى روسيا والاتحاد السوفيتى ، هى الدولة . إذ يركز المؤرخون على دراسة الدولة من خلال تاريخها السياسى والدبلوماسى كما يدرسونها فى سياق تاريخ العالم . وعلى الرغم من أهمية دراسة التاريخ فى أنظمة بالعراق الحديث ، إلا أن سياسات دولة الأزمة ، ظلت لجيل أو أكثر ، تقف عائقا فى سبيل نمو المؤسسات المهنية ، فتشكل المؤسسة المختصة بدراسة التاريخ لم يحدث قبل عام ١٩٧٠ ، رغم ذلك ، فقد كان لدى العراق مؤرخون ذوو صيت عالمى منذ الستينيات . وحتى قبل ذلك التاريخ ، كان لدى العراق مؤرخون معروفون على نطاق العالم العربى (٥١) .

وقد تطورت كتابة التاريخ ، فيما بين (١٨٦٩ - ١٩٦٣) من تاريخ المدن الذى يكتبه كتاب محليون ، إلى التاريخ السياسى القومى ، من النوع الذى وصفناه فى الفصل السابق ، بأنه «مدرسة الدولة» ذات النزعة الليبرالية . ولما كانت الدولة خلال الفترة الاستعمارية وفترة ما بعد الاستعمار ، قد تجاهلت المؤرخين ، فإن أكثر هؤلاء شهرة خلال تلك الفترة الشاذة التى تربو على ثمانين عاما ، مارسوا نشاطهم من خلال الصالونات الأدبية ، أو على هامش السلك الوظيفى للدولة (٥٢) .

وعلى خلاف أساتذة التاريخ فى فترات الدولة الإدماجية بعد عام ١٩٦٣ ، فإن المؤرخين خلال الفترة السابقة كان عليهم أن يدربوا أنفسهم على الكتابة لجمهور المتعلمين عامة . فكثير من كبار المؤرخين فى النصف الأول من هذا القرن ، كانوا يعملون بالمحاماة أو الصحافة ، لكنهم استطاعوا فى أوقات فراغهم ، أن يكتبوا دراسات وصلت أحيانا إلى عدة مجلدات .

وأحد الأعمال الهامة لتلك الفترة ، كانت دراسة لتاريخ بغداد من ١٢٥٧ إلى ١٩١٧ . هو عمل ذو صبغة قومية ، جذب جمهورا واسعا . وكان مؤلفه محاميا هو «عباس العزاوى» . وقد بدأ عمله فى الثلاثينيات وظهر مجلده الأخير فى ١٩٥٦ [٥٣] .

وعلى خلاف كتابة التاريخ فى روسيا ، كانت كتابة التاريخ فى العراق تميل إلى دراسة تاريخ الدولة فى العصر الوسيط . ويبدو أن التفسير الواضح لذلك هو الأوضاع السياسية . فطبيعة دولة «الأزمة» التى استمرت لجيل أو اثنين بدءاً من ١٩٢٣ على أقل تقدير ، جعلت تاريخ العراق الحديث أقل جاذبية للكتّاب الذين يملكون القدرة على التفسير المتعمق . لذلك تبنى كثير من المؤرخين موضوعات تتعلق ببغداد العصر الوسيط ، وهى موضوعات تنطوى على أية حال على إشارات ضمنية إلى الحياة فى بغداد الحديثة .

وفى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات ومع صعود الدولة الإدماجية ، انتقلت كتابة التاريخ من الصالونات الثقافية إلى قسم التاريخ بالجامعة . وظهرت بوادر للاهتمام بالتاريخ الاجتماعى . وتوقف إنتاج الأعمال الضخمة . وارتفع عدد الأبحاث القصيرة ، وكان أحد الباحثين البارزين خلال تلك الفترة الانتقالية ، هو المؤرخ الاقتصادى «محمد سلمان حسن» مؤلف «التطور الاقتصادى فى العراق (بيروت ١٩٦٥) . وهى دراسة فى النمو الاقتصادى للعراق فى الفترة من ١٨٦٤ - ١٩٥٨ ، تركز على التجارة الخارجية . وقد بين حسن كيف أن الاقتصاد العراقى قد وقع فى قبضة الاقتصاد العالمى وكيف أحدث النمو الرأسمالى تغييرا فى العراق ، وخلال الفترة نفسها ، نشر «صالح العلى» تاريخ البصرة فى العصر الوسيط ، مركزا على ملامحها الاجتماعية والاقتصادية [٥٤] . وقد شكلت ثورة البعث عام ١٩٦٨ عودة إلى الأوتوقراطية . وشعر المؤرخون الاجتماعيون والمؤرخون الليبراليون جميعاً ، وعلى نحو

مفاجئ ، بأن ضغوطا شديدة تمارس ضدهم . وأصبح أحد الأسـاتذة فى جامعة بغداد ، وهو المؤرخ السـياسى «فاضل حسين» مـؤلف دراسـة شـديدة الموضـوعيـة عن سـقوط الملكية ، رمزا للإرادة الليبرالية فى البقاء [٥٥] .

وعاد التاريخ مرة أخرى ، بعد ثورة ١٩٦٨ ، ليصبح تاريخا سياسيا ، وتراجع التحليل الاجتماعى والاقتصادى إلى مجالات أخرى مثل : علم الاجتماع . وتم تهميش شخصيات مثل : محمد سلمان حسن ، أما «صالح العلى» فقد استطاع البقاء بعد ١٩٦٨ ، لكنه لم يقم بنشر أى عمل كبير . وحتى عالم الاجتماع التاريخى «على الوردى» الذى رسخت قدمه فى علمه قبل ثورة ١٩٦٨ ، نحى جانبا بعدها . وقد نشر الوردى دراسات عديدة حول المجتمع العراقى . وكان معروفا كذلك باهتماماته بتاريخ العالم [٥٦] . وهكذا حتى فى مجال علم الاجتماع ، فإن الباحث إذا كانت لديه ميول تاريخية فإنه يواجه مشـاكل سياسية ، وقد أدى تشبث «الوردى» بالوصف الموضوعى للمجتمع العراقى إلى الإصرار على أهمية الإيرانيين كجزء من تاريخ العراق . وقد جعلت منه هذه المسألة موضوعا للجدال . ونتيجة لذلك ، أبعده حزب البعث من الجامعة وأحاله إلى التقاعد . على أن اهتمام «الوردى» بالمثال التاريخى لابن خلدون ساهم فى تمكينه من تحمل هذه الصعوبات ؛ حيث إن حزب البعث كان لديه أيضـا اهتمام بابن خلدون ، وهى نقطة سنعود إليها لاحقا .

وفى عـام ١٩٦٩ ، تمكن عـدد من المؤرخين البـارزين الموالين للدولة من تأسـيس منظمة مهنية . وعندما حدث ذلك ، بدأت اتجاهات فى كتابة التاريخ مغايرة للقومية العربية الشـاملة التى يتبناها حزب البعث ، فى الظهور لا كبديل ، ولكن من قبيل التحدى .

والتنظيم المهنى لم يأت إلا بقدر محدود من الجديد . فقد ظل النموذج القومى العربى ، منذ جيل الحرب العالمية الأولى ، ذا جـاذبيـة واسعة النطاق داخل الفكر العراقى ، وإن كان يمثل أيديولوجية معارضة . وقد حظيت القومية العربية ، منذ الأربعينيات ، بمصداقية دولية ، حين منح المؤرخ الإنجليزى الشهير أرنولد توينبى للحضارة العربية مكانا متميزا ، بترجمة «توينبى» إلى العربية عام ١٩٤٦ . ومنذ الأربعينيات حتى اليوم ، نشـأ فى العراق ، على الأقل داخل أوساط المنتمين للقومية العربية ، ما يشبه عبادة توينبى . وقد تنامى هذا الاتجاه بعد عام ١٩٦٨ .

لقد كان تاريخ العراق فى العصر الوسيط هو مجال اهتمام التيار القومى العربى فى الجيل السابق واستمر كذلك . وأبرز مؤرخى العصر الوسيط فى الجيل السابق كان «عبد العزيز الدورى» . وهو فى الواقع قومى عربى . وقد شغل فى الستينيات منصب رئيس جامعة بغداد . وقد ذهب فى أحد كتبه العديدة والمعروفة ، إلى أن حضارة العرب فى العصر الوسيط خاصة فى العراق ، هى نقطة البدء فى كتابة التاريخ الحديث . وفى كتاب آخر لفت الانتباه إلى أن ما كان يتهدد العرب خلال التاريخ هو ما أتى عن طريق أعدائهم ؛ وبخاصة مما يسمى بالاتجاه الشعوبى (ذى المنحى الفارسى) . وعلى الرغم من أن «الدورى» نفسه تم نفيه بعد مجئ حزب البعث ، إلا أن أفكاره ما زالت مستمرة . بل ربما أصبحت أكثر تأثيرا اليوم عما كانت فى الستينيات . فقد تبنى «فاروق العمر» ، رئيس قسم التاريخ بجامعة بغداد فى السبعينيات والثمانينيات ، والمتخصص فى التاريخ العباسى ؛ مواقف كثيرة مماثلة لمواقف «الدورى» (٥٨) .

والجديد الذى أحاط بالتنظيم المهنى للتاريخ هو أنه أدى إلى اضطهاد من لا ينتمون إلى القومية العربية ، أى الليبراليين والشيوعيين . ومن بقى من الأساتذة يروون الحكايات عن القمع العنيف ، وعن اتخاذ البعض منهم كباش فداء ، عن التطهيرات داخل الجامعة ، وعن الرقابة ، وعن الضغوط البيروقراطية التى تحيط بالجميع . وانطوى معظم الليبراليين على أنفسهم ، للمرة الأولى ، وتجاهلوا التطورات الحديثة فى مجال تخصصهم ، لتمكنوا من مجرد البقاء . فبينما اتجه معظم دارسى التاريخ فى العالم فى السبعينيات إلى التاريخ الاجتماعى بحيث أصبح أهم اتجاه داخل دراسة التاريخ وأسرعها نمواً ؛ ظل المؤرخون العراقيون بمنأى عنه . ولم يكن ذلك لأية أسباب علمية ، وإنما لارتباط ذلك الاتجاه فى أذهان البعثيين بإلغاء الازدواجية الاجتماعية وبالتالى بالصراع الطبقى .

ومع بداية التنظيم المهنى للمشتغلين بالتاريخ عام ١٩٦٩ ، تم اختيار «حسين أمين» وهو مؤرخ ذو صلات بحزب البعث ، رئيسا لتحرير مجلة المؤسسة . وأصدرت «المجلة التاريخية» أولى أعدادها ، تحت رئاسة «أمين» عام ١٩٧٠ ، وتضمنت كلمة التحرير مدحا لحزب البعث ، وبالتالى نقدا لممارسات المؤرخين العراقيين الأوائل ذوى التوجهات الليبرالية (ص ٣) . وطالب «أمين» بإجراء البحوث العلمية التى تستنهض دور العرب والمسلمين فى بناء المجتمع .

وكان الحزب يأمل بوضوح أن تساعد «المجلة التاريخية» على جذب المؤرخين العراقيين فى اتجاه الفكر الذى يتبناه الحزب . وقد نظر حزب البعث إلى تكوين التنظيم المهنى فى نفس الضوء . أى باعتباره جزءاً من الأوتوقراطية .

فمن من المؤرخين تحول إلى حزب البعث ، وما الذى نتعلمه من تاريخهم المهنى ؟ هناك اثنان من بين ثلاثة مؤرخين بعثيين بدأوا نشاطهم المهنى بعد عام ١٩٦٨ ، يمكن تفسير دوافع توجهاتهم . هما «حسين أمين» وهو باحث فى التاريخ السلجوقى ، و «علاء النورس» وهو باحث فى التاريخ العثمانى . وتخصصاتهما لم تكن تحظى بتقدير معظم الباحثين . وقد منحهما حزب البعث فرصا وظيفية بناء على نقاط الالتقاء بينهما وبين الحزب . أما الثالث ، وهو «فاروق العمر» ، فقد ولد أثناء الثورة لأب من ضباط الجيش . وعمل بالسلك الدبلوماسى وبالبحث التاريخى . وكان متخصصا فى التاريخ العباسى ، وهو تخصص مفيد لحزب البعث الذى يريد أن يبدو استمرارا للخلفاء العظام لبغداد العصر الوسيط . وقد كان مقال العمر فى المجلد الأول من «المجلة» حول الحركات التخريبية الإيرانية لبغداد فى العصر الوسيط ملائما لاحتياجات حزب البعث ، فالحركات التخريبية الإيرانية لبغداد كانت تمثل خطرا على حزب البعث أيضا .

ويبدو أن سياسة «أمين» فى إدماج الاتجاهات غير البعثية فى «المجلة التاريخية» كانت تتوازى مع سياسة الإدماج التى تمارسها سلطة الهيمنة ككل . فحتى الدين يمكن أن يصبح جزءاً من التاريخ العربى ، وإن احتل فيه مكانة ثانوية . وقد أبرز «أمين» أهمية هذه النقطة فى المقالة الأولى للعدد الأول حول بروز مؤسسة التعليم المعاون داخل نظام التعليم لمدرسة العصر الوسيط ببغداد . فقد تعمد «أمين» اختيار موضوع يجمع بين العنصر الإسلامى وبين العنصر العربى . وفى نفس العام ، نشر «أمين» مقالا للأستاذ «عبد الله فياض» حول العصر البويهى . وفى تعليق نشر بعد ذلك بعام ، أوردت «المجلة» تقريرا حول محاضرة ألقاها الأستاذ «فياض» فى كربلاء حول دور «حرب العصابات فى الإسلام : فى الماضى والحاضر» . وقد لقيت المحاضرة استحسانا ، وقبلها «أمين» أيضا للنشر ؛ حيث إنها تجمع بين الموضوعات العربية والإسلامية .

وقد نشر أمين أيضا مقالات لكتاب ليبراليين وماركسيين . وأولى اعتباراً خاصا لأكثر مؤرخى العصر الحديث شهرة ، «فاضل حسين» ، فنشر مقالته حول التاريخ العربى والمسألة الفلسطينية ، وهو موضوع كان دائما ذا جاذبية شديدة للقوميين العرب . ونشر كذلك مقالين لشخصية بارزة أخرى هى : «فيصل سمير» ، الذى كان يوما سياسيا يساريا ،

ثم أصبح فيما بعد أستاذا للتاريخ . وكان أحد المقالين يدور حول التاريخ العراقى الحديث ، أما الثانى فكان يدور حول حركات التجديد الدينى والعلمانى فى أندونيسيا [٥٩] .

ومنذ منتصف السبعينيات ، ومع شروع الليبرالية الاقتصادية فى العودة إلى تأكيد ذاتها ؛ ظل حزب البعث يسعى إلى السيطرة على كتابة التاريخ وتدريسه ، رغم أنه بدأ منذ هذه الفترة يسمح بها من أوسع للاتجاهات المختلفة . وكان من بين المبادرات الهامة للفترة التالية لعام ١٩٧٥ ، نشر كتاب حول الكيفية التى ترغب الدولة أن يكتب بها المؤرخون التاريخ ، وحول إنتاج مراجع وموسوعات تجمع وتنسق نظرة الحزب الرسمية للعالم ؛ وحول افتتاح معاهد جديدة يقوم الحزب فيها بدور أكاديمى أكثر منه بروقراطى ، ورعاية المشروعات ذات النطاق الواسع التى يسهل السيطرة عليها من أعلى بدلا من المشروعات ذات النطاق الضيق التى يمكن أن يقوم بها باحثون أفراد ، وتنظيم يوم عمل الأساتذة الجامعيين بحيث لا يتمكنون من إجراء البحوث الخاصة ضيقة النطاق ؛ وتأسيس منظمة جديدة لدراسة التاريخ العربى كله ، هى : «اتحاد المؤرخين العرب» يكون فى استطاعتها تجاوز الصراع بين الليبراليين وبين البعث ، وهى الصراعات التى أخذت فى منتصف السبعينيات تتسبب فى تفكك التنظيم المهنى الأول .

ولننتقل أولا إلى المشروع الخاص بكيفية تدريس التاريخ . فبطبيعة الحال ، يريد الحزب كيانا طلابيا مواليا بالكامل لأفكار البعث . والأساتذة لم يكونوا ينتجون هذه النوعية من الطلاب . والحل يجب أن يكون فى إطار العملية التعليمية . لذلك قرر حزب البعث أن يصدر تعليمات للمؤرخين حول كيفية تحقيق هذا الهدف . وحشد لأجل ذلك ، عددا من كبار الأساتذة والمسئولين الحكوميين وكتبوا مجموعة من الأبحاث نشروها باسم رئيس الدولة ، صدام حسين ، تحت عنوان «حول كتابة التاريخ (بغداد ، ١٩٧٩) . ووفقا لتعاليم هذا الكتاب ، فإنه بينما يدرس الليبراليون مثل «صالح العلى» الماضى من أجل البحث العلمى فى حد ذاته ، فإن البعث يطالب بدراسة الماضى من أجل استخدامه سياسيا ، لرسم سياسات الحاضر . فالبعث هنا ، يتمثل روح المعهد السوفيتى للأساتذة الحمر ، فيطالب المؤرخ بأن يتلاعب بالمادة التاريخية بدلا من الاكتفاء بتشكيلها . وقد لاحظ «نزار الحديثى» ، وهو مؤرخ ومسئول حزبى ومدير مركز أبحاث حزب البعث ، فى مقالة كيف أن دراسة التاريخ يمكن أن تساعدنا فى تحقيق الأهداف المنشودة . وامتدح «الحديثى» النبى محمد لأنه تعامل مع التاريخ على هذا النحو [٦٠] .

والحكومات توازن بين مزايا ومثالب رعايتها للثقافة ، فإذا كان الباحث فى التاريخ العربى الحديث أو الوسيط ميالا لأن يكون مكتفيا بذاته بوضوح ، فهذا يعنى دون شك أن الحكومة لن تكون لها تأثير كبير عليه . بينما فى مجال الآثار مثلا ، فالمشتغلون بها يعربون دائما عن أنه ليس بمقدورهم إحراز أى تقدم دون رعاية كافية . وفى هذه الحالة فالرعاية تعنى سيطرة حقيقية ، وهذه السيطرة الحقيقية هى ما يسعى إليها حزب البعث . ورغم أن أرقام الميزانية غير متوافرة لدينا حتى نعرف كم ينفق على أبحاث الآثار بالمقارنة بالتاريخ ، فإن قرار البعث يتبنى مشروعات أثرية ذات نطاق أوسع فى الوقت الذى يجمد فيه منح الدراسات التاريخية الأخرى ، هو قرار لافت للنظر . على الأقل لأنه فى الجيل الماضى الذى كانت اتجاهات البحث الأثرى فيه تركز على المشروعات ضيقة النطاق قليلة التكلفة ، استطاع البعث بكوادر محدودة الخبرة أن يجرى عمليات تنقيب وأن يعيد بناء أكثر المدن جمالا فى التخطيط فى الزمن القديم وهى مدينة «سامرا» العاصمة العباسية (٦١) .

وبينما أدى اتساع الطبقة الجديدة فى الستينيات والسبعينيات إلى تقليل فائدة حملات التطهير ، بذل البعث قصارى جهده لوضع نظام شاق لعمل الأساتذة . وقد نجح فى ذلك . فقد أصبح الأساتذة مرهقين لإلزامهم بالعمل فى الجامعة ٤٥ أسبوعًا فى العام ، وبجدول محاضرات يشغل ١٠ ساعات فأكثر . وتم تقنين هذا النظام فى ١٩٧٨ ، وفقا لقانون تنظيم العمل الجامعى ، والذى تم إقراره تحت زعم أن من حق الحكومة أن تمنع الأساتذة والمدرسين من إعطاء دروس خصوصية فى أوقات الفراغ . ولما كان الأساتذة ليس لديهم مكاتب خاصة بهم وكانوا يجلسون فى غرف تضم اثنى عشر فردا حتى الرابعة مساء ، أصبحت ممارسة النشاط الفردى صعبة أو مستحيلة . وبذلك كان بإمكان الحكومة أن تخصص مبالغ كبيرة لنشر الأبحاث لكن القليل منها كان ينشر فعلا بقدر من الانتظام . والمسألة ببساطة أنه كانت ثمة عقبات تفوق الاحتمال . فشراء الضروريات كان يتطلب وقتا كبيرا جدا . فالمدينة تنقصها المتاجر الحديثة وتعانى من عدم توفر حتى الضروريات . بما فى ذلك الكتب والدوريات التى تصدر فى الخارج ، سواء باللغة العربية أو الأجنبية . وفضلا عن ذلك ، كانت أثمان الكتب مرتفعة ، وكان مستوى تصوير المطبوعات متدنيا للغاية . وكانت نتائج ذلك بالنسبة للجيل الحديث الذى نشأ فى السبعينيات وما بعدها ، مدمرة . وبالنسبة للجيل الأقدم لم تكن الأحوال أيضا أفضل كثيرا ، فكثير منهم كان يعيش على مدخرات الماضى (٦٢) .

وكما لاحظنا من قبل ، فقد تراخت فى ١٩٧٥ ، محاولة حزب البعث فرض مبادئه على المؤرخين ، فالصراع بين الليبراليين والقوميين العرب كان عميقا للغاية . وبعد ذلك بقليل ، وفيما بدا أنه موقف تراجعى من الحزب ، أنشأ «حسين أمين» ، مجلة جديدة ما زالت مستمرة إلى اليوم هى «المؤرخ العربى» . وهى تعبر عن مشروع قامت به نخبة منتقاه ، تدير أيضا تنظيما مهنيا جديدا هو «اتحاد المورخين العرب» ، الذى أنشئ فى تلك الفترة . ويضم مجلس تحرير «المؤرخ العربى» ، بالإضافة إلى «أمين» نفسه ، عضوا عراقيا آخر هو «عبد الأمير محمد أمين» وهو عضو بالحزب وأستاذ بكلية التربية . وقد واصل «حسين أمين» فى هذه المجلة التأكيد على الطابع العربى العقلانى التقدمى للإسلام وللتاريخ الإسلامى . وتتحدد مساهمة «أمين» كمحرر فى التركيز على إسهام «أرنولد توينبى» فى فهم العرب ، فكما يشير عدد من المقالات ، يفهم البعثيون «توينبى» على أنه يولى اهتماما للشخصية العربية – الإسلامية ، بدلا من الفارسية . وفى العدد السابع من المجلة (١٩٧٨) ، تناول رئيس قسم التاريخ بجامعة الجزائر موضوع توينبى والتاريخ الأفريقى ؛ بينما تناول «ديريك هوبوود» ، الباحث الإنجليزى ، موضوع توينبى ومعاداة الصهيونية ، حيث يربط بين هذا الموضوع وبين انجذاب «توينبى» نحو الحضارات كوحدة للدراسة . وأخيرا ، كتب «محمد توفيق حسين» من جامعة بغداد مقالا حول مناصرة توينبى للعروبة ، ولخص الحوار الذى دار بينه وبين الباحث الإنجليزى العراقى واليهودى ، «ايلى قدورى» ، حول التاريخ اليهودى . وفى العدد التاسع (١٩٧٨) كتب «جواد على» وهو مؤرخ لعصر ما قبل الإسلام ، حول منهج التشكل (مورفولوجيا) الحضارى لدى توينبى معارضته للنظريات الأنجلوسكونية العرقية فى الحضارات بما فيها الصهيونية [٦٣] .

ومع نهاية السبعينيات ، برزت شخصية جديدة من الحزب متخصصة فى التاريخ ، هى : «مصطفى عبد القادر النجار» ، الذى لمع اسمه فى السياسة خلال فترة وجيزة ، عن طريق حزب البعث فى «البصرة» . وعينه الحزب مديرا لمركز الدراسات الخليجية فى «البصرة» ورئيسا لتحرير مجلته . وحينما انتقل «النجار» إلى بغداد كانت مكانته قد ترسخت داخل الحزب ، وخلف «حسين أمين» فى رئاسة «اتحاد المورخين العرب» [٦٤] . وكان صعود «النجار» مؤشرا للتقبل التدريجى للتنوع . فقد أصبح للتيار الإسلامى ، و «المدرسة الحضارة العراقية» ، والشيوعيين ؛ وجودا متزايد الأهمية داخل مهنة التاريخ .

ففى أواخر السبعينيات أصبح «عماد الدين خليل» وهو أستاذ تاريخ بجامعة الموصل ، ممثلا هاما للتيار الإسلامى فى كتابة التاريخ . والسيرة المهنية لخليل مشوقة . ففى ١٩٦٥ ، أعد رسالة ماجستير فى جامعة بغداد حول شخصية عسكرية وسياسية من العصر الوسيط عاشت فى شمال العراق ، هى شخصية «عماد الدين زنكى» . ورغم أن «خليل» كتب أعماله فى مناخ موات تماما للتاريخ العسكرى والسياسى ، ورغم أن موضوعاته تنتمى لذلك النوع من الكتابة ، إلا أنه تعامل مع موضوعاته دون الرجوع كثيرا إلى تفاصيلها ، وإنما اتخذ منها وسيلة لطرح مشكلات أخلاقية معاصرة . فقد عالج «خليل» شخصية «زنكى» بوصفه مسلما اضطر أن يختار بين شيئين كلاهما حسن . وهذا الطابع ، الذى يرتبط عادة بالتراجيديا ، يتخلل عددا من كتابات «خليل» فى السبعينيات والثمانينيات ، وهى كتابات تناولت موضوعات مثل : الطبيعة فى الفن الغربى ؛ مشكلة الحرية والضرورة فى المسرح العربى المعاصر ؛ معجزة فى الضفة الغربية ؛ العدالة الاجتماعية ؛ حياة النبى ؛ وحتى نقد الإسلام المعاصر .

وقد احتل منهج البحث التاريخى مكانة هامة فى أعمال «خليل» . ففى مقال يرجع إلى أوائل السبعينيات ، دافع «خليل» عن المنهج الكلى فى التعليم فقد انتقد الاهتمام المبالغ فيه بعملية الاستذكار فى تدريس التاريخ على حساب المقارنة والتحليل . واقترح أن يخصص المدرس ساعة فى الأسبوع لدراسة أحد المنظرين : توينبى مثلا . كما أشار إلى أنه على المدرس أيضا أن يخصص بعض الوقت للتغلب على المشاعر السلبية تجاه كوننا عرباً ومسلمين ، وهى المشاعر التى تولدت لدينا تحت التأثير الغربى فى الجامعات العربية [٦٥] .

وطرح «خليل» فى كتاب له صدر عام ١٩٧٥ ، حول العلاقة بين دراسة التاريخ وبين الدين ؛ فكرة أن التفسير التاريخى يأتى من الإلهام الإلهى ؛ وأن تقسيم الحقيقة إلى ماضى وحاضر ومستقبل أقل أهمية بكثير من بعد آخر هو استكشاف أعماق الروح الإنسانية . فالله يتصل بالإنسان من خلال روحه ويشكله عن هذا الطريق . وقد شبه «خليل» حركة التاريخ بالعجلة التى تدور وتدور ، وخلال هذا الدوران تعلو الدول وتسقط كل بدورها بوصفها حاملة للقيم والمبادئ [٦٦] .

وفى نهاية السبعينيات ، عادت «مدرسة الحضارة العراقية» إلى الظهور مرة أخرى . وكان من بين أبرز ممثليها «أحمد سوسة» وهو مؤرخ متخصص فى الجماعة العراقية – اليهودية وخلال العديد من كتبه المعروفة ، والتى كتبت طوال حياته المديدة ، ظل «سوسة» يؤكد على الوحدة الحضارية للعراق من الأزمنة القديمة إلى الحديثة [٦٧] .

والدراسات السريانية أيضا شهدت حركة إحياء لفترة وجيزة . فقد تأسست «مجلة مجمع اللغة السريانية» عام ١٩٧٥ وظلت تصدر لعدة سنوات إلى أن استولى عليها الحزب لأسباب سياسية ووضعها تحت إشراف «المجمع العلمى العراقى» الخاضع بدوره لإشراف الدولة . وكانت المجلة تضم قسمين : عربى وإنجليزى . وفى المجلد الأول (١٩٧٥) ، امتدح اثنان من المستشرقين الأوربيين عظمة الكنيسة الكلدانية ، وكتب «فاروق العمر» ، مؤرخ الفترة العباسية ، مقالا حول موقف العباسيين الأوائل تجاه المسيحيين واليهود ، وذهب إلى أنهم كانوا يعاملون معاملة حسنة . وأن القيود التى فرضت على الأقليات كانت تمثل مسلكا نفعيا من قبل الخليفة يتزلف به إلى الجماهير أو العلماء ضد أعدائه السياسيين . فقد أرغمت الضغوط السياسية الخليفة المتوكل علىّ اختراع سلوكيات لا أساس لها فى القرآن . ومثل هذا الخط فى التفكير كان يمثل حزب البعث الذى يعتبر اهتمامه بالدراسات السريانية أمرًا مفهوما ، ربما لأنها تتيح له دق اسفين بين المسيحيين الناطقين بالسريانية وبين الأكراد . على أن كتابات الباحثين المسيحيين العراقيين كانت بصورة غير مباشرة تتحدى خط حزب البعث . إذ كانت تضفى عقلانية على الفكر الدينى التقليدى ، كما كانت تناقش المعجزات فى ضوء الوقائع التاريخية . وقد عالج أحد المقالات موضوع العلماء السريان والتقليد العقلانى ، وتناول مقال آخر المعجزة المسيحية زمن الاضطهاد الرومانى .

وكان من بين المشاريع التى سعى باحثو «مجمع اللغة السريانية» المسيحيون إلى إنجازها خلال فترة حياته القصيرة ؛ مشروع إحياء اللغة السريانية ، وتأليف قاموس حديث خاص بها . وكان هذا القاموس هو السبب المباشر لحل المجمع (٦٨) . فبالإضافة إلى مناصرة البعث للغة العربية ، فإن كلمات القاموس ذاتها والتى اختيرت للبدء بها لم يتم اختيارها وفقا للأصول اللغوية المتعارف عليها ، بل كانت تنتمى للمعارضة السياسية . فمن بين مجموعات الكلمات التى رشحت للصياغة بالآرامية نجد كلمات مثل : الديكتاتورية العسكرية ، والدولة ، والراتب ، والرأسمالية ، ورجعى ، ومدير ، وأسعار منخفضة ، ووجهات النظر السياسية ، واحتكارات البترول الدولية ، والأفكار الإنسانية ، وأخوى ، وإلى ما ذلك . لم يكن البعث وحده هو الذى انزعج لذلك بل شاركه هذا الشعور الباحثون الأوربيون الكلاسيكيون أيضا (٦٩) .

وفى نفس الإطار الزمنى ، ظهرت «مدرسة الجماعات الطائفية» فى كتابة التاريخ العراقى ، مركزة اهتمامها على الطوائف العرقية والدينية مثلما هو الحال فى الغرب لدى المستشرقين وفى بيروت لدى اللبنانيين (٧٠) .

وأخيرا ، فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، ظهر اتجاه شيوعى بين المؤرخين العراقيين . مثلما يتضح فى كتابات «أحمد كمال مظهر» حول تاريخ بغداد . ففى كتابه «دور الشعب الكردى فى ثورة تشرين العراقية» يؤيد كمال مظهر فرضية العصر الليبرالى حول اندماج الأكراد فى الحضارة العربية ، لكنه يضفى عليها منحى جديدا متحديا بذلك الطابع العربى المفترض لثورة ١٩٢٠ ، مما يعيد فتح ملف المشكلة السياسية التى ظلت بلا حل ، والتى تتعلق بقومية الأقليات . وكان من الطبيعى أن يكون مثل هذا الكتاب موضع جدال بين كثير من مثقفى بغداد فى أواخر السبعينيات . فالفكرة السائدة تعتبر العراقيين العرب هم القوميون ، وتعتبر الأكراد ، فى أحسن الأحوال ، شعبا متخلفا . ويحتمل أن يكونوا طابورا خامسا . وتبنى فكرة مخالفة ، لذلك كانت تضطر صاحبها إلى تجاوز حدود الأفكار الدعائية الحكومية ، وإلى إعادة التفكير فى فكرة كردستان ، وفى نهاية الأمر ، فى فكرة الهيمنة العراقية ذاتها .

وكان ديالكتيك الصراع الطبقى هو موضوع أحدث كتب كمال مظهر المعنون : الطبقة العاملة العراقية : التكوين وبداية التحرك (بغداد ، ١٩٨١) . وهو يلقى الضوء ليس فقط على الفترة الزمنية التى يتناولها بل يشير بطريقة مباشرة إلى الوقت الحاضر أيضا .

ومن خلال منظور مقارن ، تبدو ملامح الكتابة التاريخية فى كل من الاتحاد السوفيتى والعراق متشابهة للغاية . فكتابة التاريخ لدى السوفييت ، اتسمت بتوتر طويل المدى بين الجانب الديالكتيكى الرومانسى ، والجانب الوضعى . وكان معظم المؤرخين ينتمون للجانب الثانى . وقد ظهر هذا التوتر أيضا فى كتابة التاريخ فى العراق . فبينما يمثل «كمال مظهر» الجانب الديالكتيكى الرومانسى ، هناك آخرون يمثلون الجانب الوضعى . مثال ذلك كتاب «عصام خفاجى» حول رأسمالية الدولة [٧١] .

وهناك وجه آخر للمقارنة بين كتابة التاريخ فى كل من العراق والاتحاد السوفيتى . فقد قام عدد من المؤرخين العراقيين بالقدر الأكبر من عملهم فى المنفى مختارين أو مضطرين وظلوا رغم ذلك ، مثل نظرائهم السوفييت ، مرتبطين عقليا بموطنهم الأصلى ، والبعض منهم ظل ذا تأثير فى العراق . وأحد الأمثلة المعروفة لذلك : «ماجد خضورى» ، وهو ليبرالى ، مارس التدريس والكتابة بتوسع حول التاريخ العراقى ، من مواقع أكاديمية مختلفة ، بداية فى العراق وبعد ذلك فى الولايات المتحدة . وحتى وهو فى الولايات المتحدة ، ظل «خضورى» على صلات وثيقة بالعراق ؛ حيث عمل مستشاراً للحكومة العراقية .

وإذا كان علينا بإيجاز أن نختار شخصيات ممثلة للمراحل المختلفة لكتابة التاريخ فى العراق الحديث ، فسوف نختار الليبراليين والرومانسيين ، كما فى حالة روسيا . مراعين ، على أية حال ، تأثير «دولة الأزمة» على مساراتهم البحثية . وأحد ممثلى «مدرسة الدولة» البارزين من ذوى التقليد الليبرالى ، كان «عباس العزاوى» . أما فى الفترة التى سادت فيها الدولة الإدماجية وبرزت فيها الطبقة الجديدة فإننا نختار : عبدالعزيز الدورى ، وهو قومى عربى ليبرالى . وقد سادت التاريخ العراقى ، فى فترة الانتقال إلى الليبرالية الجديدة ، شخصيات ذات طبيعة مؤسسية ، مثل «حسين أمين» . والفرق بين هؤلاء الثلاثة وبين نظرائهم السوفييت هو فيما يبدو : المدى الواسع للموضوعات التى لديهم حرية طرحها ؛ وغياب مركز القوة من مثل ذلك الحجم الذى كان يشغله «بوكروفسكى» فى الاتحاد السوفيتى ؛ وغياب المحاورين الليبراليين النظريين من مرتبة «روى ميدفيديف» فالمحاور المناظر لميدفيديف ، فى العراق ، وهو «سمير الخليل» مؤلف «جمهورية الخوف» ؛ كان يعيش بالمنفى (٧٢) .

والخلاصة هى أن هذا الفصل يدافع عن فكرة أن الطبقة الحاكمة فى العراق ، تبنت نوعا من الهيمنة ذات الطريق الروسى ، وأن استراتيجيتها ، على أية حال ، فشلت فى تشتيت قوى المعارضة الآتية من الطبقات الوسطى ومن الطبقة العاملة . وأنه نتيجة لهذا الفشل ، اضطر حكام العراق إلى تسيير البلد «كدولة أزمة» عليها دائما أن تمارس سياسة المذابح وأعمال العنف لتشتيت الصراع . والتنمية المؤسسية فى «دولة الأزمة» تنطوى على مخاطر معينة بالنسبة للحكام لأنها تمنح سياقا بنيويا للمعارضة المحتمل قيامها ضد النظام . وليس ثمة ما يدعو للدهشة ، فى أن التنظيمات المؤسسية ، مثل المؤسسات المهنية للطبقة الوسطى ، جاءت إلى العراق متأخرة ، ومورست ضدها إجراءات تعسفية ، حتى سمح لها بالعمل ، وعلى الرغم من هذه الصعوبات الموضوعية ، ظل الاهتمام الأكاديمى والشعبى فى مجالات مثل التاريخ واسع النطاق مثلما هو الحال غالبا فى دولة الطريق الروسى . وهذا الأمر يجعل مهنة التأريخ مجالا جديرا بالدراسة ، فهو مرآة حقيقية للهيمنة ذاتها .

وسوف يتناول الفصل التالى دراسة حياة إيطاليا الحديثة . ويوضح كيف أن المنطق الداخلى للتاريخ الإيطالى يختلف كلية عنه فى روسيا أو فى دول شمال أوربا ؛ التى غالبا ما تتم مقارنته بها . فهو يذهب إلى أن التاريخ الإيطالى يمكن مقارنته بصورة مثمرة بتاريخ مختلف بلدان العالم الثالث بما فيها الهند والمكسيك .

هوامش الفصل الثالث

١ – يبدأ التاريخ العراقى الحديث مع تعميم الرأسمالية على المستوى القومى ، وهى العملية التى انعكست فى الإصلاحات الليبرالية فى سبيعتيات القرن التاسع عشر . فقبل هذا الوقت كانت هناك رأسمالية على نطاق صغير ، وكانت هناك تجارة ترانزيت بين الشرق والغرب فى ثلاث مناطق : فى الشمال حول «الموصل» ، وفى مدن وسط الفرات وأهمها بغداد ، وفى الجنوب أى فى منطقة «الخليج» خاصة ميناء البصرة .

٢ – بخصوص الاطلاع على معلومات تميل إلى تحدى وجهة النظر الليبرالية حول التحول الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى والعراق ، انظر : Margaret Chadwick et al., Soviet Oil Exports : Trade AdJustments, Refining Constraints and Market Behaviour (Oxford : Oxford Univ. Press, 1987), 32,71-97

وبخصوص تصور أكثر عمومية حول عودة ظهور رأسمالية استهلاكيه داخل إطار اشتراكى ، انظر :

Samir Anin,Iral et Syie (Paris : Edition de Minuit, 1992);

وبخصوص النمو الهائل للبيروقراطية فى السبيعنيات . انظر :

Iraq 1963 - 1978- Towards a Reappraisal," Orient 23, no 2(1982) 206 - 219 esp. 210.

٣ – من الواضح أن معظم الكتابات أنتجتها المدرسة الليبرالية . ومن بينها ثلاثية ماجد خضورى ، انظر :

Iraq, A study in Iraqi Politics Since 1932 (London : Oxford Univ. Press, 1951); Republican Iraq : A Study in Iraqi Politics Since the Revolution of 1958 (London : Oxford Univ. Press, 1969); Socialist Iraq : A Study . in Iraqi Politics Since 1968 (Washington : Middle East Institute, 1978); Stephen Longrigg, Four Centuries of Modem Iraq (Beirut/London : Oxford Univ. Press, 1925); Iraq 1900 - 1950, A Political, Social and Economic History (Beirut : Lebanon Bookshop, 1986); Phoebe Marr, The Modem History of Iraq (Boulder : Westview Press , 1985,

فاضل حسين : مشكلة الموصل (بغداد ١٩٧٧) ، سقوط النظام الملكى فى العراق بغداد ١٩٨٦ .

Hanna Batatu, The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq (princeton : Princeton Univ, Press, 1978).

وفيما يختص بهذه الدراسة ، فإن الإسهام الأكبر للمدرسة الليبرالية تمثل فى إجراء مقارنة بين العراق وروسيا ، انظر :

Samir Al Khalil, Republic of Fear, The Politics of Modern Iraq (Berkeley Univ. of California Press, 1989)

والمقارنات التى عقدها «الخليل» بين صدام حسين وستالين تذكر القارىء بـ«روى ميدفيديف» وتوصيفه لشخصية ستالين ، والتى ورد تعليق عليها فى الفصل الأخير وبالإضافة إلى ذلك ، انظر :

"Le Nomenklatura Irakienne ou l'organisation du Pouvoir en Irak," Cahiers de L'Orient 8-9(1987 - 1988) : 341 - 351

وهو يستعير الاسم من الدلالة السياسية الروسية له .

وهناك دراسة رائدة للأدب السوفيتي والروسى فى علاقته بالأدب العربى الحديث خاصة فى سوريا . انظر : ماجد علاء الدين : «الواقعية فى الأدبين : السوفياتى والعربى» (دمشق ١٩٨٤) .

وقد أنتجت المدرسة الليبراليه فى العراق أيضا مؤرخا اجتماعيا ذا توجه عالمى من النوع الذي يوجد في روسيا والبلدان الأخرى ذات الطريق الروسى هو «على الوردى» ، انظر مثلا :

Ali al - Mardi and Fuad Baali, Ibn Khaldun and Islamic Thought - Styles, A Social Perspective (Boston : G.K. Hall, 1981) .

٤ – The Encyclopedia of Modern Iraq (Baghdad, 1978) 3v.; Abd Al - Aziz al - duri', The Rise of Historical Writing Among the Arabs (Princeton : Princeton Univ. Press, 1983).

٥– أحمد سوسه : « مفصل العرب واليهود فى التاريخ» (بغداد ١٩٨١) . انظر أيضا : مقالات فى مجلة الآثار العراقية ، سومر .

٦ – عبد الله فياض : الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ (بغداد ، ١٩٧٥) ، وانظر أيضا : كتابات عماد الدين خليل التى سترد لاحقا .

٧ – Wemer Ende, Arabische Nation und islamische Geschichte : die Umayyaden im Ur- teil Arabischer Autoren des 20. Jahrunderts (Beirut : OIDMG, 1977).

وللاطلاع على نقد المدرسة الطوائفية من زاوية الاقتصاد السياسى ، راجع :

Marion Faruk Sluglett and peter Sluglett, "Some Reflections on the Present state of Sun- ni/shi' i Relations in Iraq," Bulletin of the British Society for Misdle Eadtern Studiss 5(1978) : 79 - 87.

٨ – عصام الحقاجى ، الدولة والتطور الرأسمالى فى العراق ١٩٦٨ – ١٩٧٨ ، القاهرة ، ١٩٨٣ :

Muhammad Baqir Sadr (the "Gramsci of Iraq"), Our Philosophy (London : Muhammdi Trust/ KPI, 1987);

وأكثر الدراسات تبنيا لجرامشى حول العراق هى :

Abd Al-Salaam Yousif, "Banguardist Cultural Practices : The formation of an Alterna- tive Cultural Hegemony in Iraq and Chile, 1930's-1970's," (Ph.D. diss., Univ, of Iowa, 1988); see also his "The Struggle for Cultural Hegemony during the Iraqi Revoltion," in The Iraqi Revolution of 1958 : The Old Social Classes Revisited, eds. Roger Louis and Robert Fernea (London : Tavistock, 1991), 172 - 196 .

وللاطلاع على تفسير للسياسة العراقية من منظور «التنمية المتضافرة وغير المتساوية ، انظر :

Samira Abul- Haj, "Class Conflict and Political Revolution in Iraq : The Socio- Economic Origins of the 1958 Revolution," (Ph.D. diss UCLA, 1987).

وكتابات أحمد كمال مظهر وبيتر وماريون فاروق التى ستناقش لاحقا ، تنتمى إلى هذه الفئة .

٩ – E. Honigmann, "Karbala", Encyclopedia of Islam (Leiden : Brill, 1978), N.S., 4 638.

١٠ – غسان عطية ، العراق : ١٩٠٨ – ١٩٢١ دراسة اقتصادية اجتماعية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ٢٨ – ٢٩ ، ٣١ .

١١ – Walid Khadduri, " Social Background of Modern Iraqi Politics," (Ph.D diss., John Hopkins Univ., 1970), 67

١٢ – عبد الكريم العلاف ، بغداد القديمة (بغداد ، ١٩٦٠) ١٢٧ ، ١٤٦

• وللاطلاع على آراء أكثر معاصرة حول بغداد بالمقارنة بالريف ، انظر :

Habib Ishow, "L'Exode rural en Irak et ses Consequences economiqueș et sociales, "Afrique et Asie no 136 (1983) : 27 - 44

وللاطلاع على وجهة نظر سوفيتية حول نفس الموضوع ، انظر :

B. Khomelyansky, "Stabilising the USSR's Rural Population through Development of the Social Infrastructure, "International Labar Review 121, no. 1 (1982) : 89 - 100.

١٣ – Albertine Jwaideh, "The Saniya Lands of Sultan Adbul Hamid II in Iraq," in Ara-bic and Islamic Studises in Honor of Hamilton A. R. Gibb, ed George. Makdisi (Cambridge : Harvard NEL, 1965,) 326-7.

١٥ – والكتابات حول إسهام اليهود الروس فى روسيا تتبنى نفس وجهة النظر ، انظر مثلا :

Lionel Kochan ed. The Jews in Soviet Russia Since 1917 (New York : Oxford Univ. Press, 1978).

١٥ – W. Khadduri, op. cit., 38, 67; Encyclopaedia Judaica (Jerusalem, 1971), 4 : 89 - 90; Nissim Rejwan, The Jews of Iraq (Boulder : Westview Press, 1985) , 220

١٦ – عطية ، مرجع سابق ، ٦٢ وما يليها .

١٧ – خضورى ، مرجع سابق ، ٧٠ .

١٨ – إذا كان قليل من الكتاب الغربيين هم الذين يركزون على الدور السياسى للمسئولين الدينين فى روسيا أو العراق ، فليس هذا هو الحال فى كتاباتهم عن أمريكا اللاتينية ، فـ «بيرو» ، فى أمريكا اللاتينية يعتبر مثالا لنظم الطريق الروسى . وداعية لاهوت التحرير فى بيرو « جوستافو جوتير » يلعب نفس دور «الصدر» فى العراق . وللاطلاع على

دراسة حوله صادرة عن «معهد المشروع الأمريكي» فى واشنطن ، انظر :

Michael Novak, *Liberation South, Liberation* North (Washington : AEI , 1981) , *im, Passim.*

وثمة دراسة حول العراق لاتنتمى للمدرسة النمونجية ، هى :

Chibli Mallat, "Aux Origines de la Guerre Iran-IraK: L'Axe Najaf-Teheran," *Les Cahiers de l'Orient*, 3(1986) : 119-136, esp. 134

وهى تشدد على العوامل الداخلية التى تدفع العراق إلى شن الحروب متمثلة فى تزايد الصراع بين البعث والشيعة حول السلطة ، وأعتقد أن هذا الرأى صحيح .

١٩ – Walid Yusif Qaysi, "Social Background of Modern Iraqi Politics," (Ph.D. diss., John Hopkins Univ., 1970), 179.

وحول نمو عشيرة برزان فى كردستان ، انظر :

Robert W. Olson, *The Emergence of Kurdish Nationalism : The Shaykh Sa'id Rebellion, 1880-1925* (Austin : Univ. of Texas Press, 1989).

٢٠ – Marion Farouk Sluglett and Peter Sluglett, "Labor and National Liberation : The Trade Union Movement in Iraq, 1920-1958," Arab *Studies Quarterly* 5(1983) : 148.

٢١ – Elie Kedourie, "The Kingdom of Iraq : A Retrospect," The Chathiam *House Version and Other Middle- Eastern Studies* (New York : Frederick A. Praeger, 1970), 269

وهو يؤكد على ذلك معتبرا أنها نقطة تحول منهجى ، أى انتهاء ، عصر «الرجل الحر» ، لكن ذلك جاء متأخرا أكثر من اللازم .

٢٢ – Mohammad Tarbush, *The Role of the Military in Politics : A case Study of Iraq to 1941* (London : KPI, 1982), 102ff.

٢٣ – Edmund Ghareeb, *The Kurdish Question in Iraq* (Syracuse : Syracuse Univ. Press,

1981), 33

لاحظ أن البرزانى بعد اصطدامه مع النظام الليبرالى الأخير ، قضى سنوات كثيرة فى المنفى ليعود في ١٩٥٨ ، أى فى مرحلة أو توقراطية أخرى .

٢٤ - Tarbush, *op, cit.*, 146-9

وقد تلقى صدقى تحذيرات عديدة من أخطار تحدق به ، خصوصا من صديقاته النساء . وعلى ضوء صعود النساء الفقيرات فى المراحل الأوتوقراطية فى التاريخ الروسى ؛ يمكن استخدام هذه النقطة فى دراسة تاريخ النساء ، وهو مجال غير موجود تقريبا بالنسبة للعراق .

Longrigg, Iraq 1900 to 1950, 248

وقد تضمنت جهود صدقى لإيجاد تكامل فى المجال العمالى : أصدار القانون الأساسى للنقابات العمالية ، وقانون العمل رقم ٧٢ فى ١٩٣٦ . وقد ترجمت هذه القوانين وشرحت بالتفصيل فى :

Riadh Khadhiri, "Labor and Industry in Iraq," (Masters Thesis, Univ. of Mississippi, 1957), Chapter 4.

٢٥ - Longrigg, *Iraq 1900 to 1950*, 280ff

وفى ١٩٣٩ ، توفى الأمير غازى فى حادث سيارة ، وتولى السلطة عبد الإله ، الوصى على العرش .

٢٦ - Longrigg, *ibid.* Ch. 9.

٢٧ - Marion Farouk-Sluglett and peter Sluglett, "Labor and National Liberation...", 154.

٢٨ - Longrigg, *Iraq 1900 to 1950*, 354ff.

٢٩ - Longrigg, *ibid.*, 382; Marion Farouk-Sluglett and peter Sluglett, "Labor and National Liberation...", *im. Passim.*

٣٠ - Abuel-Haj,*op. cit.*, Ch.2. Marr, *op. cit.* 141-3;

٣١ - Majid Khadduri, *Republican Iraq*, *im. passim*,

٣٢ – Majid Khadduri, "Marriage in Islamic Law," *American Journal of Comparative Law* 26, no 2(1978) : 213-219.

٣٣ – دافع الاتجاه التقدمى الكردى ، متمثلا فى الحزب الديمقراطى الكردى ، عن هذه السياسة ، ورغم أن الحل القومى كان مستلهمًا من ستالين إلا أنه قوبل بمعارضة من قبل الحزب الشيوعى العراقى ذى النزعة الستالينية .

٣٤ – Majid Khaddur, *Socialist Iraq, im. passim.*; Marion Farouk Sluglett and Peter Sluglett, *Iraq Since 1958* (London : KPI, 1987), Ch. 4.

٣٥ – ربما يكشف المزيد من البحث ، على غرار روسيا الستالينية – عن أن رجال الأمن العراقى كانوا رجالا جددا ، وأنهم كانوا يشعرون بحقد طبقى تجاه الشيوعيين ، الذين احتل كثير منهم مواقعه منذ الجيل الأسبق أو العاملين فى قطاع الصناعات الحديث .

٣٦ – وقد قامت أعداد من النساء بالوعظ بالعامية حول موضوع «فاطمة» ، وظهرن في هذا الوقت ، وربما يكشف البحث الأعمق عن فئة مناظرة لنساء الطبقة الدنيا فى روسيا والمعروفين بإيمانهن العميق ، واللاتى خدمن بالكنيسة الروسيه فى المراحل الأوتوقراطية . انظر :

ا.ج عبد الرحمن ، الببليوجرافيا القومية العراقية ، ١٨٥٦ – ١٩٧٢ (البصرة ، ١٩٧٨) . ١ : ٣١٢

A.J. Abdulrahman. Iraqi National Bibliography, 1856-1972 (Basra, 1978) 1 : 312.

٣٧ – وبصدور هذه القوانين ، لم يعد ثمة أساس لوجود حزب شيوعى عراقى مستقل بعد أن أنجز حزب البعث المهام الأساسية التى يحتويها برنامجه . وكان أحد الرموز الهامة لأزمة اليسار تخلى المناضل الشهير عزيز الحاج عن الحزب . ففى هذه الفترة ، اعتنق المادية ثم ترك الحزب إلي حزب البعث فى ١٩٦٩ . انظر :

A.R. Kelidar, "Aziz al - Haj : A Communist Radical," in *The Integration of Modern Iraq*, ed A.R. Kelidar (London : Croom Helm , 1979), Ch. 11.

٣٨ – J. Havel and M.K Hita, "On Some Aspects of the Development of Agriculture in Iraq," *Agricultura Tropica et Subtropica*, 10(1977) : 43-53; N.K. Rashid, "Economic and Non-Economic Elements in Allocating Expenditues in Traditional Agriculture," (Univ. of Nottingham, Dept. of Economics, Discussion Papers, No. 12(1977) 9 Pages; R. Singh and Y. H, Sadiq, "Student Preferences in the Choice of Elective Subjects as Compared to the Country's

Needs for Various Specialization in Agriculture," *Mesopotamian Journal of Agriculture* 12, no. 2(1977) : 1 - 12; "Drug Trade to U.S." *Facts on File* 30 (no. 1534 (March 1970) : 194 Suggests Possible illegal Production.

٣٩ - Efraim Karsh, *The Iran-Iraq War : Amilitary A nalysis* (London : IISS, 1987), 15ff

٤٠ - Donald M. Reid, *Lawyers and Politics in the Arab World, 1880 - 1960* (Minneapolis : Bibliotheca Islamica, 1981), 324ff.

٤١ – عبد الله الجبيرى ، المجمع العلمى العراقى : نشأته ، أعضاؤه ، وأعماله (بغداد ، ١٩٦٥) .

٤٢ - A. Karouni, "Brecht in Irak," in *Brecht 80*, eds. Werner Hecht and others (Berlin : Henschelverlag Kunst und Gesellschatft, 1980), 57 - 66

هذه الصفحات تبين استخدام البعث للتراجيديا الملحمية بواسطة مخرجين مثل د. ليس العمارى ، التى يظهر مقالها ص ٤٣ – ٥٤ .

٤٣ - Salma Khadra Al - Jayyusi, *Trends and Movements in Modern Arabic Poetry* (Leiden : Brill, 1977), v. 1; Roger Allen, *The Arabic Novel An Historical and Critical Introduction* (Syracuse; Syracuse Univ. Press, 1982), 541

انظر : الرواية العراقية «الدكتور إبراهيم» لذى النون أيوب ، والرواية تعالج موضوع الطالب الذي يسافر إلى الغرب والذى على خلاف الابن فى رواية تورجنيف ، يفسده الغرب بالكامل .

٤٤ – الطليعة الأدبية السنة الثانية ، عدد ١ (١٩٧٦) : ص ٥١ ، ١٠٤ ، ١١١ ، وتتضمن ، هجوما على الأستاذ «عمر الطالب» – جامعة الموصل ؛ السنة الثانية رقم ٣ (١٩٧٦) تتضمن هجوما على دراسة الفولكلور الفلسطيني لتوفيق زياد

٤٥ – يتواكب تدهور اللغة على ما يبدو مع صعود الطبقة الجديدة فى أنظمة الطريق الروسى ؛ وبالنسبة للعراق انظر : بسمير الخليل ا مرجع سابق ، ص ص ٩٩ – ١٠٤ ؛ وبالنسبة لليابان انظر :

Peter Dale, *The Myth. of Japanese Uniqueness* (New York : St . Martin's Press, 1986).

٤٦ - Jabbar Audah Allawi, "Television and Film in Iraq: A Socio - Political and Cultural Study, 1946 - 1980," (Ph.D. Diss., Univ. of Michigan, 1983), 130.

٤٧ – بالنسبة لعلم اللغة فى الطريق الروسى يعتبر مفهوم ثنائية اللغة مفهوماً مهما ، انظر :

Salih Altoma, *The Problem of Diglossia in Arabic : A Comparative Study of Classical and Iraqi Arabic* (Cambridge : Harvard Univ. Press, 1969).

وللاطلاع على التفسير الطوائفى للعراق المذكور فى بداية هذا الفعل ، راجع :

Haim Blanc's *Communal Dialects in Baghdad* (Cambridge : Harvard Univ. Press, 1954).

٤٨ – Allawi, *op. cit.*, 106;

إحدى الوظائف الرئيسية للإعلام هى محاربة انتشار الإشاعات ، وهذا هو موضوع كتاب أحد كبار الشخصيات الإعلامية في العراق ، وهو عبد الجبار داود فى كتابه «فى الممارسة العلمية» (بغداد ، ١٩٧٦) وفي مجالات أخرى ، ارتبط انتشار الشائعات بنضال المرأة .

٤٩ – التوجه الذى تتسم به الصحافة العراقية الحديثة يشبه إلى حد كبير توجهات الإذاعة ، والتلفزيون ، والسينما ، فالقانون رقم ١٥٥ الصادر فى ديسمبر ١٩٦٧ ألغى الملكية الخاصة الصحف فى العراق ، وأدى إلى «صحافة التعبئة» وتدهورت من جراء ذلك مكانة الصحافة ، وأصبح الصحفيون مجهولين . انظر :

William Rugh, *The Arab Press News Media and Political Process in the Arab World* (Syracuse : Syracuse Univ. Press 1979), *im Passim*

٥٠ – Pierre Martin, "Le Clerge Chiite en Irak hier et Aujourd'hui," Maghreb Machrek nos. 115-118(1987) : 29-52

وبالإمكان إجراء دراسة تفصيلية حول الإيمان بوحدة الوجود الذى يظهر بصورة متشابهة كتصورات فلسفية فى المعرفة لدى كل من شيعة العراق وإيران وخاصة لدى الأرثوذكس الروس .

٥١ – Samuel N. Kramer, *History Begins at Sumer* (London : Thames and Hudson, 1958); Duri, *op . cit* ;

و : عماد عبد السلام رءوف : التاريخ والمؤرخون العراقيون العصر العثمانى (بغداد ، ١٩٨٣) . خاصة ص ص ١٨٤ – ٣٠١ التى تعلق على عدة مئات من كتاب التاريخ . والنبذ التى قدمها عن الصالونات الثقافية العراقية التقليدية ،

المجالس ، تشير إلى حياة ثقافية أكثر حضرية وأكثر ارتباطا بالتكوين الطبقى من دواوين الشعر أو مجالس القبائل فى الكويت أو الأردن .

وهناك دراسة الحياة الثقافية فى صالونات بغداد الحديثة لإبراهيم السامرائى هى « مجالس بغداد » (بغداد ١٩٨٥) . وهو امتداد للمؤلف الأقدم والأكثر شهرة لإبراهيم الدروبى «البغداديون : أخبارهم ومجالسهم » (بغداد ١٩٥٨) والذى تحدث عن صالونات الفترة العثمانية .

وحول الصالونات التقليدية فى روسيا ، انظر :

N.L Brodskogo, *Literaturnye Salony i Kruski* (New York G. Olms, 1984)

وحول تمنيات الشباب «فى الثلاثينيات ، أي التى تتمثل فى أن باستطاعة البغداديين» أن يلعبوا دور «بيدمونت» أو «بروسيا» ، انظر :

Reeva Simon, "The Teahing of History in Iraq Before the Rashid Ali Coup of 1941, *Middle East Studies* 22(1986) : 39, 45.

وقد بينت سيمون أيضا أنه بحلول ١٩٤٣ ، لم يعد العراقيون يبحثون عن نماذج أجنبية :

وقد استشهد أ. عبد الرحمن ، مرجع سابق ، القسم الثانى ، ص ٢٨١ ، بدراستين حول إيطاليا الحديثة والوحدة الإيطالية يرجع تاريخها إلى الثلاثينيات والأربعينيات .

Simon "The Teaching of History..," – ٥٢

وفى ص ص ٣٧ – ٥١ نلاحظ أن مناهج التعليم البريطانية كانت تسير على منوال المناهج العثمانية المتأخره من حيث تركيزها على اللغة والتاريخ القومى ؛ وأن البريطانيين أذعنوا فى مجال التعليم «للقومية العربية» التى كانت يمثلها ساطع الحصرى ، وأن الحصرى نفسه قد طوع المناهج التعليمية لتلائم ليبرالية العشرينيات فى العراق . فلكى يتوام مع العصر الليبرالى فى العراق ، تخلى عن اهتمامه الباكر بموضوع الأقليات والاختلافات اللغوية ، وأصبح مهتمًا بثقافة قومية عربية أكثر تجانسًا . وذهب إلى أن التاريخ ، يحتاج إلى نحات يشكل المادة التاريخية لتلائم القومية . ويمكن استشفاف بعض الأدلة على تطبيق هذه السياسة من تغير الموضوعات التى يتم التركيز عليها فى المراحل المختلفة . ففى المرحلة الليبرالية ، يصبح الأبطال الذين تتحدث عنهم المراجع الدراسية أقل عدداً وأكثر تنوعًا من الناحية الثقافية ، أى لايصبحون مجرد أبطال عسكريين . والعكس صحيح فى المراحل الأوتوقراطية ، مثل عهد بكر صدقى فى ١٩٣٦ . وفى المراحل الليبرالية ، يحتل التاريخ العراقى مكانة أعلى من التاريخ العربى والأجنبى . ففى ١٩٤٣ ، كان المصلحون العثمانيون المتأخرون أمثال : مدحت باشا وناظم باشا ، من بين من يرد ذكرهم . والعكس كان صحيحًا فى المراحل الأوتوقراطية .

٥٣ – عباس العزاوى ، «تاريخ العراق بين الاحتلالين» (بغداد ، ١٩٣٥ – ١٩٥٦) فى ثمانية أجزاء ، والكتاب الهام الثانى هو : عبد الرزاق الحسنى ، تاريخ الوزارات العراقية » (بغداد ، ١٩٦٥ – ١٩٦٧) فى ستة أجزاء ، أما الثالث فكان بحثاً مدرسياً ضخماً حول العرب قبل الاسلام هو : جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد ١٩٦٨) عشرة أجزاء .

٥٤ – صالح العلى ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى (بيروت ، ١٩٥٣) ، ١٩٦٩ الطبقة الثانية .

٥٥ – فاضل حسين ، «سقوط النظام» . ظلت الكتابة التاريخية تدور لفترة طويلة حول تاريخ الصفوة السياسية . وأحد كتب أواخر القرن التاسع عشر هو : إبراهيم الحيدرى ، « عنوان المجد فى بيان أحوال بغداد ، والبصرة ، ونجد» ، (بغداد ، ١٩٦٢) . والحيدرى يوحد بين التاريخ وبين أحداث حياة الشخصيات والعائلات البارزة ، التي تناولها بالدراسة .

٥٦ – Karl Jahn, "Universalgeschichte im islamischen Raum," in *Mensch und Weltoesd-cichte*, ed A. Randa (Salzburg, 1969),

وص ص ١٤٣ – ١٧٠ تلفت الانتباه إلى أن الأنواع الحديثة من الكتابة التاريخية ذات جذور قبل تاريخية فى الثقافة الإسلامية . فثمة عدد من الكتاب ، أبرزهم مكسيم رودنسون ، نظروا إلى الشرق الأوسط على أنه عمومًا يمتلك حداثة «ماقبل حداثية» فعلى سبيل المثال ، وجد رودنسون أن الرأسمالية كانت جزءا من الثقافة الإسلامية الكلاسيكية

انظر أيضا كتابى : الجذور الإسلامية للرأسمالية ، ترجمة : محروس سليمان ، مراجعة : رؤوف عباس ، دار فكر ، القاهرة ١٩٩٣ .

٥٧ – على الوردى وفؤاد بعلى : مرجع سابق ، انظر أيضا : الوردى : «دراسة في الطبيعة المجتمعية العراقية» (بغداد ، ١٩٦٥) ؛ والعمل الرئيسى للوردى هو «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» (بغداد ، ١٩٦٩) بستة مجلدات

٥٨ – شخصيات مثل : الدورى ، والعمر ، وحاليا نزار الحديثى ؛ استخدموا جميعا التاريخ الوسيط للهجوم على انتقادات اليساريين لعصرهم . فبالنسبة لهم ، لم تكن حركة الزنج ثورية ، ولم يكن العباسيون مستبدين . فالإمبراطورية العباسية كانت عربية ، ولم تكن تدين بشيء للتأثيرات الأجنبية . «وقد جمعت آراء العمر فى كتابه «التاريخ الاسلامى ، وفكر القرن العشرين» (بيروت ، ١٩٨٠) .

وانظر أيضا كتابه الحديث : «الجذور التاريخية للوزارة العباسية» (بغداد ، ١٩٨٦) .

وانظر «لنزار عبد اللطيف الحديثى» : الأمة والدولة فى سياسة النبى والراشدين (بغداد ، ١٩٨٧) .

وحول مناقشة الشعوبية عن «الدورى» ، انظر : الخليل : مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

ورغم أن بوكروفسكى» ، المؤرخ الروسى ، ذهب أيضا بروح مشابهة إلى حدما ، إلى أن ثورة بوجا تشيف لم تكن ثورية ، إلا أن اعتبار أن ثورة الزنج تعتبر نظيرا عراقيا لها ؛ مسألة تحتاج إلى مزيد من البحث .

٥٩ – فيصل سمير ، كتب أيضا كتابا ضخما عن الزنج هو : «ثورة الزنج» (بغداد ، ١٩٥٤ ، ١٩٧١).

٦٠ – صدام حسين ، «حول كتابة التاريخ» (بغداد ، ١٩٧٩) ص ١٠٩ وما يليها ، وقد كتب «نورى القيس» وهو إدارى بالجامعة ومسئول حزبى كتابا مماثلا حول الأدب هو : «الأديب والالتزام» (بغداد ، ١٩٧٩) .

٦١ – طارق الجنابى ، "Isalmic Archeology in Iraq. Recent Executions at Samarra" *Wlorld Archeology* V.14, no. 3(1982) : 305 - 327;

وحول الاقتصاد السياسى الأوسع لآثار ما بين النهرين ، انظر :

Vincenzo Strika, "Rivalita e ricerche archaologiche europee in *Mesopotamia,*" *Islam. storia a civilta* 2(1983) 166 - 177.

٦٢ – مقابلات فى بغداد ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٢ .

٦٣ – وبالإضافة إلى توينبى ، كانت الشخصية الأخرى موضع الاهتمام العام للمجلة هى : ابن خلدون ، المؤرخ الذى كتب أيضا تاريخًا عالميًا .

وكانت جميع التيارات داخل «الطبقة الجديدة» «تتصارع حول السيطرة على تفسير ابن خلدون . فبينما كانت معظم التفسيرات المألوفة مثل تفسيرات «على الوردى» و«محسن مهدى» ليبرالية ؛ كان هناك مؤرخ من الموصل ذو توجهات إسلامية هو عماد الدين خليل تناول ابن خلدون بوصفه إسلاميًا فى كتابه : «ابن خلدون إسلاميا» (بيروت ، ١٩٨٣) ، بينما ربط المفكر الاشتراكى عبد الرزاق مسلم ماجد بين ابن خلدون وماركس فى كتابه : ابن خلدون فى ضوء النظرية الاشتراكية (بغداد ، ١٩٧٦) .

والنظرة المجملة للدراسات العربية حول ابن خلدون تشير إلى أن كتاب بلدان الطريق الروسى والطريق القبلى يركزون على نظرية ابن خلدون حول فشل التاريخ فى التقدم المستمر ، وحتمية المراحل والدورات . أما بالنسبة لكتاب الطريق الإيطالى مثل الباحثين المصريين لابن خلدون ، يبدو ابن خلدون بوصفه رائد علم الاجتماع الأكثر وضعية وتبنيًا للنظرة التطورية .

٦٤ – يعرف النجار أكاديميى من خلال دراسته : «التاريخ السياسى لإدارة عربستان العربية» ، ١٨٩٨ – ١٩٢٥ (القاهرة ، ١٩٧١) .

٦٥ – اقتراحات حول تدريس التاريخ وتحديد أطره» ، مجله «أدب الرافدين» عدد«١» (١٩٧١) : ص ص ١٦٥ – ١٩٣ . وكتب حديثا : «حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي» (الدوحة ، ١٩٨٦) .

٦٦ – Yvonne Yazbeck Haddad, *Contemporary Islam and the Challenge of History* (Albany : SUNY Press, 1982), 188ff.

وهذا النص منقول عن كتاب خليل : «التفسير الإسلامي للتاريخ» (بغداد ، ١٩٧٥) وهو يتناول عدداً من الموضوعات من بينها تحليل مفصل ونقد لتوينبي .

وفي كتابه «عماد الدين زنكي» (بغداد ، ١٩٧١) ، اختار خليل موضوعا كان يأمل أن يكون جزءاً ملهما في التاريخ الإسلامي ، لكنه شعر بالقيود التي يفرضها عليه التقدم به لنيل درجة الماجستير من جامعة بغداد . وعرف أن «التاريخ العلمي» لامكان فيه للجماليات ولا للأدب ولا للشعر . وامتد هذا الشعور إلى أحكامه حول الكتّاب في مجال دراسته . فأحب الطريقة التي كتبت بها ايتين دني : ناصر الدين ، أكثر من طريقة برنارد لويس أو هـ.أ.ر.جيب اللذين قال عنهما : إنهما متخصصان : أي أنهما يدرسان موضوعهما دون التفاعل معه . وقد سبق خليل عصره إلى حد ما ، فأدخل التاريخ النسوي في كتابته عن زوجة زنكي . وفي مقال آخر ، دعا إلى إحياء المسرح باعتباره أسمى الطرق للتعبير عن الحياة . وفي هذا المقال ، أبدى رأيه حول كثير من النقاد الحديثين وذكر مشكلاته الشخصية مع الرقابة الدينية : في النقد الإسلامي المعاصر (بيروت ، ١٩٧٢) . ص ١٧٧ وما يليها .

٦٧ – أحمد سوسه : مرجع سابق .

٦٨ – «مجلة مجمع اللغة السريانية» عدد ٢ ، ١٩٧٦ ، ص ص ٤٤٥ – ٤٦٧ .

٦٩ – نفس المرجع . عدد ٣ (١٨٧٧) ص ٤٠٦ وما يليها . وهو خبير أوربي في اللغة السريانية ، وقد أشير إلى رأيه في أن السبب الذي أصبحت السريانية نتيجة له لغة أدبية هو إلى حد كبير أنها أختيرت لتكون وسيلة انتشار المسيحية في الشرق . ولم يكن مغتبطا لاستعمالها في الوقت الحالي كلغة لأنها ستكون بالتأكيد موضع خلاف في الرأي بين مستخدميها .

٧٠ – أحمد سهيل عليبي ، «ثورة الزنج» (بيروت ، ١٩٦١) ؛ ونبيه فارس «نشأة التأريخ العربي كانعكاس للصراع بين معاوية وعلي » في :

Historians of the Middle East eds. Bernard Lewis and P.M. Holt (London ; Oxford Univ. Press, 1962), 435 - 441

وقد واجه السوفيت أيضا تفسيرات مذهبية (دينية) للتاريخ الروسي لدى الباحثين المهاجرين بعد ١٩١٧ .

٧١ – خفاجي ، مرجع سابق .

٧٢ – تشمل كتابات «العزاوي» موضوعات مثل : دراسات في النقود العراقية : الضرائب : الفلك ، المؤرخين العراقيين في العصر الوسيط : القبائل العراقية ، ورجال الدين في بغداد .

ويمكن الاطلاع على وجهات نظر «الدوري» في كتابه : «التكوين التاريخي للأمة العربية» (بيروت ، ١٩٨٦) الطبعة الثالثة .

الفصل الرابع :

« الطريق الإيطالى » فى إيطاليا
من الدولة الحديثة حتى الوقت الحاضر
(١٨٧٠ - ١٩٩٠)

« الطريق الإيطالى » هو أحد أشكال الهيمنة الشائعة فى العالم الحديث وهو طريق تضع فيه الطبقة الحاكمة جماهير سكان منطقة معينة فى تضاد مع جماهير سكان منطقة أخرى كوسيلة لإخفاء الصراع الطبقى القائم فى المجتمع ككل . فهو نمط للهيمنة تسعى من خلاله الطبقة الحاكمة أو على الأقل أجزاؤها المنتمية للمنطقة المتسيدة اقتصاديا ؛ ليس فقط لتقسيم الطبقة العاملة لإضعافها سياسيا ، بل أيضا للاستحواذ على قوة العمل فى المنطقة الأضعف بشروط مواتية . ولكى يتحقق لها ذلك ، تبدى الطبقة الحاكمة استعدادا لمشاركة السلطة مع الطبقة الحاكمة فى المنطقة الأضعف . وعلى ذلك فمن المنطقى أن يعتمد النظام القائم على الطريق الإيطالى على إرادة الطبقة الحاكمة فى المنطقة الأضعف ، فى أن تقبل هذه المشاركة كوسيلة للحفاظ على منطقتها وعلى الوضع القومى . ويحاول هذا الفصل ، والفصلان التاليان ، استكشاف ثلاثة تنويعات للطريق الإيطالى كما تظهر فى إيطاليا ، وفى الهند ، وفى المكسيك [1] .

ويتكون هذا الفصل من أربعة أقسام : يقدم القسم الأول الطريق الإيطالى كنموذج تاريخى ويربطه بالمسار التاريخى الفعلى الخاص بإيطاليا . ويستخدم القسم الثانى هذا النموذج لدراسة إيطاليا من تأسيس الدولة الحديثة فى ١٨٧٠ (*) ، (الريزور جيمنتور) ص ١٩٩٠ ، أما القسم الثالث فيعالج الهيمنة فى إيطاليا كما تتبدى بشكل محدد فى تنظيم الثقافة . والقسم الرابع يعالج التاريخ وكتابته فى إيطاليا باعتباره جزءاً من عملية تنظيم الثقافة .

فالطريق الإيطالى للهيمنة ، هو استراتيجية سياسية لإخفاء الصراع الطبقى عن طريق تأكيد فكرة التفاوت بين المناطق . فقد استغلت أنظمة الطريق الإيطالى إلى الحد الأقصى وجود منطقة شمالية متقدمة . وفى حالة إيطاليا ، يضم «الشمال» مناطق «الوسط» و «الشمال الشرقى» ، وهى المناطق الأكثر حضرية والأكثر تصنيعا من «الجنوب» ، والتى تملك بالتالى ثقافة برجوازية قانونية أكثر مما يملك «الجنوب» ، الذى يتسم أكثر بأنه إقطاعى ، زراعى ، ثورة ثقافية ذات جذور تقليدية .

وفى ظل الفروق الشاسعة فى ثقافة المناطق المختلفة والتى تعمل هيمنات الطريق الإيطالى على أدائها ، يقدم السياسيون الباحثون عن السلطة أنفسهم بوصفهم

(*) Risorgimento : حركة البعث الإيطالية : حركة سياسية قومية حدثت فى القرن التاسع عشر ، حققت إيطاليا من خلالها وحدة أراضيها وقوميتها . (المترجم) .

شخصيات لها وزنها وليس باعتبارهم أصحاب أيديولوجيات محددة وبمجرد انتخابهم يتركون اتخاذ القرارات الفعلية للبيروقراطية التى تمتلك ميزة العمل خلف أبواب مغلقة .

وتتميز أنظمة «الطريق الإيطالى» ، فى حالتها النموذجية ، بحزب واحد مسيطر ، وحوله عدد وفير من الأحزاب الصغيرة ، يتحالف بعضها مع الحزب المسيطر . ويمكن تشبيه الحزب المسيطر الواحد بالمظلة التى تمتد عبر المجتمع بأسره ، شماله وجنوبه . ويرى بعض المراقبين ، أنه من المنظور الأمنى بالنسبة للهيمنة ذات الطريق الإيطالى ، فإن سيادة حزب واحد أكثر أمانا من نظام الحزبين الكبيرين . فوجود حزبين كبيرين ، قد يجعل أحدهما أكثر تركيزا فى إحدى المناطق عن سواها مما يهدد بتفكيك النظام ذاته .

وأنظمة «الطريق الإيطالى» تسير فى مراحل تاريخية يمكن التنبؤ بها . فقد نشأت فى ظل ليبرالية القرن التاسع عشر . وحينما تواجه بمطالب الطبقة الوسطى الدنيا ، تنكمش متحولة إلى النظام الإدماجى . وحينما تقل الضغوط تعود إلى النظام الليبرالى . وقد تحقق هذا المسار فى كل من إيطاليا ، والهند ، والمكسيك ، ودول أخرى ذات طريق إيطالى .

ويتخذ النظام الإدماجى ، فى دول الطريق الإيطالى ، أحد شكلين رئيسيين : إدماجية يمينية مثل : موسولينى فى إيطاليا ، أو إدماجية يسارية ، تسمى أحيانا «اشتراكية دولة» ، مثل : نظام «نهرو» فى الهند ، أو نظام «كارديناس» فى المكسيك . وكلا الشكلين للإدماجية من شأنه إخماد الصراع الطبقى عن طريق احتواء جماعات فى المجتمع المدنى ، على المستوى المعنوى على الأقل ، داخل الدولة . وخلال ذلك تميل الدولة الإدماجية إلى إصدار قوانين تمنع الاضرابات وسائر الأنشطة الجمعية المستقلة التى تتميز بها المرحلة الليبرالية للهيمنة .

وخصوصية الفاشية داخل النظام الإدماجى ، على مستوى شديد العمومية ، هى أنها للتوائم مع مصالح طبقة ملاك الأرض والفئات الرأسمالية الصغيرة والمتوسطة . وهى تعادى بشكل خاص اليسار والحركة النقابية العمالية . وتسعى إلى إعادة تنظيم قوة العمل من خلال الاتحادات .

أما خصوصية اشتراكية الدولة داخل النظام الإدماجى ، فهى أنها تفيد الطبقة العاملة المنظمة ، كما تفيد بطبيعة الحال مصالح الرأسمالية الكبيرة . واشتراكية الدولة

تعادى بشكل خاص الإقطاعيين . وغالبا تتبنى أنظمة اشتراكية الدولة برامج إصلاح زراعى واسعة النطاق لتحطيم الطبقة الإقطاعية . وكلا النوعين من النظام الإدماجى لا يخرج عن منطق الطريق الإيطالى ، ولا يسعى أى منهما لاستئصال طبقة الفلاحين . وهنا يكمن الفرق الأساسى بين الفاشية وبين النازية ، وهى الحركة التى كثيرا ما تعتبر مناظرة لها فى كتابات الباحثين التقليديين . فبينما تكتفى الفاشية كحركة سياسية بتبعية فئة سياسية صغيرة لها فى بلد يتكون . فى حالته النموذجية - من أغلبية فلاحية ؛ نجد أن النازية هى حركة جماهير ، هى جزء من الديمقراطية ، أى أنها جزء من نمط هيمنة مختلف تماما ، وفى أنظمة الديمقراطية يستطيع الحكام أن يخاطروا بالحركات الجماهيرية بينما لا يستطيعون ذلك فى أنظمة الطريق الإيطالى . ذلك أن الجماهير فى الأنظمة الديمقراطية تتكون من مواطنين ، أى من أفراد تكاملوا داخل النظام الثقافى والقانونى . وهذا يفسر الطابع الشمولى للنازية الألمانية مقارنة بالطابع المتجزئ للفاشية الإيطالية .

ويميل القادة ، فى هيمنات الطريق الإيطالى ، إلى تنظيم الثقافة على أساس المناطق ، مدعمين بذلك سياسة المناطق التى تأكدت على المستوى السياسى والاقتصادى . وبذلك نجد تقاليد ميتافيزيقية «جنوبية» من ناحية ، وتقاليد ليبرالية وضعية «شمالية» من ناحية أخرى . وسوف نبرزفى هذا الفصل ، بشكل خاص ، المسار الفكرى للفيلسوف الإيطالى بندتوكروتشه Bendetto Croce باعتباره مثالا بارزا للمثقف «الجنوبى» (٢) . كما سنعطى ، فى الفصول التالية ، نفس الاهتمام للشخصيات المناظرة فى المكسيك «جوس فاسكو نسيلوس» و «كريشنا مورتى» . والمنطق القائم وراء ذلك هو أن المثقف الجنوبى يلعب دورا رئيسيا فى الهيمنة ، بأن يقنع أهل المنطقة المستغلة بقبول الثقافة القومية .

ونحن نجد فى هيمنة الطريق الإيطالى ، مثلما هو الحال فى باقى أنماط الهيمنات ، أن زعماء الدين السائد يشكلون جزءاً متكاملا مع بنية السلطة . فمنذ أواخر القرن التاسع عشر ثمة تحالف واضح بين الدين والعلمانى . فالكنيسة الكاثوليكية ظلت طوال خمسة وسبعين عاما تقيم تحالفات مع الدولة الإيطالية وتفضها وتعيدها ثانية بطرق شتى . وشكلت اتفاقيات لاتران Lateran Accords نقطة هامة فى تلك العملية . فقد أصبحت الكنيسة بموجب هذه الاتفاقات قادرة على ممارسة نفوذها فى المجتمع المدنى

من خلال المنظمات الكاثوليكية المدنية المحمية بالقانون بالكامل . ونفس الشئ حدث فى المكسيك والهند فى وقت مماثل .

ويختلف دور الكنيسة فى الشمال عنه فى الجنوب ، ففى الشمال ، على سبيل المثال ، يلعب العامة الكاثوليك دوراً مهما كمصلحين . بينما فى الجنوب ، تجد أن الشخصية الدينية الرئيسية هى قسيس القرية . وقد عبر «كارلو ليفى» فى روايته الشهيرة «المسيح يتوقف فى ايبولى» ، بوضوح ، عن محدودية الدور الذى يلعبه القسيس . فالبنسبة للفلاح الإيطالى فى الجنوب ، المسيح هو الرب وليس الابن ؛ ومريم العذراء هى الربة ؛ والقديس يوسف هو أيضا إله . وفضلا عن ذلك ، فالرب حاضر هنا وليس فى السماء البعيدة ، لذلك فمن المؤكد أن الإنسان ينال ما يستحقه . وربما كانت هذه التصورات شائعة بين الفلاحين عموما ، إلا أن ما تتميز به أنظمة «الطريق الإيطالى» هى استجابة الدولة لها ، فهى مثلا تسعى إلى إصلاح الشمال لكنها لا تفعل ذلك فى الجنوب [٣] . وثمة وضع مماثل لذلك فى الهند أيضا . فالمصلحون الهندوس ، خاصة فى الشمال ، خاضوا نضالا طويلا ضد المعتقدات الشعبية حول الإله «أفاترا» كما تتصوره عبادات «رامى» ، وبدلا من ذلك يحث المصلحون جماهير الهندوس على احترام التقاليد السنسكريتية وما تتضمنه من تصور للإله «فشنو» كوجود متعال فى السماء .

والاتجاه الأكثر تطورا فى دراسة التاريخ داخل أنظمة الطريق الإيطالى هو الاتجاه الليبرالى [٤] . فالمدرسة الليبرالية تسود كتابة التاريخ فى إيطاليا ، وبالتالى يمكن اعتبارها إحدى خصائص هذا النمط من الهيمنة . والأفكار الأساسية لهذه المدرسة هى أن إيطاليا بلد أوربى وديمقراطى لكن بها بعض السمات المتوسطية والتقليدية خاصة فى الجنوب ؛ وأن الجنوب يتطور باستمرار منذ الحرب العالمية الثانية ، وذلك فأيا كان قدر الصواب الذى وجد يوما فى الفكرة الماركسية حول أن الجنوب قد تم الإبقاء على تخلفه عمدا ليظل مصدرا لقوة العمل الرخيصة ؛ فإن ذلك الوضع لم يعد قائما فى الوقت الراهن . خلاصة القول هى أن إيطاليا بلد ديمقراطى ليبرالى وأن الفاشية ليست سوى حالة استثنائية .

وترتكز المدرسة الليبرالية على صعود الدولة الحديثة ، وبخاصة على حركة التوحيد فى ١٨٧٠ . وهى ترى أن الأفكار الليبرالية والدراسات ذات الطابع الليبرالى هى القوة

الرئيسية التى بمقدورها التغلب على الاتجاهات الدينية والإقليمية . فإذا كان موسولينى يستحق التقدير لإنجازه «اتفاقات لاتران» ، ولحل «المشكلة الرومانية» ، فالليبراليون يرون أنهم يستحقون الإشارة بهم أيضا لدورهم فى جعل إيطاليا الحديثة بلدا علمانيا حديثا . وما يحفزهم إلى ذلك هو ما يجدونه من روابط ليس فقط مع أوربا الشمالية ، بل أيضا مع الماضى الكلاسيكى فى إيطاليا ذاتها .

وليس من الغريب أن تكون هناك مشاكل تواجه التحليل الليبرالى للتاريخ فى أنظمة الطريق الإيطالى . فالليبراليون يفترضون أن إيطاليا جزء من أوربا أو من التاريخ الأوربى ، وهذه النظرة ، تبدو من السطح وكأنها بلد استثناءات ، فبينما هى فى الواقع تعبر عن رؤية أيديولوجية خاصة . ذلك أن أوربية إيطاليا إنما تعنى اعتبار أن ما يشكل إيطاليا فى الحقيقة هو الشمال ، لأن الجنوب يعتبر أقل أوربية أى أقل إيطالية ؛ لأنه أكثر انتماءً إلى عالم البحر المتوسط .

فإذا أسقطنا الجنوب من التاريخ واعتبرناه ببساطة أرضا للفولكلور ، فإن إيطاليا بهذا المعنى – تصبح منتمية أو فى طريقها للإنتماء للديمقراطية ، مثلما أن ألمانيا ديمقراطية ، وأوربا هنا كلمة مرادفة للديمقراطية . لكننى سأتبنى هنا فرضية مغايرة . تلك هى أن الديمقراطية لكى تكون توصيفا ذا قيمة لنمط الهيمنة ، لابد أن تتوفر لها عدة خصائص محددة بدقة . ولنعد هنا إلى الملاحظة التى أبديناها حول الفرق بين الفاشية والنازية . فإذا استخدمنا مفاهيم ذات معايير ثابتة ، وجدنا أن المجتمعات ذات القاعدة الفلاحية العريضة حول البحر المتوسط ليست ديمقراطيات ، ما لم نبرز بصورة مبالغ فيها دور منطقة خاصة داخلها .

والرؤية الماركسية فى كتابة التاريخ الإيطالى كان لها التأثير الأكبر من بين الاتجاهات الرئيسية فى كتابة التاريخ حول نموذج الطريق الإيطالى الذى نفرضه فى هذه الدراسة . ويصدق هذا القول بصفة خاصة على التيار الماركسى قبل عام ١٩٤٥ ، أما بعد ذلك التاريخ فإن الطريق الإيطالى من المنظور الماركسى ، قد عفى عليه الزمن . فتحول كثير من الماركسيين الإيطاليين فى اتجاه الموقف الليبرالى الذى أوردنا ذكره سلفًا مخلفين وراءهم الماركسية الإيطالية الخاصة بالعشرينيات والثلاثينيات ، التى نستخدمها هنا .

وحقيقة أن النموذج الإيطالى يتعارض مع الصيغة السائدة حاليا للماركسية الإيطالية ؛ ليست بلا مغزى ، فهى على الأقل ، تلقى بظلال الشك على كفاءة استخدام هذه الماركسية لجرامشى . رغم ذلك ، فأنا أفترض فيما يلى أنه لا يزال من المفيد التمييز بين المصداقية طويلة المدى لتبصرات جرامشى ، وبين ما أسميه بالتكتيكات التى اختار الحزب أن يتبناها باسمه فى قبول الدولة الليبرالية بعد عام ١٩٤٥ ، وهى التكتيكات التى أعتقد أنها تتعارض فى نهاية الأمر مع منهج جرامشى فى معالجة التاريخ الإيطالى .

وإذن ، فالنقاط الهامة التى تتعلق بنموذج الطريق الإيطالى كما أعنيه هى : أنه لا تزال هناك «مسألة جنوبية» ، وأنه حينما تفشل الليبرالية سيصبح هناك احتمال لثورة أخرى من النظام الإدماجى ، وأن العصر الليبرالى الحالى هو إلى حد كبير رده للرأسمالية المالية التى سادت فى القرن التاسع عشر وأن عدم التوازن القديم بين القوة فى الشمال وفى الجنوب لم يشهد تغيرات أساسية نتيجة للنمو الاقتصادى فى فترة ما بعد الحرب ، لأن هذا النمو لم يعمل على تصحيحه ؛ وأن الحركات التى لعب فيها الجنوبيون دوراً هاماً (مثل الحركة الاجتماعية الإيطالية) لم يكن بمقدورها أبدا أن تكون أكثر من قوة أقلية داخل الأوضاع القائمة كما هى .

والدليل على صحة هذا التصور يظهر فى البحث التجريبى وفى النظرية على السواء . فدراسة حركة الهجرة ، والدراسات الفلاحية ، والتحليل من منظور النوع الجنسى ، ودراسات بنيات الأسرة ، ودراسة الثقافة الرفيعة والسياسة وارتباطها بالمناطق ؛ كل ذلك يدعم النظريات التى صاغها ماركس منذ مائة عام ، والتى صاغها جرامشى منذ خمسين عاما ، والتى تتعلق بالتشابه بين الهند وإيطاليا (٥) . فطبقا للباحث الماركسى المعاصر ، فيكتور كيرنان ، قدم جرامشى رؤية نافذة للنضال من أجل الاستقلال فى الهند . فبينما استبعد الماركسيون غاندى دون تردد ؛ رأى جرامشى أن ثمة إمكانات ثورية فى حركته . صحيح أن جرامشى حكم على غاندى بأنه فى نهاية الأمر منظر ساذج ، لكن ذلك لم يكن بسبب تدينه أو بسبب روحانية الشرق ، وإنما لاعتبارات استراتيجية . فمن وجهة نظر جرامشى ، تشبه الهند إيطاليا من حيث أن القوميين فيها ينتمون للنخبة ويتوجسون من تعبئة الجماهير . ونحن نرى اليوم ، أن هذه القراءة للتاريخ الهندى وفقا لنموذج الطريق الإيطالى ، حية وفعالة فى دوائر معينة .

وتشكل الرومانسية أحد العوامل الموجهة فى كتابة التاريخ فى إيطاليا وفى الكتابات الهامة عن إيطاليا التى كتبها باحثون غير إيطاليين . وهى تسهم فى تكوين نموذج الطريق الإيطالى جنبا إلى جنب مع الليبرالية والماركسية . وبينما تؤكد الوضعية والماركسية على التغير والتقدم ، تؤكد الرومانسية على التقاليد وعلى الاستمرارية . وفكرة جرامشى حول «المثقف التقليدى» ترجع فى جزء كبير منها إلى الرومانسية . وحينما يجد القوميون الجنوبيون أن ثمة استمرارية فى منطقتهم ، فإنهم يميلون إلى التعبير عن ذلك من خلال التوجه الرومانسى [٦] .

الاقتصاد السياسى لإيطاليا الحديثة

١٨٧٠ - ١٩٩٠

قاد الشماليون حركة الوحدة الإيطالية التى حدثت فى القرن التاسع عشر ، والتى ترافقت مع نمو الرأسمالية فى الشمال . ونتج عنها تأسيس مملكة إيطاليا فى ١٨٦١ . وفى عام ١٨٧٠ قامت مملكة إيطاليا بضم روما إليها . وتكون بذلك التشكيل الجديد لنخب الشمال والجنوب ، والذى استمر حتى اليوم مكونا إيطاليا [٧] .

وطوال الفترة من ١٨٧٠ حتى الوقت الراهن لم تواجه هيمنة الطبقات الحاكمة الإيطالية سوى قدر ضئيل من التحديات غير القابلة للحل ، على الرغم من ضعف الاقتصاد ، ومن الصراعات التى لا تنتهى بين الشخصيات القيادية . ونتيجة لذلك أصبح الحكام مستعدين لمخاطر تقلبات السوق الدورية وما أكثرها . وقد حالفهم الحظ فى أن تمكنوا إلى حد بعيد من جعل الطبقة الدنيا الجنوبية تهاجر شمالا إلى الضواحى الفقيرة فى المدن الكبيرة مثلما حدث فى الهند والمكسيك ومصر . ومن حسن حظهم أيضا أن اليسار لديهم تبنى موقفا ليبراليا من التغير الاجتماعى .

وقد حدث تحول كيفى فى الموقف السياسى لفترة قصيرة فى السنوات التالية الحرب العالمية الأولى . فخلال ذلك الوقت ، تبنت الأحزاب الاشتراكية والشيوعية استراتيجية جديدة فى تاريخ الراديكالية الإيطالية حتى ذلك الحين . فقد اتجهوا إلى توحيد نضال العمال والفلاحين . الأمر الذى أصاب الطبقة الحاكمة بالذعر ، وجعل كثيرا ممن ظلوا ليبراليين إلى ذلك الحين ، يتحولون إلى الفاشية ولا يعودون لليبرالية إلا مع انتخابات ١٩٤٨ [٨] . ووجود مثل تلك الفترة الاستثنائية لا يجب أن يحجب عنا . حقيقة أنه خلال مائة وعشرين عاما ظلت الرأسمالية المالية تلعب دورا رئيسيا فى الدائرة الاقتصادية ، وظلت الليبرالية متحدة مع الإقطاع تلعب دورا رئيسيا فى الدائرة السياسية .

ومنذ عام ١٨٧٠ ، أخذت المسائل الأساسية للهيمنة تجد حلولاً لها ، كما أخذت البيروقراطية تمارس وظائفها . وأصبحت هناك مركزية فى اتخاذ القرار ؛ فأصبح القرار يتسلسل من الإدارة الحكومية إلى المحافظات إلى الوحدات الإدارية الأصغر . والتدقيق فى اختيار الإداريين الحكوميين الرئيسيين كان يؤكد سيطرة الشمال . فمعظمهم ينتمى إلى نفس المنطقة التى تنتمى إليها النخبة السياسية ، أى إلى «البيدمونت» . وفى ظل هذه البيروقراطية المستتبة نشأت مؤسسة جديدة بمعنى الكلمة هى البرلمان .

وقد أثارت سيطرة الليبراليين على النظام مشاعر التوجس واليأس لدى الكنيسة والإقطاعيين . لكن الليبراليين أنفسهم شعروا باليأس لأن السياسة الإيطالية لم تكن تعبر عن اهتماماتهم إلا بدرجة محدودة . فقد شهد النظام كثيرا جدا من القيود والموازنات . فعلى سبيل المثال ، على الرغم من أن الليبراليين استخدموا الدولة لتوسيع نطاق سلطتهم ككل فى مواجهة الكنيسة ، إلا أن نجاحاتهم كانت شكلية أكثر منها فعلية . فقوانين سبعينيات القرن التاسع عشر ، المضادة للأكليروس ، أغلقت المؤسسات الدينية ، وفرضت الخدمة العسكرية على القساوسة وتعدت على حق الكنيسة التقليدى فى تعيين موظفيها بنفسها وفى تملك عوائد ملكياتها . وكان من الطبيعى أن تتسبب تلك الإجراءات فى فقد الكنيسة لسلطاتها الأساسية . وتساءل الكاثوليك فيما بينهم هل تحول البابا إلى مجرد «قسيس آل سافوى» (*) ؟ وهل سينتهى الأمر بالكاثوليكية إلى فقدان نفوذها بأكمله ؟ لكن مع نمو المجتمع المدنى ، ومع ازدياد قوة عامة الكاثوليك داخله ، وجدت الكنيسة طريقها إلى استعادة قوتها .

وقد سيطر الليبراليون أيضا على الرأسمالية المالية لتلك الفترة ، أى البنوك وشركات التأمين . وليس من المدهش أن نجدهم منغمسين فى حروب التعريفة الجمركية خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر . وقد لاحظ الدارسون لتلك الفترة أن القطاعات المختلفة للاقتصاد الإيطالى أخذت تتأثر واحدا تلو الآخر بالتغيرات فى التعريفة الجمركية . وفى النهاية ، أصبحت أكثر الاستثمارات أمنا هى التى تتعامل مع البنوك المرتبطة مع المصالح الأجنبية . وبطبيعة الحال ، أصبحت بنوك الاستثمار تلعب

(*) آل سافوى : the House of Sevoy : نسبة للأسرة التى حكمت ولاية سافوى ، التى كانت إيطالية ثم انضمت لفرنسا . وقد حكم آل سافوى لعدة قرون ولعبوا دوراً هاما فى السياسة الأوربية . (المترجم) .

دورا رئيسيا فى اقتصاد البلد . لكن ، لحسن الحظ أو لسوئه ، كانت تلك البنوك أيضا هى أكثر البنوك تعرضا للمضاربة . وكان ذلك جليا خاصة فى الأزمات الاقتصادية التى حدثت فى أواخر الثمانينيات . ولعبت المضاربات أيضا دورا رئيسا وغير موات فى تنشيط المغامرات الاستعمارية فى تلك الفترة .

فهل أصبحت نهاية العصر الليبرالى على مرمى البصر ؟ وهل يؤدى عدم الاستقرار فى الاقتصاد الداخلى إلى قلاقل متزايدة يمكن أن تتسبب فى سقوط النظام ؟ طرحت هذه الأسئلة وكانت إجاباتها بالنسبة للجيل الأول بالنفى . فبعد عام ١٨٩٦ ، جاءت فترة أكثر هدوءاً ، خاصة بالنسبة للشمال الصناعى . وأنقذ العصر الليبرالى آنذاك ، النمو الاقتصادى المفاجئ غير المتوقع حين أخذ يتحول من صناعات النسيج والصناعات الغذائية ، إلى الصناعات الهندسية والكيميائية والتعدين والسيارات الفاخرة . لعل الطلب الناشئ عن احتياجات ظروف الحرب بعد عام ١٩١٤ هو العامل صاحب الخط الأوفر فى تعزيز هذا النمو . وكان أمرا ذا دلالة أن النمو الذى حدث كان كله تقريبا فى الشمال ، بينما ازداد الفقر فى الجنوب .

والنمو المفاجئ له عواقبه إن آجلا أو عاجلا . وفى حالتنا هذه ، ولدت الحركات السياسية من حالة الرخاء التى وجدت لدى المستفيدين منه فى الشمال ، خاصة فى المناطق الحضرية . وكان من الطبيعى أن تفقد هذه الحركات الجديدة الصلة بالماضى ، وأن تتجه إلى المطالبة بنظام أكثر انفتاحا . وقد وجدت الدولة أن مطالبهم استفزازية فحاولت تحاشى نفوذهم عن طريق توسيع نطاق حق الانتخاب فى ١٩١٢ ، ليشمل كثيرا من سكان الريف المحافظين الأميين وعولت الدولة على معارضتهم لما كان يسمى بـ «الراديكالية» الجديدة فى المدن .

وعشية الحرب العالمية الأولى ، ورغم جهود الدولة ، لم يكن نظام العصر الليبرالى يعمل بسلاسة . فكثير من الجماعات السياسية غير المتوافقة استطاعت النفاذ إلى الساحة السياسية . مما جعل مهمة السيطرة عليها أكبر كثيراً من الحيل التقليدية للنخبة السياسية الصغيرة المنتمية للعصر الليبرالى الباكر .

وكما أوضحنا فى الفصول السابقة ، فإنه يمكن للأنظمة السياسية أن تفقد قدرتها على أداء مهامها ، بل وحتى أن تفقد شرعيتها ، لكنها مع ذلك تظل مستمرة ما لم تواجه بتحديات فعالة . وبمقدورنا هنا أن نتذكر أنه منذ ستينيات القرن التاسع

عشر ، لم تنقطع حركات احتجاج الفلاحين الإيطاليين فى الجنوب دون أن تحدث أى تغيير فى النظام . وكان بمقدور الدولة أن تستخدم الجيش ، وهو ما حدث بالفعل ، لقمع مثل تلك الانتفاضات . وفى الحالات الأقل حدة كانت تسمح بنشاط المافيا كقوة مضادة موازنة .

وفى أعقاب عام ١٨٩٠ ، أصبح بالإمكان رصد تحولات كيفية تدريجية فى قوى المعارضة . فقد ظهرت فى تلك الفترة فى صقلية ، روابط فلاحية ذات ميول اشتراكية وأخذت تكتسب التأييد من مناطق حضرية . وفى الحالات القليلة التى تدخل فيها الجيش ، تسبب ذلك فى افتضاح النظام السياسى القومى . وكان على البلاط وعلى النخب السياسية أن تتحمل عبء الانتقادات العامة لسلوك الجيش .

وجلبت الهجرة من الجنوب ، فى السنوات الأولى للقرن العشرين ، إلى وادى نهر بو فى الشمال ، أعدادا كبيرة من العمال المعدمين ، والذين تبنوا نزعة راديكالية . وكان الاقتصاد الجديد الآخذ فى التحديث فى تلك المنطقة بحاجة إليهم . وفى الوقت نفسه ، كانت الخبرة السياسية لهؤلاء العمال القادمون من الجنوب قد جعلتهم على درجة عالية من الوعى الطبقى . وكان ذوى الوعى الطبقى المتميز منهم يرفضون ببساطة ظروف العمل السيئة ويجتهدون لتشكيل روابط فلاحية . وفى عام ١٩١٩ ، لقى نضال العمال المهاجرين فى «وادى بو» دعما من اشتراكيى المدن . ففى مايو ١٩١٩ ، تبنى الحزب الاشتراكى فى «ثورين» خطا سياسيا جديدا . وتضمنت وثيقة الحزب ، بتأثير جرامشى ، الاستراتيجية الشهيرة الخاصة بمجالس المصانع . فقد رأى الحزب أن مجالس المصانع والمزارع تشكل الخطوة الأولى فى الطريق إلى الحكومة العمالية . وبحلول عام ١٩٢٠ ، ومع ازدياد النضال العمالى ، اضطرت الحكومة إلى احتلال المصانع فى «ثورين» حتى تستعيد سيطرة الرأسماليين عليها .

كانت هذه الأزمة المفاجئة للدول الليبرالية واضحة للجميع . وبينما كان اليسار هو الذى دفع الحكومة إلى التحرك وعلى ذلك النحو ؛ كان الفاشيون هم الذين انتهزوا الفرصة لصالحهم . ويبدو أنه كلما كان الاشتراكيون فى «وادى البو» وفى «توسكانيا» أكثر تنظيما ، كلما تحول ملاك الأراضى فى «توسكانيا» إلى الفاشية وفرقها الهجومية على نطاق واسع . وكانت عصابات البلطجة فى الريف تظهر ليلا فى «توسكانيا» فى كافة أنحاء «وادى بو» ، وتهاجم منظمى النقابات العمالية وترغم العمال على الانضمام إلى النقابات الفاشية . وقد بقى موسولينى نفسه ، خلال أوائل العشرينيات ، فى

«ميلانو» بعيدا عن مشاهد العنف الفعلية . وحينما انهارت الليبرالية ، أصبح يشعر بالرضا وهو يرى كوادر حزبه الفاشى القومى يتزايد عددها بصورة مطردة . وقد تصورت الليبرالية ، بدافع اليأس ، أنه من المنظور الاستراتيجى ، عليها أن تسمح للفاشيين بدخول البرلمان حتى تتمكن من الإيقاع بهم . لكنه مع حلول العشرينيات كان الوقت متأخرا بالنسبة إلى ذلك ، فارتدت الاستراتيجية ضدهم وأصبح الليبراليون هم الذين وقعوا تدريجيا فى الشرك . وفى خطبته التى ألقاها فى ٣ يناير ١٩٢٥ ، أعلن «موسولينى» أن حزبه قد استولى على السلطة ، وفرض القيود على الصحافة ، وعلى أحزاب المعارضة . وأعلن تأسيس دولة قوية .

فما هى الدولة القوية ؟ اختلف المؤرخون اختلافات شاسعة حول هذا الأمر فبالنسبة لمن يتبنى منهم نظرية «الرجل العظيم» ، فالرجال العظماء يصنعون دولا قوية . لكن على ضوء تحليلنا هنا ، يعتبر هذا القول غير دقيق ، بل يبدو أنه إلى حد ما يدور حول نفسه . فتحت حكم موسولينى ، دخلت إيطاليا ببساطة فى مرحلة الدولة الإدماجية . أى فى تحالف بين الطبقات سوف ينفض فى نهاية الأمر . وتشكل دولة قوية – وأنا أفضل تعبير قوة عظمى – لا يتطلب بالضرورة ديكتاتورية أو حتى شكلا جديدا للهيمنة ، وإنما يتطلب تحالفا طبقيا . وطوال الفترة التى ظلت فيها إيطاليا قوة عظمى ، كان هذا هو السبب .

وقد استمرت الحياة فى عهد موسولينى ، فى نواح كثيرة ، كما كانت من قبل . فهو ، مثلا ، لم يفرض نظام تعبئة يعطل المسار المعتاد للحياة اليومية . فكان رئيس الشرطة من بين قيادات الشرطة الرسميين ، ولم يكن هناك بوليس سياسى على غرار الـ SS (*) . وقد أنشئت محاكم خاصة للدفاع عن الدولة – وهى التى أدانت جرامشى – لكن موسولينى لم يحاول استخدام المحاكم الخاصة أو ما ماثلها لتحويل النظام القضائى القائم إلى نظام فاشى . وقد قبل إلى حد كبير ، المؤسسات المهنية التقليدية كما كانت بما فيها المؤسسات العسكرية .

ويمكن القول : إن الفائز الأكبر فى التحول الفاشى ، كانت البيروقراطية التقليدية أكثر من الحزب نفسه . فقد احتفظت ، مثلا ، الهيئات الإدارية للدولة ، بسلطتها فى إدارة المقاطعات على النحو الذى أراده موسولينى . وكان احتمال بعث الراديكالية

(*) الحرس النازى الخاص .

الفلاحية قائما على الدوام ، وكان موسوليني يخشى حدوث ذلك . وكان الحزب الفاشى قد نما بعد استيلائه على السلطة ، لكنه أثناء نموه ذاك أخذ يعانى من حالة سيولة نتيجة أنه أصبح يجذب إليه الباحثين عن المنفعة أكثر من الفاشيين . وعلى سبيل المثال ، فإن كثيرا من الكتاب والأساتذة ، إن بطريق الصدفة أو عن عمد ، انتعشت أنشطتهم ، بل وكان بعضهم يتلقى المعونات ، وظل البرلمان يؤدى عمله ، وظلت إيطاليا ملكية ، وظلت مساندة الدولة للكنيسة قائمة بل زادت عن ذى قبل .

وقد أدخل الفاشيون ، فى اقتصاد المدن ، تعديلات على مستويين : مستوى الحركة النقابية ، ومستوى الصناعة ، وكلا المستويين كانت تديرهما الدولة . وكان كلاهما ذا أهمية للدولة ، إلا أن تأثيراتهما طويلة المدى لم تكن كافية لتغيير نمط توزيع القوى فى المناطق . فقد نجح الفاشيون فى البداية فى تخفيض أجور عمال الصناعة عن طريق حل نقاباتهم ، لكن ظروف الحرب جعلت الحكومة تعتمد على إنتاجهم مرة أخرى . وبحلول عام ١٩٤٣ ، استطاع الشيوعيون وغيرهم أن يضغطوا لرفع الأجور التى سبق تخفيضها .

أما فى مجال الاقتصاد الريفى ، فأهم الإجراءات الجديدة التى اتخذها الفاشيون هى الإصلاح الزراعى . وقد اكتسبوا من خلال ذلك بعض التأييد من قبل الفلاحين ، لكنه لم يكن كافيا لتحقيق أهدافهم . وحين شن موسولينى حملته الشهيرة لرفع إنتاجية القمح ، وهى حملة تستهدف تحرير إيطاليا من اعتمادها على استيراد الغذاء ، دخل فى مشاكل مع الفلاحين . وحينما بدأت الحكومة توزع الطعام بنظام الحصص ، الأمر الذى كان ضروريا بسبب ارتفاع تكاليف استيراده ، أصبح على الفلاحين أن يبيعوا محاصيلهم للدولة بأسعار ثابتة . وقد قام كثير من الفلاحين بتخريب هذا النظام ، إما باستهلاكهم المحاصيل بأنفسهم أو ببيعها فى السوق السوداء . وكان ذلك أكثر وضوحا فى الجنوب .

ومع الثلاثينيات بدأت السوق السوداء للمحاصيل الزراعية تؤثر على الوضع السياسى . وتخلت الدولة على مضض عن مشروع الإصلاح الزراعى ، وشجعت العودة إلى نظام المزارعة كوسيلة لضمان السيطرة على المحاصيل . ويعد هذا الموقف أشد مواقف موسولينى جرأة فى التخلى عن الطريق الذى تسير فيه الطبقة الحاكمة الإيطالية نحو الرأسمالية [٩] . وربما أشار ذلك الموقف بوضوح إلى الطبيعة الحقيقية لهذه الطبقة فى إيطاليا .

ولعل من المفيد هنا مناقشة دور الكنيسة فى الهيمنة ، لأهمية ذلك فى تحليل تلك الفترة . فالنظرة المدققة فى أواخر العشرينيات تبين أن كلا من الحزب والكنيسة كان يشعر بالإحباط تجاه «المسألة الرومانية» ويرغب فى حلها . فروما هى فى نهاية الأمر عاصمة موسولينى ، وتأييد مدن الشمال الإيطالى له أقل ، لأن تلك المدن هى معقل الليبراليين واليسار . وهو لذلك فى حاجة إلى تأييد روما . وهو يحتاج الكنيسة أيضا ، فوضعها وأيديولوجيتها متداخلة مع وضعه وأيديولوجيته هو . والفاشية تستند ، رغم كل شئ إلى المحافظة على التقاليد ، مثلها مثل الكاثوليكية . وقد كانت هذه السمة أحد عوامل جاذبيتها للجماهير الشعبية فى مواجهة حداثية الليبراليين . والفاتيكان ، من الناحية الأخرى ، يحتاج روما ويحتاج وضعية مضمونة وشرعية . لذلك توصل كل من موسولينى والكنيسة إلى أكثر الاتفاقات شمولا بين الكنيسة والدولة فى التاريخ الحديث وهى «اتفاقات لاتران» (*) (١٩٢٩ - ١٩٣١) . غير أنه بمجرد أن أصبحت هذه الاتفاقات قيد التنفيذ ، استطاع الفاتيكان ، باعتباره المؤسسة الوحيدة التى تعمل قانونا فى استقلال عن الدولة ، أن يعارض الفاشية (١١) . وأيًا كان الأمر ، ألم تكن الكنيسة دائما معارضة للحزب الحاكم ؟

ودعونا نوضح هذه النقطة الأخيرة لأن معظم ما كتب حول الهيمنة يدور حول التآلف والانسجام بينهما ، ولا نجد من الكتابات التى تحدثت عن الصراع بينهما إلا قليلا . ففى صراع القوة بين موسولينى والكنيسة من أجل السيطرة على اتجاه الثقافة والسياسة كانت الغلبة لموسولينى لكنه ظل غير قادر على تطويع بنية المؤسسة الدينية وفقا لإرادته . فقد كان باستطاعته تهديد الكنيسة وهو ما قام به فعلا ، وجذب إلى صفه ، نتيجة لذلك ، بعض القيادات الدينية ، لكنه أخفق فى أن يجذب إليه الكنيسة كمؤسسة ، وأخفق بقدر أكبر فى أن ينال تأييد البابا . وهكذا ، فحين أغلق بعض الكليات اللاهوتية فى الجامعات الإيطالية ، وأرغم رجال الدين الأقل تعاونا معه على تحمل الأعباء المالية لدعم الآخرين منهم ؛ بدا أنه قد اكتسب بعض النفوذ داخل الدوائر التعليمية الكاثوليكية . لكن نجاحه ، كما أشار نفاك ، لم يتعد السطح الخارجى . فهو لم يكسب فى الواقع ولاء رجال الدين (١٢) .

(*) Lateran Accords (Treaty) اتفاق عقد بين الفاشية الإيطالية وبين المؤسسة البابوية ، وأنهى الصراع بين الدولة والكنيسة الذى نشأ منذ ١٨٧٠ . وأقرت فيه الدولة الإيطالية بسيادة الفاتيكان ، وبالكاثوليكية بوصفها الدين الوحيد للدولة . واعترفت البابوية من جانبها بالدولة الإيطالية وقبلت التنازل نهائيا عن أراضى أخرى تمتلكها . (المترجم) .

فخلال الحقبة الفاشية ، تبنى البابا موقفا دفاعيا فى شكل نزعة تصوفية منتظرا نهاية عهد موسولينى . إذ من الصعب على الدولة أن تضطهد متصوفا . وتبنت العقيدة الكاثوليكية فى تلك الفترة مسحة تصوفية ملائمة [١٣] . وقد دعا القس الدومينيكانى «چورچيو لابيرا» فى كتابه واسع التأثير المسمى Principi (المبادئ) ، إلى فاشية ذات طابع مسيحى . فقد أحل «لابيرا» فى هذا الكتاب ، الفكرة الصوفية حول اتحاد «الروح» بـ «الإله» ، محل مبادئ الفاشية ، وأضاف إلى هذه الفكرة نبذا مستخلصة من مواقف سابقة أدانت فيها الكنيسة شرور القرن العشرين : عبادة الدولة ، والتعصب العرقى ، ومعاصرة البروليتاريا .

ولم تقدم الكنيسة على تبنى التصوف دون ممارسة قدر من التجربة والخطأ . ففى أوائل الثلاثينيات ، وقفت الكنيسة إلى جانب الفاشيين ، باسم القيم التقليدية ، ضد حزب الشعب Partito Populare ، وهو حزب سياسى كاثوليكى ذو مسحة ليبرالية . وفى عام ١٩٣٩ ، أقر البابا بيوس الحادى عشر بأن هذا الموقف كان خطأ ؛ وأن الفاشية كانت أشد خطورة من الليبراليين الكاثوليك . على أن تلك السنوات العشر بددت فيما يبدو إمكانية قيام تحالف كاثوليكى – يسارى ضد الفاشية [١٤] .

على أنه رغم تلك الحقيقة ، ظلت الكنيسة نشطة فى مجالات يهتم بها اليسار ، فعلى سبيل المثال ، فى الأعوام الأخيرة للفاشية وقبل عودة الليبرالية عام ١٩٤٨ ، وبينما النضال العمالى فى الشمال فى أوج قوته ؛ رأت الكنيسة أن تلك فرصة ملائمة لكسب النفوذ بتبنيها موقفا توفيقيا تجاه مشاكل العمال من خلال الاتحادات النقابية الكاثوليكية . وبذلك امتلكت الكنيسة ورقة رابحة : فالمدخل التوفيقى كان أكثر المواقف ملاءمة فى وقت لم يكن فيه أى من العمال أو الرأسماليين بمقدوره التغلب على الآخر [١٥] . وأدى ذلك الموقف إلى زيادة رصيد القيادة الكنسية ، وأعاد للكنيسة مكانتها فى مجال السياسة الاجتماعية . إذ بذلك استطاعت الكنيسة أن تدلل بصورة معقولة على أن مذهبها التوفيقى التقليدى كان يشكل مدخلا إلى حل مشكلات سوق العمل ، أكثر عقلانية وتوفيرا للجهد من مدخل الفاشيين الذى يعمل على دعم الفلاحين الإيطاليين فى ليبيا أو السماح لهم بالهجرة إلى بلدان أخرى ؛ ومن المدخل الماركسى الذى يتبنى الصراع الطبقى [١٦] . وفى الوقت نفسه حقق الحزب الحاكم أحد أهدافه ، فالحل التوفيقى لمشكلات العمل فتح الطريق أمام الرأسماليين فى الشمال لكى يستغلوا قوة العمل الجنوبية فى المزارع والمصانع .

وقد استطاعت الكنيسة أيضا أن تمارس نفوذا فى مجالات أخرى مثل التعليم والرعاية الاجتماعية والقانون . وهى مجالات كانت الفاشية ، على مستوى النظرية والممارسة ، تشكل تهديدا لها . ولم يكن موسولينى ، طبعا ، هو أول أو آخر سياسى يحاول ، مثلا ، تجاهل النظام القانونى . لكن ، هناك حتى بالنسبة لموسولينى ، موضوعات خاصة تطرح نفسها فى هذه الحالة تكشف عن المحدودية المتأصلة فى العمل خارج القانون أو فوقه وتلك ملاحظة أخرى .

ويكفى هنا أن نناقش أحد هذه الموضوعات . فقد احتاج الفاشيست إلى مساعدة اليهود للاحتفاظ بروابطهم المالية الدولية . وكان على موسولينى ليحصل على هذه المساعدة أن يضمن حقوق الجماعة الاجتماعية اليهودية ، أى أن يلتزم بالنظام القانونى والمالى . لكنه على أية حال لم يستطع ذلك بسبب تحالفه مع ألمانيا . وبطبيعة الحال فشل فى الحصول على دعم اليهود ، وفتح على نفسه باب الانتقادات لما كان يحاول فعله . فحتى الفاتيكان أفاد من هذا الخطأ ومن معاملته لليهود عموما . وفعل ذلك باسم التشريع الإيطالى وباسم الأخلاق المسيحية على السواء [١٧] .

وبحلول عام ١٩٤٢ كانت النكسات العسكرية ، والركود الاقتصادى ، وغياب برنامج سياسى لتحرير إيطاليا من التزاماتها تجاه ألمانيا وتجاه المستعمرات ؛ كلها عوامل أسهمت فى التحرر من سحر الفاشية وأوهامها سواء فى المستويات الدنيا أو العليا ، وهى عملية تجاوزت بكثير الصراعات داخل الدوائر الحاكمة مثل الحزب ، والكنيسة ، والبرلمان ، والعرش .

وفى عام ١٩٤٣ ، اعتقل الملك موسولينى وعين مارشال بادوجليو رئيسا للحكومة الانتقالية للعودة بإيطاليا إلى دولة يسودها القانون . وكان الانتقال عملية صعبة . فقد أصبحت إيطاليا للمرة الأولى ساحة حقيقية للمعارك . فلم تعد متحالفة مع ألمانيا . واحتلتها القوات الألمانية . وتمكنت فى غارة جريئة من تحرير موسولينى ونقله إلى الشمال ؛ حيث ختم حياته السياسية بأن أصبح رئيسا «لجمهورية سالو» وهى مدينة صغيرة عند بحيرة فى منطقة خاضعة للاحتلال الألمانى .

وفى مارس ١٩٤٤ ، اعترف الاتحاد السوفيتى بجمهورية بادوجليو فى روما . وكان لهذا القرار تأثير عميق على مجريات الأحداث التالية . فأولا وقبل كل شئ ، أعلن الحزب الشيوعى بقيادة بالميرو تولياتى مساندته للحكومة . وهذا الموقف بدوره أنهى

بالكامل احتمال قيام ثورة اشتراكية . وكان باستطاعة الحركة الحزبية الإيطالية فى الشمال ، أن تزيد من قوتها لو منحت حرية الحركة لمواصلة العمل ، وربما أصبحت إيطاليا دولة اشتراكية . لكن مع مساندة الحزب الشيوعى للدولة ، أخذ العصر الإدماجى يشهد فصل الختام . وتمثل ذلك فى انتخابات ١٩٤٨ ، التى فاز فيها الديمقراطيون المسيحيون وعاد معهم العصر الليبرالى .

الليبرالية فى إيطاليا من ١٩٤٨ إلى الوقت الحاضر

كانت انتخابات ١٩٤٨ علامة البعث الرسمية «للجمهورية» للبنية الحزبية القديمة المساندة لليبرالية وللرأسمالية المالية ، وهى جميعا ملامح تشكل أساس العصر الليبرالى . ولما كان اليسار جزءا من النظام . فقد اتخذت الليبرالية فى إيطاليا شكل دولة الرفاه ، وظلت الدولة تلعب دورا مستمرا فى التنمية .

ومن موقفنا الحالى عام ١٩٩٠ نستطيع أن نقول أن انتخابات ١٩٤٨ كانت علامة لميلاد حقبة جديدة ، لكن روابطها بالماضى كانت أكثر مما يذهب إليه كثير من الباحثين . فبعد عام ١٩٤٨ ، كانت هناك عودة مثيرة للإعجاب للمجتمع المدنى ومؤسساته . لكن إلى أى مدى يشكل ذلك قطيعة مع التاريخ الإيطالى السابق ، وإلى أى مدى يعتبر تأكيدا من جديد على الفروق السائدة بين مختلف المناطق داخل البلد ؟ فالنظرة المدققة تجعلنا نرى أن عودة المجتمع المدنى فى الشمال كانت ظاهرة بارزة . فمؤسسات المجتمع المدنى تشارك فى الحكم . بينما فى الجنوب كان الوضع مختلفا . فالمجتمع المدنى ظل ضعيفا ، وسياسات الإصلاح الزراعى لم يتم تنفيذها إطلاقا . فالمجتمع المدنى فى الجنوب ، هو تعبير يتسم أساسا بالتناقض .

والذين يزعمون أن ما حدث فى ١٩٤٨ ، كان يمثل ما هو أكثر من انتهاء حالة كانت استثنائية ؛ يواجهون مشكلتين : الأولى هى كيف نفسر الاستمرارية مثلا فى عمل البيروقراطية ، والثانية هى كيف نفسر كل التغيرات التى حدثت . ففى فترة الفاشية فتحت الأبواب للجنوبيين بأعداد كبيرة . وبعد عام ١٩٤٨ ظلت مناصب هامة فى القضاء وفى إدارات الدولة وكذلك الرتب الصغيرة فى الجيش فى أيدى الجنوبيين . أى أن التغيرات التى أتى بها الفاشيون ظلت قائمة .

ولنعد إلى الموضوع الأصلى . فما الذى حدث للكنيسة بانتخاب المسيحيين الديمقراطيين ؟ يتوقع المرء هنا أن حزبا من المتدينين سوف يفتح الباب للفاتيكان ، وأن

الحرب بين الكنيسة والدولة سوف تنتهى . وهذا بالفعل ما حدث بصورة جزئية ، فقد اكتسبت الكنيسة سلطة كبيرة خاصة فى سنوات ما بعد الحرب . لكن الصراع بين الكنيسة والدولة استمر كما كان فى السابق . غير أنه اتخذ الصيغة التى كان عليها فى المراحل الليبرالية الباكرة . فالدستور الإيطالى الجديد أكد على امتيازات الكنيسة ، جاعلا إياها شبه دولة داخل الدولة . فإذا قامت الدولة بتقديم المعونات لتغطية رواتب القساوسة ونفقات المدارس الكاثوليكية ، فإن ذلك يعطيها القدرة على ممارسة نوع من التحكم فى تعيينات المراتب العليا من رجال الدين ، وعلى الاعتراض على حصول الكنيسة على عطايا . وهكذا يتضح أن الصراع سوف يستمر ، وسوف يحارب كل من المنظمات الكاثوليكية الانتماء والمنظمات المعادية لرجال الدين بعضهم بعضا .

وقد كانت فترة ما بعد الحرب فترة نمو فى كثير من البلدان ومنها إيطاليا ، التى سرعان ما دخلت فى مشكلات الأنظمة الليبرالية التى تشهد عملية نمو ، وهى مشكلات تذكرنا بتلك التى حدثت فى منعطف القرن .

وبحلول عام ١٩٦٣ ، كانت نشاطات النقابات العمالية فى تزايد . وكان العمال المهاجرون من الجنوب إلى سوق العمل فى الشمال قد أثبتوا وجودهم أيضا . وكانت الإضرابات والنضالات فى القطاع غير الحكومى قد أصبحت أكثر قوة . وإزاء هذه الأوضاع برزت ظاهرة هروب رؤوس الأموال إلى أوربا الشمالية . فالرأسماليون لن ينتظروا ، ليؤخذوا على حين غرة كما حدث فى الحرب العالمية الأولى حينما صودرت ثرواتهم مع مجئ موسولينى .

على أن الطبقة الوسطى الشمالية ظلت هى المستفيد من كل ذلك . فكانت المرأة الشمالية هى التى أقدمت على التعليم المهنى بدرجة لم يسبق لها مثيل . وبحلول عام ١٩٧٤ ، كانت المرأة المتعلمة فى الشمال قد اكتسبت من القوة ما جعلها تؤثر حتى فى العملية السياسية ، وقادت الحملة الهادفة إلى إباحة الطلاق قانونا . وفى عام ١٩٧٩ ، أصبح باستطاعة النساء ، على الأقل فى بعض مناطق الشمال أن يحصلن على حق الإجهاض . وقد استطاعت الطبقة الوسطى ككل ، فى الفترة نفسها ، أن تؤكد وجودها فى مجالات ثقافية واسعة . وكسرت الاحتكار المفروض على الإذاعة والتليفزيون . وأصبح بمقدور أعداد كبيرة من أفراد الطبقة الوسطى فى الشمال أن يختاروا بحرية ما يرغبون فى سماعه أو مشاهدته . ويرى بعض الكتاب أن هذه التطورات تمثل جزءاً من ثورة ما بعد الحرب التى ترمز إلى القطيعة مع الماضى . لكننى أذهب إلى أن الأكثر

دقة هو أن ننظر إليها على أنها جزء من تقاليد «الطريق الإيطالى» فى التفرقة بين المناطق ، وهى التفرقة التى تدعمت ، على أى حال ، من خلال قوانين التمييز بين المناطق ، التى أجيزت خلال ٦٨ - ١٩٧٠

فهل هناك اضطهاد موجه لمناطق معينة أم مجرد تخلف لبعض المناطق عن الأخرى ؟ [١٨] . بالتأكيد حدث بعد الحرب العالمية الثانية ، أن بعض الملامح السطحية التقليدية «للمسألة الجنوبية» غابت عن الأنظار لسنوات قليلة . فبعض الجيوب فى الجنوب تم تصنيفها برعاية برجوازية الدولة «الجديدة» ، كما أن بعض الجنوبيين الذين هجروا موطنهم وجدوا لأنفسهم أعمالا مجزية فى شمال أوربا وحتى فى شمال إيطاليا . وسمحت عائدات عملهم على أسرهم ، بارتفاع مستوى الاستهلاك فى بعض مناطق الجنوب أيضا . إلا أن هذه التطورات لم تكن دائمة ولم تكن تحولات فى البنية . وذلك أنه على الرغم من تيسر حال البعض إلا أن غالبية المهاجرين لم يتم استيعابهم فى المدن الشمالية ، فظلوا غرباء فى الشمال الإيطالى مثلما هم غرباء فى ألمانيا أو سواها من دول الشمال الأوربى .

تدل على ذلك الظاهرة التى برزت فى السنوات الأخيرة وهى عودة أولئك الجنوبيين الذين كانوا قد هاجروا إلى الشمال ، حينما أصيب اقتصاد الشمال بحالة انكماش . وكثير منهم حاليا أصبح كما كان : عاطلا عن العمل وفقيرا ، فى الجنوب . وهم لا يزالون يشكلون احتياطى قوة العمل المنتظمة للدورة التالية من التوسع الاقتصادى ، كما يظلون فى حالة هجرة محتملة .

أما الطبقة الحاكمة «الجديدة» التى فرضت على الجنوب بعد الحرب بهدف تحديثه ، فأمرها يدعو للعجب . فبينما استطاعت بعض شخصياتها المعروفة مثل «ألدو مورو» أن تتجاوز فى عملها النطاق الإقليمى إلى المستوى القومى ؛ فإن معظم بيروقراطيى هذه الطبقة استوعبوا داخل نطاق الجنوب ، وكونوا لأنفسهم شبكات رعاية وروابط محلية خاصة بهم .

ويتفق المراقبون جميعا علي أن الجنوب يتمسك بثقافته ونظامه الاجتماعى الخاص به . وهذا التمسك ليس وليد الصدفة . فلو كان الجنوب يعانى من مجرد حالة تخلف لرحّب الجنوبيون بالثقافة الشمالية . الأمر الذى لم يحدث على هذا النحو .

فالجنوب مثلا يحافظ على لهجته ، على الرغم من حقيقة أن هذه اللهجة تشير فى نظر الإيطاليين الآخرين إلى تدنى المكانة . كذلك فقد بينت الأبحاث السوسيولوجية أن الجنوب يحافظ على تراثه الشفاهى رغم أن التراث المكتوب أرفع منزلة .

فعلى أى شئ يستند هذا الموقف ؟ فالحفاظ على اللهجة قد يكون له تفسيرات عديدة ، أما التراث الشفاهى فلا يستمر ما لم يرتكز علي مؤسسات ثقافية . وإذا كانت مراكز الثقافة فى الشمال هى المؤسسات العامة ، فالأمر فى الجنوب ليس على هذا النحو . ذلك أن العائلة هنا أكثر أهمية . لذلك فمن المنطقى افتراض أن حياة العائلة الجنوبية تدعم التراث الشفاهى بينما العائلة الشمالية لا تفعل ذلك .

وفى كل من الشمال والجنوب يمتلك الرجل سلطة «عامة» ، لذا فمن المنطقى افتراض أن المرأة تمتلك سلطة «خاصة» . وإذا نظرنا إلى توزيع ساعات النهار وجدنا أن النساء يفقن الرجال عددا فى كثير من نواحي الأعمال المنزلية خلال أهم ساعات النهار فى الجنوب ؛ حيث يصبح ذلك مهما ، كما أن ثمة علاقة متبادلة بين دور النساء وبين الثقافة الشفاهية .

والرجال الذين ينشأون فى عائلات جنوبية والذين يصبحون فيما بعد من المثقفين ؛ يلتحقون بجامعات نابولى أو روما بعد قضاء فترة تكوينهم الأولى داخل ما عرفنا الآن أنه مؤسسات ذات سيطرة نسائية . ويمكن الذهاب فى افتراضاتنا إلى مدى أبعد . فنفترض أن النساء أذكياء ، لكن اللاتى لم يتلقين تعليما مباشرا لا ينتجن ثقافة شفاهية فولكلورية فحسب ، بل ينتجن أيضا طريقة حدسية فى التفكير . وهى طريقة التفكير التى نجدها عند كروتشه ، أو جرامشى ، أو باسولينى (١٩) . وبما أن الدولة تحتاج إلى مؤسسات توازن سيطرة الوضعية فى الشمال ، لذلك لا تحتاج «العائلة الجنوبية» إلى إصلاح ، على عكس ما يذهب إليه النموذج السائد .

وخلال الجدل الدائر حول استمرارية وجود «المسألة الجنوبية» ، لم تذهب المدرسة التنموية الليبرالية إلى نفى وجود ثقافة جنوبية ، أو إلى أن المرأة الجنوبية لم يكن لها ، أو ليس لها تأثير على تنشئة الأطفال . فهم يقرون بأن كل ذلك موجود ، لكنهم يتوفر لهم مدى رؤية أوسع لأن ما يهمهم هو التنمية . والتنمية تعنى النقود ، والنساء لا يكسبن نقودا . وفى ضوء الاقتصاد القائم على النقود ، يعتقد الليبراليون أن الحياة فى العائلة أو حتى موضوع النوع الجنسى بشكل عام ، هو ببساطة جزء من الخلفية . وعلى ذلك ، فإذا فشل الجنوب فى النمو بالسرعة التى تنمو بها إيطاليا ككل ، وهو ما يراه الليبراليون صحيحا ، فذلك يعنى أن النساء الجنوبيات سيصبحن أكثر اعتمادا على

الرجال عن ذى قبل ، وأن الثقافة ككل قد تصبح أكثر «تجزؤا أو بلا حس أخلاقى» عما كانت عليه منذ قرن . وهذا النكوص الذى نشأ عن إخفاق التنمية السريعة ، كما يذهب الليبراليون ، شئ يدعو للأسف لكنه مؤقت . وهو يعكس حقيقة أن النمو القومى ليس متوازنا بطبيعته . وسوف يتغير هذا الوضع على المدى الطويل . فالجنوبيون عامة والنساء الجنوبيات على وجه الخصوص ، سوف يطورون أنفسهم إلى الأفضل سواء عن طريق التنمية المحلية أو عن طريق الهجرة إذا لزم الأمر [٢٠] .

هل ينطوى هذا القول على استخفاف بما يعرف الباحثون الليبراليون أنه يحدث فعلا ؟ دعونا نبحث هنا موضوعا واقعيا يتعلق بمسألة النوع الجنسى مستمد من الأبحاث الأنثربولوجية فى الستينيات ، أى بعد سنوات من الإنهاء الرسمى للمسألة الجنوبية ، ودعونا نرى ما إذا كان ثمة انقسام بين «جنوب» متخلف تتسم ثقافته بالتجزؤ وبفقدان القدرة علي التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين «شمال» أكثر نمواً ، وهو الانقسام الذى يدعم الفرض الليبرالى حول الفرق بين التقليد والحداثة وحول ضرورة حدوث تغيير . ولنختر موضوعا يتعلق بالنوع الجنسى خلاف ثقافة تنشئة الأطفال ، موضوعا تحت دراسته بصورة كافية تسمح بمقارنة الأوضاع فى الشمال والجنوب . ذلك هو موضوع الزواج . فهل تشهد تقاليد الزواج فى الجنوب تطورا ؟ وهل يمكن أن تصبح يوما ما مثلما هى فى الشمال ؟

طبقا لأبحاث علم الاجتماع فيما بعد الحرب ، فإن زواج الفتاة الشمالية التى نالت تعليما حديثا هو مسألة تتعلق بإرادتها الشخصية ، لكن المجتمع الشمالى يتبنى هذا الموقف دون أن تكون لديه النية فى إنهاء مؤسسة الزواج البطرياركى (القائم على الوصاية الأبوية) . وعلى ذلك فلابد أن يكون هناك شئ فى موضوع الزواج فى شمال إيطاليا أكثر مما تتضمنه فكرة «الإرادة الشخصية» . لابد أن يكون ثمة دور للتقاليد أو العادات فى توجيه تفكير الفتاة إلى ما يمكن أن تريده بوصفها فرداً . فحريتها يجب أن تتضمن بعض الحسابات للمخاطر التى يمكن أن تنشأ عن ذلك . فالرجل أو أسرته يمكن أن يتحولوا عن الفتاة المتحررة أكثر من اللازم ، ويفضلون عليها الفتاه التقليدية التى ربما كانت مطالبها أقل . وفى معظم الأحيان قد لا يحدث ذلك ، إذ قد لا ينصرف الرجل فعلا عن مثل هذه الفتاة التى اختارها ، ولكن طريقته فى التعامل معها سوف تؤكد حدسها بأنه حتى الزواج الحديث لا ينطوى على المساواة التى كانت تأملها .

فإذا كان الزواج فى الشمال لا يتطابق مع الأنماط الليبرالية للحداثة والعقلانية ، فماذا عن الزواج فى الجنوب ؟ بينما تتم الخطوبة فى الجنوب فى سن مبكرة ، فإن فترتها غالبا ما تطول . وخلال فترة الخطوبة الطويلة هذه يجد الطرفان أن لديهما الوقت الكافى الذى يتيح لهما أن يتعرفا على بعضهما البعض جيدا ، وأن يخططا بطريقة واقعية لحياتهما ؛ حيث إن متطلبات تأسيس أسرة تنطوى على صعوبات . وعلى ذلك ، وخلافا للفكرة النمطية حول التقاليد فى الجنوب ، فإن العادات السائدة تنطوى على شئ من النضج الاجتماعى الواقعى . فمثلا ، لو أن الأخت الكبرى للعريس لم تكن قد تزوجت بعد ، فالمتوقع أن العروس سوف تؤجل زواجها إلى حين زواج شقيقة خطيبها . وبينما نجد أن عائلة كل من الطرفين ، فى الشمال والجنوب ، تساهم بأشياء معينة فى تأثيث بيت الزوجية ، فإن نتائج هذا العمل المشترك تختلف فى كل من الإقليمين . فهو يؤدى فى الجنوب إلى قيام وحدة بين العائلتين أكثر مما فى الشمال ، وهى وحدة تخدم احتياجات الأطفال المتوقع إنجابهم [٢١] .

فإذا نظرنا إلى وجود هذا النموذج الجنوبى للزواج من منظور الاقتصاد السياسى ، فسنجد أنه جزء لا يتجزأ مما يمكن أن يطلق عليه عن حق «المسألة الجنوبية» . فنكران الذات الذى ينطوى عليه مثل ذلك النموذج ، منتزع خارج سياقه ، يصبح مصدرا لشعور المرأة فى الشمال بتأنيب الذات ، إذ يجعلها تشعر بأن اختيارها لنفسها يعبر عن أنانية . فالتقاليدية الجنوبية وظفت هنا لتلبية احتياجات النزعة الأبوية فى الشمال . وبطبيعة الحال ، فالنساء الجنوبيات لم يتعمدن أن يؤدى نمط زواجهن إلى إفشال التقييد الاجتماعى فى الشمال . وإنما يمارسن ذلك من منطلق ما ينطوى عليه من عقلانية داخل نطاق الظروف المحلية ، الأمر الذى يعود عليهن بالفائدة .

وفى كلا الإقليمين ، يحقق الزواج مكانة اجتماعية ، رغم أن تعريف المكانة يختلف فى كل منهما . فوفقا للنموذج السائد ، فالمكانة التى تحملها المرأة المتعلمة فى الشمال تأتى عن طريق عملها ؛ حيث سوق العمل مفتوح للنساء مثلما هو للرجال . على أنه بالنسبة لمعظم النساء ، حتى فى الشمال ، فإن سوق العمل مفتوح أمامهن بطريقة تجعل قيمته لديهن أقل بصورة واضحة عنها لدى أزواجهن أو إخواتهن . وهذا هو الوضع أيضا ، بطبيعة الحال ، فى الجنوب . ومعنى ذلك أن ثمة فطنة معينة لدى المرأة فى الجنوب فى تجنب ربط مكانتها بالتعليم أو بطاحونة العمل . هل يمكن لنا ، إذن ، أن نسأل المؤرخين الليبراليين ، أين يقع نقص العقلانية والتجزؤ أو حتى التخلف عن الشمال ؟

وهل يمكن استبعاد المسألة الجنوبية والمقاومة التى تواجهها تلك المحاولة ، بسهولة ؟ وسوف يكمل القسم التالى الإجابة على هذا السؤال ، ويبين أنه كان هناك نضال مستمر خلال نصف القرن الماضى ، وخاصة فى الجنوب ، نعرض «الطريق الإيطالى» ، وأن ما طرح على أنه موضوعات فى مجال الاقتصاد ، ثم فى مسألة الهوية الجنسية ، يطرح أيضا بنفس القدر علي أنه موضوعات فى السياسة .

الهيمنة المضادة فى إيطاليا الحديثة

كان التحالف بين عمال الشمال وفلاحى الجنوب فى نضال مشترك ضد الدولة حلما اليسار طوال هذا القرن . ومن خلال الافتتاحية الموجزة لمجلس العمال فى تورين عام ١٩٢٠ ، أخذ الحلم يتحول إلى حقيقة . وقبل أن يحدث ذلك استولى الفاشيون على السلطة . وانحصر نضال الهيمنة المضادة طوال الجيل التالى فى النضال ضد الفاشية . واتخذ صيغة التحالف بين اليسار والليبراليين .

وفى حوار شهير جرى فى أعقاب فشل تجربة مجلس العمال ، أخبر جرامشى تولياتى أن الجنوب سوف يصبح مقبرة الفاشيين ، لكنه يمكن أن يصبح ذا فائدة عظيمة لهم إذا فشل الشيوعيون فى الإمساك بزمام المبادرة هناك . وقد أدرك جرامشى المشكلات العملية التى ينطوى عليها ذلك الأمر . فلكى يصبح الجنوب مقبرة للفاشية يتوجب على المثقفين الديمقراطيين أن يخلقوا مناخا يجعلهم غير مضطرين إلى الهجرة تاركين فراغا يملؤه الفاشيون وفى الجنوب ، أعلن جرامشى ، أن القسيس قد فسد ، ولذلك أصبح على الحزب أن يحول الفلاح إلى جندى والموظف إلى محارب [٢٢] .

على أن الحزب ، حتى فى الجنوب ، لم يحاول الاستفادة بصورة جادة من رؤية جرامشى . فقد كان الحزب الشيوعى الإيطالى تحت قيادة «جورجيو أمندولا» فى نابولى فيما بين الحربين ، أقرب إلى روح الموقف التوفيقى للشيوعية الأوربية التى ظهرت بعد ١٩٤٥ ، منه إلى الموقف الراديكالى القديم لجرامشى [٢٣] .

وقد كانت الأقسام الأكثر راديكالية من الطبقة العاملة فى نابولى ، ترى أن خط الحزب الشيوعى خاطئ ، وأن الحزب باع نفسه للشمال وللرأسماليين . وفكرة بيع الحزب لنفسه هذه ، التى عرفت طريقها إلى الخطاب العام فى العشرينات فى الجدال الدائر بين «جرامشى» و «أماديو بورديجا» ما زالت على الأقل فى الجنوب ، حية حتى اليوم ، وهى نقطة جديرة بالنظر .

ففى الأربعينيات ، ظهرت المعارضة فى الحزب الشيوعى الإيطالى بين أكثر العمال راديكالية فى الجنوب متمثلة فى حركات مثل الـ Montesanto Federation وهى جماعة منشقة عن الحزب الشيوعى . وكان أحد مطالبها الرئيسية هى الديمقراطية داخل الحزب . فقد كانت سياسات الحزب الشيوعى تفرض من أعلى إلى أسفل . وفى الخمسينيات واجهت قيادة أميندولا فى نابولى تحديا من قبل جماعة راديكالية أخرى هى «حركة الشباب الشيوعى» . وبحلول الستينيات كانت عضوية الحزب الشيوعى فى الجنوب قد تقلصت إلى مستويات فاقت ما بين الحربين . وخلال تلك الفترة أخذت الراديكالية تمتلك صوتا خاصا بها فى الجنوب متمثلا فى جريدة الحزب المسماة Cronache Meridinoli . وكان كتاب هذه الجريدة جميعا تقريبا ناقدين لخط الحزب ، وكان النقد ينصب أساسا على الخط الذى تبناه الحزب ، والذى يسمى «الحل على خطوتين» . وهو حل يتبنى فكرة أن الاشتراكية لا يمكن تحقيقها حتى يكتمل النمو الرأسمالى فى المجتمع بأسره ، فيخلق تناقضات تؤدى إلى النضال من أجل الاشتراكية ، ولما كان الجنوب أمامه سنوات حتى يصل إلى مثل ذلك النمو الاقتصادى ، فذلك الحل يعنى شطب الاشتراكية من جدول الأعمال إلى أجل غير مسمى . وهذا النقد أخذ يظهر ويعاود الظهور فى الجنوب . وفى الستينيات ، أدانت جماعة راديكالية منشقة أخرى عن الحزب هى جماعة Ingrao ، هذه الأفكار . ووفقا لكتابات هذه الجماعة ، فإن مفتاح حل «المسألة الجنوبية» هو النضال ضد الرأسمالية وليس التنمية الرأسمالية كما يتصور الحزب الشيوعى والديمقراطى المسيحى .

وفى سبتمبر ١٩٧٠ ، أخذت جماعة انجراو تندمج مع جماعة المانيفستو . وواصلت الجدال النظرى مع الحزب ، وذهبت إلى أن المجتمع الغربى حاليا قد اكتمل نموه ؛ وأن الثورة واردة . وأن على الحزب أن يتخلى عن أيديولوجية «الحزب الطليعى» وأن يتحول إلى «حزب جماهيرى» بالمعنى الحقيقى للكلمة ، ويعتمد فى ذلك على «مجالس العمال» . وأن «الحل على خطوتين» فكرة غير ملائمة . وكانت استجابة الحزب لذلك هى طرد عدد من الشخصيات المعروفة المرتبطة بجماعة المانيفستو ، من صفوفه . وكان من بين المفصولين : «ماسيمو كابرارا» ، و «لويجى نبتو» ، و «روسانا روساندا» ، و «لوسيو ماجرى» . وكان موقف قيادات الحزب هو أن الحزب جماهيرى بالفعل . وقد قررت «جماعة انجراو» الأصلية البقاء داخل الحزب .

وكما هو متوقع ، فإجراءات مثل الفصل من الحزب ليست بذات تأثير على المفكرين الإيطاليين . بل هى ببساطة تثبت وجهة نظرهم فى أن الحزب يفتقد

الديمقراطية ، ليس للحظة طارئة ، بل فى أسلوب عمله . فأمينولا مثلا ، وهو شخصية قيادية فى الحزب ، كان يدير فرع الحزب فى نابولى ، بأسلوب الفساد الشائع فى الأحزاب الرسمية مثل الشللية والمنافع الفردية (٢٤) . وفى أواخر السبعينيات برزت الانتقادات الموجهة للحزب مرة أخرى . فقد تطورت «جماعة المانيفستو» لتصبح حاليا الحزب المعاصر (*) . وقد قامت أيضا فى إحدى مناطق الشمال ، جماعة من المثقفين ، مستلهمة فكر الفيلسوف «انطونيو نجرى» ، كونت جزءاً من «اليسار خارج البرلمان» ؛ بتوجيه الانتقاد للحزب الشيوعى لفشله فى تحدى النظام (٢٥) .

ويبدو من المنطقى ، ونحن نبحث فشل الشمال والجنوب فى الاتحاد ، أن نتساءل عن توجهات القادة . فوفقا لـ «سيدنى تارو» ، الباحث الأمريكى الذى درس القيادة الشيوعية فى الشمال والجنوب ؛ فالقيادة الجنوبية هى التى كانت ، رغم ثروتها ، أقرب إلى الجماهير ، وإن كان ذلك يتم بطريقة أبوية أكثر من نظيرتها فى الشمال ، وربما كانت أكثر أمانة وكانت تصرفاتها قابلة للتنبؤ بها بدرجة أكبر . أما السياسيون فى الشمال ، فقد كانوا أقرب إلى الساسة المحترفين . فهم يميلون إلى الزواج من عضوات بالحزب ، وبالتالى يعيشون حياتهم كلها داخل الحزب . بينما القائد فى الجنوب يكون عادة مثقفا تقليديا غالبا من ملاك الأرض ، وغالبا لا تكون زوجته عضوا بالحزب (٢٦) . وعلى سبيل المقارنة ، فإننا نجد أن القيادة الشمالية من حيث الخلفية الاجتماعية أقرب إلى القاعدة الجماهيرية ، لكن هذه الحقيقة لا تعنى أنهم أكثر مناصرة لمصالح جماهيرهم . هذا ما يقوله «سيدنى تارو» . والمثال الذى يقدمه ، مع آخرين ، هو علاقة الحزب بمسائل الحركة النسوية . فجزء مهم من أعضاء الحزب هم أيضا أعضاء فى «حركة المرأة الإيطالية» . لكن القضية النسوية لم تجد لها إلا مساحة ضئيلة فى برنامج الحزب . وبعد عام ١٩٧٣ ، أصبح «بيرلينجر» ، متوجسا بصورة متزايدة من فكرة أن الحزب الديمقراطى المسيحى يمكن أن يكون ائتلافا بين اليمين والوسط مثلما فعل بينوشيه فى شيلى . ولقطع الطريق على ذلك الاحتمال ، مد الحزب الشيوعى جسورا مع الكنيسة ، ونحى المسألة النسوية جانبا (٢٧) . ونستنتج من ذلك ، أن الحزب الديمقراطى المسيحى إذا قام بالفعل بتكوين ائتلاف بين اليمين والوسط وعادت الفاشية إلى الظهور ، أيًا كان ضعف هذا الاحتمال ، فإن النضال ضد الفاشية سيستغرق مرة أخرى سنوات وسنوات (٢٨) .

(*) Portito di unita Proletaria per il crmmunismo .

ركزنا حتى الآن ، فى دراستنا للهيمنة ، على السياسة والاقتصاد ، الأمر الذى ينطوى حتما على الأقل ، على التركيز على الجانب القمعى للهيمنة . بينما نهتم فى هذا القسم بدراسة الثقافة التى ورثتها الدولة الإيطالية والتى طورتها بنجاح ، وما زالت تستفيد منها فى مشروعها للحكم . وهو يبرز الدور الذى يلعبه الإقناع فى الهيمنة . وقد اخترنا لذلك دراسة مجالات : اللغة ، والأدب ، والفولكلور ، والأنثربولوجيا ، والسياسة الدينية ، بهدف رسم الخطوط العامة لاستراتيجية تنظيم الثقافة . ودواعى هذا الاختيار هو أن هذه المجالات تقع فى قلب السياسات الثقافية للدولة الحديثة .

ولنبدأ بدراسة السياسة اللغوية . فما هى السياسة اللغوية التى اتبعتها الدولة فى أعقاب حركة البعث الإيطالية ؟ كانت إيطاليا فى ذلك الوقت تتسم بتعددية اللسان واللهجات حسب الأقاليم ، وكانت اللغة الأدبية الكلاسيكية معروفة فقط لعدد قليل . وقد دافعت إحدى مدارس التفكير فى السياسة اللغوية عن استعمال اللغة الأدبية الكلاسيكية كلغة للدولة الجديدة . والممثل الرئيسى لهذا الاتجاه كان الكاتب الشهير «أليساندرو مانزونى» (ت : ١٨٧٣) . وقد ذهب «مانزونى» إلى أن اللغة الأدبية الكلاسيكية يجب أن تصبح اللغة القومية ، وأن تقوم الحكومة بتعميمها من أعلى من خلال النظام التعليمى . على أن فكرته هذه المسماة Dirigismo - Populismo ، لم تكن مناسبة للبرنامج السياسى للنظام ، لذلك ، وعلى الرغم من مكانة «مانزونى» المرموقة ككاتب ومثقف ، فقد تخطاه النظام فى المسائل المتعلقة بالسياسات ، ملتفتا بدلا منه إلى أحد اللغويين الذين قبلوا نظرية التقسيم التعليمى للغة الإيطالية . وبرز هذا اللغوى وهو «جوازيانو إيسايا أسكولى» (ت : ١٩٠٧) ، باعتباره أحد البناة الرئيسين فى ثقافة الدولة الجديدة . وقد أكدت المجلة التى أصدرها اسكولى والمسماة «Archivio Glollologies Italiano» على دراسة اللهجات التى ظلت أهم مجالات البحث بالنسبة للغويين الإيطاليين حتى الحرب العالمية الأولى . وقد كان «أسكولى» مؤمنا بتوحيد اللغة ، لكنه رأى أن ذلك سيستغرق وقتا طويلا ، ولن يتحقق بطريقة اصطناعية . وقد استرشد فى ذلك بالطريقة التى انتشرت بها الإنجليزية والفرنسية . فقد بدأتا بوصفهما لغة الإدارة ، وعبر قرون ، أصبحتا تدريجيا مقبولتان على نطاق واسع [٢٩] .

والدولة تحتاج أيضا لغة نثرية مقننة تستخدم فى التعامل اليومى ، لغة تكون أكثر بساطة وأقرب منالا من لغة الأديب . وقد عملت على تشكيل مثل هذه اللغة وضمنتها فى سياستها اللغوية . وطبقا لـ «برونو ميجليوريني» ، وهو متخصص فى تاريخ اللغة ، طورت إيطاليا لغة نثرية مقننة وعملية من خلال بيروقراطيتها . فقد قام البيروقراطيون بتبسيط اللغة وإضفاء تجانس عليها . ولما كانوا ذوى حضور فى وسائل الإعلام ، فقد امتلكوا أيضا القدرة على نشرها داخل المجتمع الواسع . و «ميجليوريني» الذى أيد هذه العملية ، يعتبر أن كتاب الأدب الكبار مثل «أليساندرو مانزوني» ، و «جيوسو كاردوتش» (١٨٣٥ - ١٩٠٧) ، وجابرييل دانونزيو (١٨٦٣ - ١٩٣٨) ، يمثلون مشكلة . فهم يقومون بـ «إغراب» اللغة . وهو محق فى هذه النقطة . فكاردوتشى ودانونزيو أدخلا فى اللغة كلمات نادرة مهجورة وألفاظا كلاسيكية غالبا كنوع من رد الفعل على المنحى التبسيطى الذى تتخذه البيروقراطية . ولم لا ، فالبنسبة للمتحزبين للغة الأدب القديمة ، خاصة المتحدرين من فلورنسه وتوسكانيا الكبرى ؛ تبدو اللغة العامية لبيروقراطية روما ، والتى يتحدث بها التليفزيون الإيطالى حتى اليوم ؛ شيئا مبتذلا . ونحن نلاحظ هنا ، الصراع بين محاولة الحفاظ على الهيمنة القائمة على الإقليمية وبين منطق النمو والتجانس [٣٠] .

وحينما ازدادت أهمية روما فى أواخر القرن التاسع عشر ، أرادت البيروقراطية ، كما هو متوقع ، أن تحد من نفوذ الشمال ، وقامت بعدد من الاختيارات الخاصة فى السياسة اللغوية كانت فى تراكماتها ذات أهمية بالغة . وقد اختارت مثلا كلمات مستعارة من اللغة الفرنسية ، فتجنبت بذلك الاعتماد على اللغة الإيطالية الكلاسيكية الوافدة من فلورنسه ، أى من شمال إيطاليا . وكانت ثمة كلمات ألمانية وإنجليزية متوافرة أيضا ، لكن البيروقراطيين كانت لديهم فى كلا الحالتين أسباب لتجنب الاعتماد عليها . فبالنسبة للإنجليزية ، كان الارستقراطيون الإقطاعيون هم الذين يستخدمونها بصورة متزايدة ، ولم تكن الدولة ترغب فى التحالف معهم . وكانت ثمة مخاطر بالنسبة للألمانية أيضا ، فالثقافة الجامعية الألمانية كانت آخذة فى الانتشار فى الشمال ، كما كانت الألمانية آخذة فى الشيوع بين العمال الإيطاليين . وكانت الفرنسية تحمل أقل المخاطر ، وقد كانت على أى حال هى لغة النظام القانونى .

وقد واصلت الحكومة ، خلال الفترة الفاشية ، تأكيد أهمية الطابع العملى للغة كوسيلة لجعل الطابع العملى جزءاً من أيديولوجية النظام . فموسولينى رغم كل شئ يريد

أن يعبئ المجتمع الإيطالى . على أن ذلك فى الواقع لم يكن ممكنا . وفى عام ١٩٣٩ ، تولى «برونو ميجليوريني» ، بمباركة النظام ، رئاسة تحرير «Lingua Nastra» وهى مجلة خصصت للاستخدام «العلمى» وبالتالى العملى للغة . لكن مبادرة «ميجليوريني» وضعته فى موقف معارض مباشرة لكروتشه ، الذى هو حجة أعلى فى شئون اللغة . فقد أراد «ميجليوريني» أن يؤلف قاموسا للغة الإيطالية ، لكى يجعل اللغة فى متناول الجميع حتى تصبح بالتالى عملية . بينما كان كروتشه ، وهو أمر متوقع ، ضد فكرة تأليف قواميس . فهو يعتقد أن اللغة فى حالة حركة دائبة ، فليس ثمة كلمة لها مرادف فى الحقيقة ، ولا هى تستعمل مرتين بنفس المعنى . فاللغة الإيطالية مثل البحر المتوسط فى عمقه وفى تموجاته . فجمالها كل متكامل وكل جزء فيها يصنع الآخر . وفى هذه المواجهة ، يمكن القول أن «ميجليوريني» والدولة بالتالى ؛ كانا الخاسرين على طول الخط . فقد حث كروتشه الأكاديمية المختصة «Academia Della Crusca» على التخلى عن مشروعها الذى لم يكتمل لإعداد القاموس . وإلى اليوم . فليس لدى إيطاليا قاموس لغوى كفء ، ولا كتاب فى القواعد اللغوية يقوم بتلك المهمة ، وهو وضع له علاقة بكروتشه .

وبالرغم من هذه الانتكاسات ، نجحت الدولة الفاشية فى النهاية فى توفير قدر من السيطرة والاستقلالية فيما يتعلق بثقافة الشمال . وقد زودتها الأركيولوجيا (علم الآثار) وكذلك الفولكلور والأنثربولوجيا بطريقة لتحقيق ذلك . فمنذ السنوات الأولى للفترة الفاشية ، اعتمدت الحكومة الإيطالية بقدر كبير على اكتشافات علم الآثار الخاصة بالحفريات فى مدينة روما ، للتدليل على أن هوية إيطاليا ، رغم تحالفها مع ألمانيا ، لا تستمد من الروابط الآرية لإيطالى الشمال ، بقدر ما تستند إلى روابطها بالإمبراطورية الرومانية . والدراسات الفولكلورية أمدت هذا التوجه للنظام أيضا بنوع من المشروعية . لكن هذا المجال ، على خلاف علم الآثار ، تنافست عليه قوى أخرى . فقد لاحظ الباحثون منذ جرامشى التأثير السئ لإضفاء الطابع السياسى على هذا المجال . فقد ذهب جرامشى نفسه إلى أن الدولة سمحت للشمال بإضفاء طابع فولكلورى على الجنوب . ولنتوقف قليلا عند الاتجاهات القائمة فى الدراسات الفولكلورية ونبحث دلالتها بالنسبة لهيمنة الطريق الإيطالى .

فخلال القرن الماضى ، انشغل أهم دارسى الفولكلور الإيطاليين بمهمتين : أولاً : تصنيف المادة الفولكلورية وفقا لأصولها الجغرافية ، وثانيا : جمع المادة الفولكلورية

خاصة من الجنوب . وفى أواخر القرن ، اهتم مؤسسو الفولكلور الحديث ، مثل : «كونستانتينو نجرا» ، و «ارمولا روبيرى» ، و «ألساندرو دانكونا» ، و «جوسيب بيترى» ، بوسع الأساس المفاهيمى «لمدرسة المتوسط لقيم الشرف والعار» فى الفولكلور .

وقد كان «نيجرا» صديقا مشاركا للبطل القومى كاميلو كافور . وقد كان مثل كافور من بيد مونت ، لكنه يختلف عنه فى أنه كان قوميا بيدمونتيا أكثر منه إيطاليا . وكان أكثر الباحثين اهتماما بالانتشار الجغرافى للفولكلور . وقد قسم إيطاليا إلى منطقتين : المنطقة الشمالية ؛ حيث يسود الفولكلور السردى الغنائى (الأغانى الشعبية للأطفال) ، والمنطقة الوسطى والجنوبية التى تسودها الأغانى والرقص . وكان «نيجرا» يعطى أهمية خاصة للشكل الفولكلورى . وكان الجنوب فى رأيه متفردا من هذه الناحية على خلاف الشمال . وكان «نيجرا» يعرف الشكل الفولكلورى وفقا للفترة التى نشأوا فيها ، ويرى أنه إنما ينتقل فيما بعد إلى المناطق ذات الثقافات المشابهة فحسب . وينسب «نيجرا» الشمال الإيطالى إلى أصول «سلتيه» ، لذلك كان الفولكلور ، وعلم اللغة ، وعلم الجمال فى الشمال ذا طابع آرى [٣١] . وقد كانت لآراء «نيجرا» بعض الفائدة للهيمنة الإيطالية ، لكنه كان من الصعب عليه أن يلعب دور «المثقف القومى» ، ذلك أنه كان إقليميا أكثر من اللازم .

أما ثانى الباحثين المهمين فى الفولكلور : «أرمولو روبيرى» ، فقد وجد ، على خلاف «نيجرا» ، أن ثمة وحدة تميز الشعب الإيطالى ، وتتسم بأنها تعطى اهتماما للشعر أكثر من الأغانى الشعبية ، ورأى بناء على ذلك أن الفرق بين الشعر السردى فى بيد مونت وبين الشعر العاطفى فى صقلية ليست فروقا مطلقة [٣٢] .

وكان الباحث الثالث الذى ينتمى لنفس الفترة ، «ألساندرو دانكونا» ، أقرب إلى «روبيرى» . فقد أكد على أن الهوة التى تفصل بين الثقافة الرفيعة والثقافة الفولكلورية تمتد عبر البلد بأكمله ، وليست شيئا فاصلا بين الشمال والجنوب . على أنه كان يعتقد أيضا أن الجزء الأكبر من الثقافة الرفيعة يقع فى الشمال . وقد كان «دانكونا» مثل «روبيرى» من مؤيدى حركة البعث الإيطالية (الريزور جيمنتو) بدرجة أكبر كثيرا من «نيجرا» .

ورابع الفولكلوريين المهمين فى تلك الفترة ، كان «جوسيب بيترى» (١٨٤١ - ١٩١٦) . وهو طبيب معروف بتأييده لحركة البعث وبجمعه وتصنيفه للتراث الفولكلورى فى صقلية .

وقد أصدر فى ١٨٨٢ ، مجلة Archivio pe lo Studio della trudezioni populari .
وأشار فيها إلى أن الفولكلور هو العنصر الموحد للتاريخ . وإذا لم يسجل ، اندثر مثلما حدث فى صقلية حين دخلت العصر الحديث ، وكفت عن أن تكون تجمعا منعزلا . وقد ذهب «بيترى» مثل كثير من الفولكلوريين قبله وبعده ، إلى أن الفولكلور مصدر هائل للعاطفة والفكر والخيال [٣٣] .

فإذا تفحصنا متطلبات الطريق الإيطالى للهيمنة ، وجدنا أن نظرية الثقافة الرفيعة المشتركة على النطاق القومى لازمة لتسمح باستيعاب المثقفين الجنوبيين . وهى تضفى مشروعية على الاهتمام باختلاف الثقافة الشعبية (الفولكلورية) تبعا للإقليم دون أن تجعل الإقليمية هى الأساس الوحيد للثقافة . ومثلما تميز الشمال بأنه الموطن الرئيسى للثقافة الرفيعة ، تميز الفولكلور والباحث الفولكلورى الجنوبى بالأهمية فى مجال الدراسات الفولكلورية . وسوف تتضح هذه الأفكار من خلال عرضنا لتطور أفكار الفيلسوف النابوليانى ، والناقد الأدبى والباحث الفولكلورى : بنيدتو كروتشه (١٨٦٦ - ١٩٥٢) ، وهو الشخصية المعروفة فى مجال الاقتصاد السياسى بأنه «المفكر الإيطالى العظيم» .

وأعمال كروتشه فى مجال الفولكلور تمتد من جمع المادة الفولكلورية الجديدة إلى تطوير نظرية فى نقد الفولكلور . وفى نقده الفولكلور أبرز كروتشه سلبيات المنهج الوضعى الساذج السائد لدى الباحثين فى شمال إيطاليا فى فهم أصول الفولكلور . وقد وصف الأفكار المتضمنة فى أعمالهم بأنها علمية زائفة ، وهى الأفكار التى تجعلهم يضعون الفولكلور السردى فى مرتبة متميزة باعتباره أعلى أشكال تطور الثقافة الفولكلورية . واستبدل بهذه الوضعية التطورية منهجا يتسم بدرجة أكبر من الأصالة التاريخية ويتضمن معايير جمالية ، ويؤكد على أهمية الرؤية الحدسية والميتافيزيقا وحتى الماركسية . وفيما بين الثمانينيات والتسعينيات ، نشر كروتشه فى مجلة الفولكلور النابوليانية المسماة «Giambattista Basile» ، عددا من الأمثال والأشعار الشعبية والأغانى والحواديت التى جمعها بنفسه . ودرس كروتشه «الروح الشعبية» ، فكان أول بحث منهجى يقوم به هو دراسة «ملحمة Cola Pesce» . وقد ذكر أنه شارك فى هذا البحث من أجل الدراسة من ناحية ، ومن أجل المتعة التى منحها إياه من ناحية أخرى . وقد أحب الفن الشعبى لما يتسم به من مباشرة ومن مذاق خاص وطابع مميز ولما فيه من حياة [٣٤] . وأبحاث كروتشه ذات مضامين سياسية دائما ، ولذلك فحينما يعتمد النظام على «مثقفين جنوبيين» مثل كروتشه ، فذلك يعنى أنه يوافق على أن يكون لهم تأثير

على مفهوم الثقافة البرجوازية ، وهذا ما حدث . ففى مقال شهير له فى «La Critica» ، ذهب كروتشه إلى أن الجمال والقبح يوجدان فى الفن الرفيع والفن الشعبى على السواء ، وأن الشعر الشعبى المتميز لا يقل فى شئ عن الشعر الفصيح ، ولم يكن ذلك هو نقده الوحيد لإطار الهيمنة الذى يتبنى ثنائية الرقى – التدنى . ففى مقدمته لدراسة مبكرة فى التاريخ عن ثورة نابولى فى ١٧٩٩ ، ذكر أن التاريخ يتضمن كلا من الحاكم والمحكوم على السواء .

وقد لعبت الدراسات الأنثربولوجية الإيطالية ، مثل الفولكلور ، دورا هاما فى الهيمنة ، وفى كثير من الأحيان كان ثمة تداخل بينهما . فلنتناول بالبحث تطور الأنثربولوجيا واستخداماتها .

ثمة ثلاثة فروع من الأنثربولوجيا ظهرت فى الدولة الإيطالية التى استفادت منها جميعا الفرع الأول والأكثر قدما والأقل تبلورا هو الإثنولوجيا (علم السلالات البشرية) ، والفرع الثانى كان تاريخ التقاليد الشعبية . أما الثالث والأحدث فهو الأنثربولوجيا الثقافية . وقد نشأت الأنثربولوجيا الثقافية خلال الستينيات متواكبة مع أعلى معدل للهجرة الجماعية من مدن الجنوب إلى الشمال ، وهى حركة كانت من الاتساع بحيث إنها جعلت المدرسة الإثنولوجية الأقاليمية القديمة ومدرسة تاريخ التقاليد الشعبية بما فيها «مدرسة المتوسط لقيم الشرف والعار» ، عتيقة وغير عصرية [٣٥] .

ولنناقش الآن الأنثربولوجيا الثقافية فيما بعد عام ١٩٦٠ ، وهى الفترة الذهبية التى شهدت أهم إسهامات الأنثربولوجيا الثقافية فى الهيمنة . فخلال الفترة بين الستينيات والسبعينيات لوحظ بوضوح أن المشتغلين بالأنثربولوجيا الثقافية استطاعوا أكثر من غيرهم صياغة صورة للثقافة ككل بمقدورها استيعاب جميع الإيطاليين بمن فيهم الوافدين حديثا . وقد برز واحد منهم هو بروفسير تنتور من ميلانو ، كأحد شخصيات الإعلام والتليفزيون ، وكان من أثر ذلك أن أخذ السياسيون يستعملون تعبيرات مستمدة من الأنثربولوجيا . إلا أنه خلال السبعينيات ، أخذ ينشب بالتدريج جدال بين أساتذة الأنثروبولوجيا ، دفع الكثيرين إلى وضع الدور الذى يلعبه الأنثربولوجيون موضع المساءلة . ونتيجة لذلك الجدال ، أدرك عدد من الأساتذة أن الأنثربولوجيا أسهمت فى استعمار الشمال للجنوب ، بل الأسوأ من ذلك ، أنها جعلت

«المسألة الجنوبية» تصبح مسألة «استعمار جديد من الطراز الأمريكى» . وقرر البعض أن يكفوا عن منح أسمائهم لدعم برامج الدولة للتنمية فى الجنوب . وعند هذه النقطة تحولت الدولة من استخدامها للأنثربولوجيين إلى استخدام الأدباء من مثل الكاتب الجنوبى ذى الشعبية الواسعة : «دانيلو دولسى» . ربما لأن «دولسى» كان على استعداد للقيام بإضفاء الطابع الرومانسى على صقلية ، وهى المهمة التى رفض الأنثربولوجيون القيام بها .

وهذه التحولات لا يجب اعتبارها اختيارا لمجموعات صغيرة ، بل جزءاً من عملية تحولات أكثر اتساعا كانت آخذة فى الحدوث خلال تلك الفترة . وهى تحولات أثرت على تنظيم الثقافة . فمنذ عهد الفاشية ، أصبح للجنوب قوة داخل النظام أكثر من ذى قبل ، وكما هو متوقع ، أصبح صوته أعلى . قد ظل يحافظ على رومانسيات «دولسى» ، إلا أنه ، إلى جانب ذلك ، أفرز شخصيات ذات سخرية لاذعة مثل «ب. ب. باسولينى» . وانصراف الأنثربولوجيين فى جامعات الشمال عن المشاركة فى الصيغة القديمة للهيمنة ، هو أحد نتائج تنامى قوة الجنوب .

ويرجع صعود قوة الجنوب إلى الفترة الفاشية ، حينما احتاج الفاشيون شخصيات ذات نجومية أو رياضيين أو معبودى جماهير ؛ اتجهوا إلى الجنوب . فلم يشأ الفاشيون أن يظلوا سجناء الشمال أو الليبرالية . وقبل الحرب الأولى كان القلائل الذين برزوا من الجنوب على المستوى القومى ، إنما فعلوا ذلك فى إطار الصيغة الشمالية ، لكن ذلك الوضع تغير فيما بين الحربين فصاعدا . وبرز عدد من الشخصيات . بعضهم استمر فى اتخاذ الجنوب مادة لبحثهم مواصلين ما فعلته الأجيال السابقة . والبعض الآخر أشاع اللهجة الجنوبية على نطاق الأمة بأسرها من خلال السينما والإذاعة ، والبعض الأخير انتقد ثقافة الشمال من حيث هم غرباء عنها . من أمثلة هذا النوع الأخير كان كتاب «ب. ب. باسولينى» المسمى «حياة عنيفة» . وأمثلة النوع الأسبق كتاب «ايتالو كالفينو» : «الفولكلور الإيطالى» ، وكتابات «دانيلو دولسى» بطبيعة الحال [٣٦] . والخلاصة أنه بينما انتقد كروتشه الاتجاهات الوضعية فى ثقافة الشمال بطريقة ضمنية ، استطاع باسولينى انتقادها مباشرة . ففى ذلك الوقت ، أصبح الجنوب موجودا فى الشمال ، وجزءاً من الاقتصاد القائم على العمل الشاق ، وجزءاً من الحياة اليومية . فقد نقلت الهجرة الواسعة من الجنوب إلى الشمال ، «المسألة الجنوبية» إلى قلب الشمال .

ولكى نختتم هذه المناقشة حول تنظيم الثقافة ، علينا أن نعود إلى موضوع الكنيسة الكاثوليكية . فالكنيسة الكاثوليكية كما يعلم كل من قرأ «جرامشى» ، كانت جزءاً أساسيا من تنظيم الثقافة . وقد صاغ «جرامشى» فى الواقع تعبير «المثقف التقليدى» ، لكى يشخص هذه الحالة . وعلى الرغم من أن هذا التعبير قد عرف طريقه إلى أدبيات علم الاجتماع ، إلا أن موضوع الكنيسة كجزء من الاقتصاد السياسى ، لم يستوف حقه فى البحث بعد .

وفى هذا الفصل ، سوف أستبق نتائج البحث السوسيولوجى المستقبلى ، وأحدد الملامح العامة لما اعتبره دور الكنيسة الكاثوليكية ممثلا فى نخبتها ، فى عملية تنظيم الثقافة . وأحد مصادر المعرفة الواسعة الانتشار والهامة فى موضوع الكنيسة فى العصور المختلفة ؛ هى توصيف الشخصية الرسمية للبابا . وسوف أفترض أن هذه الشخصية بناء سياسى واعى ، وأنها ليست محصلة خصائص عرضية لفرد ما . فإذا درسنا مثل هذه الشخصية ، استطعنا تكوين لمحة عن ممارسة الكنيسة فى فترة معينة . ووفقا لذلك نجد أنه فى المراحل الليبرالية ، حينما كان يتاح للكنيسة الدخول إلى المجتمع المدنى ، كان البابوات ذوى شخصيات ناشطة . فيتبنون مواقف لاهوتية لمواجهة التحديات التى تمثلها الليبرالية . أما فى المرحلة الإدماجية ، وهى هنا الفاشية ، فعلى الرغم من أن البابوات ، تقليديا ، هم الذين يصوغون عقائد الكنيسة ، إلا أنهم فى هذه المرحلة تبنوا مواقف الحب الصوفى . فقد كانت الكنيسة ضعيفة فى مواجهة الحزب ، فكان عليها تجنب الصراع المباشر ، بينما هى مستمرة فى خدمة الدولة .

ويعتبر البابا ليو الثالث عشر (١٨٧٨ – ١٩٠٣) أحد الأمثلة الهامة للبابا فى المرحلة الليبرالية فى السنوات التالية لحركة البعث . وطبقا «للموسوعة الكاثوليكية» كان البابا ليو الثالث عشر ابنا لأحد نبلاء وسط إيطاليا ، وقد أكد على حقوق الكنيسة فى المجال الدنيوى ، وأبدى ملاحظات على بعض الموضوعات الخاصة بالاستعمار ، وأدان صعود الليبرالية . وقد واصل خلفه ، البابا بيوس العاشر (١٩٠٣   ١٩١٤) ، تبنى مواقفه . وكان له مثل سلفه ، ارتباط بنظام الأراضى . فقد كان ابنا لأحد موظفى الريف ، وتدرج فى مراتب الكنيسة حتى أصبح أسقف «مانتوا» وكاردينال البندقية . وقد أبدى نفورا تجاه الجماعات التى لا تنتمى لمذهب محدد ، وساند التوسع فى البعثات التبشيرية . وتلاه البابا بنيدكت (١٩١٤ – ١٩٢٢) وهو ابن لأحد أشراف جنوة . وقد حارب بنيدكت الليبراليين والاشتراكيين ، لكن بطريقة مختلفة عن سابقيه ، عن

طريق الدعاية ، ومن خلال تبنى النزعة الإنسانية ، واعتمادا على شعبيته الشخصية . وهنا يشعر المرء بأزمة الليبرالية بادية فى تلك السير الذاتية ، وبأن ضعف الكنيسة هو أحد العناصر المكونة لذلك النوع من الهيمنة .

ولننتقل الآن إلى بابوات العصر الفاشى . ونبدأ بالبابا بيوس الحادى عشر (١٩٢٢ - ١٩٣٩) الذى ولد فى الشمال ، والذى كان تعليمه يؤهله للعمل فى مجالين أصبحا مهمين بالنسبة للفاشيين هما : الآثار المسيحية ، والدبلوماسية . وحينما أصبح بيوس الحادى عشر بابا ، كان هدفه الرئيسى هو توحيد البشرية باسم المسيح ، على أنقاض النظام القديم للدول القومية . وكما لاحظنا سابقا ، ظل سلوكه الخارجى وأفعاله ، لفترة طويلة ، صوفية الطابع . وفى عام ١٩٢٢ ، أسس «الحركة الكاثوليكية الإيطالية» كمنظمة غير سياسية لتخفيف أوضاع البؤس المنتشرة فى العالم . ودعا إلى الحب والصلاة والتكفير عن الذنوب والإخلاص لـ «قلب المسيح المقدس» . وخلفه بيوس الثانى عشر (١٩٣٩ -) من روما ، حيث كان أبوه يعمل بالمحاماه . وكما لوحظ من قبل ، كانت إحدى مشاغله الرئيسية ، فى فترة نبول الفاشية ، هى اضطهاد اليهود . وركز اهتمامه بعد الحرب ، على الشيوعية ؛ حيث تبنى فى ذلك الوقت مواقف أسلافه من المرحلة الليبرالية . وفى العصر الحديث ، تبنى البابوات جميعا فى الواقع موقفًا هجوميا ضد لاهوت التحرير ومرة أخرى ضد الليبرالية الكاثوليكية .

كتابة التاريخ فى إيطاليا

اتجه معظم المؤرخين الإيطاليين ، خلال القرن الماضى ، إلى دراسة أحوال الأقاليم أو المدن الخاصة بهم لا الأحوال القومية العامة . وقد أبرز التنظيم المؤسس لحقل التاريخ فى العصور الحديثة هذه الحقيقة . وفى العصر الفاشى ، كان الاهتمام بالمحلى بدلا من القومى ، مصدر قلق للنظام لأن الدولة بحاجة للتاريخ القومى . لكن الأنظمة الإيطالية عموما استخدمت الأدباء والفلاسفة لتحديد الملامح الخاصة بالأمة ككل ، تاركة مجال التاريخ للمحترفين والهواة على المستوى المحلى وعدم إعطاء أهمية لمبحث ما ، يؤدى فى المدى البعيد ، إلى إفساح المجال للهواة وللكتاب المتخصصين فى مباحث أكثر أهمية ، كى يمارسوا هوايتهم داخله مثلما فعل الفيلسوف «كروتشه» . ويؤدى أيضا إلى تشجيع الحرفية البحتة مثلما حدث فى مجال التاريخ بنشر مجموعات من الوثائق .

وكانت دراسة موضوعات العصر الوسيط والكلاسيكي تحتل مكانة مرموقة عند المؤرخين الإيطاليين ، وقد تابع معظم المؤرخين التقاليد القديمة فى تخصصاتهم ، حيث كانوا يدرسون موضوعات قديمة تختص بأقاليمهم وذلك حتى الحرب العالمية الثانية على أقل تقدير . وكان جميع الكتاب الكبار تقريبا من الشمال . وكان سعى الفاشيين لتقرير المصير وللتكامل القومى يجد تعين في إعادة تفسير الموضوعات المطروحة بصورة إجمالية وفي توسيع القاعدة الإقليمية للدراسات التاريخية . ونجد فى هذه الفترة ، دراسات تاريخية عن أسرة سافوى الملكية وعن الماضى الرومانى ، وهى دراسات تتم صياغتها بتعبيرات قومية ؛ بحيث تبدو سوابق مماثلة أو نماذج لموسولينى . وأصبحت الدراسات التى يقوم بها إيطاليون عن إيطاليا تعامل للمرة الأولى باعتبارها مكافئة للدراسات التى يقوم بها الأجانب ، وقد استمرت الدراسات الكلاسيكية والخاصة بالعصر الوسيط محتفظة بمكانتها ، لكن دراسات التاريخ الحديث أيضا أصبحت مساوية لها فى تلك المكانة . وبحلول أواخر الخمسينيات واجهت المدرسة الليبرالية المسيطرة على تفسير التاريخ الحديث تحديا من قبل مدرسة ماركسية فى التاريخ .

ومن بين العدد الكبير من المؤرخين الذين واصلوا الكتابة عن النهضة وعن الفترات الكلاسيكية الخاصة بأقاليمهم ، تبرز أسماء مثل : «ميركيريو انطونيللى» (١٨٦٣ - ١٨٤٠) ، و «جيرولامو بيكارو» (١٨٥٨ - ١٩٣٧) ، و «سيزار امبريال دى سانت انجلو» (١٨٦٠ - ١٩٤٢) . وأنطونيللى ، الذى كان دارسا للعصر الوسيط ، ولد فى «مونتفياسكون» فى «لا تيام» بوسط إيطاليا ، ودارت أهم أبحاثه فى معظمها حول المنطقة التى ينتمى إليها . والشئ نفسه حدث مع معاصره ، بيسكارو الذى خصص أبحاثه لموضوعات تتراوح ما بين ملفات الفاتيكان إلى عصر النهضة ، وتشتمل على دراسة الكاتدرائيات والمقابر الكائنة فى موطنه «لومبارديا» . أما سيزار فقد ولد فى جنوة لأسرة من الأشراف . وداخل البرلمان ، كان يمثل المصالح الخاصة بالمشتغلين بالملاحة البحرية . وعلى المستوى الثقافى ، بينما كان المتوقع أن يكون ذو أفق دولى ، نجد أن ولاءه كان موجها للمنظمات الثقافية الإقليمية ، خاصة ما كان منها متخصصا فى موضوعات العصر الوسيط [٣٧] . وبينما كان مثل هؤلاء المؤرخين يواصلون الاتجاهات القديمة فى اختيارهم للموضوعات الدينية الإيطالية ذات الصبغة المحلية ، فإنهم أيضا تبنوا ملامح أولية للاتجاه الحديث ، الذى تطور بعد ذلك فى الفترة الفاشية ، وهو الاتجاه إلى «طلينة» التاريخ الإيطالى ، وهى نقطة سنعود إليها فى الحال . وهكذا ، فعلى الرغم من أن بيسكارو كان ليبراليا قوميا ، فإن صيته بلغ أقصى مداه فى العصر الفاشى .

وبينما احتلت مباحث مثل التاريخ والثقافة الإيطالية فى العصور الكلاسيكية والوسيطة وعصر النهضة ، مكانة مرموقة بين المؤرخين الإيطاليين ؛ فإنه يتضح من الأدبيات الحديثة ذات الصلة مدى السيطرة على هذه المجالات ، من قبل مؤرخين ودارسين للكلاسيكيات من الألمان والإنجليز ، ليس على المستوى العالمى فحسب بل داخل إيطاليا نفسها . ولكى يكون الوضع كذلك ، لا يمكننا إلا افتراض أنه كان مقبولا من الدولة الإيطالية أيا كانت الأسباب . فلو كان غير مقبول ، لرفض القادة السياسيون المزاعم الأجنبية ولأكدوا على الاكتفاء الذاتى المحلى مثلما فعل موسولينى . هل كانت الدولة تخشى أن يتخذ دارسو الكلاسيكيات من مجال بحثهم وسيلة للنقد ؟ هل قبلت الدولة الباحثين الأجانب بسبب علاقاتها السياسية ؟ هذه أمور يصعب تحديدها . لكن ما يحتاج إلى أن نقر به على الأقل هو حقيقة أنه لفترة طويلة ظل مسموحا للباحثين الأجانب بأن يوجهوا اللوم للباحثين الإيطاليين ، لأنهم مهتمون بالدراسات الرومانية أكثر من اهتمامهم بالدراسات اليونانية ، ولأنهم - على الأخص - حينما يدرسون العالم الرومانى القديم ، إنما يفعلون ذلك من منطلق قومى وليس من منطلق البحث فى الكلاسيكيات . لماذا يتقبل الباحثون الإيطاليون بل ويحتفون بالنقد الموجه إليهم ؟ لماذا يؤكد الباحث الألمانى «ريتشل» ، الذى احتل مكانة قيادية فى القرن التاسع عشر فى مجال المعالجة النقدية للنصوص ، بسبب اختياره لعمل الباحث الكلاسيكى فالورى (١٨٠٥ - ١٨٩٧) عن «بلوتس» ، كمثال لذلك النوع من «عدم الكفاءة» [٣٨] . فبالنسبة للناظر من الخارج على الأقل ، لعب الإيطاليون دورا رئيسيا فى تطوير ذلك المجال . فالباحثون الإيطاليون قاموا بحفريات من القرن التاسع عشر فصاعدا . ونذكر هنا عمل «لانسيانى» ومن بعده ج. بونى (١٨٥٩ - ١٩٢٥) وهو الأكثر شهرة ، ثم «ب. أورسى» وهو الذى اشتهر لإعادة اكتشافه لصقلية ما قبل التاريخ . وعلى الرغم من ذلك فالجدالات العقلية «الكبرى» ، والتوليفات والتفسيرات الخاصة بالتاريخ الرومانى ، قام بها ولا يزال يقوم بها باحثون من غير الإيطاليين . وطبقا للدوريات الخاصة بالكلاسيكيات فى شمال أوربا ، يبدو إسهام إيطاليا مقصوراً على التنسيق والتجميع البيبليوجرافى على النحو الذى نجده فى دوريات مثل : Atene e Rome (١٨٩٨ -) ، Rivista di Filologia (١٨٧٣ -) ، II Hondo Classico, . وفى معاهد مثل «المدرسة الإنجليزية فى روما» والتى رغم هامشيتها وضآلة دعم إنجلترا لها ، ما زالت حتى اليوم تحظى بمكانة لدى الدولة الإيطالية [٣٩] .

فالقبـول طواعيـة بالتبعيـة الثقافيـة ؛ والنزوع إلى دراسة موضوعات محلية ؛ وعدم القدرة على مواجهة مشكلة السيطرة الأجنبية على كثير من دراسات التاريخ الإيطالى ؛ كانت تشكل بعض ملامح العصر الليبرالى القديم الذى يجب اعتباره جزءاً من الهيمنة .

وأخيرا وليس آخرا ، يمكن القول إن الحقبة الفاشية جاءت أثناء فترة اتسمت على نحو خاص بالركود فى مجال كتابة التاريخ (٤٠) . فالهيكل الأساسى لمهنة كتابة التاريخ ، وهى اللجان الإقليمية للتاريخ المحلى لم تكن تقبل مشاركة الباحثين الشبان ، واتسمت الدوريات كذلك بتصلب مماثل . فدوريات مثل «Rivista Storifa Italians» ، و «Archivio Storico Italiano» ، كانتا آخذتين فى الأفول ، تاركة المجال لمجلة «Nouva Rivista Storica» (١٩١٧ -) وحدها كمجلة تعبر عن الأفكار الحديثة . وفضلا عن ذلك ، ففى بداية القرن العشرين ، أخذ الجيل الأقدم من الباحثين يعتزل العمل دون أن يترك تلامذة مبدعين . وفى الوقت الذى صدرت فيه الفاشية كان «فينو توماسيا» (١٨٦٠ - ١٩٣١) المؤرخ القانونى البارز على وشك إنهاء فترة عمله فى «بيزا» و «بادوا» و «ألساندرو دانكونا» (١٨٣٥ - ١٩١٤) ، باحث الفولكلور والمؤرخ السابق الذكر ، توفى حديثا .

وقد منح هذا الوضع بعض الحرية فى استخدام التاريخ . فالتاريخ كان مجالا ملائما لخدمة النضال من أجل التكامل القومى فى مواجهة الإقليمية . وفضلا عن ذلك ، يمكن أن يضفى هالة من العظمة على الدولة الإيطالية القائمة بجعلها استمرارا لعظمة الماضى . فإذا التفت الليبراليون إلى حركة البعث فى القرن التاسع عشر ، فبإمكان الفاشيين أن يستندوا إلى عصر النهضة ، فهو أكثر ملاءمة لهم بدرجة كبيرة . ومثل هذه المحاولات للانتساب للماضى كانت تحدث فعلا ، ففى عملين معروفين للمراجعة الفاشية هما «سافونارولا» و «ميكيافيلى» ، أرجع المؤلف «باسكال فيلارى» ، أصول القومية الإيطالية إلى آل سافوى . ورد الليبراليون على هذه المبادرة بإعلان سخطهم ، ولم يكن «فاليرى» ندا لهجومهم المضاد . ففى رد محدد عليه أكد «بندتو كروتشه» ، فى دراسة له أن عصر الباروك فى إيطاليا قد تدهور واستنفذ قواه وأصبح باعثا على القنوط على عكس ما اتسم به القرن التايع عشر من بعث للأمل . على أن المؤرخين الفاشيين كانوا أكثر نجاحا فى دراسات العصور القديمة والوسيطة . فقد أبرز «جيواتشينو فولبه» وهو أستاذ فى روما ، أهمية كينونة العصر الوسيط باعتبارها مثالاً

سابقًا للدولة الإدماجية الحديثة [٤١] . كذلك اعتبرت الإمبراطورية الرومانية ، بالنسبة لمؤرخين آخرين متعاطفين مع الفاشية ، مثالاً للفاشية . لذلك فليس من المستغرب أن يدعم الفاشيون الدراسات الرومانية بسخاء . وقد بذل الكثير للقيام بدراسات عن ثغر أو ستيا ، وعن روما القديمة نفسها ، وبومبى ، والثقافة الرومانية فى شمال أفريقيا خاصة فى ليبيا . فاكتشاف عظمة الأمثلة التاريخية السابقة أسهمت بوضوح فى دعم موقف النظام وهو الهدف الأساسى . ووفقا لمقال كتبه أحد الباحثين البريطانيين فى الكلاسيكيات ، فإن دراسات نظام موسوليني فى ذلك المجال لم تمنحه مكانة خاصة خارج إيطاليا [٤٢] . فقد ذهب ذلك الباحث وهو أ. هـ. ماكدونالد ، إلى أن مجال الدراسات الرومانية الذى نشأ فى القرن التاسع عشر لم يشهد تطورا يذكر فى ستينيات القرن العشرين ، فعلى الأقل بالنسبة للأوربيين الشماليين ، ظلت أعمال «مومسن» و «إدوارد ماير» و «بلوخ» ، و «نيس» ؛ تراوح مكانها .

على أن ما يلفت النظر هنا ، إنما هو التنافس فى حد ذاته . فلأول مرة ، يحتل التاريخ مكانة هامة لدى الهيمنة بدرجة جعلت الدولة تدعم نموذجا تاريخيا معينا . فكما لاحظ أحد الكتاب البريطانيين ، شكل الباحثون الإيطاليون فى الكلاسيكيات تحديا لهيمنة أوربا الشمالية على ذلك المجال . قد يكون تحديا متواضعا لكنه تحد على أية حال بل وتحد استمر إلى ما بعد سنوات الحرب .

والباحث الذى ارتبط اسمه أكثر من سواه بهذا التحدى هو «أرنالدو موميجليانو» . فقد كان أول باحث كلاسيكيات يدرك ما ينطوى عليه هذا المجال بالنسبة لإيطاليا الحديثة . ونظرا لما بذله من جهد شاق فى هذا السبيل أطلق عليه لقب« محرر الدراسات الهلينية الألمانية من التأثيرات الاستعمارية» [٤٣] . لكنه لم يكن وحده ، ففى السنوات التالية للحرب ، قام عديد من الكتاب الآخرين بالاضطلاع بنفس المهمة ، وكان من بينهم «اس. مانزارينو» ، و «ج. كاركوبينو» ، اللذان قاما بدراسات نقدية لموضوع ديكتاتورية القياصرة . على أنه ، فى سنوات الحرب ، لم تعد الدولة الإيطالية مهتمة ، ولم تحرز هذه الدراسات سمعة تضاهى سمعة موميجليانو .

وكان أحد موضوعات اهتمام القوميين الإيطاليين ، هو كتابات باحث الكلاسيكيات الألمانى ، «فرنر جيجر» ، كبير باحثى الجيل الأخير . وكانت أهم أعمال «جيجر» هى «Paideaia» وهى دراسة البرنامج التعليمى للاستقراطية فيما يتعلق بالكلاسيكيات اليونانية . وقد رفض «جيجر» فى هذه الدراسة فكرة أن البلدان القديمة كانت لها

ثقافات باستثناء اليونان ، ولكى نفهم الثقافة اليونانية يجب أن نفكر باليونانية وليس بالألمانية . وقد رد موميجليانو على ذلك بفكرة أن دراسة الكلاسيكيات يجب أن تستخدم الطرق الحديثة فى التحليل مثل الأنثربولوجيا وعلم الاجتماع . لكنه كان مترددا إزاء تبنى تعميمات علم الاجتماع وإن كان قد فعل ذلك ضمنيا .

وكان ثمة موضوع آخر اهتم به الإيطاليون بوضوح هو عمل المؤرخ السويسرى الشهير «جاكوب بوركهارت» المسمى «حضارة النهضة فى إيطاليا» والذى يعادل دراسة جيجر فى الكلاسيكيات (٤٤) . فقد ذهب «بوركهارت» إلى أن «النهضة» تمثل أيضا فترة ذات أهمية عالمية فى التاريخ الإنسانى ، فهى نقطة الانطلاق إلى ثقافتنا العلمانية الحديثة . ووجهة النظر هذه ، بينما كانت تروق للبعض كان البعض الآخر يجد أنه لا يستطيع إلا أن يرفضها . فالمؤرخون نوى الميول الدينية ، حتى فى شمال أوربا ، لم يكن باستطاعتهم أن يقبلوا تماما فكرة أن الروح الدينية فى العصور الوسطى لم يكن لها تأثير على إبداعات «النهضة» . وعلى ذلك ، فقد أخذ الباحثون الإيطاليون ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، بدءاً من مؤرخ الفنون «أدولفو فنتورى» ، وقبل ظهور الفاشية بسنوات ، يصوغون تفسيرات إيطالية للنهضة الإيطالية . ولما جاءت الفاشية ، وجدت ميلا عاما لمناصرة التاريخ القومى ، فعملت الدولة على تنميته . وقد ظهر خلال فترة ما بين الحربين ، كتابان مهمان يتبنيان التفسير الإيطالى – المسيحى «للنهضة» : أحدهما «لفلاديميرو زابوجين» فى ١٩٢٤ ، والثانى لـ «أ. سيسيليانو» فى ١٩٣٦ ، ورغم المزاعم القومية للفاشيين ، بحثت الكتب الرئيسية للمؤرخين الإيطاليين الكبار عن شرعيتها بتأسيس نتائجها على كتابات مؤرخين غير إيطاليين ، وينطبق ذلك أيضا على أشهر المؤرخين الإيطاليين أمثال فيديريكو تشابور (١٩٠١ – ١٩٦٠) وكروتشه (٤٥) .

وبينما شهدت الفترة الفاشية أعلى درجة من إسهام التاريخ فى الهيمنة ، لم يقف المؤرخون النشطون جميعا فى صف الفاشية . ففى مجال التاريخ الحديث ، كان تأثير الفاشيين ضعيفا بشكل واضح . وربما كان ذلك وراء سياسة الحزب الرامية إلى عدم تشجيع الدراسات الخاصة بالتاريخ الحديث ، وإعاقة مسار المشتغلين به وسواء كانت تلك هى السياسة الفعلية للحزب أم لا ، فالجدير بالملاحظة أنه لم يستمر فى عهد الفاشية من بين هؤلاء المؤرخين البارزين فى تاريخ إيطاليا الحديث ، سوى «فيدريكو تشابور» الذى تلقى تعليمه فى ألمانيا . وهى نقطة تستحق الاهتمام بشكل خاص ، لأن فيدريكو

كان ليبراليا ، ومعارضا للفاشية ، ولم يكن حتى إيطاليًا قوميًا . ربما كان استمراره ضربة حظ ، أو ربما استمر لأنه كان يعنى شيئا ما بالنسبة للفاشية كأن يكون رابطة صلة بين إيطاليا وبين أكاديمية العلوم الألمانية . وهذه كلها تخمينات ، لأنه لا توجد طريقة للحكم على كيفية نظرة الدولة إليه . فكل ما هو معروف بصورة مؤكدة مستمد من تاريخه المهنى . فحينما عاد من ألمانيا ليدرس فى إيطاليا كتب كثيرا ، مثل أستاذه «ينيك» ، حول الصراع بين الأخلاق والقوة وحول مشاكل النزعة الخطية والوضعية كما توجد فى الكتابات التاريخية الإنجليزية .

وقد كان «تشابود» محظوظا لدرجة كبيرة فى حياته المهنية ، فكثير من المؤرخين المعروفين والذين كانوا معادين للفاشية مثل : «سلفاتوريللى» و «جيتانو دى سانكيتس» ، فقدوا وظائفهم ؛ وأرغم المؤرخ الليبرالى المعروف «جاستانو سالفيمين» على مغادرة البلاد (٤٦) . وقضى المؤرخ الشيوعى «أميليو سيرينى» بعض الوقت فى السجن ، واغتال الفاشيون عام ١٩٣٧ «نيللو روسيللى» ، المتخصص فى دراسات «ماتزينى» (٤٧) .

وأخيرا ، كان للوضع العقلى الهامشى للمؤرخين الفاشيين فى حقول مثل التاريخ الحديث ؛ أثره على الحزب نفسه . فقد استطاع الليبراليون البارزون مثل كروتشه ، أن يستميلوا معظم المتخصصين فى هذا الفرع إلى جانب العداء للفاشية . فلم يكن لدى النظام سوى الشئ القليل ليقدمه للباحثين . وكان «تشابود» هو أشهر من استطاع كروتشه استمالتهم إليه . فقد قبل «تشابود» دعوة كروتشه له لأن يترك «تورنيو» وأن يتولى منصب مدير مركزه للدراسات التاريخية فى نابولى (٤٨) . ثم تبع تشابود ، «أدولفو أموديو» (١٨٨٩ – ١٩٤٦) .

وكانت استمالة كروتشه لكل من تشابود وأموديو تمثل إحدى قمم النضال ضد الفاشية ، وكان أموديو قد بدأ حياته العلمية تلميذا «لجنتايل» فى الفلسفة فى «باليرمو» ، وبمعنى آخر كان فاشيا وظل لجنتايل تأثير عليه طوال حياته . وبفضل رعاية جنتايل له أصبح أوموديو فى نهاية الأمر أستاذا فى تاريخ الكنيسة فى نابولى . وكان أوموديو قد خدم كجندى فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت تلك تجربة مريرة للغاية بالنسبة له . وبقدر ما كان أوموديو يكن المشاعر المعادية للحرب فى الشمال ، كانت تجربة الحرب مفجعة بالنسبة له بدرجة جعلته يتخلى فى أواخر حياته عن جنتايل وعن الفاشية ، وسمحت بتحوله إلى كروتشه ، وإلى الليبرالية .

وتعيدنا هذه النقطة إلى مشكلة تقييم كروتشه . فهل كان كروتشه عنصرا هاما فى النضال ضد الفاشية ؟ لم يقبل النقاد الراديكاليون بمن فيهم جرامشى هذا التفسير لدور كروتشه . فقد رأوا أنه ، إذا صرفنا النظر عن دوره كناقد ، يعتبر فى واقع الأمر متعاونا مع النظام . وعلينا أن نذكر أن كروتشه قد جذب شباب الجنوب المثقف إلى الالتفاف حول جريدته لا كريتيكا «La Critica» مما يعنى إبعادهم عن الارتباط بالفلاحين الراديكاليين ، وهو موقف يعتبره جرامشى وآخرون إسهاما إقليميا فى دعم النظام (٤٩) . وأيا كان الرأى فى دعم كروتشه للنظام ، فإن الأمر المؤكد أن نقده للوضعية والعنصرية الفجة فى علم الاجتماع الفاشى هو شئ ضد النظام . وحينما سعى الباحثون التابعون لموسولينى إلى استغلال النظريات البيولوجية حول العرق والأجناس لتحقيق أغراض استعمارية ، عارض كروتشه الأسس التى يبنون عليها توجهاتهم . فقد ذهب إلى أن مثل هذه المباحث لا تنتج معارف حقيقية . بل ذهب أبعد من ذلك إلى أن العلوم والرياضيات ، تفتقد الخصائص المنتجة لمعارف حقيقية . فالحياة الإنسانية محاطة بالأسرار ، والذكاء الإنسانى الذى وهبه الله لنا يسمح لنا فقط بفهم المواقف الفردية ، دون أن يجعلنا قادرين على تكوين رؤية أشمل . وقد كان كروتشه ، بالنسبة لنظام حاول تطويع بنية المعرفة لأغراض الدعاية ؛ شيئا من الصعب الإيقاع به . فلم يكن بإمكان النظام أن يتهمه باللامبالاه مثلما يفعل مع الليبرالى الوضعى ، ولا أن يتهمه بالمعارضة مثلما يفعل مع الماركسيين ، بل لقد أرغم النظام على أن يحمل أثقال ما تتسم به طريقته من شمولية وتعقيد لا حد لهما .

وقد كتب كروتشه عددا من الدراسات التاريخية تتضمن هجوما على «فيلارى» ودفاعا عن حركة البعث الإيطالية . كما ساهم فى تطوير مركز مستقل للدراسات التاريخية فى نابولى . لكن الإسهام الأكبر لكروتشه فى مجال التاريخ ، كان محاولته تحرير التاريخ من النزعة الوضعية بأن جعل الوضعية لا تزيد عن كونها أحد مناهج البحث التاريخى . وبقدر نجاحه فى ذلك ، أى فى دفع معاصريه إلى وضع فرضيات الوضعية موضع تساؤل ، بقدر ما قلل من احتمال قيام المؤرخ بدور الداعية (٥٠) .

سنوات ما بعد الحرب فى التاريخ الإيطالى

يرى موميجليانو ، الذى يعد من أشد المدافعين عن الاتجاه الوضعى فى دراسة التاريخ ، أن فترة ما بعد الحرب لم تشهد أية تغيرات حقيقية فى كتابة التاريخ فى إيطاليا (٥١) . ويعزو ذلك إلى أنه لم تحدث أية تصدعات حقيقية فى الحياة العقلية الإيطالية بنهاية الحرب . وهو رأى صحيح من زاوية ما ، لكنه – فيما أعتقد – خطأ من زوايا أخرى .

فموميجليانو مصيب تماما من حيث نوعية المشاريع التى تبناها التيار الليبرالى الرئيسى داخل علم التاريخ فى سنوات ما بعد الحرب ، وحتى من حيث استمرار الارتباط الوثيق للكتابة التاريخية بتقاليدها الخاصة . فمثلا حينما كان المؤرخون الإيطاليون بصدد تقييم «مدرسة الحوليات» ، التى احتلت فجأة مكانة مرموقة فى سنوات ما بعد الحرب ، وجدوا أنهم ارتدوا إليها بسبب الحاجة إلى القياس الكمى . بينما القياس الكمى ليس له أساس فى كتابة التاريخ الإيطالى (٥٢) . كذلك الحال بالنسبة للحقب الطويلة Longue Durée . فالمؤرخون الإيطاليون يفضلون طريقتهم التى تمنح الزمان خصوصية خاصة . لذلك استمر التقليد الخاص بدراسة التاريخ المحلى مزدهرا . فالكتابات الخاصة بالتاريخ المحلى ظلت فى فترة ما بعد الحرب مثلما كانت من قبل ، مجالا مفضلا لدى كل من المحترفين والهواة من كتاب التاريخ . فإقبال القراء المحليون عليها يجعلها فى أغلب الأحوال مصدرا للدخل . وإذا كان اهتمام الفاشيين بما هو رومانى قد جعل الأساتذة فى جامعة روما فى معهد الدراسات التاريخية «Instituto Storico» ينتجون خلال الفترة الفاشية ، دراسة تاريخية لروما تصل إلى ٣٠ مجلدا ؛ فقد قامت فى فترة ما بعد الحرب أساتذة التاريخ بإنجاز دراسة مماثلة فى الحجم لتاريخ ميلانو (٥٣) . فأين هو التغيير ؟

الواقع أن تغيرا قد حدث فعلا فى الحياة العقلية الإيطالية ، وكان له تأثير على مجال كتابة التاريخ بعد الحرب العالمية الثانية . فأولاً · لم تعد الدولة تسعى بدرجة ذات أهمية إلى استخدام التاريخ كجزء من الهيمنة . وأصبح من الواضح أن المؤرخين لم تعد لهم أهمية مثلما كانوا فى الفترة الفاشية . وثانيا : فهناك تغير ملحوظ فيما يتعلق بما على الدراسات التاريخية أن تتصدى له أو ترغب فى مواجهته – بالمعنى العقلى – فى هذه الفترة . فإذا كانت الدراسات التاريخية الوضعية الليبرالية ، منذ القرن التاسع عشر ، توجه انتقاداتها إلى الفلاسفة «الجنوبيين» الميتافيزيقيين ، فبعد عام ١٩٤٨ أصبح على المؤرخين الليبراليين أن يواجهوا الماركسية .

وإذا كان بالإمكان الاختلاف حول مدى جدة المناقشات الدائرة بين الليبراليين والماركسيين فى تلك الفترة ، فسيظل علينا الاعتراف بأن ثمة تغييرا قد حدث . فالشيوعيون ، على أية حال ، قد أخذوا يتقبلون أسس المجتمع الليبرالى ، وأخذت أفكارهم تحظى بالاحترام . وبعد اكتساب هذه الحرية الجديدة ، أصبح بإمكان الحزب الشيوعى أن ينشر أعمال كتابة الكبار فى طبعات كاملة . فأصبحت أعمال جرامشى وآخرين متاحة ، وأصبح بإمكان المؤرخين أن يستفيدوا منها . وبحلول الخمسينيات ، شهد البحث التاريخى كتابات حول تاريخ العمل ، وطبيعة اليعقوبية ، والمسألة الزراعية ، وطبيعة الرأسمالية المتأخرة ، وهى موضوعات تم تناولها بنجاح من خلال فكر جرامشى . وقد حفز نجاح الباحثين الماركسيين فى هذه الدراسات ، عددا من المؤرخين الليبراليين على تبنى موضوعات اقتصادية – اجتماعية أيضًا . وكان الجدال الرئيسى فى تلك الفترة ، هو الذى جرى بين المؤرخ الليبرالى البارز «روزاريو روميو» وبين «الجرامشيين» ، حول طبيعة «حركة البعث الإيطالية» و «المسألة الجنوبية» (٥٤) .

ودار جدال آخر فى تلك الفترة حول طبيعة الفاشية . وفى هذا المجال ، تلقى الليبراليون الإيطاليون دفعا كبيرا بفعل الأثر المفاجئ الذى أحدثته الدراسات الليبرالية الأنجلو – أمريكية حول إيطاليا ، وكان كتّاب مثل «دينيس ماك سميث» و «إدوارد بانفيلد» اللذان فعلا الكثير لتشكيل وضعية إيطاليا فى التصور التاريخى ؛ قد أكدا فى كتاباتهما واسعة التأثير أن النخبة الليبرالية فى إيطاليا التى كان منوط بها أن تنتصر ، أظهرت عدم كفاءة بدرجة لا تصدق مما جعلها مسئولة جزئيا عن مجئ الفاشية وعن المساوئ الأخرى التى حدثت لها . فقد تبنيا وجهة النظر التى ترى أن الإيطاليين بحكم طبيعتهم القومية فوضويون ، وبالتالى كان من الطبيعى أن تنشأ لديهم اتجاهات مضادة سلطوية مثل الفاشية التى كان يجب على الليبراليين أن يناضلوا ضدها .

وإذا كانت الليبرالية الأجنبية قد قنعت بآراء تكونت فى الفراغ حول سمة قومية مفترضة لإيطاليا ؛ فقد كان على الليبراليين الإيطاليين أن يواجهوا الميراث العقلى لليسار بصورة أكثر مباشرة ، كأن يدافعوا عن فكرة أن حالة الركود التى أدت فى نهاية الأمر إلى إنبعاث الفاشية ، إنما نشأت عن النضال الاشتراكى . وقد أثار روزاريو روميو جدالا حول هذا الموضوع فى كتابة «حركة البعث الإيطالية والرأسمالية» . فقد ذهب «روميو» فى هذا الكتاب البالغ الأثر إلى أن تفسير «جرامشى» للتاريخ الإيطالى الحديث ذو دوافع سياسية وبالتالى فهو ليس علميا . فهو يتأسس على مجموعة

استدلالات مستمدة من المماثلة مع الثورة الفرنسية . ويرى «روميو» أن الثورة الزراعية لو كانت قد حدثت فى إيطاليا ، مثلما حدث فى فرنسا عقب الثورة الفرنسية ، لكانت تسببت فى تأخير مجئ الرأسمالية . على أن عوامل أخرى ، مثل شدة تأثير السوق الخارجية ، وقفت على أية حال ، عائقا أمام حدوث مثل تلك الثورة . وقد رد الماركسيون على جميع النقاط التى أثارها روميو . فقد ذهبوا أولا : إلى أن جدالاً قد نشب فى ذلك الوقف حول مدى فائدة الإصلاح الزراعى ، الذى لم يكن فكرة شيوعية ، وبالتالى لم يكن لها أثر فى تسييس الدراسات التاريخية ، أو كان أثرها على الأقل محدودا على عكس ما ذهب إليه «روميو» ، وذهبوا ثانيا : إلى أن الثورة الفرنسية رغم أنها كانت أحد الأشكال الأولية التى تطورت عنها البرجوازية ، إلا أنها لم تكن الشكل الأولى الوحيد ، وبالتالى كان من الخطأ رفض نظرية «جرامشى» على أساس اعتمادها على نموذج محدد ، وذهبوا ثالثا :إلى أن روميو نفسه ارتكب أخطاء فى تفسير التاريخ الاقتصادى الإيطالى . فقد ذهب روميو إلى أن ثمة ضرورة لحدوث تراكم رأسمالى ، لكنه لم يؤكد على أهمية الدور الذى يلعبه الإصلاح الزراعى فى تلك العملية . فالتراكم يتطلب تفكك البنية الفلاحية ؛ لأن الفلاحين لا يسمح وضعهم بإسهام ذى شأن فى عملية التراكم . ونتيجة لإخفاق الليبراليين فى فهم هذه المسألة – ولم يكن روميو وحده فى ذلك – فما حدث فعلا هو أن معظم الاستثمارات فى إيطاليا كانت استثمارات أجنبية واستثمارات دولة . ألم تعن إيطاليا من الفاشية ومن شبه الاستعمار نتيجة لذلك ؟

ولنتذكر أن هذه المجالات كانت تحدث فى ظل فوز الحزب الشيوعى الإيطالى فى السبعينيات على أن الديمقراطيين المسيحيين . ونتيجة لشعور الليبراليين بتزايد التحدى الحقيقى على المستوى الفكرى والسياسى ، تشبثت غالبية المشتغلين بالتاريخ منهم بمواقفها ، معارضين الإصلاحات الجامعية فى السبعينيات ومتبنين موقفا ثقافيا دفاعيا على وجه العموم [٥٥] . وفى مؤتمر عقد بجامعة ميلانو عام ١٩٨٠ ، حاول أولئك المؤرخون إضفاء طابع أسطورى على شخصية «فيديريكو تشابود» . واعتبروه رمزا للتاريخ الجديد ، وهو تعبير لم أجده حتى فى معجم دراسة التاريخ الخاص بتلك الفترة .

خاتمـة

قدم هذا الفصل تفسيرا لتاريخ إيطاليا من منظور «الطريق الإيطالى» . ودعواه الأساسيـة هى أن عـام ١٩٤٨ لم يكن ، كمـا يظن عـادة ، خطا فـاصـلا بالكامل فى التاريخ الإيطالى ، بل هو أقرب إلى أن يكون عودة لمرحلة ليبراليـة فى تاريخ الهيـمنة القديمة . والدلائل المستمدة من التاريخ الاقتصادى ومن سوسيولوجيا العلاقات القائمة على النوع الجنسى ومن المجالات الثقافية بما فى علم التاريخ ؛ تميل إلى تدعيم هذه الفكرة . وثمة نقطتان مترتبتان على هذا التفسير التعديلى ، تعتبران من الأهمية بمكان بالنسبـة للفكرة الرئيسـية للكتاب . الأولى هـى أنه إذا كانت إيطاليا منتمية للطريق الإيطالى مثلما تنتمى روسيا للطريق الروسى ، فإن أوربا تصبح أكثر من مجرد ديمقراطية برجوازية ، وأننا لا نستطيع أن نتحدث عن أوربا من ناحية فى مقابل باقى العالم من ناحية أخرى وكأن بينهما خطًا فاصـلاً . أما النقطة الثانية فهى أننا لكى نحدد الخصائص فإن علينا أن نقيم مقارنات ، وهذا ما يجعل الدراسة تنأى عن أوربا مرة أخرى .

هوامش الفصل الرابع

١ – نكتفى هنا بالإشارة إلى الأمثلة الأخرى المحتملة مثل : مصر ، والبرازيل وتنزانيا ، وألمانيا فى الفترة من بسمارك إلى فيمار . ويمكن للقارىء المهتم مراجعة :

Maridi Nahas, "Hegemonic Constraints and State Autonomy : A Comparative Analysis of Development in Nineteenth Century Egypt, Spain and Italy," (Ph.D., diss. UCLA, 1985); Xiao-rong Gu, "Resource, Choice and Power : A Comparative Study in Social Change and Ideologital Transformation of Germany (1848-1914), Italy (1861 - 1963) and Egypt (1919-1983)," (Ph.D. diss., Temple Univ., 1988).

٢ – ليس المقصود بهذه النقطة مراجعة الفكرة السائدة . والأدفينا فيدانتا» وهى الفلسفة التى يعتبرها الغرب جوهر الفكر الهندوسى ، ليست فى الواقع سوى مدرسة واحدة من بين مدارس فلسفية أخرى ، وهى من نواح معينة أكثر اتساما بالميول الأخروية . فثمة عدة مدارس متنافسه فى الهند .

هذه نقطة . والأخرى هى أن المدارس الفلسفية لها سياقها الاجتماعى في الهند كما فى غيرها . فكما سنرى فى الفصل التالى كجزء من دواعى اختيار الهند مثالا للطريق الإيطالى ، فإننا نجد أن المراكز الكبرى للتقاليد الميتافيزيقية فى عصرنا الحالى إنما توجد في «الجنوب» .

٣ – Carlo Levi, *Christ Stopped at Eboli* (New York : Farrar, Straus, and Company, 1950), 91; More generally, see Salvatore Salomone-Marino, *Customs and Habits of the Sicilian Peasants* (Rutherford : Fairleigh Dickinson Univ. Press, 1981), ch. 19;

وعلى نحو يبدو متناقضا ، فإن الأفكار المتعلقة بالحضور المباشر لله ، وبالطبيعة الدورية للزمن ، إنما تبلورت داخل الفولكلور الإيطالى ووسط الفلاحين الأقباط المسيحيين فى صعيد مصر . ومن المفيد هنا أن نتذكر أن مصر أيضا تنتمى للطريق الإيطالى . فقد أسس أحد الصقالبة الذى سمى نفسه «القبطى الأعظم» ، النظام المصرى» للمحفل الماسونى . وهو «جيوسيب بالسامو» ، الذى يدعى كاجليوسترو ، والذى ولد فى باليرا فى ١٧٤٣ . ولو أردنا المضى فى تتبع التوازى بين مصر وإيطاليا ، فإن من المفيد أن نلاحظ أن معظم الفلاحين الأقباط يوجدون فى صعيد مصر ، وهى المنطقة التى تشكل «جنوب» مصر . انظر :

Samuel Sharpe, *Egyptian Mythology and Egyptian Christianity With Their Influence on*

the Opinions of Modern Christendom (London, 1869), 106ff.

٤ — الشعور بالتقارب التاريخى بين الدول التى تنتمى لنفس الطريق التاريخى يمكن فى بعض الأحيان اعتباره أحد سمات هذا الطريق . فهذا هو ما يحدث مثلا بين دول الطريق الديمقراطى . فالمواطنون فى هذه البلدان يميلون إلى الاعتقاد بأن على السياسيين أن يجعلوا العالم أمنا بالنسبة للديمقراطية . وبالنسبة لدول الطريق الإيطالى ، فإن التفهم المتبادل يعتبر حقيقة بارزة، لكنه لايكاد يمضى أبعد من ذلك . وحول تفهم الحركة القومية الهندية للخبرات المناظرة لها فى إيطاليا ، انظر :

Gita Srivastava, *Mazzini and His Impact on the Indian National Movement* (Allahabad, 1982), 188-189, 262; Giuseppe Flora, "Studi Mazziniani in India a Proposito di un Recente Volume," *Rassegna Storica del Risorgimento* 70 (1983) : 40 - 45; also his "Surendra Nath Baner jea e Mazzini," *ibid.* 69(1982) : 297 - 313;

وللاطلاع على دراسة حديثة نشرت فى الهند ، راجع :

Ivan Scott, *The Rise of The Italian State : A Study of Italian Politics During the Period of Unification* (Meerut, 1980).

وبالنسبة للمكسيك ، فالروابط تبدو غير مباشرة بدرجة أكبر ، انظر :

Arnold Blumberg, "The Italian Diplomacy of the Mexican Empire, 1864 - 1867," *Hispanic American History Review* 51(139/1) : 497-501;

وحول شخصيته «بورفيريو دياز» ، حاكم المكسيك في أواخر القرن التاسع عشر ، الذى نهج أسلوبا سياسيا تحوليا ، توجد طبعة إيطالية من يومياته ترجمها : لباتش ديلكوك ونشرت فى عام ١٩٦٧ ، وانظر أيضا :

Italo Calvino,. *Introduzione A Ocampo. Silvina and Porfiria* (Turin, 1973);

وتشمل الكتابات المكسيكية أعمالاً حول جرامشى ودراسة موجزة حول الأنثروبولوجيا الإيطالية ، انظر :

Juan Comas, *La Antropologia Italiana a traves del Instituto Italiano di Antropologia* (Mexico City, 1978).

وقد لعب م.ن . روى كناقد للبولشفية ذات النمط الستالينى فى الهند والمكسيك ، دورا شبيها بدور جرامشى فى إيطاليا ، وإجراء دراسة مقارنة بين روى وبين جرامشى سيكون مفيدا بالتأكيد . وأخيرا ، يمكن تذكر أن بينتو موسولينى ، قد سمى على اسم القائد الوطنى المكسيكى بنيتو جوريز ، الذى حارب الإمبراطور مكسيميليان . انظر :

Luigi Barzini, *The Italians* (New York : Atheneum, 1979), 134.

وقد كان مكسيمليان في وقت من الأوقات ذا خطر على السيادة الإيطالية أيضا .

Karl Marx, "Two-Mountain-Crowned Peninsulas," in Karl Marx and Friedrich En- – ٥ gels, *The first Indian war of Independence, 1857-1859* (Moscow, 1959), 14, Cited by Victor Kiernan, "Gramsci and the Other Continents, "*New Edinburgh Review*, No. 27(1975) : 19 - 24, esp. 19.

وهذا المقال يثير خلافا حول فائدة الطرق المألوفة فى إيطاليا حاليا فى استخدام جرامشى . مثال ذلك .

Umberto Cerroni, "Italian Communism's Historic Compromise, "*Marxist Perspectives* 1, no. 1(1978) : 126 - 144

وفي الصفحات ١٢٦ – ١٤٤ – يذهب إلى أن جرامشى بحاجة إلى إعادة تفسيره فى ضوء التغيرات الأساسية الحادثة فى العالم المعاصر ، وهو يعنى بذلك العالم فى بادية الحرب الباردة ، عالم الدولة الحديثة القوية ، والتى هى من القوة بدرجة جعلت عصر الثورات يصل إلى نهايته ، وتبنى سيردنى لموقف الشيوعية الأوربية له أساسه العقلانى . فالنمو الاقتصادى لايطاليا فى ذلك الجيل كان مدهشا . ففى عام ١٩٩٠ ، وصل الناتج القومى الإجمالى لإيطاليا إلى مستوى نظيره فى بريطانيا ، انظر :

Parl Ginsborg, *A History of Contemporary Italy : Society and Politics, 1943-1988* (New York : Penguin Books, 1990), 1

لكن هل النمو هو التنمية ؟ هل تزايد الناتج القومى يعنى أوتوماتيكيا تغيرا من ذلك النوع الذى يمكن أن ينهى «المسألة الجنوبية» ؟ على أن جينسبورج ليس مدافعا عن النظرية الشيوعية الأوربية فى تفسير القطع التاريخى . فهو يوازن بين ما يكتب عن التغير وبين التأكيد القوى على الاستمرارية التاريخية لإيطاليا (١-٢) . أما بالنسبة «لبرونى» ولكثير غيره من الكتاب ، فإن جزءاً هاما من عملية تحديث» – وبالتالى استمرار فائدة – جرامشى تتضمن التخلى عن فكرة المسألة الجنوبية . فعلى سبيل المثال ، هناك عدد من علماء الاجتماع البارزين فى فترة ما بعد الحرب فى إيطاليا ،

أصبحوا يعتبرون أن مشكلة الجنوب هى مشكلة تنمية ، أى مشكلة تباطؤ ، وفرص غير متكافئة في مقابل اعتبارها مشكلة نمو متخلف إذا نظرنا إليها من خلال الصياغة التقليدية لجرامشى . انظر عرضا لأرائهم فى عدد خاص من مجلة علم الاجتماع :

"The Southern Question' im Italian Sociology," edited by Paul Piccone for the *International Journal of Sociology* 4 no, 2-3(1974) : 3-203.

وبينما استهدف هذا العدد توضيح التحول فى الفكر الإيطالى ، فإننا نستطيع العثور على مواد مؤيدة لفكرة المسألة الجنوبية سواء في الماضى أو فى الحاضر . فمثلا ذهب أحد الكتاب إلي نفى غياب المساواة في المناطق فى إيطاليا (ص ص ٢٢ – ٤٣) فى فترة البعث وبذلك يجعل المسألة الجنوبية» مسألة تنتمى للتاريخ الحديث على غرار جرامشى ، وتحدث كاتب آخر عن فائدة العصر الفاشى للجنوب (ص ٤٧) ؛ ووجد آخرون عناصر في فكر جرامشى من النوع التلقائى والمثالى الذى يتفقون على أنه ليس جزءاً من الفكر الشيوعى لتلك الفترة (ص ص ١٢٢– ١٢٣) .

واللافت للانتباه في هذا المؤلف المعروف هو أن قليلا من الكتاب – حتى الذين بصدد عرض هذه النقاط .. يذهب إلي أن المسألة الجنوبية قد تم حلها أو فى طريقها للحل حتى لو كانوا يرفضون جرامشى ، وتذهب مقالة أخرى إلي أن مشكلة العلاقات غير المتكافئة بين «الشمال» و «الجنوب» ، حتى في الديمقراطيات البرجوازية مثل الولايات المتحدة ، لاتجد حلا سهلا لها ، حتى لو كان النظام يستمد حياته بالدرجة الأولى من استغلال الفروق العنصرية أكثر من الفروق الأقليمية .

Saul Engelbourg and Gustav Schlachter , "Two Souths' : The United States and Italy Since the 1860's," Journal of *European Economic History* 15, no. 3 (1986) : 563-589,

والمفهوم الذى يتم تبنيه هنا ، والذى يرى «المسألة الجنوبية» باعتبارها مسألة توسيع الشمال إلى المناطق العشوائيه للمدن الشمالية ، لايبدو أنه مستخدم خارج الدراسات السكانية . ويبدو أن الكتاب قد نسوا أهمية العامل الزراعى الجنوبى في الشمال منذ العشرينيات ، حتى عندما كان للمسألة الجنوبية شقا شماليا . وفى السنوات الحديثة ، كانت روما كنقطة التقاء بين الجنوب والشمال مستمرة فى جذب العمال الجنوبيين غير المهرة إلى أطرافها ، وفى أن تفقد باستمرار قوة العمل الماهرة والمتخصصة التى ترحل إلى الشمال ، حيث العمل أنجز بصورة أفضل .

Robert C. Fried, *Planning the Eternal City : Roman Politics and Planning Since World War Two* (New Haven : Yale Univ. Press, 1973)m 72-87' Anne-Marie Serond-Babonaux, *De l'Urbs a la Ville; Rome Croissance d'une Capitale* (Aix-en-Provence : EDisud, 1980) 26-252;

Ginsborg *op. cit.*, 353,

وقد ذكر أنه في عام ١٩٧٣ كانت الهجرة من أيطاليا متساوية مع الهجرة إلى إيطاليا ، وهذا معناه أن المسألة الجنوبية لم تتأثر بعملية الهجرة تلك .

ومجموعة الكتابات الثانية التى تدعم فكرة استمرار وجود المسألة الجنوبية هى الكتابات السوسيولوجية حول استمرار ازدهار الدين الشعبى فى إيطاليا المعاصرة . فلأن الجزء الأكبر من الدين الشعبى يوجد في الجنوب ، يمكن الاستدلال من ذلك على أن ثمة نوعا من الاستمرارية الاجتماعية مع ما قبل ١٩٤٧ ، وهو شيء لا نستطيع بسهولة أن نوفق بينه وبين الأفكار الشائعة حول المعجزة الاقتصادية . وللاطلاع على تفاصيل أكثر . انظر :

Carlo Prandi, "Religion et Classes Subalternes en Italie-Trente Annees de Recherches Italiennes, "*Archives de Sciences Sociales des Religions* 43, no 1 (1977) : 93 - 139.

والنوع الثالث من الكتابات الذى يدعم فكرة استمرارية المسألة الجنوبية هو الكتابات السياسية . فهناك كتاب عديدون يحولون الدور المستمر والمتميز للجنوبيين فى السياسة اليسارية ، إلى إشكالية ، انظر :

Grant Amyot, The *Italian Communist Party* (New York : St Martin's Press, 1981), Chs. 9-10.

ومحاولة دافيد فورجاس لإعادة تكامل الفاشية مع التاريخ الاجتماعى الإيطالى وخارج نموذج «الشمولية والاستثنائية» شيء هام أيضا ، فهو يخفف من الحاجة إلى ذلك النوع من القطع التاريخى الذي يريد كتاب مثل «سيرونى» أن ينسبوه إلى فترة ما بعد الحرب . انظر :

David Forgacs, ed. *Rethinking Italian Fascism* (London : Lawrence and Wisharh, 1986).

وأحد الدلائل الأكثر إيضاحا عن استمرارية «المسألة الجنوبية» يأتى من كتابات الاقتصاديين المحليين فى مجلات مثل :

Review of the Economic Conditions in Italy.

انظر مثلاً :

Salvatore Vinci and Antonio Cardone, "Fostering Employment in Southern Italy : The

Effectiveness of Recent Policies," *RECI* 44, no. 1(1990) : 27-53; Robert Cagliozzi, "A Regional or a Noational Industrial Policy," *RECI* 36, no. 1(1982) : 93 - 120; Adriano Giannola, "The Industrialization, Dualism and Economic Dependence of the Mezzogiomo in the 1970's," *RECI* 36, no, 1(1982) : 67-92; Marcello Poscetti "Highlights of the 24th Census Report : Phenomena and Trends in Italy in 1990" *RECI* 45(1991); 81-92' SVIMEZ, "Recent Economic Trends in the Mezzogiomo," *RECI* 37, no. 1(1983) : 127 - 140

ومن بين المقالات الأخرى ، هناك عدد منها صادر عن «رابطة الصناعيين الجنوبيين» SYIMEZ أو عن مديرها «سالفاتور كافيرو» .

٦ - C. Scott Littleton, *The New Comparative Mythology : An Anthropological Assessment of the Theories of George Dumezil* (Berkeley : Univ. of California Press, 1966), 17

ولو لم يكن بسبب الانتشار الواسع للاستشراق ، فمن المؤكد أن بعض الكتاب قد لاحظوا الملامح «اللاسامية» لمصر ، وبالتالى إمكانية تطبيق نموذج « دوميزيك» الذى يتواجد فى النظم ذات التقسيم شبه الطوائفى ، فهناك ، فى هذا البلد ، اللإله الأعلى ، وبنية الإلهة الأنثى «لفاطمة» و«مارى» . وتنفرد مصر ذلك بالمكونات الأنثوية . انظر :

Jane Smith and Yvonne Haddad, *The Islamic Understanding of Death and Resurrection* (Albany : State Univ. of New York, 1981), 158, 180ff.

٧ - الأفكار التالية مستمدة إلي حد كبير من :

Martin Clark, *Modern Italy 1871-1982* (London : Longman, 1984); John A. Davis, ed. Gramsci and *Italy's Passive Revolution* (London : Croom Helm, 1979).

٨ - الكتابات الخاصة بموضوع «مجالس المصنع» متنوعة بدرجة كبيرة . فالبعض منها يتفق مع رأسمالى تورينو ، أو ليفيتى ، يذكر أنها فشلت فى ألمانيا وروسيا وكيف أن جرامشى بنى فهمه لهذه الفكرة على معلومات غير كافية للنقابية الروسية السوفيتية . انظر :

R. Bellamy and D. Schecter, *Gramsci and the Italian State* (Manchester : Manchester Uiversity Press, 1993).

ورأى آخرون أن المجالس تتكامل مع تفكير جرامشى الناضج ، انظر :

Frankin Adler, "Fectory Councils, Gramsci and the Industrialists," *Telos* no. 31 (Spring 1977) : 67 - 90; Enzo Rutigliano, "The Ideology of Labor and Capitalist Rationality in Gramsci," *ibid*, 91 - 99; Mario Carceres, "Les Fonctions Organiques des conseils d'usine selon La'Conception Gramscienne et Leur Homologie avec la Theorie du Blocque Historique," *Recherches Socioligiques* 17(1986) : 247 264.

٩ – Jon S. Cohen, "Fascism and Agriculture in Italy : Policies and Consequences," *Economic History Review* 32, no, 2 (1979) : 70 - 87, especially 70.

وهناك كتاب استثنائي فى الدراسات المقارنة لإيطاليا رغم ميله إلى الإسهاب ، هو :

Maurice F. Neufeld, Italy. *School for Awakening Countries : The Italian Labor Movement in its Political, Social, and Economic Swtting from 1800 - 1960* (Ithaca : Comell Univ. Press, 1961).

١١ – Daniel A. Binchy, *Church and State in Fascist Italy* (London : Oxford Univ. Press, 1941); note the degree to which the Church as "traditional intellectual" in Gramsci's model can seize the chance tolaim a larger part of the hegemony.

١٢ – Richard Webster, *The Cross and the Fasces-Christian Democracy and Fascism in Italy* (Stanford : Stanford Univ. Press, 1960), 145.

١٣ – الفصلان الخامس والسادس يبينان أنه فى فترة حكم كارديناس ، تبنى أسقف مكسيكوسيتى أيضا الطريقة الصوفية ، وأن الشخصيات الروحية البارزة خلال فترة حكم نهرو فى الهند فعلوا نفس الشيء . وهى حالات مناظرة لرومانية البابوات فى عهد إيطاليا الفاشية .

١٤ – John Molony, The *Emergence of Political Catholicism in Italy Partito populare 1919 - 1926* (Totowa : Croom Helm, 1971), 193, 199.

١٥ – S. Agoes, "The Road to Charity Leads to the Picket Lines : The Neo-Thomist Revival and the Italian Catholic Labor Movement," *Internetional Review of Social History* 18, no. 1(1973) : 28 - 50.

١٦ – Ellen M. Bussey, *The Flight From Rural Poverty- How Noations Cope* (Lexington : Lexington Books, 1973), 47ff.

١٧ – John Merriman, Comparative Law : Western European and Latin American Legal *Systems* (Indianapolis : Bobbs Merrill, 1978), 587ff.; *Encyclopedia Judaica* (New York : Macmillan, 1971), 9 : 1134ff.

١٨ – P.A. Allum, *Politics and Society in post-war Naples* (Cambridge : Cambridge : Cambridge Univ, Press, 1973), 77ff.

١٩ – كاتب أعطي تفاصيل كثيرة عن بيته وأسرته ، وكان شيوعيا معاصرا بارزا من جنوب الهند ، انظر :

E.M.S, Namboodiripad, *How I Became A Communist* (Trivandrum, 1976).

٢٠ – Edward C. Banfield, *The Moral Basis of a Backward Society* (New York : free Press, 1963) .

٢١ – Donald Pitkin, "Marital Property Considerations Among Peasants : An Italian Example," *Anthropological Quarterly* 33(1960) 33-39.

٢٢ – Walter Adamson, *Hegemony and Revolution. A Study of Antonio Gramsci's Political and Cultural Theory* (Berkeley : Univ. of California Press, 1980), Ch. 30

٢٣ – Grant Amyot, *The Italian Communist Party-The Crisis of the Popular Front Strategy* (New York : St. Martin's Press, 1981), 87ff.

٢٤ – Maria Antonietta Macciocchi, *Letters From Inside the Italian Communist Party to Lous Althusser* (London : New Left Books, 1973), 27.

٢٥ – كتاب هام ألفه راديكالى شمالى بارز ، هو :

Antonio Negri, *Marx Beyond Marx-Lessons on the Grundrisse* (South Hadley : Bergin and Garvey Inc., 1984), see especially the Introduction.

وعلى الرغم من أنه كان لديهم أفكار أصيلة عديدة ، إلا أن «نجرى» وأعضاء حركته لم يقوموا بتحدى الأساس الإقليمى للهيمنة الإيطالية .

٢٦ – Sidney Tarrow, *Peasant Communism in Southern Italy* (New Haven : Yale Univ. Press, 1967), 205.

٢٧ – Annarita Buttafuoco, "Italy : The Feminist Challenge," in *The Politics of Eurocom-munism : Socialism in Transition*, eds. Car l Boggs and David Plotke (Boston : South End press, 1980), 197-220.

٢٨ – Maria Rosa Cutrufelli, *Donne Des diciliennes* (Paris, 1976), 35-38

حيث تجرى مقارنة بين الوضع فى جنوب إيطاليا ومثيله فى روسيا ، وهو بلد تصدر فيه العمالة إلى مناطق العمل ، ليس كاستراتيجية اقتصادية بقدر ما هو تنظيم سياسى . راجع .

Maria Brandon-Albini, *Midi Vivant Peuple et Culture en Italie du Sud* (Paris, 1963).

تتبنى منهج المسألة الجنوبية ، والنظرة التنموية تظهر فى :

Marilyn Yanick Gaetani , *Social Literature on the Southern Italian Problem* (naples : Faculty of Maritime Economics, 1981).

٢٩ – Giacomo Devoto *The Language* of Italy (Chicago : Univ. of Chicago Press, 1978), 278ff.

٣٠ – Bruno Migliorini, *The Italian Language* (London: Faber and Faber, 1984), 409.

٣١ – Giuseppe Cocchiara, The *Histcry of Folklire in Europe* (Philadelphia : ISHI, 1981), 332ff.

Ibid., 342. – ٢٢

٢٣ – Ibid., 356, 612 لاحظ «بيترى» تفوق النساء فى القدره على الحكى ، وعمم كوتشيارا هذه النقطة ، فذهب إلى أن معظم جامعى الفولكلور لاحظوا تفوق النساء من حيث الذاكرة ومن حيث اكتمال الأداء . فإذا علمنا أن معظم الاشتغال على الفولكلور كان فى الجنوب ، فإن رؤى أولئك الباحثين تمدنا بأساس قوى للدعاوى التى سبق ذكرها حول وضع المرأه فى الجنوب ، فبينما يزعمون أنها مقموعة فى إطار «نموذج فقدان الإدارك الأخلاقى ، فهى ذات تأثير عميق فى مجال الثقافة .

Ibid., 519.– ٢٤

George Saunders, "Contemporary Italian Cultural Anthropology, 13(1984) : 447 - – ٢٥ 456.

Philip V. Cannistraro, "The Organization of Totalitarian Culture Polich and the – ٣٦ Mass Madia in Fascist Italy., 1922-1945." (Ph.D. diss., New York Univ., 1971);

وإحدى الروايات الشهيرة هى :

Danilo Dolci, *The Man Who Plays Alone* (New York : Pantheon Books, 1968), 65 - 86.

حيث يتضح أن المجرم هو ببساطة كائن إنسانى آخر .

Philip V. Cannistraro *Historical Dictionary of Fascist Italy* (Westport : Greenwood– ٢٧ Press, 1982).

Oxford Classical Dictionary (Oxford : Oxford Univ. Press, 1949) 808-809. – ٢٨

M.V. Taylor, "The Society for the Promotion of Roman Studies, 1910-1960," *The*– ٢٩ *Journal of Roman Studies* 50(1960) : 129 - 134.

Marino Berengo, "Italian Historical Scholarship Since the Fascist Era," *Daedalus* – ٤٠ 100(1971) : 469-484.

Edward E. Tannenbaum, "Gioacchino Volpe," in *Historians of Modern Europe*, – ٤١ ed. Hans A. Schmitt (Baron Rouge : Louisiana Univ. Press, 1971), 315 - 338.

وكان هناك زميل جنوبي آخر في كلية روما ، هو بيترو فيديل ، الذي كان مؤرخا فاشيا .

٤٢ - A.H. McDonald, "Fifty Years of Republican History," *The Journal of Roman Studies* 50(1960) : 135 - 148 .

٤٣ - M.I. Finley, "The Historical Tradition : The Contribution of Arnaldo Momigliano," in *The Use and Abuse of History*, ed M.I. Finley (New York : Viking Press, 1971) Ch. 4.

٤٤ - Wallace K. Ferguson, *The Renaissance in Historical Thought* (Boston : Houghton-Mifflin Co., 1948 (1981), 314ff.

وقد سببت مقولة النهضة ارتباكا ليس لدى الإيطاليين وحدهم ، بل ولدى الفكر العربي أيضا . فالعرب مثلهم مثل الإيطاليين ، كانوا يحملون في وقت ما ثقافة عالمية مفترضة . وجهود العرب لوضع التراث اليوناني داخل سياق قومي محلي كانت مثار خلاف في الغرب مثلها مثل محاولة الإيطاليين . وأحد الاحتمالات هو أن المحاولة الغربية لنسبة العصور الكلاسيكية ، والنهضات ، و «التنوير» لنفسه ، يمكن أن تصل إلى نهايتها مع إثبات عقم النزعة المركزية الأوربية ، راجع :

Martin Bernal, *Black Athena : The Afroasiatic Roots of Classical Civilization* (New Brunswick : Rutgers Univ. Press, 1987).

لاحظ أيضا أن المتخصصين البارزين في «النهضة» ذهب إلى أن الغرب لا يستطيع مواصلة دوره دون «النهضة» كمثال نقي . انظر :

William J. Bouwsma, "The Renaissance and the Drama of Western History," *American Historical Review* 84, no. 1 (1979) : 1 -15

وقد ظهر كتاب أمريكي حديث يميل إلى الرأي المضاد ، فالمؤلف ينسب للتقليد الليبرالي الإيطالي القيام بدراسات بارزة حول شخصيات مثل بيكو ديللا ميراندولا ، راجع :

William G. Croven, *Giovanni Pico Della Mirandola, Symbol of His Age-Modern Interpretations of a Renaissance Philosopher* (Geneva : Librairie Droz, 1981), 5.

والفصل الخامس يلاحظ أهمية عمل يوجينيو جارين ، وهو أستاذ بجامعة فلورنسه ، والذي ظهر منذ الثلاثينيات . وقد تناول جارين «بيكو داخل السياق الفكري لعصره مراجعا بذلك ميل «جاكوب بوركاردت» وآخرين ، إلى إضفاء عالمية

على «النهضة» والتعامل معها كنموذج نقى .

٤٥ – Arnaldo Momigliano, *Essays in Ancient and Modern Historigraphy* (Middletown : Wesleyan Univ. Press, 1977), 2ff

٤٦ – وحينما تم إبعاد «سالفيمينى» خارج إيطاليا ، فقد فلاحو الجنوب مناصرا مرموقا . وقد ذهب «سالفيمينى» إلى هارفارد . وفى المنفى فى الولايات المتحدة توصل إلى اكتشافات مهمة حول أمريكا . فقد اكتشف أن «جمعية ماتزينى» التى تضم تنويريين مثل : أرترو توسكانينى» و «ليونيل فنتورى» مؤرخ الفن ، كانت موالية لموسولينى . انظر :

George T.. Peck, "Gaetano Salvemini," in Schmitt, ed. *op. cit.*, 206-234.

٤٧ – Zeffiro Ciuffoletti, "Ne110 Roselli : A Historian Under Fescism," *Journal of Italian History* 1 (1987) : 287 - 314.

٤٨ – Charles F. Delzell, "Adolfo Omodeo : Historian of the Religion of Freedom," in Schmitt, *ed. op.* cit., 123 - 150.

٤٩ – G. Eley, "Reading Gramsci in English," *European Historical Quartrly* 14, no. 4 (1984) : 441 - 478, esp. 454-455.

٥٠ – يظهر هذا الموجز فى :

B. Shaeik Ali, *History : Its Theory and Method* (Madras, 1978), 350 ff.

٥١ – A. Momigliano," Historicism in Contemporary Thought" in *Studies in Historiography*, ed. by A. Momigliano (London : Weidenfeld and Nicolson, 1966), 221-238.

٥٢ – Berengo, *op. cit.*, 477.

٥٣ – Sergio Bertelli, "Local History in Italy," *The Local Historian* 11, no.5(February 1975) : 251 - 261

وللاطلاع على ملاحظة نقدية حول المجال ، انظر :

Gino Pasolini, *Guida allo Studio della Storia* (Boligna, 1970), 4 - 44.

٥٤ – Berengo, op. cit., 474ff John Cammett, "Two Revent Polemics on the Character of the Italian Risorgimento," *Science and Society* 433 - 457;

والاتجاه الأميل للوصفية فى دراسة تاريخ الحزب الشيوعى يظهر في :

Franco Andreucci and Sylvers, "The Italian Communists Write Their *History*," *and Society* 40(1976), 28 - 53

وحول الموقف اليسارى الأرثوذكسى حول «المسألة الجنوبية» ،انظر :

Renato Zangheri, "mento Contadion E Storia D'Italia. Riflessioni Sulla iografia Del Dopoguerra," *Studi Storici Storica* 17(1976) : 5-33.

٥٥– Burton R. Clark, Academic Power in Italy : *Buteaucracy and oligarchy in a Nation University System* (Chicago : Univ. of Chicago Press, 1977) is a criticism of the autocracy within illegiality.

٥٦ – – Brunello Vigezi, ed. *Federico Chabod e la Nuova caborigrafia Italiana 1919 1950* (Milan : Jaca Books, 1984).

الفصل الخامس

الهند بوصفها دولة تنتمى إلى الطريق الإيطالى (١٨٦١ - ١٩٩٠)

تُقَدَّم الهند عادة – فى الكتابات التاريخية الحديثة – بوصفها نموذجا للتنمية الفاشلة ، بوصفها قطراً أكبر من أن يُدرس ككل ، أو باعتباره ثقافة تتألف من علاقات دينية وطائفية ثابتة . ويقدم هذا الفصل تاريخ الهند الحديث (١٨٦١ – ١٩٩٠) بوصفه مثلا على هيمنة « الطريق الإيطالى »[1] وما يبرز فى هذا المنظور هو استخدام الطبقة الحاكمة للتباين الإقليمى . كما يبرز بقدر مساو النضال المضاد للهيمنة والأزمة السياسية المترتبة على ذلك .

وينقسم هذا الفصل إلى أربعة أجزاء . يقيم أولها ، الصلة بين نمط « الطريق الإيطالى » والنماذج السائدة فى تفسير التاريخ الهندى الحديث ، ويقدم الثانى ، تاريخا للهند الحديثة باعتبارها طريقا إيطاليا ، ويعالج الجزء الثالث ، الهيمنة على مستوى تنظيم الثقافة ، ويتناول الرابع ، كتابة التاريخ بوصفها جزءاً من تنظيم الثقافة .

ومنذ عام ١٨٨٥ - هو تاريخ تأسيس حزب المؤتمر – افترض الليبراليون أن الهند فى طريقها لتصبح بلداً علمانيا حديثا ؛ دولة ديموقراطية وإن تكن ديموقراطية تحدق بها أحيانا انبعاثات للنزعة التقليدية من وقت لآخر[2] ، ولكن بعد الحصول على الاستقلال عام ١٩٤٨ بدأ بعض الليبراليين فى إحاطة هذا الافتراض بالتساؤل . فهل تستطيع « النزعة التقليدية » أن تفسر كيف امتلكت النزعة الطائفية تلك القوة التى نجم عنها تقسيم البلد فى هذه السنة ، أو تدعيم نفوذ دينى فى شئون الدولة يتزايد عاماً بعد عام منذ ذلك الحين ؟

وفى تفسير أحداث ١٩٤٨ و الأحداث التالية ، وجد الليبراليون أنفسهم فى الأغلب مدفوعين نحو النزعة الرومانسية . فليست الهند بدرجة كبيرة « بلدا حدثيا » بقدر ما هى مجتمع له اختلافاته الثقافية الأزلية بين المسلمين والهندوس ، وهى اختلافات ستظل ببساطة تنفجر دوما .

وشغل الرومانسيون زمنا طويلا بقضية الانحطاط والفجوة المفترضة بين الممارسات الطائفية الحجارية والمُثُل العليا ، التى يُظن أن الممارسات الطائفية تمثلها ، ما دام نظام الطوائف هو جوهر التاريخ الهندى والثقافة الهندية ، يصبح التاريخ الحديث فى وجهة النظرة هذه هامشا مضافا إلى تاريخ العصر الوسيط[3] .

وبالنسبة إلى هذه الدراسة ، فإن احتلال الطائفة لموقع بارز فى النموذج السائد بالهند يطرح مشكلة مؤداها كيف نجعل من الطائفة مؤسسة ترتبط بالطريق الإيطالى .

معالجة الطائفة بوصفها هامشا على جانب الطريق الإيطالى

من المعقول أن تلعب الطائفة أدورا مختلفة فى أنظمة هيمنة مختلفة . ففى دول الطريق الروسى – كما رأينا فى الفصل السابق – كانت الطائفة ذات أهمية مركزية . ولا نجد فى روسيا كما نجد فى الهند تكاثر الطوائف الفرعية ، وهى جماعات تتجه نحو جعل الطائفة أكثر اقترابا من أن تكون معادلة للطبقة . ومع ذلك فإن الطائفة على نحو واضح أكبر أهمية فى الهند منها فى إيطاليا أو المكسيك ويتطلب ذلك تفسيرا .

وقد تكون إحدى طرق البدء تذكر التفاصيل المعروفة جيداً المتعلقة بأنه أثناء السيطرة البريطانية أدى تقنين الممارسة الطائفية إلى تمييز مجموعات معاصرة إلى حد بعيد ، باعتبارها « طبقات وطوائف مختلفة » تحتاج إلى إصلاح قانونى . والحق أن إلقاء نظرة فاحصة على من يشكلون هذه المجموعات يكشف لنا الكثير ، ويبدو أن استراتيجية الحكومة فى هذه المسألة اتجهت كثيراً نحو تدعيم مطالب الكولاك أو الفلاحين الأغنياء فى « الجنوب » وإيثارهم على غيرهم . وهى استراتيجية ، كانت بكل وضوح تستهدف الحفاظ على جناح جنوبى للطبقة الحاكمة(٥) . وفى واقع الأمر نجد فى دراسة قديمة لطبيعة نظام الطوائف كتبها باحث من كلكتا منذ جيل . إن المؤلف يدافع صراحة عن تقسيم أساسى للطائفة بين الشمال والجنوب . فالبراهمة فى رأيه أكثر اتصافا باللون الأبيض ، وينتمون بدرجة أكبر إلى الشمال ، على حين أن السودرا وغيرهم من الطوائف الأدنى أكثر اتصافا بسواد البشرة ، وينتمون بدرجة أكبر إلى الجنوب . وتترتب الممارسات المرتبطة بطقوس التطهير حاجة البيض إلى المحافظة على

نقائهم فى مواجهة السود القادمين إلى الشمال كعمال زراعيين مهاجرين ، يقيمون حتى فى سهول الجانج نفسها[٦] .

ويتضح لنا مما سبق أن الطائفة كائنا ما كانت فى الهند ، هى شئ ذو نفع للدولة ويتمتع فى نفس الوقت بالشعبية . فمن خلالها تمكنت الدولة من تقليص نفوذ الأولياء الصالحين والمعلمين الدينيين الهندوس Swamis ، ومن السيطرة على موظفى المعابد . واليوم أصبح موظفو المعابد هؤلاء موظفين فى الحكومة المركزية ؛ ولم يكونوا كذلك منذ خمسين سنة . ففي ذلك الوقت كان الأولياء والمعلمون الهندوس يصدرون التوجيهات بكل حرية ، أما اليوم فإن « جامعة بتاراس الهندوكية » شبه الرسمية هى مركز إقرار شرعية الفكر الدينى . فقد سمح دعم النظام الطائفى للدولة بهذه المكاسب[٧] .

وفوق ذلك ، فالنظام الطائفى يخدم حاجات المجتمع أيضا . فالشرائح الوسطى وحتى المجموعات التابعة يخلعون على مشروعاتهم سمات طائفتهم ، ويحققون لى بذلك قبولا . وعلى سبيل المثال فمنذ منتصف القرن التاسع عشر حققت آريا ساماج Ary a Sanay وهى حركة إصلاح لا تختلف عن مجموعات الإصلاح الكاثوليكية التى نوقشت فى الفصل السابق ، أهدافها إلى درجة كبيرة بواسطة رعاية الطائفة[٨] . ومع ذلك فالسؤال حول لماذا تكون الطائفة بارزة إلى هذا الحد فى الهند[٩] ؟ يظل مطروحا . وكذلك التساؤل حول البعد النظرى وراء الروابط المتصلة التى يذهب إليها تفسير نموذج «الطريق الإيطالى »[١٠] .

ومن وجهة نظر الاقتصاد السياسى ، بعد تحديد العلاقة بين تاريخ ظاهرة معينة والرأسمالية . فكيف – على سبيل المثال – تحولت الطائفة إلى الرأسمالية وأصبحت الدولة دولة حديثة ؟ وما وجه الاختلاف فى تطور الدولة والرأسمالية فى إيطاليا ؟ الذى يمكن أن يفسر ، لماذا يلعب النظام الطائفى دوراً أقل شانا هناك ؟

ففى القرن السادس عشر ، كان النظام الطائفى فى الهند المغولية ضعيفا . وعند هذه النقطة تحكمت الدولة التى كانت قوية فى قطاعها التجارى ، وعززت شكلا من النمو الذاتى الرأسمالى المحلى ينتهج سياسة المذهب التجارى ، ويرتكز على السوق[١١] .

وفى القرن السابع عشر دب الوهن فى الدولة ، ونمت قوة الطائفة فى المجتمع المدنى . وفى القرن الثامن عشر أصبحت الطائفة بدورها ضعيفة . وازدهرت فى ذلك الوقت أشكال السياسة وأنماط الاقتصاد المحلية ، وازدادت أهمية الفرق الصوفية « بهاكتى » Bhakti متحدية بذلك الطائفة . وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر حينما بدأت الدولة المركزية تتشكل ، قويت شوكة النظام الطائفى من جديد . وفى النصف الثانى من القرن ، حينما اشتد الانخراط الهندى فى الرأسمالية حدث مرة ثانية حدث فى القرن السادس ، فقد ضعفت الطائفة على الرغم من أن الدولة كانت أقوى . وفيما بعد فى النصف الأول من القرن العشرين استمرت الطائفة فى الضعف بين الهنود كلما واصلت الرأسمالية نموها . وعلى سبيل المثال كان التزاوج فى الأربعينيات والخمسينيات بين الهندوس من طوائف مختلفة بل وبين الهندوس والمسلمين متكرر الحدوث ، كما كانت الحال فى القرن السادس عشر . ومرة ثانية مثلما حدث فى زمن المغول بزعت نخلة توفيقية هى الحركة القاديانية Qadiyaniyya التى تجمع معا عناصر من الإسلام والهندوسية . وأخيراً ، كلما ازدادت الرأسمالية بين الهندوس قوة ، وعانى الراج (أمراء الإقطاع) أزقتهم النهائية ، صارت الطائفة فى أدنى درجات إنحسارها . وعندما رحل البريطانيون رأى حلفاؤهم من المسلمين ، والبارسيون Parsis واليهود جماعاتهم تتفسخ ، وكما تفتح من الأحداث الأخيرة ، فإن أزهار الاقتصاد السياسى الهندوسى ليس سمة مميزة لنهاية إيديولوجية الطائفة . ففى السبعينيات والثمانينيات عندما أعادت السوق العالمية تأكيد نفسها ، كم نحت رأسمالية الأغلبية الهندوسية فى الشمال ، ومن ثم تصاعدت أهمية إيديولوجية الطائفة مرة أخرى .

---

* بهاكتى Bhakti حركة دينية داخل الهندوسية أعلنت أن البشر جميعا سواسية أمام الله ورفضت تقسيمهم إلى طوائف . وقد تطورت منها بعد ذلك نحلة السيخ Sikism (المترجم) .

** البارسيون ديانتهم زرادشتية تقوم على أن النظام فى العالم يعتمد على الصراع بين الخير والشر ، النور والظلام ، والحياة والموت ، وهم من أصول فارسية .

وابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فقد المسلمون هيكلهم الطائفى بعد أن فقدوا سيطرتهم على القطاع التجارى ، وقد انعكست هنا العلاقة المتبادلة . فالمسلمون من طوائف مختلفة انجرفوا نحو صيغة من الطابع العرقى مرتكزة على الطبقة الاجتماعية قد تكون أكثر حداثة أو أكثر محافظة . وهنا يعن لنا التفكير فى اليهود والبروتستانت فى بلاد مثل : المكسيك أو إيطاليا . ففى الهند تعاون التيار الإسلامى الإصلاحى مع السلطة التقليدية للراج ، وعارض تقسيم البلاد . وقد تجسد هذا الاتجاه فى فكر السيد أحمد خان ، وفى تطور « جامعة عليكرة » . واليوم أصبح القوميون الهنود هم أنصار الحداثة والهنود . وهناك اتجاه آخر هو اتجاه المحافظين أو مدرسة ديوباند Deohand School ، وقد نشأ أيضا فى القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينتشر كثيرا بين سكان المدن الأثرياء ، الذين شايعوا السيد أحمد خان ، بقدر انتشاره بين تجار شمال الهند الأقل ثراء ، والأكثر إيغالاً فى التدين والتزمت ، وقد مثل أنصار مدرسة ديوباند تحديا ضخما للحداثيين . وفى فترة ما بين الحربين كان اتجاه ديوباند يحبذ التقسيم ، وبعد عام ١٩٤٧ كان ينتقد النزعة العلمانية فى الهند .

وتطابقت الحال عند المسلمين الهنود وعند المجموعات التجارية الأخرى ، من اليهود والبارسيين ، ويجد المرء طفرة من الطائفية إلى العرقية عندما وطد الهندوس سيطرتهم داخل الرأسمالية الحديثة . فاليهود الهنود الأكثر ثراء مثل نظرائهم المسلمين تحالفوا مع الراج Raj فى القرن التاسع عشر بوصفهم هنودا . ويقوم الزعيم اليهودى السير ألبرت ساسون Sir Albert Sassoon مثلاً تاريخياً موازياً للزعيم الإسلامى السيد أحمد خان . وعندما تدهور الراج فى هذا القرن ، انقسمت الجماعة اليهودية مثل نظيرتها المسلمة وفقا للمصالح الطبقية . وقد حدثت نقطة التحول فى هذه العملية عام ١٩١٩ . ففى هذا العام ، بعثت قوانين العرق (العنصر) الهندية ، التى وردت فى تقرير مونتاج تشيلمسفورد Mantague Chelmsford بأن كل اليهود فى فئة دنيا هى فئة غير المسلمين . وقد أعلن أفراد جماعة كلكتا المنتمون إلى الطبقة الوسطى ، الذين تمسكوا بيهوديتهم بدرجة متزايدة للتهديد أكثر من غيرهم ، عن معارضتهم لهذا التصنيف . ولكن عندما جاء الوقت الذى أصبحوا فيه قادرين على علاج المشكلة ، لم يعد الأمر مهما بعد فوات الأوان . وعلى نقيض مع يهود كلكتا ، قاد اليهود من جنوب

الهند عدد قليل من العائلات الثرية الأكثر وعياً بالانتماء الهندى منه بالانتماء الدينى كيهود ، فقاموا باحتجاج محدود على لوائحه عام ١٩١٩ .

وبالمثل ، أثناء السنوات الأخيرة من عهد الراج ، تطور قسم مهم من البارسيين كان ينتمى هذه المرة إلى الشمال أساسا ، إلى مجموعة عرقية حداثية ، ولكن وضعهم كان بالغ الضعف على أى حال . وظهر بارسيين فى هذه الفترة يحملون أسماء مثل «نقد سائل » و « عامل المياه الغزية » (Roadymaney & Sodoewater walla) مما يوحى باعتماد الجماعة اعتماداً كاملاً على البريطانيين . وعندما نمت الرأسمالية الهندوسية ، واصلت الرأسمالية البريطانية تراجعها ؛ حيث تدهور وضعهم ، كما تدهورت ثقافتهم من الناحية العملية[١٢] .

ويتضح من ذلك ما يدعم الطائفة والتشريع الطائفى اليوم . إنها الهند الحديثة ، والدولة ، والجيش ، والجامعة ، والأحزاب السياسية[١٣] . وإذا أخذنا قوة هذه المؤسسات فى الحسبان سواء فى الهند ، أو فى أى مكان آخر لاتكاد نتخيل إصلاحاً طائفياً[١٤] . فالطائفة قد تتغير مع تغير الشروط التاريخية ، ولكنها ذات فائدة يجعل ذلك السؤال حول سبب وجود هذا الوضع فى الهند مطروحا يجب عن جواب التماسا للجواب ، سوف يبدأ ببحث الأسباب الكامنة وراء اهتمام البحوث الأكاديمية بالتركيز على موضوع الطائفة الساتى وقتل العروس والحجاب .

يرتبط الاهتمام المعاصر بالنظام الطائفى فى الهند كثيراً ، بتحليل قهر النساء الهنديات ، فجوانب من هذا القهر لها صلة واضحة بالطائفة مثل احرق الأرملة أو الساتى (Sati) وقتل العروس والحجاب Purdoh . ويقوم هذا القسم بتحليل موجز لهذه الظواهر ، لكى نعرف أشياء عن الطائفة وعن قهر النوع (الإناث) معا . ويصل التحليل إلى أن أحدهما أو كلاهما لا يسلط الكثير من الضوء على الآخر ، وأن على المرء أن يلتمس تفسيراً فى موضع آخر .

فحينما توسعت رأسمالية السوق فى القرن الماضى تضاءل الساتى فورا لكى يحل محله فى هذه الأماكن ؛ حيث كانت الظاهرة يمارس هناك على أوسع نطاق أى وسط الطبقات المالكة فى شمال الهند ، فهناك ميل متزايد نحو قتل العروس . ولكى ينطلق بطريقة متسقة فعلا ، سيكون من الضرورى أن نعرف ما إذا كانت تلك الرابطة

رابطة ثابتة فعلا . أى على سبيل المثال إذا كان نشوء قطاع رأسمالى فى فترة أسبق - أثناء فترة المغول ، قد شهد تضاؤلا فى ممارسة الساتى وارتفاعا فى ممارسة قتل العروس ، أو إذا كان من الواجب تأكيد ملامح فريدة خاصة بالقرن التاسع عشر (١٥) ، وليس ذلك معروفاً فى الوقت الحاضر .

وكما توضح الدراسات الأحدث ، فإن ممارسة قتل العروس تحوى ما هو أكثر من ارتباطها المتبادل بتطور الرأسمالية . وبعبارة أدق ، إنها بالفعل جزء منها . فقتل العروس هو من منظور اقتصادى شكل من النهب ذى التراكم البدائى ، أى جزء نوعى مميز للرأسمالية ، فهو لا ينتمى إلى الماضى البعيد ، بل هو شئ مستمر فى نموه كما أن الاستثمار مستمر فى نموه . وإذا أخفق المرء فى التحقق من ذلك ، وفسر مثل هذه الممارسات فى المحل الأول باعتبارها تمثل قهر النوع النسائى كما هو شائع بما يكفى ، فسوف تصير هذه الممارسات غير قابلة للفهم ، كما يعتبر الهند ككل غير قابلة للفهم وتعد بذلك فريدة فى نوعها لا مثيل لها .

وعلى سبيل المثال ، إذا كان على المرء أن يُعَرِّف ممارسة إحراق الأرملة (النسائى) من خلال النوع (المؤنث) ، فسيكون عرضة لأن يجد أن هناك عنفا ضد المرأة فى البلاد ذات نمط الطريق الإيطالى أكثر من بلاد تخضع لعلاقات هيمنة أخرى ، وكلها مزاعم أستطيع الإشارة إلى أنها ترتكز على شواهد مزعزعة[١٦] .

وعلى الرغم من أن موضوع العنف ضد النساء لم يلق إلا دراسة ضئيلة . فإن المرء يستطيع أن يزعم باطمئنان أن تلك المشكلة عالمية النطاق . وقد بنيت دراسة حديثة عن الولايات المتحدة أنه أثناء ذروة الحرب الفيتنامية (١٩٦٧ - ١٩٧٣) مات ما يقرب من ٣٩ ألف رجل فى المعارك . وفى نفس الفترة كان . ١٧٥٧ من النساء والأطفال ضحايا للعنف العائلى . ولا تسجل الإحصاءات الجارية للعنف ضد المرأة فى بلاد أكبر مثل الهند أرقاماً عالية من هذا القبيل ، وربما لم تكن الأرقام وافية . وبالنسبة إلى عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ ، قدَّر وزير الداخلية الهندى عدد النساء اللائى أُحرقن حتى الموت بأقل من ٣٠٠٠ امرأة كل عام [١٧] .

* التراكم البدائى هو عمليات تكديس الثروة ونزع ملكية الفلاحين والحرفيين التى أدت إلى نشوء الرأسمالية .

(المترجم)

ويبدو مما هو معروف أن شكل العنف يناظر اقتصاديات الزواج . فالعنف المتعلق بالزواج فى الولايات المتحدة مثلا ، يبدو أنه نتيجة لشكل العائلة النووية (تتألف من زوج وزوجة وأطفال فقط) ، ولنظام الميراث من خلال الوصية الذى يصاحب هذا الشكل . وإذا كان العنف فى العلاقات الزوجية بالمعنى الواسع للفظ يتضمن عدداً من الأفعال ، ابتداء من عدم إعالة الأطفال إلى ضرب الزوجة ولكنه لا يتضمن قتل الزوجة ، فإن ذلك يبدو مترتبا على هذه العاملين : بنية العائلة النووية والميراث عبر الوصية وإذا كان قتل العروس شكلا شائعا من العنف العائلى فى الهند ، فإنه يبدو مترتبا على شكل العائلة المرتكز على علاقة القرابة (أبناء وبنات العمومة) ونظام المهد . فما تستطيع العروس أن تحصل عليه من عائلتها هو ما تحصل عليه فى بداية الأمر ، وبعد الزفاف ، فإن الزوج لا يتوقع إلا القليل الذى يمكن الحصول عليه ، وبذلك ، فإن منفعة العروس كمصدر للثروة تتضاءل . وإذا كانت العروس مرتبطة ببنية عائلة تنمى إلى نمط الطريق الإيطالى ، وهى بنية تتعرض فى شروط معينة لمشروعات نهب ، فسيكون لدى هذه العروس أسباب مقنعة لكى تأخذ حذرها من عائلة زوجها .

وفى إيطاليا اليوم ، يمر العرف الخاص بالمهر بحالة من التدهور . فالملكية يجرى الآن انتقالها الأولوية الجديدة لحركة المرأة هناك الآن هى إنهاء العنف فى المجتمع وضد المرأة[١٨] . واقتربت الحركة الإيطالية فى هذه الحالة من أن تشبه فى اهتماماتها الحركة النسوية الأمريكية ، أى أنها لم تعد تبرز الخوف من الجريمة العاطفية أو التأكيد المبالغ فيه للذكورة ، بل الخوف من العدوان الذى لا يجد منفذا للتعبير داخل وضع عائلى أصبح الآن فى الأغلب يتسم بالطابع النووى أكثر فأكثر .

ويجب أن نسجل عند هذه النقطة ، أن المهر كنظام ليس مسؤولا عن إيذاء النساء فى الهند أو فى أى بلد آخر . فالمهر هو الممارسة السائدة فى بلاد كثيرة لا فى الهند فحسب ، بل فى روسيا وحتى فى زائير ، وله أشكال متغايرة مثل التى نجدها فى عائلات الطريق الروسى متعددة الأجيال ، وعائلات الدول العرقية القبلية المرتكزة على العشيرة . فقد يحدث احتكاك بين الجنسين يتعلق بالمهر ، أما العنف السافر فهو أمر شاذ .

فإذا عدنا إلى المشكلة المحددة التى نعالجها نتساءل : كيف أصبحت ظاهرة ترضية مثل قتل العروس ظاهرة سائدة سوسيولوجيا ؟

وربما كان أكثر التفسيرات إقناعا للمعدل المرتفع لقتل العرائس فى شمال الهند بالنسبة إلى المعدل فى منطقة أخرى تصلح للمقارنة معه مثل شمال إيطاليا ، هو التفسير المتصل بكيفية اختلاف شمال الهند اقتصاديا عن شمال إيطاليا ، ومثل هذا التفسير سيلاحظ دون شك أنه ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر فصاعدا ، يبدو أن السمة الغارقة لتاريخ هاتين المنطقتين هى الموارد المتاحة لكل منهما فى فترات الركود ، فى شمال الهند كان أكبر منه فى شمال إيطاليا ، ففى شمال إيطاليا كان هناك بديل للمحافظة على وضع العائلة تحت وطأة هذه الأحوال ، بديل العمل فى الخارج فى بلد قريب أكثر ثراء . وكان من الممكن القيام بذلك استراتيجياً وعلى نحو مشروط ، فهو خيار متاح على الفور . ولم تكن الهجرة غير خيار معروفة فى الهند ولكن غياب بلد مضيف يمكن التنبؤ به وتحديده . وعلى قدر من الثراء . يقع على مقربة كان يعنى أن قرار الهجرة قد نحا لأن يكون قراراً بالحصول على كل شئ أولا شئ ، وهو ما يجذب أفقر الفقراء أكثر من غيرهم .

وهكذا يبدو أن النساء الهنديات فى العائلات صاحبة الملكيات فى الشمال ، خضعن لروابط مضاعفة ، فشخصيتهم تنبع من وضعهن الاجتماعى ، ومن هويتهم الإقليمية ، ومن مساهمة عائلاتهم فى النزعة الاستهلاكية الرأسمالية ، ولكن إذا وضعنا فى الاعتبار الركود المتكرر الحدوث لشمال الهند فى مواجهة الرأسمالية العالية ، تتركهن هذه الهوية عرضة للإيذاء ، أو على أقل تقدير – التعرض للامتحان من جانب أقارب أزواجهن . ولا عجيب أن نجد أصوات النساء المنتميات إلى تلك العائلات يعلو مطالبة بحماية الحكومة فى عالم تخرج فيه تقلبات وضع الأسرة عن سيطرتهم . وفى الخمسينيات أصدرت الحكومة الهندية قانونا حسب التشريعة الهندوسية والمكانة الشخصية إلا أن حركة النساء الهنديات تقرر أن هذا القانون لا يطبق فى الغالب إلى اليوم فى أجزاء واسعة حتى فى الشمال .

أما نظام الحجاب مثله فى ذلك مثل إحراق الأرملة نفسها فى محرقة زوجها المتوفى وقتل العروس فهو مساحة للبحث يستطيع الاقتصاد السياسى تنميتها بطريقة مماثلة . وبالتأكيد كانت هناك اتجاهات نحو عزل النساء فى عدد من البلاد . وتبرز الأفكار السلفية عن الطهارة عادة فى التبرير العقلى لذلك ، خالقة بذلك صلة بين نظام

الحجاب والنظام الطائفى ، ولكن الاقتصاد السياسى يقدم أسباباً أكثر نوعية تفسر لماذا ، ومتى ، وأين يقع نظام الحجاب ؟

وفى أنظمة الحكم المنتمية إلى نمط الطريق الإيطالى ، والخاضعة للاستعمار مثل الهند ، وفى أواخر القرن التاسع عشر (أو مصر) كان الحجاب ظاهرة ملحوظة . وفى أوضاع الاستعمار ، وجد الهنود أن سوق الوظائف لنساء الطبقة العليا هى طريق مسدود ، كما كانت بمعنى من المعانى سوقا تؤدى إلى التلويث . وعلى حين كانت الطبقات الحاكمة لا تريد أن تعارض أخلاقيات العمل ، فإنها كانت تريد أن تنال بجهدها استثناء لنفسها . وفيما بعد ، مع تحقيق الاستقلال واستعادة السيطرة على الاقتصاد المحلى ، تحسنت الفرص المتاحة ، وحينما تحقق ذلك دخل المزيد من النساء سوق العمل ، وانحسر نظام الحجاب . وعندما انحسر الحجاب اقترب وضع النساء من وضعهن فى إيطاليا أو المكسيك . وهى بلاد تنتمى إلى نظام الطريق الإيطالى ولم تخضع للاستعمار فى الأزمنة الحديثة .

وحينما نوجز المناقشة هنا ، فإن الكتابة عن إحراق الأرامل وقتل العرايس والحجاب بوصفها ممارسات تتعلق بالطائفة ، تبدو مضللة ، على حين أن الكتابة عنها بوصفها بالتحديد ممارسات تتعلق بالنوع النسائى ، تبدو عقيمة بكل بساطة ، وأريد أن أختم هذه الملاحظة الجانبية بتناول مسألة النوع النسائى فى الاقتصاد السياسى . وهى مسألة حاسمة لا بالنسبة لدراسة الهند فحسب ، بل بالنسبة لجميع البلاد الأخرى كذلك . وسنبدأ على أى حال بهذا الموضوع الذى ينطبق على الهند . وافتراضى هو أنه مهما يختلف اختيار المرء للمنهج ، فإن تحليل النوع من حيث التذكير والتأنيث سيكون موضوعا مركبا متعدد الجوانب . وإذا كان ينبغى اختزاله إلى الحد الأدنى من أجل المناقشة المختصرة ، فإن الحد الأدنى هو أن يسلط التحليل الضوء على مسألة النظام الأبوى .

إن النظام الأبوى يمس جميع النساء ، والأغلبية الساحقة من النساء فى الهند فقيرات ، وهن بذلك أقل تأثراً بإحراق الأرامل أنفسهن وقتل العرائس والحجاب وأكثر تأثراً بقهر الدولة . فالدولة تدعم حقوق الرجال فى الاقتصاد وفى النظام القانونى فى مواجهة حقوق النساء . ولأن أولئك النساء فقيرات ، فهناك القليل الذى تستطعن القيام

به لمواجهة ذلك . ومناقشة القضية من منطلق فكرة الطبقة العاملة ، تدفع المرء إلى أن يزعم أنه ، على الرغم من أن تجربة النساء الفقيرات تنفى واقع التناقض بين الجنسين كموضوع للدراسة ، ومن أن شهادة النساء الفقيرات ليست بالضرورة أشد الشهادات عمقاً ، إلا أن نضال النساء الفقيرات سيظل الموقع المثمر إلى أقصى درجة لتحليل يطمح إلى أن يتجاوز المركزية الأوربية . ومن الأسهل التدليل ابتداء من تجربة هذه الأغلبية وصولاً إلى بقية النساء بالمقارنة بالتدليل المتجة من القلة إلى الكثرة .

ويمكن أن تتخذ الدراسات من الصراع المتبادل بين النساء الفقيرات والدولة ، وهو الاتجاه الذى أحبذه لتحليل مسألة النوع النسائى ، مرتكزاً للدراسات فى عدد من الميادين .

فهو ليس مجالاً للبحث قائما بذاته . وعلى سبيل المثال ، يستطيع الباحث أن يستمد المعلومات من دراسة العمل الاجتماعى والصحة العامة وعلم الإجرام .. إلخ . ومن المحتمل أن يكون أفضل مثال مدروس لعلاقات النساء الفقيرات بالدولة فى التخصص الراهن متحققا فى دراسة تاريخ البغاء . وتوجد البدايات فى مكان آخر ، كأن تكون على سبيل المثال فى دراسة رابطة النساء فى المهن الحرة (ذاتيات التشغيل) فى أحمد أباد ، ولكن مثل هذه الدراسات ماتزال فى بدايتها . من الواضح أن تاريخ البغاء أيضا لا يصلح إلا بداية ، لأن معظم النساء الفقيرات ، لسن عاهرات ، وليس كل العاهرات نساء فقيرات ، ولكن وفقا للدراسة المتخصصة المعاصرة ، فإن ذلك المجال هو الذى بُحث على أفضل وجه . ويؤكد باحثون من عدة بلدان أن عدداً لا يستهان به من النساء الفقيرات يكسبن عيشهن بممارسة الدعارة ، وأن الدول تعارض « البغاء » نظرياً ، ولكنها تتغاضى عنه أو تشجعه عملياً ، وأن النساء اللائى يشتغلن بالدعارة يحاولن أن يكسبن نقودهن ، وأن يبقين متحررات من تحكم الدولة ، وأن العاهرات لا يردن أو ليس أمامهن أن يخترن هياكل العائلة التى تحظى بموافقة الدولة . وهنا يكمن النوع الجنسى بوصفه تناقضا . فللدول سلطة وصف هذه التجارة باعتبارها سمة من سمات الانحلال الخلقى عند هؤلاء النساء ، وذلك من جانب مع زبائنهن أو الدولة نفسها . وتحت وطأة هذه الشروط تضطر العاهرات إلى المقاومة .

وقد يعترض متشكك على ذلك مشيراً إلى أن الدعارة ذات طابع اقتصادى أكثر من كونها ذات خصوصية تتعلق بالنوع الجنسى . وتبرز مقالة إمّا جولد مان Emma Goldman الشهيرة هذه الفكرة على وجه التحديد . يبدو أنه يمكن فى رأيى تأكيد البعد الخاص بالنوع الجنسى للبغاء ، بالنظر فى ذات الوقت إلى حياة العاهرة ، وإلى سلوك الدولة تجاهها ، فالاتجاه العام لدول هو فرض أو إعارة فرض التبعية على النساء اللائى حكم عليهن فى قضايا دعارة . فهن يوضعن تحت رقابة أو حجز الشرطة والأخصائيين الاجتماعيين والموظفين الذين تنحصر مهمتهم فى استعارة سيطرة الذكور . ولا يكاد أحد يتوقع أن يحكم على عاهرة بدفع الضرائب المتأخرة . فالتهديد الذى تمثله العاهرات للمجتمع ليس فيما يكسبنه ، بل فيما يمثلنه باعتباره تحدياً للذين يدافعون عن فضائل العائلة التقليدية ، وينسحب ذلك إلى الدفاع عن الدولة نفسها . وإذا كانت الدعارة خياراً قابلاً للتطبيق بالنسبة إلى النساء ، فهل ستواصل العائلات البقاء ؟ وإذا لم تستطع العائلة مواصله البقاء ، فهل ستواصل الهيمنة البقاء ؟

وهناك حجة أخرى دافعة لتحليل الدعارة مبنية على نوع الجنس ، ومؤداها أن الدول تشترك فى اختيار الوجود الممكن للدعارة كذريعة تتعلل بها لاحتياجها إلى شن حملات ضد الرذيلة أو مدعمة للأسرة ، وهى استراتيجيات مصممة لكى تقوى الهيمنة . ففى عملية مهاجمة الرذيلة أو حماية الأسرة يبرز بُعد التناقض الخاص بالنوع فى الدعارة بطبيعة الحال ، ولكن الدولة تقوم بتمويهه ، بالتركيز على الجوانب الاقتصادية أو الأخلاقية للدعارة ، وهى جوانب لا تشغلها أو تعنيها بالفعل على الإطلاق .

والماركسيون فى الأغلب ينتسبون إلى هؤلاء الذين يصرون بشدة على تفسير اقتصادى للبغاء متجاهلين بذلك الإمكانات التى يقدمها تحليل النوع . وبهذا الصدد تتبع الماركسية فيما يبدو خطى الليبرالية . ويستطيع المرء أن يرى ذلك فى اختيار المصطلحات . فإذا قبل الكاتب النوع باعتباره تناقضا ، فإنه يميل إلى استعمال لفظ «العاهرة» ، لأنه لفظ أكثر « فاعلية » والقليل من الماركسيين يفعلون ذلك ، ومعظمهم يفضلون الانطلاق من تحليل طبقى أو من لغة خاصة مميزة متكيفة مع الدولة عن الأخلاق الفردية . ويؤدى ذلك بهم إلى استعمال اللفظ الأكثر سلبية لفظ المومس[١٩] .

وقد تميزت من الناحية التقليدية دولة الطريق الإيطالى ، التى تعنينا هنا بتبنيها لشكلين رئيسيين للإيديولوجية التى تتعلق بالبغاء : النزعة النظامية ، ونزعة ازدواج

المعايير . وفى حالة إيطاليا نفسها تم الاحتفاظ بهاتين الإيدلوچيتين بوصفهما سياستين فى التشريع التأسيسى عن البغاء ، قانون كافور عام ١٨٦٠ ، وهو تشريع أعطى ، على الرغم من معارضة الكنيسة الكاثوليكية ، للعاهرات بعض الأشكال المحدودة من الحماية القانونية . وفى عام ١٩٨٢ حفز العنف من جانب الجنود الأمريكيين ضد العاهرات فى أفيانو ، تشكيل لجنة الدفاع عن الحقوق المدنية للعاهرات[٢٠] . وقد تحول الرأى العام سريعاً ضد الأمريكيين لأسباب تتضح على الفور . وفى الحالة الثانية من دولة « الطريق الإيطالى » ، حالة المكسيك كان منهج ازدواج المعايير أكثر سيطرة . فهناك صلة واضحة فى مونتيرى Monterrey على الأقل بين تجارة السياحة الحدودية ورفاهية الاقتصاد الوطنى[٢١] . وهنا كان اختيار موقع استراتيجى سببا فى إزدياد قوة أولئك النساء . ومع ذلك من الممكن استخلاص أمثلة أخرى من الهند . ففى كلكتا قاومت العاهرات بنجاح محاولات التسجيل من جانب الدولة . وقد اعترف مؤلف يكتب عن النزاع فى بومباى ، بنغمة آسفة ، أن الشرطة يمكن أن تُرشَى بسهولة . وفى حادثة شهيرة لازدواج المعايير عام ١٩٢١ ، طالب غندى ألا تسعى العاهرات اللائى كن عضوات فى حزب المؤتمر ، وكن بين الذين يدعمونه ماليا إلى الحصول على مناصب . وليس من المعروف كيف استجبن . ويعكس الطلب نفسه ما لدى أولئك النسوة من سلطان[٢٢] . ومن المعتقد أن ظاهرة مومس التليفون المتعلمة اتسع نطاقها بعد الاستقلال[٢٣] . وقد جعل ازدواج المعايير ذلك ممكنا .

وفى الدول الديموقراطية ، يبدو تناقض النوع أكثر أهمية من مثيله فى الطريق الإيطالى . ففى الديموقراطيات ينظر إلى البغاء لا بوصفه غير « قانونى » فحسب بل باعتباره « غير أخلاقى » أيضا ، لذلك من الشائع لدى المومسات أن يحتجن إلى حماية قواد ذكر . ومن المؤكد أن المومسات بلا حماية من القوادين يتعرضن للعنف الذى عانت منه النساء الإيطاليات سالفات الذكر . وبالإضافة إلى ذلك ففى الديموقراطيات نلتقى بذلك القاتل لحملة من النساء يُعتقد أنهن « مومسات » ، وهو ما يسمى « صاحب مناشير الشق » Jack the Rippers ، وقد ظهر بوصفه نمطا سوسيولوجيا . وقد حظيت هذه الشخصيات باهتمام وسائل الإعلام ، كما لو كان ذلك بهدف إرعاب كل النساء لإبعادهن عن التواجد هنا أو هناك ، وعن السعى للعمل فى أى مجال ، وذلك لتأكيد الصلة بين مصير المومسات وكل النساء الأخريات[٢٤] . ومرة ثانية ففى

الديموقراطيات وحدها يشن المصلحون مراراً وتكراراً حملات ، وإن تكن غير ناجحة ، لإنهاء الدعارة .

أما فى دول « الطريق الروسى » ، فإن تناقص النوع يكون أقل أهمية فى الحفاظ على الهيمنة بالمقارنة بالديموقراطيات ، وربما ترتب على ذلك أن كان كفاح الموسات فى حالة روسيا نفسها على الأقل قادراً على إثارة محاولات عامة . فهل على الدولة أن تكون حارساً للسلامة العامة مُعرَّفة بوصفها حماية مواطنيها من الزهرى ونقص المناعة المكتسبة (الإيدز) أم هل عليها أن تقدم ما يريده مواطنوها ؟ وفى كل من روسيا والاتحاد السوفييتى، خضعت الحكومة لقبول الدعارة من أجل «خدمة حاجات الجنود» ؛ لأن الاستمناء « يضعف الصحة » . ولمعالجة هذا التناقض المتمثل فى كيف تدعم الدولة الأخلاق العامة ، بينما تحافظ على « جيش موفور الصحة » ليحمى البلاد ، شجعت الدولة ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر فصاعداً رجال الأعمال اليهود على إدارة المواخير . وعلى أى حال ، فإن وجود مواخير قانونية ترك مسألة « تنظيم لوائحها » مفتوحة ، وهى عبارة شفرية عن مقدار حرية النوع التى تم كسبها . هل تستطيع الدولة أن « تأتمن » مهنتها الطبية على مسئولية التنظيم بما يتضمنه ذلك من تفضيل صحة النساء على حاجات الدولة ، أو هل من الضرورى ترك المسئولية لوزارة الداخلية ؟

وفى عام ١٩١٧ ، نشبت الثورة الروسية ، وكانت حرية النوع قد أعلنت بوصفها هدفا للبلاشفة . إلا أن العلاقة بين الموسات والدولة على المدى البعيد ، ظلت كما هى . وتصل النظرة الأدق إلى أن البلاشفة لم يقوموا بتنمية فكرة النوع باعتباره جزءاً من إيديولوجيتهم ، ولكنهم تابعوا ببساطة أفكاراً أقدم . على أن للدعارة جذورها فى الرأسمالية ، لا فى المجتمع الأبوى . وحاول الحزب وهو يعمل وفقاً لهذا الافتراض تصحيح الوضع . ولكن عرضا ينتسب إلى الفترة الستالينية ، قدمه شيوعى مخلص يومىء إلى أن هذا الجهد لم يكن له إلا أقل تأثير . فبعد خمس سنوات من المحاولة تمكن ستالين من إعادة تشغيل ما لا يزيد عن ٥٧٥ من الموسات السابقات . لقين تدريباً جديداً بواسطة إصلاحيات الوقائية . ومن الواضح أنه أثنا ء العهد الستالينى (١٩٢٨ - ١٩٥٣) وحتى مع التحريم القانونى للدعارة ارتفع عدد الموسات . وفى أعقاب وباء الإيدز حديثاً جداً جاءت تقارير عن أن الدولة تعالج المشكلة بتغريم الموسات غير المسجلات .

ولم يكن الاتحاد السوفيتى وحيداً فى انتهاج الاتجاه نحو نزعة الضبط التنظيمى غير الكفء ، فمن الممكن أن نجد ممارسات مماثلة فى العراق ، وهى دولة طريق روسى أخرى . ويكشف تصوير أدبى لحى « الضوء الأحمر » فى بغداد المعاصرة بقلم كاتب معروف عن إدعاءات الشرطة ونفاق المسؤولين الدينيين(٣٦) .

بيد أنه فى الدول القبلية العرقية يكون النوع هو التناقض الأول للهيمنة ؛ وبذلك يتم استيعاب مؤسسة الدعارة فى النظام على نحو يبدو للنظرة الأولى مختلفاً عن الطرق التاريخية الأخرى . ونجد بروكسل ، على سبيل المثال ، تلعب دور عاصمة « تنظيم العاهرات العالمى » . وفى كينشاسا تدل دراسة حديثة للدعارة ، على أن مديرة الماخور الأكبر سوف تخلق علاقة قرابة خالية بينها وبين عاملاتها الأصغر سنا ، لأن الدولة ستتجاهل الماخور، إذا اتخذ الماخور لنفسه شكلا مناسباً فيما يتعلق بالقبيلة والنوع . ومهما يكن من شئ ، فإن أى إصدار من جانب النساء على الوقوف ضد الإيديولوجية القبلية أو ضد التمييز بين الجنسين . على نحو أعم – وهناك أمثلة على ذلك تكشف عن استعداد الدولة للحفاظ على الهيمنة . وهكذا ، فحتى الإيماء بأن امرأة تتخذ لنفسها دوراً ذكورياً ، كما يحدث على سبيل المثال حينما تصير عاهرة موضع ثقة سياسية (أمينة سر) يجعلها هدفاً للارتياب . ويشير ذلك إلى أن الوضع شبه القانونى للماخور فى بلاد مثل : زائير وألبانيا وبليجكا .. إلخ لا يكشف عن الحرية ، بل عن المركزية النسبية لتناقض النوع فى علاقات الهيمنة تلك(٢٦) .

وتلخيصاً لما سبق ؛ فإن الرومانسيين على حق فى إصدارهم ، على أن العنف ضد المرأة فى الهند موضوع خطير له جذوره التاريخية العميقة . فذلك هو المدى الذى يستطيعون السير فيه . وللمضى أبعد يحتاج المرء إلى إطار للتحليل أكثر تحديد أمن الناحية التاريخية مما يستطيعون تقديمه . وهنا تستطيع دراسة عن كفاح المومسات فى علاقات هيمنة مختلفة أن تقدم عونا فى إرساء أساس عام ، نحكم انطلاقاً منه على صرا ع النوع فى بلد معين مثل الهند .

وما يتضح من الوصول بهذه النقاط إلى نتيجتها الختامية هو أن اعتبار إحراق الأرامل لأنفسهن نموذجاً تعهد النوع موجها ضد النساء ليس منطقياً . كما أن تفسير ذلك الإحراق على أساس الدين ليس منطقياً بدرجة متساوية ، فمعنى ذلك تجاهل

المكونات الاقتصادية التى لا علاقة لها بالنوع أو الدين . فإحراق الأرامل لأنفسهن ، أو إحراق العرائس فى الأزمنة الحديثة ، يبدو اعتماداً على هذه القائمة الطويلة من التعقيبات التمهيدية مشكلة مرتبطة برأسمالية الطريق الإيطالى ، وهى رأسمالية فى سياقها الهندى الشمالى يعوقها الركود ، رأسمالية تنحو إلى خوض حروب مع باكستان المجاورة ، ولكنها غالباً ما ترغم على الاستدارة إلى نفسها وغالبا ما يكون ذلك على نحو عنيف . وبإيجاز ، فإن الحجاب وإحراق الأرامل وإحراق العرائس والطائفة فى الهند تمثل جميعاً ما يسمى فى الدراسات المقارنة نوعية (خصوصية) أو اختلافا ، وليس ما يعتقد الرومانسيون أنها تمثله ، أى شيئا فريداً ثابتا فى الزمان والمكان .

الاقتصاد السياسى للهند (١٨٦١ - ١٩٩٠)

ابتداء من عام ١٨٦١ ، سادت هيمنة مرتكزة على تحالفات أطلق عليها البريطانيون الحكم غير المباشر فى أجزاء فسيحة من الهند ، وقد لعبت هذه التحالفات دوراً مسيطراً فى الاقتصاد شبه الرأسمالى ، شبه الإقطاعى ، الذى تطور حينئذ . وبعد قرن جردت الإصلاحات السياسية الجناح الإقطاعى من ألقابه الأرستقراطية ، ولكنها لم تستطع أن تخفى وراءها تبعية الهيمنة لقسم « جنوبى » من الطبقة الحاكمة . وابتداء من السبعينات من هذا القرن ، وحتى اليوم واجهت الدولة تحديا خطيراً من الجنوب ، مما طرح للتساؤل لا استمرار حكومات كثيرة فحسب ، بل الهيمنة نفسها .

وكانت السلطة السياسية فى الأعوام التى سبقت ١٨٦١ ، متجسدة فى تحالفات مهلهلة النسج تتألف من الطبقات التجارية فى المدن الساحلية ، ومن كبار ملاك الأراضى فى الشمال ومن حكام الأقاليم الكبار . وكان البريطانيون ممثلين على نحو بارز فى هذه الأقسام المكوِّنة جميعاً . وابتداء من مرسوم الهند عام ١٨٥٨ فصاعداً ، بدأت « ثورة سلبية » ، فالبريطانيون وحلفاؤهم الهنود أدمجوا أراضى شركة الهند الشرقية مع أراضى « الولايات الأميرية » فى قطر واحد من أعلى خالقين هيمنة ذات انقسام بين شمال وجنوب غائر فى صميمها .

وترجع أهمية عام ١٨٦١ ، إلى أنه عام تصنيف وتنسيق قانون العقوبات ، وقانون الإجراءات وهو ما يرمز بطرق مهمة إلى انطلاق الدولة الحديثة . وفى عام ١٨٦١ كذلك بدأت البيروقراطية فى الصعود ، ويمكن أن نأخذ ذلك علامة على أن الهيمنة كانت فى

الموضع الصحيح ، فطالما تحقق إتفاق بين العناصر المسيطرة يمكن لمشاكل تنفيذ السياسة أن يتم تفويضها .

كما أنه عام ١٨٦١ ، يصلح نقطة فاصلة نشأت بعدها شرطة مدينة أخذت على عاتقها وظائف كانت تزاولها فيما سبق القوات المسلحة . وهكذا ، شهد عام ١٨٦١ الشرطة وقد جُردت من وظيفة تحصيل الإيراد . وارتفعت مرتبات رؤساء الشرطة ، ولكن كما هو شائع فى دول الطريق الإيطالى تم الاحتفاظ بالتفاوت الإقليمى . ولم يطبق مرسوم الشرطة لعام ١٨٦١ على الجنوب . ولم تستمثر الدولة ما لا فى قوات احتياطية مسلحة جنوبية إلا فى أعقاب شغب وقع هناك .

وكان التباين بين الشمال والجنوب بالنسبة لذوى العقلية الإصلاحية بين البريطانيين والهنود فى تلك الفترة شيئا يتعذر قبوله وخاصة فى مجالات مثل القانون . فلم يكن مما يمكن قبوله أن القضاة فى قسمين مختلفين من البلاد يصلون على أساس الوقائع نفسها إلى قرارات مختلفة تماماً . وهكذا ، سعت الحكومة فى عام ١٨٦١ وإلى أن تسد الثغرة فى هذه المشكلة ، بأن تجعل كل المناصب القضائية العليا مقصورة على أعضاء « الخدمة المدنية الهندية » وبتوسيع سلطة القاضى لتعمل أموراً قضائية وتنفيذية فى نفس الوقت[٢٨] . وفى هذا العام أيضاً ، أدى مرسوم المحاكم العليا إلى إنشاء محاكم عليا فى كلكتا وبومباى ومدراس . ومع ذلك استطاع منتقدو النظام الجديد أن يكتشفوا نزعة استثنائية جنوبية تتمثل فى البطء الذى كان يمضى به الإصلاح القانونى بالفعل فى تلك المنطقة .

وابتداء من ١٨٦١ ، وضعت نواه تقليد برلمان ضعيف بوصفه جزءاً من الصرح البيروقراطى الجديد ، فقد تقرر بموجب مرسوم المجالس الهندية فى هذا العام توسيع حجم « المجلس التنفيذى لنائب الملك » و« المجلس التشريعى » . مما تطلب وجود أعضاء غير رسميين من أهل البلاد ، وعلى أى حال فقد بقيت حدود السلطة المجلس معينة ، إذ كان للحاكم العام حق الاعتراض (الفيتو) على إجراءات المجلس .

وفى عام ١٨٦٤ ، أدت مركزية الجيش وإعادة تشكيله إلى جعله أقدر – من الناحية النظرية – على أن يعكس المصالح الوطنية بالمقارنة بالمصالح الإقليمية . وكان الجيش الجديد أقل عدداً بنسبة ٤٠٪ فما كان قبل انتفاضة ١٨٥٨ ، كما زادت نسبة

البريطانيين فيه بمقدار ٦٠٪ وذلك على الرغم من « التمرد الأبيض » ، الذى فرض الاستقالة من الجيش على عشرة آلاف من الأوربيين .

وقد شهدت السبعينات من القرن التاسع عشر تعميقاً لاتجاهات الستينات ، فالهيمنة الجديدة كانت فى واقع الأمر تمد جذورها فى الأعماق . فعلى المستوى الاقتصادى رعت الدولة برنامجاً ناجحاً فى ذلك العقد للتنمية السريعة للبنية الأساسية فى غربى الهند ، وبدأ المزيد من المنتجات ، يصل إلى الساحل ، ويشق طريقه إلى تجارة التصدير . وعلى المستوى السياسى ازدهرت الولايات الأميرية[٢٩] .

وقد تصاعدت المعارضة بطبيعة الحال وواجهتها الدولة .وقد جاء بعضها من بين شخصيات المؤسسة . كما كان بعضها ينتمى إلى « الصفوف الدنيا » . وفى عام ١٨٧١ استطاع الحاكم العام أن يبرر « مرسوماً قبلياً جنائياً » بأن الشرطة تحتاج إلى عون إضافى لأنها تواجه جماعات إجرامية » لا مجرد مجرمين عاديين .

وفى عام ١٨٧٣ ، فيما يمكن اعتباره علامة على نجاح الهيمنة ، عبر نائب حاكم البغال عن الرأى القائل بأن مكانة القانون والمحامين كانت فى صعود . ومن الطبيعى أنه كان سعيداً ، لأن تلك المكانة فى صعود بين كبار ملاك الأرض (الزامندار) ، ولكنه كان مهموماً لصعودها كذلك بين المرابين ، فالمرابون قد يستخدمون نظام المحاكم ضد الفلاحين ، وقد يفقد الفلاحون أرضهم[٣٠] .

وفى عام ١٨٧٦ ، كانت مظاهر المجتمع المدنى بادية للعيان ، ففى ذلك العام أسس البطل الوطنى النزعة سرندرانات بانرجيا Surendranatl Banergea الرابطة الهندية فى كلكتا . وفى عام ١٨٧٨ ، بدأت جريدة المواطن الهندى Hindu الظهور فى مدراس . وفى عام ١٨٨٣ ، اشتد ساعد حكم القانون وهو سمة أساسية للمجتمع المدنى بواسطة سحب قانون إلبرت بيل ، Iibert Bill . ومنذ ذلك الحين أصبح من الممكن ، نظريا على الأقل ، محاكمة الأوروبى أمام قاضى هندى . وفى عام ١٨٨٥ ، تأسيس حزب المؤتمر .

وبعد عام ١٨٨٠، أصبح التباين بين الشمال والجنوب جزءاً متقبلا من جانب الثقافة الوطنية . وكان الإدراك المشترك فى فهم الهند ينبئ أن المؤسسات الحديثة فى الهند ، كانت من الناحية الرئيسية فى الشمال ، وأن المؤسسات الحديثة حتى فى مدراس كانت أقل تطوراً من نظائرها فى الشمال[٣١] .

وخلال أواخر القرن التاسع عشر كان قطاع التصدير هو قائد الاقتصاد الحديث . وبدأت البنية الاجتماعية تعكس هذا التغير . فقد نشأت شريحة وسطى ذات وزن فى شمال الهند ، وكانت هذه الشريحة الوسطى على نحو متزايد هندوسية متعلمة وثنائية اللغة . وفى السنوات المبكرة من القرن العشرين ، بدأ التصنيع فى بومباى حول القطن ، وفى كلكتا حول الجوت . ونما السكان الحضريون نمواً سريعاً ، وتكونت سوق داخلية تستوعب المنتجات المصنوعة محلياً .

وكانت النتائج السياسية لهذه التغيرات الاجتماعية الاقتصادية بعيدة المدى . فالمسلمون واليانيون(*) والبارسيون الذين أشرنا إليهم فى القسم السابق ضغطوا على الحكومة من أجل الضمانات التى تكفل امتيازاتهم التقليدية ، ولكن بحلول عام ١٩٠٠ ، لم يعد هذا المطلب ممكن الوفاء به من جانب الحكومة . وقد كف الاقتصاد عن الاعتماد ببساطة على تصدير السلع الأولية التى كانت مجال خبرتهم ، واعتمد على خبرة فى التصدير مضاف إليها خبرة فى البيع داخل السوق المحلية . وفى اقتراح يسمى درامى وإن يكن سئ التصور ، دعا اللورد كيرزون Curgon نائب الملك فى الهند إلى تقسيم البنغال عام ١٩٠٥ ، لكى يكفل قاعدة سياسية للمسلمين . ولكن ذلك أدى إلى نتيجة عكسية ، كما حدث للمحاولة التعويضية الهادفة إلى توسيع الإطار السياسى ، ليضم مزيداً من الهندوس ، وهى فكرة الحكومة الثنائية الواردة فى تقرير مونتاج تشيلمسفورد عام ١٩١٨ .

وقد أشارت قرارات اللورد كيرزون المتعلقة برسم السياسة فى السنوات المبكرة من القرن إلى شئ آخر ، هو أن مصالح الطبقة الحاكمة فى الهند سواء كانت إنجليزية أو هندية ، ومصالح نظيرتها فى إنجلترا كانتا تتباعدان ، فقد كانتا فضلا عن ذلك تعملان فى علاقات هيمنة مختلفة .

وقد ظهر مثال مبكر لهذا التباعد عام ١٩٠٥ . ففى هذا العام كان الإنجليز يسعون إلى مصالحة الروس ، الذين كانوا فى ذلك الوقت حليفاً محتملاً . وقد أحرجهم تصريح اللورد كيرزون ، الذى صدر فجأة قائلا · إن توسع روسيا بمثابة تهديد للهند .

(*) الباسه أو الجبانيزم Janism ديانة هندية ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، وتتعلق بالتطهير الروحى عن طريق سامى التفكير والإيمان ونقية السلوك . (المترجم)

وكلما مضى الوقت تعمق التباعد . ومع تصاعد السياسة العمالية الاستعمارية داخل إنجلترا . كان كيرزون فى الهند يبدو غير متمسن للسياسات الانجيزية . فقد كانت الحكومة الإنجليزية تريد أن تجد طريقة للتكيف مع النزعة الوطنية الهندية . على عكس ما كان يراه كيرزون .

إن العلاقات المتوترة بين الهند وإنجلترا ، ابتداء من ذلك الوقت فصاعد كانت تكذب التوقعات الأقرب إلى التقدير الشائع ، التى يمكن أن يصل إليها المرء عن روابط منسجمة بين بلد أم ونخبتها الحاكمة المختارة فى المستعمرة . وعلى سبيل المثال ، فأثناء الحرب العالمية الأولى كانت الفضائح فيما بين النهرين ، التى أحاطت باستعمال الإنجليز لمبالغ الضرائب الهندية تضيف إلى الإحساس بالاستغلال ، الذى لم يكن يشعر به ويعبر عنه القوميون وحدهم ، بل كانت تعبر عنه حكومة الهند لنظيرتها فى لندن . وبعد الحرب ، عانت الهند من أزمات اقتصادية أدت إلى هبات جماهيرية احتجاجاً على ارتفاع أسعار الطعام وإلى قلاقل نقابية . وقد عزى السياسيون فى الهند هذه الأحداث إلى التضحيات ، التى كانت الهند مرغمة على تقديمها إلى بريطانيا العظمى أثناء الحرب . وأثناء الكساد الكبير (بدأ عام ١٩٢٩) دفعت ممارسات الإغراق البريطانية حكومة الهند إلى رفع التعريفة الجمركية ، لحماية منتجات القطن والورق والسكر الهندية فى مواجهة مواطنهم . وقد رفع هذا المسلك الإنجليز فى إنجلترا إلى الجمركية .

كما بدأت الأعمال الاقتصادية فى الهند بما فيها الأعمال الهندية تكتسب نفوذاً سياسياً متزايداً لدى حكومة الهند ، ويرجع ذلك جزئياً إلى المنافسة بين الموطن الأصلى والمستعمرة . فهل صارت طبقة من الرأسماليين الوطنيين مثل قطب صناعة الصلب تاتا Tata رأس حربة الحركة الوطنية ؟ يبدو أن ذلك ليس هو الواقع الحقيقى وبوضوح لم يكن تاتا معادياً للبريطانيين . وكان ما دفع رجال الأعمال على شاكلة تاتا ، والدولة كذلك على نحو متزايد إلى انتهاج طريق الصدام مع بريطانيا العظمى أمراً يتعلق بالاقتصاد أكثر من تعلقه بالسياسة كما يمكن الاستنتاج .

يبدو أن الصراعات المبكرة الراجعة إلى الحرب العالمية الأولى بين الهند وإنجلترا كان مقدراً لها أن تكون سياسية . فلم يكن حزب المؤتمر الهندى الذى يقوده رجال من أمثال غاندى يسمح بأن تسير الأمور فى طريق آخر ، وعلى الرغم من كل شئ، كان غاندى مثل جرامش فى إيطاليا وهو الذى استوعب كيف تمارس الدولة الهندية الحكم .

وإذا كانت الدولة الهندية قد وجدت سبيلاً لتقسيم الشمال والجنوب فقد وجد غاندى سبيلا للتغلب على هذه الانقسامات . وقد استفاد من الاحتجاجات الرمزية الجذرية التى سمحت للملايين بأن يشاركوا فى السياسات ذات الطابع القومى . بطريقة متناسقة . وفى حركة رولات ساتيا جراها Rowlatt Satyagraha عام ١٩١٩ ، وهى حركة احتجاج ينتهج اللاعنف ضد مراسيم رولات ، وهى قوانين تعمل على استدامة قيود بين الحرب على الحريات المدنية ، جعل غاندى استراتيجيته توشك أن تحقق الآمال . ففى هذا الاحتجاج تحول غاندى من منهج الصيام والدعوة إلى تطهير الذات إلى منهج الدعوة ، إلى المقاومة التطوعية للعمل . ومن خلال هذا التغير فى الاستراتيجية تلقى غاندى تأييدا متزايد الاتساع حتى من بين صفوف الطبقة الوسطى الحضرية الدنيا فى شمال الهند(٣٢) ، التى هى فى الأغلب أكثر علمانية . وبلغ منهج رفض العمل من النجاح درجة دفعت به تجربته إلى توسيع حركة عدم التعاون ' لتشمل حتى الجنوب . بيد أنه بالتدريج عند منتصف الثلاثينيات ، بدأت دعوة غاندى إلى رفض العمل الحديث لصالح العمل اليدوى التطبيقى التقليدى فى الاصطدام بمصالح الطبقة الصناعية الهندية ، وهى طبقة اعتادت أن تلقى آذانا صاغية من جانب سياسى حزب المؤتمر .

وكما لو أن ذلك لم يكن كافيا فقد نشأ بمجئ الثلاثيينات اتجاهان جديدان هددا بتقويض حركة عدم التعاون ، أو على الأقل صلتها بحزب المؤتمر ، الأول : كان الاتجاه الجماعى الطائفى ، والثانى : كان تصاعد الحركات الفلاحية ، وقد حمّلت الحكومة الدراسات المتخصصة التالية غاندى مسئولية الاتجاه الأول . على حين أن ذلك قد لايكون منصفا ، فمن الصحيح الزعم بأن رسالته تتضمن حثاً اتباعه على التمييز بين ما هو هندوسى وما ليس كذلك . وبينما يستطيع ذلك أن يخدم المصالح ذات المنحى القومى إلى حد معين ، فإنه فى النهاية يعمل على تأخيرها إذا أخذنا فى الاعتبار العدد الكبير للمسلمين فى الهند . والاتجاه الثانى ، وإن يكن لا يقل أهمية بالنسبة لنتيجة حركة

عدم التعاون هو تصاعد الحركة الفلاحية ، وكانت قطاعات واسعة من الفلاحين تريد الأرض والقوت . وفى كل الأحوال لم يكن فى استطاعة العلاقات التقليدية ولا غاندى ولا القويين العلمانيين أن يلعبو حاجاتهم . لذلك أدت انتفاضات الفلاحين إلى تفاقم جو الأزمة دون أن تسهم فى إعلاء مكانة غاندى .

وأصبح انحدار نفوذ غاندى باديا للعيان فى أوائل الثلاثينيات مع ارتفاع شأن الصناعة باعتبارها العمود الفقرى الحقيقى للاقتصاد الهندى ، وقبل ذلك الوقت كان غاندى قادراً على فرض استراتيجيات يمكن القول بأنها مضرة بمصالح رجال الصناعة . وعلى أى حال ، فقد أصبح رجال الصناعة فيما بين ١٩٣٢ و ١٩٣٥ شديدى القوة . وحتى حكومة الهند كانت قد بدأت فى مناصرة رجال الصناعة ، فارضة رسوماً جمركية ، كما لاحظنا فيما سبق ، على منتجات القطن الأجنبية بما فيها المصنوعات القطنية من لانكشاير ، وكذلك على الورق والسكر ، فقد أصبح التحول فى الاقتصاد نحو اتجاه الصناعة بادياً للعيان حتى فى « الجنوب القديم » .

وبتقدم التصنيع واجتذابه دعم الدولة ، عانت طبقة كبار الملاك من تضاؤل الدعم الرسمى . وسارت علاقات العمل فى الريف من سئ إلى أسوأ . ونما الهياج ، الذى يتخذ شكل حركات فلاحية . وتأهبت طبقة كبار الملاك الهندية مثل نظيرتها الإيطالية فى العشرينيات للتخلى عن الليبرالية لكى تتشبث بأرضها إذا اضطرت إلى ذلك ، وسرعان ما اضطرت .

وعند النظر إلى الوراء ؛ إلى أزمة الليبرالية فى هذين البلدين ، سيظهر لنا فى النهاية أن ما جعل إيطاليا تتجه نحو شكل يمينى من نزعة نقابية ، وجعل الهند تتجه إلى شكل يسارى ، كان نتاجا للخيارات التى لم تقم بها الدولة وحدها ، بل قامت بها أيضا الحركة الرئيسية المناهضة للهيمنة .لقد كانت الأزمنة فى البلدين متماثلة إلى حد بعيد . ففى حالة إيطاليا ، على الرغم من محاولات جرامشى لتحقيق استراتيجية مجالس عمالية ومحاولاته لتجنيد العمالة الريفية المهاجرة فى وادى البو فى الحزب الشيوعى ، إلا أن الحزب اختار أن يتراجع ، وأن يقصر تأييده على الطبقة العاملة الحضرية حينما كانت الرأسمالية الليبرالية تواجه أزمة حقيقية فى الريف . وقد أعطت الأزمة كما أعطى تراجع الحزب الشيوعى للفاشيين لا مجرد الفرصة للوصول إلى السلطة ، بل فرصتهم

العملية لتنفيذ برنامجهم . أما فى الهند ، فقد أرغمت الرابطة التاريخية بين قسم من اليسار والفلاحين الطبقة الحاكمة الهندية ، على أن تعترف بأن وصفها ليس حصينا وعلى البحث عن قاعدة جماهيرية لبرنامجها .

وكان طريق أدنى مقاومة بالنسبة لها هو اختيار الطبقة العاملة الحضرية حليفا لها . وهذا ما فعلته وكانت النتيجة اشتراكية الدولة .

وفى عام ١٩٤٨ ، وهى السنة الحاسمة فى وضع التقاء القوى السياسية المختلفة فى الهند الحديثة بزغت النزعة النقابية بوصفها اشتراكية دولة . كما بزغ الاستقلال السياسى والتقسيم . وقد بقيت اشراكية الدولة فعليا ، دون تحد حتى عام ١٩٧٠ . وقد واصلت الحياة ، ولكن فى شكل أضعف حتى اليوم . وفى دراستنا هذه تسمى الفترة التى استمرت طوال الاثنين وعشرين سنة الأولى بالفترة النقابية بامتياز . فأثناء تلك الفترة تعاون الرأسماليون والنقابيون العماليون فى حكم الهند تحت مظلة حزب المؤتمر . وفى غمار هذه العملية تلطخت صورة الجانبين بواسطة العثرات المتعددة لحزب المؤتمر[٣٤] . وعند الستينيات استخدم منتقدو النظام الهندى مصطلحات مثل الدولة « مملكة الأوصل » و « رأسمالية الدولة الاحتكارية » و « الشيوعية الأوروبية » وغيرها من العبارات لتشخيص التشوهات التى تواصل الظهور .

وخلال عقد الستينيات كان النظام يطمح ، مهما يكن ذلك مفتقراً إلى أسس واقعية ، إلى أن يجعل من الهند بلداً صناعياً . ولكن الإنتاجية الصناعية لم ترتفع ، ولم يكن الإصلاح الزراعى بسير إلى الأمام ، وكانت طبقة كبار ملاك الأرض شديدة القوة . وقد انخرطت تلك الطبقة فى المحل الأول فى عملية استرجاع سياسى لنفوذها من خلال تحالفات مع الأحزاب الطائفية الدينية فى الداخل ومع الولايات المتحدة فى الخارج . بل قد كانت تمارس وظائفها حتى داخل حزب المؤتمر نفسه ، هذا الحزب الذى صار ابتداء من الانتخابات العامة عام ١٩٦٨ ، فصاعدا ، منقسماً على نحو متزايد بين المصالح الصناعية والزراعية وكانت تلك نهاية عصر النزعة النقابية المتماسكة .

وبعد عام ١٩٧٠ ، دخلت الهند عصر الليبرالية الجديدة ، ولكنها دخلته على نحو تدريجى . وكان الحكام منقسمين إلى درجة تمنع قيام حكم طبقة واحدة . وبقى حزب المؤتمر فى السلطة، وبقيت مخالفاته العابرة للطبقات سليمة، وإن تكن قد أصابها الوهن .

كما احتفظ رجال الصناعة الهنود داخل الحزب بتحالفهم مع ممثلى الحركة النقابية مثلما كانت الحال فى السنوات السابقة ، ولكن كلما صار استمرار الاقتصاد الصناعى متزايد الاعتماد على الدولة ، صارت التغيرات ملحوظة . وفى القطاع العام ، بدأ الشيوعيون يزاولون وظائف « رأسمالية » جاعلين من الأسهل على الدولة أن ترغم الطبقة العاملة على قبول تجميد الأجور والتراجعات عن المكاسب من أجل حماية الوظائف ، مما سهل على الدولة استخدام التضخم لإضعاف القوة الشرائية للقطاع العام مع حماية المستوى الأعلى من البيروقراطيين بزيادات فى بدلات تكاليف المعيشة . وكانت تلك الفترة هى التى شهدت كذلك أكبر نمو فى فرض الضرائب غير المباشرة[٣٥] .

وحينما اتسع نطاق الاقتصاديات الليبرالية الجديدة والرأسمالية المالية على نحو أكثر عموماً ، عاودت الممارسات السياسية الليبرالية الصعود . وبرزت السياسات القائمة على الحماية والتبعية بصورة ساخرة .

وكانت أهم مبادرة للرأسمالية فى السبعينيات هى إدخال منهج التكنولوجيا العالية إلى الزراعة فيما يسمى بالثورة الخضراء ، وفى المسار المتوقع جاءت فوائد الثورة الخضراء ومضت فى طريقها ، وأثناء ذلك استمرت المنافسة بين البيروقراطية وكبار ملاك الأرض على الربح ، ومن المحتمل أنها احتدمت .

ومع توالى سنوات السبعينات ، بدأت الدولة تواجه تحديا خطيراً من « الجنوب » . وللمرة الأولى كانت مضطرة إلى تقوية نفسها عن طريق تحالفات قصيرة المدى لكى تستطيع مواصلة البقاء مثل حركة النساء والمجموعات العرقية الشمالية .. إلخ .

وقد منح تحالف الدولة فى الهند مع الحركات النسائية فى السبعينيات والثمانيات . للنزعة النسوية درجة من البروز لم يُسمع بها من قبل . وبدا أنه طالما كان نشطاء ونشيطات النزعة النسوية مستعدين لأن يؤكدوا المثل العليا للطبقة الوسطى ، ولأن يميلوا نحو العلمانية . فستكون لهم الحرية فى ارتياد المشاكل الاجتماعية ورفع وعى قطاعات من السكان فى الشمال خاصة ، وسيحصلون على المباركة الرسمية أثناء قيامهم بذلك[٣٧] .

كما أن تحالف الدولة مع جماعات عرقية مخصوصة قد دفع قضايا هذه الجماعات إلى الصدارة . ويبدو أن الحكام فى بلاد مثل : الهند وإيطاليا والمكسيك

يقومون بحساباتهم اليوم كما فعلوا فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، على اعتبار أن التنفيس الاستراتيجى عن التوتر العرقى ، يقوم بحرف الأنظار وبالإلهاء دون أن يؤدى إلى تغيير . وهكذا أفسحت وسائل الإعلام القومية مكانا لشكاوى المجموعات الصغيرة فى مناطق منعزلة من شمال إيطاليا ، مثل : وادى أوستا Aosta ، أو لمجموعات مثل السيخ فى البنجات أو أهل كشمير فى كشمير[٣٨] . وفى المكسيك يبدو أن الدولة تدعم عرقية الياكوى Yaqui فى شمال المكسيك[٣٩] وفى وجه هذه التحركات بدا أن الشيوعيين أخذوا على غرة . فغادروا ما ينطبق التحليل الطبقى على هذه الحالات[٤٠] .

المسألة الجنوبية فى الهند الحديثة

الرأى الشائع فى الهند هو أن الهند بلد ديموقراطى تماماً ، مثلما أن الرأى الشائع فى إيطاليا هو أنها بلد ديموقراطى . ولكن القليل من التفكير كما يوضح ما سبق ، يدفع المرء على أن يتحقق من أن مثل هذا الاستخدام لمصطلح الديموقراطية يفتقر إلى الدقة . فهو يخفى دور القهر الإقليمى ، الذى يكمن بالفعل فى قلب الهيمنة . وهكذا ، فإن المسألة الجنوبية فى الهند موجودة فعلا كما فى إيطاليا ، على الرغم من تجاهلها فى أغلب الأحوال ، وهى موضوع هام من موضوعات الاقتصاد السياسى .

ولا يوجد شئ بالغ التعقيد ، على وجه الخصوص ، فى وصف قضايا النمو الإقليمى المتفاوت أو التخلف عموما ، ولكن ما يجعل المسألة الجنوبية فى الهند أكثر تعقيداً إلى حد ما ، هو حقيقة أنها فى فترات مختلفة من التاريخ الهندى الحديث قد تبدت فى أجزاء مختلفة من البلاد . ويحتاج المرء ، نتيجة لذلك ، إلى أن يقسِّم تاريخ « الجنوب » إلى طورين على الأقل . فالطور الأول ؛ يستمر من منتصف القرن التاسع عشر حتى فترة ما بين الحربين . وأثناء هذه الفترة كان الجنوب منطقة زراعة الأرز فى تاميلنادو Tamilnadu[٤١] . أما الطور الثانى الراهن ؛ فقد بدأ فى أواخر الثلاثينيات . وفى هذا الوقت ، يكتشف المرء إعادة تحديد لموقع « المسألة الجنوبية » من الجنوب الجغرافى ، أى رئاسة مدراس القديمة . إلى المناطق التى ضربها الفقر مما يمكن تسميته برئاسة البنغال ، وما يعنينا منها هنا ، هو الأجزاء الغربية التى بقيت جزءا من الهند بعد الاستقلال[٤٢] . وفى نفس الوقت ،

فى هذه الفترة الأحدث ، أى من منتصف الثلاثينيات فصاعداً بدأ نمط شمالى من التطور الرأسمالى فى التشكل داخل الجنوب « القديم » أو « الجغرافى » .

ولنبدأ بفحص الفرق بين الجنوب القديم والشمال . فجنوب الهند بوصفه منطقة جغرافية أو منطقة اقتصاد سياسى بين الستينات من القرن التاسع عشر والثلاثينات من القرن العشرين كان منطقة أكثر اعتماداً على سقوط المطر من اعتمادها على الرى ، وعلى الزراعة اليدوية أكثر من اعتمادها على الزراعة الآلية(٤٣) . وعلى نقيض ذلك ، كان « شمال » الهند فى هذه الفترة ، كما يتمثل نموذجياً فى سهل الجانج يستخدم الزراعة المرتكزة على الرى مستعملا المحراث أولا ، ثم الجرار فيما بعد . وتتجه كل من الزراعة المرتكزة على المحراث والزراعة المرتكزة على الجرار نحو الإتيان بأشكال من الاقتصاد تتركز حول الذكور . وعلى عكس ذلك ، تطلبت زراعة الأرز الرطب المعتمد على سقوط الأمطار كمية ضخمة من العمل اليدوى ، مثل اقتلاع الحشائش ونقل الشتلات ، وهو عمل جرى العرف على أن يقوم به الرجال والنساء معاً . لذلك لم يكن مما يثير الدهشة أن تنظيم العمل كان قائماً فى الجنوب على أساس أكثر اعتماداً على المساواة بين الجنسين كما كان أكثر اتصافا بالقبلية بالمقارنة بالعائلية فى تضاد مع حالة الشمال مرة ثانية(٤٤) .

ويفسر الجغرافيون الاقتصاديون الاختلافات فى بنية العائلة بين المنطقتين ، بأن المحراث ينتج غلة أعلى من الزراعة غير الآلية ، وتسمح الغلة الأعلى ، بدورها ، بكثافة سكانية أعلى ، وتعنى تلك الكثافة الأعلى مع أخذ تقسيم العمل فى الاعتبار تمايزا أكثر بين الشرائح الاجتماعية ، ويسمح ذلك التمايز بنظام للمهور وزيجات مُرَتَّبة وانعزال النساء والحجاب وإيديولوجية تقوم على الشرف والعار ... إلخ . وفى السنوات الأخيرة شرعت تاميلنادو فى التصنيع ، وأخذت بنية القرابة أيضا فى المرور بتغير .

وفى السنوات التالية لسنة ١٩٣٠ ، كان لتصنيع الجنوب الجغرافى ، ولتراجع اقتصاد ، المنطقة القديمة من غرب البنغال ، كانت له نتائج واضحة بالنسبة للهند فى مجملها . وكانت الأعداد الكبيرة من الفلاحين الذين غادروا جنوب الهند فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، تتجه للهجرة إلى الخارج وتحويل النقود إلى بيوتهم ، رافعين بذلك مستوى المعيشة فى مناطقهم . ولكن فى فترة ما بين الحربين كما لا حظت فى القسم

الأول من هذا الفصل ، كانت فرص الهجرة فى وراء البحار أقل وكان الأمل الرئيسى لتفادى الموت جوعا أو البطالة ، متمثلا فى الهجرة الداخلية داخل نطاق جنوب الهند ، أو إلى الشمال الهامشى الأكثر رخاء . وكان لهذه الهجرة الداخلية ثلاث عواقب واسعة المدى على الجيل التالى . بالنسبة للقطاع الذى اختار أحياء الفقراء فى المدن الشمالية ، كانت العاقبة الرئيسية ، هى فتح الباب أمام الموجة المعاصرة من الإنتاج السلعى الصغير ، وبالنسبة للقطاع الذى تحرك نحو مناطق يغلب عليها الطابع الريفى مثل بيهار ، كانت العاقبة الرئيسية إعادة فتح خيار المشاركة فى حصة من المحصول (بين المالك والمستأجر) وغير ذلك من أشكال الإنتاج الزراعى الاستغلالية فى الأغلب . أخيراً ، بالنسبة لمدراس والأجزاء الأخرى من تاميلنادو ، وكان تدفق فائض السكان مصاحبا ، وربما كان مساهماً أيضاً فى بدايات التصنيع وارتفاع مستوى الرخاء .

وإذا انتقلنا إلى عرض للمسألة الجنوبية فى « الطور الانتقالى » من الثلاثينات ، وجدنا تغيرات مهمة فى الطريقة ، التى نظر الشمال من خلالها إلى موضوع الشمال والجنوب . وابتداء من تلك الفترة شرع المثقفون الشماليون فى التخلى عن التمييز التقليدى المعتاد فى الفصل بين الشمال والجنوب ، ولم تعد هناك أهمية للتميز الثقافى بين الآرى والدرافيدى Dravidian . وحينما بزغ أدب تاميلى « جديد » ، لقى اعترافا به جانب الأكاديمية الأدبية الهندية فى نيودلهى بوصفه كذلك . فالأعمال التاميلية الجديدة لم تعد تعتبر كتابات بالعامية المحلية ، بل بدأت تعد جزءاً من الأدب القومى .

ومن الثلاثينيات فصاعدا ، خلال سنوات التقسيم وما بعدها ، بدأت منطقة البنغال الغربى القديمة تشعر بوطأة استغلال متعاظم ، وبدأت من كلكتا ليجدوا عملا فى بيهار . وجاء الشيوعيون الهنود من بيهار . ليبنوا قاعدتهم فى كلكتا الحضرية . وعلى الرغم من ذلك ، يجد المرء فى بيهار تراجعا غير مسبوق بعيداً عن السياسة العلمانية لأوائل هذا القرن نحو النزعة التقليدية الجديدة الدينية . وأخيراً نشأ فى كلكتا نوع جديد من الراديكالية اليسارية جديدة فى تفتحها على المسألة الفلاحية .

وأثناء السنوات الأحدث ، حل محل هذه الراديكالية نزعة جماعية يقودها طائفية أصحاب الإنتاج السلعى الصغير الجديد وطبقة كبار ملاك الأرض . وتبدو الأسباب واضحة بما فيه الكفاية . ففى المحل الأول تخلق النزعة الجماعية الدينية رابطة بين

صاحب العمل والمستخدم وهى رابطة تضعف جدة الصراع الطبقى ، وتدفع إلى الخلف ضروب عدم المساواة بين من يتدرج فى إطار التخلف الطائفى ، ومن مخطى بمنافع الطبقة وبين من لم يستفيدوا شيئا ، وفى المحل الثانى كان لدعاة الجماعية عن طريق تعميق الروابط الدينية بين الهندوس عبر المنطقة ثم عبر البلاد استراتيجية أملوا فى أن تضع نهاية لنظام الاستغلال المحلى(٤٦) ، وعلى كل ، كما واجه غاندى المعارضة فى العصر الليبرالى الأول يواجه أنصار الجماعية الدينية المعارضة اليوم . فالفلاحون وأنصار الحركة النسوية واليساريون جميعا كانوا فى الماضى كما هم الآن ، معارضين للنزعة الجماعية الطائفية . لقد كانت النزعة الهندوسية الجديدة تقهر نساء حركة تحرير المرأة ، وبالمثل كانت تقهر الفلاحين . وبالنسبة للفلاحين وصل القهر فى الريف أقصى مداة ، كما أدى التحول إلى المشاركة فى حصة من المحصول بين الزارع والمالك خلال السبعينيات إلى تقليل المخاطر ، التى يتعرض لها ملاك الأرض عن طريق وضع المزيد والمزيد من العبء على ظهور المنتجين المباشرين . وقد أدى الاستغلال الفائق فى أمور الاقتصاد والنوع (المؤنث) فى نهاية المطاف إلى إحداث رد فعل(٤٧) . ومن المفارقات أن النساء والفلاحين لجئوا إلى الدولة مثلما لجأ الجماعيون الطائفيون بطبيعة الحال . واليوم تمر الدولة الليبرالية بأزمة . وهى الآن تحاول الاستفادة من إجراءات حالة الطوارئ الضرورية لمواجهة الإرهاب »(٤٨) .

تحديات أمام الهيمنة فى الهند

من القضايا الكبرى فى هذا الفصل أن الهند تختلف من إيطاليا والمكسيك فى أنها بعد طور من التحديات الفاشلة ، بدأت عناصر مهمة فى صفوف تياراتها المعارضة تتغلب على قهر « الجنوب » ، أولا من اليسار ، وبعد ذلك من اليمين . فإن أفراداً من أمثال م . ن . روى M. N . Roy وأمبدكار Ambedkar ناضلوا فى النصف الأول من القرن لبناء تحالف بين العمال والفلاحين ؛ وفى السنوات اللاحقة بزغ الحزب الشيوعى الهندى (الماركسى) C P I وحزب جاناتا B.J.P. بوصفهما المستفيدين من هذه الجهود المبكرة ، وكانا من أسباب الأزمة الحديثة للدولة .

ولم يكن الحزب الشيوعى الهندى منذ مؤتمره الأول عام ١٩٢٨ ، يضم تكتلات متعددة فحسب ، وهى سمة مشتركة مع الأحزاب الشيوعية الأخرى فى الطريق الإيطالى ، ولكنه كان يعانى من انشقاق فعلى أيضا . ومنذ وقت مبكر فى العشرينيات اعترض شيوعيون من أمثال م . ن . روى على التعاون مع البورجوازية الهندية ، على ما يسمى استراتيجية المرحلتين للينين . وفى حادثة شهيرة ناجمة عن معارضة روى المستمرة ، ذهب لينين بعيداً إلى حد منع الحزب الهندى من إقامة تحالف بين الفلاح والعامل طالبا بدلاً من ذلك أن يتحالف الحزب مع البورجوازية التقدمية(*) . وقد تشكك روى فى وجود شئ كهذا (البورجوازية التقدمية) وطرد فى النهاية من الحزب الشيوعى الهندى . وخارج الحزب واصل روى عمله بوصفه « مثقفا معارضا الهيمنة »[٤٩] .

ومع انتقال المسألة الجنوبية إلى المنطقة القديمة غرب البنغال ، انقسم الحزب الشيوعى الهندى . وبمجئ عام ١٩٦٤ ، انتقلت الكثير من أتباعه ومعهم قلة من قيادته إلى الحزب الشيوعى الهندى – الماركسى الجديد . وحاولت بعد ذلك من خلال السياسات الانتخابية فى غرب البنغال أن تزيح بطريقة فعالة الهيمنة الإنجليزية القائمة ، أى أن الحزب الشيوعى الهندى – الماركسى حاول أن يواجه منهج « الطريق الإيطالى » ببديل شيوعى فورى .

ويبدو كنتيجة لذلك أن الحكومة الهندية تورطت فى الأزمة التى أشير إليها سابقا ، وظلت تعانى منها ابتداء من سنوات الستينات الأخيرة . وتسامحت على نحو تدريجى مع النزعة الطائفية عموما ، وسمحت لأنصارها أن يصيروا قوة قيادة فى المناطق المقهورة المتكلمة بالهندية على وجه الخصوص .

بيد أن الخطوط العريضة لتيارات المعارضة تستعصى على أى تحليل سهل المنال ، ولازالت بحاجة إلى المزيد من الدراسة .

إن الشيوعية فى الهند بشعاراتها عن « الجبهات الوطنية الديموقراطية » « والثورات الديموقراطية الشعبية » والحركات الديموقراطية الثورية الجديدة » كانت دائما مسيرة التشخيص[٥٠] .

(*) لم يقدم المؤلف توثيقا لهذا الرأى المخالف للمعروف فى وثائق الأممية الثالثة أيام لينين . (المترجم) .

وإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة أنه فى الأماكن التى نجح فيها الحزب الشيوعى الهندى مثل كيرالا لم يترك ذلك حتى فى اللجنة المركزية انطباعاً قوياً بالفوز . وهكذا فإن كيرالا – وهى النجاح المبكر الأول للحزب – لا تعد ذات شأن فى التاريخ المناهض للهيمنة ؛ لأن الحزب هناك تعاون مع منافسة حزب المؤتمر بقدر مساو أو أكبر من تحديه له[٥١] . وبذلك ، فإن النصر لم يعط الشيوعيين الجنوبيين الحق فى المطالبة بنسبة مئوية عالية من عضوية اللجنة المركزية[٥٢] .

وكانت الشخصية المهمة الوحيدة من الجنوب ، إ م . س نامبو ديريبود E. M. S. Namboodiripod على أحسن تقدير رجل تنظيم ، متعدلا فى أعماقه شبه كثيرا نظيره النيابوليتانى جيور جيو أمندولا Giorgio Amendo Ia وقد استفاد فى السنوات التالية من حياته من انقسام التالية من حياته من انقسام الحزب ، وصعد إلى مستوى السكرتير العام للحزب الشيوعى « الماركس » ، عندما انتقلت المسألة الجنوبية إلى كلكتا .

وكان هناك نضال ضخم آخر أسهم فى أزمة الدولة فى الستينيات ، هو نضال المنبوذين . وقد قاده فى الأصل بهمراو رانجى امبدكار Bhmrao Ranji Ambedkar (١٨٩١ – ١٩٥٦) فى صفوف الماهار Mahars فى ماهارا شترا Maharashtra . ولأن المنبوذين كانوا حضريين وريفيين معا ، وينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة ، فقد شكلت حركة أمبدكار مثلما شكل م . ن روى والحزب الشيوعى تحديا مهما للهيمنة فى الهند . وكان أمبدكار يشكل تحديا بدرجة أكبر ؛ لأن مطالبة هى عين المطالب التى التزمت بها الدولة نظريا ، أى الديموقراطية الاجتماعية (أو الاشتراكية الديموقراطية كما جرت التسمية) .

وكان أمبدكار محاميًا قادراً وبرلمانياً قديراً ، استطاع العمل مع النخب البريطانية والهندية للتخفيف من غلواء النزعة الطائفية من داخل النظام ، كما ظل يناضل من أجل إلغاء النظام الطائفى من الخارج . وعلى حين استمر النظام الطائفى قائما ، بل استمر يحظى بمكانة فى الدستور الهندى . أفلح أمبدكار فى أن يضفى على النزعةالطائفية طابع المشكلة القومية الأساسية . وقد قام بذلك فى وجه معارضة ضخمة ، لقد ناضل غاندى على سبيل المثال للحفاظ على النظام الطائفى مؤثراً

ببساطة أن يعيد تسمية المنبوذين المقهورين بالهاريجان Harijans أو « أبناء الله » . وحينما أيد أمبدكار الانتخابات المنفصلة للطبقات المنبوذة عارضة غاندى ، بحجة أن الانتخابات المنفصلة ستعمل على تقسيم الهندوسية ، كما قسّم لوثر المسيحية . وقد توصل أمبدكار بالتدريج إلى التحقيق من أن العمل داخل نطاق النظام من أجل تحقيق التغير الجذرى اقترب من الوصل إلى النقطة التى تجعل العمل بلا عائد . وفى السياسة الانتخابية لحزب المؤتمر دائما نفوذ أكبر من تنظيمه اتحاد المعترف بها لكل الهند » . وجاءت نقطة التحول فى فكرة الاستراتيجى بعد الاستقلال بوقت قصير . فعند تلك النقطة كان أمبدكار عضواً فى وزارة تهدد . وعندما فشلت الحكومة فى إقرار المجموعة القانونية الهندوسية ، الذى كان يدعو إليه أمبدكار استقال من الحكومة وأجل نفسه من الأرتباط بمؤسسة السلطة وفى المرحلة الأخيرة من عمله السياسى تحول إلى البوذية يائسا من إصلاح الهندوسية وقد صدر كتابة بوذا وشريعته " The Buddha and Mis Dharina" (١٩٥٧) . وفى هذه المرحلة أيضا حدث تحول الكثير من أتباعه المنبوذين إلى البوذية ، وصحب ذلك صراعات متجددة مع نظام نهرو . وفى واقع الأمر ، حينما تحولت أعداد كبيرة من المنبوذين إلى البوذية رد نظام نهرو على ذلك بإنكاره على البوذيين وضع الطائفة المعترف بها ، وهو وضع كان يحمل معه منافع ليست بالقليلة . وقد أرغم ذلك بدوره أتباع أمبدكار على التحول إلى هدية مزدوجة ، هوية البوذيين والمنبوذين(٥٣) .

وكان أمبدكار يجمع بين صفة الشخصية العامة وشخصية العالم الدارس . وفى دراسة هامة عن وضع المنبوذين ، أثبت أن المنبوذين لم يكونوا من الناحية العرقية منفصلين عن الهندوس ، وأن أحبار الهندوس قدموا صورة زائفة للبوذية ، وأن البوذية الأصلية متحررة من أدبيات التفسيرات الرجعية المتأخرة ، وأنها عقيدة تقدمية ، وخاصة فيما يتعلق بالمرأة . فعلى النقيض من المثل البراهمية شجعت التعاليم البوذية النساء على التعليم ، ولم تجد العذرية ، ولم تشجع النساء على أن يكن ناسكات منعزلات(٥٤) . بوفاة أمبدكار ، بدأ صعود الحزب الشيوعى الماركسى وحركات التفويض الأخرى والتى كانت تعد وريثة - بطريقتها الخاصة - لروى وأمبدكار(٥٥) .

وختاماً لهذه النقطة ، أود أن أشير إلى أن تراجع التصنع deindustri alijtion تأثير مهم على الوضع السياسى الراهن(٥٦) . فهو - على ما يبدو - يفسر لماذا استطاع

السياسيون التقليديون فى التسعينات ، أن يعيدوا بناء الهيمنة من ، خلال تحالف مع اليمين ، على نحو ما رأينا من قبل . ولفهم ذلك يجب أن يتذكر المرء أنه منذ السبعينيات ، أشارت التقارير إلى أن الإنتاج السلعى الصغير ، أو قطاع العمل غير المنظم ، بدأ فى الصعود من حيث الأهمية بمعدل متسارع . وكان ينقص منظمى النقابات التقليديين المهارات والدوافع غالباً لتنظيم ورش الكدح الصغيرة الجديدة (المفتقرة إلى كل شروط العمل القانونية) ؛ بقوى عملها التى يغلب عليها النساء والمنبوذون على اختلاف معتقداتهم القائمة على مذهب حيوية العالم (كل ما فى العالم له روح المترجم) ووحدة الوجود Pantheism (حلول الله فى العالم) . وبحلول عام ١٩٩٠ ، أصبح واضحاً للمراقبين السياسيين أن أنصار الطائفية كانوا أقدر على الاستفادة من هذه التغيرات مقارنة بالشيوعيين[٥٧] . فقد استطاعوا تقديم الخدمات الاجتماعية واسعة النطاق التى يحجم اليسار أو يعجز عن تقديمها ، وبذلك ادعت الطائفية لنفسها قدراً من التأييد الشعبى .

تنظيم الثقافة

ابتداء من القرن التاسع عشر ، سعت الدولة الهندية إلى التمييز بين الحياة العقلية العلمانية الوضعية فى الشمال ، والثقافة الأكثر اتصافا بالميتافيزيقية فى الجنوب . ويبدأ هذا القسم بإبراز الأزمة المحدقة بالدولة فى نطاق الثقافة ، عندما تفشل فى اجتذاب المثقف الجنوبى فى وقت تصبح فيه مرتبطة بصورة متزايدة مع « جنوب » طائفى النزعة .

وعند جرامشى ، كان كروتشه Croce يمثل الرمز الثقافى للمسألة الجنوبية . وفى الهند كان كروتشه الجنوب القديم هو الفيلسوف والسياسى سارفبللى راداكريشنان Sarvepelli Radhaleishnan (١٨٨٨ - ١٩٧٢) . وقد ارتكزت شهرته على إسهامه فى تحديث الهندوسية ، وعلى فتحه الباب لنقد مثالى للدولة الليبرالية الوضعية . وكان له مثل كروتشه عدد من الزملاء والمعاونيين المهمين فى منطقته . وهو يشبه كروتشه - أيضا - فى تعدد حقوق النشاط التى يمارسها فى نفس الوقت . ففى الميدان السياسى ، صعد من خلال منصب نائب رئيس الجامعة إلى منصب السفير

فى الاتحاد السوفييتى ، إلى منصب نائب رئيس الجمهورية ، وفى النهاية إلى منصب رئيس جمهورية الهند . فى ميدان الدراسة الفكرية ، أخذ رادا كريشنان على عاتقة نقد العلم الوضعى والمذهب السلوكى من منظور رومانسى ، وأكد وجود المطلق أو الله ؛ حيث « الإرادة والعقل والعاطفة متكاملة » . كما نقد الفلاسفة المعاصرين لعدم تناولهم المشاكل العملية للحياة الحديثة . وهو يشبه كروتشه أيضا فى اعتقاده أن الفلسفة تحتاج برنامجا للعمل ، فالفلسفات الأخروية مثل الأدفيتية Advaitism هى ببساطة فلسفات قاصرة(٥٨) .

وربما لم يشغل راداكريشنان قط المكانة التى شغلها كروتشه فى إيطاليا نتيجة للتغير فى موقع المسألة الجنوبية . فلم يكن يعد على وجه الاطلاق « المثقف الجنوبى » الوحيده للهند. ولم يمتلك ناحية مجالات المعرفة على نحو ما فعل كروتشه . ومن بين العديد من شخصيات نموذج المثقف الجنوبى الأخرى يمكن أن نتذكر السيدة الأيرلندية آنى بيسانت Annie Besant وهى امرأة رائعة انتقلت إلى جنوب الهند بوصفها زعيمة « لحركة التصوف » (القائلة بإفناء الذات والبقاء فى الله) Theonphy . وزعمت السيدة بيسانت أن الهندوسية ليست متحدة بالله بل العقل الكلى(٥٩) وكما كانت الحال بالنسبة لراداكريشنان وكروتشى فى حالات عدة ، مثلت بيسانت نقيضا للثقافة الجماهيرية الفعلية للجنوب ، التى تسيطر عليها فى واقعها جوانب فولكلورها وكرنفالاتها ونحلها المعتقدية(٦٠) . فقد كانوا جميعا يعملون على تقويض الوعى السياسى للجنوب ، وهو أمر يثير الجدل حولهم .

وفى الجانب السياسى من المسألة الجنوبية القديمة والجديدة كانت مسألة اللغة ذات أهمية كبيرة . فقد كشف الجنوبيون بمهارة وتصميم عن نواحى القصور فى السياسة اللغوية للدولة باعتبار ذلك جزءاً من نضالهم للتغلب على ما يعانونه من قهر . وفى حالتى إيطاليا والهند كلتيهما ، كان نجاح الجنوبيين أكثر جدارة بالاعتبار فى كل معارضة قطاعات واسعة من سكان الشمال لهم . وحتى الشيوعيون مالوا إلى مشابعة للشمال فى السياسة اللغوية ، ولم يكن ذلك مقصورا على الهند وحدها ، ففى إيطاليا – على سبيل المثال – وقف الشيوعيون الإيطاليون إلى جانب اللغة الرفيعة الفلورنسية ضد أهل صقلية ؛ وعلى الرغم من ذلك حققت اللغة الإيطالية الجنوبية طوال القرن

الماضى تقدما مطردا فيما يتعلق بتأثيرها على البلاد بأكملها ، وفى المكسيك كان للشيوعيين عموماً « ميولا قشتالية » - أى تميل نحو اللغة الرسمية ومرة ثانية كانت الجدوى ضئيلة ، وفى الهند كانت الإنجليزية ، وهى لغة البيروقراطية الإدارية التى يناصرها أهل تاميلنادو اللغة الرسمية الأولى للبلاد . وفى السنوات الأحدث مع تشكل الجنوب الجديد ، صعدت الهندية وهى لغة التيار الدينى للجنوب الجديد لتتحدى استخدام الإنجليزية لا فى الشمال المتحدث بالإنجليزية وحده ، ولكن على نحو أعم ، باعتبار أن بالإمكان جعلها اللغة السائدة فى صفوف الأمة كلها .

ويرجع نجاح « الهجوم الجنوبى » المعاصر فى اللغة فى حالة الهند دون شك إلى ارتباط اللغة بالدين . فمن خلال الدين كسب « الجنوب » فى الهند حلفاء مهمين داخل نطاق الشمال . وإذا ساد الهجوم الجنوبى فى يوم من الأيام ، فسوف تكون من أكثر الشخصيات مسئولية عن ذلك عالم شمالى فى فقه اللغة ، ذى نزعة محافظة هو أشاريا راجوفيرا Acharya Raghuvira وهو يتزعم فى السنوات الأخيرة حركة بعث اللغة الهندية . لقد استخرج راجوفيرا أو وحّد قياسياً مائة ألف كلمة حديثة من اللغة السنسكريتية القديمة لاستخدام لجنة ترجمة دستور الهند إلى اللغة الهندية ، وكذلك لاستخدام وزارة التعليم . وبطبيعة الحال ، نُظر إلى عمله غالبا باعتباره عملا قابلا للجدال . وليس العاملون فى المجالات التقنية الذين يعتمدون على الإنجليزية هم وحدهم الذين يعترضون على ما يحاول تحقيقه بل يشاركهم فى ذلك دارسو الأدب أنفسهم . وهم يتساءلون هل ستنمو اللغة الهندية وتبقى وسيطا خلاقا ؟ وهل يتوقع راجوفيرا جديا أن يحقق الاندماج الاجتماعى للهند الذى أعاقه استخدام الإنجليزية ؟

وكما كانت الحال فى إيطاليا والمكسيك ، كانت كذلك فى الهند ، فقد صدر جزء مهم من التأثير الجنوبى فى اللغة عن الدور البارز للجنوبيين فى وسائل الإعلام الجماهيرية . وفى فترة الجنوب القديم - على أقل تقدير كانت مدراس مركزا شديد الأهمية لإنتاج الأفلام السينمائية وخاصة ابتداء من الثلاثينيات عبر الستينات . وقد كتب أحد المعلقين وهو يستعرض هذه الفترة عن « هجوم » جنوبى على السوق الشمالية بموجات من الأفلام الشعبية ممتلئة بالغناء والرقص ، وذات خط قصصى مستمد من الأساطير القديمة والخرافات . ومن أشهر الأمثلة المبكرة ، فيلم « شاندراليخا » Chandralekha

وهو فيلم أنتجته ستوديوهات جيميني Gemini. وبعد ذلك حينما بدأت مدراس تفقد وضعها باعتبارها عاصمة « الجنوب » أدخل المخرجون تغييرات ملموسة . وفى ١٩٤٧ ، حقق الفيلم القومى النزعة « نام إروفار Nam Iruvar المنتج فى مدراس نجاحا ضخما فى شباك التذاكر . بيدأن مدراس على نحو تدريجى بدأت تتجه اتجاها متزايداً نحو اجتذاب جمهور النخبة ، بعد أن خسرت مكانتها كباعث للتكامل الثقافى لصالح المسرح فى كلكتا . وابتداء من الخمسينيات بدأت أفلام بلا موسيقى فى الظهور ما . وفى الستينيات ، كانت سينما الموجة الجديدة ذات الأسلوب العالمى تلقى الرواج فى التاميل[٦٢] .

وفى ضوء ما تلقاه الدولة من صعوبة فى الحفاظ على المثقف الجنوبى ، لم يكن ثمة حفر من أن تحتل القيادات الدينية أهمية كبيرة . ترى .. ما هوية تلك القيادات ؟ وأى الممارسات السياسية كانت تتبعها ؟

تختلف القيادة الدينية الكاثوليكية فى إيطاليا والمكسيك عنها فى الهند ، فالمثقف التقليدى الهندى دنيوى النزعة وليس روحيا . وبطبيعة الحال تغص الهند بشخصيات روحية مهمة . وعلى سبيل المثال فإن السانكا راتشاريا Sankara charya أو رجل الدين الذى يعيش فى فاراناسى Varanasi يقدم وجهات نظر عن الشريعة باعتباره خبيراً ، ولكن لا يرتبط بالدولة بروابط تماثل جامعة بناراس ، فما الذى تريده الدولة ؟ وما الذى نحصل عليه من دعمها لهذه الجامعة ؟ . يمكن التدليل على أن ما تسعى إليه الطبقة الحاكمة الهندية فى التحول إلى بناراس هو زائدة يسهل التحكم فيها ، تدافع عن سياسة الدولة باسم الدولة . بيد أن ما حصلت عليه كان أقل من ذلك . لقد برز المتحدثون الرسميون ، ولكن لم يعتبرهم المجتمع ذوى أهمية خاصة . ويرجع ذلك إلى أن الهندوسية فى ظل العلاقات القديمة كانت أقل اتصافاً بالتراتب عند المقارنة بنظائرها فى معظم الأماكن الأخرى . وحتى إذا أراد الحكام أن يضفوا تراتبا على الهندوسية فلن يستطيعوا تحقيق ذلك ، بينما هم يعتمدون فى نفس الوقت اعتمادا ضخما على الحكم غير المباشر . وهكذا ربما لهذا السبب ، ظلت الهندوسية فى الأزمنة الحديثة دون إله يوحد تحت جناحه كل الآلهة . وبقى راما تجسيداً إلهيًا (للطاقة الكونية تشنو) وليس نبيا مثل المسيح أو محمد . وبقيت الهندوسية حزمة من التقاليد والممارسات التى لا يمكن اختزالها إلى عقيدة أساسية مفردة . كما بقى مسارها الصوفى جزءاً من

الفسق أكثر حسما عن المسار الصوفى فى أنظمة الطريق الإيطالى الأخرى(٦٣) .
ويتناغم هذا الخط من التفكير - على أى حال - مع بعض التفاصيل المهمة المستمدة من السنوات الحديثة . ففى فترة ما بعد الاستقلال ومع التخلى عن الحكم غير المباشر أصبحت العقيدة الصارمة أشد ظهورا . وبحدوث ذلك أصبح الهندوس أكثر قبولا للتراتب وللأنشطة القائمة على هداية أنصار جدد إلى الإيمان عن ذى قبل .

وقد أثر تفكير مادان موهان مالافيا Maden Mohan Malaviya مؤسس الجامعة أول نائب لمديرها فى الدور المحدد الذى لعبته الجامعة بالنسبة للدولة منذ تأسيسها عام ١٩١٦ . فقد كان هو الذى اختار أن تظل جامعة بناراس بمنأى عن حزب المؤتمر فى بداياته الأولى ، ومن ثم عن القومية العلمانية لصياغة نوع من الاتفاقات « الجانبية » مع الدولة . نفذ مالافيا مفهومه عن الفصل بين الدين والسياسة إلى حد أن أصبحت بناراس أول مؤسسة « هندية » ترحب بالأسرة المالكة الإنجليزية عند زيارتها للهند والمؤسسة التعليمية الأولى فى الهند ، التى تنشر إيديولوجية تقول بأن الحياة يمكن تقسيمها إلى قسمين : سياسى وغير سياسى ، بما فى ذلك حياة أعضاء هيئة التدريس والطلبة . وفى هذه الصياغة كانت بناراس فى الحقيقة تتخذ لنفسها موقعاً مستقلاً . فهى مثل الكنيسة الكاثوليكية الإيطالية لم ترغب فى احتضان قضايا قد تجعلها زائدة ملحقة بمؤسسات أخرى .

وعلى الرغم من أن هذا الاستقلال قد يبدو متخيلا إذا نُظرإليه من مسافة ، فإنه يبدو حقيقياً بما فيه الكفاية إذا نُظر إليه من قرب ، لأنه يسمح للجامعة بأن تلعب دور « المثقف التقليدى » بمصطلح جرامشى وأن تتلقى المكافأة المناسبة للقيام بذلك . فكون الجامعة هى المثقف التقليدى يجلب لها مكانة إضافية ، ولكنه يورطها فى الحفاظ على أفكار وممارسات عتيقة ومتطرفة بوصفها جزءاً مفترضا من التقليد . فالتقليد فى آخر الأمر ليس شيئاً يمكن مساءلته بواسطة الفكر النقدى الحديث ، وكنتيجة جزئية لذلك انبثقت السياسة الهندوسية الطائفية فى بناراس مبكراً وفازت عند الثلاثينيات بمباركة الإدارة . وسرعان ما كانت الجامعة تعلن أن الشيوعية والإسلام هما « عدوا » الهندوسية . وأصبحت المعارك فى الحرم الجامعى بين الهندوس المنتمين إلى التيار العام والهندوس المتطرفين أمراً شائعاً .

ومع مرور الزمان ، ومع اتخاذ النضال ضد المسألة الجنوبية اتجاها ذانزعة طائفية متزايدة ، أصبح حكم بناراس أكثر صعوبة يوما بعد يوم . وبعد تقاعد الجيل المؤسس من قيادتها ، شهدت الجامعة اضطرابا بيروقراطيا متناميا . فالمستشارون المتازون يجيئون ويذهبون ، ضحايا لسياسة الباب الخلفى التى ترغمهم على الرحيل قبل إكمال فترات عملهم الطبيعية ، وهى ظاهرة بقيت حتى وقتنا الحالى .

ولم يكن مقصد القطاع العلمانى من الدولة أن يجلس ساكنا فى سلبية ليرى بناراس ، وقد صارت مرتعا لتطور حركات طائفية . وهكذا أمر مجلس الوزراء بأن تذهب لجان نظامية إلى بناراس « لتتقصى العنف » . وبينما تمكنت هذه اللجان . وكان منها الكثير ، فى بعض الأحيان من تخويف المتطرفين فيه ، فإنها فى واقع الأمر لم تكن قادرة على تدعيم موقع قيادة الجامعة[٦٤] .

وفى الحقيقة ، ونتيجة ، لإخفاقات البرلمانيين فى بناراس ، جزئياً ، فقد درس هؤلاء عددا من المبادرات الأخرى معتقدين أن وظيفهم هى أن يتخذوا الموقع المتوسط بين الضغط الدينى ، والحاجات الأكثر علمانية لمجتمع متعدد الطوائف . وقد حث أحد المقترحات البرلمانية الحكومة على التخلى عن كلمة « هندوسى » ، وعلى مستوى أكثر اتصافا بالطابع العملى كان مشروع قانون الأحوال الشخصية للهندوس فى الخمسينيات المشار إليه سابقا . فهذا المشروع سهّل الطلاق ، وحظر تعدد الزوجات ، وفتح الباب للزواج المختلط بين الطوائف . كما فتحت التشريعات ذات الصلة الباب للنساء لكى يرثن .

وعندما نتحول الآن إلى مكونات الهيمنة الأكثر صراحة فى علمانيتها فقد يحسن أن نبدأ بمسألة اللغة مأخوذة هذه المرة من منظور العناصر السائدة فى تعارضها مع عناصر الطبقة الحاكمة الجنوبية .

والرأى المتخصص التقليدى فى مسألة اللغة يؤكد الاستراتيجية الاستعمارية وانهيارها بعد الحقبة الاستعمارية . ففى ظل الراج ، ووفقا للكثير من الكتاب ، حاول البريطانيون جمع أطراف شبه القارة من خلال اللغة ، واستمرارا لذلك من خلال القانون ، وهى محاولة نبيلة ، وإن لم تكن ناجحة فى خاتمة المطاف . ولكن هل كان ذلك هدف المحاولة حقا ؟ فالتكامل ، كما يمكن للمرء أن يدلل ضد وجهة النظر هذه لم يكن

إلا هدفا محدودا للغة الإنجليزية وأنصارها ، وإذا مضى فى طريقه بسرعة فائقة لكان فى استطاعته أن يجعل الراج أو العلاقات التقليدية زائدة عن الحاجة . وكان دور اللغة الإنجليزية فى ظل الراج على نحو أكثر دقة هو دور لغة للدواوين ، لغة بيروقراطية ، ومثل نظيرتها الإيطالية كانت مفيدة ولكنها لم تكن موجهة للجميع ، بل إن انتشارها الواسع المدى فى تاميلنادو قد يكون تأثيره معاكساً للسياسة الرسمية .

والنقطة الثانية ، هى أنه على المدى البعيد ، أعطت التحديات لاستعمال الإنجليزية الدولة الفرصة لتعديل سياستها اللغوية . وفى فترة ما بين الحربين سعى القوميون لتحدى الإنجليزية بالهند ستانية . ولكن ذلك المسعى أخفق ، وهو لم يخفق نتيجة معارضة تاميلنادو فحسب ، بل نتيجة كذلك للمعارضة من بناراس . فالمتكلمون بالتاميلية لم يريدوا أن يخضعوا للتهميش ، كما أن الهندوسانية بالنسبة إلى بنية السلطة فى بناراس كانت شديدة البعد عن الكتاب المقدس . وفى فترة ما بعد الاستقلال صعّد أنصار اللغة الهندية من تحديهم للإنجليزية . ولكن هذا التحدى فى المدى القصير على الأقل كان محكوما عليه بالفشل .

ويمكن لنجاح الهندية إذا أخذنا فى الاعتبار انتشارها عبر خطوط إقليمية أن يقوض نظاما تسير فيه مدراس نحو أن تصير جزءا من « الشمال » . وهكذا فحينما بدأت حملة الهندية تأخذ منحى جديا فى فترة ما بعد الاستقلال . كانت نيودلهى ميالة لأن تمنح المتكلمين بلغة الأقلية فرصة لإعادة رسم حدود الدولة لحمايتهم من التعرض « للاحتياج » .

وهذه هى خلفية قانون مهم هو قانون اللغة الرسمية لعام ١٩٦٧ . وبواسطة هذا القانون يبدو أن الحكومة قد قضت - دون شك - على صراعات معينة بالسماح للولايات التى لا تتكلم الهندية باستخدام لغتها بالإضافة إلى الإنجليزية ، على الرغم من أنها بقيامها بذلك -- كما بينا فيما سبق تفعل شيئا أكثر من زيادة الصراعات الأخرى . وكانت كل ولاية مفوضة فى تفسير قانون ١٩٦٧ بطريقتها الخاصة . فاختارات بين التى قادت وحركة التحدى من جانب اللغة الهندية السنسكريتية إلى جانب الهندية جاعلة الإنجليزية لغة اختيارية(٦٥)

وبالإضافة إلى النظر فى سياسة اللغة ، يجب على المرء أيضا أن ينظر فى السياسات الموجهة نحو العلوم والأدب والفنون حتى نفهم تنظيم الثقافة العلمانية(٦٦) .

وقد تطور العلم ، مع تصاعد سلطة الشمال أثناء المرحلة الإدماجية ، تطورا سريعا . فالهيئة العلمية بانتقالها من الانعزال طويل المدى داخل مؤسسات التدريس ، تبنت على نحو تزايد توجها بحثيا فى الخمسينيات . لقد كانت تحتاج من زمن طويل أن تثبت نفعها ، وقد تحقق لها ذلك فى النهاية بفضل قيام « مؤسسات الوساطة » مثل « مجلس البحث العلمى والصناعى » « والمجلس الهندى للبحث الزراعى » اللذين أسسا فى نيودلهى فى تلك الفترة نتيجة للتأكيد الجديد على النمو التقنى والاكتفاء الذاتى . وبنمو العلم فى الهند تقدمت المجالات النظرية والتطبيقية فى الشمال . على حين لم ينشأ فى الجنوب ، كما يمكن للمرء أن يتوقع ، إلا عدد قليل من المراكز التطبيقية فى النسيج والغذاء والصحة العامة . ولقد كانت الرواية الهندية ، النموذج الرئيسى للتقليد النثرى ، مثل نظيرتها الإيطالية نتاجا « للشمال » ، وهو يعنى فى السنوات الأخيرة الشمال زائدا أدب التاميل الجديد المنتمى إلى الجنوب الجغرافى . ويستطيع المرء أن يستقرئ ذلك من دراسات الرواية ومن مبادرات الحكومة نحو الأدب النثرى عموما . وبطبيعة الحال يوجد النثر الأدبى فى كل اللغات الكبرى ، إلا أن ما بُعد مهما منه تحدده الرعاية والأشكال الأخرى من الاهتمام الرسمى ، مثل الجوائز التى تمنحها أكاديمية ساهيتيا Sahitya فى نيودلهى . وهكذا ففى الأزمنة الحديثة ، بدأ الأدب النثرى فى البنجاب وجوجيراتى Gujerati « فى مرحلة صعود » على حين ظهر الأدب البنغالى والمكتوب بالهندية « فى مرحلة تدهور » . وعلى نقيض ذلك ، وضعت التعقيبات على الأدب فى أسامينز Assamese طوال الجيل الماضى ثقلها على الشعر . فالرواية كانت تظهر بهذه اللغة ولكن بمعدل أبطأ كثيرا من لغة البنجاب ، على سبيل المثال .

وفى السنوات الأخيرة كانت الرواية النسائية الهندية مثالا لما يعتبر أدبا مهمًا . فالرواية النسائية صارت إلى مدى ملموس حاملة الموضوعات الاجتماعية الواقعية والحداثية فى الهند الشمالية المعاصرة . ومن الأسماء المعروفة فى الرواية النسائية أنيتا ويساى Anita Desai وكمالا ماركاندايا Kamala Morkandaya وهناك مؤلف هندى معاصر هو رومن باسو Romenbasu واقعى النزعة وجدير باهتمام خاص فى هذه الدراسة . فرواياته تصر على تأكيد تشابه الحياة العائلية فى شمال الهند وشمال إيطاليا .

أما الحداثة – غلبة الشكل والذاتية واللغة – فتميل إلى أن تكون قوة مهمة فى الشمال فى أنظمة الطريق الإيطالى . ويجئ صعودها فى الأغلب حينما تخفق الليبرالية ، ولكن تظل الدولة قوية بما فيه الكفاية لتحويل مسار الاحتجاج إلى أشكال رمزية . وكان الهند عدد من كتاب الحداثة مثل البنغالى سدهندرانات داتا Sudhindronath Datta (١٩٠١ – ١٩٦٠) ومثل كتاب التاميلية الجديدة المحدثين ، وإن كان عددهم محدودا ، ولكن الحداثة الهندية تنعكس بقدر أكبر فى الموسيقى . وكما يمكن للمرء أن يتوقع كان لإيطاليا والمكسيك تيارات حداثية أكثر اتساقا فى الفنون ، وعلى سبيل المثال تيار لويجى بيراندلو فى البلدين ، وتيار الطليعة الجديدة الأدبى الإيطالى[٦٨] .

ويمكن التدليل على أن الحداثة فى الثقافة الهندية أكثر أهمية فى موسيقى الراجا Raga منها فى النثر . ففيها يجد الإنسان قدرا أكبر من الروح الفوضوية ، التى تقع فى قلب الحداثة[٦٩] ، فالراجا تسترسل فى هذه الروح ، لأنها مركزة أكبر تركيز على العازف أو المؤدى وحساسيته أكثر من ارتباطها بجهد الملحن أو القيادة (المايسترو) كما هو شائع فى معظم الموسيقات الأخرى . فالراجا ، إذن ، مثل الأشكال الأخرى من الحداثة ثورة واعية بذاتها ضد الشكل .

وعلى حين لم يلق دور الموسيقى فى الهيمنة دراسة عميقة على وجه العموم ، فى حالة الهند على أقل تقدير ، فإن هناك شواهد على أن الدولة انخرطت زمنا طويلا فى دعمها . فأثناء الراج على سبيل المثال انتقل إلى الدولة دور الراعى الرئيسى للموسيقى الكلاسيكية من الأمراء ، حينما واجه هؤلاء على نحو متزايد صعوبات مالية . وكانت إذاعة عموم الهند تقدم بعض الموسيقى الكلاسيكية . ومع مجئ الثلاثينيات بدأ طور ثان فى العلاقة بين الدولة والموسيقى ؛ فقد نشأت صناعة السينما ، وشرع المنتجون على الفور فى استخدام الأغانى المبهرجة سريعة الإيقاع . ونشأت مشكلة حقوق التأليف . ولزمن محدود منعت الحكومة هذه الأغانى من البث الإذاعى لكى تجد الناس يستمعون إليها من إذاعة سيلان . وقد أدى ذلك بالحكومة إلى أن تخفف من معارضتها . وفى السبعينات بدأ طور ثالث ، شنت فيه الحكومة حملة تقييم للموسيقى من أجل توسيع جمهور الموسيقى الكلاسيكية . واليوم أصبح استحسان الموسيقى الكلاسيكية مؤشرا من مؤشرات المكانة عند الطبقات الوسطى المثقفة والكثير من أفرادها فى الشمال أو اليوم فى تاميلنادو . فهى تفصلهم عن الكتلة الأكبر التى تفضل موسيقى الأفلام .

وحالة الهند ، إذا نظرنا إليها وفقا لمنهج مقارن ، لا تبدو غير عادية على نحو خاص . ففى إيطاليا على سبيل المثال نجد امبرتو إكو Umberto Eco – الناقد الثقافى المعروف – مهتما على نحو خاص بالقطيعة مع نزعة تدوين النوتة الموسيقية . وفى إحدى هذه دراساته ، تعرف على قطيعة مع تلك النزعة عند ملحنين أمثال كارل ماينتس ستوكها وزن Karlheing Stockhausen ولوسيانو بيريو lu ciano Berio ، وهنرى بوسور Henri Pousseur ، وبيير بوليه Pierre Boulej ، وقد لاحظ أكو كيف أن هؤلاء الملحنين أعطوا عاز فيهم استقلالا ملحوظا لاختيار الطريقة التى يؤدون بها القطعة الموسيقية . وكما هى الحال عند عازف موسيقى الراجا فى الهند يستطيع أى عازف لهذه الموسيقى أن يصير « مبدعًا »(٧٠) ونعود إلى موضوعنا الخاص بتنظيم الثقافة ، لنجد أن شمال الهند هو الموطن التقليدى كذلك للعلوم الاجتماعية والتاريخ . وحيثما تكون الهيمنة قوية كما هى الحال فى إيطاليا والمكسيك ، يصير علم السياسة ، والاقتصاد وعلم الاجتماع ، على درجة كبيرة من الفائدة للدولة ، أما حيثما تكون الهيمنة أضعف كما هى حالة الهند فى السنوات الأخيرة ، وتحتاج الدولة إلى مخاطبة جماهير السكان ، فيصبح للتاريخ وخاصة التاريخ الاجتماعى النفع الأكبر»(٧١) . ففى الحالة الأولى لا تحتاج الدولة إلى الدعم الجماهيرى ، ويمكن للمجتمع لذلك أن يُدرس على نحو غير تاريخى ، أما فى الحالة الثانية ، فالأمر على خلاف ذلك ، فالدولة التى تواجه تحديا من انبعاث سياسى للجنوب ، تحتاج إلى إبرام تحالفات مع جماهير السكان وخاصة فى الشمال . وهنا يكون التاريخ الاجتماعى ، وحتى الاقتصاد السياسى ، أكثر فاعلية»(٧٢) .

وسنؤجل إلى القسم الأخير المناقشة الأكثر تفصيلا للتاريخ ، ونختتم كلامنا هنا بمسح للعلم الاجتماعى الهندى . وقد تلقت السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع تعقيبا من قبل ، لذلك اقترح إلقاء نظرة على الأنثروبولوجيا والفولكلور وعلم الآثار وكل منها على حدة مجال مهم فى الهند ، فهو يوضح وجها مختلفا من الهيمنة .

وتبعا للدارس الرائد للموضوع ل . ب . فيديارتى L. P. V. dyarthi ركزت الأنثروبولوجيا المبكرة فى الهند تحت حكم الانجليز على الدراسات القبلية . ولأن كثيرا من القبائل كانت فى الجنوب القديم داخل موقع واحد ، فقد ظهر منهج يعتمد على عدم

التناقض فى التفسير الثقافى ، يخصص الجنوب للأنثروبولوجيا والشمال للتاريخ . وحينما تطور الجنوب ، بل وفى الحقيقة ، تطورت البلاد ككل نحو ثقافة أكثر اتصافا بالصناعة ، كان على المرء أن يتوقع أن الأنثروبولوجيا سيدركها الخسوف على يد علم الاجتماع . وفى حالة الهند لم يحدث ذلك ، فقد انتقل علماء الأنثروبولوجيا من القبائل إلى الفلاحين ، وواصلوا التمتع بمكانة مرموقة .

وفى الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٢ مع الانتقال إلى « دولة الأزمة » فى السياسة الهندية ، حوّل علماء الأنثروبولوجيا اهتمامهم نحو مشكلة انتشار الهندوسية الجديدة فى غرب البنغال . وقد حذر عالم أنثروبولوجيا نابه هو بسواناث بانرجى Biswanath Banerjee الحكومة من أن الهندوسية يمكن أن تهدد « تكامل » القبائل . وبعد عدة سنوات من محاولة تحديث الطبقات والطوائف المختلفة واجهت الحكومة الآن ، تبعا لعلماء الأنثروبولوجيا ،حملة تنظر إلى الوراء وتفرض الصبغة السنسكريتية ويرعاها الفلاحون الأغنياء (الكولاك » ، وهى حملة حافلة بالخطر ، إذا علمنا أن الفولكلور غير ذى الصبغة السنسكريتية كان بالفعل أساس الثقافة الرفيعة .

وقد كانت دراسات الفولكلور فى ظل الراج يسيطر عليها الموظفون البريطانيون والمبشرون والكتاب الهنود ، ومعظمهم يؤمنون بوجود ميثولوجية هندية آرية تربط النخب الهندية والبريطانية فى فجر الزمان ، من خلال هجرة إغريقية مفترضة إلى شمال الهند . وفى عام ١٨٧١ برز تنظيم مهنى للفولكلور فى الهند قام بنشر مجلة «دارس العاديات الهندى » the gmdian Amtiquay ، وفى ١٨٧٨ ، انضم إليها فى إنجلترا دار تقوم بنشر « سجٌل الفولكلور » . وابتداء من ، سبعينيات القرن الماضى تلقى جنوب الهند اهتماما فى أعمال علماء فولكلور رواد من أمثال ويليام . إ . مارشال William . E . Marshall فى عمله (التودا) "The Tadas" (لندن ١٨٧٣) ، وإدوارد جويت روبنسون Eduond Jewitt Robinsn فى كتابة « حكمة التاميل » (لندن ١٨٩٣) ، وهى أعمال اعتمد عليها جيل لاحق ، كالروائى المعروف نارايان Narayan الذى يصور موضوعات محلية وهو أفضل راوية معروف يحكى عن حياة القرية فى جنوب الهند .

وتستمر دراسة الفولكلور فى السنوات الأخيرة متجمعة فى المراكز الجامعية الشمالية الأساسية . وكما هى الحال فى إيطاليا ، يلعب الجنوبيون دورا مهماً .

ومنذ عام ١٩٥٠ ، بدأت « مجلة الفولكلور » فى الظهور فى كلكتا ، وحوالى عام ١٩٧٠ بدأ محرر « الفولكلور » شانكار سنجوبتا Shankar Sengupta ينشر بغزارة عن فولكلور بيهار . وحينما يتحول المرء إلى الجنوب الجغرافى ، يجد أن ما أُنجز حدثيا كان ضئيلا ، كما أن الكثير مما هو موجود يرجع إلى مرحلة ما بين الحربين أو حتى ما قبل ذلك . وفى السنوات الأخيرة تواصل ترجمات المادة الهندية الجنوبية إلى اللغات الهندية الشمالية الظهور ، وهو اتجاه واضح الانسجام مع أن تكون تلك المناطق جزءا من الشمال(٧٣) .

وعلم الآثار فرع آخر من العلوم الاجتماعية برز فى ظل الراج ، وواصل الحياة باعتباره جزءا من الثقافة المهيمنة فى الهند المستقلة . ومن بين الإسهامات الكبرى للهيمنة الهندية التى قدمها علماء الآثار خَلْق صورة شمال البلاد باعتباره آريا وصورة الجنوب باعتباره در افيديا (عنصر قديم شبيه بالاسترالى) . وفى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى رعت الحكومة الهندية مسحا ابتدائيا للمواقع الأثرية فى الهند . وفى الجيل التالى حلف تفاصيل حياة الطبقة الوسطى محل الاهتمام بالصروح الإمبراطورية . ثم افتُتح عدد من المتاحف فى شمال الهند . وأخلى التفصيل الآلى للمواقع المتأثرة باليونان والبوذية مكانه لمعايير أوسع فى الاختيار . وفى النهاية تحول علماء الآثار إلى جنوب الهند . وقد عثر السير مورتمر هويلر Mortimer Wheeler ، – عالم الآثار البريطانى الشهير – على عملات رومانية بالقرب من بوند يشيرى Pondicherry (جنوبى شرق الهند) ووضع تقويما زمنيا للأحداث فى جنوب الهند من التواريخ المعروفة لهذه العملات . وقد ساعد ذلك على تسهيل كتابة تاريخ قومى متكامل للهند شمالا وجنوبا . وعند تقسيم الهند وباكستان وجد الكثير من التراث الهندى الآرى نفسه فى باكستان ، وصار هذا المكوّن من مكونات الهوية الهندية معلقاً . وفى عام ١٩٥٩ ، افتتحت « مدرسة علم الآثار » فى نيودلهى لتخريج الأثريين الهنود الأوربيين ، ومن أسباب افتتاحها التغلب على سيطرة علماء الآثار الأوربيين الشماليين ، وهو شأن يلقى اهتماما فى الهند كما فى إيطاليا(٧٤) .

كتابة التاريخ فى الهند

اتخذت كتابة التاريخ فى الهند شكلها الحديث فى الشمال مع صعود ثقافة وضعية فى أواخر القرن التاسع عشر . وأثناء الجزء الأكبر من العصر الليبرالى الأول ، أى من ١٨٦٠ إلى ١٩٦٠ ، عكف معظم مؤرخى الشمال على كتابة تاريخ سياسى ودبلوماسى . وفى الجنوب القديم ، نشأ التاريخ تدريجياً كعلم ، ولكن باعتباره جزءا من الدراسات الثقافية . وبعد عام ١٩٣٠ حدثت تغيرات ، وبدأ المؤرخون فى تاميلنا دو يتناولون وسائل فى التاريخ السياسى والدبلوماسى من نفس النوع السائد فى الشمال . وبعد جيل ، صارت كلكتا مركزا كبيرا للدراسات التاريخية عندما قاوم مثقفوها اختفاء الطابع الجنوبى من خلال تقديم دراسات تاريخية للفلاحين .

وقد تحولت الدولة – التى يواجهها هذا التحدى المتصل -- من خلال جامعة نهرو فى نيودلهى نحو تاريخ اجتماعى يؤكد دور الطبقة العاملة كطريقة للنفاذ إلى المجتمع .

وحتى نستطيع رؤية هذا التغير فى وظائف التاريخ طوال القرن الماضى بنظرة سريعة ، سنبدأ من مكان بارز هو المؤسسات التى تدعم البحث . ففى العصر الليبرالى كانت أعلى المؤسسات مكانة في البلاد الثلاثة التى درست هنا كأمثلة للطريق الإيطالى هى الأكاديمية العلمية . وعلى حين لم يكن للتاريخ أولوية لدى الدارسين المرتبطين بالأكاديميات العلمية ، فإنه احتفظ لنفسه بموقع فيها .

وفى عام ١٩٢٢ ، أسس الشاعر رابندرانات طاغور أكاديمية علمية ، هى مركز فيسفا بهاراتى Visva Bharati خارج كلكتا . وكان مثلها الأعلى فى طلب المعرفة المنزه عن الغرض ، وهو المثل الأعلى لأكاديمية أفلاطون متطابقا عموما مع المثل الأعلى لنظائرها فى أرجاء العالم بما فيها أكاديميات إيطاليا والمكسيك . وقد دعمت كل هذه الأكاديميات نزعة الآداب الرفيعة الشائعة بقدر كاف فى معظم تخصصات التاريخ فى هذه الفترة . وبالإضافة إلى ذلك كانت الصلات المتبادلة بين الأكاديميات شائعة ، فقد زار طاغور على سبيل المثال إيطاليا ؛ حيث قابل كروتشه وتناقشا فى الفلسفة[٧٥] . ولم يظهر أثر ما لحقيقة أن الهند كانت مستعمرة ، وأن إيطاليا لم تكن كذلك .

وكان هناك نمط تان من مؤسسات البحث التى تنتج معرفة تاريخية هو « مؤتمر تاريخ الهند » الذى أسسة عام ١٩٣٥ فى بيون Pune تنظيم ثقافى محلى هو بهاراتا إتيهاسا ساعشا دوكا ماندالا Bharate Jtıhasa Samsha dhaka Mandala . وبينما كان مركز فيسفا بهاراتى يخدم حاجات الدراسة الثقافية الشاملة ، كان المؤتمر أداة ظاهر ة للقوميين فى شمال الهند . وكان الكثير من أعضائه صحفيين ومحامين وبعد ذلك أساتذة كليات . وكان صعوده نذيرا مبشرا بقيام الدولة الإدماجية فى أعقاب الاستقلال .

ومنذ البداية كان مؤتمر التاريخ الهندى قادرا على التقدم إلى الحكومة الاستعمارية بالتماسات حول مسائل تتعلق بالأرشيفات والآثار وبرنامج الدراسة ، وغالبا ما استطاع تحقيق أهدافه بفضل الدعم الذى تلقاه من الحركة الوطنية الأوسع ومن حزب المؤتمر(٧٦) . وفى هذا الصدد - إذا أضفنا ملاحظة مقارنة - كان للمؤرخين الهنود ميزة على مؤرخى بلاد كثيرة أخرى . فلن يجد المرء فى المكسيك أو إيطاليا - على سبيل المثال مجموعة من المؤرخين منظمة على أساس الأمة بأكملها ، ومتمتعة بالاعتراف القومى فى الماضى أو حتى فى الوقت الحاضر .

وكان النمط الثالث من مؤسسة الدراسة المتخصصة هو مراكز البيانات التى ترعاها الحكومة فى السبعينيات . وأمثلتها تشمل « مركز الدراسة المتقدمة فى التاريخ فى جامعة عليكره المسلمة « Aligarh Muslim Univeisitg » ، و « مركز الدراسة المتقدمة فى التاريخ والثقافة القديمة » فى كلكتا وقد تمت تنمية جامعة نهرو باعتبارها مركزاً كبيراً للدراسة التاريخية فى أواخر الستينيات . وبعد سنوات قليلة أقامت الحكومة « المجلس الهندى للبحث التاريخى » . وقد مول هذا الجهاز عددا من الأبحاث الفردية ، ونشر رسالة إخبارية ، وابتداء من عام ١٩٧٤ ، نشر دورية هى « المجلة التاريخية الهندية »(٧٧) . وعلى مر هذا القرن ، تحول مركز ثقل الكتابة التاريخية من التركيز على الدراسات القديمة فى « بيون » إلى تركيز على الدراسات الحديثة ، أولا فى كلكتا ، ثم فى دلهى ، وهو تحول ينطبق عموما على التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على مناطق مختلفة كما ينطبق على هذه التغييرات المؤسسية .

ويوضح السجل أن الدراسات التاريخية العلمية تطورت انطلاقا من عمل ر . ج . بهانداركار R. G. Bhan derkar (المولود عام ١٨٣٧) فهو مؤسس مركزين رائدين

للبحث ، أحدهما فى جامعة بومباى والآخر فى بونا Paone وهو أستاذ لعدة تلاميذ أصبحوا مؤرخين معروفين بحكم جدارتهم الشخصية مثل نيلاكانثا ساسترى Nilakantha Sastri الذى أصبح مؤرخاً شهيرا لجنوب الهند ، وحفيد بهارندركار نفسه الذى أصبح من كبار دارسى الهند[٧٨] . ومن المؤرخين اليوم لم يسمع بمعهد بهاندركار لأبحاث الشرق فى جامعة بونا[٧٩] ؟ . وفى البنغال مهد باحثو القرن التاسع عشر الطريق أيضا لأعمال أكثر حداثة يجرى القيام بها فى جامعة كلكتا وأكاديمية فيسفا بهاراتى اللتين افتتحا فى السنوات الأولى من هذا القرن .

وقد تكون لدراسة التاريخ الحديث ، بوصفه حقلا منفصلا ، جذورا عميقة فى القرن التاسع عشر ، كما يزعم كتاب معاصرون ، ولكن أهمية التاريخ الحديث أو حتى التاريخ القومى فى إطار السياق الثقافى الهندى لم تبدأ فى مناقشة التاريخ القديم من حيث الأهمية إلا فى السنوات الحدثية .

وقد حدث ذلك بقدر أكبر كثيرا فى بومباى بالقياس إلى كلكتا ، فالأخيرة ظلت مركزا للدراسات الكلاسيكية ، وحتى فى كلكتا كانت هناك وظائف قليلة لمؤرخى التاريخ الحديث (٣٥٨) .

وكان أبرز هذا الجيل الرائد من مؤرخى التاريخ الحديث هو السير جادوناث ساركار Jadonath Sarkar (١٨٧٠ - ١٩٥٨) المسمى « كولبس المغول » . وكان ساركار ابنا لأحد كبار ملاك الأرض (الزامندار) من بنجالاديش . وقد تعلم فى كلكتا . وعلى الرغم من خلفيته الثرية عاش حياته فى ضنك ثقلا بمسؤوليات كثيرة ، بيد أنه بالمعنى العقلى كان يمتلك وقت الفراغ والابتعاد عن زمانه يقوم بأبحاث ضخمة . وقد قورن بجيبون Gibbon كمؤرخ سياسى وفكرى ، وألف « تاريخ أورانجزب » Aurangzib متعدد الأجزاء . ولم يكتسب أهمية من إنتاجيته الهائلة فحسب ، ولكن من كونه بنغاليا ليس متحيزا ضد شيفاجى Shivaji . وقد جعلت هذه القدرة على استقلال الرأى وعلى توسيع نطاق الوعى التاريخى من كتابة تاريخ للهند الحديثة أمرا ممكنا[٨٠] . وقد اقتفى آثار ساركار إلى جامعة كلكتا لتحصيل العلم مؤرخ آخر كان أيضاً ابناً لزامندار من غرب البنغال هو بيمان بهارى ماجومدار Biman Behari Majumder (١٨٩٩ - ١٩٦٩) . إلا أن ماجومدار انتقل فى النهاية إلى بيهار « مقدما العون فى

إعطاء المنطقة وعيا تاريخيا » . وطوال عمله المتخصص الطويل المدى كتب ماجومدار عن الفكر السياسى القديم والحديث وعن القومية[٨١] .

وهناك أستاذان كبيران متخصصان فى التاريخ قدما من بنجالاديش عبر جامعة كلكتا ، هما دارس النقوش رادا جوفندا باساك Radhagovinde Basok (١٨٨٥ – ١٩٨٢) و ر . سى . ماجومدار (١٨٨٨ – ١٩٨٠) . ولنركز على ماجو مدار ، الذى يعد أهم الإثنين . فقد ولد لعائلة أرستقراطية تتدهور أوضاعها . ثم التحق بجامعة كلكتا للحصول على منحة دراسية . وبعد ذلك قام بالتدريس على فترات فىْ داكا – وبنارس وجامعة شيكاغو ، ولكن عمله الأساسى كان فى كلكتا . ويمكن للمرء أن يستنتج اعتماداً على عدة مطبوعات فى التاريخ السياسى أن ماجومدار – فى السنوات المبكرة – كان يميل أكثر إلى النزعة القومية ، على حين أنه فى سنواته المتأخرة أصبح متزايد الميل نحو النزعة الطائفية الجماعية ، مارا بتغير لا يختلف من تغير ك . ك . داتا K. K. Datte . المؤرخ القادم من باتنا الذى ناقشناه فيما سبق . وكانت أطروحة الدكتوراه لماجومدار ، « الحياة الطائفية فى الهند القديمة » قد نشرت عام ١٩١٨ ، ثم أتبعها بتاريخ لحركة الحرية[٨٢] . ولكن فى الستينيات من هذا القرن دفعه نقده للدولة الهندية ونزعتها القومية لأن يستقيل من منصب بارز فى النشر . وفى كتابه « الهند فى مفترق الطرق » (كلكتا ١٩٦٥) ، وهو عمله الرئيسى فى تلك الفترة ، فقد ماجومدار سياسة الهند فى التصنيع محبذا بدلا منها الصناعة الصغيرة والزراعة . وقد عزا سياسات الهند إلى «استبداد حزب المؤتمر »[٨٣] . وفى السبعينيات صار ماجومدار منخرطا فى مجموعة تاريخية ذات توجه طائفى ، عرفت باسم « جمعية التاريخ والثقافة » . وقد نشرت هذه المجموعة كتابا بعنوان « تاريخ وثقافة الشعب الهندى » ، هو كتاب احتل مناقشة لما نشرته نصوص « المجلة الثقافية التاريخية » نفسها .. وفى السبعينيات ، بدا أن ماجومدار قادر على دفع التيار الرئيسى للفكر التاريخى بعض الشئ نحو اليمين . وربما كان أحد أسباب استطاعته القيام بذلك هو صعود المجموعات المغالية فى يمينيتها ، مثل معهد «إعادة كتابة تاريخ الهند » ذى التوجه الفاشستى فى دلهى الذى أثار فزع التيار الرئيسى .

وعند تقصى أهمية كلكتا غير العادية فى صعود حرفة التاريخ يجب ألا يقف المرء عند ملاحظة الأكاديمية العلمية والجامعة ، بل ينظر إلى ذلك التجمع الفذ من الدوريات

عالية القدر . ويبرز من بينها على وجه الخصوص دوريتان : الأولى « البنغال الماضى والحاضر » التى تنشرها جمعية كلكتا التاريخية والثانية « المجلة الفصلية للدراسات التاريخية » المنشورة طوال الجيل الماضى بواسطة معهد الدراسات التاريخية . ومن المدهش عند المعاينة الدقيقة أن نكتشف أن هاتين المؤسستين المهمتين قامتا بصفة أساسية على أفراد بعينهم غيرّ موتهم ، أو تضاؤل نفوذهم ، فى السبعينات ، على نحو جوهرى من هذه الدوريات . وفى حالة الدورية الأولى كانت الشخصية المهمة نارندرا كريشنا سنها Narendna Krishna Sinha (١٩٠٣ – ١٩٧٤) ، وهو ابن لموظف تضائي شهير فى غرب البنغال . وقد قاده تعليمه فى جامعة كلكتا إلى دراسة رانجيت سنج Ranjit Singh ، وهو سيخى ذائع الصيت . وفى أواخر حياته كان يكتب عن التاريخ الاقتصادى للبنغال ، ويقوم بتحرير الدورية . وفى حالة الدورية الثانية ، نجد إس. بى. سن. S. P-Sen(١٩١٤ - ١٩٧٩) ، الذى ولد فى بنجالاديش ، ودرس فى جامعة كلكتا ، ويتضمن سجله المهنى إقامة مؤقتة فى جامعة لندن ، ودرجة أستاذية فى فيسفا بهاراتى Visva-Bharati حتى عام ١٩٧٢ . وفى عام ١٩٦١ ، أسس المعهد وعمل مديرا له ومحررا لدوريته حتى عام ١٩٧٩ . وقد توج عطاءه العلمى بسنوات كثيرة من العمل لمؤتمر التاريخ الهندى ، ولجنة المحفوظات التاريخية الهندية . وطوال هذه السنين تميز سن بنشر مراجع عن المؤرخين الهنود والكتابة التاريخية الهندية ، والشخصيات الهندية القيادية[٨٤] . وفى سنواته الأخيرة غير سن أيضا - اتجاهه من النزعة القومية إلى النزعة الطائفية متمشيا مع العديد من أبناء جيله الذين نتناولهم بالدراسة[٨٥] . وفى واقع الأمر ، فإن تأييد سن اللاحق للتاريخ الإقليمى يقدم مثالا حسناً للمنطقة غير محدودة المعالم بين اليمين الطائفى ومؤسسة كتابة التاريخ . فالتاريخ الإقليمى يمكن أن يكون مصححا مفيدا لتاريخ قومى عام أكثر مما ينبغى ، ولكنه يستطيع بنفس القدر أن ينمى فكراً طائفيا معادياً للأمة[٨٦] .

وقد ظهر فى السبعينات تاريخ فلاحى ذو توجه يسارى فى العالم أجمع بما فى ذلك الهند . وصار فى الهند متمركزاً فى كلكتا ، ويمكن القول إنه يعد اليوم أهم اتجاه فى الكتابة التاريخية الهندية .

ولا شك فى أن فكرة الفلاح بوصفه فاعلا للتاريخ يمكن العثور عليها فى كتابات الجيل السابق من المؤرخين ، ولكنها لم توجد إلا فى شكل تعقيبات عارضة . وقد اتخذت

« جماعة الدراسات الثانوية » Subaltern Studies Group – كما أصبحت تُسمى – من تلك الفكرة رسالة لها ، فلم تعد جماهير الفلاحين تصور باعتبارها خاضعة لقيادة الطبقة العاملة التقدمية ، بل صار من الواجب تصويرها باعتبارها ذات تاريخ خاص بها ، له منطقة الخاص وممارسته الثقافية الخاصة .

والخلاصة ، أنه عندما أصبحت كلكتا عاصمة « الجنوب الجديد » مر التاريخ هناك بتغيرات ضخمة ، فقد تضاءل الشكل الأقدم من كتابة التاريخ بنزعته الوضعية وحل مكانه اتجاه دراسة « القوى التابعة الدنيا » المدين بدين واضح لجرامشى ، واتجاه أدبى فنى مدين بدين واضح لكروتشه . وقد انبثق الاتجاه الأول فى « مركز دراسات العلوم الاجتماعية » وجماعة الدراسات الثانوية ، وكان بعض أعضائهما من كلكتا ، وانبثق الاتجاه الآخر فى « مركز الدراسة المقارنة للأدب » التابع لجامعة جفادبور القريبة ، وفى أكاديمية فيسفا بهاراتى سالفة الذكر التى أصبحت الآن جامعة[٨٨] . وفى النهاية هناك المؤرخان ماجومدار Majumdar وداتا Datta وهما من أصحاب النزعة الطائفية .

ونختتم نظرتنا بتعليقات على دور التاريخ فى نيودلهى أثناء الجيل الماضى . فخلال تلك الفترة فى نيودلهى نجد أن النزعة التطورية هى الإيديولوجية السائدة ، وكانت كل صيغة من صيغتيها سواء الرأسمالية أو الشيوعية موجودة ، وكانت كلتاهما ممثلتين كذلك فى كتابة تاريخ الأكاديمية فى جامعات المدنية . وكانت الصيغة الأكثر رأسمالية تمثلها مدرسة دلهى للاقتصاد فى شخصيات مثل دهارما كومار Dharma Kumar محرر « المجلة الهندية للاقتصاد والتاريخ الاجتماعى » بينما كانت الصيغة الأكثر شيوعية ممثلة فى جامعة نهرو ، ومن خلال الدوريات مثل « العالم الاجتماعى » .

وكان العديد من المؤرخين البارزين فى جامعة نهرو أعضاء أو منتسبين فى الحزب الشيوعى الهندى ، وكانوا هم الذين يقدمون التفسير القائم على الهيمنة لتاريخ البلاد ، وهو تفسير – كما لاحظنا من قبل – يميل إلى تأكيد دور الطبقة العاملة التى تقودها العناصر المتقدمة من البورجوازية المنخرطة فى صراع طويل المدى للانتصار على الكولاك ذوى الطابع الإقطاعى ، والفلاحين الأغنياء وأصحاب النزعة الطائفية الجماعية ، كما كان تطور الرأسمالية فى الهند الحديثة ، والصراع ضد الاستعمار البريطانى موضوعين مهمين فى كتاباتهم[٨٩] .

ولم تعارض جامعتا نهرو ودلهى الآراء الطائفية والمثالية حول التاريخ فحسب ، بل عارضتا الاستعمار الجديد أيضا[٩٠] . ولم تقتصر تلك النزعة على كتاباتهم عن التاريخ الحديث ، بل امتدت لتشمل كتاباتهم عن المراحل القديمة والوسيطة والمغولية أيضا . وقد طابقت روميلا ثابار Romila Thapqar المتخصصة البارزة فى المرحلة القديمة فى جامعة نهرو بين المدرسة الطائفية فى التفكير ، ووجهة نظر إلى الهند عرقية استعمارية . ويوضح بحثها أن الهوية الطائفية لم توجد إطلاقاً ولو مجرد وجود فى الهند القديمة والوسيطة[٩١] . وتنسجم اكتشافاتها مع اكتشافات أوتسا باتنيك وبيبان تشاندرا Bipan Chandra وآخرين تخصصوا فى المرحلة الحديثة ، ويدللون كذلك على المصدر قريب العهد للنزعة الطائفية الجماعية[٩٢] .

وإلى جانب جامعتا دلهى ونهرو ، هناك جامعة عليكره . ويجب أن نعرض شيئاً عن هذه الجامعة وخاصة من حيث إسهامات مؤرخيها فى دراسة الفترة المغولية والتاريخ الإسلامى على نحو أعم[٩٣] . ومؤرخو تلك الجامعة أمثال عرفان حبيب ونور الحسن ، يقدمان للهيمنة الحديثة خلفية ملائمة لنظرتها العلمانية . وفى تخصصهما تخطى التاريخ المغولى النزعة الطائفية ، ولكنه تدهور وسقط لعجزه عن أن ينمو اقتصادياً .

ويريد السياسيون فى دول الطريق الإيطالى موازنة المنطقة والأمة والتراث ، فيوجدون بذلك مهمة جوهرية ، ولكنها عسيرة فى أغلب الأحوال بالنسبة إلى مثقفى الدولة ، هى مهمة إضفاء طابع عقلانى ومتكامل على الثقافة فى هذه المستويات المختلفة . وبالنسبة إلى الهند أصبحت هذه المهام على الأغلب مسؤولية المؤرخين . فكيف ينبغى للمؤرخ أن يعالج تطور « الجنوب القديم » ؟ ، وكم يستغرق من وقت حتى يكون « الجنوب القديم » جزءاً من الفولكلور وكيف ، ومتى أصبح تاريخاً ، وإلى أى مدى ؟ ، وماذا يفعل المرء ببيهار الحديثة ولنبدأ هذا القسم بعرض لمؤرخى هند « الجنوب القديم » ، فهم الذين فعلوا الكثير لحل هذه المشاكل لمنطقتهم .

وإذا كان مثقف جنوبى مثل الفيلسوف رادها كريشنان فى بداية القرن قد فرض اهتماماً بالنزعة العالمية اللاقومية (الكوزمو بوليتانية) والديموقراطية والفن ، فإن عدداً من الجنوبيين بعد جيل واحد من التغيرات التى تسمح للتاريخ بالبزوغ ،

كان قادراً على فرض الاهتمام بالتاريخ الحديث . وكان السردار ك . م . بانيكار Sarder K. M. Panikar (١٨٩٥ - ١٩٦٣) واحـداً من أوائل المؤرخين الجنوبيين المهمين المحدثين . وقد كشفت كتاباته خلال الثلاثينات مثل « مالابـار والبرتغـاليين » (١٩٣١) عن توجهه العالمى النزعة ، ولكن بؤرة اهتمامه تركزت على قضايا محلية من حيث الجوهر ، وفى الأربعينيات صار بانيكار أكثر اتصافاً بالنزعة القومية ، وناصر استقلال الهند . كما أصدر فى مرحلته الأخيرة هذه « أسس الهند الجديدة »، وهو تأملات فى معنى المواطن والديموقراطية والقهر فى سياق هندى[٩٤] . وكان مؤرخ معروف آخر من جيل التكوين والإنشاء للمؤرخين الجنوبيين المحدثين وهو س. كريشنا سوامى إينجار S. Krishna swamy Iyengar معنياً أيضاً بالديموقراطية والقهر . وكانت دراسته أول الأمر تعدد ليكون عالماً فى بنجالور ، ولكنه تحول إلى دراسة النقوش ، وفى أوسع كتبه انتشاراً : « تطور المؤسسات الإدارية فى جنوب الهند » ، أصر على امتداح أولئك الحكام التاميل الذين ساروا إلى أبعد مدى فى تفويض السلطة أو لا مركزيتها[٩٥] .

وثمة ملمح آخر للكتابة التاريخية الجنوبية هو إنشغالها بالبحث فى الجماليات الهندية ، وتاريخ الفن ، أو حتى على نحو أوسع فى الثقافة العالمية . وعلى حين كان رادها كريشنان يكتب عن القيم ، وينتقد بذلك ضمنا الطابع السوقى للشمال الأشد نفوذاً ، فإن المؤرخين الجنوبيين بعد بضع سنين كتبوا على نحو ملموس كيف تتكشف القيم فى الهند فى الفن الهندى ، بأمثله تجئ من فن الجنوب الهندى . ويمكن أن نأخذ مثالاً لتلك الكتابة التاريخية الأكثر جدة والتصاقا بالسياق من أعمال نيلا كانثا ساسترى Nilakantha Sastri (١٨٩٢ - ١٩٧٦) . فهو ذو أهمية خاصة لدراستنا هذه ؛ لأنه فى سنواته المتأخرة قد انتقل من الجنوب « القديم » إلى الجنوب « الجديد » . إلى باتنا Patna فى بيهار . وقد استخلص ساسترى من محاضراته فى باتنا كتابة « الصلات الثقافية بين الآريين والدرافيديين » (باتنا ١٩٦٤)[٩٦] . وكان هذا عمله الناضج ، وهو عمل بدأه بالفعل قبل سنوات فى كتابة « تطور الدين فى جنوب الهند » (شيكاغو ١٩٥٩) . وفى كلا العملين رفض قضية القومية التاميلية ودافع بقوة متزايدة عن صبغ الثقافة التاميلية بصبغة آرية عميقة .

وهنا على نحو حافل بالمفارقة ، نجد نقطة تحول فى الفكر التاريخى الهندى . فهنا نجد رجلاً براهميا من جنوب الهند ، يكتب عن الطبيعة المشتركة للثقافة الرفيعة عند النخبة فى شمال الهند وجنوبها ، مدبجا مرثية لطبقته تصلح فى نفس الوقت مقالاً يضفى الشرعية على نمو ثقافة جديدة شمالية الطابع فى تاميلنادو . وبالمثل فقد أحدث انتقال « المسألة الجنوبية » إلى غرب البنغال القديم تغيراً فى الفكر التاريخى فى بيهار . ومع مجئ الستينات أصبح مؤرخو بيهار منشغلين بالقضايا المحلية بعد فترة فى أوائل القرن العشرين من الانغماس المتخصص فى النضال القومى . ويمكن أن نستمد الأمثلة على المسارات المعاصرة من مدرسة مؤرخى رانشى Ranchi وهى مدرسة جعلت من تاريخ منطقة تشوتاناجبور Chotanagpur بؤرة لاهتمامها .

وكانت أعمال الأستاذ أ.ل ثاكو A. L. Thakur بمعهد بحث جايا سوال Jayaswol ، فى باتنا ذات نزعة محلية بنفس القدر . وعمله الأساسى تاريخ عام لبيهار من الأزمنة القديمة حتى الزمن الحاضر فى ثلاثة أجزاء هو محرره العام . وكان مؤلف الجزء الثالث من هذه السلسلة باحثاً معروفاً ينتمى إلى المنطقة هو . ك. ك. داتا K. K. Datta .[٩٧] وكان ذلك اتفاقاً سعيداً بالنسبة لهذه الدراسة لأن أعمال ك. ك. داتا تصلح أفضل من أعمال غيره لكى توضح التحرر المتصاعد للفكر البيهارى من الطابع التاريخى . وقد بدأ عمل داتا فى فترة ما بين الحربين . فمضى فى طريقه من مصلح ملتزم ينتمى إلى تلك الفترة مهتم بإحراق الأرامل ، والمشكلات الاجتماعية القومية الأخرى ، إلى مؤلف بكل بساطة فى السنوات التالية لأعمال لا ترتبط بالسياق . وأحد تلك الأعمال مرجع والآخر عمل ممل بمثابة مسح للدراسات الأخيرة من مدرسى ، التاريخ الهندى الحديث (باتنا ١٩٥٧) ، والثالث وهو أقربها عهداً تاريخ يماثل سابقة غموضاً لحركة الحرية فى بيهار من أجل ثاكور . ويتناسب عمله مع انهيار الخيال التاريخى الذى عم بيهار بأكملها . وخلال سنوات نضال التزامه بإيديولوجية ذات نزعة قومية إن لم يكن بالتحليل التاريخى نفسه ، واستدعى انتباه مؤسسة روكفلر التى نجد فى مراسلاتها الرأى الذى تمت صياغته بالرطانة الجذابة للثورة الخضراء ، والقائل بأن باتنا أى داتا ودلهى « ستبعث إلى الحياة » الدراسات التاريخية الهندية الحديثة[٩٨] وجملة القول ، فإن المؤرخين الهنود قد شكلوا - أولاً - الثقافة السائدة ، وأسهموا فى السياسة على نحو أكثر درامية من نظائرهم الإيطاليين أو من معظم الآخرين أيضاً فى هذا الصدد .

ويبدو أن تفسيرا شديد العموم لسلطتهم يجئ من التحديات الخاصة للهيمنة فى الهند ، وهى تحديات لم تمر بتجربتها أى دولة أخرى من دول الطريق الإيطالى ، تحديات حاولت الدولة الهندية مواجهتها بإضفاء امتياز على النزعة التاريخية . وكما سبق التوضيح ، فإن هذه التحديات المضادة للهيمنة نشأت عن رفض الشيوعية الأوروبية من جانب قطاعات هامة من اليسار . والنقطة الثانية الرئيسية ، هى أنه على النقيض مما قد يوحى به النموذج القياسى السائد للتاريخ العالمى عن المسافة بين العالم الثالث والتاريخ الأوروبى ، فإن هذا الجهد قد ألقى الضوء على ما هو نوعى فى التاريخ الإيطالى الحديث ، وفى التاريخ الهندى الحديث . أليس من الممكن أن يكون هناك نقطة التقاء فى النضال المعادى للهيمنة ضد الطريق الإيطالى تقع بين هاتين الحالتين ؟ إنها نقطة لا ينقسم فيها الحزب ، بل يتأرجح بين الجنوب والشيوعية الأوروبية ، ومثال ذلك نجده فى المكسيك التى سنتحول إليها الآن .

هوامش الفصل الخامس

١ - هذا الفصل مدين للعمل الذى أنجزته جماعة الفئات

Partha Chatterjee

التابعة وخاصة لبارثا تشاترجى ، " الفكر القومى

والعالم المستعمر - خطاب مشتق .

Nationalist Thought and the Colonial World- A Derivative Discourse (London: Zed Press 1989 & - Sumit Sarkar, Modern India (New York: St. Martin's Pres, 1989).

وسميت ساركار : الهند الحديثة .

٢ - لتطور الكتابة التاريخية الليبرالية :

Subodh Kumar Mukhopaclhy ay, Evolution of Historiography in Modern India, 1900-1960 (Calcutta 1981)

سبوده كومار موخو بادهياى : تطور الكتابة التاريخية فى الهند الحديثة .

٣ - لويس دومونت ، مفسر تفرد الهند بسبب نظام الطوائف .

Louis Dumont, the exponent of the uniqueness of India Because of aosts.

٤ - بارثا تشاترجى ، الطائفة والوعى الخاضع (التابع)

Partha Chatterjee, Caste and Subaletm Consciousness," in Subnaltern Studies, ed, R Guha (New York: Oxford Univ. Press, 1989), 6: 169 - 209.

٥ - حول التشريع الطائفى المتخلف لبيهار ، انظر على سبيل المثال :

Myron Weinstein and Mory Fainsod, India's Preferential Policies, Migrants, the Middle Classes and Ethnic Equality (Chicago : Univ. of Chicago Pre's 1981).

ميرون واينشتين ومارى فينسور . سياسات الهند التمييزية ، المها جرون والطبقات الوسطى والمساواة الإثنية

٦ - Nripendra Kumar Dutt, Origin and Growth of Caste in India (Calcutta, 1931) 21 ff

نريبندراكومار دات أصل ونمو النظام الطائفى فى الهند . ويأتى قسم مهم من توثيق المسألة الجنوبية فى الوقت الحاضر من الديموجرافيا والديموجرافيا التاريخية ، كما أن دراسة أنماط الهجرة توضح أنه كان هناك تدفق خارجى جديد ودائم فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى لكتلة سكانية من الريف إلى مدن الجنوب القديم ، وأحيانا إلى الشمال تقتفى آثار تعمق التطور الرأسمالى فى كلتا المنطقتين . وتوضح المصادر الديموجرافية أيضا أن هذه الظاهرة

جديدة ، وأن الهجرات الأسبق كانت دورية موسمية ومؤقتة بدرجة أكبر . أي حينما كان الجنوب هو الجنوب اعتمدت الهجرة على إدراك أن هناك أعمالا أو وظائف موجودة . ومع تقلص المسألة الجنوبية في الجنوب القديم حَوْلَ عام ١٩٣٥ ، كانت الهجرة أقل دورية بينما بدأت تصبح في غرب البنغال أكثر دورية ، وسيكون مثال الجنوب الجديد في مرحلة التكوين هو بيهار انظر عرض سوجاتا بوسى لدراسة بارثا تشاترجي : البنغال ١٩٢٠ – ١٩٤٧ . مسألة الأرض .

Sugata Bose's "Review of Parth a Chatterjee, Bengal 1920 - 1947 : The Land Question," "Indian Economic and Social History Review 24, no. 3 (1987) 336 - 339.

وفي ١٩٤٧ – ١٩٤٨ إذا كان المرء في بومباي ، فإنه كان سيجد النمو الثابت لطبقة صناعية محلية . على حين أنه كان سيجد في كلكتا نقصا في نمو الاقتصاد . وهو اقتصاد كان على أي حال أكثر خضوعا للتحكم الخارجي من اقتصاد بومباي ، لأن البنغال كانت المصدر الأكبر لدخل الراج ، ونتيجة لذلك تفتقد طبقة كان يمكن أن تحفز تطور رأسمالي ما ، أي الطبقة الفلاحية المالكة وهنا كانت هناك عمودية الدين في مزارع الشاي ومساحة أرض مزروعة بالري تتناقص تدريجيا في بيهار وأوريسا ، على حين أنه في البنجاب من ١٩٢٥ – ١٩٣٩ زاد مقدار الأرض المروية بالتماثل مع مدراس ، كما ارتفعت الانتاجية الزراعية . وفي النهاية تبرز البنجاب بوصفها صاحبة أقوى قوانين ضد المرابين . انظر أميا كومار باجتشي :

تأملات في أنماط النمو الإقليمي في الهند أثناء فترة الحكم البريطاني "البنغال الماضي والحاضر".

Amiya Kumor Bagchi, Reflections on Patterns of Regional Growth in India During the Period of British Rule, Benugl Past and Present (Jam - June 1976) : 247 - 289.

وهذا تقابل آخر . ففي القرن العشرين في غرب البنغال زادت أو ضاع الزراعة سواء على نحو دائم . وكانت التربة أقل خصبا بالمقارنة بالشرق ، والريح الموسمية أقل قابلية للتنبوء وسوء المحاصيل أكثر تكراراً . وعلى الجملة كانت الزراعة أقل اتساما بالطابع التجارى منها في شرق البنغال ، وكان جانب أكبر يتم عمله بواسطة المستأجرين بنظام المشاركة في المحصول والعمال الذين لا يملكون أرضا ، ويفسر ذلك جزئيا تدفق العمال البيهاريين إلى المناطق الأغني مثل البنجاب .

ومع مجئ الاستقلال كانت طبقة كبار الملاك (الزامندار) قد نحيت جانبا بواسطة مقرضى النقود (المرابين) الذين شكلوا الطبقة الجديدة من أغنياء الفلاحين . واستمر الإقراض بالربا كما استمرت الصراعات السياسية العنيفة ابتداء من ثورات التبهاجا Tebhaga في ١٩٤٦ – ١٩٤٧ إلى ثورات ناكسيلبارى Naxilbari عام ١٩٦٧ – . انظر : وليم فان سيندل ، الدلتات الثلاث : التراكم والفقر في ريف بورما و البنغال وجنوب الهند .

Willam Van Schendel, Three Deltas: Accumulation and Poverty in Rusol Burma, Bengal and South India (New Delhi Sage, 1991) Chs. 4-5,

وبالنسبة للتغيرات في الهجرة الداخلية في تعارضها مع أو بالاضافة إلى التوجه داخل المنطقة . تجب ملاحظة تضاؤل حركة قوة العمل التاميلاندية نحو الشمال منذ وقت مبكر في ١٩١١ عند لاليتا تشاكرافارتي في "نشوء قوة عمل صناعية في اقتصاد ثنائي - الهند البريطانية – ١٨٨٠ – ١٩٢٠"

. Lalita Chakravarty, Emergence of an Industrial Labour Force in a Dual Economy - British India 1880 - 1920" Indian Economic and Social History Review - 15, no. 3 (1979) : 267, 323 Map B,

ولشواهد عن التدفق قريب العهد إلى البنجاب من جانب البيهاريين وغيرهم الباستين عن أعمال عرضية من أجزاء من " الجنوب الجديد" انظر . س هيجرا ، بيهار - والبنجاب - دراسة في التباين الاقتصادى الاقليمى .

S. Hijra, Bihor and Punjab - A Study in Regional Economic Disparity (New Delhi: E S R F, n. d.), 268 - gi

كذلك ا.ك. جوتيا " النتائج السوسيولوجية للهجرة من الريف إلى الريف فى البنجاب .

A. K. Gupta, Sociological Implicatians of Rural to Rural Migration in Punjab (Allahabad, 1988), Ch 5,

بالتقابل مع التدفق الإيطالى إلى روما عند ألبيرتو بونا جويدى ، فى الجزء الخاص بإيطاليا فى الكتيب العالمى عن الهجرة الداخلية .

Alberto Bon a guidi, "Italy" in Inleranatinal Handbookofan Internal Migration , ed. Charles Nam (Westport, Greenwood Press 1990) Ch. 13.

وكان الجهد الأول والوحيد لطرح إشكالية العناصر السياسية والاقتصادية ، لما أسميه التوجيه النبغالى إلي الداخل " هو كتاب بارثا تشاترجي البنغال من ١٩٢٠ - ١٩٤٧ .

Portha Chatterjee, Bengal 1920 - 1947).

(Calcutta 1984), 1: Chs.. 15. 16.

٧ - عن المجتمع المدني الجديد : إس . بى ش "محرر " الشمال والجنوب فى التاريخ الهندى الاتصال والتكيف .

S. P Sen, ed. The North and the South in Indian History - Contact and Adjustment (Calcutta, 1976);

ولتحليل الطائفة والعرق والمنطقة : جى إس جوزى الطائفة والعرق فى الهند .

G. S. Ghwrye, Caste and Race in India, (New York; Alfred A. Knop F, 1932) Ch 5;

وعن التغيرات فى المؤسسات الدينية حينما أصبحت جزءًا من الهيمنة الجديدة : سى . بى . ايار ، تقرير لجنة الأوقاف الدينية الهندية .

C. PAiyar, Report of the Hindu Religims Endowonents Commission (New Delhi, 1962), 211.

وجيمس بريستون : عبادة الأم "

James Preston, Mother Worship (Chopel Hill, Uniu, of North Carolina Press, 1982), 212,

وروبرت ، سى هولز دعم الدولة وتنظيم المعابد والمزارات الهندوسية .

Robert C. Halmes, State Support. and Regulation of Hindu Temples and Maths," (Masters thesis, Univ. of Pennsylvania, 1967), 107 ff., 301,

وعن الفلسفة باسنت كومار لال « المؤتمر الفلسفى الهندى » (١٩٢٥ - ١٩٦٩)

Basant Kumar Lal, The Indian Philosophical Congress, 1925 - 1969 (New Delhi 1975).

٨ – فيما يخص التعليقات على توحيد وتذكير الإله : المبجل جون سوريسون : أفكار جديدة فى الهند أثناء القرن التاسع عشر

Reverend John Morrison, New ideas in India During the Nineteenth Century (Chandigarl, 1977), 70 - 74, 90 ff.

وهو يغطي البار سيين وقرابة الهندوسية والكاثوليكية – باعتبارهما فى تعارض مع المسيحية البروتستانتية وراجابان د. امانويل ، تاثير الهندوسية على المسيحيين الهنود .

Rajappan D. Immanuel, The Influence of Hinduism on Indian Christians (Jalopur, 1950),35

٩ – ليس من المدهش أن يكون معنى الطائفة شيئا متأثرا بعمق بنظرة الكاتب إلى العالم . وعند الوضعيين على سبيل المثال نجد أم . إن سرينيفاس ، التغير الاجتماعى فى الهند الحديثة .

M. N. Srinivas, Social Change in Modern India (Berkeley: Univ. of California Press, 1969) Ch. 3,

ورافندرا إس خارجى ، المنبود بوصفه ذاته ، الإيديولوجية والهوية والبرجماتية بين تشامار مدينة لكناو (بشمال الهند)،

Ravindra S. Khare, The Untouchable as Himself: Ideology, Identity and Pragmatism among the Lucknow Chamars (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1984).

إن الطائفة مؤسسة تنتسب إلى المجتمع الحديث ، جزء من البيئة الاجتماعية المعاصرة . ويميل علماء الاقتصاد السياسى إلى ربطها بالطبقة مشددين النبر على الطوائف الفرعية وفيما يتعلق بالنظرة الرومانسية ، فإن أهم نص هو نص لويس دومونت الإنسان المراتبى .

Louis Dumont, Homo Hierarchus (Chicago Univ. of Chicago Press, 1970).

وأما التقليد المقارن فيمثله على نحو بارز ا. م. هو كارت في " الطائفة دراسة مقارنة "

A.M. Hocart, Caste, A Comparative Study. (London: Methuen, 1950),

ولذلك جيرالد د . برمان في الطائفة : مفهوم الطائفة"

Gerald D. Berreman, Caste: The Concept of Caste' International Encyclopedia of the Social Sciences, ed. (New York: Macmillan, 1968, 2: 333 - 337,

وتشارلس لندهولم فى نظريات الطائفة وسط المسلمين الهنود .

Charles Lindholm : Theories of Caste Among Indian Muslims, "Archives Europeenes de Sociologie 26 (1985) :131 - 141.

وهو يربط الطائفة بالسياق التاريخي جاعلا منها نتاجا اجتماعيا لاقتصاد سياسى يتألف من قطع رأسمالى إسلامى فى مجتمع هندوسى رأسمالى . وهناك بعض الشواهد . وكذلك كتاب روزالنج أو هانلون « الطائفة ، الصراع والإيديولوجية » .

Rosaling O'Hanlon, Caste, Conflict and Ideology: Mahatma Jotirao Phule and Low Caste Protest in Nineteenth Century Western India (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1985.

انظر هامش ١١

١٠ – وقد درس الطائفة فى السياق الإيطالى ماسيمو باسى وكورادو باربريس .

Massimo Paci and Corrado Barberis, La Societa italiana Classi e Caste nello Sviluppo economico (Milan 1976),

ونجد وجهة النظر الانثروبولوجية إلى الطائفة فى إيطاليا عند ليونارد . و . موس وستيفن س كا باناسي في اكفئة والطبقة فى قرية على تل بجنوب إيطاليا ».

Leonard W. Mass and Stephen C. Ceppannaci, " Estate and Class in a South Italian Hill Village," American Anthropologist 64 (1962): 287-300.

وإن استمرار النظام الطائفى يفسره بعض الباحثين بأنه نتيجة لفشل الإصلاح الزراعى الإيطالى ، نجد ذلك عند انجل بالبرم وهو متخصص زراعى مكسيكى بارز فى كتابة ملاحظات حول الاصلاح الزراعى فى إيطاليا .

Angel Palerm, Observaciones Sobre la reforma agraia en Italie (Washengton, 1963), 111,

وعند السندروبتسورنو في الشرائح الوسطى فى آليات التراضى (التوافق)

Alessandro Pizzorno, "Middle Strata in the Mechanisms of Consensus" in Centemporary Italian Sociology: A Reader, ed.

Diana Pinto (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1981) 101 - 123.

فالاهتمام بنقاء العرق وسط الأرستقراطية الإيطالية فيما يتعلق بسلالتهم يبدو فى روابطهم المقصورة اجتماعيا عليهم ، وأكاديمياتهم ومعاهدهم ومراكز شعارات النبالة والأنساب . وبالنسبة إلى الطائفة فى المكسيك لاحظ الحرب الطائفية المحيطة بإنتاج ألياف الأغاف (نوع من الصبار) hennequen ونجد بيانًا ملتبسًا عن الطائفة وأستمرارها وصلتها بتراث تشتالة عند كاتب مكسيكى حديث هو جوزية فاشونسيلوس الجزء الثالث من أعماله الكاملة .

Jose Vasconcelos, Obras Complet as (Mexico City, 1957), 3: 141 ff, the part on Hindu philosophy) 87- 335).

١١ - يوجد النظام الطائفي بين كلا المسلمين والهندوس فى الهند ويسمح كتاب ليونارد سندر : عدم الاستقرار الطائفى فى الهند المغولية .

Leonard Sinder, Caste Instability in Moghul India (Seol, 1964), 175.

للمرء أن يستنتج الترابط بين ضعف النظام الطائفى أثناء فترة توسع علاقات السوق الداخلية المشمولة برعاية الدولة والتصاعد فى ممارسة توثيق الصلة بين النساء والحياة العائلية المنزلية . وفى وقت لاحق أثناء المرحلة المغولية هجرت الطبقة الحاكمة الرأسمالية إلى الريع العقارى ، ويبدو أن تلك الفترة قد أدت إلى الاعتماد على قطاع تجارى مسلم أى خارجى المنشأ والنمو بعض الشئ فى تعارض مع قطاع «داخلى المنشأ والنمو» ، كما يمكن للمرء أن يستنتج من تعقيب على انهيار التزام الدولة باقتصاد سياسى يقوم على التنظيم الحكومى وإقامة الاحتكارات التجارية الخارجية (ميركانتيلية) قدمه سيد حسن عسكرى .

Syed Hasan Askari, Mughol Naral Weakness and Auranzeb's Attitude Towards the Traders and Pirates on the Western Coast" Journal of the Bihar Research Society, 46 (1960) : 1-15.

وفى تناول محاولة القرن الثامن عشر للحفاظ على الطائفة فى وجه التفتت العام للسلطة نجد هيروشى فوكازاوا ودراسته الدولة ونظام جاتي الطائفى فى مملكة ماراثا خلال القرن الثامن عشر .

Hiroshi Fukazawa, State and Caste System Jati in the Eighteenth Century Martha Kingdom " Hitot Subashi Journal of Economics 9 (1968): 32 - 4

أما الصلة بين التخلى عن النظام الطائفى وزواج الأرملة مرة ثانية فتيناولها فى .بى . إس . راجوفانش فى «تأسيس وإعمال الطائفة فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر نقلا عن مصادر أوروبية فى كونواز محمد أشرف دارس وثورى هندى ١٩٠٢ - ١٩٦٢ ، تحديد هورست كروجر (برلين ١٩٦٦)

V. P. S. Raghuranshi , "The Institution and Working of Caste in the Later Part of the Eighteenth Century from European Sources, " in Kunwaz Mohammad Ashraf - an Indian Scholar and Revolution ary, 1903 - 1962. Harst Kruger, Berlin, 1966), 147 - 175. especially 169 - 171,

وقد أحدث التوسع التجارى البريطانى فى شمال الهند فى القرن التاسع عشر تدهورا لا فى أوضاع التجار

المسلمين بل فى أوضاع التجار الهندوس كذلك انظر بلير ب. كنج . شركاء فى الإمبراطورية ، دواركانات طاغور وعصر المشروعات فى الهند الشرقية .

Blair B. King, Partners in Empire: Dwarkanath Tagore and the Age of Enterprise in Eastern India (Berkeley: Univ. of California Press, 1976);

وتردد هذه المجموعة بين الأحداث بشكل عام أصداء النموذج المعروض في كتابي عن مصر ، وهى دولة أخري من دول الطريق الإيطالى ذات تشابهات كثيرة مع الهند :

Islamic Roots of Capitalism : Egypt 1760 - 1840 Austin : Univ of Texas Press, 1979).

وقد درس ماتيونماينز Mattison Mines جماعة مسلمة معاصرة فى جنوب الهند وعثر أيضا على حالة أخرى من اضمحلال الطائفة فى قطاع تجارى متوسع . وهنا في المنطقة التي أسميها « الجنوب القديم » انظر التراتب الاجتماعي بين مسلمى التامبل فى تاميلانادو جنوب الهند فى الطائفة والتراتب الاجتماعي بين المسلمين » تحرير امتياز أحمد .

Caste and Social Stratification Among the Muslims ed. Imtiaz Ahmed (New Delhi, 1973) 61 - 72.

١٢ - تى . فى . بارا سورام تراث الهند اليهودى .

T. V. Parasuram, India's Jewish Heritage New Delhi, 1982), 116,

و إى . كولكه . البارسيون فى الهند - أقلية بوصفها عاملا للتغير الاجتماعى .

E. Kulke, The Parseesin India - a Minority as Agent of Social Change (Munich, 1974), 238, 247,

اكهارد كولكه ، البارسيون ،

Echhard Kulke, Die Parsen / The Parsees (Freiburg, 1968), XIX,

و ، بى . ا . واديا : البارسى قبل أن تتكاثف الظلال .

P. A. Wadia, Parsis Ere the Shadows Thickens (Bombay, 1949), 140,

والبيروقراطية البارسية (خطاب) دول ستريت جورنال ١٠ يونية ١٩٨٢ .

"Parsi Bureaucracy" (Letter) Wall Street Jaurnal, June 10, 1982, 23 W.,

ويرتبط بذلك تأسيس المحفل الكبير للهند عام ١٩٦١ » الذى أنهى بذلك قرنين من اعتماد الماسون الأحرار الهنود على ماسون الجزر البريطانية ، وكان الوفدان الأجنبيان اللذين حضرا الاحتفال قادمين من إسرائيل وكندا ، أنظر : جي . اس جوبتا ، الحركة الماسونية فى الهند .

G. S. Gupta, Free Masonic Movement in India (New Delhi, 1981) 3 ff.

13 - Myron Weinstein and Mary Fainsod, Op. Cit.; Marc Galanter, The Problem of Group Membership, "Journal of the Indian Law Institute 4 (1962) : 333- 358

١٤ - يزعم ستيفن كوهن فى « الجندى من طائفة المنبوذين : الطائفة والسياسة والجيش الهندى »

Stephen Cohen "The Untouchable Soldier : Caste, Politics and the Indian Army," Journal of Asian Studies 28 (1969): 453 - 468,

إن الطوائف الدنيا لاتدخل فى هيئات الضباط العليا وأن الشماليين يسيطرون على الجنوب ، وأن الجيش لا يعمل على تكامل الانقسامات الاجتماعية فى المجتمع ، بل يعيد إنتاجها . ويفعل الجيش الإيطالى نفس الشئ ، كما يقول جيانفرانسو باسكينونى « الجيش الإيطالى بعض الملاحظات حول التجنيد »

Gianfranco Pasquino, " The Italian Army-some Notes on Recruitment," Armed Forces and Society 2 (1976): 205 - 217.

ونزعة استمرار الوضع الراهن توحى بها واقعة أن الجيش الهندى هو الخامس ، ويعرف الجيشان أيضا بالعدد الزائد من الضباط وبمعداتهم الهزيلة ، انظر :

P. A. Allum, Italy-Republic Without Government (New York: W.W. Norton, 1973) 172 ff, June Kronhois, "Indian Army, Wall Street Journal. September 16, 1981, 1;

وعن وجود الطائفة فى الجامعة ، انظر :

Rajni Kothari, ed. Caste in Indian Palitics (New Delhi, 1970) 83 ff.

15 - Mari a Mies, Patriarchy and Accumulation on a World Scale, London: Zed Books, 1986), 146-162.

16 - Sushla Mehta, Revolution and the Status of Women (Delhi, 1982) 207 - 212.

١٧ - بالنسبة لوجهة النظر العامة :

Elizabetl Pleck, Domestic Tyranny. The Making of Social Policy Aganist Family Violence From Colonial Twes to the Present (Oxford: Oxford Univ. Press, 1987).

وفيما يتعلق بالإحصائيات المقتبسة :

Williem Stacey and Anton Shupe, The Family Secret - Domestic Violence in America (Baston, Beacon 1983) 2-3, Mari a Mies, Op. Cit. . 150 - 152.

١٨ - بالنسبة إلى الهند صحيفة مانوش Manushi وبالنسبة إلى إيطاليا:

Maria Weber, Italy" in The Politics of the Second Electorate, eds. Joni Loven duski and Jill Hills (London PKP, 1981), 201;

وفيما يتعلق بمحاولات المرأة العمل ضد العنف فى إيطاليا :

Karen Beckiwth, Response to Feminism in the Italian Parliament, : Divorce, Abortion and Sex Violence Legislation", in the Women's Movements of the United States and Western Europe, eds. Mary Fainsod Katzenstein and Carol Mc Clurg Mueller (Philadelphia: Temple Univ. Press, 1987), 153 - 171; P. Allum, Political Terrorism in Italy," Journal of the Association of Teachers of Italian 25 (1978) : 5, 18.

١٩ – تظهر بيانات عامة عن الدعارة فى :

Judith Walkouitz, Prostitution and Victorian Society - Women - Class and the State (Combridge : Cambridge Univ. Press, 1980); Ruth Rosen, The Lost Sisterhood

- Prostitutin in Amereca, 1900 - 1918 (Baltimore : John Hopkins Univ. Press 1982), XI-XVII,

وتناصرهما المتخصصة في أفريقيا لويز هوايت فى :

Luise White, "Prostitutes, Reformers : and Historians,", Criminal Justice History 6 (1985) : 201 - 227.

20 - Mary Gibson, Prostitution and the State in Italy 1860 - 1915 (New Brwnswick : Rutgers Univ. Press, 1986), 223 ff.

ويمكن أن يجد موقفا تحرريا مماثلا (دعه يعمل) فى أوصاف معروفة جيدا للعاهرات فى بعض دول الطريق الإيطالى الأخرى . ومن هذه الأمثلة شخصية حميدة التى تظهر فى رواية من أشهر الروايات المصرية ، زقاق المدق من تأليف نجيب محفوظ . وفي هذه الرواية لا تصور حميدة بوصفها فاسدة شريرة أو فاتنة بل ، باعتبارها ببساطة شخصا أخر ونجد مصدرا مفيدا للمقارنة هنا عند إيفلين عقاد :

Evelyn Accad, "The Prostitute in Arab and North African Fiction", in The Image of the Prostitute in Modern Literature . eds. Pierre L.Horn and Mary Beth Pringle (New Yark : Fredrick Ungar, 1984), 63 - 76, esp. 69 - 17.

21 - Julian Raebuck and Patrick MC Nomara, Ficheras and Freelancers: Prostitution in a Mexican Border City," Archives of Sexual Behaviour 2 (1973)231 - 244.

22 - Madhu Kishwar, "Gamdhion Women" Rece and Class 28 (1986): 43 - 61.

23 - Biswanath Joardar, Prostitution in Historical and Modern Perspectives (New Delhi, 1967), 142 - 3.

24 - Judith Walkowitz, "Notes on the History of Nictorion Prostitution", Feminist Studies

I (1972): 105 - 114, Politics of Prostitution Signs 6 (1980): 123 - 135, Jack The Ripper Feminist Studies & (1982): 543 - 574.

25 - Mourice Hindus, The Great Offensive, (New York: Harrison Smith and R. Haas, 1933), Ch. 11;

وحول الدعارة اليهودية انظر:

Edward J. Bristow, Prostitution and Prejadice - The Jewish Fight Against White Slavery (New York, Schocken Books, 1983), 86 - 87; The Philadelphia Inquirer, Section A, I, July 20, 1987.

وعن العراق رواية جبرا إبراهيم جبرا صيادون فى شارع ضيق .

Hunters in a Narrow Street, (London, 1960)

وانظر تعقيب إيفلين عقاد (مصدر سابق) ٦٩ - ٧١ ، وعن الدعارة فى بغداد انظر : كركوس عواد : جمهرة المراجع البغدادية ، (بغداد) تحت العناوين الخاصة بالباغى ، ونجد مفهوما محافظا للمومس باعتبارها منقذا أو موحدا للمجتمع فى رواية تولستوى الفداء Redemption وفى قصيدة بدر شاكر السياب « المومس العمياء » . وفى روسيا كانت النزعة الإصلاحية الليبرالية أضعف مما كانت فى الغرب ، انظر رسالة دكتوراه عن بنات سونيا (بطلة الجريمة والعقاب لدوستوفسكى) :

Laurie Bernstein, Sonia's Daughters: Prostitution and Society in Russia", (Ph.D., diss., Univ. of California, Berkeley, 1987).

٢٧ - الناقدة هى تشيباندا واميويلا بوجيتو فى كتابها « نساء حرائر ونساء فى القيود ، الدعارة فى زائير».

Tshibanda Wamuela Bujitu, Femme Libres, Femmes Enchamees - La Prostitution Au" Zaire (Lubumboshi, 1979). 39,

وهناك مثال عن « عادية » الدعارة فى الأدب القصصى الألبانى فى رواية إسماعيل قدارى : جنرال الجيش الميت :

Ismail Kadare, The General of the Dead Army (New York; Grossman, 1972).

27 - Sumit Sarkar, "Popular" Movement and The "Middle" Class Leadership in Late, Colonial India : Perspectives and Problems of a History From Below (Ca lcutta, 1983), 71 ff.

وفى هذا الكتاب يستشهد ساركار بملاحظة جرامشى أن غاندى قد قدم تنظيرا ساذجا للثورة السلبية ، تنظيرا يتسم بالنغمات المصاحبة الدينية » ويدلل ساركار أن خصوصية الهند ينبغى أن توجد فى العمال الذين لا يمتلكون أرضا ، وهى جماعة لاتوجد فى أوروبا ، جماعة تتجه نحو تقويض التضامن الفلاحى ، انظر كتاب بارناتشاترجى «الفكر القومى» ص ٤٤ وما بعدها . وفى الهند تكون القطاعات الأكثر امتيازا من المجتمع المدنى هى قاعدة « الطريق البرلمانى » إلى مجلس الوزراء الهندى أى من الشمال ، على حين أن « الطريق التنظيمى يجلب سياسين من أجزاء « أخرى » من

البلاد وعن طريق قنوات أقل قابلية للتنبؤ ، انظر :

Norman Nicholson, Integrative Strategies of a National Elite : Career Patterns in the Indian Council of Minislers," Conparative Politics 7 (1975) : 533 - 557;

وفيما يتعلق بسيطرة الحزب الواحد ، نجد أن دول الطريق الإيطالى تميل إلى إنكار الظاهرة ثم إلى احتضانها :

K. S. Bhattacharjee, " The Party System in India - The Party Dominance", Indian Political Science Review 9 (1975) : 189 - 202

29 - Jan Copland, The Brilish Raj and the Indian Princes (Bombay, 1982) esp. Ch. 4.
30-B. B. Misra, The Administrative History of India, 1834 - 1947 (London : Oxford Univ. Press,1970) , 540 - 543.

31 - David Arnold, Police Power and Coloinal Rule in Madras, 1859 - 1947, Oxford, Oxfard Unir. Press, 1986)

وهو يقدم الخصوصية الإقليمية للجنوب .

32 - Sumit Sarkar, Modern India, 230.

لا حظ أيضا فكرة أن كيرزون قام بمحاولة لإقامة نظام "للطريق الروسى » فى ١٨٩٩ ، ٥٧ - ٨

33 - Ibid., 189.

34 - O. V. Malyarov, The Role of the State in The Socio Economic Structure of India (New Delhe, 1983), 118, 282.

وتسمح قضايا الصلة بين الحزب والدولة ، والخلفية الاجتماعية للكادر القيادى بالمزيد من المقارنات بين الهند وإيطاليا .

وفي الهند كما فى إيطاليا يضم الحزب الشيوعى أعضاء أثرياء مرتبطين بالدولة ، انظر :

Giorgio Amendola , "La Continuite' dello stato e ilimrtidell' antifascismo italiano

جيورجيو امندولا « استمرار الدولة وحدود معاداة الفاشية الإيطالية»

Quaderni di Critica Morxista no.7 (1974),

Perry Anderson, Considerations on Western Marxism (London : Verso, 1985). Donald Zagoria) "The Social Bases of Indian Communism" in Issues in the Figure of Asa,1 ed. Richard Lowenthol (New York: Frederick A. Praeger, 1969). 120.

٣٥ - فيما يتعلق بالتركيب الاقتصادى للنقابة the Syndicate أى أكبر ٢٠ بيتا من « بيوت الأعمال » ، انظر :

the Syndicate Stanley Kochanek, Business and Palitics in India (Berkeley : Univ. of California Press, 1971), 339 ff.

٣٦ - هناك عمل يناقش سياسة الهند والمكسيك وإيطاليا في تلك الفترة هو :

Alan S. Zuckerman, The Palitics of Faction : Christian Democratic Rule in Italy (New Haven : Yale Univ. Press, 1979, 3, Chapter 8.

وفى المكسيك والهند كان هناك حزب للطهارة فى المعارضة ، حزب PAN فى المكسيك ، وحزب R S P فى الهند انظر :

G. S. Bhargava, Indira's India Gate. Latest Study of Political Corruption (New Delhi, 1977).

٣٧ - فيما يتعلق بالهند انظر Journal Manushi وهى دورية منشورة فى نيودلهى ، وفيما يتعلق بمثال من إيطاليا انظر :

Christiane Veauvy, " Le Mouvement Feministe en Italie : Mediterranean People Peuples Mediterrannees (1983) : 22 - 23, 109 - 130.

38 - John A. Vincent "Differentiation and Resistance :Ethnicity in Valle d'Aosta and Kashmir, Ethnic and Racial Studies 5 (1982) : 313 - 325

39 - Thomas R. Mc Guire, Politics and Ethnicity of the Rio Yaqui (Tucson: Arisona State Univ. Press, 1986).

٤٠ - ساركار « الهند الحديثة »

Sarcar, Modern India, 31 - 52, 439.

إن الشيوعيين الذين اعتمدوا على نماذج تحليل طبقى للصراعات الطائفية الدينية كانوا يتجهون عادة إلى الهزيمة

٤١ - يمكن استمرار شواهد قوية على كون مدراس « شمالا جديدا من صعود أسلوب جديد فى الأدب ومن صعود حركة نساء «حديثة» هناك . وتكشف تلك الشواهد عن التغير الاجتماعى الهائل فى تاميلنادو : -

C. S. Lakshmi, The Face Behind the Mask - Women in Tamil literature (New Delhi, 1984).

Dharm Paul Sarin Influence of Political Movements on Mindi Literature 1906 - 1947 (Chandigarh, 1967), 222.

والمثال الذى سبق الاستشهاد به علي اعتراف المؤسسة بالتغلب علي الانقسام القديم بين الشمال والجنوب هو كتاب :

S. P. Sen , ed. The North and the South in Indian History ...

ولبيان صعود الكتابة التاريخية الحديثة في جامعة تنتمي إلى الجنوب القديم هى جامعة ميسورى فى كارنتاك Mysore at Jarnatak انظر :

B. Sheik Ali, History : Its Theory and Method (Madras, 1978) , 458 - 459.

٤٢ – تحكى رواية فازت بجائزة مترجمة عن الأسامية Assamese عن إقناع الفلاحين بالابتعاد عن الغاندية وتبنى الشيوعية

B. K. Bhattachary a, *Mrityunjay*: (New Delhi, 1983).

43- Joseph Schwartzberg and Others, *A historical Atlas of South asia* (Chicago : Univ. of Chicago Press, 1987).

٤٤ – أدت النزعة القبلية للجنوب إلى بعض الدراسات المقارنة التى تتناول أفريقيا وجنوب شرق آسيا مثل دراسة :

Bernard Cohn, "*African Models and Indian History*" in *Realn and Region in Traditional India*, ed. Richard G. Fox (Durham : Duke Unev. Monographs, 1977) 90 - 116.

45 - Ester Boserup, *Women's Role in Economic Development* (London: Earthscan, 1970); Susan Wadley, ed. *The Power of Tamil Women* (Syracuse : The Maxwell school, 1980), 161 - 2.

والكتاب الأخير يلاحظ كيف أن ميلاد ابنة يجرى الترحيب به فى الجنوب أكثر من الشمال .

٤٦ – الإيديولجية الدينية للنزعة الطائفية الجماعية معروفة جيدا بخلاف الإيديولوجية الاقتصادية . فهل الإزاحة التدريجية للنقابة في العالم الثالث بواسطة ال NIEO ستؤدى إلى حركات مرتكزة على جماعة أوسع بما فى ذلك الجماعة الطائفية الدينية ؟ الإجابة ستتوقف على قوة العمل الحضرية الجديدة . انظر على سبيل المثال :

Vijay and Heather Joshi, *Surplus Labor and the City* : *A study of Bombay* (Oxford: Oxford Univ. Press, 1976); B. J. L. Berry, "Comparative Urbanization Strategies,". *Ekistics* 42, no. 249 (1976) : 130 - 135; Anvind Nara yon Das. *Does Bihar Show the Way? Apathy, Agitation and Alternatives in an Unchanging State* (Calcutta, 1979), 95

فيما يتعلق بالمقارنة مع كيرالا ، وفيما يتعلق بإيطاليا .

Lind Weiss, "The Italian State and Small Business," *Eurporean Journal of Sociology* 25 (1984): 214 - 241.

وهو بحث يوضح محاولات المسيحيين الديموقراطيين فى عصر ال NIEO للحصول علي قاعدة في الحانوت الصغير الجديد . قابل بين هذه الأعمال وأعمال عن اقتصاديات الجنوب « القديم » وعلى سبيل المثال فى حالة الهند ، انظر :

Hugh Tinker, *A New System of Slavery : The Export of Indian Labaur Overseas. 1830 - 1920* (London : Oxford Univ. Press, 1974).

٤٧ - حول عرض درجة النظر المؤيدة للاستقلال انظر :

C. H. H. R. Rao, "Uncertainly, Entrepreneurship and Share Cropping in India" *Jaurnal of Political Economy* 79 (1979) : 578- 595;

وحول نقدها انظر :

Harry Blair, Rising Kulaks and Backward Classes in Bihar - Social Change in the Late 1970's, Economic and Politcal Weekly 15 (January 12, 1980): 70,

وكذلك :

Ben Crow , Appropriating the Brahmaputra - The Onward March of India's Rich Peasants, "*Economic and Political Weekly* 17 (December 25, 1982): 2097 - 2101;

وحول عرض وجهة النظر التى ترى أن بيهار تقف عند قاع النظام الهندى في الزراعة بسبب ضروب التفاوت التى « خلقت » انظر :

Veena Singh, Regional Disparities in Agricultural Development (New Delhi, 1990), 150 - 151.

٤٨ - فى الهند « اكتشفت » الحكومة مصادر كثيرة « للإرهاب » من بينها الناكساليون Naxalites وأكالي دال Akali Dal وقد عبر الغرباء أيضا عن انزعاجهم حينما كانت مصالحهم تتعرض للمساس بها ، وعلى سبيل المثال حينما نشرت نيويورك تايمز فى عدد ٢ يونية ١٩٨٠ ، قسم ١ ص٧ عمود ٦ أن « الطلبة فى أسام شمال شرق الهند يرفضون نداء الحكومة » كانت البؤرة الفعلية هى سلامة شحنات النفط . وكانت قضايا استئجار الأرض هى أساس موضوع « الإرهاب » وفيما يتعلق بإيطاليا انظر :

Russleking, *Land Reform : The Italian Experience*, (London : Butter worths, 1973),

ويلاحظ فى الفصل الثامن من الكتاب أن مساحات واسعة من الوسط والجنوب قد تم استبعادها من الإصلاح الزراعى الإيطالى وأن الحكومة فى واقع الأمر لم تستهدف إلا بعض الأراى التى غاب ملاكها وأن وكالة الإطلاح أصبحت بمثابة السادة الجدد المرتبطين بالجريمة العنيفة . وتلاحظ كاثلين جوخ Kathleen Gough المشكلة نفسها فى الإصلاح الزراعى فى تاميلنادو خلال الفترة من ١٩٥١ - ١٩٧٨ فى دراستها المعنونة :

"Modes of Production in South India," *Economic and Palitcal Weekly* 15 (February 2 1980) 351 ff,

وفيما يتعلق بسياسة كولاك حزب جاناتا .

(the Bharatiya Lak Dal) انظر :

C. P. Bhambhri, The Janata Party, A Profile (New Delhi, 1980), 7 - 8 , 100.

49 - G. P. Bhatta Charjee, *Evalution of the Political Philosophy of M. N. Roy* (Calcutta, 1971), 44, 56, 62, 149.

50 - Sally Ray, " Communism in India: Ideological and Tactical Differences Among four Parties", *Studies in Comparative Communism 5* (1972):

٥١ – يبرز الموقف الشيوعى الدفاعى فيما يتعلق بمسألة الأرض فى كيرالا فى عرض للقاء بين نامبرديبر يبود Nambadiripod وفينوبا Vinoba على جنوب كيرالا فى ابريل عام ١٩٥٧ انظر :

Sachinanand, *Sarvodaya in a Communist State* (Bambay, 1961), 33 ff;

وفيما يتعلق بحياة الزعيم الشيوعى نامبوديريبود صدرت سيرة ذاتية شهيرة بلغة الملايو تحوى صورا قلمية شخصية مثيرة للاهتمام عن عائلته ، انظر الطبعة الإنجليزية: *How I Became A Communist:*

(Trivan drum, 1986).

52- Gene Over street and Marshall Windmiller, *Communism in India* (Berkeley: Univ. of California Press, 1959), 363 ff.

ويزعم كاتب حديث أن عددا قليلا من النساء يلعبن دورا فى القيادة بالمقارنة بالدور النسائى فى حركات الفلاحين البنغالية : –

Peter Custers, "Wonen's Role in the Tabhaga Movements," Economic and Political Weekly 21 (oct. 25, 1986): 97 - 104.

53 - Owen M. Lynch, *The Politics of Untouchability - Social Mobility and Social Change in a City of India* (New York: Columbia Univ. Preiss, 1986) ch. 5.

54 - B. R. Ambedkar, *The Untouchables - Who were They and Why They Became Untouchable ?* (New Delhi, 1948); *The Rise and Fall of Hindu Women* (Jullundur, m.d.).

٥٥ – وكان شيام سندر Shyam Sunder (١٩٠٨ – ١٩٧٥) واحدا من الأمثلة ، فقد رعى تحالفا بين المنبوذين والمسلمين انظر :

V. T. Rajshekar Shetty, *Dalit Movement - Karnataka* (Madras 1978). وكان لسندر مثل امبدكار شهرة عالية ، ومن الشخصيات الراهنة فى تقليد كارناتاكا(ولاية جنوب الهند) لاكسمان . ج. هافانبور Lax-man G. Havampur. فهل تتشابه كارناتاكا وموريلوس ؟ (مدينة فى المكسيك سميت باسم الوطنى المكسيكى موريوس ١٧٦٥ – ١٨١٥ الذى أعلن استقلال البلاد ١٨١٣ – المترجم) .

56 - Bipan Chandra, "Peasantry and National Integration in Contemporary India," in

National and Left Movements in India, ed. k.n. Panikkar (Delhi, 1980), 107 - 145.

57 - Nirmala Banerjee, Women Workers in the Unorganized Sector - The Colcutta Experience (Hyderabad, 1985), Ch. g;

وفيما يتعلق بالنضالات الجديدة للمرأة مثل :

Devaki Jain, Women's Quest for انظر SEWA

Power - Fine Indian Case Studies (Sahibabad, 1980),

وعن فشل الحزب الشيوعى فى تحدى النزعة الإنتاجية لتنظيمات النساء الرسمية (Mahila Samajams) .

P. M. Mathew and MS. Nair,

Women's Organizations and Women's Interests (New Delhi, 1986), 17 - 18.

58 - Dale Riepe,ed. Asian philosophy (New York: Gardon and Breach, 1981), 167 - 180

٥٩ - يقابل سورشت رنجن بالد Suresht Renjen Bald

فى كتابه « الروائيون والوعى السياسى »

Novelists and Political Consciousness (Atlantic Highlands : Humanities Press 1982), 10-12 .

بين ثيوصوفية الجنوب والحركة الفدانتية Vedantic (نظام فلسفى مستمد من الكتب المقدسة عند الهندوس) المعاصرة فى السنغال فى أوائل القرن العشرين ، فقد كان أنصار الفدانتية مهتمين بالعالم حولهم ، ونجد تعليقات على المثالية الفلسفية فى مدراس عن ك. س مورتى K.S. Murty فى :

Philosophy in India (New Delhi, 1958), 125.

وفى بيهار انظر :

S. S. Barlingay et al., eds. *A Critical Survey of Research Work in Philosophy in Indian Universities* (Pune, 1986), 99 - 101.

60 - Lawrence Babb, *The Divine Hierarchy - Papular Hinduism in Central India* (New York: Columbia Univ. Press, 1975)

ويقدم لورنس بابًا فى هذا الكتاب عبارة سيفا Siva باعتبارها شبيهة بكارنيفال القرون الوسطى : حيث يتم قلب العالم رأسا على عقب .

٦١ - هذه النقطة قد فصلها كتاب يوجندرا مالك :

Yogendra Malik, North Indian Intellectuals: *An Attitudinal Profile* (Leiden: Brill, 1979), 23;

وكذلك : Nagendra, "Hindi", in

Contemporary Indian Literature and Society, ed. Motilal Jotwani (New Delhi, 1979) 62- 3 .

62 - T. M. Ramachandran, ed. 50 Years of Indian Talkies, 1930 - 1980 (Bombay, 1980), 63 - 70, 146 - 52.

وقد جاءت الواقعية الاجتماعية لساتياجيت راى Satyajit Ray من كلكتا .

63 - Raimundo Panikkar, *The Unknown Christ of Hinduism* (New York : Orbis Books, 1981), 38 ff.

وكتابات بانيكار المتعددة مصدر مهم للدراسات المقارنة داخل نطاق الطريق الإيطالى وخاصة بالنسبة لأسبانيا والهند .

64 - H. C. Srivastava, *The Genesis of Compus Violence in Banaras Hindu Univ. Varanasi* (Allahabbad 1974).

65 - Satyendra Kishore, *National Integration in India* (New Delhi, 1987), Ch. 3.

66- Richard Cashman, "The Phenomenon of Indion Cricket," *in Sports in History* eds, Richard Coshman And Michael McKernan (Queensland: Queensland Univ. Press 1979), 181 - 205.

ويرى ريتشارد كاشمان أن الكريكت عامل من عوامل التكيف الاجتماعى تعتمد عليه الدولة ، وتعده أعلى مرتبة من الأشكال الأكثر تقليدية للترفيه والتكيف الاجتماعى التى تستخدمها الدولة فى الهند مثل الأعياد الدينية تمجيدا لجانيشا فى بومباى ، وهى مناسبة لاتفرض انضباطا ولا مشاركة جماعية .

67 - Romen Basu, *Portrait on the Roof* (New Delhi, 1980);

وعن العلم فى الهند انظر :

Ward Morehouse, *Science in India* (Bombay, 1971):

وعن الأدب فى الهند انظر :

K. Srinivasa Iyengar, ed. *Indian Literature Since Independence* (New Delhi, 1973).

68 - Amiya Dev, *Sudhindranath Datta* (New Delhi, 1982); Christopher Wagstoff, "The New Anantgarde," in *Writers and Society in Contemporary Italy*, eds Michaesl Caesar and Peter Hainsworth (Warwickshire Berg Press, 1984), 35 - 62.

وعلى سبيل التضاد يمثل الرومانسية التقليدية أحد عمداء التخصص فى التاريخ الهندى س . بى . ش ، كمحرر لكتاب « التاريخ فى الأدب الهندى الحديث »

S.P. Sen ed. History in Modern Indian Literature (Calcutta 1975)

فى مقدمته . وهو لا يجد فى توصيل التاريخ إلى الجماهير بطرق ذات طابع رومانسى أو من خلال الأساطير مدعاة للاعتراض . فمهمة المؤرخ هى ببساطة أن يقوم بما هو ممكن . وينحو ذلك إلى تموية الطريقة التى يمكن بها للدولة أن تستخدم شخصية أدبية ذات استعداد لتجاهل الاعتراف الجاد بالجنوب فى أحد بلاد الطريق الإيطالى. وتشمل أمثلة هذا الاستغلال الرسمى فى حالة إيطاليا الكاتب الجنوبى إيتالو كالفينو Italo Calvino ودانيلو دولشى Danilo Daalci والنموذج الهندى لرجعى شهير يضفى طابعا رومانسيا على الجنوب كان د. ك. نارايان كما يقول طارق على فى مقاله :

"Midnight's Children," Newleft Review (Decenmer 1986) : 87 - 95.

ويزعم طارق على أن عرض نارايان للحياة « الوادعة » فى قرى الجنوب جعلت منه كاتبا مفضلا لدى الإدارة الاستعمارية ، كما يزعم أنه كان سلفا للكاتب المعاصر فى . إس . نيبول V. S. Naipaul

٦٩ – من أجل عرض أمريكى للحداثة أنظر :

Culture Critique, no. 5 (Winter, 1986 - 1987).

70 - Mahadeد L. Apte, "Mssic and Mass Culture in India "in *Mass Culture Language and Arts in India*, ed. MahadevL. Apte (Bombay, 1978), 98 - 120; Umberto Eco, The Role of the Reader (Bloomington: Indiana Univ Prers, 1979), Ch. I.

وفيما يتعلق بالسياق الهندى تنبغى ملاحظة أن العازفين العظام فى شمال الهند هم من المسلمين والهندوس معا . وبالنسبة للموسيقى المتمركزة على أعازف فى تضاد مع الموسيقى المتمركزة على اللحن فى مكسيكو سيتى ، مثل جماعة الكوانتا Quanta Group من الموسيقيين التى تشكلت فى ١٩٧٠ سعيا وراء « التعبير الموسيقى الفورى » انظر كتاب « الموسيقى المكسيكية المعاصرة » :-

Maria Angels Gonzalez and Leonard Saovedra, *Musica Mexicama Contemporarea* (Mexico City, 1982), 119 - 120.

21 - Yogesh Atal, *Social Sciences in India* (New Delhi, 1974) 4.

ويلاحظ يوجش أتالى أن المؤرخين أنشأوا المجلس الهندى للبحث التاريخى متميزا عن المجلس الهندى للبحث فى العلم الاجتماعى الأكثر عموما .

٧٢ – فيما يتعلق بالتقابل مع إيطاليا حيث لايمتلك المؤرخون نفس الفرص ، انظر :-

Ruggiero Romano, *La Storio grafia Italiana Oggi* (Milan 1978) *Passim.*

وحتى الماركسيون يبدو أنهم بعد الحرب العالمية الثانية تناولوا موضوعات صغيرة ، ولم يتحدوا اللوحة الأوسع للتاريخ ، انظر :

انظر : Ottavia Cecchi, ed. La Ricerca Storica Marxista in Italia (Rome, 1974).

73 - *L. P. Vidyorthi, Rise of Anthropalogy in India :* A Social Science Orientation (Atlantic Highlands: Humanities Press, 1979), 2 vols. especially 2 : 154, 334, Mazharul Islam, *A History of Folktale Collections in India and Pakistan* (Dacca, 1970).

74- Surindranath Roy, The Story of Indian Archeology. 1784 - 1947 (New Delhi, 1961); B.B. Lal, *Indian Archeology Since Independence* (New Delhi, 1964).

وهناك كتاب يجمع مسؤولى المتاحف من الهند وإيطاليا والمكسيك حول مشكلة لصوص الفن الأجانب هو :

The Pratection of The Artifact and Archeological Heritage : A View from Italy and Indie (Rome 1976).

75 - Visva Bharati and Its Institutions (Santiniketan, 1961), 30

وفى هذا الكتاب يجىء ذكر أثينا بإعتبارها المثل المبكر للمعرفة المنزهة عن الغرض من الشرق والغرب ،

P. C. Mahalanobis " Our Founder - President in Italy, Visa - Bharati Bulletin, 4, no. 3 (1926) especially 292.

وعن طاغو روكروتشه ، ونزاع طاغور مع غاندى حول جدوى العلم الحديث ورحلته لمقابلة فؤاد ملك مصر ، انظر :

Krishna Kripalani, *Rabindranath Tagore* (Colcuta 1980), 337 - 338, 348.

76 - S. P. Sen, ed. *Indian History Congress* - Silner Jublee *Souvenir Volume* (Colcutta, 1963), *in passim.*

٧٧ – فى الأعداد الأولى من Newsletter الرسالة الإخبارية الصادرة عن المجلس الهندى للبحث التاريخى ICHR نشر ر . س . شارما R. S. SHARMA عدداً من المقالات التحليلية لا توجد عادة فى المنشورات المتيسرة مثل دورية التاريخ Journal of Indian History وفيما بعد وتحت إشراف محررين مختلفين ، تحولت السياسة كلية نحو البحث التقليدى . ونجد عملاً منشوراً ينتمى إلى توجه جامعة نهرو هو :

Amalendu Guha, *Planter - Ray to Swarey Freedom Struggle and Electoral Palitics in Assam.* 1826 - 1947 (New Delhi, ICHR, 1977).

78 - S. P. Sen, ed. Historians and Historiography in Modern India (Colcutta, 1973), 45.

79 - W. H. Golay, The University of po ona (Poona, 1974), 421.

80 - Mukhopadhyay, op. cit, 23 ff.

81 - *Journal of Indian History* 60 (1982) : 294.

82 - Ibid, 303 - 4.

٨٣ – فى « الكتابة التاريخية فى الهند الحديثة » بومباى " Historiagraphy in Madern India" (Bambz , 1970.), 4.

عبر بطريقة تهكمية عن « قدر كبير من الحقيقة باسم الوطنية والانسجام الطائى والتكامل القومى والعبارات الأخرى الطنانة » .

84 - Journal of Indian History 57 (1979) : 451 77. ; Quarterly Review of Historicol Studies 19 (1979 - 1980) : 63 - 73, 78 - 134.

85 - S. P. Sen, de. Social Contents of Indian Religious Reform Movements (Calcutta, 1978)

كتاب ينحو إلى تبيض وجه الطائفة .

٨٦ - أما كتاب : S. P. Sen, ed. Studies in Modern Indion History : A Region Survey Col- cutta 1969), Vil.

« دراسات في تاريخ الهند الحديث » فهو دفاع عن ذلك ، والتعبير عن الانزعاج انظر :

Su dhir Chandra, " Modern Indian Historiography : Urgen Cyand Risk of Micto - Studies Economic and Political Weekly, March 18, (1972, 621 - 622; ونجد مثالاً رائداً للتاريخ الإقليمى الجديد فى :

Journal of Regional Histary 1 (1980).

يصدر أصلاً من قسم التاريخ فى جامعة جورد ناناك Gura Nanak Dev. Univ فى أمر يتسار ، ومجلس التحرير الحالى يضم مؤرخين من عدة جامعات ، كما أن تاريخ الوحدات الصغرى والتاريخ الأقليمى قد أصبح موضوعاً لمحاولات مماثلة فى المكسيك وإيطاليا .

٨٧ - فيما يتعلق بوجهة نظر عن الشواغل الراهنة فى التاريخ على نحو أكثر عموماً انظر :

Vijay C. P. Chaudhary , Secularism Versus. Commun alism - An Anatomy of the National Debate on Fine Controversial Histary Books (Patna, 1979) , 58, FF.

٨٨ - فيما يتعلق بمثال على النظرة الكوكبية اليسارية انظر الخطاب الرئاسى للقسم الرابع :

Countries Other Than Inda, Indian History Congres, 34 th Seivon, December 1973,

وقد نشره المؤلف بارن دى Barun De ، أول مدير لمركز الدراسات فى العلم الاجتماعى فى :

gtinerario 10 (1986) : 114 ff;

وعن الكوزبو بولتيانية كاتجاه وسط « مثقفى الجنوب » انظر : مقالا بقلم باحث بيهارى يُدّرس فى جامعة برنستون : Gyan Prakash, Wiuting Post Orientalist Histories of the Third Warld : Perspe ctive from Indian Historiography, Comparative Soudies in Society and History 32 (1990) : 383 - 408.

٨٩ - إن مصطلحات مثل « رأس المال القومى » يجب على أى حال أن يجرى التعامل معها بحرص انظر :

Dharma Kumar, " Ecخـرخـوهذ History of Modem India : Indian Econamic and Social History Review 9 (1972) : 63 - 90

٩٠ - المثل الرئيسى لا تجاه ما بعد الاستعمار أو اتجاه الاستعمار الجديد هو مدرسة كمبريدج انظر :

Howard Spodek, " Plur alist Politics in British India : The Combridge Cluster of Historians of Modern India, American Historical Review 84 (1979) : 688 - 707.

وفيما يتعلق بمدرسة الحوليات الفرنسية Annales انظر على سبيل المثال Raland Lardinais, Papulation, Famies et Marche dens l'Historiographie Indienne, " Annales E S C (May - June 1987) : 577 - 683

وفيما يتلعق بعرض عام موجز للنماذج القياسية انظر :

Frank Perlen, " Disarticulation of the World :

Writing India's Economic History : Areview , Comporative Studies in Society and History 31 (1988) : 379 - 87.

91 - Ronila Thapar, " Ideology and the Interprtalion of Early Indian History, " in Socity and Change eds. Skrishnaswamy et al. (oxfondi Oxford Universitty press, 1977) , 1 - 20 .

92 - Utsa Patnaik, " Neo - Populism and Marxism : The Chayanovian View of the Agrarian Question and its Fundamental Fallacy , " Social Scientist mo. 103 (December 1981) : 27 - 52 ; Suneet Chopra, " Review Article (Ranajit Guha, Subaltern Studies - Missing Correct Perspe ctive, Social Scientint, mo 111 (August, 1982) : 55 - 63

ونتيجة لنموذجهم القياسى ، فإن مجموعة جامعة نهرو كانت هدفاً للجدال حول الكتاب المدرسى فى عهد جاناتا . وقد نجح المؤرخون اليمينيون بقيادة الأستاذ ذى الاتجاه الطائفى الدينى ك. ك. داتا فى إغلاق الطريق أمام ترجمة نصوص إنجليزية اللغة كتبها مؤلفون من جامعة نهرو إلى لغات محلية للاستخدام فى جامعات إقليمية ، بل لقد كان للطائفيين فى فترة وجيزة سلطة مضايقة المؤلفين ، وللتفاصيل انظر :

Mayid Hayat Siddiqi, " History Writing in India " History Workshop mo. 10 (Autumn, 1980) : 184 - 190 .

وهناك نقطة أخيرة ، ففى الهند يحدث التحدى حول تفسير الدراسات الفلاحية أو الطائفية فى علم التاريخ ، على حين أنه يحدث فى إيطاليا والمكسيك فى الأنثروبولوجيا انظر على سبيل المثال بالنسبة إلى إيطاليا : A. M. Cirese Ensayas sabre las Culturals subalternas (Mexico city 1975)

وهى هنا فى ترجمة أسبانية . وانظر أيضا :

L. M. Lambordo Sotriani, Apropriacion I destruccion de la Cultura subalterna (Mexico City, 1978).

٩٣ – كمثال انظر :

Mohamed Noor Nabi. " The Impact of Sufism on the Bhati Movement in India, " India Journal of Politics 11 (August 1977) : 123 : 129 .

94 - " Sardar K. M. Panikar, " in Journal of Indian History 60 (1982) Diamand Julilee Issue) : 352; Sardar Panikar, " A Critical Historian's Interpretation of Indion History, " in Readings in andian History, Palitico, and Philoroply, ed. K. Sachidenemda Murty (Landon, 1967) , 34 - 37 , 106 - 110, 135 - 138.

95 - B Sheik Ali, History, Its Theory and Methods (Madms, 1978), 453, K. S. Mnrty, op cit., 69 ff.

٩٦ – جرت مناقشة ساسترى Sastri فى :

Subadh Kumar Mubhon dhy ay, op. cit, 104 - ff.

97 - Somnath Ray, Recent Historical Studies About Modem Bihar (Cal Cutte 1978).

٩٨ – أرشيفات مؤسسة روكفلر بالإضافة إلى :

R G - 464 R Patna Uiv. History, Datta (1952 - 1957) .

وإن وجهة نظر أقل اطراء تجد داتا مستفيداً من كونه ينحدر من عائلة مهاجرة بنغالية تتكلم الإنجليزية ، ومن كسب رضا السياسيين المحليين ومنصبه باعتباره نائب مدير جامعة باتنا من معارضته أثناء ١٩٦٢ – ١٩٦٨ – اتحادات الطلبة والمدرسين .

Jaurnal of Indian History 60 (1982) : 277.

الفصل السادس

المكسيك " الطريق الإيطالى " فى أمريكا اللاتينية (١٨٧٦ - ١٩٩٠)

يعرض هذا الفصل التاريخ المكسيكى الحديث من ١٨٧٦ إلى ١٩٩٠ بوصفه مثالا للطريق الإيطالى . ويحدد القسم الأول موقع هذا المنهج فى علاقته بتلك المناهج التى تسيطر على الكتابة التاريخية المكسيكية . ويقدم القسم الثانى شواهد من الاقتصاد السياسى المكسيكى . ويتناول القسم الثالث تنظيم الثقافة باعتباره جزءا من هذا الاقتصاد السياسى . ويعالج القسم الرابع دور كتابة التاريخ كجزء من تنظيم الثقافة .

وفى الكتابة التاريخية المكسيكية يتنافس الليبراليون والماركسيون مع الرومانسيين حول تفسير المائة سنة الماضية وعند الليبراليين ، كما هى الحال عند الماركسيين كان هدف الثورة المكسيكية (١٩١٢ - ١٩١٧) هو تحديد البلاد ونشر التعليم ، وإدخال حق الاقتراع ، ومن ثم تطوير شعب جديد . وفى رأيهم أن الثورة أحبطتها قوة المصالح التقليدية الإقطاعية والمحافظة . وعند الرومانسيين لم تكن الثورة وحدها ، بل كانت العائلة الليبرالية ماديرو Madero الحاكمة وفترة كارديناس Cairdenas الماركسية التى أعقبتها رموزا لأزمة الكاثوليكية المكسيكية ، وهى أزمة تغلب عليها الشعب المكسيكى خلال شجاعته أثناء تمرد كريستيرو Cristero Ranolt فى العشرينيات والثلاثينيات .

وبعد الخمسينيات ، لم يعد أى من المواقع الأقدم فى كتابة التاريخ يبدو شديد الإحكام ، فالمهاجرون يتدفقون خارج الريف إلى المدينة ، ليغيروا من الدينامية الاجتماعية القديمة ، وأصبحت نزعة المراجعة والتفتيح إجبارية بالنسبة إلى المؤرخين ، سواء فى شكل تاريخ الوحدات الصغرى أو مذهب المؤرخ الفرنسى برودل Braudel ، أو نظرية التبعية أو الماركسية الجديدة وما سيأتى مستمد من بعض أشكال هذه النزعة التعديلية .

وهناك عمل حديث من تأليف بارى كار Barry Carr ، وهو مؤرخ أسترالى ، أدخل مفهوم بيد مونت Piedmont مكسيكية ، أو الجزء المتقدم ومن الشمال ومنذ عام ١٨٧٦ ، كما يذهب كار . كانت بيد مونت المكسيكية مثلثا يتألف من الحى الفيدرالى من مكسيكو سيتى ، وولاية المكسيك و وفيراكروث Ver a cruy ومونتيرى Minterray ، على حين يشمل شمال المكسيك بالمعنى الأوسع ، حيث تكون بيد مونت ببساطة

جزءا واحدا ، لا هذا المثلث فحسب ، بل تشبهوا هوا Chiba ahua وسونورا Sonoro وأجزاء من كل المقاطعات الشمالية الوسطى أيضا كما يشكل الجنوب ، بمعنى الولايات الجنوبية والهضاب الوسطى ، منطقة متميزة . ويمكن تمييز الجنوب لا على أساس جغرافى فحسب ، بل على أساس اجتماعى اقتصادى أيضا . فالولايات الجنوبية أفقر من مقابلاتها الشمالية ، وأكثر ريفية واتصافاً بالطابع الهندى .

ووفقا لكار تكمن خصوصية الشمال المكسيكى بالمثل فى ملامحه ، فهو أكثر علمانية بمعنى أن الكنيسة أضعف . ولن يجد المرء حشوداً مكثفة من الهنود فى الشمال كما فى الجنوب . ولم تؤد الزراعة الرأسمالية إلى عبودية الدين ، كما فى الجنوب . والأجور أعلى فى الشمال ، وكذلك مستوى الأستثمار الأجنبى . ولا يوجد هناك التطور الحديث للصناعة الوسيطة فحسب ، بل هناك الكثير من الاستثمارات طويلة المدى فى التعدين والقطن أيضا . كما أن الرأسمالية المكسيكية فى الشمال على النقيض من الجنوب ، تنافس رأسمالية الولايات المتحدة ، فليس من المستغرب أن يكون الشمال أكثر تسيسا فيما يتعلق بالإمبريالة من الجنوب[١] .

ويصلح الجنوب فى المكسيك كما فى إيطاليا ليكون ؛ المكان الذى ينتج فيه العمل الرخيص ، ويصدر من خلال الهجرة إلى الشمال بكثافة السكان فى الجنوب أعلى ، ومستوى وسائل الرفاهية أدنى ، ومعدل وفيات الأطفال أعلى ، كما تجدد ملاحظة التفاوتات فى تعلم القراءة والكتابة ، والمنازل ذات الماء الجارى ، ووجود طرق صالحة للاستخدام . وطوال القرن الماضى كان البند الإحصائى الذى يتحول هو نسبة الإجمالى للسكان المقيمين فى الجنوب (وتشمل هنا شبه الجزيرة والهضاب الوسطى) فخلال فترة ما بين الحربين كان الجنوب يضم ما يزيد على نصف السكان ، ولكن مع تكثيف الهجرة الداخلية بعد الحرب تحول التوازن وأصبح لدى الجنوب ٤٩,٣٪ من السكان فى ١٩٦٠ ، وكان الكثير من الجنوبيين فى ذلك الوقت يحصون باعتبارهم شماليين[٢] .

وإذا كان نمو الرأسمالية فى الشمال قد دعم البنية الاجتماعية ، فقد أدى إلى تدميرها فى الجنوب ، خالقا بذلك مجالا لهجرة سكانية خارجية إلى الأحياء الفقيرة فى المدن . وفى مدن الجنوب الكبرى مثل بويبلا Puebla وميريدا Merida كانت العناصر

الفاعلة فى هذا التطور الرأسمالى ، أى طبقة ملاك الأرض المحلية ، دون مبالغة فى القول – هى التى دبرت مؤامرة ذلك التدمير ، ونجحت المؤمرات فى بعض الأحيان وفشلت فى بعضها الآخر . وحينما نجحت ، كان الهنود يطردون بالمعنى الحرفى خارج أراضيهم ، وبينما هيكلهم الاجتماعى وأسلوب حياتهم(٣). وخلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وبالفعل خلال جانب كبير من هذا القرن ، ظل الصراع حادا من أجل السيطرة على الأرض(٤) . وتختلف المكسيك بطبيعة الحال تماما عن إيطاليا ، أو على الأقل عن إيطاليا التى عاش جرامشى تجربتها ؛ فالهيمنة فى المكسيك أضعف ، كما أن الجنوب فى المكسيك وإن يكن يعانى قهر الشمال ، فإنه أقوى كثيرا سياسيا من نظيره الإيطالى ، وينجم عن هذا التكافؤ الأكبر نسبيا تكوين مناطق يمكن أن نسميها مناطق مقاومة أو بطريقة أخرى يجد المرء فى المكسيك وهى مناطق تقاوم باستمرار تحويلها إلى جنوب وهى مناطق مثل موريلوس موطن الفلاح الثائر الشهير إمليانو زاباتا . ولن نجد شيئا شبيها بموريلوس فى الجنوب الأوسط من إيطاليا أو الهند . ومن الأمثلة الأخرى لمناطق المقاومة ، المنطقة الواقعة حول كويرنافاكا Cuarn vaca ومناطق بحذاء الساحل الأعلى للمحيط الهادى ، وهى مواقع صناعية بأسلوب جديد نوعاً ما ، تمتد جنوبا حتى واخاكا Oaxaca وعلى مسار هذا القرن ، أصبحت مكسيكو سيتى كذلك – بشكل متزايد – منطقة مقاومة . وهناك عنصر آخر فى نموذج « الطريق الإيطالى » هو العاصمة الجنوبية ؛ فالهيمنة القوية على غرار إيطاليا تمتلك عاصمة جنوبية محددة بوضوح مثل نابلى ، وهذا هو الوضع فى المكسيك وهو يفسر الطابع الأكثر افتقادا للتمييز لمدن مثل بويبلا وميريدا . وقد صارت هذه المدن فى العهد القريب مراكز جامعية بعد أن كانت فيما سبق تجدد مراكز للثقافة الإقليمية الجنوبية . وللتعويض عن هذا الضعف يعيش مثقفو الجنوب المكسيكيون بطريقة ملحوظة فى مكسيكو سيتى مما يضع قناعا على الهجرة الواسعة خارج الجنوب ويعكس فى آن معا .

وهكذا كان ، للهجرة تأثير مهم على الاقتصاد السياسى ، وفى حالة الهند كانت الهجرة وخاصة هجرة الجنوبيين – كما رأينا – متعددة الاتجاهات ، فالجنوب يظل محتفظا بالكثير من سكانه ، ولكن حالة المكسيك على النقيض تتسم بأن معظم الهجرة الجنوبية تحرك فى إتجاه واحد فقط ، من الجنوب إلى الولايات المتحدة أو مكسيكو سيتى ،. وكلما امتصت مكسيكو سيتى قدرا متعاظما باستمرار من سكان الريف

الجنوبيين صارت أكثر « جنوبية » من العواصم الأخرى التى ناقشناها فى هذا الكتاب، مثل : روما ونيودلهى ، فهل هى فى طريقها لتصير مدينة جنوبية ؟ لقد كانت منذ مائة عام عاصمة الثقافة الوضعية العلمية المرتبطة على نحو دقيق بالشمال ، وهى تحوى اليوم الكثير من الفزعة التقليدية الرومانسية والكوزموبوليتانية المرتبطة بأى عاصمة جنوبية(٥) . واليوم تكاد النزعة الوضعية الغليظة المتفائلة أن تنقضى ، ويبدو الليبراليون مكتئبين فقد صار التاريخ بالنسبة إليهم متاهة ، ولم يعد خطا مستقيماً .

وهناك عنصر رئيسى آخر فى نموذج « الطريق الإيطالى » ، هو النظام الحزبى ففى أشكال حكم الطريق الإيطالى يكون النظام الحزبى واحدا ، مبنياً على حزب مفرد مسيطر ممتد على الشمال والجنوب . وفى المكسيك كان الحزب الثورى PRI هو الحزب الذى ظل مسيطرا زمنا طويلا . ولكنه فى السنوات الأخيرة، ظل يفقد الأرض باطراد . فهل سيلقى مصير حزب المؤتمر فى الهند ؟ وكيف يستطيع أن يظل موحدا مع أن الطبقة الحاكمة الشمالية تطابق بين نفسها وبين الديموقراطية ، أى الديموقراطية الأوربية أو ديمقراطية الولايات المتحدة ، على حين أن الطبقة الحاكمة الجنوبية تطابق بين نفسها وبين أوربا الكاثوليكية ، معتقدة أنها طائفة أسبانية نقية فى مجتمع مختلط الدم وشعب هندى ؟ وإلى أى مدى يستطيع الحزب مواصلة التصريح بأن عدد الهنود يتناقض بعد أن أصبحوا هجناء؟ حينما يعرف كل من يفهم أنماط الزواج أن الحقيقة غير ذلك ، فإن من يتزوجان لابد أن يريدا الكلام بنفس اللغة ، وأن يأكلا نفس الطعام . ومن النادر أن تصلح قشرة من الثقافة المكسيكية للتغلب على المسافة بين الفلاح الهندى والمواطن المكسيكى . فالفلاح المكسيكى مثل الفلاحين فى كل مكان يحيا فى عالم ، بينما يحيا المواطن المكسيكى فى عالم آخر . فإذا كان الفلاح يواصل البقاء بواسطة تفادى الضرائب والتجنيد والنظام القانونى والثقافة القومية التى يمثلها الحزب الثورى ، فإن تلك المهارات نفسها تجعل منه مشكلة تواجه المواطنين ، الذين هم جزء من النظام الطبقى ، ، والذين هم فى وضع يمكنهم من الاستفادة من الخضوع لهذه المؤسسات الرسمية .

وعلى حين استطاع الحكام فى إيطاليا أن يفرقوا بوضوح بين الطبقة العاملة والفلاحين وكانت النتيجة دولة رفاهية هادئة ، وعاصمة جنوبية آمنة مستقرة ، فإن حكام المكسيك كانت تنقصهم القدرة . فالهجرة إلى الداخل تؤدى إلى صراعات

سياسية تمتلك إمكانات توحيد العمال والفلاحين وتظل الطبقة الحاكمة ممسكة بزمام الأمور ولكن تعانى من الأزمة ، وتبدو فى طريقها إلى فقدان السيطرة على رأسمالها القومى كما حدث فى البرازيل وفى يأسها تغامر برهن قوتها العاملة إلى رأسمالية أمريكا الشمالية من خلال مخطط يسمى الطريق السريع .

تفسير تاريخ المكسيك على أساس « الطريق الإيطالى » هو افتراض جديد ولد فى الثمانينيات . وما كان ليجد مبررا للقبول فى فترة تسبق ذلك بكثير ، إذا أخذنا فى الاعتبار المعرفة السائدة عن التاريخ الإقليمي للمكسيك أو الافتراضات السائدة حينئذ عن فكرة الدولة كعنصر فاعل فى العملية السياسية ، أو حتى إذا أخذنا فى الاعتبار الافتراضات السائدة عن الهنود كجزء من التاريخ الماضى أو الحاضر . وحتى الثمانينات على أقل تقدير كان لليبرالية أو لصيغة منها فى مدرسة التبعية شرعية واسعة ، فإذا كانت التنمية فاشلة فى المكسيك ، فإن ذلك نتيجة لإمبريالية الولايات المتحدة ، وهو شئ تقف أمامه النخب المكسيكية عاجزة .

ومع نمو الدراسات الإقليمية ، نما تقييم جديد لدور وأهمية الطبقات الحاكمة المحلية والسياسة المحلية والثقافة المحلية ودور الدولة المركزية بوصفها عنصرا فاعلا على المستوى المحلى ، كما هى على المستوى القومى . إن التأثير الأمريكى شئ يظن الكتاب الآن أن الدولة تستدعيه على نحو انتقائى ، فإذا كانت الدولة تسمح للأمريكيين الشماليين بفرصة لاستغلال قطاعات من الاقتصاد ، فهناك حتى الآن منطق محدد لذلك . أليس واقع الأمر أن أعدادا كبيرة من المكسيكيين المستائين نلوم أمريكا الشمالية على ما آلت إليه الأحوال بدلا من أن تلوم الطبقة الحاكمة المكسيكية ؟

وعلى حين أن سنة ١٨٧٦ بوصفها نقطة انطلاق لدراسة التاريخ المكسيكى الحديث ، كانت وظلت جزءا من النموذج السائد زمنا طويلا ، قد تفوقت تدريجيا على الثورة المكسيكية ، فإن ما يبدو من منظور الطريق الإيطالى هو أن السنة الصحيحة قد اختيرت لأسباب خاطئة فما ينقص النموذج السائد هو دور الجنوب والسكان الهنود كأجزاء فعالة فى التاريخ القومى . ونتيجة لذلك ، تصلح سنة ١٨٧٦ حدا زمنيا فى التاريخ السياسى ، ميلاد عهد بورفيريو Porfirio لا ميلاد دينامية اجتماعية جديدة وعموما كان بورفيريو ديات Diay مجرد حاكم مطلق جنوبى فى قالبه النموذجى ،

وكان نظامه من حيث الجوهر نقيضاً لقيم الحداثة ، وكانت تلك وجهة نظر الكثير من المؤرخين قبل ١٩٦٨ على أقل تقدير وبعد هذه السنة كان كثير من المؤرخين ، ومن المثقفين على وجه العموم قد فت فى عضدهم أن الحكم المطلق نفسه صار مقبولا[٦] ، وعلى كل بدأت اليوم مسوغات القبول بعام ١٩٧٦ باعتبارها سنة ميلاد ديناميه اجتماعية جديدة تأخذ مكانها الصحيح بصورة أكثر إيجابية . ونجد على سبيل المثال - كتابا مدرسيا فى التاريخ المكسيكى يوازى بين الأزتك وإيطالى عصر النهضة ، ويتضمن ذلك أن السكان الهنود فى العالم الجديد يتعين قبولهم الآن بوصفهم جزءا من التاريخ المقارن للعالم ومنذ سنوات قليلة فقط كان هنود العالم الجديد خارج التاريخ إلى حين أن أصبحوا مكسيكيين ، فالمدى المسموح به لنزعة المقارنة بالنسبة إلى المكسيك محدود بالعالم الأسبانى[٧] ، ولم يعد الأمر كذلك اليوم .

وفى المحل الثانى ، نجد جرامشى يستخدم كمنظر فى دراسة التاريخ المكسيكية[٨] . وفى المحل الثالث نجد تطورات داخل نطاق الماركسية والليبرالية تتجه نحو أن تكون دعامة مشجعة فى دراسات التطور الرأسمالى ودراسات عن البورجوازية[٩] ، وعن الطبقة العاملة والفلاحين مثلا[١٠] وفى نفس الوقت يقوم الليبراليون بدراسات جديدة عن نزعة الانتماء إلى السكان الأصليين[١١] .

وإيجازاً لما سبق ، فإن ما جعل المكسيك تسير فى « الطريق الإيطالى » بهذا القدر يجب تفسيره من خلال سلسلة من الخيارات المعنية ، التى كان على الكنيسة والدولة تحديدها ، فحتى تحافظ القيادات الكنسية على سلطتها كانت مضطرة لمساندة مالك الأرض ضد الهندى أو قبول المخاطرة بقيام نظام معاد للكنيسة مثل نظام كاردناس Cardenas ، وبذلك كان على القيادات الكنسية أن تظل كريولية Crio-lilst (ينتمى إلى الجنس الأوربى) متجاهلة الولاء العرقى الفعلى للهنود فى الجنوب من ناحية قابلة بعدم الاكتراث بالدين لدى جمهور أنصارها المفضل فى الشمال والمكون من الطبقة الوسطى وطبقة ملاك الأرض ، من ناحية أخرى[١٢] . وفى غضون ذلك كان على الحزب لكى يحتفظ بسلطته أن يكون براجماتيا . لقد كانت النزعه الهجينية Mestizoism مفيدة لإبراز صورة تقدمية للحزب ، فإذا رفض الجناح الجنوبى

للحزب الهجينية ، كانت نزعة الانتماء الوطنى ملاذا ضروريا ، وتشكل هذه التوليفة من الشمال والجنوب أساس الاقتصاد السياسى الذى نبدأ الآن فى تناوله .

الاقتصاد السياسى للمكسيك الحديثة

فى عام ١٨٧٦ ، حينما عاد نيتو خواريث Benito Guarag إلى مكسيكو سيتى ونفذ حكم الإعدام فى الإمبراطور مكسميليان Maxamillian بزغت دولة المكسيك الحديثة ، وقد أخذت شكلا ليبراليا من هذه اللحظة حتى عام ١٩٣٤ ، وهى السنة التى ظهرت فيها النزعة الاندماجية Corpar atism فى شكل نظام الاشتراكية الدولية يقوده لاثارو كارديناس Laz ars Cardenas وابتداء من عام ١٩٤٠ ، وهو تاريخ تولى أفيلا كاما شو Avila Cam acho منصب الرئاسة عاودت الليبرالية الظهور ، وسادت المكسيك حتى يومنا الحاضر .

وفى سنة ١٨٧٦ ، كانت المكسيك أرضا ذات إمكانات زراعية غنية وثروة معدنية ، ولكن بنيتها الأساسية كانت محدودة . وكما كانت الحال فى الهند ، كان تطور الرأسمالية فى المكسيك يؤدى إلى نمو سريع فى السكك الحديدية ، وقد سهل ذلك بدوره تطور اقتصاد متجه إلى التصدير وفى أعقابه تكوين طبقة عمالية . وقد ازداد طول خطوط السكك الحديدية من ٦٦٦ من الكيلو مترات سنة ١٨٧٦ إلى ٢٠٠٠٠ من الكيلو مترات سنة ١٩١٠ ، ومع انتشار السكك الحديدية جاءت أيضا ثورة فى المواصلات كالتلغراف على سبيل المثال ، وأعقب تطور نظام حديث للمواصلات تطور أوسع قاعدة للبنية الأساسية . وبحدوث ذلك اكتسبت الدولة القدرة على السيطرة على مساحات متزايدة الاتساع من البلاد ، فتم قمع قطاع الطرق ، وتشييد مراكز حضرية حول محطات السكك الحديدية ، وجاء الاستثمار الأجنبى فى أعقاب ذلك ، ومع تدفق العملة الذى صاحب هذا الاستثمار ، أصبح التغير الاجتماعى ملحوظا . فعائلات الكلوديلر Cau dillo أو عائلات الزعامة التى تمتلك بعض المال للبدء ، جمعت الآن ملكية ضخمة . وكان امتلاك عائلات قليلة العدد لوسائل الإنتاج بارزا على وجه الخصوص فى الجنوب ،

وفى القطاعات الرئيسية للاقتصاد ، مثل الأرض والنسيج والمناجم[١٣] ، وكان هذا الاتجاه نحو تركيز الثروة هو الذى قدم الدافع إلى الهجرة الداخلية .

وقد دفع وصول بورفيريو دياث (١٨٧٦ – ١٨٨٠ ، ١٨٨٤ –١٩١١) إلى السلطة ببطل إقليمى إلى البروز علي النطاق القومى [١٤] ، وكما جرت العادة فى تلك الفترة اعتمد دياث أولا على عدد من أولئك القريبين منه القادمين من إقليمه ، الذى كان فى « الجنوب » ويجب أن نلاحظ كذلك أن دياث واصل القاء سنوات طويلة فى /حياة المكسيك ولا يوجد فى كتابنا هذا نظائر له . فالراج (الحكم البريطانى) فى الهند وحركة التوحيد فى إيطاليا أدخلا تغيرات أدت بسرعة أكبر إلى الاحتجاج وإلى التحول السياسى .

وكان دياث شخصية غير عادية بطريقة أخرى عند المقارنة بمعاصريه فى المكسيك وإيطاليا والهند ، فقد عهد إلي زوجته كارمليتا Carelita بالقيام بأدوار كثيرة ، وبعض هذه الأدوار كان سياسيا واحتفاليا وبعضها الآخر كان يقترب من الدبلوماسية . وأهم شئ فى كل ذلك أن كارمليتا احتفظت بعلاقات طيبة مع القيادات الكنسية ، وقد أطال ذلك دون شك عهد دياث عن طريق تمييع بعض المعارضة الطبيعية من جانب الكنيسة لأى شكل للحكم ينتمى إلي العصر الليبرالى .

فهل كان دياث شديد الاختلاف عن السياسيين الذين جاءوا بعده ؟ هذا هو الافتراض الشائع فى الدراسات التاريخية التقليدى ، فقد كان دياث دكتاتورا ، أما الحكام اللاحقون فلم يكونوا كذلك . وتجعل الدراسات الأحدث الصورة أكثر رمادية . فعلى حين كانت الصورة الشخصية لدياث صورة ديكتاتورية ، وأكثر اتصافا بذلك من صور الآخرين كان فى الممارسة قد ترك الكثير من عملية اتخاذ القرارات فى أيدى تابعية ، مما يوحى بأنه لم يكن شديد الدكتاتورية كما كانت السمة المميزة لدياث هى الاعتماد على قالب نمطى جامد عن الجنوبيين مهارته فى المصالحة داخل الكواليس بين العائلات المحلية القومية ، وزعماء القبائل فى المكسيك ، وكان ذلك ، بدوره ممكنا بفضل الصلات الشخصية الواسعة فيما بينهم . وفى واقع الأمر ، قد يؤدى تحليل بنيوى لنظامه بسهولة إلى استنتاج أنه أوجد نظاماً بدائيا للحزب الواحد يتألف من دائرة خارجية من المتصلين ودائرة داخلية من أهل الثقة .

فمن هم رجال حلقته الداخلية الثقاة فى البداية لا جدال فى الأهمية الكبيرة لوزير ماليته خوسيه إيفيس ليما نتورGore Yneo Limantour ، ورئيس وزرائه روسندو بيندا Rosends Pinede وقد اتخذ ليمانتور قرارات فنية ربما لم يفهمها فى هذه الفترة الأقليون . كما اتخذ بيندا كرئيس للوزارى قرارات كثيرة تتعلق بالخيارات الشخصية وبالإجراءات التى لها نتائج بعيدة المدى ،وهناك شخصيتان أخريان كان دياث وثيق الصلة ، وفوض إليها جانبا كبيرا من المسئولية الأولى شخصية المؤرخ والصحفى جستو سييرا Gusto Sierra ، وكانت صحيفته الحرية La Librted لسان حال الحكومة ومشكلة للرأى العام ، والثانية شخصية بواكين يواكيم بارندا Go a qiun barande (١٨٨٢ – ١٩٩٠) وزير العدل ، وكانت سلطته واسعة وقد لاحظ دارسو هذه المجموعة أن المشترك بينهم أنهم جميعا جنوبيون ، علي حين أنه بالمقابل كانت عضوية الحزب الجمهورى اللاحق يغلب عليها الشماليون أكثر من الجنوبيين . ولكن دياث كما تكشف النظرة عن كثب لم يكن أسيرا للجنوب . فقد فتح نظامه الطريق لرجال شماليين مهمين مثل رامون كورال Romon Coral للوصول إلى القمة . وفى الحقيقة ، لقد رعى دياث المسار السياسى لكورال مما أثار دهشة الرأى العام فى أغلب الأحوال ففى عام ١٩٠٤ – على سبيل المثال عين دياث كورال نائبا لرئيس الجمهورية . وفى ١٩١٠ عين دياث مليونير «نشهواهوا» إنريك كريل Enrique Creel ليكون سفيراً فى الولايات المتحدة كما شغل الشماليون أعلى المناصب فى الجيش ، وكانوا أهم الرأسماليين المحليين[١٥] .

ولكن ، ألم يكن دياث معوقا لتطور الشمال ؟ إن التفسيرات المعترف بها لدياث تذكر فتراته باعتبارها فترة تأخير لتطور الطبقة الوسطى ، وهى الطبقة التى تعتبر حاسمة فى ازدهار الشمال . ولكن النظر إلى الأمر فى ضوء مقارن يكشف أنه بغرض صواب تلك الفكرة ، فإنها ليست شديدة الأهمية . فلم يكن فى المكسيك ، ولا إيطاليا ولا الهند ، طبقة وسطى شمالية كبيرة ، حتى وقت متأخر من القرن[١٦] .

وحتى نرى فى فترة حكم دياث ميلادا للمكسيك الحديثة يجب أن نضع فى اعتبارنا تناول القانون . فالقانون المكسيكى بعد عام ١٨٦٧ يكشف بوضوح لوارسى تاريخه جوانب مهمة من نشأة دولة قومية صاحبها انتشار الرأسمالية . فالقانون أثناء

عهد بورفيريو وازن بين حاجات الجناحين الشمالى والجنوبى للطبقة الحاكمة ، مدافعا عن الملكية الخاصة للأرض ، حتى أرض الملاك الغائبين ، على حين أنه كان يدعم مركزية السلطة الإدارية للدولة .

وكان بين أهم أمثلة التشريع التى تسهل نمو الرأسمالية أثناء عهد بورفيريو ما يسمى قوانين الاستيطان » (١٨٧٥ ، ١٨٨٣ ، ١٨٨٩) وهى قوانين تخول لشركات المسح أن تفحص متطلبات الأراضى مما يسهل مصادرتها ، وتنمية نزعة امتلاك العزب الواسعة Latifundism وواجه الهنود الذين قاوموا قوانين الاستيطان قانوناً رهيباً طالما استخدمته الشرطة الريفية لإطلاق الرصاص على المحكوم عليهم استنادا إلى مبررات غالبا ما تكون كاذبة تزعم أنهم حاولوا الفرار . وبحلول سنة ١٩١٠ ، أصبح ثمانون بالمائة من مزارعى المكسيك معدمين وسيطرت ثلاث آلاف عائلة على معظم الأرض(١٧) . لقد أدت قوانين الاستيطان وظيفتها .

ومن بين الأمثلة الأخرى للتشريعات التى صدرت فى عهد بورفيريو قوانين تسهل المركزية السياسية والإدارية . وهنا يجدر بنا ملاحظة نقص القوانين الأقدم عهدا الخاصة بعدم إعادة الانتخاب وصدور قانون حديث للرخص وتجميع القانون العسكرى ، وقانون للمياه وإلغاء امتيازات الولايات فى إصدار طوابعها الخاصة . وأخيرا إقرار قانون تجارى موحد وهو قانون تمت صياغته على نمط نظيره الإيطالى فى نفس الفترة .

وتبدو هذه القوانين فى مجملها قانونيا للدولة الحديثة وإذا نظرنا إليها عن كثب ، نجدا أن دستور ١٩١٧ الذى كان مثار تعليقات كثيرة أقرب إلى أن يكون لحظة تدعيم الماضى وليس قطيعة معه ، وحتى القضايا التى يثيرها تعد جديدة من حيث موضوعاتها مثل النفط أو علمنة التعليم يمكن اعتبارها منبثقة عن منطق مجموعة القوانين القائمة .

وكلما واصل الشمال النهوض ، واصل ببساطة عملية تدعيم سلطته . فقد صدر عام ١٩١٧ قانون علاقات الأسرة الذى يقضى بأن للرجال والنساء حقوقا متساوية فى البيت ، ويجعل الطلاق مسموحاً به . وفى نفس السنة أيضا صدر قانون العمل داعيا إلى حد أدنى للأجور وحد أقصى لساعات العمل ولإقامة محكمة تحكيم مجالس توفيق للتعامل مع منازعات العمل . وعلى حين كانت هذه القوانين مثل الدستور نفسه بارزة الأهمية بوصفها توضيحا أو توسيعا لقوانين أسبق . فإن الأمر الأكثر أهمية هو أن كل

نموذج من هذه النماذج التشريعية كان مبنيا على سوابق يبدو معظمها راجعا إلى أيام بورفيريو . وكان الشئ الوحيد الجديد فعلا هو العودة إلى ما كان معمولا به من قبل من تحديد لمدة الرئاسة .

ومنذ عهد بورفيريو حتى اليوم لم يلعب النظام القانونى وحده دورا هاما فى الاقتصاد السياسى ، بل مشاركته الكنيسة الكاثوليكية المكسيكية . ووفقا للتفسير الشائع عن علاقات الكنيسة بالدولة ، فإن بورفيريو دياث الذى وصل ذات مرة إلى درجة المعلم الأعظم لحركة الماسونية . استطاع الوصول إلى السلطة بفضل زوجته بمساعدة الكنيسة المكسيكية ، وفى مقابل ذلك أبطل العمل بالقوانين المعادية للكنيسة المنتسبة إلى فترة الإصلاح ، أو سمح بتفسيرها تبعاً للمفهوم المحلى على أقل تقدير، وبعد الخراب الاقتصادى للكنيسة عام ١٨٧٠ وصلت إلى أن تسيطر على عشر ثروة المكسيك عام ١٩١٠ . وما تزال ثروتها اليوم هائلة .

ومما أرعب الليبراليين كثيرا أن دياث لم يفعل قط الكثير للسيطرة على الكنيسة فالكنيسة كانت تسيطر على نظام التعليم وبدا أن دياث قد استسلم لذلك وكان الأمر المهم لديه هو الولاء السياسى . فقد أصر على أن تكون الكنيسة المكسيكية كنيسة قومية تناوئ التدخل البابوى ولما كان لرجال الدين مصلحة كبرى فى استمرار النظام ، فقد أذعنت الكنيسة لمطالب دياث حينما أعلنها .

وفى فترة الثورة ، لحق بوضع الكنيسة هبوط حاد مؤقت دفع بعض المفسرين إلى تعريف الهيمنة فى المكسيك بأنها علمانية الطابع ، وأنا أقصد هنا المفسرين الذين يعتبرون الثورة المكسيكية بداية التاريخ الحديث ، ولكن النظرة البعيدة المدى إلى الهيمنة المكسيكية تكشف أن هذا الافتراض لا مبرر له ، وبينما من الصواب القول إنه أثناء سنوات الثورة حينما ساند رجال الدين فكتوريانو هويرتا Victoriano ضد الليبرالى الدستورى فنستيانو كارانثا Venustiuno Carranza قد ألحق ذلك بهم كثيرا من النكسات . وعلى أية حال – فكما لاحظنا سابقا – فإن أسرة سونوران الحاكمة sonoran بمجرد أن استقرت فى الحكم فى السنوات التالية ، رفضت تنفيذ المواد المعادية لرجال الدين فى دستور ١٩١٧ ، وأصبح ذلك على الرغم من بعض الاستثناءات

هو النموذج لما كانت الحال فى عهد بوفيريو . ومنذ ذلك الحين كلما مالت الدولة نحو معاداة رجال الدين كانت الكنيسة أكثر من قادرة على أن ترد الضربة بطريقتها الخاصة . وعلى سبيل المثال فى عام ١٩٢٦ أثناء رئاسة كاليس Calles حينما شرعت الدولة فى تأميم الملكية التى اعتقدت الكنيسة أنها من حقها شرعا ، أدى ذلك إلى بداية ثورة طويلة المدى(١٨) .

بيد أن سمة أخرى لعهد بورفيريو واصلت البقاء حتى يومنا الحاضر ، هى المجتمع المدنى . ولايولى معظم المعلقين إلا إهتماما ضئيلاً به أثناء عهد بورفيريو ، لأن الصورة السائدة للفترة هى صورة نظام دكتاتورى ، وعلى الرغم من ذلك فالمجتمع المدنى كان مهما فى ذلك الوقت وخاصة لدى الشماليين .

وعلى سبيل المثال ، فقد تمتع الصحفى الفوضوى الشهير ريكاردو فلوريس ماجون Ricardo Fores Magon بحماية قانونية كافية الديموقراطى ، لكى يعمل فى هيئة تحرير جريدة معارضة معروفة هى الديمقراطى EL - Democrata . وعلى حين كان الكثير من الشواهد فى الدراسات الأقدم على المعارضة السائدة القانونية منحصرة فى مكسيكو سيتى ، بدا بعضها يظهر الآن بالنسبة إلى مدن شمالية أخرى أيضا . وعلى سبيل المثال فقد ازدهر فى سان لويس بوتوس San luis potosi فى التسعينات من القرن التاسع عشر ناد لليبراليين حول كاميليو أرياجا Camilia Ariaga ، وهو صاحب منجم محلى وتشير دراسة حديثة إلى احتمال وجود المزيد من هذه النوادى(١٩) وعلى حين كانت الديمقراطى EL - Dwmicrata صحيفة معدودة ، فإنها لم تكن إطلاقا أول صحيفة تزدهر فى المكسيك من داخل المجتمع المدنى . وفى الواقع كان الرديكاليون ، ابتداء من السبعينات المبكرة ، ينشرون الصحف فى مكسيكو سيتى ويوزعونها هناك بدرجة كبيرة من الحرية وبدون وجود المجتمع المدنى . يبدو من المعقول افتراض أن لا شئ كان سيحمى حرية التعبير عند محرريها . وبالإضافة إلى ذلك ، لعب الراديكاليون بين ١٨٧٦ و ١٨٨٢ دورا فى مؤتمرات العمال . وعلى سبيل المثال ، ظهرت سواليدادسوسا Soledod Sose وهى فوضوية فى تلك الفترة باعتبارها أول امرأة تشترك فى القيادة العمالية الصناعية والحضرية .

وفى واقع الأمر بلغت قوة المجتمع المدنى والحكم بالقانون درجة جعلت أنه على الرغم من أن الدولة ناهضت الراديكالية ، إلا أن مناهضة الدولة هذه أثناء فترة دياث ظلت عموما مقيدة بالقانون والمجتمع المدنى . وحينما تدخل دياث فى السياسة العمالية فى الشمال كان مضطرا للقيام بذلك بطريقة قانونية . وكان دياث قادرا – بالاعتماد على شعبيته الشخصية – على اجتذاب عدد كاف من العمال لكى يقيم اتحادا مشايعا للحكومة يشجع المستثمرين الأجانب ويفوض قوة النقابات الأكثر فوضوية ومعادادة للدولة[٢٠]. ومع مرور السنين استمرت تلك الاتجاهات .

وفى عام ١٩١٦ شعر كارانثا Carranza فى كويرتياروا Queretare وهو السياسى الليبرالى البارز لتلك الفترة أنه مضطر للاعتراف بالحقوق القانونية للمزارع الصغير فى أن يمتلك أرضا تكفى لمعيشته . وتلك نقلة حصيفة عملت دون شك على إطالة العهد الليبرالى[٢١] . ولكن على النقيض من ذلك فى الجنوب كان لفرص القانون تأثير رادايكاليا على الفلاحين هناك . وفى السنوات الأولى من هذا القرن كان من الواضح أن معظم الجنوبيين قد تحققوا من أنهم يعتمدون على أنفسهم ، دون حماية من النظام كما هو معروف فى الشمال ، وكان هذا الإدراك هو الذى أعطى لزاباتا وحركته أهمية ضخمة فى التاريخ المكسيكى .

ولو كان تحدى زباتا كما يزعم الليبراليون تحديا من جانب شخصية فذة لما بلغ قدره ما يزيد على هامش في كتاب للتاريخ . ولكن زباتا لم يكن متفردا إلى هذه الدرجة أو استثنائيا حتى باعتباره فاشلا، فهو ما يزال مفتاحا لكيف يمكن للنضال المضاد للهيمنة أن ينطق ؟ وبطبيعة الحال ، فإن الليبراليين محقون فى الإشارة إلى أنه فى زمن تحدى زباتا كانت الصناعة المكسيكية تربح من الحرب العالمية الأولى ، وهى بذلك كانت تعمق الفواصل بين عمال الشمال الصناعيين وعمال الزراعة الجنوبيين ، مما جعل مهمة زاباتا أكثر صعوبة بدرجة كبيرة . ويصدق الشئ نفسه على تشابك الاقتصاد المكسيكى مع اقتصاد الولايات المتحدة . ولكن هل يضيف ذلك الكثير إلى استنتاج أن زاباتا كان شخصية استثنائية وإن جاءت متأخرة ؟ وهل الآخرون الذين يصرون على أنه بهزيمة زاباتا « عُوِّقت » الثورة ، أم كانوا أكثر دقة ؟ وماذا أعطت الثورة فى خاتمة

المطاف للجنوب ؟ ألا ينبغى على المرء من الناحية المنطقية أن يتوقع اندلاع انتفاضات متصلة ؟ فما الذى يخشى الجنوبيون فقده ؟[٢٢] .

ومع هزيمة الجنوب فعليا ، ومع تهميش بانشو فيلا Pancho Villa اختارت عائلة سونوران الحاكمة التى وصلت إلي السلطة ، والتى كانت ذات توجه علمانى ، أن تستغل السنوات القليلة التالية فى احتواء الكنيسة . ولكن المحاولة أتت بنتائج عكسية وأثبت فى النهاية بطلانها حينما بدأ العهد الليبرالى ككل فى الانهيار وفى البداية بزغت حركة كرسيترو Cristero . وقد بلغت هذه الحركة من الضراوة حدا جعلها توقع الجيش الاتحادى فى مأزق على نحو فعال طوال سنوات ، وكلما انتشرت – وقد انتشرت فى الواقع – أصبحت شديدة الشبه بحركة زاباتا التى بثت الرعب فى القلوب .

وبينما كانت مواجهة الدولة لهذه الحركة تمضى متباطئة ، وقع الكساد الكبير فى عام ١٩٢٩ فجأة . فطالب الفلاحون الذين كادوا يموتون جوعا بإعادة توزيع الأرض لا مجرد فرض الحراسة عليها ، وانبثقت النقابات العمالية بوصفها قوة ذات نفوذ . وقد لقى واحد من أشهر قادتها هو فيسنتى لومباردو توليدانو Vicente Lonleordo Tole-deno تأييدا لحركته فى المناطق الريفية والحضرية على السواء ، وشرع فى انتهاج استراتيجية لا تختلف عن استراتيچية جرامشى الخاصة بمجالس المصانع فى مدينة تورين الإيطالية . وكان هذا الضغط من جانب الأزمة الاقتصادية والنضال ضد الدولة هو الذى جاء بكارديناس Cordenas إلى السلطة عام ١٩٣٤ متغلبا على كاليس الذى كان ما يزال راغبا فى توطيد سيطرته .

الإدماجية فى المكسيك – سنوات كارديناس فى الثلاثينيات . ونتيجتها الليبرالية الجديدة [٢٤] . فى حالة المكسيك ، جاء الجناح اليسارى أو بعبارة أدق جاءت صيغة اشتراكية الدولة الإدماجية إلى السلطة . ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة عوامل أولها ، الطبيعة الشعبية لحركة كريستيرو التى أرعبت طبقة ملاك الأراضى وثانيهما ، اضطرار الدولة نفسها إلى الاعتراف عندئذ بإمكانية أن تحقق الطبقة العاملة التحالف الشمالى – الجنوبى الذى فشل كل من زاباتا وبانشو فيلا فى إقامته وثالثها ، دور الكنيسة . فالكنيسة فى المكسيك كان من الممكن أن تدفع الأمور فى اتجاه الفاشية باعتبارها مفضلة لديها بالقياس إلى اشتراكية الدولة . ولكن عندما حسمت أمرها فى

اللحظة الحاسمة بدت لها الفاشية فجأة ضربا من المخاطرة ، وكان الفلاحون يستولون على الأرض باسم الكنيسة ولم يكن لدى القيادات الكنيسة القدرة على إيقافهم[٢٥] وهكذا كان تأييد العمال أكثر أمانا من تأييد الفلاحين وبعد سنوات قليلة أنقضى تهديد كريستيرو ، وأعادت الكنيسة التفكير فى موقفها ، وتحولت ضد كارديناس وإشتراكية الدولة .

إن النظام الإدماجى يعتمد على الإدماج السياسى ، وحينما وصل كارديناس إلى السلطة فى المكسيك أبدى مهارة وعزما كبيرين فى إدماج مجموعات متباينة فى الدولة . وقد أعلن للشعب المكسيكى أن دوره هو مواصلة الثورة المكسيكية ، فقد كانت ذكرى الثورة هى أداة الإدماج وكانت تلك طريقة حاذقة فى إضفاء الشرعية على تحالفه .

لقد بدأ كارديناس بحلقة ضمت معارفه الذين ينتمون إلى الولاية التى جاء منها ، ميتشوا كان Michoacan ، وأضاف إليها تحالفات من صفوف النقابات والتنظيمات الموازنة للدولة وفى كل مكان اتجه إليه وخاصة الشمال - كان يعثر على موهبة . ومن ولايته جاءت الشخصية السياسية الملتزمة بشكل خاص للجنرال فرانسيسكو موجيكا Fraciso J. Mugica الذى أصبح وزيره للمواصلات والأشغال العمومية[٢٦] . وقد سعى كارديناس كذلك إلى دعم الحركات النسائية له واستطاع الحصول عليه . وقد حقق ذلك بمبادرته إلى تحدى الإيديولوجية التقليدية الخاصة ببيت الأسرة عند الفترة الليبرالية الأولى ، بفتح باب التوظف أمام النساء . ومن الخطأ - كما ذكرنا من قبل - أن نفسر ذلك بإعتباره موقفا ثوريا ، ومن الأصوب القول بأنه يلائم استراتيجيته الأساسية المتعلقة بالإتجاه نحو المواطنين المكسيكيين . ولكن مهما يكن التفسير الذى يقدمه المرء لدوافعه ، فقد حصل فى سنواته الأولى على تأييد جماهيرى ، كما صار القطاع العام مستخدما ضخما للنساء[٢٧] . وليس من المثير للدهشة أن الكنيسة حاربت هذا التغير فى الهيمنة المكسيكية ، فهى لم تستفد منه ، وقد شنت حربها بإنشاء حركة نسائية كاثوليكية منفصلة ، وبقيادة مسيرات احتجاج جماهيرية ضد الحكومة ، ويتبين من ذلك أن سياسة كارديناس لم تكن بلا مخاطر . فقد كان عليه أن يواجه كلا من معارضة الكنيسة ، ومعارضة عناصر فى صفوفه المباشرة مثل الحركة النقابية العمالية ، كما كانت سياسته مهددة أيضا من جانب حركة تحرير المرأة ،

فتحقيق المساواة فى الحقوق بين الذكور والإناث كان قضية استطاع استخدامها إلى حد معين ، فجعل تحرير المرأة جزءا رئيسا من نضالة السياسى لم يكن أمرا واردا .

وحينما كان كارديناس يدافع عن حق المرأة فى التصويت والترشيح باعتباره جزءا من الثورة المكسيكية ، وقف ضده المحافظون التقليديون بعنف ملتفين حول ساترنينو سيد Saturnino Cedillo وزير الحرب ، وبورتيس جيل Portes Gil عضو اللجنة التنفيذية القومية ، متحججين بأن منحا سابقا لأوانه لحق التصويت والترشيح للمرأة قد يؤدى إلى مأساة أخرى مثل « أسبانيا » ، ويمكن أن نلاحظ هنا أنه فى أعقاب سقوط الإدماجية حلت الدولة حركة المرأة التابعة لكارديناس ، وحولتها إلى ماسمى بـ « لجنة التسوية الفنية » (١٩٤٦) ، ولكنها وافقت فى هدوء على حق التصويت والترشيح على مستوى الانتخابات البلدية وذلك فى الشمال أساسا[٢٩] مرة أخرى .

ومثل سائر الحكام ، لم يكن كارديناس فى حاجة إلى إقامة تحالفات تكتيكية نوعية فحسب ،،مثل حركة المرأة لبناء سلطته وتدعيمها ، ولكنه كان أيضا فى حاجة إلى تأييد أوسع وأكثر انتشارا فى المجتمع لبرنامجه ، بوصفه برنامجا تقليديا لتحقيق هذا الغرض بالأسبان اللاجئين من الحرب الأهلية الأسبانية الذين كانوا متعاطفين مع برامجه ، وكانوا نتاجا للتقليد الأدبى الفنى الذى يلقى احتراما كبيرا فى المكسيك .

كما خدم نظامه عدد من كبار الباحثين مثل المؤرخ رامون إجليزياس Ramon Igiesius والكاتب فكتور أليا victar Allea والمعقب الاجتماعى سلفادور دى مادر ياجا Salvador de Madariaga[٣٠] ولكنهم أخفقوا جميعاً فى تحقيق الوظيفة الايديولوجية التى كان يحتاجها كارديناس ، وقد أفلحت الكنيسة المكسيكية فى تصويرهم باعتبارهم يساريين ، وفى تجاهلهم باعتبارهم أسبان . ويمكن القول إنه على الرغم من التنازلات لقطاعات بين الجماعة الفنية ، كانت الإدماجية عند رديناس تفتقر عامة إلي المثقفين المرموقين ، وكانت تلك مشكلة كبرى أمامها . وقد شجعت تلك الحقيقة خصوم كارديناس الذبن بادروا للوقوف ضده على نحو متزايد ، مستغلين فى ذلك وسائل الإعلام فى تلك الفترة مثل صحيفتى الاكسلسيور Excelsior واليونيفرسال Universal للتعبير عن النقد .

ولكن ، كيف أسقط كاردبناس النظام الادماجى ؟ إن الانتقال من مناقشة وجود منتقدين إلى تفسير لسقوط كاردبناس يتطلب منا ابتداء أن نلقى نظرة تفصيلية إلى علاقة كاردبناس بقاعدته الجماهيرية . وعموما إذا كان أحد السياسيين بدعم العمال ألا ينبغى للمرء أن يفترض أن ذلك سوف يقوى مركزه بدرجة كبيرة داخل بلد عمالى ؟ هل كان - كما يزعم بعض المعلقين - سجينا لقوانين عدم إعادة الانتخاب الصادرة ١٩٤٠ ؟ وبالنسبة للنقطة الأولى تتعلق الإجابة بمعنى كلمة « يدعم » ، فلكى يدعم كاردبناس العمال بشروطه اضطر إلى إدماجهم فى الدولة . وقد فعل ذلك ، وكان مضطرا بفعل ذلك أن يدمر ما بقى من تقاليد الاستقلال النقابى . وأدى ذلك بكاردبناس إلى تفويض الحركة النقابية المستقلة فى تلك الفترة ، حركة كروم Crom التى يقودها لومباردو توليدانو Lonbardo Toedonol ومن حيث الجوهر ، فإن كاردبناس بسيطرته على توليدانو فرق صفوف معارضة الدولة ، ولكنه بذلك فرق أيضا صفوف القاعدة الاجتماعية الكامنة والمكنة لبرنامجه الإصلاحى ، ولم يعد على كاردبناس أن يخشى النقابات غير المندمجة فى الدولة ، أو حتى المنافسين الشخصيين ، ولكنه أيضا لم يعد لديه قاعدة جماهيرية . وهكذا ، فعندما حاول تنفيذ إصلاحاته مثل مشروعه الشهير المسمى إخيدو Egido أو مشروع إدارة توزيع الأرض التعاونى ، لم تكن لديه قاعدة جماهيرية تتألف من حركة عمالية فلاحية يحتاجها لصد هجمات معارضة ملاك الأرض والكنيسة .

برزت تلك القضية عندما واجه كاردبناس مشاكل فى الإصلاح الزراعى ، استطاع زعماء من أمثال نهرو أو عبد الناصر تجنبها ، فقد كان عليه أن يأخذ الأرض من طبقة ادعت أن لها حقا فى امتلاكها ، على حين أن الأرض انتزعت فى بلاد أخرى من أرستقراطية محتضرة أو نظام ملكى معزول مما جعل عملية الإصلاح الزراعى فى المكسيك أكثر صعوبة ، والمعلمون الشبان الشجعان الذين أرسلوا إلى الريف كجزء من برنامج الإصلاح أُغتيلوا .

وفى النهاية حينما سقطت اشتراكية الدولة كانت طبقة ملاك الأرض قادرة على استعادة السيطرة على أراضى مشروع إعادة توزيع الأرض التعاونى ، وأصبحت ملكية المزارع الواسعة « الهاثيندا » مألوفة من جديد .

ومع ذلك لم تكن طبقة ملاك الأرض فى المكسيك كبيرة العدد . ولابد أن يكون كارديناس قد قدر أن باستطاعته الاستمرار فى السلطة بمثل هذا البرنامج الشعبى ، للإصلاح الزراعى ، ولكنه لم يضع فى الحسبان ماستبديه الكنيسة من ذكاء فى إعاقته ، ثم فى الإطاحة به فى خاتمة المطاف .

ولنتحول الآن إلى دور الكنيسة . فمن هم على وجه الدقة الذين عارضوا كارديناس ؟ تبرز شخصيتان فى السجل التاريخى ، ولا شك أن بروزهما يعنى وجود الكثيرين غيرهم لا يعرف عنهم إلا القليل ، وكان رئيس أساقفة جوادالاخارا Guadalagara المونسيتر فرنسيسكو أروزكو إى خيمنث Mons Francisco المولود فى العائلة تدعى أنها ذات نسب قشتالى عتيق قد اتخذ عددا من المواقف المتطرفة المعادية للنظام[٢٣] . ومن الممكن التدليل على تأثيره الضخم فى الاتجاه الذى أخذته الكنيسة فى الثلاثينيات من هذا القرن ، وعلى أنه مع عدد من الشخصيات القيادية الأخرى ، حث الكنيسة على أن تشرع فى التودد إلى الطبقة العاملة ، وفى تحطيم تحالف كارديناس مع الحركة النسائية ولتحقيق هذه الأهداف اختارت الكنيسة لويس مارتينيث Martineez (١٩٨٨١ – ١٩٥٦) وهو الخصم الرئيسى الثانى لكارديناس ليكون كبيرا ساقفة المكسيك فى عام ١٩٣٧ .

وكان مارتينيث مختلفا بشكل ملموس عن المتخصصين التقليديين فى اللاهوت الذين سيطروا على المستويات العليا من القيادة فى الكنيسة ، فقد كان من عشاق التصوف ، يعرفه معظم المكسيكيين ويحبونه بما فيهم العمال وبالإضافة إلى ذلك كان لمارتينث حظ خاص باعتباره مستشارا روحيا للنساء ، ولعل الشخصية تقدم تفسير لذلك ، فعند وفاة والده فى سن مبكرة شب وهو وثيق الصلة بأمه . وحينما اختار الدين مهنة له تبعته أمه من معهد لا هوتى إلى دير خلال الجزء المبكر من حياته العملية ، وبعد ذلك أصبح مارتينيث معروفا بفضل رؤاه وتجلياته الشهيرة . وفى زمن لاحق ربما بفضل تنشئته كان معروفا بوصفه الأستاذ الروحى لنساء بارزات ، ومهما يكن سبب نجاحه ، فإنه يبدو من المعقول افتراض أنه استطاع استخدام مثل هذه الغرض للحد من نمو الحركة النسوية المكسيكية فى دوائر ذات نفوذ ، وربما لإضعاف مبادرات كارديناس الأخرى كذلك[٢٤] . وتلك بطبيعة الحال مسألة متروكة للتخمين . أما ما يبدو أقل

استهدافا للتساؤل ، فهو أن الكنيسة آثرت عاشق المتصوف المتمتع بالشعبية على كثيرين آخرين تدربوا طويلا على تفاصيل عصر كاريناس ، وأنه امتلك من المهارة مكنه من أن يمنع النظام من أن يجعل القيادات الكنسية هدفا سهلا وطوال الوقت حاربت الكنيسة وحارب ملاك الأرض فى الريف ، الإصلاح الزراعى مستنزفين قوة كارديناس بالتدريج ثم مقوضين لها فى النهاية .

ومع وصول أفيلا كاماتشو Avila Camacho إلى منصب الرئاسة فى عام ١٩٤٠ انعطفت المكسيك انعطافاً حادا نحو الليبرالية . وكان احتماء كاماتشو بالدين وابتعاده عن اشتراكية الدولة انتصارا لا للكنيسة فحسب ، بل للطبقة العليا « الجنوبية » أيضا . وعند هذه النقطة بدأ الاستثمار الأجنبى فى التدفق ، وابتداء من ١٩٤٠ حتى عام ١٩٩٢ خبرت المكسيك التجربة الليبرالية ، وكانت هناك حتماً نقاط تشابه مع الفترة الليبرالية الأسبق ، وشعور إلى ذلك ، ولكن كانت هناك أيضا بعض السمات الإضافية يطلق عليها عادة الليبرالية الجديدة . لقد اتجهت الدولة فعلا إلي حكم الطبقة الواحدة متخلية عن الكثير من تحالفها مع الطبقة العاملة . كما عبر السياسيون عن فضائل الرأسمالية وشرور الاشتراكية ، ولكن على نفس المستوى لم تقطع الدولة كل صلاتها بالقطاع العام والحركة النقابية . ترى ، هل كانت الدولة مضطرة لذلك ؟ أم أن النقابات والقطاع العام القديم كانوا آخذين فى الضمور ببساطة - مع استمرار عملية هيكلة الاقتصاد ؟ وكان ما كان الأمر ، فمع مجئ الستينات من هذا القرن بدأ إنتاج الورش الصغيرة منخفضة الأجور سيئة الشروط يسود ، وكان عامل المصنع يعد من مخلفات الماضى المتميزة حتى يحافظ على امتيازاته كان عليه أن يلزم الهدوء ، وقد مال بالفعل إلى الهدوء .

وقد شهدت الفترة الواقعة بين الأربعينات والستينات نمو بالغ السرعة ، وهى جديرة بالمزيد من الدراسة أكثر مما حظيت به حتى الآن ، وربما كانت المكسيك الموقع الذى بدأت فيه « ما بعد الفوردية » التى دارت حولها المناقشات الواسعة فى الولايات المتحدة فى السبعينيات والثمانينيات .

وربما كان للولايات المتحدة نفسها إسهام فى ذلك من خلال استثماراتها الأجنبية الضخمة فى تلك الفترة ، ومن خلال ما يمكن أن تكون قدمته من تشجيع لمديرى المصانع الذين تبنوا نظام الإنتاج وبعبارة أخرى ، ربما كانت المكسيك أول بلد نجد فيه

إيديولوجية الانتقال من الشمولية إلى الديموقراطية وهى إيديولوجية منتشرة انتشار واسعا الآن فى كثير من بلاد العالم الثالث الأخرى ، أو بعبارة أخرى مرة ثانية ، ربما كانت نتيجة سياسات تنتمى إلى الليبرالية الجديدة أن بدأت الرأسمالية تصبح إيديولوجية للطبقة العاملة فى المكسيك(٣٥) .

وبطبيعة الحال تحتاج هذه الفروض لإعادة البحث ، ولكن من المؤكد كما كانت الحال فى القرن التاسع عشر أن جماهير المجتمع لم تقبل مطلقا فيما بعد الحرب تلك النكسات التى جلبتها رأسمالية السوق الحرة المفتوحة على مستوى معيشة الناس فالحركات التى تعتنق مبادئ حقوق المسيحيين والفلاحين وجميع الذين تسحقهم وتطحنهم القوى الاقتصادية الجديدة كانت سمة مستمرة للأعوام التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، كما كانت قبلها وقد أعادتنا مذبحة الطلبة عام ١٩٦٨ إلى الوراء إلى القرن التاسع عشر ، لأنه فى القرن التاسع عشر - كما فى الستينات من هذا القرن - كان الطلبة بين الذين يشغلون صدارة المسرح . وكان اليسار الماركسى والحركة النقابية العمالية - اللذين كانا شديدى الأهمية فى ظل الإدماجية هامشيين إلي درجة كبيرة واليوم تسمى مثل هذه الحركات الأقدم حركات اجتماعية « جديدة » ، ولكن الكثير منها يعد بمثابة رجع الصدى لحركات الاحتجاج فى أواخر القرن التاسع عشر(٣٦) .

وهكذا ، فعلى الرغم من بعض التغيرات التى أحدثتها الليبرالية الجديدة ، يمكن مقارنة الفترة التى أعقبت عام ١٩٤٠ بفترة حكم بورفيريو القديمة .

فالتحكم فى أراضى البلاد ، أصبح - مرة أخرى -- فى أيدى قلة من ملاك الأرض ، وعاد بذلك نظام الضياع العقارية . وكما كانت الحال فى القرن التاسع عشر ، كانت عملية الاستيلاء على الأرض فى الأربعينات والخمسينات تتسم بالعنف ، ولكنها فى ذلك الوقت لم تؤد إلى تسرب المهاجرين من الريف إلى الأحياء الحضرية الفقيرة ، بل إلى فيض غامر من تلك الهجرة . ومرة ثانية بلغت الزراعة التصديرية آفاقا عالية ، ومرة أخرى انخفض إنتاج الغذاء واضطرت الحكومة إلى استيراد الطعام ، ووجد الذين

يمتلكون المال فى ذلك ما يناسبهم . أما المفلسون الفقراء فقد عانوا سوء التغذية وتناقصت متوسطات الأعمار بينهم بينما ، يساعدنا النمو السكانى على مدى قرن من الزمان – دون شك على تفسير ارتفاع مستوى النضال ، فإن منطق الديناميـة الاجتماعية يفعل نفس الشئ . وعلى سبيل المثال ، وجد صغار المزارعين أنهم يستطعيون الكسب عن طريق زراعة مواد الغذاء وتخزينها حتى تضطر الحكومة إلى رفع أسعار باهظة مقابلها . ووجد المهاجرون إلى المدينة أن لهم قوة واضح اليد ، أى القدرة على المطالبة بحقوق لا تقدمها الدولة فى المناطق الريفية[٣٧] . ونصت دراسة حديثة للسياسة المكسيكية ، قامت بمسح الجيل الأخير سياسة الحكومة باعتبارها تتجه أكثر فأكثر نحو مواجهة الصراع من خلال آلية إدارة الأزمات[٣٨] . ومع زيادة الهجرة من الريف إلى مكسيكو سيتى ، – وهنا نعود لنلتقى بالمسألة الجنوبية فى شكلها الجديد– ارتفعت مصروفات المجالس البلدية . ومع ارتفاعها حاولت السلطات البلدية أن تحد من مصروفاتها عن طريق إرغام القادمين الجدد ، على أن يحققوا لأنفسهم اكتفاء ذاتيًا فى القطاع غير المنظم » من الاقتصاد . وفى مكسيكو سيتى ترغم النساء الهنديات القادمات حديثا من الريف في واقع الأمر على الوقوف والبيع فى شوارع المدينة . من ثم يتعرضن للمضايقات من جانب شرطة عنصرية سيئة المعاملة ومن فئة رجال الشوارع ، ولكن ذلك أدى أيضا إلى حدوث رد فعل مضاد بصورة تدريجية . فهناك أشكال جديدة من المقاومة الاجتماعية أخذت فى الظهور من أمثلة ذلك ما حدث عام ١٩٨٥ فى مكسيكو سيتى عندما شكلت العاملات فى صناعة الملابس مجموعة تضامن هى « نقابة التاسع عشر من سبتمبر لعاملات صناعة الملابس » .

وليس من المدهش أن يبقى الجنوب على الرغم من كل هذه الهجرة الخارجية منطقة أزمة . وفى السنوات الأخيرة تحول الجيش من القيام بهجمات من حين لآخر والفلاحين والطلبة فى البرزخ » Cocel إلى أن أصبح جيش احتلال .

لماذا ؟ وما الذى حدث لقدرة الدولة على الحكم ؟ وأين الكنيسة اليوم ؟ وأى دور تلعبه فى الحفاظ على الهيمنة فى المكسيك ؟ هل تلعب الكنيسة نفس الدور الذى لعبته فى عهد بروفيريو ؟ هل ستلقى بثقلها ضد الدولة وتسقط الليبرالية مرة ثانية ؟ .

واليوم تبدو الإمكانية الأخيرة على أقل تقدير بعيدة الاحتمال ، فالكنيسة أضعف من ذى قبل . وهى منقسمة وعدد من القساوسة متعاطف مع لاهوت التحرير .

وكما يبرز مؤلفو التقرير الأمريكى اللاتينى الجماعى ، فإن الكنيسة لم تكن قادرة على التكيف مع الفقر الجماهيرى الواسع الجديد فى المكسيك . إن ٤٠٪ من النساء لا يستطعن تحمل نفقات إضفاء الشرعية على الزواج فى أمريكا اللاتينية . ولا تخسر هؤلاء النسوة ما يجلبه الزواج القانونى من مزايا فحسب ، بل إن الكنيسة ومعها الدولة تخسران صلة مهمة ؛ فأولئك النسوة وعائلاتهن أيضا . ربما تصبح تلك الفترة عصر البروتستانتية الإنجلية ، أو ربما - كما حدث فى الماضى - تفتح الكنيسة الباب أمام مزيد من القديسين والمعجزات الشعبية ، وتعد المسرح لاستعداة وضعها السابق .

وفى السبعينيات وحتى فى الثمانينيات ادعى بعض الكتاب أن سياسة قمع الجنوب كانت عقلانية ، فخلال هذه الفترة ظهرت تكنولوجيا زراعية لا تقهر يمكن أن تجعل الزراعة الرأسمالية السائدة فى الشمال مكتفية بذاتها ، وسرعان ما يستغنى الشمال عن الجنوب ، بمعنى أنه لن يحتاج إلى منطقة بأكملها لا تنتج إلا المزيد من العمال . واليوم بطبيعة الحال تشيع كل أنواع الشك فى « الثورة الخضراء » ، كما أطلق على هذه التكنولوجيا الزراعية الجديدة . وتكثر الهواجس الإيكولوجية (المتعلقة بالبيئة) حول ما تفعله الثورة الخضراء بالتربة ، والتكلفة قضية مثارة ، وكذلك السياسة . إن المستفيدين من الثورة الخضراء ليسوا هم الذين ترغب الولايات المتحدة فى دعمهم « فالفلاحون الأغنياء » هم الذين ينتقدون غالبا الولايات المتحدة وأصحاب الضياع ، وهم يشكلون أكثر المجموعات انحيازا للولايات المتحدة ، يهتمون اهتماما أكبر بالمحافظة على الوضع القائم من اهتمامهم بالثورات سواء أكانت خضراء أم غير ذلك[٤٠] .

ونتساءل فى الختام ماذا عن الهيمنة المضادة فى المكسيك ؟ ماذا وراء الحركات الاجتماعية الجديدة اليوم ويسارية الماضى التقليدية ؟

والإجابة الظاهرية ثنائية ، الأولى : هناك حركات صغيرة منشقة على هامش الحركة العمالية والحزب الشيوعى تبنت المسألة الهندية ، والثانية : هناك حركات شعبوية متعددة الثقافات . ومثال الإجابة الأولى كانت حركة Crom التى قادها - فى تطورها المبكر

فنست لومباردوتوليدانو (١٨٩٤ - ١٩٦٨) ، وهى حركة إسهمت إسهما مهما فى انهيار العهد الليبرالى الأول[٤١] . وفى الفترة الأحدث عهدا فى أوائل التسعينات ، ظهرت حركة جديدة يقودها كارديناس الابن Cuauhtemoc Cardenas وهو ابن لاثارو كارديناس الذى سبق أن تحدثنا عنه. ويبدو أنها تحاول أن تبعث إلى الحياة بعض سمات التعدد الثقافى لحركة Crom كارد وكما الحال فى إيطاليا والهند . كان معظم الراديكاليين الأوائل فى المكسيك من الفوضويين ، وكان هناك بالتأكيد عنصر من الفوضوية فى ردايكالية لومباردو توليدانو وكارديناس الابن ، وكان بين أشهر الفوضويين المكسيكيين الأوائل الأخوان ريكاردوا وخيسوس فوريس ماجون Jesus Fores Magon . وتدل روايات السيرة الشخصية ، أن هذين الراديكاليين كانا من أبناء الطبقة الوسطى الإقليمية من وسط هندى ريفى فى واخاكا ، وأنهما انتقلا إلى مكسيكو سيتى ليواصلا أعمال الاحتجاج لصحفيين ، وأنهما كانا يأملان فى توجيه الطبقة العاملة وربما فى أن يصير من زعمائها . ومن الواضح أن تأثيرهما كان ضخما أثناء سنوات الثورة حينما كان لهما دور فاعل فى إقناع الطبقة العاملة فى مكسيكو سيتى ، بأن لا تؤيد زاباتا . وبعد ذلك تضاءل نفوذهما فى العشرينات ، حينما أصبحت الحركة العمالية أكثر تنظيما شيئا فشيئا ، ثم تماسك تحت رعاية الدولة ، وحينما برزت النقابة التى يقودها لومباردو توليدانو (Crom) فى العشرينات بدأت لعبة شد الحبل بين الدولة والراديكاليين الفوضويين الباقين فالحركة النقابية ، للتأثير فى اتجاه تلك الحركة ، وكما لوحظ فى القسم الأخير ، فإن الدولة استطاعت بالتدريج أن تكون أكثر تأثيرا فى الحركة ، وحينما حدث ذلك بدأت الحركة الفوضوية تيأس من التأثير فى عمال المدن . وقد هجر واحد من المتعاونين الرئيسيين للأخوين ماجون هو دياث سوتو إى جاما Diay Soto فى النهاية الاحتجاج الحضرى كلية ؛ ليؤيد الحركة الفلاحية فى موريلوس Morelos . وهناك شكّل مجموعة تواصل التحريض ، ويحسب له أنه أمضى هناك - تبعا لمعلق حديث - عدداً كبيراً من السنوات المتصلة فى التحريض تتجاوز حتى سنوات زاباتا[٤٢] .

ولنعد إلى تناول لومباردو توليدانو بالدراسة . وبداية ، لا يتطرق لشك إلى خدماته لقضية العمال من العشرينات حتى الستينات ، ولكن ما تخرج به من مجموع الأدبيات المتعلقة بنشاطه هو أهمية إسهام السنوات الأولى من عمله النضالى وما تفعله الدراسات

الشائعة هو أن نضاله فى تلك الفترة أخذ شكل تحد لا لرأسمالية القطاع الحديث وحدها ، بل لهيمنة أو لاستراتيجية الشمال – الجنوب التى استخدمتها الطبقة الحاكمة وهو ما يعنينا هنا[٤٣] . لقد ولد لومباردو توليدانو فى الجنوب فى بوابلا Pueble لأبوين من الطبقة الوسطى ، وتلقى تعليم أبناء النخبة الذى توج بدراسته فى مدرسة القانون ومدرسة الدراسات العليا التابعة لجامعة المكسيك القومية[٤٤] . وفى أيام الدراسة فى مكسيكو سيتى كان للفيلسوف أنطونيو كاسو Caso أثر فعال فى تكوينه . وقد علمه كاسو النظرية الحديثة لهنرى برجسون وهى نظرية كانت بمثابة درع بقية من وضعية الثقافة الرسمية . ومن الماركسية الأصولية لفترة الحرب العالمية الأولى أيضا ، وعند التخرج بدأ لومباردو توليدانو عمله موظفا بالحكومة المكسيكية ، مهمته توزيع الأرض على الفلاحين . وهنا ، كما لوحظ فى كتابات لاحقة ، رأى بوضوح شديد الجانب الفاسد من نتائج الثورة المكسيكية عن كثب[٤٥] . وقد تأرجحت آراؤه نحو ما يمكن أن نطلق عليه اليوم اسم « الماوية » أصبح أحد مواقفه أن كل الذين لا يمتلكون وسائل الإنتاج ينبغى أن يتحدوا ضد الإمبريالية .

وقد جعلت التجربة والقوة ونفاذ البصيرة من لومباردو توليدانو ناقدا للحزب الشيوعى المكسيكى الذى أطلق بدوره عليه لقب « قومى شوفينى » منتقدا تأكيده على الفلسفة باعتبارها مفتاحا للتغير الاجتماعى[٤٦] . وبالنسبة لأهدافنا من هذه الدراسة يبدو ذلك توازيا واضحا مع جرامشى . ويذكر بشدة بمشكلة جرامشى الخاصة مع الحزب الشيوعى الإيطالى . ولكن لومباردو توليدانو من جانبه لم يستمد نظريته من التجربة الإيطالية ، بل جاء بتشخيصه الخاص للجنوب باعتباره يعانى فى المكسيك من استثمار داخلى . وقد أخذ فكرة ستالين عن القوميات ذات الاستقلال الذاتى (الحكم الذاتى) ودعا إلى إقامة سوفييتات فى المكسيك . ويستتبع ذلك فى رأيه إعادة تنظيم سياسية تتضمن لا مركزية للسلطة فى البلاد ، ولن يكون تولى السلطة سياسيا محضا ، بل ثقافيا أيضا وينبغى أن تلتزم الحكومة فى اعتقاده بأن تتصور البناء الاشتراكى بوصفه يعنى خلق أبجديات ونشر معرفة القراءة والكتابة باللغات الهندية وإنهاء إضفاء الطابع الفولكلورى على الهنود ، ورعاية التربية الجمالية والجسمية والعسكرية بين الأعراق المختلفة وربطها بالبروليتاريا الصناعية[٤٧] . ولكن ما أثر فى الإتجاه المضاد للومباردو توليدانو كان عجز الحركة النقابية العمالية – التى كان منخرطًا فيها عن تبنى

الأفكار أو التجارب التى كان يؤمن بها ، ولم يكن استطاعتها رؤية قيمتها . لقد شكلت كتلة من العمال حديثى القدوم إلى المدن عضوية النقابات ، وكان من الصعب جدا عليهم أن يتطلعوا إلى ما قد تخلوا عنه لتوهم لكى يحققوا حراكا إلى أعلى باعتباره ما يزال على نحو ما ضروريا لرفاهيتهم[٤٨] . ويمكن تلخيص النقاط البارزة فى مسيرة لومباردو توليدانو العملية كالآتى : بوصفه زعيما للحركة النقابية العمالية (STM) فى الثلاثينات كان فى أول الأمر حليفا رئيسيا ثم أصبح خصما لكارديناس من خلال عمله انطلاقا من قاعدة بين عمال المدن ، شرع فى منتصف الثلاثينات فى إقامة نقابات لمنتجى قصب السكر والقطن والقنب الريفيين ، وحينئذ نظم كارديناس نقبات مضادة ومارس ضغطا قانونيا ، أرغم لومباردو توليدانو بالتدريج على الاختيار بين عمال المدن وعمال الريف ، وقد منعه فى الواقع من تنظيمها معا ، واختار توليدانو فى النهاية عامل المدينة ، وكان يعبر عن أفكاره فى صحيفة من خلال مقالاته ، وليس فى نشاطه الذى لا تزيد عن نشاط أى عامل نقابى . وهكذا ، يستطيع المرء أن يقرأ فى جريدته المستقبل Futuro عن خططه لتنظيم العاطلين ، ودفاعه عن مراكز الرعاية اليومية للأطفال ، ومطالبته بالأجر المتساوى للرجال والنساء ، ودعمه لرفع مستوى الوعى واستراتيجيته للتغلب على الاتجاهات البيروقراطية فى الحركة النقابية وتشجيعه للمعلمين لاستعمال تقنيات تربوية نابضة بالحياة ، وأخيرا وليس آخرا فكرته عن مليشيا عمالية وهى فكرة سحقتها الجيش المكسيكى .

وفيما بين الأربعينات والثمانيات كان هناك الكثير من الحركات السياسية فى المكسيك ، ولكن أيا منها لم يأخذ شكل تحد للهيمنة . أما ماحدث بالفعل فى هذه الفترة فهو الهجرة الجماعية « الجنوبيين » إلى مكسبكو سيتى ، وحينما حدث ذلك أصبح واضحا أن الصراع حول الإبقاء على الجنوب لا يقع فى « الجنوب » وحده ، بل وفى الأحياء الفقيرة من نيو مكسيكو .

وفى يولية ١٩٨٨ ، حصل كاردييناس الابن الذى دخل الانتخابات على رأس تحالف بين مجموعات تتبنى القضية الهندية على ٣١,١٪ من الأصوات فى انتخابات الرئاسة فهل تتجه المكسيك نحو عصر جديد من النضال المضاد للهيمنة ؟

الكثيرون يعتقدون ذلك .

تنظيم الثقافة فى المكسيك

كما رأينا دور الدولة فى تنظيم الثقافة فى حالة الهند وإيطاليا نجد ، ذلك أيضا فى حالة المكيسيك ، فطوال التاريخ الحديث نظمت الدولة الفلسفة والنقد الأدبى والعلوم الإجتماعية وجوانب أخرى من الثقافة باعتبارها جزءا من جهدها للمحافظة على الهيمنة . ويجد المرء مرة ثانية أيضا صراعا عميق الجذور بين النظرة إلى العالم الرومانسية الميتافيزيقية التى يمثلها المثقف الجنوبى والنظرة الوضعية التي يمثلها الشماليون .

وتبعا ليوبولد ثيا Zea مؤلف مرجع مدرسي شائع الاستعمال عن تاريخ الفلسفة لم يكن للمكسيك إلا عدد ضئيل من الفلاسفة الوضعيين ، وكان هؤلاء محجمين بوجه عام عن تبرير ما قام به الجيش ونخبة الأعمال الاقتصادية باسم الوضعية ، وكنتيجة لذلك وبعد الجيل المبكر من إشباع النزعة العلمية فى السنوات الأولى للدولة الحديثة ، كان على الشمال المسيطر اقتصاديا أن يحمل على نحو يكاد يكون دفاعيا علي الجبهة الثقافية ، وعلى حين يجد المرء جيوبا من الوضعية المناضلة أو ما يشبهها حتى يومنا الحاضر فى ثقافة شمال إيطاليا وشمال الهند ، فليست تلك هى الحال فى المكسيك . ففى المكسيك لا تقبل الوضعية إلا على أسس نفعية ، أى لغياب ما هو أفضل Fauta de mieux . وهكذا ، كان تاريخ الفلسفة إلى حد كبير هو تاريخ التقليد الرومانسى الميتا فيز يقى ، أى التاريخ المرتبط بالمثقف الجنوبى[٤٩] . ولعل الأمر كان لابد أن تتخذ هذا الطابع ، فهنا طبقة حاكمة مصممة على تدعيم الأعمال الاقتصادية والتقدم ، ولكنها لا تستطيع أن تعتمد على الوضعية ونزعة التنمية والتطور كإيديولوجيتيين ، فكيف ستدافع عن نفسها ضد مطالب الدين ؟ فبعد كل شئ ربما كانت قطاعات واسعة من السكان ، ستفضل حزبا دينيا على الحزب الذى لديهم ولكى تدافع الدولة عن نفسها ضد مثل هذه التهديدات الحقيقية أو غير الحقيقية مثل الـ PAN ، انتهت الدولة بالتدريج إلى الاعتماد على التقليد الميتافيزيقى ، وبطبيعة الحال تحقق ذلك حيث كانت الوضعية فى أضعف حالتها ، أى فى الجنوب .

وقد حاول بورفيريو دياث أن يكون استثناء من ذلك ، فقد حكم عن طريق التحالف مع الكنيسة والوضعية . وقد أحدث ذلك ثورة . كما حاول كارديناس أن يكون بدوره استثناء ، فحكم عن طريق معارضة الكنيسة والفلسفة الرومانسية الميتافيزيقية بواسطة الاشتراكية فدام حكمه ست سنوات .

ويجد المرء فى الفلسفة المكسيكية منذ بداية هذا القرن خيبة أمل متزايدة ، فى سيطرة الوضعية كما يمثلها أشباع العلم فى عهد بورفيريو . وبعد تضع سنوات جاءت « القطيعة الحاسمة » في الفلسفة المكسيكية مع الوضعية ، والتى تسمى التحول إلى الكانطية الجديدة وهو تحول مرتبط بالنفوذ المتعاظم للفيلسوف الأسبانى ميجويل دى أو نامونو Migul De Unamuno وأورتيجا إى جاسيت ortegay gasset والفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون Henri Bergson فى الفكر المكسيكى ، ويجب أن تتذكر أن أسبانيا تنتمى إلى الطريق الإيطالى ، كما كانت فرنسا وألمانيا حتى هذا القرن . وإذا أقحمنا مسألة جانبية ، فإن الفسلفة الإيطالية كان لها مكانها فى المكسيك ، ولكن تأثير كروتشه كان أقل من تأثير فيكو هو الشخصية التى ألهمت كروتشه(٥) . وفى المكسيك أثر فيكو فى الكاتب المعاصر كارلوس فوينتس Fuentes كما أثر فى عدد من كتاب القرن الثامن عشر الذين تعرفوا على أعماله بواسطة لورنثو بوتورينى Lorenzo Boturine ، وهو تلميذ لفيكو من ميلانو سافر إلى المكسيك(٥١) .

أما خوسيه فاسكونشيلوس Jose Vascon celos (١٨٨٢) وهو أول فيلسوف مكسيكى حديث مرموق ، فقد كان مجددا كاثوليكيا ومفكرا ميتافيزيقيا وسياسيا مهما فى الفترة الثورية طوال العشرينات . لقد ولد فى واخالا فى الجنوب ، وشب فى الجيل الذى كانت الفلسفة الميتافيزيقية الليبرالية تعنى عنده البديل الرئيسى لوضعية دياث عند الطبقة الوسطى المكسيكية . وقد دفعته مركزية الحياة الثقافية المتصاعدة فى شبابه إلى المجئ إلى مكسيكو سيتى ، وإلى الجامعة القومية ليكون عضوا فى الأتنيستاس At enistas وهى جماعة فلسفية كان يدرس فيها فاسكونشيلوس Voscon celos ويقوم بدراسات عن كروتشه ونيش وشوبنهاور وبرجسون والمجددين الكاثوليك(٥٢) ، وكان فاسكوشيلوس مثل كروتشه منغمسًا فى الشئون القومية على مستوى عال جدا

فى أغلب الأحوال . فقد كان مثلا وزيراً للتعليم فى العشرينات ، وهى الفترة التى كانت البلاد تشكل فيها نظامها التعليمى الحديث[٥٣] . وأثناء تلك الفترة نشر صيغته الخاصة عن الصالة القومية ومذهبه فى « العنصر الكونى » Cosmic Race ، وكان هذا المذهب مع الأشكال الأخرى من نزعة الأصالة القومية يؤكد الوحدة الروحية فى تعارضها مع الوحدة البيلوجية للمكسيكيين . وعلى النقيض ، كان الموقف الذى يلقى أعظم تأييد من المصالح الرأسمالية الشمالية هو مذهب المستيثويزم Mestigoism (نزعة التهجين) يتضمن موقفا يجعل من المكسيكين قوة عمل قابلة للتبادل ، وسوقا استهلاكية أى أن موقع فاسكو نشيلوس كان بمثابة أرض سياسية وسطى بين نزعة التهجين والميل العرقى العطفى الكريولى أو الأسبانى ، ويبدو فاسكومنشيلوس النخبوى الأبدى باعتباره كونيا قبل كل شئ أكثر من كونه قوميا ، مثل كروتشه مرة ثانية . وقد نمت صورته هذه فى المرحلة الأخيرة من نشاطه ، حيث عمل دبلوماسيا لحساب الحكومة المكسيكية .

وفى كتابات جنوبى آخر ، هو الفيلسوف أنطونيو كاسو (١٨٨٣ - ١٩٤٦) أفسحت الكاثوليكية الميتافيزيقية الطريق لفسلفة الظواهر ولنقد كانكى جديد للعلم فى مذهب الرؤية الكونية Cosmorisim إلا أن كاسو أثناء عدد من سنوات نشاطه كان قريبا من كارديناس ، وإن يكن شديد الانتقالية وإمكان ذلك دليل على قوة المثقف الجنوبى فى المكسيك[٥٤] .

وكما تبنت الشخصية الفلسفية الكبرى الثالثة فى الفلسفة المكسيكية ، صامويل راموس Samul Ramos مواقف مثالية . وقد ولد عام ١٨٩٧ فى ثيتاكوارا Zitacuara وكان تلميذا لأنطونيو كاسو وفاسكونسيلوس ، بينما انتقد استخدام أساتذته للحدس فقد انتهج هو فلسفة مماثلة ، فلسفة المنظور مرتبطة عموما بأورتيجا وإى جاسيت ، وهذه الفلسفة هى التى زودته بالمفردات التى استخدمها فى انتقاد التربية الاشتراكية أثناء فترة كارديناس ، فهو يقرر أنه ما من منهج جديد فى التربية يمكن فرضه بطريقة غير عضوية على شعب ما ، أى بطريقة من خارج تجربته .

وأثناء الفترة التى كان فيها كارديناس يروج لمفهوم الإنسان المكسيكى الجديد أو الاشتراكية المكسيكية ، طلع راموس بتحليله للشخصية المكسيكية الموجودة بالفعل ،

وهى شخصية زعم أنها تتلاءم مع مفهوم أدلر Adler عن مركب النقص[٥٥] ، وهنا استخدمت الأصالة القومية ضد الاشتراكية .

ومع صعود الأنظمة الليبرالية الجديدة بعد عام ١٩٤٠ ، سعت الدولة إلي مواجهة مشكلات فى المدينة والريف تتطلب المزيد من الهندسة الاجتماعية وفى هذه اللحظة أصبح العلم الاجتماعى جزءا من المثقف الجنوبى . ومن الشخصيات المهمة فى تلك الفترة الفونسوكاسو ، وباعتباره مديرا للمعهد القومى للأصالة القومية .
Instituto Na cional Indigcnista كان له تأثير فى دوائر رسم السياسة ، وعلى نطاق أوسع باعتباره مؤلف أكثر الأعمال مبيعا « شعب الشمس » . وبجوار كاسو هناك شخصيتان مهمتان أخريان هما إجناثيو برنال Igno cis bernal وميجويل ليون بورتيلا Miguel leon Portilla وصعود هاتين الشخصيتين مؤشر لقطيعة مهمة فى تاريخ الأنثروبولوجيا وعلم الآثار في المكسيك ؛ فابتداء من عام ١٨٧٧ ، سنة افتتاح قسمى الأنثروبولجيا والإثنولوجيا فى المتحف القومى ، وسنة أول بعثة أثرية رسمية (أواخا) ، وسنة ميلاد دورية المتحف « الحوليات » Anales ، ظلت هذه المجالات ذات نزعة تاريخية .

وكانت الشخصية الرئيسية فى هذه الفترة المبكرة هو مانويل جاميو Manuel Gamio ، وفى الحقيقة ظلت نظرياته تلعب دورا حتى يومنا هذا . لقد رأى جاميو الأزتك باعتبارهم أسلاف الدولة المكسيكية الحديثة . فالأزتك بكل أخطائهم حفزوا التكامل العرقى أو نزعة التهجين الذى كان فى تقديره شرطا مسبقا لنشأة الدولة القومية الحديثة . وفى سياق مشاكل كارديناس مع أنصار المخلص كانت فكرة الأزتك باعتبارهم أسلاف للمكسيك الحديثة ذات نفع . فقد دعمت صيغة يسارية لنزعة الأصالة القومية كما دعمت آراء النظام ضد الكريولية . وكانت مدرسة مانويل جاميو كذلك مصدرا رئيسيا لدعم لومباردو توليدانو ، المثقف النقابى سابق الذكر[٥٦] . ولكن كانت هناك حدود لا يتستطيع كارديناس على أقل تقدير تجاوزها ، وكان جاميو والذين يستعملون أفكاره يتحدون كارديناس للمضى إلى ما هو أبعد . وأصبحت الأصول الأزتكية سيفا ذا حدين . وهكذا فقد منحت الدولة طوال فترة كارديناس مكانة مرموقة فى المجتمع للفلاسفة ، وبقى جاميو مغمورا نسبيا .

وفى عام ١٩٤٠ مع انبعاث الليبرالية ، حدث تطور لا يخلو من القيمة فى العلوم الاجتماعية ، إذ بدأت دراسات المايا تزيح دراسات الأزتيك عن موقعها البارز ، وتفقدها الأهمية . وبينما صور مانويل جاميو فى الجيل السابق تطور المكسيك باعتباره ثورات متلاحقة ، قدم إجناثيوبرنال وهو الشخصية القيادية فى دراسات المايا الجديدة وهو أثرى ينتسب إلى خلفية ثرية جنوبية لملاك الأراضى ، تطور المكسيك باعتباره تطورا بطيئا ممتدا فى الزمان ، وينبغى أن نلاحظ أن نشاط برنال المتخصص تطابق مع صعود دراسة التراصف فى طبقات الأرض Stratigraphy وهى تقنية منهجية ملائمة تماما لصاحب نزعة تطورية ، وقد استعملها كثيرا . وهكذا نجد برنال يدلل على أن هجرة الجنوبيين الحالية إلى الشمال يجب تقديرها على نحو إيجابى ، فالجنوب منطقة منهكة مستنفدة . وفى النهاية ومن خلال إعادة التثقف فى الشمال ، سيصير الهنود المتبقون مكسيكين وهنا نلقى نظرة على السيرة الشخصية ، لنرى أن برنال مثل فاسكو نشيلوس قبله كان دبلوماسيا ومؤديا لمختلف المهام لمؤسسات ذات مكانة فى مكسيكو سيتى مثل متحف الأنثروبولوجيا القومى . وفى أوسع كتبه انتشارا « تاريخ علم الآثار المكسيكية . المدنيات البائدة لأمريكا الوسطى (لندن ١٩٨٠) أدرج خريطة للمكسيك القديمة تبين عدم وجود أثرية فى الشمال الجغرافى ، ووجود قليل منها فى فيراكروت Vera cruy ولكنها تبين الكثير منها فى شبه جزيرة يوكاتان Yu catan وخاكا وتشياباس Chiapas وكان الشمال عند برنال هو التاريخ ، أما الجنوب فكان « ما قبل التاريخ » . وباختصار بزغت لدى شخصيات مثل برنال وزميله وأستاذه ذائع الصيت ألفونسو كاسو ، وزميله الأثرى ميجويل ليون بورتيلا صورة للماضى المكسيكى وسط العلماء الاجتماعيين أصحاب النفوذ ، جعلت من الأزتك Aztecs الواقعة بالقرب من العاصمة القومية الحالية . جزء من التجربة التاريخية المفضية إلى المكسيك الحديثة وكانت مدنية الأزتك مثل المدينة المكسيكية الحديثة «دينية» «حربية» أكثر من مدينة المايا المسالمة فى الجنوب والتى أصبحت الآن الهدف النهائى لإضفاء الطابع الفولكلورى بعد أن صاروا نموذج سكان هنود متحضرين ، ولكنهم يختفون الآن ، ذوى خلفية جنوبية مما آثار اهتمام البعض . ليس نموذجا يمكن أن يقبله جميع العلماء الاجتماعيين المكسيكيين . فهو بكل تأكيد لا يلبى حاجات الدولة ، إذا أخذنا فى الحساب الهجرة الحضرية المتزايدة يوما الذين لم

يتم استيعابهم ، ويمكن التدليل على أنهم هنود من حيث الثقافة ، وبين نقاد كاسو وبرنال تمكن الإشارة إلى عالم الآثار أرتورو وارمان Arturo Warman وعالم السياسة بابلو جو نثاليث كازانوفا Poblo Gonz aleg Cosanova وعالم الاجتماع ردولفو ستافنهاجن Rudolfa Stonenhagen . إن الهنود كما يدلل وارمان يتزايدون عددا ، ولا يمثلون بقايا ثقافة ماضية وهم مندمجون بيننا فى عملية إعادة إنتاج الهيكل الاجتماعى ، وانحاز جونثالث كازانوفا إلى جانب وارمان ، وأصر على أن المسألة الهندية كانت بالفعل شكلا من الاستعمار الداخلى . وإلى هذه الملاحظات المتضاربة أضاف ستافنهاجن انطباعه بأن من الخطأ افتراض أن التزاوج بين الأجناس قد غير الهيكل الاجتماعى . فليس من المدهش فى وجه تلك الهجمة - إذا أخذنا فى الاعتبار أيضا إخفاق العلماء الاجتماعيين فى تقديم عون عملى للدولة - أنه بدأ السياسيون أثناء السيتنات فى تجاهل العلم الاجتماعى والبحث عن متحدثين باسمهم فى مكان آخر . وقد انتهى بحثهم عندما انتهجوا نفس المسار الذى انتهجه السياسيون الإيطاليون إلى اختيار الكتاب الأدبيين . ووفقاً لتعقيب حديث على الأدب المكسيكى المعاصر شهدت سنوات ما بعد الحرب . وهى الفترة التى تهمنا هنا تدهوراً حاداً فى الواقعية الاجتماعية بالنسبة لما أنتج منذ أواخر القرن التاسع عشر . وأعادت الرومانسية مختلطة بالفوضوية تأكيد نفسها . فالفن - عند عدد من الكتاب البارزين - كان الطريق الوحيد للهرب من كابوس التاريخ . والإلهام ينبعث من داخل الذات ، ومن داخل اللغة أو من النزعة العالمية . فقد اعتنق أبرز كتاب فترة ما بعد الحرب - أساسا - هذه الصيغة من الرومانسية وكانوا بذلك يؤدون بعض النفع[٥٧] وينبغى أن نفهم التحول إلى الأدب من جانب الدولة باعتباره ليس اختيارا حرا فى مجموعة ، وليس بكل تأكيد اختياراً مرضيا تماما ، وربما لم يكن هزيمة بل نكسة ؛ لأن ما تلقته الدولة مقابل رعايتها كان إظهارا للاغتراب وعدم الانتماء أكثر منه إظهاراً للإلمام أو التوجيه الاجتماعى . ولعل كان متوقعا بعد عام ١٩٦٨ وعند أكتافيو باث Octavio Paz أشهر كاتب معاصر اجتمعت هذه المكونات بطرق مضطربة فى متاهة العزلة (١٩٥٠ ، ١٩٥٩) وفى « كلود ليفى ستراوس - مدخل » ، (١٩٦٧) .

ويمارس أكتافيو باث في رأيي على الرغم من ذلك دوراً تقليدياً في تاريخ الهيمنة المكسيكية ، هو دور المثقف الجنوبي ، الذي بوصفه هذا له سوابق واضحة في فاسكو نشيلوس وآخرين ناقشناها من قبل . ومثل كثيرين في الشتات الجنوبي ، ولدباث في مكسيكو سيتي وبعد ذلك أنفق أجزاء مهمة من حياته بالخارج . وهذه النقاط وخاصة الأخيرة أثرت في التفسيرات المقدمة لكتبه .

ومع ذلك يبدو من المعقول افتراض أن تكوينه في المجتمع المكسيكي لا ينبغي تجاهله . فالمكسيك كانت تعني اختلافا واسع النطاق بالنسبة إليه ، وكانت كل رحلة إلى الخارج تنتهي بعودة إلى المكسيك ، أو بما أسماه Revelta (الكلمة تعني الرجوع والثورة ونقطة انطلاق اتجاه متعرج) بالإشارة إلى الاسم الذي أطلقه على الدورية الثقافية المعروفة التي كان يحررها . ومن زاوية السيرة الشخصية من الأهمية بمكان أن باث أمضى صباه في ميزكواك Mixcoac (يوكاتان) وتلقى دراسته الثانوية في مكسيكو سيتي ابتداء من الثالثة عشرة . وفي صباه ربته أمه وخالته وجدته لأبيه ، وذلك ليس إلا صدفة أملتها الظروف ؛ ولكنها صدفة ليست غير معتادة بين المثقفين الجنوبيين الذين ناقشناهم في هذا الكتاب . وكان والد باث المحامي غائبا يدافع عن زاباتا ، ويدعم الإصلاح الزراعي بعد الثورة ، ومع ذلك كان له تأثيره كما توضح إحدى قصائد باث المبكرة . وبعد سنوات عاد باث في ١٩٣٦ – ١٩٣٧ إلى العمل من أجل الثورة في يوكاتان ، واستتبع هذا القرار بين أشياء أخرى هربا من حياته كطالب جامعي ، وهي حياة لم يعد إليها قط[٥٨] .

« ومتاهة العزلة » عمل يحلل الشخصية القومية ، وهو مثل عمل مويل راموس سالف الذكر ، يقدم صورة أكثر تطورا للتكامل العرقي أو الأصالة القومية ، مما تصرح به الحكومة في ذلك الوقت ، ولكنها ليست صورة تنتمي إلى تمجيد الهجين[٥٩] . ويدهش باث القارئ بأن اتخذ من مكسيكيين في الولايات المتحدة نقطة انطلاقه ، ومن المدهش أيضا أنه أسماهم Pachuco « باتشوكو » (وهي كلمة تعني ضمن أشياء أخرى اليتم الثقافي) ويستخدمها باث كاستعارة للمكسيك ككل ، جاعلا من خلال استعماله لها الشخصية المكسيكية قناعا . واستمد باث من فكرة القناع الذي يعتقد أن المكسيكيين يرتدونه سواء في الولايات المتحدة أو في المكسيك تفسيره للتحقق الذي يحصل عليه

المكسيكون من المهرجانات ، وعلى الأخص من مهرجان « يوم الموتي » حينما يتم إطلاق سراح ما هو مكبوت فى الداخل بطريق « التطهير » التراجيدى ، ومن ذلك ينتقل تدليل باث إلى التاريخ وهو يعثر على معنى المكسيك الحديثة فى هويتها الأولية ، كأبناء وبنات مالينتش Molinche العشيقة الهندية لكورتيث Corteg ، الخائنة لشعبها ، ومع ذلك مؤسسة بلدها . ويختتم باث عمله جامعا شمل هذه الأفكار ، مؤكدا أن الأصالة تجئ فى العزلة(٦٠) .

إن باث روائى وهو أيضا أنثروبولوجى يتابع تقاليدالمثقفين الجنوبيين الذين عرفناهم فى الفصول السابقة ، وبينما تأثر الكثير من العلم الاجتماعى المكسيكى بالنزعة التطورية الأمريكية الشمالية لم يتأثر بها فكر باث . لقد اختار باث الأنثروبولوجى الفوضوى الميتافيزيقى كلود ليفى ستراوس نموذجا له . وكان أثر ليفى ستراوس ، كما يقر باث أنثروبولوجيا وفلسفياً ، وتبرز نقطتان فى دراسة باث لليفى ستروس تتجهان لتدعيم هذا الزعم ، الأولى قبول باث لمصادرة عدم مشروعية علاقة الملاحظ التى تسير فى اتجاه واحد ، والثانية تعاطف باث مع محاولة المايا « إلغاء التاريخ » ، وهى محاولة يجدها باث مشابهة لمحاولة البوذيين فى الهند الذين يعجب بهم أيضا هذان الزعمان يعودان بنا مرة ثانية إلى المسألة الجنوبية وإلى النزعة العالمية التى تقف ضد التاريخ القومى .

وحتى هذه النقطة كنا ندرس تنظيم الثقافة على أسس التقليد الرومانسى الميتافيزيقى السائد ، والآن نتحول لندرس التقليد الثانوى الوضعى ملتفتين إلى مجالات مهمة فى المكسيك مرتبطة بالوضعية . ويرد على الذهن مجالان هما الطب ووسائل الاتصال الجماهيرى .

وفى أنظمة الطريق الإيطالى بما فيها المكسيك – لكى نضع الفكرة على نحو أكثر عموما – وبسبب ضعف الوضعية ، كان للنموذج البيولوجى الطبى السائد عالميا فى الطب مكانه أدنى من مكانته فى البلاد التى تكون فيها الوضعية أكثر رسوخا على الرغم من أن الحكومة ترعى هذا النموذج ، ومن أن البلاد بكل تأكيد قد أسهمت فى تخرج حصتها من الأطباء المشهورين على النطاق العالمى .

هو أن تجعل تلك المكانة الأدنى المؤسسات الطبية أكثر استهدافا للنقد والتحدى ، وبمرور الوقت يسمح النقد والتحدى بتطور أكثر من نظام طبى واحد وبإضفاء الشرعية عليها ، وقد حدث ذلك بالفعل ، وعلى العكس ، فإن الجهود لإضفاء طابع الإحتراف على الطب فى المكسيك الحديثة أى بأن يكون نظام طبى واحد شرعيا لم تنجح ، وذلك على الرغم من افتراض الإدراك العام الذى يجعل من أى تنظيم مهنى حديثا حصنا لسلطة الدولة ، ومن ثم تمتلك الدولة مصلحة فى رعايته ، وبدلا من ذلك يجد المرء أن الفاعلية السياسية للنزعة الاحترافية بالنسبة للدولة مسألة محدودة بدرجة أكبر . فللدولة مصلحة فى وضع لا يوجد فيه إلا معتقد واحد سائد . وحينما يوجد تصور طبى بديل .

إذا تمسكنا بهذا المثال . بل يكون قد اتخذ طابع المؤسسة شرعيا ، فلن تكسب الدولة تأثيراً إداريا أو انضباطيا مقابل المصاريف التى تتكبدها فى تدعيم نظام ضد نظام وهذا هو الوضع بالفعل فى الهند والوضع فى المسكيك على سبيل الإمكان اليوم[٦١] .

وفى المكسيك فإن النموذج البيولوجى الطبى (أو الألوباتىA llopathic) هو المسيطر ، ولكن كما يشعر الأدب المقارن الأوسع ، فإنه فى وضع الدفاع . والإشارة إلى الهند قد تساعد فى توضيح تلك النقطة . ففى الهند فى السبعينات ، حينما نمت الهيمنة المضادة اضطرت الدولة للاعتراف بالطب الأيورفيدى Ayurvedic بل حتى لتدعيمه . وفى المكسيك يثير استياء كبيرا لدى أطباء النموذج السائد أن المعالجين الروحانيين والمشعوذين بدأوا يقدمون تحديا مماثلا لممارسى الطب الأيورفيدى . وفى الواقع فحتى فى إيطاليا حيث تناصر أحزاب المعارضة الدولة وبرنامجها للصحة « القومية » يكون المعالجون الروحانيون بادين للعيان .

وإن نظرة خاطفة إلى التعقيبات حول الطب المكسيكى توحى بأن الإنجازات النفعية للوضعية فى الطب تلقى التقدير من جانب المتعلمين ، ولكن الوضعية نفسها تلقى المعارضة وخاصة جهود الوضعيين فى الطب لدخول الميدان الفلسفى الذى يسيطر عليه الميتافيزيقيون تقليديا ، ولنأخذ على سبيل المثال نهضة الطب النفسى . فإذا كانت هذه المهنة فى بلاد مثل الولايات المتحدة شديدة الاحترام ، فليس الأمر كذلك فى المكسيك حيث يميل الأطباء إلى تحويل مرضاهم إلى أخصائيى الأعصاب بدلا من

أخصائيى الطب النفسى وأشد التفسيرات معقولية لمثل هذه الممارسات ، يعود بنا من جديد إلى قوة الميتافيزيقيا وضعف الوضعية فى المكسك . ففى المكسيك وإيطاليا حتى الأطباء يعتقدون بثنائية العقل والجسم ، أى بأن العقل روح والجسم مادة ، وأن الأمراض العقلية ليست إلا نتيجة لاختلالات عصبية ، وبينما قد تغلب النزعة الإنسانية للطبيب النفسى إريك فروم لدى بعض الأطباء على افتراضاتهم السلبية عن الطب النفسى الوضعى ، فلدى معظم الأطباء يختلف الأمر .

وتوحى الشواهد المتاحة بأنه فى بلاد مثل المكسيك وإيطاليا لا يشعر الأطباء النفسيون بأنهم أدنى مرتبة وسط الأطباء فحسب ، بل يعانون من صورتهم فى المجتمع ككل . وفى حالة العدد الضئيل من الأطباء النفسيين فى هذين البلدين ، فإن تجمع هذه الضغوط على حياتهم دفع بهم إلى أن يصبحوا منتقدين للنظام .

ولنلق نظرة سريعة على هذه الضغوط لكى نفهم كيف يمكن أن يتحول مثقفو الهيمنة إلى معادين للهيمنة ، فمع نمو المجتمع المدنى فى إيطاليا والمكسيك وخاصة فى الأعوام التالية للحرب العالمية الثانية ، بدأ عدد متزايد من الناس يطالب بالخدمات الصحية بما فيها خدمات الصحة العقلية ، وحينما صارت الحكومة مواجهة بمصروفات متزايدة تبنت منهج تقديم خدمات الصحة العقلية من خلال تشييد مستشفيات الأمراض العقلية ، وارتفع عدد هذه المستشفيات بسرعة مع تصاعد الإتجاه نحو اعتبار علل المرضى مزمنة ومن ثم تحتاج إلى الإقامة فى هذه المؤسسات . وقد هب عدد قليل من الأطباء النفسيين والمدافعين عن المجتمع المحلى فى المكسيك وإيطاليا معارضين لإساءة استغلال السلطة المهنية بواسطة مؤسسات الصحة العقلية . وكان أكثر الشخصيات شهرة فيما أصبح الآن نضالا مهما الزوجين الطبيبين الإيطاليين فرانكو (١٩٤٢ - ١٩٨٠) وفرانكا باسا جليا Franco and Franca Basaglia وقد تأثر هذان الزوجان على نحو مباشرة بأفكار جرامشى عن منح السلطة للمقهورين ؛ فشنّا حملة لتوحيد نضال الأطباء والهيئة الإدارية والمرضى ضد المستشفيات العقلية وإعادة الناس إلى مجتماتهم[٦٣] ، وبطبيعة الحال لقى ذلك معارضة . كما لقى المقابل المكسيكى لهذه الحركة ، وهو المنهج الذى يتخذ المجتمع المحلى مركزا له فى العلاج النفسى معارضة فى السبعينات المتأخرة وفقا لأحد التقارير[٦٤] .

ومثالنا الثانى لمجال تقنى مرتبط بتطور العلم الوضعى هو مجال الاتصال . وهنا تسود الوضعية ، ولكن من الواضح مرة ثانية أن تلك السيادة تواجهها الاختلافات وسوف تشيد دراسة المعلومات حول صناعة الاتصالات فى المكسيك إلى تأثير كبير لا للجنوب فحسب ، بل للجنوبيين أيضا وسبب الأول (تأثير الجنوب) هو أساسا نفس السبب بالنسبة للطب ، فصدارة وسائل الاتصال مثل صدارة الطب تعنى أن برامجها تظل لفترة طويلة أمام عيون الجمهور . ومن المتوقع - إذن - أن تنجح أو تفشل برامج وسائل الاتصال فى تناسب مع تطابقها مع المعايير الموجودة التى خططت لها الثقافة السائدة . أما السبب الثانى (الحضور الفعلى للجنوبيين واستعدادهم الممكن للتفوق فى مجال الاتصال) فهى مسألة منفصلة وإذا أخذنا فى الاعتبار تنظيم مجتمع نصفه فلاحون ونصفه سكان مدن ، فإن صناعة الاتصال فى مجتمع مثل المكسيك أو إيطاليا . عندما نقحم حديثا جانبيا - أكثر عرضة للتحدى مما هى عليه فى بلد مثل الولايات المتحدة ففى الحالة الأولى على النقيض من الثانية لا تستطيع الشبكات أن تفترض أن المشاهد يثق فى صدقها ، بل تفترض بالأحرى أنه يبحث عن خدمات عرضية وعن الترفيه . وفى هذه الشروط تكون القيمة السياسية والاقتصادية لصناعة الاتصال محدودة أكثر . وعلى النقيض من ذلك نجد فى الولايات المتحدة أن استعداد المواطنين أو سكان المدن ، وهم السكان جميعا ، يميل نحو المطابقة بين أنفسهم وبين الحكومة ؛ لذلك يستطيع المرء بالنسبة للولايات المتحدة أن يكون محقا فى الكلام عن وسائل الاتصال بوصفها وسائل جماهيرية » ، وذلك يتضمن احتمال تحول المشاهدين إلى « كتلة جماهيرية » . على حين أن المرء من ناحية أخرى لا يكون محقا بالنسبة للمكسيك فى الكلام عن صناعة الاتصالات باعتبارها وسيلة جماهيرية ؛ لأنها لا تمتلك بفضل قبولها المتردد غير الحاسم من جانب المجتمع - القوة لكى تمارس تلك الوظيفة[٦٥] .

وقد تساعد أمثلة نوعية من إيطاليا والمكسيك عن المحاولات - خاصة الفاشلة فيها التي قام بها سياسيون للتأثير فى الرأى العام بواسطة التحكم فى وسائل الإعلام ، على توضيح تلك النقطة وما توضحه الأمثلة هو أن وسائل الاتصال فى إيطاليا والمكسيك غير قادرة ببساطة على القيام بما هو معروف عنها القيام به فى الولايات المتحدة .

لقد تحول موسوليني في الثلاثينات بحماس إلى أنظمة الاتصال الجديدة في إيطاليا . وقد كان أمله من ذلك أن يكون قادرا على تخطى النظام الجامعي الذي كان في نزاع معه . ولم تنجح جهوده ، ولم يتم اكتساح الرأى العام بواسطة محاولته في الإذاعة أو الأفلام الجديدة . وكان للاثارو كارديناس تجارب مشابهة . فقد كان هو أيضا محبطا نتيجة لعجزه عن تحقيق نتائج لصالحه عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرية ، وقد حاول أيضا دون نجاح أن يشتغل لفترة قصيرة بإصلاح الجامعة . وعلى سبيل المثال طالب كارديناس في الثلاثينات أن تدرس الجامعة الماركسية . فلقى صدا من الأساتذة ، وقد قوضت جهوده في المدى الطويل شعبيته الخاصة وكان رأس الريح في معارضة مطلب كارديناس هو المثقف الجنوبي سابق الذكر أنطونيو كاسو وبتأثير كاسو ، وهنا يرد على الذهن دور كروتشه في إيطاليا ، صمدت هيئات التدريس الجامعية أمام ضغط الحكومة المالى لتنفيذ أوامرها . وفي ١٩٤٤ ، كانت قادرة على التملص من الإصلاحات التي ترعاها الحكومة ، والتي أعطت صوتا للطلبة في مجلس الجامعة . ونعود الآن إلى المسألة الثانية ، فهل هناك أسباب سوسيولوجية تشير إلى أن للجنوبيين أفضلية في صناعة الاتصال ؟ وهل يجد المرء أن ذلك المجال مكدس تكدسا شديدا برجال الأعمال ورجال الترفيه الجنوبيين ؟ و إذا كان الأمر كذلك فما هي الميزة التي يمتلكها الجنوبيون في الترفيه ؟ وبعبارة أخرى ، هل تستطيع التكنولوجيا العلمية الجديدة لهذا القرن من راديو وتليفزيون وأفلام أن تدخل المكسيك ثم لا تؤدى إلا إلى تدعيم الهيمنة التقليدية للرومانسية إزاء الوضعية ؟

ومن الواضح أنه لا توجد إجابة حاسمة عن هذه الأسئلة . ولكن ما أشرنا إليه يجعل لهذا الغرض ما يزيد على قابلية ضئيلة للتصديق ، فللمنافسة في صناعة الاتصال والترويح يحتاج المرء إلى معرفة خاصة وإلى احتكاك خاص بالمجتمع الذي عرفه الجنوبيون واعتادوا على العيش فيه أكثر من الشماليين . فاتجاهات الهجرة تدل على أن قليلا من الشماليين يعرفون الجنوب ، ولكن الكثير من الجنوبيين يعرفون الشمال . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجنوبيين الذين أصبحوا ناجحين يقومون بتغييرات في اللغة ، فمن الناحية اللغوية يجيئون من الخارج إلى الداخل . ويسمح ذلك للمرء افتراض أن الجنوبيين في صناعة الاتصالات يتجهون نحو أن يكونوا أكثر وعيا بتكوين الجمهور وكيفية مخاطبته من نظائرهم الشماليين . وهذا النوع من المعرفة قوة وسلطة .

وهل يمكن التدليل على أن الجنوبيين يلعبون بالفعل دورا فى هذه الصناعات تتيح لهم إمكاناتهم ؟ الإجابة هنا بالإثبات . فداخل صناعة الاتصالات كان للراديو تاريخيا أكبر جمهور . وكانت أقوى محطات الإذاعة تأثيرا من الثلاثينات إلى الخمسينات هى محطة خيو XEW لإميليو أثكاراجا Emilio Azcarraga ، و سلسلة المحطات التى يملكها رمولو أو فاريل Romulo OFarril وكلاهما من بويبلا Puebla . وكانت هذه المحطات تركز على الموسيقى الشعبية والمسلسلات التمثيلية لأن هذه البرامج لها أفضل إمكانات للتسويق . وكان أكثر الكتب المكسيكية الفكاهية شعبية قد امتلكه زمنا طويلا رجل أعمال جنوبى محافظ خوسيه جارثيا فالكو JOSE Garcia Valoco وفى ١٩٧٠ ، كان رئيس شبكة الإذاعة المكسيكية Radia Systema Mexcam S. A رجل أعمال جنوبى أيضا(٦٦) .

وصناعة الفيلم هى كذلك مجال آخر يمتلك فيه الجنوب نفوذا ، والفيلم فى المحل الأول هو وسيط ترفيه ، وفى المحل الثانى وسيط يسمح ببعض الانتشار للمعلومات . والعين الشمالية ترى أن دور العرض المعاصرة لا تقدم إلا أفلام هوليود القديمة من الدرجة الثالثة ، والسبب هو الامبريالية . والتفسير الذى يعادل ذلك صحة هو الربح . فهذه الأفلام يختارها الذين يعرفون ما الذى يجتذب معظم المتفرجين .

وفى الفترة الأسبق ، وخاصة فى السنوات من الأربعينات إلى الستينات ، كان للجنوب سيطرة أضعف على صناعة السينما . وخلال هذه الفترة كان قطاع عام متجه نحو الشمال يضطلع بإنتاج الأفلام ، وقد سيطر اتجاه الواقعية الجديدة على صناعة السينما المكسيكية ، كما سيطر نظيره فى إيطاليا والهند أثناء تلك الفترة . وقد سادت السوق أفلام منتجة محليا وتبرز فى الأغلب موضوعات اشتراكية . وفى هذا « العصر الذهبى » للسينما المكسيكية ظهر ممثلون موهوبون مكسيكيون من الهنود ، وكان مجرد ظهورهم يقترب من أن يكون تحديا لمحاولة النظام جعل المسألة الهندية غير مرئية ، وكان الممثل المخرج العظيم إميليو إل إنديو فرنانديث emilio ElIndio Fernandez (١٩٠٤ - ١٩٨٦) من رموز العصر الذهبى .

وقد أخرج اثنين وأربعين فيلما ، وفاز بست عشرة جائزة بينهما جائزة فى مهرجان كان ، ولأنه من أصل هندى فقد صور فى الأغلب وضع الهنود فى أفلامه .

وفى السبعينيات ، كانت هناك شواهد ملموسة تشير إلى أن الدولة – على أقل تقدير – اعتبرت أن صناعة السينما لا تلبى احتياجاتها ، ولذلك ينبغى أن ترجع إلى الترفيه وفقا لاحتياجات السوق الجماهيرية . وابتداء من هذه الفترة ، ظهرت التغيرات الكبرى فى السياسة تجاه الفيلم : عدم الاستمرار تدريجياً فى قيام القطاع العام بإنتاج الأفلام المحلية ، ثم تصاعد سياسة رقابة الدولة ومراجعتها للأفلام المحلية ، وتواطؤ الدولة المتزايد فى السبعينات والثمانينات فيما أسماه أحد الكتاب « ممارسة هوليود للإغراق السينمائى »[٦٧] . وبالنسبة للاختيار المطروح بين تنمية صناعة محلية قد تأخذ مواقف انتقادية أو استيراد أفلام أجنبية ليست انتقادية ، آثرت الدولة الاختيار الثانى موافقة على استخدام الفيلم للترفيه ذى السوق الواسعة ، ومن ثم استخدامه لصالح الذوق والتجارة « الجنوبيين » .

وباختصار ، فإن تنظيم الثقافة من المكسيك يعكس جوانب واقع الطريق الإيطالى . وقد أرغم الضعف النسبى للهيمنة – فى حالة المكسيك – الطبقة الحاكمة على أن تمنح سلطة للمثقف الجنوبى بقدر أكبر ، كما هى الحال فى أماكن أخرى . وكانت النتائج سيطرة أقوى للنظرة الرومانسية الميتافيزيقية إلى العالم ، وسيطرة أضعف للنظرة الوضعية ، كما سنرى بالنسبة للتاريخ .

كتابة التاريخ فى المكسيك

فى نظام من أنظمة الطريق الإيطالى حينمًا تم تمييع المسألة الجنوبية بواسطة قضايا محلية ، كما كانت الحال فى إيطاليا ، فإن كتابة التاريخ تبقى مفيدة بوصفها تقويماً زمنيا للأحداث النخبة أو بوصفها خصوصية محلية . وحيثما يطفو الجنوب على السطح ، ويصبح موضع تهديد . فقد ترى الدول أن ثمة حاجة ماسة لتوسيع وتعميق روابطها فى المجتمع المدنى من خلال تشجيع التاريخ الاجتماعى ، وفى تلك الحالة يعلو شأنه جعل الدراسة التاريخية بصوره فعلية ، وقد حدث ذلك فى الهند ، كما بدأ يحدث الآن فى المكسيك[٦٨] .

كتابة التاريخ : الفترة الليبرالية الأولى
(١٨٧٦ - ١٩٣٤)

أثناء الفترة الممتدة من ١٨٧٦ - ١٩٣٤ لعب الليبراليون والمحافظون معاً دوراً فى صعود حرفة التاريخ الحديث وتبعاً لدراسة حديثة ، فإن التحديد العلمى الحقب التاريخية ولاستخدام الأفق - للتسلسل الزمنى وإن شابه التشيع الحزبى نشأ بين المؤرخين الليبراليين في الثمانينيات من القرن الماضى[٦٩] . وقد كان للمحافظين أثرهم البارز فى إنتاج أعمال متميزة وفى تشكيل منظمات أكاديمية للدراسة التاريخية .

وفى هذه الفترة كانت أغلبية المؤرخين - دون شك - من المسيحيين المحافظين . وقد كتب بعضهم عن أقاليمهم دون الإشارة كثيراً إلى الأمة أو إلى تقدمها قبل آخرون حقيقة أن الأمة قد جاءت إلى الوجود ، ولكنهم شعروا بالأسف على ما فقدته الأمة لتحقيق ذلك . وكان أشهر شخصيات هذه المجموعة الأخيرة هو دروثكو أى بيرا Dragco y Berra . ومع صعود بورفيريو دياث شرع دروثكو فى دراسة الفترات قبل الأسبانية والاستعمارية و باعتبار ذلك تأكيد لاستقلال المكسيك وما استتبعه هذا الاستقلال . والمؤرخ الثانى ذو الميول الإسبانية كان خواكين جارثيا إكاثيالثيتا Joaquin Garcia Icojhalceta . وقد لاحظ من ترجم لخيانة أنه كان مستفيداً من الدولة الجديدة ، فهو مكان من ملاك الأرض واتسعت ملكيته اتساعاً كبيراً أثناء حياته على حساب الهنود .

وكان لهذين المؤرخين من تابع عملهم بين المحافظين فى هذا القرن وخاصة بين مؤرخى الدين ، أى مؤرخين من أمثال ماريو كويفاس Mario Cueves وخوسيه برافو أوجارتى Jase Bravo Ugarte[٧٠] . ويمكن أن ندرج بين المؤرخين المحافظين الآخرين ذوى الميول الأسبانية القوية أتاناسيو سارافيا إى أراجون Atanasio Sarawa y Arcgon (١٨٨٨ - ١٩٦٩) . وفى عام ١٩١٩ ، إنشاء سارافيا إى اراجون أكاديمية التاريخ المكسيكية جاعلا منها فرعاً من الأكاديمية الملكية فى مدد يد نصب نفسه كأول رئيس تحرير لدورية الأكاديمية Memarias[٧١] .

ومع صعود ثقافة أكثر علمانية بين الليبراليين جاء تحديث المتاحف القومية والأرشيفات القومية ، وأخيراً - وليس آخراً - دراسة التاريخ فى الجامعة القومية[٧٢].

وتشمل الأمثلة على المؤرخين الليبراليين الأوائل لويس جونثاليث أبريجون Luis Ganjalej Abregon (١٨٦٥ – ١٩٣٨) ، وقد ظل لفترة طويلة موظفاً فى المتحف القومى ، وألف عدداً من الكتب عن العادات والنوادر المكسيكية القديمة ، وكذلك عن مكسيكو سيتى القديمة . وفى فترة متأخرة من نشاطه كتب تاريخاً للمكتبة القومية . (١٩١٠) وفى النهاية ختم نشاطه عضواً فى الأكاديمية المكسيكية للغة والتاريخ والمحرر الأول لما تعد اليوم أقدم دورية وأكثرها نفوذاً : Baletin وهى مجلة الأرشيف القومى(٧٣) .

أما خوان بوتيستا إجوينيث Juan Bautista Iguinij (١٨٨١ – ١٩٦٨) ، وهو محقق للوثائق ، فقد كان خبيراً بالكتب والمخطوطات لدى مؤسسات معينة فى موطنه جواداً لاخارا Guadalajyara ، وارتقى فى عمله فانتقل إلى المتحف القومى . وقد تغير نشاطه من الاهتمامات المحلية إلى القومية . وتضم أعماله المتأخرة ثبتا بالمراجع عن الكتابات اليسوعية وموجزاً التطبيق نظام ديوى العشرى على المكتبات المكسيكية ، ومجموعات وثائق للتاريخ الإقليمى .

والشخصية الثالثة هى فرنانو راميريث دى اجويلار Fernendo Ramirej de Aguilar (١٨٨٧ – ١٩٥٣) القادم من واخاكا ، والذى استغل بنجاح المعرفة الثقافية المحلية وجعل منها مهنته بوصفه مؤرخاً محترفاً . وإلى جانب ذلك عمل صحفيا وسياسياً على مستوى البلديات فى مكسيكو سيتى ودرّس الفولكلور . وفى عام ١٩٣٣ ساعد فى تنظيم المؤتمر القومى الأول للتاريخ المكسيكى(٧٤) . وبعد ذلك انعقد هذا المؤتمر كل سنتين فى العواصم الإقليمية ، مؤدياً دور الحافز لسنوات طويلة على نشر التواريخ المحلية ، وعلى جمع المواد من مصادرها الأصلية .

وفى ١٩١٤ ، أصبحت مدرسة الدارسات العليا Escuela de Altos Estudi os التابعة للجامعة القومية مركزاً بحثياً . وفى ١٩٢٧ ، كانت تقدم برامج لدرجتى الماجستير والدكتوراه . وبعد ذلك بدأ مركز الثقل فى البحث التاريخى ينتقل – تدريجياً – إلى المؤسسات الأكاديمية ، ولكن الانتقال كان بطيئاً نتيجة لمشاكل الأكاديميين فى الفترة الإدماجية . فلم تبدأ الرسائل الجامعية فى الظهور بمقادير لها وزنها إلا فى الأربعينيات . وهكذا وجد الجيل الأول من أساتذة الجامعة – دون شك – أن من الأسهل العمل خارج

الجامعة وليس من خلالها . وعلى سبيل المثال ، فقد لعب إميليو رابوسا Emilio Rabeosa ، وهو أستاذ قانون دستورى ، ومعه زملاؤه من كلية الحقوق فى الجامعة القومية ، دوراً قيادياً فى العشرينيات فى تشكيل « الأكاديمية القومية للتاريخ والجغرافيا » .

أما الشخصية التى كانت تتويجا للكتابة التاريخية الليبرالية فى هذا الطور الأول فهى خوستو سييرا Justo Sierra (١٨٤٨ - ١٩١٢) . وكان مثقفاً جنوبياً مثالياً ، سبق تقديمه بوصفه وثيق الصلة ببورفيريد دياثه . ولكن سييرا بوصفه مؤرخاً كان أقرب إلى عالم الحياة اليومية للشعب منه إلى عالم التقليد الميتافيزيقى الفلسفى لمنطقته المحلية ولطبقته . وفى أشهر كتبه : المكسيك ، تطورها الاجتماعى (١٩٠٠ - ١٩٠٢) Mexico : Su evolucion Sucial كشف سييرا بمن ذاته بوصفه قومياً عبّر عن روح الشعب المكسيكى الصاعد . وهناك بعض التأميلات حول كيفية معرفة على الرغم من خلفيته الاجتماعية الراقية - بهذا الكم عن تفاصيل الحياة فى المكسيك . وهناك وجهة نظر ترجع معرفته إلى سنوات خدمته فى القضاء المكسيكى ، التى هيأت له حياته العملية الأساسية . ومهما يكن السبب ، فقد أصبح سييرا شهيداً فى الحياة العامة بسبب كتاباته دون أن يصبح محلا للجدال ، مثلما كان ينظر إلى الليبراليين عادة .

كتابة التاريخ فى العهد الإدماجى

كانت الأغلبية العظمى من المؤرخين المكسيكيين ، كما كانت الحال فى إيطاليا خصوصاً النزعة الإدماجية . وتبدو شخصياتهم عند المعجبين بهم بالرجوع إلى الوراء كأبطال ، وفى بعض الحالات أيضا كشخصيات مؤسسة للدراسات التاريخية أثناء المرحلة الليبرالية الجديدة . ولا ريب أن بالإمكان الأخذ بهذه الصيغة - على الأقل - ومقارنة دور الباحث المكسيكى البارز دانييل كوسيو فيليجاس (١٨٩٨ - ١٩٧٦) Daniel Cosio Villegas بدور فيديريكو تشابود Federico chabod أو حتى بدور كروتشه فى إيطاليا ، ما دام المكسيكيون مثل الإيطاليين ينظرون هذه النظرة إلى تلك الشخصيات .

وينتمى كوسيو فيلليجاس – مثل كروتشه – إلى فئة الشخصيات العظيمة ، وقد جاء إلى دراسة التاريخ من خلال حياة عملية امتدت على عدة ميادين أخرى مثل الاقتصاد والنشر والديبلو ماسية . وخلال عمله فى تلك المجالات الأخرى قامت الإدماجية التى عارضها . وفى معارضته لها ، راح ينتزع منها مصادرها الثقافية بنفس القدر الذى حاول كروتشه أن يحققه فى إيطاليا ، وبين جوانب نجاح كوسيو فيلليجاس كان فصله « المدرسة القومية للاقتصاد » عام ١٩٣٣ عن « الجامعة القومية » التى كانت أكثر ميلاً إلى الاشتراكية . كما أسس دار النشر المهمة « أصول الثقافة الاقتصادية » Fondo de Cultura Economice التى ترجمت ونشرت كتباً كثيرة من الولايات المتحدة ، وكان فى الثلاثينيات أيضا من بين مؤسسى الجامعة الخاصة كلية المكسيك El Colegio de Mexico ، وبعد ذلك كان مؤسسا لكلية الاقتصاد التابعة لجامعة ليون الحديثة . Nueva Leon . جملة القول ، نجد جوهر الإيديولوجية عند كوسيو فيلليجاس يتمثل فى نزعة قومية ليبرالية قديمة الطراز . وعلى حين كان معادياً للإكليريكية ، فإنه مثل سييرا والليبراليين الآخرين فى نهاية عهد دياث الذين استطاعوا الاستمرار فى مواقعهم عندئذ ، وأثناء فترة كارديناس معا ، كان مختلفاً اختلافاً جوهرياً عن الليبراليين الجدد . للجيل الذى نشأ فى ا لأربعينيات . وهكذا ،نجده يختم حياته العملية بتوجيه النقد لمختلف الأنظمة التى ظهرت بعد الحرب(٧٥) . ومع التحول إلى اليمين فى الأربعينيات – إذا نتجاوز فترتنا قليلاً – كان كوسيو فيلليجاس منتمياً بدرجة كبيرة إلى الوضعية الليبرالية للجيل الأقدم . وفى ذلك الوقت تحول إلى كتابة التاريخ . ولما كان واسع الخبرة الوثائق والمصادر الأرشيفية ، فقد استطاع الحفاظ على حلقته الدراسية الشهيرة فى التاريخ الحديث التى أصدرت السفر الطموح متعدد المؤلفين متعدد الأجزاء المعنون التاريخ الحديث Historia Mode-na .

وعلى الجانب الآخر ، نجد فى مواجهة كوسيو فيلليجاس مؤرخين اثنين ، أيدا كارديناس وبرامجه ، هما · لويس تشافيث أو روتكو Luis Chafce Orgco (١٩٠١ – ١٩٦٦) ، وألفونسو تيخا ثابرى Alfonso Teja Zabree (١٨٨٨ – ١٩٦٢) . وفى كتابتهما دخلت الماركسية والفكر اليسارى المنتمى إلى الأصول المحلية كتابة التاريخ المكسيكية .

وفى مكان ما بين هاتين المجموعتين يجد المرء موقفاً ثالثاً نحو الإدماجية وسط المؤرخين ، وخاصة المؤرخين المحافظين هو موقف المنفى الذاتى (الاختيارى) . وعلى سبيل المثال ، فقد قام خوسيه برافو أو جارتى Jose Bravo Ugarte (١٨٩٦ - ١٩٦٨) ، وهو يسوعى ومؤرخ نابه للكنيسة الكاثوليكية المكسيكية بوظائف تدريس أثناء سنوات كار ديناس أولاً فى جوادا لاخارا ، ثم بعد سنوات فى الجامعة الإيبيرية الأمريكية فى العاصمة . واختار مؤرخ كنسى بارز آخر هو ماريانو كويفاس Mariano Cuevas (١٨٧٩ - ١٩٤٩) اليسوعى أيضا أن يقوم بالتدريس فى الخارج أثناء عهد كارديناس قبل أن يجئ إلى مكسيكو سيتى[٧٦] . وفى سنوات اضمحلال النزعة النقابية ظهرت الجامعة الخاصة كلية المكسيك Elcolegio de Mexico ، التى وفرت وظيفة للمؤرخ رامون إجليسيا إى بارجو Ramon Iglesia y Pargo (١٩٠٥ - ١٩٤٨) ، وهو لاجئ أسبانى ومتخصص فى الدراسات الأسبانية .

كتابة التاريخ فى عهد الليبرالية الجديدة

كشف التخصص التاريخى فيما بعد الحرب فى المكسيك التطور من الليبرالية إلى الليبرالية الجديدة ، واندماج الماركسية فى حرفة المؤرخ كاتجاه ثانوى ، ورد الاعتبار للتاريخ المحلى باعتباره أيضا اتجاها ثانويا . وقد أتاحت الأزمة المتصاعدة بعد عام ١٩٦٨ المؤرخين فرصاً جديدة ، فالتفتت الدولة إليهم آملة أن تشكل روابط أعمق فى المجتمع المدنى ومع الولايات المتحدة .

وشهدت السنوات المبكرة من عهد الليبرالية الجديدة المؤتمر التاريخى المكسيكى وامتداداته فى المتاحف القومية والأرشيفات والجامعات الإقليمية ، أى البنية المؤسسية القديمة داخل نطاق حرفة التاريخ التى استخدمها نظام كارديناس وللترويج الإدماج القومى ، وكانت فى حالة متدهورة . وعلى كل ، لم يتم تأسيس أى هيكل تنظيمى يجمع بين هذه المؤسسات والمنظمات .

واستناداً إلى عناوين الأطروحات والرسائل المقبولة من جانب الجامعات المكسيكية بين ١٩٤١ و ١٩٦٨ ، نجد أن القرن العشرين قد لقى اهتماماً كبيراً تناقص بعد عام ١٩٦٨ . ويلاحظه تبنى موضوع المجتمع المدنى بعد عام ١٩٦٨[٧٧] .

تبنى موضوع المجتمع المدنى بعد عام ١٩٦٨[٧٧] . فقد أخذ الجيل الجديد يتشكك فى وجوده .

وفى دراسة حديثة ، قامت بمسح الاتجاهات فى دراسة فتح المكسيك والفترة الاستعمارية المبكرة ، كتبها مكسيكيون بعد عام ١٩٤٥ انتهى أصحابها إلى أن كتابة التاريخ المؤسسى تناقصت فى هذين التخصصيين عما كانت عليه من قبل . وينبغى أن نتذكر أن التاريخ المؤسسى . كان فرعاً رئيسياً فى التاريخ الوضعى الليبرالى الأسبق وجوداً ، وكانت تلك هى الحال خاصة فى هذين التخصصيين بفضل سيلفيو ثافالا Sil- vio Zavola وزملائه الأساتذة الذين سيطروا على هذين المجالين لعقود طويلة .

وقد وجدت هذه الدراسة أيضاً أن الجاذبية المتنامية لليبرالية الجديدة لدى الجيل الأصغر سناً بدا أنها تدفع المؤرخين إلى تقديم الموضوعات بطريقة أكثر تجزئة عن ذى قبل ، وأنه بالإضافة إلى ذلك حاول مؤرخو ما بعد عام ١٩٤٥ ، تجنب القضايا أو إعادة صياغة القضايا التى كانت موضع خلاف بينهم فى عهد كارديناس ؛ مثل تأكيد التأثير المتبادل بين الهنود والأسبان ، بدلاً من تبنى المواقف الأقدم الأكثر تحزباً التى تبعث عن الانقسام . وهناك مثال آخر على إعادة صياغة القضايا قدمته هذه الدراسة ، واستمدته من مقال لإدموندو أو جورمان Edmundo O' Gorman وهو ممثل بارز للنزعة المنظورية وهى أحد أشكال الليبرالية الجديدة . وفى هذا المقال علق أو جورمان على مزاعم بالإدانة المؤرخ الأمريكى لويس هانك Leuis Janke ذات الطابع الوضعى نسبياً والقطعى غالباً ، المتصلة بالدور الأسبانى فى المكسيك ، ووصل إلى ملاحظة أن الأسبان فعلوا ما فعلوه وفقاً للأخلاقيات والقيم السائدة فى تلك الفترة . فنحن لا نستطيع أن نحكم على الأسبان وفقاً للمعايير الأخلاقية لعصرنا الحاضر[٧٨] . وكان هذا شيئاً جديداً . فقد كان من الممكن لجيل أسبق من الدارسين أن يصل إلى نفس النتائج ، ولكنهم كانوا سيفعلون ذلك استناداً إلى معايير القومية أو الدين أو إلى الأسس التقنية أو الحقائق الواقعية .

وفى دراسة حديثة لتفسير الثورة المكسيكية فى المكسيك ، أوضح المؤلف أنه مر بتحول درامى بعد عام ١٩٤٠ ، أصبح أكثر بروزاً فى أعقاب التحرر من الأوهام الذى أعقب مذبحة الطلبة فى عام ١٩٦٨ . فما تهاوى فى تلك اللحظة – على حد قول المؤلف – كان الفكرة الوضعية القائلة بأن الثورة كانت نقطة ثابتة أو بداية كبرى .

وكمثـال على النوع الجـديد من الدراسـة المتخـصـصـة عن الثـورة ، أشـار المؤلف إلى مؤلفات لويس جونثاليث Luis Gonj alej ، وهو مؤرخ من الجيل الأصغر سناً معروف جيداً بفضل كتابه دعوة إلى تاريخ الوحدات الصغرى Imvitacion a le Microhistoria (١٩٧٣) ويبين هذا الكتاب أنه بالنسبة لمنطقة ميتشوا كان Michoacan ، كانت الثورة أقل كثيراً من أن تكون حداً فاصلاً ، قياساً ، بفترة كريستيرد اللاحقة . وهذه النظرة الثاقبة المستمدة من الخبرة الشخصية وضعت الهيكل الذى يجمع بين الفكرة القائلة بمراحل التاريخ الرسمى ، موضع التساؤل(٩٧) .

وبعد عام ١٩٦٨ - كما رأينا فيما سبق - ارتفعت مكانة التاريخ مرة ثانية ، وبحدوث ذلك ظهرت مجموعة من الصلات بين المؤرخين والبيروقراطية . وقد شخص عدد من المؤرخين الذين أجريت معهم لقاءات عام ١٩٨٠ فى مكسيكو سيتى تنظيم الحرفة فى ذلك الوقت بلغة بمصطلح « الحلقية » (أو الثلة) وهو التجمع الاجتماعى الجوهرى فى النظام البيروقراطية(٨٠) . وبطبيعة الحال ، واصلت التنظيمات الخاصة بدراسة التاريخ البقاء كذلك ، ولكن عند الذين قدموا إلىّ إجاباتهم كان الواقع السائد هو تكتلات اليسار واليمين والوسط فى الحزب الحاكم التى يستطيع المرء أن يجد حولها مجموعات من الدارسين ودورياتهم . وقد أشاروا إلى مجموعة يسارية حول الدورية الاتحاد Nexos تضم المؤرخ إينريك فلوريسكانو Enrique Flarescano وزوجته ، والمؤرخة اليخاندرا مورينو توسكانو Aleyandra Morena Torcon وهى ابنة عضو مجلس شيوخ فى الحزب الحاكم ، والعالم السياسى بابلو جونثاليت كاسانوفا Pallo Gonj alej cosanova . وقد أنتجت هذه الحلقة الكتاب النقدى المعنون « التاريخ ، لماذا ؟ » (١٩٨٠) ? Historia Para Que .

ونتعرف على عنصر وسطى فى الكتابة التاريخية المكسيكية يقوده إدموندو أوجورمان ، ولكنه يشمل الكاتب أكتافيو باشا فى الدورية المسماه « الانعطاف » Vuelta ، على حين أن يمين الحرفة يمثله سيلفيو ثافالا وعدد آخر من أساتذة كلية المكسيك El colegio de Mexico ومؤلفاتهم المنشورة ، فإن غلبة « الحلقية أو (الثلة) شئ جديدة بالنسبة للسبعينات يحتاج إلى دراسة خاصة . ومن الواضح أن عضوية الثلة تختلف عن انتساب المؤرخين إلى الأحزاب - كما فى الهند - أو عن انتسابهم إلى التنظيمات المتخصصة الأقدم فى المكسيك أو فى البلاد الأخرى . فذلك يتضمن -- على

ما يبدو – مستوى أعلى من الارتباط السياسى . ولكنه لا يتضمن بالضرورة فكراً جديداً . وفى الواقع يمكن اعتبار العضوية فى الثلة دلالة على التشبث – بالمعنى العقلى – بالوضع القائم . ووجهة النظر هذه – تدعمها بطريقة غير مباشرة على أقل تقدير – نتائج الدراستين الأساسيتين عن فلسفة التاريخ فى مكسيك ما بعد الحرب . وتدلك هاتين الدراستين على أن الفكر التاريخى بين الأربعينات والسبعينات لم يقطع صلته – إلا نادراً – بفكر المرحلة السابقة ، وتبرز إحدى هاتين الدراستين أهمية النظر الرومانسية الميتافيزيقية إلى العالم ، وتبرز الأخري انبثاق النزعة العالمية ، أو الليبرالية الجديدة[٨١] . ويمكن أيضا أن نرى سنة ١٩٦٨ باعتبارها النقطة التى تبدأ عندها إسهام المؤرخين فى العلاقات بين المكسيك والولايات المتحدة يؤتى ثماره .

فإن السنوات الطويلة من عقد مؤتمرات ثنائية القومية ومواجهات Encuentras قد أحدثت اختلافاً[٨٢] . وفى هذه المؤتمرات – التى ظلت تنعقد بانتظام منذ عام ١٩٤٩ – كان من المهم سياسياً فكرة أن الولايات المتحدة والمكسيك شريكتان . وتفسر قدرة مجموعة من المؤرخين المكسيكيين على عرض هذه الفكرة وتوضيحها اهتمام الحزب الحاكم ، بحرفة التاريخ . فكيف قام المؤرخون بذلك ؟ من الواضح أن المشاركة فى العالم الأكاديمى المتقلب سياسياً ليست تلقائية تتصل بعلاقات الزمالة ، بل تتم بطرق ملتوية فى إطار المؤتمرات نفسها . وفى كل مؤتمر كان المنظمون يختارون موضوعاً ، وكان المشتركون بطبيعة الحال يقدمون تفسيرات متعددة للموضوع ، وكان تعدد التفسيرات يقوم بتجسيد كل تفسير منها مما يقلل من حجيتها ومن مغزى الانتماء القومى للمؤلف . وما يبرز فى النسخة المطبوعة هو ببساطة قائمة العناوين الفرعية المندرجة تحت الموضوع . وهكذا يبين فهرس المحتويات أن الانقسامات الواقعية ليست بين المكسيكيين والأمريكيين ، بل بين أفراد من كلا البلدين مهتمين بالعناوين الفرعية ، أى أن المكسيك والولايات المتحدة شريكتان .

وفى البحث عن طريقة عامة لتشخيص الجيل المعاصر من المؤرخين المكسيكيين الذين يشتركون فى هذه المؤتمرات ، تصدمنا الصلة العميقة طويلة المدى التى أقامها هؤلاء المكسيكيون بالولايات المتحدة أو بأوروبا الغربية أو بكليتهما . وهناك شخصيتان تتوفر لدنيا معلومات عن سيرتيهما الشخصية تلخصان هذه الظاهرة الأكثر عموماً للنزعة العالمية عند النخبة ، الأولى خو سيفينا فاسكويث Josefina Vasquej .

وقد ولدت عام ١٩٣٠ فى مكسيكو سيتى وتعلمت فى هارفارد ولويزيانا وأسبانيا والجامعة القومية فى المكسيك . وهى من الطلائع المحدودى العدد من المكسيكيين الذين تخصصوا فى تاريخ الولايات المتحدة . وكانت لبضع سنوات أستاذاً ومديراً لمركز الدراسات التاريخية فى كلية المكسيك وتشمل أعمالها المنشورة القسم الأمريكى اللاتينى من دائرة المعارف البريطانية ، وترجمة لكتاب جون فيلان John Phelan ، الملك الألفى للفرنسيسكان The Millenial Hing dom of the Frenciscan ، وكتاباً عن الحرب الأمريكية المكسيكية عام ١٨٤٧ . والشخصية الثانية هى إرنستو دى لاتورى فيلار Ernesteodele Torre Villar . وقد ولد عام ١٩١٧ فى مكسيو سيتى وتلقى تعليما عالى الطابع ، وبعد ذلك صنع شهرته بوصفه مديراً للأرشيف القومى ، وأستاذاً فى كلية المكسيك .

إن الهيمنة فى أنظمة الطريق الإيطالى تتطلب إعادة إنتاج مثقف جنوبى ليس على المستوى القومى فحسب ، بل على المستوى المحلى أيضا[٨٣] . وعلى أى حال فعند وجود ضعف فى الهيمنة قد يرتقى المثقف الجنوبى إلى العاصمة القومية ؛ ليكون ذلك بديلاً لفقدان النفوذ على المستوى المحلى فى الجنوب . وفى الجنوب الحالى ، يلاحظ المرء تخلياً تدريجياً عن عالم الفولكلور والأسطورة وعودة إلى إنتاج التاريخ . ونختتم كلامنا بتناول أمثلة للمؤرخين النابهين من الجنوب والأعمال التى أنتجوها إما فى مكسيكو سيتى أو فى الجنوب الجغرافى .

وإذا بدأنا بهؤلاء الذين غادروا الجنوب ، نجد أنجيل ماريا جاريباى ك . Angel Maria Garibay K. (١٨٩٢ - ١٩٦٧) وكان رجل دين ودارس لحضارة ناهواتل Nahuatl ، وقد انتهج فى حياته العملية خطا نقله من قسيس أبرشية إلى أستاذ متميز فى الجامعة القومية عام ١٩٥٢ . وفى هذه الأثناء عاش عشرين عاماً بين هنود الهضبة الوسطى ، ونشر أعمالاً مهمة عن تاريخهم[٨٤] . كما نجد أجوستين كوى كانوفاس Agustin Cue Canovas (١٩١٣ - ١٩٧١) ، كان معلماً لسنوات طويلة فى المدارس ومعاهد العلوم التطبيقية الجنوبية المحلية ، وصنع شهرته بوصفه عضواً فى الحزب الاشتراكى من تاباسكو Tabasco . وقد عُرف طويلاً بتعاطفه مع حركة زاباتا وباهتمامه بقضية استقلال المكسيك ، ثم ختم نشاطه العلمى دارساً لمصير النزعة الدستورية الليبرالية كأستاذ فى الجامعة القومية[٨٥] . وكانت هاتان الشخصيتان

استثناء بطبيعة الحال . ويمكن تقريباً القول بأن الطريق من الجنوب إلى التيار الرئيسى التاريخى ، فى الشمال كانت طريقا وعرة ؛ فالتخصصات ووجهات النظر إلى العالم فى الشمال مختلفة كثيراً عن مثيلاتها فى الجنوب . ولم تكن الرحلة سهلة إلا على سيلفيو ثاقالا ، المتخصص فى العهد الاستعمارى ، فقد أسهمت فى نجاحه ثروته الشخصية وارتباطاته السياسية وطبيعة التخصص الذى يعمل به وفى أغلب الأحوال ، لم تخط أعمال الدارسين الذين يعيشون ويعملون فى الجنوب إلا بقدر ضئيل من المناقشة فى الكتابات التى تدور حول كتابة التاريخ . وأمثلة هذه الشخصيات من السياق المكسيكى المعاصر الفريدو باريرو فاسكويث Albredo Barrero Vos quej ، (المولود فى ١٩٠٠ الذى عمل أساساً فى ميريدا مصنفاً لقاموس من لغة المايا إلى اللغة الأسبانية ، ومن الأسانية إلى لغة المايا ، ومنذ سنوات كان رئيساً لقسم فقه اللغة واللغويات للمركز المحلى الجنوبى الشرقى INAFH . وكان رساما وشاعراً ، وهنا يبرز الطابع «الموسوعى» للمثقف الجنوبى ، كما كان مؤسساً لمعهد الفنون الجميلة فى يوكاتان . والشخصية الثانية من هذا الطراز هى هومبرتو لارا إى لارا Humbeto Lara Y Lara (المولود عام ١٩٠٦) وهو صحفى وأستاذ تاريخ الثقافات الشرقية والأدب العالمى فى جامعة يوكاتان . ويدير بالإضافة إلى ذلك داراً للنشر[٨٦] .

وختاماً ، لقد قدمنا المكسيك فى هذا الفصل بوصفها مثالاً أمريكياً لاتينيا للطريق الإيطالى . وكانت سمتها البارزة الهجرة الداخلية طويلة المدى إلى المدينة العاصمة ، وهى هجرة ميزت تاريخ هذا البلد عن الأمثلة الأخرى للطريق الإيطالى التى درست فى هذا الكتاب .

ننتقل الآن إلى دراسة شكل ثالث رئيسى من الهيمنة موجود فى العالم الحديث هو « الدولة الإثنية القبلية » . وتقدم الفصول التالية صيغتين رئيسيتين لها .

هوامش الفصل السادس

1 - Barry Carr, " The Pecularities of the Mexican North, 1880 - 1928 : An Essay in terpretaion' (univ. of Glasgow, Occasianel Papers, No4 (1971) .

وجهة النظر الشائعة هو أن روابط بورفيريو دياث بالجنوب لن تكون ملائمة للسماح بسيطرة رأسمالية شمالية .

ولكن ذلك يكذبه تركيز بناء السكك الحديدية في الشمال . انظر : John H. Coatswopth, Growth Against Development : The Economic Impact of Railroads in Porferian Mexico (De kall : Northern Illimois Univ. Press, 1981) 178 , 183 - 4,

والمؤلف يلاحظ دور السكك الحديدية في تسهيل الهجرة الداخلية ، والاتصال بين النخب ، وعمل وزارات الحكومة على النطاق القومي ، وإعطاء بيروقراطية الدولة خبرة في ضبط الأجور .

٢ - عن وجهة النظر إلى الأقاليم المختلفة باعتبارها « بلاد المكسيك الأخرى » ببساطة أو باعتبارها « أطراف التطور الرأسمالي المكسيكي » انظر : Gillert M. Joseph, From Caste War to class War; The Historiography of Modern Y ucatan (c. 1756 - 1940), Hispanic Americen Historicol Review 65, mo. 1 (1985) : 111 - 134.

ويمكن للمرء أن يأخذ من هذه المقالة عدداً من التفاصيل مفيدة لنمط من التحليل قائم على المسألة الجنوبية ، فطرد أغلبية جنود الياكوى Yaqui خارج الشمال إلى الجنوب في القرن التاسع عشر أسهم في تراصف الطابع الإثني والمنطقة ، كما أن التحقيب في تاريخ يوكاتان والتاريخ القومي قد تم الكشف عن عدم انسجامه ، وكذلك دور الطائفة قد كُشف عن أهميته لتحليل يوكاتان . انظر :

Thomes Beniamin and William Mc Nellie, eds. Other Mexicos : Essays on Regional Mexican History. 1876 - 1911 (Allu querque : Umiv. of New Mexico Pren, 1984) 46, 78 ff , 137 , 148 , 243 .

وهى مقالات تتنافس انتقال السلطة في ولاية شمالية هي تشيهوا هوا Chihu dhua ، من عائلة تيراثا Terraza الأكثر تقليدية إلى إنريك سي كريل Enaique C. Creel وهو رجل مال عالمي ، ودور رأسمالي وانتشيرو Ran Chero في هيدالجو الشمالية Northen Hidalgo ، وتكوين الطبقة العاملة في كوماركا لاجونا Comarca Laguna في شمال المكسيك الوسطى . ويقف هذا الجزء من الكتاب في تقابل مع الجزء الذي يتنافس سماسرة السلطة في بوبيلا ، شخصيات من أمثال المحافظ ذي النزعة السلطوية ، موكيو . بي . مارتينيث . Mucio P. Martinej الذي شغل منصبه من ١٨٩٢ إلى ١٩١١ ، والأجانب الذين سيطروا على مزارع البن في سوكونوسكو (تشيباس Socunusco (chipes) .

٣ - يمكن أن نستخلص مثالاً إيطالياً من :

Frank Snowden, Violence and Great Estates in the South of Ialy : Apulia 1900 - 1922 (Camliridge Univ. Press, 1986), 94.

4 - Friedrich ch Katz, The Secret War in Mexico, Europe, the United States and the Mexican Revolution (Chicaga : Univ. of Chicogo Pren, 1981) , 5.

5 - D. A. Brading, Prophecy and Myth in Mexicam History (Cambridge : Center of Latin American Studies, 1984.) .

وهو يوضح الجذور القبل حداثية للمكسيك الحديثة بنفس الطريقة التى بدأ بها جرامشى فى دراسته للتاريخ الإيطالى . ويعقد المؤلف عدداً من المقارنات المفيدة التى تتعلق بالمكسيك وأسبانيا وإيطاليا وحتى مصر ومتمسك بالتفرد النسبى للمكسيك فى أمريكا اللاتينية .

6 - Thonas Benjamin and Marcial Ocasio Melendez, Organizing the Memory of Modern mexico : Prafirian Historiography in Perspective, 1880 - 1980's, Hispanic American Histoical Review 64, mo. 2 (1984) :

323 - 364, esp. 358.

وكما كانت الحال فى إيطاليا انقسم الليبراليون عند ميلاد الدولة الجديدة ، وكان بعضهم عمليين فيما يتعلق بمدى الإصلاحات الديموقراطية مثل خو سقو سييرا فى جريدته « الحرية » وكان البعض الآخر – وهم أكثر مذهبية فى ليبراليتهم – يتشبثون بدستور ١٨٥٧ ، انظر :

Charles A. Week, The Juarez Myth in Mexico. (Tascaloosa : Unin of Alabama Prem, 1987,)

والصفحات ٢٨ وما بعدها. تشهد بكاتب يقارن خواريت Juary بغاريبالدى الإيطالى .

وعلى النطاق العالمى كان للعهد البرفيريوى سمعة سيئة لاستعماله عمل السخرة وعبودية الدين ، انظر :

Jahn Kenneth Turner, Barbarous Mexico, excerpted in W. Dirk Raat, ed. Mexico from independence to Revolution 1810 - 1910 (Lin coln : Univ. of Webraska pres, 1982), El. 18.

ولسبب ما أفلت عهد الحكم البريطانى فى الهند وكبار الملاك فى إيطاليا من هذا التدقيق .

7 - Michael C. meyer and William L. Shermon, The Course of Mexicon History (New York : Oxford Uniw. Press, 1987) 55 - 61

وفيما يتعلق بمثال حديث لهذه الحركة التى تنقل الأنثروبولوجيا إلى مجال التاريخ ، وتجعل حضارة الأزتك والمايا بادية للعيان أمام التاريخ المقارن والاقتصاد السياسى ، انظر :

Thomas C. Patterson, Las sociedades nucleares de Mesoamerica (Caracas : Historia General de America, Farth coning.

وفيما يتعلق بمثال للثقافة المقارنة ، انظر :

Werner Muller " Raum und Zeit in Sprachen und Kalendern Nordamerikas und Alteur ogas : Der ramis che Kalender, " Anthropos 77 (1987) 533 - 445.

وقبل ذلك أدخلت مدرسة شيكاغو متمثلة فى رويرت ردفيلد Rabert Redfield وملتون سنجر Milton Singer فكرة « التقليد الكبير » والتقليد الصغير باستخدام المكسيك والهند كمثلين ، وانظر أيضا :

Gabriel Almand and Sidney Verba, The Civic Culture, Politcal Atitudes and Democracy in Five Nations (Newbry Park, California :

وقد صدر بعد ذلك فى شكل جديد فى مجلد له هيئة تحرير :

The Civic Culture Revisited (Newbury Park : Sage Publications, 1989)

وقد تناول الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وألمانيا وإيطاليا والمكسيك وقد أخذت إيطاليا والمكسيك باعتبارهما مثلين للتحديث الانتقالي الذى يختلف عن الديموقراطيات فى مقولات مثل « الاغتراب وضيق الأفق والبيئة السياسية والفساد » .

٨ – يمكن أن نجد مثالاً على القيود التى شعر بها المتخصصون فى المكسيك إزاء استخدام جرامشى فى تعليق الأستاذ المعروف جون وماك الابن John Woma ck,jr الذى لاحظ كيف أن جرامشى كان مرفوضاً من جانب المؤرخين الإيطاليين حتى فى الستينيات من هذا القرن :

The Mexicon Economy During the Revolution, 1910 - 1920 : Historiography and Annalysis, "Marxist Perspectives " (1978) : 123 , Ftn. 54

وقد استشهد كتحذير لزملائه المتخصصين فى المكسيك بالمقال الآتى :

A. William Salomone, : The Risorgimento Between Ideology and History : The Political Myth of the Rivoluzione Manata " , The Amercan Historical Review. 68 (1962) : 38 - 56.

وقد اعتراض سالومونى على نقص الاهتمام بالثورة البورجوازية فى إيطاليا القرن التاسع عشر ، وعلى الصفة غائية النزعة للفكر الشيوعى فى مسائل من قبيل الثورات المخذولة » وعلى نقاط أخرى . وذلك نابع من منهجيته التعددية الليبرالية . ومنذ أن كتب سالومونى مقاله ظهرت مجموعة من الأعمال المتخصصة السديدة عن جرامشى وعن تطبيق أفكاره على التاريخ الإيطالى ، ومن أمثلتها عن جرامشى :

John Cammett, Antonio Gramsci and the Origins of Italian Communism (Palo Alta : Calif-Univ. 1967) John. A. Davis, ed., Gramsci and Italy's Passive Revolution (Landon : Groom Helm Ltd., 1979)

وفى تلك الأثناء كانت ترجمة جرامشى إلى الأسبانية عن طبعة جيراتانا Gerratana قد بدأت تؤثر فى الدراسات المكسيكية . وفى هذا الوقت استخدمت كوكبة من الكتاب فى المكسيك نظريته : انظر فيما يتعلق بنظرة عامة :

Jose Arico, La Cola del dioblo : itinerario de Gramsci en America Latina (Caracas, 1988) .

٩ – يرجع استخدام مصطلح « الشوعية الأوروبية » إلى بارى كار Brry carr انظر على سبيل المثال :

Mexican Connunism, 1968 - 1983 . Eurocommiumsm in the Americas ? (San Diego : Center For United States - Mexican Studies, 1985)

Carlos Sirvent, Christine Buci - Glucksmanm et al., eds, Gramsci y la Politica (Mexico city : UNAM, 1980) .

وفيما يتعلق بمدرسة التبعية :

David Barkin, " Mexico's Albatross : The u . S. Economy, " Modern Mexico, eds, Nora Hamilton and Timothy F. Harding (Benerly Hills : Sage Publications, 1986) 106 - 127

ويؤكد الكتاب ملكية الولايات المتحدة للصناعة الأمريكية والمصالح البترولية . ومن أجل وجهة نظر من الداخل Merrill Rippy, Oil and the Mexican Revolution, Leiden : Brill, 1972).

١٠ - يقف الكثير من الكُتاب الذين يختارون ١٨٧٦ مع ذلك عند عام ١٩١٠ ، معتبرين الفترة ١٩١٠ - ١٩٤٠ فترة ثورة . وهنا اختلف معهم مفضلا رؤية فترة ١٨٧٦ - ١٩٣٤ باعتبارها طوراً ليبرالياً ، أى طور حكم طبقة واحدة ، ورأسمالية سوق مفتوحة ، تتسم بالهيمنة النسبية لنظرة إلى العالم ليبرالية وضعية دون صد لتأثير المثقف الجنوبى فى المكسيك وتظهر قائمة من الكتاب الذين يتبنون ١٨٧٦ كنقطة للانطلاق فى مقال :

Benyamin and Ocasia Melendez, op. cit, 358 - 9.

وكذلك :

Albert L Michaels and Marvin Bernstein, " The Modernization of the Old Order : Organization and Periodiz ation of Twentieth Century Mexican History in Contemporary Mexico, edited by James W. Wilkie, Michael C. Meyer and Edna Monjan de Wilkie (Los Agels and Mexico city : univ. of Califomi a Press and El Colegiode Mexico. 1976) , 687-710

وهو يبدأ بعام ١٨٧٦ ولكنه يتناول العهد النقابى باعتباره « فترة انتقال السلطة (١٩٣٢ - ١٩٤٦) ، ويصبح حكم كاماتشو هو عهد بورفيريو مستعاداً ، وانظر :

Arnaldo Cordova, " Le Trans form a cion del P N R en P R M : El Triunfa del Corparativisme en Mexico, " ibid., 204 - 227 .

وهذا الكتاب يتبنى تحقيب ١٩٣٤ - ١٩٤٠ . ويتوقف التحقيب أيضا على ما إذا كان المرء يقوم بكتابة تاريخية قومية أو محلية . وفيما يتعلق بالثانية انظر :

Gillient M. Jaseph, Rediscovering the Past ot Mexico,s Periphery - Essays on the History of the Modern Yucatan (University, Alanma : Uniw. of Alabem a Press, 1989) .

وهنا لا يناسب التحقيب المتعلق بقضايا معينة الإطار القومى ، وهذه القضايا هى النزعة العرقية الكريولية ضد شعب المايا ، طريق التحول الرأسمالى المسدود ، عبودية الدين ، واستغلال العمل بقدر أكبر من الجنوب بالقياس إلى الشمال ، وضعف الطبقة الوسطى الجنوبية ، وعدم ترابط التاريخ السياسى الجنوبى داخل بقبة السرد التاريخى القومى .. إلخ . وعن مشاكل القرن التاسع عشر المستمرة حتى اليوم ، انظر :

Leigh Binford, Political Conflict and Land Tenure in the Mexicon Isthmus of Tehuante-pec, Journal of Latin American Stu dies 17 (1985) : 179 - 200

11 - Martin Stall. Imdigenism and Racism in Mexican Thought : 1957 - 1911 , " Journal of Inter - American Studies 1 (1959) : 405 - 423 esv. 405.

12 - Jean A. Meyer, The Gristero Rebellion : The Mexican People Between Church and State (Comleridge : Camberidge Univ. Pres, 1975) .

وفى أحد الأمثلة درأت مجموعة « مقهورة » الهزيمة من خلال « سياسة الدين » ، وفى مثال آخر واجهت عصبة منادية بتحرير المرأة معارضة الكنيسة حينما حاولت ربط مسألة المرأة بالمسألة الهندية أو بإقامة مجتمعات صغيرة يوتوبية . انظر كذلك :

Shirlene Ann Soto, The Mexican Woman : A Study of Her Particirption in The Revolution 1910 - 1940 (Pala Alto, 1979) , 63 FF ;

والمقابل الإيطالى لنساء يوكاتان هو الحركة النسائية الفوضوية الإدماجية ، وشخصيات مثل ماريا M aria Ry-gier يجبر و سنودن Snowden ، مرجع سابق ١١٤

13 - Adolfo Gilly, The Maxican Revoluion (London : Versa Press, 1983) , Ch . 1 . and also 49 FF Comparing the Indian and mexican Peas antries.

١٤ - يبدو من الممكن - عند تناول الهجرة الداخلية بوصفها حدثاً سياسياً - إقامة علاقة متبادلة بينها وبين درجة الامتداد الزمنى للعمل السياسى للحكام . وفى القرن التاسع عشر فى بلاد مثل المكسيك ومصر ، ظل الحكام فى الحكم سنوات طويلة . وبعد ذلك حينما تخلى عدد متزايد من الجنوبيين عن النضال على المستوى المحلى وهاجروا إلى العاصمة ، أصبحت فترة حكم أحكام أقصر كثيراً . وفى إيطاليا يكون ذلك محاولة بدرجة أقل .

١٥ - عن قبول رجال الدين المكسكيين الليبرالية على نحو أفضل من أمثالهم الإيطاليين :

Francois - Xavics Guerra, Le Mexique - De L' Ancien Regime a la Revolution (Paris : L'Harmattan, 1965) . 1 . Ch. 2 , 174 .

16 - Roger D. Hansen. The Politics of Mexican Development (Baltimare : Jahn Hopkins Univ. Press, 1971) , 147

وهو مثال لكتاب مبكر يؤكد عهد بورفيريو كأساس للمكسيك الحديثة .

17 - Guillerma Floris Margadant, An Introdu ction to the History of Mexican Law (Dolls Ferry : Oceana Pullic ations Inc. 1983) Ch. 8.

18 - J. Lloy d Meacham, Church and State in Latin America (Chapel Hill : Univ. North Carolina Pre2s, 1934) , ch. 16.

19 - Guene a , Op. cit., 1 : Ch. 8, enr . 15 .

٢٠ - فيما يتعلق بملخص للتاريخ المبكر للطبقة العاملة :

John Mason Hart, Revolutionary Mexico - The Coming and Process of the Mexican Revolution (Berkeley : Unir. of Colifanina Press, 1987) , chs 1 and 2 ,

وعن الفترة التالية :

Lous des Beneria and Martha Roldan, The Crosstoads of class and Gender - i ndustrial Housework, Sub contracting and Household Dyn emics in Mexico City (chicago : Unin . of Chicaga Press, 1987) .

21 - Janes Cockcroft, Intelle ctualprecursars the Mexican Revolution, 1900 - 1913 (Austin : Unin of Texas press, 1976) .

وعن قضايا النوع :

Elez aleth Salas, Soldaderos the Mxican Military - Myth and History . (Austin : Univ. of Texas Press, 1990) , 45 ff.

وكما أوضح ارتورو ورمان Arturo Warman بحق فى تلخيص تبادل للرأي بين زاباتا وفيلا أن زاباتا كان الأقرب إلى فهم الفرق بين الثورة والاستيلاء على السلطة ، فالثورة تتطلب تفاهما وتعاونا . وقد رفض فيلا ذلك ، انظر :

" The Political Project of Zapatssmo " in Riot, Rebellion, and Revoluatin edited ly Friedrich Katy (Princeton : Princeton Univ. Press, 1988) . esp. 333 - 4 .

٢٢ - هذه الموضوعات قدمت في :

Interpretaciones de le revolucion mexicana (Mexico city : Editori of Nuva I magen, 1986) ;

وفيما يتعلق بتلخيص قيم للمعلومات يعيد إدماج الثورة فى التاريخ المكسيكى ، انظر :

Jahn Womack, Jr., " The Mexican Economy During the Revolutin, 1910 - 1920 : P Historia graphy and Analysis , " Marxist Perspe ctives 1 (1978) : 80 - 123 .

23 - John Tutino, From Insurrection to Revolutuin in Mexico - Social Bases of Agrarian Violence 1750 - 1940 (Princeton : Princeton Univ. Press, 1986) , 326 - 347 .

٢٤ - نجد مثالا لتفسير فترة كارديناس باعتبارها عهداً إدماجياً لدى أرنالدو كوردوفا Arnaldo Cordova مصدر سابق . وهو ملاحظ المجموعات القاعدية الى أدمجت فى الدولة والتحول نحو الزراعة الجماعية وتنظيم موظفى

الدولة فى نقابات . ويربط كوردوفا أصول دولة كارديناس بالثورة ، فقد كانت الاشتراكية المكسيكية فى القرن التاسع عشر فوضوية ، ومع ذلك لم يتحقق التحالف عبر الطبقات إلا فى ١٩٣٤ . انظر أيضا :

Nara Hamilton Mexico : The Limits of State Autonomy, "Latin American Perspectives " (Summer 1975) : 81 - 108 enp. 87, 100

وهو يؤكد الضغوط التى واجهها كارديناس من الإمبريالية الأمريكية فى محاولة تحقيقه التحول الاشتراكى ، وكما يلاحظ خيارات التوجه إلى اليابان وألمانيا من أجل المساعدة .

٢٥ – لمناقشة ضعف الكنيسة ، انظر :

Susan Eckstein, The Poverty of Revolution (Princeton, Princeton Unw. Press, 1977), 108 ff and : Inan Vallier, Cath alicism, Social Contral and Modernization (Engle Wood Cllls, N. J. : Prentice Hall, 1970) ;

ولمناقشة استراتيجيات النقابيين الفوضويين فى التغلغل داخل سلطة الدولة فى الثلاثينات من خلال وزارات حكومية متعددة ، انظر :

Jean Meyer, Sinarquismo or the Revalutionary Detour of the Right Wing, " in Peasantry and National Integr ation, ed. Celma Aguero (Mexico city , 1981) , 237 - 246 .

٢٦ – فيما يتعلق بمنطقة محظوظة أثناء ، ثم بعد كارديناس :

Henry Landsberger and Cynthia Heintt de Alantree, " From Violence to pressure - Group Politics and Cooperation - A Mexiaon Case Study in Two Blades of Grass : " Rural co-oper atives in Agricultural Modernization, ed. Peter Warsley (Man chester : Man chester Umiv. Press, 1971) , 293 - 346.

٢٧ – فيما يتعلق بتلخيص ممتاز للتاريخ المبكر للتحكم فى النوع :

Jean Franco, Plotting Women. Gender and Representation in Mexico (New Yosk : Columbia Univ. Press, 1989) 10 art Two.

وفيما يتعلق بالرأى القائل أن المكسيك اليوم أكثر انحيازاً جنسياً للذكور عما كانته فى الماضى :

I lene V. O'Malley, Myth of the Revolution (Westpart : Greenwood Press, 1986) .

28 - Amna Macias, Against All Odds : The Feminists in Mexico to 1940 (West port :

29 - Ward Marton, Woman Suffrage in Mexico (Ganessille : Unin of Florida pren 1962 25 ff, 51.

30 - Patricia Fagen, Exiles and Citizens, Spanish Repulicans in Mexico (Anstin : Umin of Texas Press , 1973) , 66

31 - Roderick Al Camg, Intellectuals and the State in Twentieth Century Mexico (Austin : Unw. of Texas Press, 1985) , 140 1.

32 - Nora Hamilton, op. cit.

33 - Vicente Comberos Vijcaino Fran Cisco el Grande Mons. Francis co Oroco Jiminey (Mexico Cty : Ed. Jus, 1966) .

34 - Joseph G. Trevina, The Spiritual Life of Archbishop Martinez (St. Lows : B. Herder Book Company, 1966), 8.

وكان أب معروفاً بقلقه من نفوذ أمه عليه .

35 - David Horvey, The Condition of Postmodernity (Basil Bla ckwell, 1989).

٣٦ - هناك عرض ممتاز لذلك عند :

J oe Foweroker and Ann L. Graig, eds. Popular Movements and Political change in Mexico (Boulder : Lynne Riener Pulil., (1990) .

37 - M. B. Wallerstein, Food For War - Food For Peace - United States Food Aid in a Global Context (Combridge : Mit Pess , 1980) ;

وعن الهجرة :

Wyne Cornelius, " Urbanization as an Agent in Latin American Political Stability, the Case of Mexico , " American Politial Science Review 63 , mo. 2 (1969) : 833 - 885 . Peter Gregosy, The Myth of Market Failure (B a ltimore : John Hopkins Univ. Pnes, 1986) 146. 38

٣٨ - John J. Bailey, Governing Mexico The State Craft of Crisis Management (New Yark : St. Martin's Press, 1988) .

٣٩ - عن الاستغلال الجماعى للنساء فى أمريكا اللاتينية والكاريبى :

Slaves of Slaves : The Challenge of Latin A merican Women (Landon : Zed Press, 1980) 125.

قارن فى المقابل :

Jennifer Sebstad and Others, Women and Self - Reliance : The SEWA Story (London : Zed Press, 1986) .

40 - F. Can cian, The Innovator Situation : Upper Middle Class Conservatism in Agri cultural Communities (P alo Alta : Stanford Univ. Press, 1979)

وهو يناقش أمثلة من هذا التناقض مستخدماً مدخلاً مختلفاً بعض الشئ للمكسيك والهند ، انظر أيضا :

John F. House, Frontier on the Rio Grande : Apolitical Geogrphy of Development and Social Deprivation (oxford : Clarendon Press, 1980), 179 .

وهناك تحليل للوحدات الصغرى يلقى مسؤولية الهجرة على مصير محصول بعينه عند :

Ernest Feder, Strowberry imperialism - An Enqury into the Mechanisms of Depen den-cy in Mexican Agricultue (The Hague : jmstitute of Socal Stu dies, 1977) .

41 - Barry Carr - Marxism and Anarchism in the Formation of the Mexican Communist Party, Review 63, no 2 (1983) : 277 - 305.

42 - James Dcockcroft, op. cit., 228 , Sheldon B Lins, Marxist Thought in Latin America Pren, 1984), Ch. g.

43 - Judith A dler Hellman, " The role of Ideology in Peasant Politics : Peasant mobiliz ation and Demobiliz ation in the Laguna Region, Journal of Imter - American Studies and World Affairs 25, mo. 1 (1983) : 3 - 30 ;

وكان أشد مرامى الحزب طموحا فى الثلاثينات هو التغلغل فى صفوف فلاحى منطقة لاجونا . وكانت ديونيسيو إنسينا Dionicw Encina من باب المفارقة إحدى قصص نجاح الحزب . انظر :

Barry Carr. " The Mexican Communist Party and Agrarian Mabilization in the Laguna, 1920 - 1940 :A Worker - Peasant Alliance ? "

Hispanic American Historical Review 67, mo. 3 (1987) 67 - 404.

44 - Robert Paul Millon, Mexican Marxist Vicente Lombardo Toledano (Chapel Hill : Umin of North Carolin a Press, 1966) .

45 - Liss, op. cit., 219.

46 - Gerardo Unjueta , Lombardo Toledano y el Marxismo - Leninismo (Mexico Cty, 1966), 120 - 121.

47 - Millon, op. ct, 65 ff ; Arturo Warman " Indigenist Thought, " in Indigenous Anthropology in Non - Western Countries e d. Hussein Fahim (Durham : Carolina Acaclamic Press, 1982), 75 - 97, erp. 90 ff.

٤٨ – وفيما يتعلق بصعود وسقوط واحدة من الحركات الرئيسية للتحدى الريفى ، حركة فيراكروث Veracruz بقيادة اوالبرتو تتجيدا أوليفاريس Adalberto Tezedo Olinares انظر :

Heather Fowler Salamini, Agrarian Radicalism in Veracruz 1920 - 1938 (Lin coln : Univ. of Nebraska Prers, 1978).

49 - Leopoldo Zea, Positivism in Mexico (Austin : Univ. of Texas Press, 1968), Ch. 2, ep.

وهو مفيد لإقامة حجة تسند نموذج ; 20 FF الطريق الإيطالى حول الوضعية والرومانسية والمنطقة .

٥٠ – على حين أن أونامونو وكروتشه كانا أصدقاء ، فإن المعقبين يشيرون إلى خلافاتهما عندما تحول كروتشه « الناضج » إلى « واضع مذهب » ، وعلى سبيل المثال :

Vicente Gonz alez Martin La Cultura Italiana en Miguel de Unamuno (Salaman ca, 1987 esp. 267 - 282.

51 - Alvaro Matute, Lorenzo Baturiniy el Pensamiento historico de Vico (Mexico city, 1976) - Gustavo Costa, " La Linea Vico - Baturini - Veytia e la storio grafia Messicana, " Ballettino del Centro di Stu di Vichiani 16 (1986) : 369 - 373 .

ويشمل البحث الأخير عرضاً لتأثير فيكو فى المؤرخ المكسيكى ماريانو فيرنانديز دى إتشيفاريا أى فيتيا Magic Mariano Fernandez de Echevarri a y Veytia (١٧٨٠ – ١٧١٨) Lais Parkinsm Zamora, - Realim and Fantastic History : Carlos Fuentes's "Terra Nastra " and Giambattista Vico's " New Scien ce" , Review of Contemporary Fiction 8 (1988) : 249 - 256.

ويستشهد فوينتس بالفعل بفيكو ، وقد كان فيكو أستاذاً للبلاغة فى نابلى أثناء اكتساح العقلانية الديكارتية والوضعية فى أوروبا . وكان مؤلفة « العالم الجديد » يمثل ما يمكن بالتعبير الحديث أن يكون رفضا راديكاليا لمركزية العلاقة الممتازة بين الملاحظ (بالكسر) والملاحظ (بالفتح) التى كان يدافع عنها ديكارت . وعند فيكو على النقيض من ديكارت كانت وجهات نظر البدائى إلى المبشر لها نفس مشروعية وجهات نظر المبشر إلى البدائى ، انظر :

Giorgio Tagliacozzo, ed. Vico and Marxism, :

Affinities and Contrasts (Highland Pork :

H mmanities Press, 1983)

وعلى وجه العموم والخصوص ، انظر :

-B. A Haddock, " Vico and the crisis of Marxism ", 352 - 367; Edmund E. Jacblitti, From Vico's Common Semse to Gramsci's Hegemony, ", 367 - 387.

52 - Fernando Salmeron, " Mexicam philosophers of the Twentieth Contury ," Main Trends in Mexican Philosophy (Notre Dame, Notre Dame Univ. Press 1966), 246 - 287.

وكان تاثير برجون فى المكسيك موضوعاً : " Omnagio a Henri Bergson, " Humanitas 14 (1959) : 769 - 852 , Homenaza a Bergson (Mexica city , 1941) .

53 - Mary Kay Vaughn, The State, Educatian, and Social Change in Mexico, 1880 - 1928 (Dekabb : Northern Cllinais Univ. Press, 1982), 140 - 142 .

54 - Michael A. Weinstein, The Polarity of Mexicon Thought : instrumentalism and Finalism (univ. Park : Pennsylvenia Stale Umiv. Prens, 1976), 3;

وهناك دراسة للانتقال إلى الكانطية الجديدة فى الفلسفة المكسيكية هى :

Juan Hernandez Luna, " Una Polemica en torma al Neokantismo, " Historia Mexi can a 19 (1969 : 397 - 417.

تمكن مقارنتها بدراسة تطور فكر كروتشه :

John Haddox : Antonio Coso Philoopher of Mexico (Austin : Unir. of Texas Pres, 1971) .

55 - Galiriel Careaga, Los gntelectu alesy la Politica en Mexico (Mexico city, 1971) , 47 - FF.

ويدافع عن تمييز يضع معظم الوضعيين فى فترة دياث ، ويجد نفوذهم فى طريق الأفول بعد الثورة . وإن كان ذلك يصدق على مثقفين معينين مشهورين من مثقفى النظام ازدهروا فى أوج الليبرالية . إلا أن الوضعية واصلت الحياة بالفعل باعتبارها منطق البيروقرطية ولم يشعر منها The Atenistas قط أنهم قهروها .

٥٦ - من كتاب هذا التقليد :

Miguel Othon de men dizabal (do D. 1946).

انظر :

Benjamin Keem, The Aztec Imeage in Western Thought (New Brunswick : Rutgers Univ prens, 1971) , 474 - 576.

والعمل المقر عموماً هو :

Carlos Garcia Mora, ed. La en throp ologia en Mexico (Mexico city : INAH, 1987) , 4 v. See 2 : 25.

57 - John S. Brushwood, Narrative Innovation and Political Change in Mexico (New york : Peter Lang, 1989) , CR. 3.

58 - Hason Wilson, Octavio Paz (Boston : Twayne Puppshers, 1986) , 1.

ومن السمات المثقف الجنوبى انجذابه إلى المراكز الثقافية الشمالية وانزعاجه منها مما يؤدى إلى حياة تستتبع الذهاب إليها والابتعاد عنها . وهكذا كانت حياة كروتشه وحياة الناقد المصرى والمثقف الجنوبى عباس محمود العقاد . ويمكن استغلال تجارب باث فى إيطاليا لترويج فكرة « جنوبيته » . وفى ترنيمة بين الأطلال » (نابلى ، ١٩٤٨) أخذ باث المنظر الطبيعى النقى لصقلية باعتباره نقطة التضاد للعنف الغبى فى الحرب العالمية الثانية بعيداً فى الشمال . (٤٥). ومن ١٩٦٢ إلى ١٩٦٨ كان باث سفيراً للمكسيك فى الهند . وكان ذلك من حسن طالعه ، لأنه كان من دارسى الشرق . وتكشف دراسات باث للهند مثل دراسات فاسكونسيلوس عن جانبه العالمى . فالشرق والغرب يمتزجان لديه وهما يتماسان ، وعلى الرغم من أنهما منفصلان ، إلا أن كل منهما يعكس الآخر . وفى بعض أشعار باث تواصل الدراسة الكشف عن أن الهند التى تعنى الهندوسية أو النزعة الحسية التانترية Tantaric (نسبة إلى أحد الأسفار الحوارية التى تحدد متطلبات الفقي ، وتعاليم تلك الاسفار قائمة على أن العالم المرئي يقدم رقصة لا متناهية للمؤمنين مع ما هو إلهى ، عناقا بين العابدين والمعبود – المترجم) تتشابك مع طفولة باث فى مكسيكواك .

Julia A. Kushigan, " Rios en la mache : Flay en l os Jardines : Grientalir in the Wosk of Octavi a Paz, Hispania.

٧٠ – لاحظ اتهامه لمتحف الأنثروبولوجيا ، فالتاريخ الحقيقى للمدنية كان فى الجنوب قبل الأزتيك . وحينما نهض الأزتيك حتى قبل وصول الأسبان كانت المكسيك قد أصبحت فى طور ما بعد المدنية وتحكم بالقوة ،

The Other Mexico : Critique of the Pyramid (New York : Grone Press, 1972), 109 FF.

٦٠ – فى الأدب الإيطالى الذى يعقب على « المتاهة » نجد كاتباً حديثاً يلاحظ أنواع النقد المكسيكى لفكرتى الطابع القومى للأدب ولهذا الكتاب على وجه الخصوص وهو :

Robert Bartra, La Jaula de la Melan cholia Identidad y Metamorfosis del Mexicano (Mexico City, 1987),

ويصل هذا الكاتب الحديث إلى أن تنصير المكسيك لم يهدف قط فى الواقع إلى الاستئصال الجذرى للممارسات الوثنية الهندية التى يومئ إليها هذا الكتاب ، انظر :

Arnaldo Nestis "Il labirnth della Solitudine' e le identificazioni soteriologische nel Messicano Contemporane , " Religioni e Societa 5 (1988) : 73 - 56 ;- Luigi Bazjini The Italians (New York : Atheneum, 1979) (1964) .

والعمل الأخير يؤكد أيضا أهمية العروض والأقنعة والتموية والباروك فى الشخصية الإيطالية ، وحتى حول المسألة الجنوبية فى إيطاليا ولا يبدو لاهوت الخلاص Soteriology على مسافة بعيدة .

61 - Francisco Arca Gurza and others, Historia de la professiones en Mexico (Mexico

City, 1982) Peter S. Cleaves, Professions and the Stae, The Mexican Case (Tucson : Uuiv. of Arizona. Press, 1987).

والعمل الأخير يشير إلى الدرجة التى تصل بها النزعتان القومية والسياسية إلى لعب دور فى الحياة المهنية .

٦٢ - يصل كاجا فنكلر Kaga Finkler وهو أنثروبولوجى إلى أن معدل نجاح الروحانيين « ليس أعلى من » نجاح أطباء العلم البيولوجى ، فالأطباء الأمريكان ليسوا مضطرين إلى التعامل مع مرضى يؤمنون بالسحر أو مس الأرواح : Physicians to Work, Patients in Pain, Biomedical Practice and Patient Response in Mexico (Boulder : Westview Press, 1991), esp. Ch. 6 and the Conclusion.

وهناك عمل أقدم جرت أبحاثه فى الجنوب الغربى من الولايات المتحدة بواسطة آرى كييف Ari Kiev. هو Curanderismo: Mexican - American Folk Psychiatry (New York : The Free Press, 1968).

وهو يقبل - كمقدمة منطقية له - بتعدد نظريات المعرفة فى الأنظمة الطبية حتى بالنسبة للولايات المتحدة . فالسحر - فى رأيه - يمارس وظيفة علاجية : عند أنماط مختلفة من الناس بما فيهم بعض المهاجرين المحرومين من منطق بيئة مألوفة ، وقد ساهم المعالجون الروحانيون Curanderos بإنقاذ الصحة العقلية للكثيرين فى أوضاع رأسمالية السوق . وهناك كتاب آخر عن نظريات المعرفة الطبية المتباينة هو : Elliott A. Krause, " Doctors and the State : An Italian American Comparison, Research in the Sociology & Health Care 7 (1988) : 227 - 245 ;

وكانت فكرة وجود اتجاهات طبية متنافسة موضوعاً لزمن طويل فى الأنثروبولوجيا الطبية انظر على سبيل المثال مقالى الذى يناقش مصر والهند :

" Medical Pluralism in Arab and Egyptian History : An Overview of Class Structures and Philosophies of the Main Phases, " Social Science and Medicine 136 (1979) : 339 - 348.

ومنذ السبعينات من هذا القرن - وفقاً لدراسة حديثة ، ظلت الحكومة الهندية تدعم استخدام الطب البديل ، مضعفة احتكار الرابطة الطبية الألوباثية :

Roger Jeffery, The Politics of Health in India (Berkeley : Univ. of California Press, 1988), 185 - 6.

انظر أيضاً :

Ronald Frykenberg, " Allopathic Medicine, Profession, and Capitalist Ideology in India " Social Science and Medicine 15 A (1981) : 115 - 125 .

وبالنسبة إلى إيطاليا ، كما يوضح أحد المصادر : فإن الجنوب فى إطار البرنامج الصحى القومى كان من أشد المناطق معاناة للإهمال من حيث الموارد الطبية : ويزعم المصدر أن نابلى هى « كلكتا » أوروبا ، وانظر :

Alan Maynard, Health Care in the European Community (Pittsburgh : Univ. of Pittis-

burgh Press, 1979), 157,

ولعرض عن المطببين الفولكلوريين فى إيطاليا ، انظر :

Lola Romanucci - Rass, Creativity in Illnes :

Methodological Linkages to the Logic and Language of Science in Folk Pursuit of Heath in Central Italy, "Social Science and Medicine 23, no. 1 (1986) : 1 - 7 j

انظر أيضاً : Douglas R. Holmes, Cultural

Disen Chantments - Worker Peasantries in Northeast Italy (Princeton : Princeton Univ. Press, 1989) , ch. 6.

ويجذب هذا العمل انتباهنا لأن المؤلف يعترف بدينه من حيث المنهج عن الفصل المستشهد به هنا لدراسة تتناول شمال المكسيك . بيد أن مثالا آخر للوعى بالتداخل الحضارى فى هذا المجال يمكن أخذه من عمل باحث إيطالى درس فى المكسيك ما يعتبر فى أغلب الأحوال وضعا فلاحيا تنفرد به أمريكا اللاتينية يسمى سوستو Susto أو الفزع . وقد انتهى هذا الباحث على أساس ألفته الوثيقة بالمواد الإيطالية إلى أن سوستو مرادف أسوستو Assusto بالإيطالية (!) ، انظر :

Italo Signorini, " Patterns of Fright : Multiple Concepts of Susto in a Nahua - Ladino Community of the Sierra de Puella (Mexico), Ethnology 21 , no. 4 (October 1982) : 313 - 324 esp. 313.

63 - Richard F. Mollica, "From Antonio Gramsci to Franco Basaglia (1924 - 1980) : The Theory and Practice of Italian Psychiatric Reform' International Journal of Mental Health 14, no 2 (1985) : 30 .

وهذا المقال جزء من عدد خاص أطلق عليه «الثورة فى الطب النفسى الإيطالى» :

Psychiatry inside Out : Selected Writings of Franco Basaglia (New York : Columbia Univ Press, 1987) .

64 - Report in Ensenanazae Investigation en Psicologia 4, no. 1 (1978) : 6 - 9 as Cited in Psychological Abstracts 65 (January - June 1981) : 421 and other articles in Ensenanza.

ولكن كما دلت الأحداث التى أعقبت إصدار قانون ١٨٠ فى ١٩٧٨ ، فإن التنظيم القومى للطب النفسى الديموقراطى (الذى تأسس عام ١٩٧٣) قد واجه عقبات متعددة فى المكسيك . وفيما يتعلق بوجهة نظر شاملة ، انظر :

Syluia Marcos et al., eds. Dosier Mexico Solire oltemativas a la psiquiatria (Mexico City, 1982)

ويعتمد هذا العمل بكثافة على كتابات the Basaglias ومعظمها مترجم من الإيطالية إلى الإسبانية ونشر الكثير منها فى المكسيك مثل :

Franca Basaglia, Reflexiones solire la mujer (Puebla, 1986) .

٦٥ – هناك تقرير مهم يعكس مدرسة التبعية :

Armando Mattelart, Multinational Corporatinos and the Control of Culture (Sussex : Harveston Prses, 1979) .

66 - Richard Ray Cole, " The Mas Media of Mexico : Owrhership and Control", (Ph . D. diss., Univ. of Minnesata, 1972), 133, 165.

67 - " Obituary, " Friday, August 8, 1986, *The Philadelphia Inquierer*, sec. B, Roderick Ai Camp, *op. Cit.*, 101 , 189.

٦٨ – المؤرخ المكسيكى النابه الذى يكتب فى هذا الاتجاه هو ايزيك فلوريسكانو فى :

Enrique Florescano " La influencie del estado en la historiografia", : in *Encuentro de Historia dores Latino Americanos y Del Caribe* (Caracas, 1977) , 1 : 350 - 373, " Le Pouvoir et la Latte Pour le Pouvoir dans l'Historiagraphie Moderne et Contemporaine au Mexique." in *Champs de Pouvoir et de Savoir au Mexique* (Paris : CNRS, 1982), 165 - 188.

Historia local, historia regionaly la formacion politica del pais, " *Historia Regionaly Archivos* (Mexico City, 1982), 33 - 39.

وهذا العمل يؤكد أن الطريقة التى تنظم بها الأرشيفات تمد المؤرخين مقدما للإحجام عن الدراسات الإقليمية . وهذا يتطابق مع موضوع كتاب إيطالى حديث العهد :

Ilaria Par Ciani, " L' *Archivio Storico Italiano" : organizz afiane della ricerca ed egemonia moderatanel Risorgimento* (Florence, 1979).

وهذه الكتب عموماً جزء من الكتلة المتنامية من الكتابات عن العلاقة بين المثقف المكسيكى والدولة :

Enrique Krauze, *Los Caudillos Culturales en la Revolucion* (Mexico City, 1979).

وانظر أيضاً :

Louis Panabiere et al.,Intellectuelset Etatrau-Mexique au XX Siecle (Paris : (N R S, 1982). *Pouvoirs et Contre - Pouvoirs dans la Culture Mexicaine* (Pares : C N R S, 1985).

69 - Robert A. Potash, Historiography of Mexico Since 1821"Hispanic American Historical Review 40 (1960) : 383 - 424.

70 - Keen, Op. Cit. , 433.

71 - *Diccionario Powona de historia, biografiay geografia de Mexico* (Mexico City, 1986) , 2 : 1955; Academia Mexicane, Semblazas de Academicos (Mexico City, 1975) Jose Sanchez, *Academias y Sociedades Litter arias de Mexico* (Chepel hill : Univ. of North Coralina Press, 1951) Martin Luis Guzmen, Academia : Tradicion, independencie, Libertad Discursos (Mexico City, 1959).

72 - For Romanticism, Francisco Arce Gurza et al. Op. Cit.

73 - Paurrura, Diccionario Pourrua..., 1 : 903.

74 - Jack Ray Thomas, Biogrophical Dictianary of Latin American Historians and Historiography (Westport : Greenwood Press, 1984) , 214 , 294, 295,.

75 - Charles Hale, "The Liberal Impulse : Daniel Cosir Yillegas and the Historia Maderna de Mexico, " Hispanic American Historial Review 54 (1974) : 479 - 98, Stanley Ross, " Obituary Daniel Cosio Villeges (1898 - 1976)" Ibid - 57, no. 1 (1977) : 91 - 103.

76 - Pourua, *Op. Cit.*, 1 : 571.

77 - Comite Mexicans de Ciencias Historicas, *Catalogo de Tesis Sabre Historia de Mexico* (Mexico 1976) lists 500 theses and dissertations from 1941 to 1976.

78 - John Phelan, " Many Conquests : Some Trends and Some Challenges in Mexican Historiography," *Investigationes Contemporaneos Sober Historio de Mexico* (Mexico City , 1971), 125 - 148.

79 - David C. Bailey , " Revisionism and the Recent Historiography of the Mexicon Revoltion" Hispenic American Historical Rew 58/1978) : 62.- 79 .

٨٠ - جمعت المعلومات فى عمل سابق من مؤرخى UNAM و El Colegio de Mexico عام ١٩٨٠ .

٨١ - عن أطروحة « استمرار الفكر » انظر :

Alvaro Matuto, La teoria de la Historia en Mexico 1940 - 1973 (Mexico City, 1974),

وهو عمل يذهب إلى أن الاتجاهين الرئيسين فى المكسيك يظلان الوضعية تمثله على سبيل المثال بسيلفيو زافالا والنزعة التاريخية ، أى النظرة إلى العالم الرومانسية الميتافيزيقية عند ادموندو أو جورمان وخوسيفينا توريدا فاتكويث وكتاب :

Historia de la Historiografia (Mexico City 1978).

وهو كتاب يقلل من الطابع المتميز للمدارس القومية المعاصرة فى كتابه التاريخ .

82 - For example, Primer Encuentro Hispano - Mexicano de Historia dones (Madrid : Ince, 1979).

83 - Rudolfo Stavenhagen, " Seven Erroneous Theses About Latin America" *Latin American Radical History on Left and Nationalist Movements*, eds. Irving Louvis Harawiz et al . (New York : Vintage Books, 1969), 102 - 117,

وهو يقدم حججا ضد المبالغة فى استعمال مفهوم و « المدينة الرئيسية » مثل مكسيكو سيتى كطريقة لتفسير القرارات السياسية والاقتصادية المكسيكية.

84 - J. R. Thomas, Ap. Cit., 183 - 4.

85 - *Ibid.*, 143 - 4.

86 - Edward Mosely and Edward Terry, *Yucutan - A World A Part* (Mobile : Uniw. of Alabama Press, 1980), Ch. 10 and im. *Passim.*

الفصل السابع

الطريق القبلي - الإثني في أوروبا
ألبانيا (١٨٧٨ - ١٩٩٠)

من بين الأشكال الأساسية للهيمنة فى العالم الحديث نظام السيطرة السياسية المبنى على استخدام النوع gender باعتباره القناع الرئيسى للعلاقات الطبقية ، وهو يُنَّظم عادة حول الانقسامات القبلية أو الإثنية . وبينما تستخدم كل هيمنة النوع وهو يعنى هنا التمايزات البيولوجية Ro وأشكال التضامن القائمة على السلالة والنسب باعتبارها جزءاً من السيطرة ، نجد الدول القبلية – الإثنية هى الوحيدة المبنية أساساً عليها .

وقد تبنت هذه الاستراتيجية الطبقات الحاكمة لبلاد كثيرة ، أوروبية ومنتمية إلى جنوب شرق آسيا ، وعربية وأفريقية ومنتمية إلى جزر المحيط الهادى[1] .

ويعرض هذا الفصل لتاريخ ألبانيا ، وهى دولة قبلية – إثنية أوروبية ، أغلبيتها مسلمة ، وهذا العرض يهدف إلى تحدى ثلاث سمات مهمة للنموذج السائد ، الأولى زعمه أن أوروبا علمانية ، وأنها إذا كانت متدينة فستكون مسيحية ويهودية ، والثانية زعمه أن أوروبا ديمرقراطية ، والثالثة - ولعلها الأكثر أهمية – زعمه أن أى دولة قبلية إثنية لا تعد تحديداً - حديثة بدرجة أو بأخرى ، وأنها تدخل فى اختصاص الأنثروبولوجيين أو علماء السياسة أو قد يدرسها المؤرخ فى وقت الفراغ .

ويعدد الجزء الأول من هذا الفصل أشد الصفات شيوعاً لهذا الشكل من الهيمنة ، مقدماً كذلك نظرة شاملة إلى كيف يعالج أكاديميا ، فى النموذج القياسى السائد هذا البلد . ويقدم الجزء الثانى تفسيراً على أساس الاقتصاد السياسى لتاريخ ألبانيا الحديث من ١٨٧٨ إلى الوقت الحاضر ، كمثال الهيمنة قبلية – إثنية . ويتناول الجزء الثالث تنظيم الثقافة باعتباره جزءاً من هذه الهيمنة ، ويعرض الجزء الأخير لكتابة التاريخ فى ألبانيا وبواسطة الألبانيين المقيمين فى الخارج كجزء من هذا التنظيم للثقافة ، ونمثل الهيمنة القبلية الإثنية فى سيطرة الرئيس الأعلى وحلفائه وأقاربه على مجتمع ما . وينتمى العمال والفلاحون إلى ما يطلق عليه القبائل . أو الجماعات الإثنية الأقل خطوة . حيث يختفى الصراع الطبقى - ظاهرياً على أقل تقدير - وراء الإيديولوجيات القبلية والإثنية ، على نحو ما يذهب إليه الدارسون . ولكن النظرة من قريب إلى هذا الرأى ترى أنه على الرغم من صحته ليس كاملاً . فلماذا تقبل القبائل والأعراق الأقل حظوة

مثل هذه الإيدلويوجية ؟ والسبب الظاهر هو أن الرجال المقهورين أنفسهم لهم مصلحة فى نظام يعطيهم مكانة عمومية أعلى من تلك الممنوحة للنساء ، وحتى النساء المقهورات لهن مصلحة فى نظام يمنحهن مكاناً معيناً ، وراء ذلك مساحة المناورة من خلال الأقارب الذكور(٢) .

وعلى أى حال هل يكون الرأى الشائع صحيحاً ، أى الرأى القائل بأن الوضع الفعلى للنساء أسوأ فى الدول القبلية الإثنية من وضعها فى الأماكن الأخرى ؟ هذا احتمال قائم ، ولكنه لا يبدو مقبولاً .

فالشواهد المستخلصة من الحالات المدروسة فى هذا الكتاب مختلطة . ففى الأربعينيات والسنوات التى تلتها ، انتهزت النساء فرصة الإيديولوجية السائدة الخاصة بنزعة التنمية ، ووجدن مجالات فى قوة العمل داخل القطاع الحديث . وفى زائير لم تكن تلك المجالات متاحة ، ولكن التقارير تشير إلى أمثلة من نساء المراتب الوسطى قد انطلقن فى صياغة أنساب مفتعلة وإقامة مشاريع قاصرة على النساء ، أو الانضمام إلى حركات كنسية معارضة .

وترتكز الهيمنة فى الدول القبلية الإثنية على تنظيم للثقافة يسمى هنا بالمعرفة الروحية gnosis وهو طريقة فى التحكم فى الثقافة تعطى سلطة بلا حدود للقيم على النص ، وهى طريقة لا تصل إلى تطورها الكامل إلا من خلال الفوضوية كنظرة إلى العالم .

ويشير المتخصصون فى دراسة ألبانيا إلى « المعرفة الروحية » باعتبارها « علم الدراسات الألبانية » ، ويعتبره بعض العاملين من داخل النموذج القياسى السائد مجرد مجموعة من المجالات المعرفية المتنوعة لدراسة ذلك القطر ، ويعتبره آخرون منهجية مثل التفكيكية أو التأويلية أى وسيلة لمهاجمة النزعة الوضعية ، على حين يعتبرها أولئك الأكثر توافقاً مع الفوضوية شكلا ، بدلاً من أشكال الحداثة على وجه الإجمال .

ويهمنا هنا الاعتبار الأخير ، فالمعرفة الروحية نراها هنا بوصفها تقنية للحيلولة دون تطور ثقافة رفيعة متحكمة ، حيث يسعى مستخدمو هذه التقنية لتقويض المعرفة الوضعية الطراز عن طريق إعادة غمرها فى الثقافة الشعبية التى خرجت منها . على

حد قول أحد أنصارها : تعد المعرفة الروحية طريقة للتغلب على « النزعة الماهوية (الجوهرية) الزائفة القائمة على تقابل الوطن / العالم ، الروحى / المادى ، المؤنث / المذكر ، التى تروج لها الإيديولوجية القومية (الغربية) »[٣] .

جرت العادة على أن يبدأ التخصص التاريخى فى ألبانيا الحديثة بعام ١٩١٢ . وعندما يشار إلى عام ١٨٧٨ باعتباره علامة فارقة - كما يفعل هذا الفصل - فهو لا يفعل ذلك إلا لمجرد ملاحظة نهوض الحركة القومية باعتبارها إحدى سوابق الميلاد الفعلى للتاريخ الحديث فى العام التالى حينما أصبحت ألبانيا مستقلة . ومنذ ذلك الوقت يلاحظ مؤرخو النموذج القياسى السائد أطواراً من الليبرالية ، ١٩٢٠ - ١٩٢٤ ، ومن الديكتاتورية خلال حكم الملك زوغو ١٩٢٥ - ١٩٣٩ ، ومن الحكم الشيوعى ١٩٤٤ - ١٩٩٠ ، وبعد ذلك عادت الليبرالية مرة ثانية .

وتتناقض هذه الصورة للتغير الموجود فى أعمال شائعة من التخصص التاريخى مع العروض الإثنوجرافية لنفس الفترة . فالإثنوجرافية على النقيض من المؤرخين يقدمون مزاعم متواضعة فى معظم الأحوال عن التغير حتى ذلك الذى يصل إلى الوقت الحاضر . ويجد المرء فى أعمالهم عروضاً عن الغج Ghegs الشماليين والتوسك Tosks الجنوبيين وهما التجمعان القبليان الإثنيان الرئيسيان ، وعن الجماعات الدينية الموجودة داخلهما وبينهما مثل المسلمين السنيين والبكتاشيين ، والأرثوذوكس اليونانيين والروم الكاثوليك .

إن وضع هذين الإطارين الأكاديميين بجوار بعضهما يفيد فى دعم من يذهبون إلى أن بلداً كألبانيا لا يماثل الأمم الحديثة الحقيقية مطلقاً ؛ حيث الدولة والمجتمع يبدوان شيئاً واحداً .

وتبدو ألبانيا فى تفسير يرتكز على الاقتصاد السياسى ، لا هى شديدة الثبات والسكون ولا هى دائمة التغير مثلما تبدو فى الأعمال الإثنوجرافية والتاريخية التى سبقت الإشارة إليها ، فهناك موقف وسط بين هذين الموقفين منبثق عن التركيز على الصراعات الطبقية والنوعية . وبالنسبة إلى الاقتصاد السياسى يعد التحقيب الأكثر فائدة هو ذلك الذى يعتبر ١٨٧٨ ١٩٤٤ عصراً ليبراليا و ١٩٤٤ ١٩٩٠ فترة إدماجية و ١٩٩٠ وما بعدها فترة من الليبرالية الجديدة .

إن الأزمات فى الهيمنة القبلية الإثنية – كما فى غيرها – يمكن أن تؤدى إلى تدمير الدولة . فما الذى يمنع الصراعات بين الجماعات العرقية أو تمردها ، من التسبب فى انقسام القيادة وخلق أزمة قانون ونظام ، أو ما هو أسوأ من ذلك ؟ . وللتقليل من احتمالات أن تصل مثل هذه الصراعات والتمردات إلى هذا الحد ، تحاول الدولة أن تدمج العناصر السائدة من كل الأعراق فى جماعة أرقى ، جاعلة من هذه العناصر أتباعاً للحاكم الأعلى وأعضاء فى الحزب الحاكم ، وعند الإخفاق فى تحقيق ذلك تصبح الخيارات محدودة بدرجة أكبر ، وقد تصبح الحرب ضرورة . فما هى الخيارات الأخرى المتاحة ؟ . ويؤدى هذا المأزق بالمراقبين إلى أن يدركوا هذا النمط من الهيمنة باعتباره ميالاً إلى العنف . وعلى أية حال ، فدون قدر كبير من الدراسة سيظل من غير المؤكد معرفة إذا كان يلعب دوراً فى هذه الهيمنة فى المتوسط . ومع ذلك فمن الصواب الإشارة إلى حجم مشكلة الولاءات المتصارعة . فكيف يستطيع الشخص العادى مواصلة حياته حينما تدخل العشيرة والدولة فى صراع ؟ ألن يؤدى ذلك إلى الفصام ، أو العنف ، أو إلى أىٍ من الأعراض المرضية التى تبدو حديثة[٤] ؟ .

وتشعر الدول جميعا ، اليوم ، بضغط الحاجة إلى التنمية . وبالنسبة إلى الدول التى تتبع نمط الهيمنة القبلى الإثنى ، فإن هذا الضغط أكثر ثقلاً منه – حسب الرأى الشائع – عند الدول الأخرى ، على الأقل انطلاقاً من حقيقة أن الطبقات الحاكمة لكثير من هذه الدول تميل إلى تفاديه ، وتركز بدلاً من ذلك على النزعة الاستهلاكية للنخبة . ويستطرد هذا المسار فى التفكير مؤكداً أن هذه الدول إذا طورت قوة عمل حديثة ، فإن مخاطر ذلك بالنسبة لها أعلى من تلك المخاطر بالنسبة للآخرين ، فأنواع التضامن القبلية والإثنية تتعرض للخطر بمجئ أشكال أخرى من التضامن والهوية . وفى واقع الأمر ، فحتى حدوث الازدهار الحديث فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى ، ظل ذلك صعب التحديد ، فألبانيا الشيوعية كانت بين الدول القليلة القبلية - الإثنية التى حاولت التنمية .

وفى الدول القبلية الإثنية كما فى كل مكان آخر ، يكون للسياسة اللغوية تأثير مهم على الشكل الذى ستأخذه التنمية . فإلى أى مدى تستطيع دولة ما أن تشجع التكامل اللغوى من أجل التنمية قبل أن تقوض الحدود القبلية الإثنية ؟ . أينبغى على الدولة أن تدعم التعليم العالى ؟ أينبغى على الدولة أن تشجع باحثيها على إنتاج حقائق فى

متناول كل الناس ، أم أن إتاحة تراث مشترك من المعرفة سيقوض الفوارق الاجتماعية الضرورية ؟ أينبغى السماح للمعرفة التى ينتجها المهاجرون بالدخول وعند السماح بها بأى شكل تدخل[٥] ؟ .

ألا يحتاج العلم أن يخضع لرقابة الفلسفة وعلم اللغة ؟ . تلك هى الاهتمامات النموذجية لكثير من الدول القبلية - الإثنية[٦] . ويفسر ذلك السلطة الممنوحة لدارسى اللغة على الآخرين[٧] . وفى كل أشكال الهيمنة ، يقابل تطور التعليم - وربما يسبب - نهوض ثقافة مرتكزة على النثر . ويفقد الشعر بعضا من نفوذه . وتبدو الدول القبلية - الإثنية على الجملة شيئاً استثنائياً . ففى معظم هذه الدول ما يزال أشهر المثقفين اليوم شعراء ، والملاحظة العامة التى تبدو صحيحة هى أن الروابط الرأسية داخل الجماعات الإثنية أو التجمعات القبلية تؤكد الصلة اللغوية الحميمة الضرورية للشعر ، ولثقافة شفاهية على وجه أكثر عموماً .

وفى الدول القبلية - الإثنية تكون الثقافة أيضاً أكثر اتصافا بطابع « الأداء » ، مما هى عليه فى أشكال الهيمنة الأخرى . وفى غياب « ثقافة رفيعة » تقليدية ذات انقسام ثنائى بين المؤدين والمتلقين ، بين النص والقارئ ، فإن أشكال الفن - الرقص والغناء وكتابة الشعر والإنشاء - تكون مهارات منتشرة شائعة إلى حد غير معروف فى أشكال الهيمنة الأخرى . وفى الأزمنة الحديثة تقوم الدول بطريقة نمطية بتشجيع الاشتراك فى هذه الأشكال الفنية من خلال المسابقات ، وبعضها يذيعه التلفزيون الآن .

وتلعب الدول القبلية العرقية دورين رئيسيين فى العلاقات الدولية . الأول ، أنها تناصر بطريقة غير مشروطة إلى حد كبير إحدى الدول العظمى . وتشمل الأمثلة مناصرة ألبانيا لإيطاليا والاتحاد السوفييتى والصين ، ومناصرة زائير للبلجيكيين ثم للولايات المتحدة فى العهد الأحدث . وفى السبعينيات كانت الحكومة البلجيكية مضطرة لتمويل مشروعات فى جميع أرجاء العالم فى مقابل تأييد الولايات المتحدة . وبينما يكون هذا الدور ممكنا حينما تكون الطبقة الحاكمة موحدة ، فقد يؤدى إلى نتائج عكسية إذا لم تكن كذلك . فالعروض التى تقدمها قيادة متحللة إلى أكثر من دولة كبرى يمكن أن تحول بلدا ما إلى مساحة للصراع بين الدول الكبرى ، ومع التسليم بأن الدول الكبرى تفترض أن المناصرة التى تتلقاها غير مشروطة ، فلابد أن التغيرات تفاجئها .

وعلى سبيل المثال ، فقد باغتت الأحداث فى ألبانيا أثناء السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر بسمارك وهو أعظم السياسيين حنكة .[٩] وهناك أمثلة معروفة أخرى للأزمات العالمية التى حدثت بهذه الطريقة تتضمن أزمات البلقان فى بداية الحرب العالمية الأولى ، والكونغو البلجيكية عام ١٩٦٠ ، والحرب فى فيتنام ، وفى السنوات القريبة ، الحروب الأهلية فى لبنان ، والقرن الأفريقى ، ويوغوسلافيا .

والدور الثانى لدول القبلية الإثنية فى العلاقات العالمية هو الانسحاب من النظام العالمى . فقد سحب أنور خوجه ألبانيا من السوق العالمية بعد القطيعة مع الصين . كما أخرج أميلكار كابرال غينيا بيساو من السوق العالمية ، مثلما فعل زعماء لبلاد متباينة أخرى ، مثل اليمن الجنوبية بعد الثورة ، وليبيا تحت حكم القذافى .[١٠]

ملاحظة ختامية حول علاقة ألبانيا بأنظمة " الطريق الروسى "

من الحجج المهمة فى هذا الكتاب أن ألبانيا تختلف فى أنحاء مهمة عن الاتحاد السوفييتى ولا تتمشى هذه الحجة مع الاتجاه الأكاديمى المعاصر الذى يميل إلى أن يدمج معا دراسة الأنظمة التى اتخذت الشيوعية إيديولوجية لها . ويحاول هذا القسم الموجز أن يبرز الفروق ، وبذلك يصبح ما يُعتبر فرضا لتجانس مفرط بين تاريخ ألبانيا والتاريخ السوفييتى .[١١]

والغرض الجوهرى للدراسات المعاصرة ، سواء الغربية أو الألبانية منها ، والتى تختلف معها ، هو الغرض الذى لا يكتفى بالرغم من أن ألبانيا يحكمها حتى وقت قريب نظام ماركسى لينينى ستالينى مهما يكن فريداً من أوجه متعددة ، بل يتعدى ذلك إلى الزعم بأن ألبانيا ابتداء من الثورة « روسية الطراز » فى عام ١٩٤٤ حققت قطيعة حاسمة مع ماضيها . وحجتى هى أن ناريخها مثل تاريخ بلاد أخرى يتسم بالاستمرار أكثر مما يسمح به النموذج القياسى السائد . والمسألة ليست متعلقة بمقصد الأنظمة التى نقلت أو اقتبست ولا بحقيقة النقل بل تتعلق ، بماذا حدث بالفعل للممارسات السوفيتية فى سياقها الجديد ؟

ومن الواضح أن أنور خوجه كان يستخدم رطانة ماركسية لينينية ستالينية طوال نشاطه السياسى ، ومع ذلك فإن نظرة فاحصة إلى المؤسسات الكبرى فى بلده لا تؤيد وجهة النظر القائلة بأن البلد مر بتحول إلى الطريق الروسى بعد السيطرة الشيوعية فى عام ١٩٤٤ . إن موقفاً أكثر اعتدالا يتمثل فى مفهوم آرشى بيبا Arshi Pipe عن طبيعه سياسة خوجه بوصفها « ستالينية ألبانية » Stalalbanian .

هل تمتلك ألبانيا مؤسسات « سوفيتية الطراز » ؟ إن الدفاع عن هذا الموقف يمكن أن يستند إلى البوليس السرى والقوات المسلحة فى الاعتبار ، ولكن حتى هنا ليس التشابه المقترح تشابها قويا . فهو يعتمد على رؤية البوليس فى فترة واحدة ، فترة التطهيرات ، وهى فترة غير نموذجية إلى درجة كبيرة من إساءة استعمال البوليس للسلطة . وعلى العكس ، يبدو – طوال نصف القرن الماضى – أن البوليس السياسى (Sigurimi) كان سئ السمعة لتعسفه المستمر ، فهو لم يكن مشهوراً فقط بالعدد الكبير من المعتقلين السياسيين ، بل أيضا باعتقاله الأفراد الأبرياء الذين يحتمل أن يكونوا خطرين على النظام . وعلى حين أنه لا شك فى أن استعمال الاعتقال كأداة وقائية هو ممارسة عامة شاملة ، إلا أن شكلها فى ألبانيا كان أكثر اجتياحا وتدميرا بالقياس إلى مقابلها فى الاتحاد السوفييتى . ففى ألبانيا لم يكن من غير المعقول افتراض أن نشاط أحد أفراد العائلة يشترك فيه الأفراد الآخرون أو حتى العشيرة بأكملها . فلا عتقال شخص معين كان تفكير البوليس السياسى يبرر اعتقال عائلة بأكملها ، بل وحتى الجيران . وكان من النادر ممارسة ذلك فى الاتحاد السوفييتى . وهناك سمة مميزة أخرى للبوليس السياسى الألبانى وهى عدم الاستقرار المهنى لأعضائه . ويستدعى ذلك إلى الذهن مرة ثانية عدم الاستقرار المهنى للبوليس السرى الروسى أثناء فترة «التطهيرات » ، ولكن المتشابهة تنتهى هنا . إن بيريا – المسئول الشهير للبوليس السرى السوفييتى – ظل متوليا منصبه مدة طويلة حتى أثناء فترة التطهيرات ، كما كانت الحال بالنسبة إلى كثيرين آخرين قبله وبعده . ومن ناحية أخرى كان مديرو البوليس السرى الألبانى يقعون بانتظام ضحية للتطهيرات بعد قضاء فترة وجيزة فى مناصبهم . إن كوتش خوجة Koci Xoxe كان مديرا للبوليس السرى

عام ١٩٤٤ ، وفى عام ١٩٤٩ تم تطهيره وإعدامه . ومنذ ذلك الوقت أصبح البوليس السرى خاضعاً لسيطرة سلسلة كاملة من رجال خوجة مثل محمد شيخو ، وقدرى حسيبو و فيتشور شيخو ، وكلهم تم تطهيرهم أيضا[١٢] .

وعلى الرغم من التركيز المشابه تماماً على التلقين العقائدى السياسى الذى مارسه الحزب فى كل من الجيشين الروسى والألبانى ، وهى نقطة يشير إليها فى أغلب الأحوال دارسو الشيوعية ، فإن الجيشين فى هذين البلدين بعيدين عن أن يكونا متشابهين . لقد كان للاتحاد السوفييتى جيوش نظامية دربها ضباط محترفون ، فالنزعة الاحترافية لعبت دورا مهما . أما فى ألبانيا فقد بدأ الجيش بوصفه تجمعا لجماعات حرب عصابات عرقية ، ثم بعد ذلك اندمج على نحو مخلخل تحت رعاية الحزب . ولم يكن هناك إلا مجال ضيق للنزعة الاحترافية كإيديولوجية بالمقارنة بالاتحاد السوفييتى .

وعندما نمد نطاق هذه المناقشة إلى مؤسسات هذين البلدين خارج البوليس والجيش ، تصبح الفروق متزايدة الوضوح .

ولنأخذ - على سبيل المثال - الجهاز السياسى المركزى . ففى حالة الاتحاد السوفييتى ، انضم ملاك الأرض ورجال الصناعة والآخرون الذين يمتلكون الثروة والسلطة على المستوى القومى أو الإقليمى إلي الحزب والبيروقراطية ، أو إليهما معا ، لتدعيم أو حتى لخلق موقعهم الطبقى بأن يصيروا جزءا من هذه الفئة المسيطرة الممتازة « النومنكلا تورا Namen klatura » . وعلى نقيض ذلك بالنسبة لألبانيا ، كانت عضوية الحزب لمن لم يعش فى تيرانا ويتخذ لنفسه موقعا فى مستوى صنع القرار ، مجرد إضفاء لاحق الشرعية على سلطة تم إحرازها بالفعل بفضل الارتباطات العائلية المحلية والعشائرية .[١٣]

وفى الاتحاد السوفييتى ، كانت هياكل السلطة المحلية ، على مستوى الجمهورية مثلا تتألف من كادر « مصطبغ بالصبغة الروسية » فى بحر إثنى مغاير . فالحكومة المحلية هى الحكومة المركزية على الصعيد المحلى ، ويدور صراع المصالح متخذا رطانة مشتركة مثل رطانة خطط السنوات الخمس . أما فى ألبانيا ، فإن علاقة المستوى القومى بالمستوى المحلى مختلفة تماما . فالزعماء المحليون يعملون بافتراض أنهم جزء

من المجمع الإثنى أكثر من أنهم جزء من التسلسل القيادى . وحسب ما ذكره خوجة ، فإن التوجيهات الحزبية المركزية نادرا فى أغلب الأحوال ما تلقى حتى مجرد الانتباه .[١٤]

غير أن هناك فارقًا آخر مهمًا بين البلدين يتعلق بكيفية تنظيم الثقافة . فالاتحاد السوفييتى يقدم ثقافة النخبة باعتبارها تجسيدا للثقافة القومية ، على حين أن ألبانيا – على الرغم من امتلاكها القدرة على القيام بذلك – تقدم الثقافة الشعبية باعتبارها ثقافتها القومية ، على نحو ماتبينه دراسة المعرفة الروحية كما توجد الفروق بين الاتحاد السوفييتى وألبانيا فى تنظيم الدين . فعلى حين أن الاتحاد السوفييتى اعتمد فى معظم الفترات على القيادات الدينية كجزء من الحكم ، وكان ذلك رسميا على أى حال بعد عام ١٩٤٣ . فإن ألبانيا لم تفعل ذلك . فقد كان وجود جماعات إثنية ودينية متعددة ، لكل منها « مدنية متحفية » أكثر أمنا لها من الإبقاء على قيادة واحدة ، قد يكون منافسا محتملا للزعيم .[١٥] لذلك لا يوجد معادل سوفيتى أو روسى لهذه المدن المتحفية ، التى ليست عواصم مثل موسكو ، وليست مدن مزار أو ضريح مقدس مثل قازان وليست ببساطة عواصم إقليمية مثل كييف .[١٦]

إن المدن المتحفية مراكز إثنية وثقافية ، يقوم النظام السياسى بتنظيم ذاكرتها الجماعية كجزء من عملية الهيمنة . وهناك ثلاث مدن ألبانية من هذا القبيل : جيروكاستر Gjirokaster ، بيرات Berat وكروجى Kruje ، وفى مقابلها هناك مدن أخرى ممكن أن نسميها ببساطة مدنا مهمة ؛ لأن الكثير من أفراد النظام الحالى وافد منها. [١٧] وتستخدم الهيمنة السوفيتية أيضا المتاحف ولكن معظمها يقع فى موسكو ولينينجراد .

وعلى حين اعتنق كل من النظامين الستالينية لسنوات كثيرة – إذا رجعنا إلى نقاط سابقة عن الثقافة السياسية والقانون – فإن الممارسات التى ترتبت على ذلك كانت مختلفة تماماً فى كل من البلدين . وبينما اعتنق خوجة الستالينية « الأصولية » ، فإن ممارساته بالنسبة إلى السوفييت على الأقل تضمنت « انحرافات » متعددة . وتشمل هذه الانحرافات إقامة نظام لا مركزى للإنتاج مرتكز على طبيعة الموقع والمصنع فى تضاد مع الصيغة السوفيتية التى ركزت على المركزية العضوى ، وتخفيض استهلاك البيروقراطيين ، ورفع استهلاك العمال والفلاحين والتسامح مع

قصور الإنتاج وعدم كفاءة القطاع الزراعي . وعلى حين لم تكن ألبانيا خلال حكم خوجه منجرفة نحو التيتوية » ، فإنها - إلى جانب يوغوسلافيا وبعض الدول «الاشتراكية » الأخرى ذات الهيمنة القبلية الإثنية كانت تطمح إلى نموذج مختلف للاشتراكية ، هو الماركسية الفوضوية ، وهو نموذج يميل فى الواقع إلى أن يتيح وزنا للاكتفاء الذاتى أكبر من نظيره السوفييتى .(١٨)

وكما توحى التعقيبات على البوليس السرى ، فقد كانت هذه الفوضوية ذات علاقة متبادلة مع مستوى عال من نزعة التكتلات المؤسسية (الشللية) بما فيها التكتلية الحزبية . وبينما كانت التكتلات موجودة دائما فى الحزب الشيوعى السوفييتى ، فإنها لم تكن إحدى السمات المميزة المحددة له . فخدمة الحزب ، والأقدمية ، أو حتى السجل الشخصى تفرض - ببساطة - ملامحها وحدودها على الحياة الحزبية . أما فى حالة ألبانيا ، فإن هذا يبدو قليل الحدوث . فالعضو يُصَعَّد فى الحزب كما فى البوليس من خلال الخدمات المثالية - التى لا يتطرق إليها الشك ، التى يقدمها لراعيه أو لتكتله . وعلى سبيل المثال رامز عاليا الزعيم المعاصر الذى صعد نجمه فى ظل رعاية خوجه . وفى صعوده لعب دورا عام ١٩٨١ فى التخلص من محمد شيخو وتكتله ، وهو تكتل كان يضم وزير الداخلية هازبيو ، وزير الخارجية ووزير الصحة ومدير مدرسة الحزب الإيديولوجية فى تيرانا وأعضاء آخرين من القدامى فى الحزب . وأثناء لعبة السلطة الغريبة والشاذة اتهم عاليا وخوجه شيخو وتكتله بالعمالة للأجانب .(١٩) وعلى الرغم من أن ذلك شائع فى الاتحاد السوفييتى ، إلا أن القيادة الروسية كانت أكثر تحفظا فى استئصال شأفة أعضاء حزبيين ذوى استمرار يبلغ ثلاثين عاما لمجرد تحقيق كسب شخصى ، وهو الدافع الحقيقى . فى تلك الحالة ،(٢٠) فالقانون والرأى العام سيلعبان دورا ، وسيجرى التقليل بذلك من بعض السمات التكتلية السيئة ، وسوف يعلن المهتمون ارتداءهم عن غيهم ، يردلهم الاعتبار . وعلى النقيض من ذلك كانت الحال فى ألبانيا ، فاعتراض طريق شخصية مهمة قد يكون فى الواقع مهلكا .

وتتأثر السياسة فى النظامين بالمغتربين عن أوطانهم ، ولكن الدور الذى يلعبه هؤلاء ليس متماثلا . فالروس يعيشون بمعنى من المعانى فى بلدهم حتى وهم فى الخارج ، على حين أن الألبان فى الخارج قد خلفوا فى الحقيقة ثقافة بلدهم الحديثة .

وعلى سبيل المثال ، فقد أسهم الأسقف فان نولى Fan Noli إسهاما كبيرا فى تطوير اللغة الأدبية من خلال ترجماته حينما كان فى الخارج . وبعد ما عاد ليصبح حاكم ألبانيا لم ينجز إلا القليل من الأعمال ذات الأهمية المماثلة . وقد يكون لينين هو النقيض له .(٢١)

ولألبانيا والاتحاد السوفييتى نظامان قانونيان مختلفان تماما . وتبدد النظرة الشائعة إلى القانون الألبانى باعتباره مستلهما من القانون السوفييتى فى غير موضعها ، إذا نحينا مسألة « القانون غير المكتوب » فى ألبانيا جانبا . كما أن دستورى ١٩٤٦ و ١٩٥٠ أدخلا البلاد فى نظام قائم على التركيز السياسى للسلطة لا يسمح بأى معارضة . وعلى حين ينسب معظم الكتاب ذلك إلى ستالين ، فإن من الأفضل رؤيته كاستمرار لنظام الملك زوغو . أما فى الاتحاد السوفييتى – فى ظل ستالين - فقد كانت هناك معارضة من الناحية النظرية حتى فى ظل ستالين . ولكنها لم توجد فى ألبانيا فى فترة الملك زوغو والفترات التالية .

وبطبيعة الحال ، فإن تطبيق القانون قد يتباين تبعاً للفترة والقضية المثارة ، ولكن ما يستدعى النظر هو درجة الاستمرار . وإذا قارنا قانون العقوبات الألبانى عام ١٩٥٢ بقانون العقوبات عام ١٩٢٨ ، لا يبرز الكثير من التغير المصاحب للانتقال من هيمنة إلى أخرى ، بقدر ما يبرز النمو فى توقع التحكم من جانب نمط مماثل من الدولة ، وهو اتجاه ظل قائما من العشرينيات على أقل تقدير . ففى عام ١٩٥٢ – على سبيل المثال – طالبت الدولة بالسيطرة على أملاك الذين ماتوا دون أن يتركوا وصية توريث على حين أن هذه الأملاك فى قانون ١٩٢٨ ، كانت تنتقل إلى الأقارب من بعيد بشكل جزائى . ويمكن استخلاص أمثلة أخرى من قانون الزواج وقانون الملكية وقانون حضانة الأطفال والكثير من القوانين التى تنتسب إلى قضايا النوع .(٢٢)

وختاماً يبدو أن بلادا مثل ألبانيا والاتحاد السوفييتى قد تشترك فى عدد قليل متناثر من السمات ، إلا أن تشابهاتهما لا تذهب إلى أبعد من ذلك . لذلك ، فالنموذج القياسى السائد الذى يعتبر روسيا وألبانيا بلدين « شيوعيين » لبس قادرا على تقديم الكثير من الإيضاح .(٢٣)

ألبانيا الحديثة (١٨٧٨ - ١٩٩٠)
تفسير على أساس الاقتصاد السياسى

على حين يجعل الرأى الشائع ميلاد التاريخ الحديث متطابقا مع تاريخ الاستقلال السياسى ، فإن التفسير على أساس الاقتصاد السياسى سوف يبدأ باستجابة طبقة حاكمة ما لانتشار رأسمالية السوق ، أو بصورة أدق لانتشار الرأسمالية على مستوى قومى ، والحادثان فى الواقع الفعلى لا رابط بينهما . وهنا ستكون نقطة الانطلاق المنطقية بالنسبة إلى الاقتصاد السياسى هى عام ١٨٧٨ .

وابتداء من عام ١٨٧٨ ، يلاحظ المؤرخون نشأة الليبرالية ورأسمالية السوق داخل ما كان مجتمعا سابقا للرأسمالية إلى حد كبير مطبوعا على فكر سياسى جماعى . وقبل ١٨٧٨ كانت الرأسمالية القائمة رأسمالية التاجر المحلى فى المدن الكبرى والساحل . وحينما التحمت هذه الرأسمالية المحلية مع الرأسمالية العالمية المتزايدة القوة ، وحينما اتجهت طبقة ملاك الأرض إلى إنتاج محاصيل التصدير ، أصبح البلد مثالا من أمثلة المدخل الاستهلاكى للنخبة إلى التنمية الرأسمالية الحديثة الذى ناقشناه فى القسم السابق .[٢٤]

وفى عام ١٨٧٨ ، ظهر انقسام بين طبقات ملاك الأرض المسيطرة فى الأجزاء الوسطى والجنوبية من البلاد ، كاشفا عن التأثيرات الأولى للرأسمالية الجديدة . وقد احتفظ كبار ملاك الأرض برغبة فى التشبث بموقعهم الممتاز داخل الإمبراطورية العثمانية . أما صغارهم ، فقد تطلعوا إلى قطيعة مع الدولة ، فقد كان هؤلاء الصغار ذوى النزعة اللبرالية ، مستائين من الضرائب الفادحة للإمبراطورية ومن الأرباح الضئيلة المتاحة لهم والمنافذ غير الكافية للحصول على رأس المال . أما كبار الملاك ، وهم العنصر السائد ، فكانوا راضين باستمرار الإمبراطورية ، ومعها نزعتهم الاستهلاكية .

وهكذا ، كان من السابق لأوانة أن يسعى الليبراليون عام ١٨٧٨ - إلى الاستقلال وتأسيس الحركة القومية على نحو ما فعلوه عندئذ . فمن ناحية كان العثمانيون مصممين على التشبث بألبانيا ، ومن ناحية أخرى لم يكن الليبراليون فى

وضع يمكنهم إلا إلماماً من تقديم تحد سياسى حقيقى . فقد كانوا معزولين عن كتلة المجتمع وجماهيره بسبب وضعهم الطبقى . ومن المفارقة مع ذلك أن النزعة القومية فى تلك الفترة كانت فى ذروة سخونتها .

وعلى كل ، أسست حفنة من الليبراليين فى ذلك العام عصبة بريزرن League of Prigren ، وهى أول تنظيم قومى حديث وقد استمرت العصبة ثلاث سنوات بما كان يعد فى ذلك الوقت إنجازا كبيرا . وبقيادة عبدول فراشيرى Abdul Frasheri طمست العصبة بطريقة فعالة الاختلافات وسط عناصرها المسيطرة ، مما سمح لألبانيا بأن تتكلم بصوت واحد عن مسائل مثل الاستقلال الذاتى السياسى داخل نطاق الإمبراطورية العثمانية ، وعن استعمال اللغة الألبانية فى المدارس . ويصلح مثل هذا التعاون والتنسيق حتى اليوم لأن يكون مثالا يحتذى .

ولكن عام ١٨٧٨ ، كان عام أزمة للمطامح القومية . ففى هذا العام حاولت الصرب واليونان تؤيدهما روسيا – الاستيلاء على مساحات من الأراضى الألبانية . وكان هذا العام بالنسبة للطبقة الحاكمة لحظة محفوفة بالمخاطر . فالحرب ستكون مخاطرة ضخمة ، ولكن العجز عن الفعل فى ظروف اشتعال الشعور القومى يمكن أن يؤدى إلى اكتساح تلك الطبقة . ومن حسن الحظ أن هذه المبادرات كانت تلقى معارضة من جانب الدول الكبرى ، ولم تؤد إلى شئ . ومع ذلك ، فلم يكن كل شئ على ما يرام ، فالدول الكبرى لم يكن ممكنا الاعتماد عليها لتكون ضامنة لوحدة أراضى ألبانيا . وفى الحقيقة ، فإن الاتفاق العالمى الذى وصلت إليه الدول الكبرى أدى إلى مزيد من فقدان الأراضى ، وقد أشعلت وضع الطبقات الحاكمة المحلية أقل أمنا .

وفى عام ١٨٨٠ ، ضغطت الدول الكبرى على العثمانيين لسحق القوميين المنخرطين فى عصبة بريزرن . وقد أيد عدد من الألبانيين البارزين تلك الخطوة أيضا . وهكذا ، غزا العثمانيون كما ينبغى عليهم البلاد ، وسجنوا بعضا من أشهر القوميين . ولكن الوقت كان متأخرا جدا ، فالنزعة القومية سوف تستمر ، وسوف تنمو . وفى عام ١٨٨٥ ، أرغم الضغط القومى العثمانيين على أن يطلقوا سراح سجنائهم ، وأن يعلقوا جهودهم للتدخل فى إدارة الشمال .(٢٥)

إلا أن التدخل كان له أثر واحد باق . فمنذ ذلك الحين ، وطوال القرن التالى ، كان هناك طبقة حاكمة محلية عاجزة عن القضاء على الاحتجاجات الشعبية ، تتجه إلى الخارج بحثا عن العون . وقد أدى ذلك فى الوقت المناسب إلى عدد من التحالفات مع الدول الكبرى . فالطبقة الحاكمة قد سمحت لنفسها أن تكون تابعا أو مستعمرة لكى تستطيع البقاء فى السلطة . وعلى سبيل المثال فى عام ١٨٨٣ ، كما فى عام ١٨٨٠ ، طلب الحكام المحليون مرة ثانية من العثمانيين أن يخمدوا ثورة وقد استغرق ذلك منهم سنتين ، كما كلفهم خسائر فى الأرواح .

وأثناء الحرب اليونانية التركية عام ١٨٩٧ ، ناصر الحكام الألبانيون العثمانيين خشية أن تؤدى خسارة العثمانين للحرب إلى مزيد من خسارة أراضيهم التى ربما استولى عليها توسع من جانب المقدونيين .

وفى عام ١٩٠٠ ، برزت شخصية ذات تأثير على المسرح هى شخصية إسماعيل قمالى Esmail Qemali من أبناء فلورا Vloro . وصار قمالى الممثل الرئيسى للمثقفين القوميين . ولأنه كان محاصرا بين الأغنياء والفقراء ، فقد دعا إلى أن يتم الصراع فى نطاق القانون .[٢٦]

وفى عام ١٩٠٣ ، ثار الميرديتيون Mirdites مع قبائل أخرى ضد الحكومة العثمانية مطالبين بعودة زعيمهم برنك بيب دوو Prenk Bibdodo . وفى نفس العام نشبت ثورة بسبب الضرائب فى بيرات . وظهرت انقسامات أعمق فى الطبقة الحاكمة . فبعض العناصر أيدت القبائل وثورة الضرائب ، وبعض آخر شعر أن هذه الصراعات غير قانونية أو ما تزال غير ناضجة . وبنشوب ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ ، اتجه عدد أكبر من النخبة الألبانية نحو النزعة القومية .

وكان التحول التدريجى للطبقات الوسطى والعليا إلى النزعة القومية نتيجة لا للنضال السياسى والاقتصادى فحسب ، بل لتطور الثقافة أيضا . فمنذ السبعينيات من القرن التاسع عشر ، كان معهد الفرنسيسكان فى سكوتارى - بتأييد من النمسا - يدرس لطلبته باللغة الألبانية ، وكذلك فعلت مدرسة الجزويت . وفى عام ١٨٩٩ ، تأسست جمعية أدبية هى جمعية باشكيمى Bashkimi فى سكوتارى على يد الأستف برنج دوتشى Preng Dachi رئيس دير ميرديتا Mirdita . وقد ابتكرت هذه الجمعية أبجدية للغة الألبانية مستخدمة الحروف الرومانية ، ولكن المسلمين لم يقبلوا بها .

وفى هذا الوضع الذى تكمن فيه بذور الانقسام – كما سيوضح القسم التالى . تفصيلا – لعبت الزعامة البكتاشية بروابطها مع المسيحية والإسلام معا دور الوساطة الملفت للنظر للتوصول إلى حل ، مسهمة بذلك – بقدر ليس بالقليل – فى تطوير النزعة القومية الألبانية .(٢٧)

وفى عام ١٩٠٧ ، كانت المقاومة العسكرية للعثمانيين قد شقت طريقها فى ألبانيا . وفى عام ١٩١١ ، بدأ الباب العالى يتفاوض مباشرة مع الحركة القومية . وفى عام ١٩١٢ سمح تقدم هذه المفاوضات لضمالى بالعودة ، وبأن يعقد اجتماعاً علنيا فى فلورا ، وأن يعلن الاستقلال القومى .

وابتداء من عام ١٩١٢ فصاعدا ، اضطرت الطبقة الحاكمة أن تعكف على القضايا الداخلية ، فقد سادت أوضاع المجاعة وما يقرب من المجاعة ، وكان أفضل الأراضى الزراعية فى معظمها تستخدم لإنتاج محاصيل للسوق العالمية . وكان ماكسبته ألبانيا من هذه السياسة هو سلع الاستهلاك الترفى للأغنياء ، بينما كان ما ينقصها - نتيجة لذلك هو الذرة لإطعام الفقراء . وكان الحل بالنسبة للطبقة الوسطى هو الإصلاح الزراعى ، لأن أفضل الأراضى كان معظمها يملكه الإقطاعيون أصحاب الأبعاديات . ولكن إسماعيل قمالى ورفاقه حينما اقتراحو ذلك وجدوا أنفسهم فى وجه معارضة إقطاعية لا تقتصر على الكلام ، بل تعتمد على السلاح . ولم يعد النزاع بين الليبراليين والقوميين من جهة ، والإقطاعيين من جهة أخرى ، ابتداء من ذلك الوقت ، نزاعا يقبل المصالحة .

وفى عام ١٩١٣ ، تحرك عزت باشا توبتا نى Esat Pasha Toptoni – وهو أحد زعماء الطبقة الإقطاعية – معارضا الدولة الجديدة ، وقد تلقى التأييد الفورى من جانب الدول الكبرى ، وقد قررت لجنة رقابة عالمية أن ألبانيا ينبغى أن تكون ملكية وراثية تضمنها الدول الست الأوروبية ، كما قضت اللجنة بأن المرشح المناسب للمنصب سيكون الأمير فيلهلم أوف فيد Wilhalm of Wied ، وقد وافق الأمير بعد أن عرضت عليه حوافز متنوعة ، ووصل إلى ألبانيا ليقوم بمهام منصبه فى ٧ مارس ١٩١٤ ، ولكن اللجنة أساءت الحكم على رجلها ، فلم تستطع الوصاية على العرش أن تسمر إلا بضع أسابيع .

ولم يحقق رحيل فيد من ناحية إلا اختلافا ضئيلا مساويا لذلك الذى تحقق عند قدومه . ولكن – من ناحية أخرى – كان لرحيله معنى أعمق ، فقد كان علامة على الانهيار المؤقت للتحالف مع دولة كبرى ، كان هذا الانهيار هو الذى سمح لليبراليين أن يحرزوا بعض التقدم . وهكذا ، صارت ألبانيا فى ١٩٢٠ جمهورية برلمانية ، وعضوا فى عصبة الأمم ، وصارت تيرانا عاصمة لها .

وفى البرلمان الجديد ، مال الليبراليون إلى الانتماء إلى الحزب الشعبى ، ومال الإقطاعيون إلى الانتماء إلى الحزب التقدمى . وكان الحزب الشعبى يقوده فان نولى . ومن المثير للعجب -- على أى حال أن الحزب الشعبى ضم بين صفوفه أحمد زوغو - وهو إقطاعى قبلى – وظافر يبى ، الذى أصبح فاشيا فيما بعد . وكان الحزب التقدمى يتبع قيادة المالك الإقطاعى شفقت فيرلاتشى .

وفى عام ١٩٢٤ ، جاءت انتفاضة شعبية بفان نولى إلى السلطة . وكانت تلك ذروة الليبرالية ، وما أسرع ما استطاع الإقطاع الرجوع ، ولقى برنامج نولى الخاص ، أى بالإصلاح الزراعى ما لقيه برنامج قمالى قبل من الخيبة . ويرجع ذلك إلى أن نولى وأنصاره مثل الليبراليين السابقين كانوا يخافون الجماهير أكثر مما يخافون الإقطاعيين ، وهو خوف أصابهم بالشلل بين الكلام والفعل . وكان الإقطاعيون وحدهم الذين عرفوا موقعهم الحقيقى ، وكانوا هم الذين ما يزالون يجدون من الرأسمالية العالمية أذنا صاغية على كل حال .

وقد جاء سقوط نولى فى ديسمبر عام ١٩٢٤ بأحمد زوغو إلى السلطة . فحكم من ١٩٢٥ حتى ١٩٣٩ . وتعالج الدراسات التاريخية الشائعة الفترة من ١٩٢٥ حتى ١٩٢٨ باعتبارها فترة الجمهورية ، والفترة بعد ١٩٢٨ باعتبارها العهد الملكى . ولكن هذين النظامين – كما يبين الاقتصاد السياسى – كانا مجرد شكلين سطحيين لعهد ليبرالى يتميز بحكم طبقة واحدة . فمن هو – إذن – أحمد زوغو ؟ . وكيف استطاع تعبئة الدعم الذى حصل عليه لكى يدفع بالعهد الليبرالى إلى الوراء نحو الإقطاع ؟ . يبرز بعض الكتاب ما كان يتمتع به من شخصية جذابة فريدة ، فلم تكن عودته عام ١٩٢٥ ممولة من شركات النفط أنجلو أمريكان وأنجلو برشيان وستاندرد أويل فحسب ، بل لقد كان محبوبا على النطاق الشعبى الجماهيرى أيضا .

لقد كان أحمد زوغو ابنا لجمال زوغو ، وهو زعيم قبلى لقبيلة ماتى Mati ، وكانت أمه صديقه تو بتاتى Taptani سليلة العائلة الحاكمة لألبانيا الوسطى . وكان التحالف العائلى الذى يمثله زواج أبويه يربط برباط وثيق بين جزئين مهمين من ألبانيا .

وكان تأثير الأم طاغيا على ابنها بعد وفاة الأب عام ١٩٠١ عندما كان أحمد زوغو لا يزال صبياً . وتصور إحدى الدراسات التاريخية الأم بوصفها امرأة لامعة الذكاء ، قوية الإرادة ، قادرة على قيادة الجند على صهوة جوادها ، وأنها كانت الزعيم الأوحد لعشيرة زوجها الراحل طوال أربعة وثلا ثين عاماً . وقد عصف موتها عام ١٩٣٥ بابنها ، الذى بنى لها ضريحا تستمر حراسته ليلا ونهاراً .(٢٩)

وهذه اللقطة الموجزة مستقاة – بطبيعة الحال – من صيغة رسمية لحياة العائلة ، ولكنها تكشف عن أصالة فردية عميقة الجذور فى حياة البلاد . أما منافسه الرئيسى فان نولى فربما كان مثقفا متألقا ، ولكنه ظل دائما يعانى من النظر إليه كالنظر إلى الأجنبى بحكم كونه مسيحيا ، وخريجا فى جامعة هارفارد الأمريكية . وحينما تولى زوغو السلطة انتهج سياسات ملائمة للأعمال الاقتصادية والتنمية ، نتج عنها توسيع قاعدة الطبقة الحاكمة باستيعاب المزيد من الطبقات التجارية الحضرية . ولما كان زوغو قد أسرت فى الإنفاق ، فقد اتجه - عام ١٩٢٦ – إلى إيطاليا الفاشية لاقتراض الأموال ، وقع على ميثاق تيرانا . وفى عام ١٩٢٨ ، أصدر مجموعة قانونية جديدة لتحل محل القوانبن العثمانية . ولتهدئة مخاوف الإقطاعيين الأكثر محافظة وضع حدا لنمو الساحة السياسية ، وأعطى لنفسه الحق فى تعيين ثلث أعضاء مجلس الشيوخ ، وممارسة حق الاعتراض (الفيتو) على مجلس العموم . وكان من بين أعماله تدبير اغتيالات بعض السياسيين الليبراليين فى الداخل والخارج .

وفى يونيه عام ١٩٣١ ، حاول أن يتفادى كل أشكال العجز المالى المتراكمة ، فاقترض المال مرة ثانية من موسولينى . بعد عام ، كان يعانى المصاعب من جديد . وزادت الاختلافات مع موسولينى عام ١٩٣٣ – حول سداد القروض – من حدة مشاكله . ولما كان يفتقد عونا أجنبيا بديلا وقاعدة تأييد شعبية فى الداخل ، سعى لكسب الوقت لفرض التعتيم الإعلامى على الرأى العام .

وفى الثلاثينيات ، ظهرت بوادر التقدم المحدود من جانب الرأسمالية الصناعية ، وقد دعمتها الحكومة الإيطالية كشكل من أشكال الإنتاج الذى يدور فى فلكها ، أى إنتاج يفترض مسبقاً وجود عمليات التجهيز النهائية وهياكل السوق فى إيطاليا نفسها وهكذا شجعت إيطاليا الصناعيين على إنتاج الورق المقوى ، والأسمنت ، والسجائر ، والصابون ، والمنتجات الخشبية للصناعة الإيطالية[٣٠] . ولكن مع زيادة التغلغل الاقتصادى الإيطالى تطور رد الفعل ، فقد بدأت الطبقة العاملة والوسطى فى الاتحاد ضد الاستغلال الأجنبى .

وتبين الدراسات التاريخية أنه منذ وقت مبكر يعود إلى منتصف وأواخر العشرينيات ظهرت أفكار يسارية فى قطاعى البناء والتعدين . وفى عام ١٩٢٩ ، تشكلت أول مجموعة شيوعية . وكما كانت الحال فى أماكن أخرى ، كان عليها أن تواجه مشاكل علاقتها الفعلية بالطبقة العاملة ، ولكن بعد عدد محدود من السنين فى ضوء الأحوال سالفة الذكر ، كانت مجموعة كورتش Kaıcc قادرة على ربط نفسها بالطبقة العاملة بصورة ملفتة للنظر - استراتيجية الجبهة الشعبية المؤيدة لحقوق الطبقة العاملة . وابتداء من منتصف الثلاثينات حتى نهاية العصر الليبرالى عام ١٩٤٤ ، شكل اليسار الراديكالى الذى يسيطر عليه الشيوعيون تحديا على نحو متزايد للنظام . واختارت الطبقة الحاكمة فى هذا الموقف أن تدعم التحالف مع الفاشيين ، مما دفع الليبراليين واليساريين إلى العمل تحت الأرض من خلال الاضطهاد .

ومن الملاحظ أن التحدى شىء يصعب على معظم أشكال الهيمنة احتماله . وبالنسبة إلى الملك زوغو أصابه التحدى بقدر كبير من الذعر . ففى تلك الفترة لم يكن يتناول طعاما إلا ما تطهيه أمه خوفًا من التسمم . وكان طعامه يصل فى صندوق مغلق من أمه كل يوم . وكانت رحلاته الأساسية خارج قلعته تتم بصحبتها ، لأن العرف لم يكن يغفر عمليات القتل التى تتضمن نساء . وفى بعض الأحيان كان يكسر الروتين ، ويأخذ معه فرسانا وأتباعه من قبيلة ماتى Mati الذين يثق بهم . ولم يكن مسدسه يفارقه فى مكتبه .

وكانت لطريقة زوغو فى التعامل مع الزواج بعضا من السمات المميزة البادية فى عادات تناول طعامه . فبعد بحث طويل بين بنات النبلاء الأقل مرتبة ، تروج فى

النهاية امـرأة مـجرية تنتمى إلى المـذهب الكاثـوليكى . وكانت هذه المرأة جير الـدين أبو نيى Geraldine Apponyi ، والتى أطلق عليها ورد المجر البيضاء ، ذات موهبة فطرية فى اللغات ، فقد تعلمت الألبانية فى بضعة شهور . وكان زوغو خائفا من ذلك جزئياً ، فقد يمكن أن تتعرض للخطر من خلال التآمر الإيطالى ، لذلك أصر على أن تشرف على خدمتها جدتها القادمة من المجر . ويبدو أن مخاوفه قامت على أساس متين . فقد هددها قسيسها وهو إيطالى بالحرمان من الانتماء إلى الملة لزواجها من مسلم ، وكان من الممكن إفشاؤه مضامين اعترافها للحكومة الإيطالية . وبالإضافة إلى ذلك حاول الإيطاليون رشوة طباخ جير الدين المجرى فى إحدى المناسبات ، وربما حاولوا اغتيالها على اليخت الملكى فى مناسبة أخرى . وقد كان قضاء شهر عسل أحمد وجير الدين فى دوريس Duress يستلزم رحلة بالسيارة من تيرانا . ووفقا لمؤلف حديث ، « لقد تبع موكب طويل من السيارات الزوجين الملكيين فى تطابق مع الولع الألبانى بالمشاركة فى هذه المناسبات حتى مع التعرض للخطر » . وعلى أى حال ، لقد أدهش زوغو الطبقة الحاكمة الألبانية ، فزواجه رفع فعلا من شعبيته فى البلاد ، وخاصة بعد أن قام هو وجير الدين بزيارة ناجحة إلى فلورا فى الجنوب الذى لم يكن قد حقق فيه شعبية على الإطلاق .(٣٢)

وفى أبريل ١٩٣٩ ، غزت إيطاليا ألبانيا . وكانت الخطة هى الإطاحة بزوغو وضم البلاد . ومن الممكن استنباط حالة التأهب لدى الطبقة الحاكمة إزاء مثل هذا الاحتمال من الواقعة التالية ؛ ففى هذا اليوم تصادف موعد ولادة الملكة جير الدين . وكانت تتطلب عملية قيصرية ثم طريقة للخروج من البلاد إلى مكان تجد فيه رعاية طبية تساعدها على استعادة صحتها . وقد شغلت هذه المسائل الملك زوغو بالكامل أثناء هذه اللحظات الحرجة . ولذلك فقد تخلى عن خططه للتقهقر إلى الجبال للانخراط فى حرب عصابات .

ويمكن القول إن زوغو كان نموذجاً لكثير من أمثاله المنتمين إلى العهد الليبرالى فى بلاد مختلفة ، وذلك إذا نحينا سوء الطالع جانبا . فقد حاول مثلهم إدخال قانون مدنى لتقليص نفوذ نظام الولاء العشائرى . وأنشأ مثلهم المدارس والعيادات والمؤسسات الأخرى . ولكن ذلك ليس القصة بكاملها ، فقد تم بذل جهد مساو لذلك للمحافظة على

تماسك النظام التقليدى ، على الرغم من التفتت المتزايد الذى أحدثته الرأسمالية فيه . فقد تعايشت الأنظمة القانونية فى تيرانا التى تتخذ مواقف ليبرالية فى المسائل الاجتماعية مع القرارات والتعهدات المتخذة على المستوى المحلى للحفاظ على النظام القائم . وهناك دراسة شهيرة للموضوع تترجم نصوص عدد من هذه القرارات والتعهدات المحلية المتخذة بين الستينات من القرن التاسع عشر والأربعينات من القرن العشرين فى الشمال [٣٤].

كما يرجع إلى فترة الملك زوغو تحديث المدن الكبرى . وقد لاحظ أحد الزائرين فى تلك الفترة وجود أوركسترا البلاط الملكى فى تيرانا تعرف الأعمال الكلاسيكية الأوربية المعروفة ، ومتحف قومى ، وطرق وبنية تحتية ، وبوليس وجيش مركزيين - ومن وجهة نظر أحد الأجانب - كفاءة النظام ، فالأجانب كانوا خاضعين لنفس القانون مثل الألبان .[٣٥]

ولم يكن سقوط الملك زوغو بالضرورة ما كانت تريده الطبقة الحاكمة . ولكن مع ضعف النظام ، فإن ارتدادا إلى شكل استعمارى للحكم يستتبع بعض التضحيات كان هو المخرج الوحيد أمامهم ، لكى يحتفظوا بما يملكون . وكان زوغو كبش فداء متاحا بسهولة . فقد كان قانونه المدنى (١٩٢٨) مسرفا فى الليبرالية بالنسبة إلى البعض ، على حين كان اعتماده المتزايد على القروض قد خلق دوائر من المتسفيدين غير مرغوبة بالنسبة للبعض الآخر . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت محاولات زوغو تحقيق المركزية الإدارية تفتقد إلى الشعبية ؛ لأنها تستتبع نزع السلطة من مؤيديه . وقد أزعج الكثيرين النمو المتزايد للنزعة القومية ، والكلام عن الإصلاح الزراعى وألحوا عليه باللائمة بسبب ذلك أيضا .[٣٦]

ولم يكن سقوط زوغو ناتجا عن التقييم المتغير له من جانب طبقته فحسب ، بل عن عجزه أيضا فى أن يرضى هواجس موسولينى فيما يتعلق بالدين الألبانى لإيطاليا . وبعد أن أصبحت الحكومة معتمدة على تدفق المال الإيطالى ، لم يعد وجود أى سياسى ضرورياً لاغنى عنه ، وخاصة ذلك السياسى الذى لا يستطيع التعامل مع سياسة الديون . وحينما أصبحت مصالح الطبقة الحاكمة مهددة ، لم تعد تطالب بأقل من المناصرة المطلقة لموسولينى .[٣٧]

ولكن الأمر لم يكن كذلك على أى حال ، وسواء كانت هناك قروض أو لم تكن ، فالنزعة القومية كانت على درجة من القوة بحيث لا تسمح بذلك ، كما كانت النزعة الاستعمارية شديدة الغلظة والصلف . فعلى سبيل المثال ، حينما بدأ موسولينى فى استعمال ألبانيا كدولة للمستوطنين بإرساله إليها العاطلين ، وفائض سكان الجنوب ، كان لذلك تأثير بالغ التمزيق إلى أقصى حد لألبانيا . فليس غريبا أن تعمقت المقاومة للاستعمار والإقطاع التى ذكرناها فيما سبق ، بل وأصبحت أكثر راديكالية . وقد ظهر الشباب كقوة سياسية فى هذه الفترة . ولأنهم كانوا مضطرين للاختيار بين الشيوعيين والفاشست ، فقد انضموا إلى الشيوعيين بأعداد كبيرة .

وفى عام ١٩٤٠ ، حاول موسولينى الظفر بالتأييد عن طريق وعودة بمكاسب إقليمية مقابل دعمه فى حملاته لغزو اليونان ويوغوسلافيا . وأخفقت المحاولة ، فقد فرت الوحدات الألبانية فى الجيش الإيطالى على أرض المعركة فى اليونان ، كما ألحق التخريب الذى قام به العمال الضرر بإنتاج النفط والكروم الذى كان يعتمد عليه الفاشست .

ولكن الشيوعيين عام ١٩٤٠ ، كانوا لا يزالون منقسمين بحيث لم يستطيعوا تحدى الفاشست على نحو فعال ' فشيوعيو ؛ المدينة الجنوبية « كورش » التى تعيش فيها أغلبية من المسلمين ، سعوا إلى نضال يقوم على فكرة التحرر الوطنى ، على حين فضل الشيوعيون فى المدينة الشمالية سكوتارى التى يغلب عليها الروم الكاثوليك نضالا ضمن سياق الاستعمار الإيطالى يعمل على مزيد من إنضاج إيديولوجية الطبقة العاملة .

وفى عام ١٩٤١ ، قاد أنور خوجه مظاهرة معادية للفاشية فى تيرانا ، ضمت معظم فصائل الحركة الشيوعية ، وطالب المتظاهرون فى تيرانا بالاستقلال القومى والديموقراطية . ومنفذ ذلك الحين ظهر خوجه بوصفه قائد اللجنة المركزية للحزب .

وفى وجه المعارضة السياسية – حتى تلك المعارضة المنقسمة – بدأت الطبقة الحاكمة وحلفاؤها الإيطاليون يفقدون أعصابهم . فقرروا صبغ الإدارة بالصبغة الألبانية » . ولم يكن الخيار الاستعمارى ناجحا ، فقد كانت « جبهة التحرير الوطنى » شديدة القوة والخطر . ولكى تحبط العائلات القديمة مالكة الأرض انتصارا شيوعيا ممكنا ،

فقد انحازت إلى البريطانيين ، وقدمت ائتلافا جديدا للقتال فى الميدان تحت راية معاداة الشيوعية . وكان ذلك التحالف هو جبهة بالى كومبتار القومية Bali Kombetar (BK) [٣٩] . وفى هذا السباق ، بدأت جبهة التحرير الوطنية المرحلة الشهيرة من حرب العصابات التى شُنت من الجبال الشمالية . وفى نهاية الأمر ، فر الكثير من أعضاء الجبهة القومية وحتى من الجيش الإيطالى ، لكى يقاتلوا فى صفوف جبهة التحرير . وكانت هناك مجموعة شهيرة من الإيطاليين المعادين للفاشية هى كتيبة أنطونيو جرامشى .

وصاحب سقوط المحور الفاشى سقوط الطبقة الحاكمة التقليدية . وقد ذهب الكثير من الشخصيات البارزة إلى المنفى . ولم تتقدم إنجلترا وأمريكا للإنقاذ بأى شكل مؤثر ، وكذا العصر الليبرالى .

الإدماجية فى ألبانيا
١٩٤٤ - ١٩٩٠

مضت الإدماجية فى ألبانيا إلى ما هو أبعد من التحالف المتعدد الطبقات الشائعة فى البلاد الأخرى التى يتناولها هذا الكتاب . لقد كانت ثورة ؛ أى صعدت طبقة حاكمة جديدة ، واستولت على السلطة محطمة طبقة قديمة عند قيامها بذلك. ولكن مفهوم الإدماجية يبدو فى المدى القصير والمدى الطويل مبررا أكثر من مفهوم الثورة بوصفة المستهدف الرئيسى . فالسمة الجوهرية المرتبطة بالإدماجية ؛ أى إعادة تنظيم هيمنة سابقة الوجود ، هى ما نجده هنا . فالطابع القبلى - الإثنى للسياسة وأنماط الإنتاج المختلطة فى الاقتصاد ظلت دون مساس . لقد تحولت ألبانيا من رأسمالية القطاع الخاص المتحالفة مع الإقطاع ، إلى نظام من رأسمالية الدولة الذى سمى بالاشتراكية ، متحالف مع قطاع خاص متقلص ، ومع إقطاع ريفى متنكر إلى حد ما ، لم ينجح الحزب ، أو لم يسع أبدا - سعيا حقيقيا - ، لاقتلاعهما . وكما هى الحال فى الأنظمة الإدماجية الأخرى ، فقد الفلاحون السلطة نظراً لتناقص استقلالهم الذاتى فى اتخاذ قرارات العمل فى ظل نظام الزراعة الجماعية . ومرة ثانية ، كان الهدف المتفق عليه كما هى

الحال مع أنظمة إدماجية عديدة – بين أعضاء الحزب المنتمين إلى البورجوازية أو الطبقة الوسطى الدنيا هو التنمية الصناعية .

وفى عام ١٩٤٥ ، اتخذ « المجلس المناهض للفاشية من أجل التحرير الوطنى » الإجراءات التى نطلق عليها هنا إجراءات إدماجية ، تضمنت مصادرة الملكية الأجنبية ، وتأميم وسائل الإنتاج ، وفرض ضريبة على أثرياء الحرب . وتبع ذلك قوانين أخرى تعطى للحزب السيطرة على ثروة البلاد التى كان يسيطر عليها فيما سبق أنصار الملك زوغو .

وكانت سياسات الحزب الشيوعى – كسياسات الأنظمة الإدماجية الأخرى – توسع إلى مدى كبير الساحات السياسية والاقتصادية عما كانت عليه من قبل . وقد جلب هذا التوسع الكثير من المواهب الجديدة إلى النظام بما فيها أعداد كبيرة من العاملات ، وسمح ذلك بدوره للبلاد أن تقوم بالتنمية الصناعية التى أرادها الحزب .[٣٩]

إن تصنيع بلد ما هو تغير يتطلب قدرا كبيرا من القسر . فالإنجليز اقتلعوا فلاحيهم من جذورهم ودفعوهم إلى المصنع تحت إرغام الجوع . ولكن الألبان لم يفعلوا ذلك ، إذ قدموا حوافز . ولكن منهجهم كان أقل نجاحا من منهج الإنجليز . فقد واصل الفلاحون البقاء . وقد عبر أنور خوجه فى كتاباته أثناء الخمسينيات والستينيات عن استيائه من فشل عملية التحول الاقتصادى الذى كان واضحا على كل المستويات ناهيك عن نمو بيروقراطية تتألف من أعضاء الحزب الطفيليين ، وعن الاتجاهات البورجوازية للجيل الجديد من الشباب المتعلم ، ولكن ماذا يريد أن يعمل الشباب المتعلم البورجوازى – أو غير بوجوازى – فى مصنع ، أو العودة إلى الريف ليعمل فى مزرعة جماعية ؟ فلم يكن هناك حرية أو توقع لها ، فقد أحكم الحزب قبضته . لقد كانت وظائف المصنع طريقا مسدودا . ولم تمنح الأرض إلا لرؤوس العائلات وعلى أساس المنفعة فحسب ، لا على أساس الملكية . وكان نقل الحيازة محظورا ، وحتى حق الانتفاع كان يتآكل مع تقدم الزراعة الجماعية . وأصبح من الواضح لدى كثير من الشباب أنهم سيكونون أفضل حالا فى المدينة حتى فى وظيفة مكتبية متواضعة .

وهكذا ، فعلى الرغم من طموح الحزب لبناء اقتصاد يتمتع بالاكتفاء الذاتى ، ظلت التبعية طوال الفترة الإدماجية هى القاعدة .

وكان على الحزب أن يتحالف مع دولة كبرى -- ليضمن ولو مجرد الاستمرار فى البقاء . وفى الأربعينيات والخمسينيات ، عكست السياسة الصناعية تبعية البلاد ليوغوسلافيا والاتحاد السوفييتى فى الحصول على المدخلات . ونتيجة لذلك ، اهتمت ألبانيا – أثناء تلك الفترة - بصناعاتها التقليدية والخفيفة . وفى تلك الفترة حدث توسع الإنتاج القائم وترشيده تحت رعاية اتحاد التعاونيات الحرفية .

وفى عام ١٩٦١ ، فى « الفترة الثالثة » من التنمية الاقتصادية ، تحول النظام إلى الصناعة الأساسية مستفيدا فى ذلك الوقت من المعونة الصينية .[٤٠] وبعد ذلك بدأ المسئولون بالتدريج الكفاح من أجل الاكتفاء الذاتى الاقتصادى معطين له الأولوية على تأييد التحديث السوفييتى ، وهو الأولوية التقليدية لكل أمم الكوميكون .

ومع مرور سنوات الستينيات ، صار من الواضح أن الاكتفاء الذاتى الاقتصادى لن يتحقق بثمن زهيد ، فهو سيتطلب تضحيات أكثر . وعلى سبيل المثال ، ستكون ألبانيا مضطرة من أجل سداد قروضها وديونها الأخرى للصين إلى زيادة الضرائب ، والقيام بذلك يوجب تحمل تضحيات سياسية حقيقية .

وقد أثار دهشة الكثير من المراقبين أن البلاد شدت الحزام على حساب عمالها الأفضل أجورا ، والبيروقراطيين بإنقاص مرتبات الكثيرين منهم . كما نفذت ذلك من خلال إدخال أعداد كبيرة من النساء إلى قوة العمل بأجور ضئيلة فى أغلب الأحيان .[٤١] وعلى نحو مفرط فى دراميته ، تم ذلك من خلال التطهير فى صفوف العسكريين . وقد سقط الجنرال بللوكو Balluku ومجموعته ، مهندسو مفهوم الجيش المحترف الحديث فى تلك الفترة ضحايا للسياسات الجديدة للموازنة المالية . وقد أراد خوجه على أي حال – الاحتفاظ بالتقليد القائم على عصابات الأنصار ، أى على أن كل إنسان جندى ، وعلى الحزب بوصفه جزءا من الجيش . وكان يخشى تحويل الجيش إلى جيش محترف ، فذلك يعطى للسوفييت نفوذا أكبر من اللازم . وقد قدمت له أزمة الموازنة الفرصة ليمضى فى طريقه الذى يريد دون مواجهة .[٤٢]

وفى النهاية ، سعى الحزب إلى أن يفرض سياسة شد الأحزمة على البطون على القطاع الزراعى ، وقد ظهر أن ذلك كان إساءة للحكم . فالقطاع الزراعى كان يسير من قبل فى طريق التقلص ، وبالإضافة إلى ذلك كان يعانى من أزمة عمالة مزمنة .

وفى تقدير أحد الكتاب أنه – عند بداية السبعينيات – انخفض القسم الزراعى من قوة العمل إلى ٤٩٪ بعد أن كان ٧٤٪ عام ١٩٥٠ . ويبدو أنه مع انتشار الزراعة الجماعية كف المزيد من الفلاحين عن الزراعة . ففى عام ١٩٥٠ ، وكان ٧ر١٪ من الزراع من المزارع التعاونية ، وفى عام ١٩٧٠ ، كان جميع الذين ظلوا يزرعون أعضاء فيها .

فإذا كانت جماعية الزراعة لا تحظى بشعبية لدى الفلاحين ، ألا يزيد من عدم شعبيتها - ببساطة - فرض منهج شد الأحزمة على البطون ؟ . يبدو أن الأمر كذلك ، فابتداء من نهاية الخمسينيات كانت هناك معارضة قوية للسياسة الجماعية بادية للعيان . وكما كانت الحال مع فلاحي الاتحاد السوفييتي ، فضل كثير من الفلاحين فى ألبانيا ذبح مواشيهم على تسليمها للمزرعة الجماعية . وفى وقت مبكر – عام ١٩٥٧ – أى قبل أن تصل الزراعة الجماعية إلى أوجها بسنوات قليلة ، هبط عدد الماشية إلى أقل مما كان عليه عام ١٩٣٧ . وإذا كانت الحكومة جادة فى توقعها أن يدفع الفلاحون ثمن التصنيع من خلال تضحيات إضافة ، فإن ذلك يدل دلالة واضحة على أنها كانت منعزلة عنهم . فجماعية الزراعة بحد ذاتها تكفى لكى تكون محنة تعذب الفلاحين ، فهى تنفى بطرق متعددة الحرية الشخصية العزيزة على قلوبهم . وليس من المستغرب أن التقدم فى جماعية الزراعة تناسب مع زيادة أزمات « نقص الغذاء » .[٤٣]

وفى عام ١٩٦٨ ، قرر الحزب أن يسدد الضربات ردا على أعداء الحزب وهى النسمية التى أطلقها على المختلفين مع سياساته ، وأطلق ثورة ثقافية . وشملت الجوانب المعروفة للثورة إعادة تسيس الجيش وإلغاء طابعة الاحترافى وهو ما ذكرناه سابقا ، وحملة الإلحاد والمحاولة المجدِّدة لمواصلة تحرير النساء . وما يزال ما قصدته الدولة من ثورتها الثقافية ينتظر الإيضاح من جانب الدارسين ، ويكفى القول أن بعض التفاصيل أصبحت معروفة . فقد سعت وسائل الإعلام الألبانية – إلى العثور على أمثلة للاحتفال بها عن انهيار الزيجات التى تفرضها الأسرة ، وعن نزع الحجاب وعن نساء يقتحمن مجال الصناعة الثقيلة .

ومع ذلك ، ففى عام ١٩٦٨ ، سنجد باحثا إثنوجرافيا فى تيرانا يكرر الملاحظة التى قدمناها فى القسم السابق ، عن أنه على الرغم من جيل كامل من نزعة التنمية ، فإن عشيرة الغج Ghegs فى شمال ألبانيا ظلت أكبر تجمع عشائرى فى أوروبا ، وأنها

على الجملة ، كانت منظمة فى تجمعات تتبع النسب الأبوى حول وحدات عائلية كما كانت طيلة قرون ، وأنها واصلت - كما فى الماضى - خوض حروب حول مسائل مثل شرف العائلة ، وأن النساء - كما كانت الحال فى الماضى - استطعن إشعال هذه الحروب بل والمشاركة فيها خلال خدع متعددة . ومع مركزية السلطة المتحققة فى فترة ما بين الحربين بدأت الدولة تشن غاراتها على نظام الزواج ، عن طريق حملاتها ضد زواج القاصرات ، وعن طريق الحوافز التى منحتها للشباب لكى يتركوا عشائرهم ، ولكن النظام التقليدى ظل من حيث الأساس دون مساس .[٤٤] هل كانت الدولة تريد اقتلاع هذا النظام من جذوره ؟ ليس ذلك واضحا . فمع إدخال الإصلاح الزراعى ، ومع تشكيل التعاونيات الزراعية ، واصلت أشكال التضامن العشائرى البقاء على أى حال ، مدعمة من جانب دولة أصبحت الآن أكثر اعتمادا من أى وقت مضى على تعاون هيكل السلطة المحلى .[٤٥] فهل أدركت الثورة الثقافية إدراكا عميقا هذه الجوانب الواقعية ؟

ولنبدأ بالتساؤل عن من كان يتخذ القرارات بالفعل ؟ وتقول إحدى وجهات النظر إن الحزب على الرغم من أنه كان من الناحية النظرية « حزبا مفتوحا » ، فقد كانت عضويته الرئيسية مستمدة بكثافة من منطقة واحدة هى الجنوب ، وكان معزولا عن بقية المجتمع .

وهناك وجهة نظر أخرى ترى أنه على الرغم من أن القيادة لم تكن منعزلة إلا أنها كانت ببساطة تستخدم الثورة الثقافية لكسب الوقت ، فالحزب نفسه كان مسئولا عن استمرار النزعة القبلية . ولكن المؤكد أنه فى الستينيات المتأخرة أدرك الجميع حتى مسئولو الحكومة أن المركزية خانقة . ولكن من يحمل الأنباء السيئة عليه دائما أن يدفع الثمن . ففى منتصف السبعينيات ، فقد عدد من المسئولين مناصبهم ، كان من بينهم أعضاء فى مجلس الوزراء - عرفوا بقدر من الليبرالية ، أى ببعض النقد الضمنى للسياسات القائمة ، وبذلك سبقوا زمانهم بعشر سنوات . وطوال هذه الفترة بأكملها اندفع النظام فى إصراره على عقائديته الجامدة . فقد أرسل قسراً ما يقرب من أربعة عشر ألفا من الشباب إلى الريف ليقدموا العون فى الزراعة . وتم تطبيق قانون جديد للأجور يخفض على الطريقة « الكمبودية » نسبة مرتبات عمال المكاتب إلى مرتبات العمال اليدويين والزراعيين من ٢٫٥ : ١ لتصبح ٢ : ١ .

ووراء الكواليس ، حاول خوجه الحد من التجاوزات المفرطة للهيكل الذى خلقه ، ولكن دون جدوى . ومع النظرة التنموية أى الحاجة المستمرة لإظهار النمو ، كان هناك قدر كبير من التصلب . فحينما نشأ تناقض لم يوجد له حل سريع مثل العلاقة بين العامل اليدوى والذهنى ، كان النظام يقع فى حيرة ، فاستعمال القوة يؤدى إلى نتائج عكسية . ومع التأكيد على الصناعة لم يكن الحزب قادرا على الانتقاء الواسع لحلفائه فى قطاعات أخرى مثل الزراعة . وتصدر من أحاديث خوجه ومراسلاته فى السبعينيات بعض الشكاوى عن الموقف الراضى عن الذات فى الريف . وقد لاحظ خوجه أن كادر الحزب من عمال وفلاحين يشعرون جميعا بأنهم يمتلكون معرفة وافية عن ذواتهم . ولم يكن ذلك صحيحا . فقد كانت هناك مشاكل خطيرة فى « التنفيذ الصحيح للتوجيهات » نتيجة لمجرد الجهل . وعلى المستوى الإجرائى ، أبرز خوجه انحرافات مزمنة وخاصة فى المناطق الريفية عن الديموقراطية المركزية للشيوعية ، وسقوطا فى نزعة الرئاسة وقبول السادة « المسئولين الرسميين » ومصدرى الأوامر » . كما أبرز خوجه حالات من الأنشطة غير القانونية من جانب أعضاء الحزب ومن نمو المراجعة التحريفية العقلية . لقد أصبحت القيادة المحلية -- كما يزعم خوجه - شريحة ذات امتيازات ، لا يعنيها إلا التشبث بمناصبها . وكانت مكاتب الحزب المحلية ، إذا عدنا إلى نقاط قدمناها من قبل ، لا تقوم بتوزيع مواد الحزب المركزية ولا تعبير عن أى فقد لتوجيهات الحزب المركزية . والدليل على ذلك كان الفشل العام للحزب المحلى فى تنشيط الشعب على مستوى القرية من خلال المجالس الشعبية ، على حين أشارت كل المظاهر إلى أن مكاتب الحزب المحلية كانت مزودة جيدا بالكفاءات وأكثر من قادرة على تحقيق ذلك . وليس من المستغرب أن ينحى خوجه باللائحة على الثقافة التقليدية ، مكدساً فى كتلة واحدة الإخفاقات من جانب الحزب مع الإخفاقات التى تظل مستمرة فى المجتمع .[٤٦] وبطبيعة الحال فهو يعرف - كما كان يعرف الجميع - أن الحزب قد أقام تحالفات مع الهيكل المحلى للسلطة طوال سنوات ، ربما بسبب الضرورة أو ربما كان ذلك استراتيجية «فرق تسد» ولم تكن النتائج جديرة بالاعتبار . فقد استمرت الممارسات العشائرية التى حظرها القانون . وعلى سبيل المثال ، ظل الآباء أحيانا يبيعون بناتهم كزوجات للحصول عل سلع استهلاكية . ولكن ما أزعج خوجه على وجه الخصوص هو أن هذه الممارسات انخرط فيها أعضاء بارزون فى الحزب .[٤٧]

وقد جاء انهيار الثورة الثقافية فى منتصف السبعينيات فى وقت كان عصيبا بالنسبة للحزب ، فقد كان البلد آمنا ، وبدأت المطالبة بمزيد من السلع الاستهلاكية ومن الحريات المدنية فى التصاعد . ويمكن من هذه النقطة تحديد تاريخ انهيار الطور الإدماجى ، ومن ثم وجهة نظر بعض الكتاب التى ترى أن الثورة الثقافية كانت الزفرة الأخيرة ، مجرد جهد لكسب الوقت .

وكان الحزب يبدو للكثيرين فى السبعينيات لا شبيها بعشيرة فحسب ، ومتزمتا فحسب ، بل عتيقا أيضا . فأين ذهبت الثورة ؟ لقد رفض شباب المدينة من جميع الطبقات رفضا باتا الذهاب إلى العمل فى الريف ، وكافحوا بدلا من ذلك للتعبير عن مشاعر الاغتراب التى يحسون بها فى المدن . وارتفعت حوادث السرقة والجرائم الأخرى بين الشباب ، حتى بين شباب الطبقة الوسطى ، وانخفضت إنتاجية المصانع .

وعلى حين كانت هناك علامات تحرر طوال السبعينيات ، فقد ظلت البلاد من الناحية الرسمية على الأقل حتى عام ١٩٨٧ ، تنتهج سبيل الإدماجية . وبوفاة خوجه وتولى رامز عاليا فى هذه السنة - بدأت السياسة تتغير ، واتجهت ألبانيا نحو عهد ليبرالى جديد . فظهرت سياسات مبتكرة انصرفت عن الزراعة التعاونية ربطت الأجور فى الصناعة بالإنتاج الكلى للمصنع ، وشجعت صراحة أكبر فى نقد الأخطاء فى النظام . وفى عام ١٩٨٨ ، أدت السياسة الجديدة إلى تغير كل المسئولين عن الإسكان والعمل ومكاتب الإقامة كل خمس سنوات على الأقل ؛ لأن المحسوبية والارتباطات العائلية كانت متغشية . كما استجاب عاليا للنقد الموجه من جانب سكان أصبحوا الآن أفضل تعليما وأكثر جرأة فاعترف عاليا برداءة السلع الاستهلاكية . وعجزت مصانع القطاع العام تماما عن إنتاج ما يريده الجمهور . وفى عام ١٩٩٠ ، كانت الليبرالية تفرض نفسها بقدر متزايد وكانت البلاد تنزلق أكثر فأكثر اقتصاديا لتدور فى فلك ألمانيا الغربية .(٤٨)

وفى عام ١٩٩١ ، كان من الواضح أنه حتى الإيديولوجية الشيوعية ، لم يكن فى استطاعتها البقاء بعد سقوط الإدماجية . وكما كانت الحال فى الأعوام التى سبقت ١٩٤٤ ، بدأ أن الطبقة الحاكمة اليوم وتجد فى الليبرالية التابعة سبيلا مجديا لاحتواء السخط ؛ وهكذا يمكن الاستغناء عن الإيديولوجية الشيوعية إلى حين .

حركات المعارضة والهيمنة المضادة
فى ألبانيا

فى الدول القبلية – الإثنية تتجلى المعارضة عادة فى حركة انفصالية أو فى حركات شعبوية ينظم بعضها مجموعات دينية احتجاجية ، وينظم بعضها الآخر أحزاباً إقليمية أو إثنية . وألبانيا – كما أوضح هذا الفصل – أوثق صلة بالشكل المغاير الشعبوى . وكانت النزعة القومية الشعبوية أداة رئيسية للمعارضة روحاً طويلاً من التاريخ الحديث . وقد استخدمها الليبراليون وكذلك الشيوعيون فى محاولاتهم المتعددة للوصول إلى السلطة .

ومع ذلك فكما أوضحت الصفحات السالفة – لا تستطيع هذه الحركات مهما بلغت ثوريتها أن تحرر نفسها من الهيمنة السائدة ، وقد أدى ذلك بعد مدة إلى ظهور تيارات جديدة من الهيمنة المضادة ، عبرت عن نفسها أول الأمر بوصفها أشكالاً مختلفة من الاغتراب ، ثم بوصفها حركات تعتنق الديموقراطية والإسلام .

فهل كان الاغتراب نتيجة للمستوى المنخفض من إشاعة الطابع الحضرى أو لارتفاع عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة ؟ هل نشأ عن وضع النساء أو عن حقيقة أن الجماعات الدينية التى حظرها القانون مثل البكتاشيين قدمت أشكالاً من الإشباع عجز عنها الحزب ؟

لقد أشار عدد من الكتاب إلى نزعة الحكومة المفترضة فى معاداة الاتجاه الحضرى باعتبارها عاملا يسهم فى الاغتراب . ووجدوا أن ألبانيا متخلفة من حيث التحضر . وفقاً للمعايير « الأوروبية » ترى ، أكانت كذلك وفقاً لمعايير المجتمعات القبلية الإثنية ؟ إن الدول القبلية الإثنية رغم كل شىء بما أنها أقل اتصافاً بالنزعة التنموية تميل إلى أن تكون أكثر ريفية من الدول فى أشكال الهيمنة الأخرى[٤٩] .

فهل انتشار معرفة القراءة والكتابة ، وهو احد نتائج البرنامج الشيوعى يولد الاغتراب السياسى ؟ من الممكن أن يكون الأمر كذلك على الرغم من أن السؤال عن ارتباط زيادة الاغتراب بهذا الشكل من الهيمنة أو بغيره يظل دون إجابة حاسمة[٥٠] .

وهل تؤدى زيادة استغلال المرأة التى تصاحب التنمية إلى مزيد من الاغتراب ؟ هنا تكون الشواهد مختلطة كما لاحظنا من قبل . إن نهوض حركة سياسية مثل الحزب الليبرالى الألبانى تدعى تحدى الخطوط التقليدية فى العرق والجنس ، كان له تأثير فى زيادة توقعات النساء . ومن المؤكد أن مشروعات التنمية تطلبت عدداً أكبر، وليس عدداً أقل من العمال . ومع ذلك ، فقد أوضح المعلقون أنه على الرغم من الفرص الجديدة أمام النساء لم تتغير علاقات الذكور بالأناث بدرجة كبيرة . تصلح السياسة الشيوعية فى تنظيم الأسرة ذات الاتجاه الحاد نحو تبنى زيادة معدلات المواليد ، لتذكيرنا بذلك بكل قوة . وهكذا عاشت الأغلبية الساحقة من النساء أثناء العمل فى عالم معين ، وعند العودة إلى البيت ، واصلن كما كانت الحال فى الماضى العيش فى عالم آخر . ومن ناحية أخرى . ينبغى أن يلاحظ المرء أيضاً أن عدداً من النساء فى تلك الفترة استطعن الحصول على مواقع رفيعة . وكان الذين بهرتهم هذه الحقيقة ، أقرب إلى تأييد النظام .

ومن النادر أن تكون النقطة المثارة غالباً فى الأبيات التى عالجت الظاهرة تتصل بكيفية حصول النساء على مثل هذه الوظائف من خلال عائلاتهم وثيقة الصلة بالموضوع ، فما هى الطريقة البديلة التى كان يمكن لأى إنسان الحصول بها على وظيفة[٥١] ؟

وفى النهاية ، شكل البكتاشيون منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وهم جماعة دينية منشقة مفتوحة للرجال والنساء ، أمام الأنظمة المختلفة تحدياً منظماً بعض الشيء «شعبوى الأسلوب » . وقد لعب البكتاشيون فى البداية دوراً مهماً فى نهوض الثقافة العلمانية والتعليم والقومية . وإلى هذا الحد كانوا شوكة فى جنوب الإقطاعيين . وبعد ذلك كانوا حلفاء للشيوعيين فى الحرب ضد الفاشية . ولكنهم أصبحو ينافسون الشيوعيين بفضل عبور الحوافز بين عضوية الذكور والإناث والمسلمين والمسيحيين وبفضل نفوذهم فى الجنوب بين التوسك Tosks .

وحينما وصل الملك زوغو إلى السلطة كان مدعماً كما رأينا بطبقة من ملاك الأرض يغلب عليها المذهب السنى . وسرعان ما وجد نفسه مستاء من المذهب البكتاشى الذى يبيح شرب الخمر ، والانفتاح على الزواج المختلط بين المسيحيين والمسلمين ، وتغيير الأسماء . وقد حاول زوغو أثناء الفترة الفاشية أن يضع الهيكل القيادى للبكتاشية تحت رعاية السنيين كطريقة لإحكام السيطرة عليهم . وفى دستور ١٩٤٥ ،

أعطت الحكومة الشيوعية مكانة للستيين أعلى من مكانة البكناشيين . وفى عام ١٩٤٧ ، اغتال النظام الشيوعى أو دبر خططاً لاغتيال القيادة البكتاشية فى تيرانا ، فى ملابسات عنيفة ، ولكنها غامضة ، وهى القيادة التى كانت حليفة للنظام من قبل . وكانت تلك الأحداث محيرّة ؛ لأن أنور خوجه زعيم الشيوعيين جاء من عائلة بكتاشية[٥٢] . وفى عام ١٩٦٧ ، بدا أن التحدى البكتاشى انتهى ، حينما نفى النظام الزعماء البكتاشيين مع غيرهم من الزعماء الدينيين . ووجدت القيادة البكتاشية اليوم مقراً لها فى الولايات المتحدة[٥٣] .

وهكذا بقى بعد عام ١٩٦٧ الشعور الديموقراطى ، الشعور الذى تربى على أيدى البكتاشيين والليبراليين الآخرين على الرغم من عدم وجود تنظيم يتحدى الهيمنة ، وتدل الأحداث فى واقع الأمر – على أن الشعور الديموقراطى نما وتحول تدريجياً إلى حركة ديموقراطية .

وقد لجأ النظام إلى الثورة الثقافية وحملة الإلحاد فيما يبدو كحل أخير للتصدى لهذا المد . وكان النظام يرى أن من المعقول نشر الإلحاد ومحاولة تحويل الممارسة الدينية مرة واحدة إلى مجرد فولكلور . وبعبارة أخرى ، تحويلة إلى شىء تستطيع الدولة تنظيمه . ولعلها كانت طريقة للتعامل مع حقيقة أن ٧٠٪ من سكان البلاد من المسلمين وأن نمو الاغتراب قد يؤدى إلى صحوة الإيديولوجية الإسلامية . وهكذا نجد – بعد عام ١٩٦٧ - أعمالاً مضادة للهيمنة تذكرها الكتابات الرسمية بوصفها تفصيلات «إثنوجرافية » مثل حالات قساوسة يؤدون القداس سراً ، ومسلمين من السنة يصومون سراً فى رمضان ، ويؤدون الحج سراً ، ويحملون مسابحهم سراً[٥٤] . ولكن مقالاً من صحيفة رسمية فى أوائل السبعينيات ، ينمبز بلهجة منذرة بالخطر يزعم أن بعض سكرتيرى الحزب أنفسهم قد مالوا إلى الدين ، ويستنتج من ذلك أن قوة الدين لم تنل حقها من التقدير .

وزعم مقال نشر فى عام ١٩٧٦ ، أن ممارسات العبادة الخاصة تزداد كل عام ، وأن ٩٦٪ من الزيجات كما أكد هذا المقال – تتم بن أفراد ينتمون إلى دين واحد ، وأن هناك ارتفاعاً حاداً فى التضامن الطائفى أعلى مما كان سائداً فى زمن الملك زوغو[٥٥] . وربما كان الحزب على حق ، فالضغط من أجل الليبرالية الاقتصادية ، جلب معه تجديداً للدين .

ويمعنى أعم تكون الحركات السياسية الديموقراطية حافلة بالخطر بالنسبة إلى هيمنة لا تفسح مكاناً لحكم القانون ولا لمجتمع مدنى . وماذا تستطيع مثل هذه الهيمنة أن تفعل إذا فشلت الثورة الثقافة فى تشتيت شمل خصومها ؟ والأمر ليس هينا على الإطلاق . وفى واقع الأمر ، من المحتمل أن زعيماً فى مثل هذا النمط من الهيمنة ما إن يستسلم أمام مطلب الحقوق المدنية - كما حدث فى يوغوسلافيا بالفعل حتى يبدأ احتمال العنف بين مجموع القوى على المسرح السياسى فى التحقق .

ولكن يبدو أن طريق ألبانيا للخروج من الأزمة كان من خلال التبعية .

والظاهر أن الوضع الحالى فى ألبانيا الليبرالية فيما بعد الشيوعية أثناء التسعينيات المبكرة هو إكمال لدورة الاقتصاد السياسى ، فالعناصر الليبرالية والإقطاعية صاعدة من جديد ، ومن السابق لأوانه أن تطغو المعارضة على السطح .

تنظيم الثقافة فى ألبانيا

يرتكز تنظيم الثقافة فى الدول القبلية الإثنية على الحفاظ على « المعرفة الروحية » وفى حالة ألبانيا يشير المتخصصون ابتداء من القرن التاسع عشر حتى اليوم إلى هذه المعرفة باعتبارها « الطابع الألبانى للمعرفة » . ويتناول هذا القسم هوية هذا الطابع الألبانى للمعرفة فى ألبانيا ، كيف نما وأنتج المثقفين الذين وجهوا الثقافة أولاً فى القرن التاسع عشر ، ثم بعد ذلك فى الفترة الشيوعية[٥٦] ؟

وكانت مسألة الأبجدية أول استخدام للمعرفة الروحية فى التاريخ الحديث[٥٧] . وقد كان ذلك جدالاً يشكل حله خطورة على الطبقة الحاكمة ، بل لقد كان مجرد اختباره يشكل خطورة ، لأنه كان جدالاً يثير شمالاً كاثوليكياً يتمركز فى سكوتارى ضد جنوب مسلم يتمركز فى كورشى وججير وكاستر وفلورا . وكان الألبان فى سكوتارى يسعون لاستخدام أبجدية رومانية تربط البلاد بأوروبا الغربية ، على حين سعى الجنوبيون إلى أبجدية عربية أو عثمانية تربط ألبانيا بالعالم الإسلامى . وطوال عدة سنوات تُركت هذه المسألة كما هو متوقع دون حل . وفى الاجتماع الشهير عام ١٩٠٩ فى مونا ستبر ،

خرج المشاركون الذين كانوا انعكاساً لكل هذه التناقضات على التقاليد ، وقرروا أن تكون نتيجة مداولاتهم التوصل إلى أبجدية موحدة ، لأن البلاد لن تستطيع التقدم بدونها . وفى هذا الاجتماع « شق » البكتاشيون « وحدة الصف » وصوتوا مع المسيحيين من أجل أبجدية لاتينية[٥٨] .

ودفع الاتفاق على الأبجدية إلى السطح بمشاكل أخرى ، توقع هؤلاء المثقفون دون شك أنها ستقدم لهم فرصة كافية للاختيار بين حل مسألة الأبجدية أو عدم حلها . أينبغى للغة ذات أبجدية متفق عليها أن يكون لها أيضا نحواً خاصاً بها وكذلك مجموعة من الصيغ الأدبية ؟ ففى بلاد أخرى مثل إيطاليا أتاح توحيد البلاد لبيروقراطيى الدولة فرصة لفرض ما يعد من الناحية الجوهرية لغة جديدة ، ولكن فى المسألة المطروحة هنا ، كانت هناك مشكلة أن يكون من مصلحة الدولة رعاية ذلك الأمر ، أى تحويل اللغة إلى علم وضعى فى متناول جميع الأفراد .

ومنذ العشرينيات المبكرة أجرت الحكومة التجارب على إمكان محاولة استخدام اللهجة الإلباسانية فى وسط ألبانيا كلغة رسمية . ولكن اللهجة الإلباسانية لم تستطع أن تجارى جاذبية التوسكية عند الأسقف فان نولى ولا الغجية Gheg عند معاصرية[٥٩] .

ولكن الوقت لم يكن مواتيا بالنسبة إلى هؤلاء الذين يسعون إلى مساندة تطوير سياسة قومية للغة . ففى العشرينيات ، والسنوات التى تلتها كان الحاكم ، الملك زوغو والكثير من أفراد حاشيته ما يزالون يتكلمون بلهجة الغج ، على حين كانت أغلبية الطبقة الحاكمة من الجنوب يتكلمون بلهجة التوسك . وعلى المدى البعيد ، أدت قوة التوسك إلى سيطرتهم . ولكن ، حتى الأربعينيات ، كانت ولاية الملك زوغو وأهمية العلاقة مع المحور الفاشى من خلاله تعوضان ما يعتبره أنصار التنمية مأزقا فى تطور السياسة اللغوية .

بعبارة أخرى ، ظلت المعرفة الروحية تمثل ، صيغة التحكم ، لأن أى محاولة غير موفقة لتنمية اللغة قد تؤدى إلى تفسخ الهيمنة .

إن التطوير بمعنى النمطية أو التبسيط صعب فى كل الأحوال . وكما هى الحال مع اللغات القبلية الأخرى ، فإن الألبانية لغة ذات مجموع محدود من المفردات ، ولكنها

لغة ذات معان متعددة مرتبطة بكل كلمة . وكما يبين مقال نشر حديثاً ، تحتوى الألبانية على مفردات غنية للحيوانات البرية والوحوش والدواب ، وهناك صلة وثيقة بين الحيوانات والبشر ، وكلما كانت اللغة مرتبطة بالشعر ، كما هى الحال فى لهجة الغج ، كانت تلك الصلة أوثق[٦٠] . وبهذه السمات اللغوية ، فإن برنامجا للنمطية أو التحديث مثل الذى يقترحه لغويون متعددون يؤيدون التطوير ، سيكون أيضا اعتداء على الهيكل الاجتماعى . ألن يختار دعاة التطوير بطبيعة الحال المعانى الأكثر حداثة للكلمات ؟ فماذا سيحدث حينئذ لبقية العبارات المرتبطة بالأرواح والتعاويذ والعجز الجنسى والحسد أو الصخور والأعشاب والأبطال المتصفة جميعاً بالفضيلة ؟ وإذا أزيحت السمات اللغوية المشتركة بين الإناث وأدخل التحديث على كلمة حلم (enderre) مثلا ألن نفقد دور النساء بوصفهن مفسرات الأحلام الذى يرد على الذهن مع الكلمة ؟ وإذا كانت الكلمة التى تدل على واو العطف (dhe) تستطيع أن تدل أيضا على « ذلك » و « من هذا المكان » و « مع ذلك » و « قريب من » فما معنى محو هذه الإمكانات الثانوية ؟ هل الهدف هو فى واقع الأمر خلق جمهور عام كلى ؟ هل ستستفيد الدولة من ذلك[٦١] ؟

وفى إلباسان ، فى الأعوام الأخيرة من العهد الليبرالى ، برز ألكسندر خوفانى Alexander Xhunani (١٨٨٠ ١٩٧٦) باعتباره أبرز شخصية علمية فى ألبانيا . وقد كان خوفانى نحويا ، وكتب مقالات فى عدة مناسبات عن أصالة اللغة ونقائها . وكما كان التطوير يتطلب أبجدية موحدة ، فإنه يتطلب أيضا فى رأيه قواعد نحوية موحدة . وقد علق كاتب سيرته الشخصية معلقاً على مجمل نشاطه بأنه يُذكر من جانب معاصريه بأنه ناصر « إيديولوجيات كثيرة ، ولكن الولاء عنده كان محدوداً » ، وأن نشاطه يمكن أن يكون نقيضاً لنشاط الشخصية الأدبية المعروفة « فان نولى » ، الذى فضل أن يختار أنواع ولائه بحرية حتى إذا كان ذلك معناه قضاء حياته فى المنفى . وأثناء حياة خوفانى الطويلة شغل مناصب مهمة كثيرة من بينها منصب مدير كلية إلباسان لتدريب المعلمين ، ثم كان مسئولاً فى وزارة التعليم ؛ حيث اشتهر بتعاطفه مع المحور الفاشى . وعلى الرغم من ذلك فقد انضم خوفانى إلى الثورة بعد عام ١٩٤٤ ، وانتخب عضواً فى المؤتمر الوطنى عام ١٩٥٠[٦٢] .

وبصعود خوفاني وعدد قليل من أمثاله أرغمت نزعة المعرفة الروحية على التعايش لفترة ما مع نزعة التطوير . وبدأت « القرارات » البراجماتية تتوالى بسرعة أكبر . وهكذا نجد أنه في عام ١٩٤٥ ، أعلن الشيوعيون لهجة التوسك لغة قومية ، وظهر كتاب مدرسي مقرر للنحو عام ١٩٤٩ ، يؤكد الاستعمالات التوسكية . وفي عام ١٩٥٤ ، ظهر قاموس النظام يؤكد من جديد لهجة التوسك . وبطبيعة الحال اقتفت الصحف والإذاعة في تيرانا أثر ذلك ، وكذلك البيروقراطية الحكومية . وقد كان ذلك علامة على التغير بمعنيين . ففي عهد الملك زوغو كانت البيروقراطية تتكلم بلهجة الغج دائما ، وبعد سنوات قليلة كانت تتبع الثورة في الكلام بلهجة التوسك . والمعنى الثاني – وهو الأكثر أهمية – أن استراتيجية الهيمنة في عهد الملك زوغو كانت ترك مسألة اللهجة دون حل بقبول فكرة درجة من عدم التحديد في اللغة ، أما الآن ولمدة معينة على أقل تقدير فقد تغير ذلك[٦٣] .

وفي عام ١٩٥٧ مع افتتاح الجامعة في تيرانا ، برزت مسألة السياسات اللغوية والأدبية مرة ثانية عند اختيار الأساتذة والبرامج . وهنا أيضا كانت سيادة لهجة التوسك واضحة جلية . ومع هذه الحقيقة ، لم يكن الأمر إلا مسألة وقت لكي تعلن المؤسسة الأكاديمية « توحيد » اللغة . وقد حدث ذلك عام ١٩٧٢ . ولكن بعد زمن قصير ، اتضح أن السياسة اللغوية الجديدة لم تكن ناجحة . فالثنائية اللغوية ظلت في صعود ، وخاصة في الشمال . وقد أثار ذلك أسئلة كثيرة . هل كان من مصلحة الدولة أن تكون دولة التوسك ؟ أليس هناك طريقة أخرى لانتهاج التطوير غير مواصلة « حل » المشاكل ؟ . أليس من الممكن أن تواجه الدولة في نهاية الأمر تحدياً من داخلها من جانب طبقة ناكرة للجميل من متكلمي التوسكية[٦٤] ؟ وابتداء من السبعينيات كان واضحا على أي حال أن الشمال هو الذي شعر إلى أقصى حد بوطأة التطوير[٦٥] .

وقبل أن ننتقل إلى دراسة الشخصيات المعاصرة التي ورثت هذه المشاكل ، من المفيد أن نوسع نطاق مناقشة الهيمنة الثقافية وندرس « المثقفين التقنيين » ، أي المجموعة الأوسع إلى حد ما من الشعراء ومن الشخصيات في المجالات الأخرى ، إلخ ، الذين دعمت كتاباتهم ودعم إنتاجهم الإبداعي الوضع القائم . وإذا كانت الانقسامات في العهد الليبرالي الأول داخل الطبقة الحاكمة قد أعطت قوة غير معتادة لشعراء

الشمال ، ففى العهد الشيوعى انعكس هذا الاتجاه ، إذ جاء معظم الكتاب من الجنوب ومن نطاق من المجالات الثقافية واصل اتساعه بمرور الزمان .

وهناك شاعر شهير ينتمى إلى الفترة الليبرالية المبكرة هو جيرج فيشتا Gjerj Fishta ، وقد نشأ فى بيئة قروية بالقرب من شكودر Shkoder ، وشب ليكون قسيسا فرنسيسكانيا ومؤسسا للمدرسة الإليرية الثانوية فى شكودر ، وهى أول مدرسة تدرس كل المواد باللغة الألبانية . كما ألف « لاهوتا إى ما لشيس Lahuta e Malcis » (شكودر ١٩٣٧) ، وهى قصيدة ملحمية شهيرة ذات أبعاد ضخمة عن تاريخ ألبانيا فى القرن التاسع عشر[٦٦] . وفى السنوات التالية . كان فيشتا أيضا مشاركاً قيادياً فى مسألة الأبجدية .

وكانت هناك شخصيتان تنتميان إلى الجيل الأخر لليبرالية الذى اشتهرت به شكودر ، الأول الكاتب لويج جورا كوقى Luigj Gur akuqi (١٨٧٩ ١٩٢٥) ، وهو زميل سياسى لفان نولى ، والثانى إرنست كوليقى Ernest Kaliqi (١٩٠٣ ١٩٧٥) ، وهو شاعر وشخصية أدبية بارزة فى الثلاثينيات والأربعينيات وصار فى السنوات اللاحقة دارساً باحثاً عرف بعمله عن الملحمة . وقد خدم كوليقى « المجلس الكبير » الفاشستى فى تيرانا ، وحينما سقط هرب إلى إيطاليا ، حيث واصل التدريس عدة عقود . وكان بين طلبته فى السنوات الأخيرة شاعر الغج النابه فى أيامنا مارتن شاماج Martin Camaj .

وحينما نلتفت إلى الجيل الأكثر معاصرة ، نجد بعض التدهور فآخر شاعر من سكوتارى تنكره الدراسات هو ميجينى Migjeni (١٩١١ ١٩٣٨) مات قبل مجىء الشيوعيين إلى السلطة . ويذكره القراء بوصفه أول من قطع صلته بالرومانسية ، وتناول مواضيع اجتماعية ، فهو بشير بالواقعية الاشتراكية . وبعد ميجينى يبدو أنه كان هناك عدد ضئيل من مسئولى الحزب ، مثل محمد شيخو البطل العسكرى للمقاومة ، وفادى باكرامى Fadi Pacrami وهو كاتب درامى ، كما كان فى بعض الأوقات رئيساً لمجلس الشعب .

وحينما ننتقل إلى مدينة إلباسان فى وسط ألبانيا ، نجد أن أفضل مثقفيها المشهورين ينتسبون إلى الفترة الأكثر حداثه ، وكان للعديد منهم أنشطة مرتبطة بصعود الشيوعيين . فالشاعر كمال ستافا Qemal Stafa (١٩١٢ ١٩٤٢) المعروف

فى الدوائر الأدبية بوصفه مقلداً لشعر ميجينى كان بالإضافة إلى ذلك من مؤسسى حركة الشباب الشيوعى . وكتب على عيدى خوخه Ali Abdi hoxha (١٩٢٣ -) روايات تعكس إسهامه فى المقاومة ، وبرز ديميتر شتريكى Dhimiter Shuteriqi (١٩١٥ -) باعتباره ناقداً أدبياً كبيراً ومنظرا للحزب ، كما ظهرت فى السنوات تاليه إلينا قدارى Elena Kadare (١٩٤٣ -) أول روائية من النساء ، وصوت قيادى فى الحركة النسوية . وقد تزوجت من الروائى إسماعيل قدارى . وطوال الفترة التى أعقبت عام ١٩٣٠ كانت تيرانا أكثر المدن تأثيراً باستثناء مدن الجنوب وخاصة كورتشى مركز تطور الحزب الليبرالى الألبانى . وابتداء من تلك الفترة كانت أغلبية الكتاب المشاهير القادمين من كورتشى من الرجال والنساء الجدد الذين نهضوا مع المقاومة . وكان أشهرهم الشاعر دريتيرو أجوللى Dritero Agolli (١٩٣١ -) مؤلف القصيدة الشعبية الفذة « أمنا ألبانيا » ، وصنع آخرون شهرتهم من خلال الخدمة فى تيرانا بعد الاستقلال . وتضم هذه الشخصيات كيتشور بلوشى Kico Blushi (١٩٤٣) وهو كاتب نثر فنى وسيناريو سينمائى ، استخدمته فى السنوات الأخيرة «استوديوهات أفلام ألبانيا الجديدة » ، والشاعرة ناتا شيا لاكو Natashia Lako (١٩٤٨) المنتمية إلى حركة تحرير المرأة ، والتى عملت لحساب هذه الاستوديوهات نفسها ، وجوليانا جى جورجانجى Zhuljana G. Jarganxhi (١٩٤٦ -) وهى شاعرة وصحيفة صعدت لتكون المحررة الأدبية للراديو والتلفزيون الألبانى بعد عام ١٩٧٥ ، واسكندر درينى Skender Drini وهو كاتب أصبح معلماً فيما بعد . أما مدينة فلورا ، فعلى الرغم من أنها فى الجنوب ، فقد عانت من تدهور نسبى منذ عصر إسماعيل قمالى قبل الحرب العالمية الأولى ، على حين أن مدينة جيروكاستر المجاورة لكورتشى كانت أعظم مدينة موردة لكادر الثورة . وبالإضافة إلى ذلك كان لها تاريخ أطول من حيث تطور الثقافة .

وكانت جيروكاستر موطن نعيم فراشيرى Naim Frasheri (١٨٤٦ - ١٩٠٠) مهندس اللغة الألبانية ، ومؤلف ما يزيد على خمسة عشر كتاباً فى الموضوعات الثقافية وزعيم الحركة القومية . ومن جيروكاستر جاء أكرم شابج Eqrem Cabej (١٩٠٨- ١٩٨١) ، وهو عالم لغة تعلم فى ألمانيا ، ومصنف معجم ، ومتخصص فى شئون ألبانيا ، وكذلك بانوشوكا Pano Cuka (١٩٢٥) ، وهو شاعر وناثر كان همزة الوصل بين الثقافتين الألبانية واليونانية .

ومع صعود جيل الثورة ، جاءت مجموعة من الشخصيات لها سمعة قومية بارزة : فيدات كوكونا Vedat Kokona (١٩١٣ -) وهو كاتب ومترجم للأدب الفرنسى وأستاذ فى جامعة تيرانا . ودالان شابلو Dalen Shapklo (١٩٢٨ --) ، وهو ناقد أدبى ومحرر للمجلة الأدبية تينتورى Nentori (نوفمبر) فى تيرانا ، وفى النهاية ذهنى ساكو Zihni Sako (١٩١٢ - ١٩٨١) ، وهوكاتب نثر أدبى ، ومدير معهد الفولكلور حتى تقاعده عام ١٩٧٩ .

وقد بلغت تيرانا ذروة أهميتها أثناء الفترة الشيوعية ، وقبل ذلك الوقت لم كاتبان للكتب الإسلامية التقليدية . ومنذ صعود الحزب الليبرالى الألبانى ، أصبحت المدينة مركز التحكم فى الثقافة . وقد هاجر إليها الكثير من هيئات العاملين من المدن الجنوبية ذات الامتيازات السياسية ، ومنهم كولى جاكوفا Kole Jakova (١٩١٦) ، وهو من مقاتلى التحرير ومن الإيديولوجيين ، وقد أصبح مديراً لمسرح الشعب ، وأجيم شبرجا Agim Cerga (١٩٣٥) ، وهو كاتب اشتهر باهتمامه بمشاكل الشباب ، وأصبح فى الأيام الأخيرة السكرتير الأدبى لاتحاد الكتاب والفنانين ، وجورجو بولو Jorgo Bulo ، وهو نتقد أدبى عُين رئيساً لقسم أدب ما قبل الثورة فى معهد اللغويات والأدب التابع لأكاديمية العلوم فى تيرانا ، وكوتشو بيهيكو Koco Bihiku (١٩٢٧) وهو ناقد أدبى ورئيس قسم أدب ما بعد الثورة فى نفس المعهد ، ومؤلف تاريخ الأدب الألبانى (١٩٨٠) .

وبالنسبة للذين ولدوا وتربوا فى تيرانا أثناء المعهد الشيوعى ممن أتاح لهم موقعهم منفذاً إلى العالم الخارجى وفتح لهم مجالاً لأنشطة مهمة ، وعلى سبيل المثال ، فقد صارت ديانا تشولى Diana Culi ، وهى كاتبة أدبية موظفة كبيرة القدر فى الآداب الألبانية Les LettresAlbanaises ، وهى حلقة الوصل الرئيسية بثقافة أوروبا الغربية . وشق حسن بترولا Hasan Petrula (١٩٢٧) الأديب طريقه المهنى فى الصحافة فى جريدة « صوت الشعب » وأصبح مراسلها فى الصين .

وإذا أمعنا التفكير فى هذه المجموعة من الشعراء والأدباء على أساس أهداف الدولة ، لا يجب أن ننسى أن ما كان مطلوباً لم يكن عملهم الأدبى فى المحل الأول ، بل التأثير المعين داخل المجتمع الذى يمكن لعملهم أن يحدثه . وإذا نظرنا إلى المسألة من

هذه الزاوية ، وجدنا أن الملك زوغو الذى أراد المحافظة على الوضع القائم كان لديه من المثقفين أكثر مما كان لدى الشيوعيين بكل نزعتهم التطورية(٦٧) .

وسنختتم هذا القسم بمناقشة تطور المعرفة الروحية فى علم الآثار وفى الإثنوجرافيا ، وهما مجالان يقفان فى مقدمة اهتمام النظام فى هذه الفترة ، وإذا أردنا البدء بإلقاء الضوء على الخلفية الخاصة بعلم الآثار لا نجد له تاريخاً طويلاً أو متميزاً قبل الأربعينايت . ووفقاً لما يذكره مظفر كوركوتى Mugafer Korkuti ، الذى كان مديراً لمركز البحث الأثرى ، لم يكن موجوداً قبل سنة ١٩٤٨ أى معهد متخصص فى البلاد . وقد شهدت سنة ١٩٤٨ افتتاح المتحف الإثنى - الأثرى . وتبع ذلك سنة ١٩٧٦ افتتاح مركز للبحث الأثرى ، ملحق بأكاديمية العلوم(٦٨) .

وفى الأعوام ما بين ١٩٤٨ و ١٩٧٦ ، مولت الحكومة العديد من البعثات الأثرية . وكان هدف هذه البعثات إقامة ما لا تستطيع الدراسات التاريخية وحدها إقامته من قضايا عن أصول البلاد وتطورها المبكر ، وعلى وجه الخصوص عن الثقافة « الإليرية » ، الأساس المفترض للثقافة الحديثة ، ولكل ثقافة فى الحقيقة من العصر القديم اليونانى الرومانى إلى الوقت الحاضر . وقد نجح علماء الآثار فى عملهم . فابتداء من السبعينيات أصبح من الممكن تقديم تفسير يقوم على التكوين الإثنى عبر العصور . وكان ذلك مفيداً ، فقد صار التاريخ محدد المعالم بصورة أكبر من ذى قبل . وبالإضافة إلى ذلك أكدت الكشوف الأثرية مجىء شعوب أخرى إلى ألبانيا ، وأنها ليست من صنع الألبان أنفسهم . فعلم الآثار يستطيع زلزلة كيان التاريخ والعكس بالعكس .

وكان لعلم الآثار مزايا أخرى كذلك ، فلما كانت الحفائر باهظة التكاليف أصبح لمن يتولى رعايتها قول حاسم فعلى ؛ ونتيجة لذلك بدا أن الدولة شأنها فى ذلك شأن الكثير من رعاة البحث الأثرى شغوفة باستخدام الآثار لتطرح التاريخ جانباً(٦٩) .

وكان المتخصصون فى شئون ألبانيا يولون وجوههم أيضا إلى المجالات التى تتشكل منها الإثنوجرافيا مثل الفولكلور والموسيقى والفن والرقص ، وهى مجالات ذات قيمة للهندسة الاجتماعية ، ولانعكاس مقولات التاريخ على السواء . وكانت دراستهم قد بدأت فى القرن التاسع عشر ، ولكنها لم تزد فى منظور تلك الفترة عن أن تكون مجرد

للفراغ . ولكن الإثنوجرافيا أصبحت فى العهد الشيوعى ذات فائدة ، فأصبحت دراستها تتصف بمزيد من الدقة المنهجية .

ووفقاً لرأى عالم إثنوجرافيا ، كان فى تيرانا أثناء تلك الفترة من النطور ، برر تراكم العمل من جانب دارسى الفولكلور وعلماء الإثنوجرافيا طوال القرن الماضى وحتى عام ١٩٦٠ إنشاء معهد للفولكلور . وفى عام ١٩٧٢ ، وهى سنة المؤتمر القومى الأول للفولكلور ، كان هذا المعهد قد جمع ما يقرب من عشرة آلاف أغنية شعبية ، ونشر ما يقرب من أربعين عملاً حول الفولكلور[٧٠] .

وفى عام ١٩٧٦ ، ظهر مثال على الهندسة الاجتماعية الجديدة فى تقرير لعالم إثنوجرافيا ينتقد المزاعم الوضعية الإتجاه القائلة بوجود استقطاب إثنوجرافى بين الغج والتوسك . وقد أصر ذلك العالم على عدم صحة هذا الرأى ، فهاتان الجماعتان الكبيرتان تتكون كلتاهما من عشرات الجماعات الأصغر ، وكلما تقدم البحث الإثنوجرافى ، أصبح ذلك أوضح وأوضح . وكان مغزى هذا المقال فيما يبدو أن الباب كان مفتوحاً لأنماط جديدة من المبادرات من أعلى . فإن صانع السياسة الذى يعاونه عالم إثنوجرافيا لن يواجه أبداً مجموعات اجتماعية لا يعتريها تغير[٧١] .

وقد صرح كاتب حزبى ذات مرة أن الرقص منبع حى للإبداع ، وهو ذو طابع «مبشر بالحاضر » ، وليس عتيقاً كما يعتقد بعض دارسى الفولكلور والموسيقى . ولكن أى رقصة هى المبشرة بالحاضر ، ومن أى وجهة نظر ؟ . وقد تناولت شخصية نابهة من الجيل الماركسى اللينينى للمعرفة الروحية ، هى ذهنى ساكو هذه المسألة وصل إلى نتيجة محددة . هناك - فى زعمه منهجان متميزان فى الفولكلور ، المنهج الاشتراكى الذى يهدف إلى إبراز « الثقافة الشعبية الحقة الكامنة فى الفولكلور » والمنهج البورجوازى أو النازى ، وهو الذى يتجاهل ذلك لحساب صورة هادئة ، مرئية ، خالية من الصراع[٧٢] . وهنا يكمن رأى به من المسام ما يكفى لجعل المسألة غير محسوسة من حيث الجوهر تنتظر المناسبة القادمة من التدخل الثقافى .

إن الهيمنة الثقافية فى ألبانيا كما هى فى بلاد أخرى يتم حفزها من خلال وسائل الاتصال الجماهيرية والنظام التعليمى . وفى ألبانيا كما هى الحال فى كثير من الدول القبلية الإثنية - اعتنق الحكام زمناً طويلاً الرأى القائل بأن وسائل الاتصال ونظام

التعليم ينبغى أن يعكسا التفكير الرسمى . ومنذ نهاية القرن الماضى ، حينما أصبحت الصحف مهمة ، مارس الحكام فى الأغلب سلطة الرقابة الصارمة لضمان الولاء[٧٣] . وفى الأعوام الأخيرة مر الراديو والتليفزيون بنفس المصير ؛ فالتقدم فى علم الآثار ، والعروض الثقافية الشعبية البارزة ، والشعر ، والموسيقى تذاع جميعاً ، ولكن النقد لا يذاع . وأصبحت العلوم التربوية -- من ناحية أخرى -- ساحة حافلة بالمشكلات على نحو متزايد . وهل يستطيع أحد أن يفصل الشعب عن وسطه ، ويجعله مؤهلاً لممارسة العلوم الوضعية دون خلق طبقة جديدة[٧٤] ؟ دعنا نمعن النظر فى ذلك من خلال دراستنا للكتابة التاريخية .

كتابة التاريخ فى ألبانيا

صنف المؤرخون فى ألبانيا روايات تتقصى سلسلة أنساب الحكام المتباينين ، وفى عهد أقرب صنفوا روايات تسرد تاريخ الحزب ، كما كتبوا أيضا تاريخاً دبلوماسياً ، وقد تم إنجاز بعض الأعمال المهمة ذات الطبيعة الأكثر اتصافاً بالنزعة الوضعية على وجه التخصيص بواسطة دارسين مهاجرين فى بلاد تشجع هذا النوع من التخصص . وفى السنوات الأخيرة ظهرت دراسات من التاريخ المحلى توحى بتأثير مدرسة الحوليات[٧٥] .

وكان إسهام التاريخ فى نزعة المعرفة الروحية يحد منه الموقف الملتبس بعض الشىء تجاه الوضعية ؛ وهى النظرة إلى العالم التى اعتمد عليها المؤرخون تقليدياً أعظم اعتماد . وعلى حين يمنح التاريخ كل هيمنة درجة ما من اليقين ، وبذلك يفرض بعض الضغوط على المعرفة الروحية بتحميلها مسئولية الدفاع عن حقيقة ما ، وتحدى الإطار الملحمى ، ودور الأسطورة والذاكرة عامة ، ويستتبع كل ذلك تحدى مكانة الشفاهية . وليس من المدهش أن التاريخ ظل يلقى أعظم نجاح حينما كان يعالج -- كما لاحظنا آنفا الظواهر الخارجية مثل العلاقات الخارجية أو حينما كان يتسع لتطويع الأسطورة ، كما هى الحال فى تتبع سلسلة النسب .

ولا يبدو أن التحول إلى الماركسية قد غير من وضع التاريخ . فإن منهج التحليل الطبقي في التاريخ يمكن أن يكون مهدداً لسياسة قبلية - إثنية بقدر مساو لمنهج رواية التاريخ الأكثر تقليدية ، لذلك لم يلق تشجيعاً . ولإفساح المجال للهيمنة تحول المؤرخون في السنوات القليلة الماضية إلى « تاريخ الشعوب » الستاليني النزعة ، بعد تجريده من دعاماته الوضعية الأوسع ، وحل النشوء الإثني محل نزعة الانتشار ، وانبثقت الحداثة عن نمط الإنتاج الجرماني[٧٦] .

وقد كان موضوع البطل (إسكندر بك على سبيل المثال) من أهم موضوعات الكتابة التاريخية ابتداء من القرن التاسع عشر حتى اليوم . ويبدو تفسير ذلك واضحا بما فيه الكفاية ، فعلى حين تكون أنواع كثيرة من الدراسة التاريخية مضرة بالهيمنة ، فليست سلاسل أنساب الأبطال كذلك ويمكن نعدد بين مزايا تناول المؤرخ موضوع إسكندر بك بما يأتي . إنه يستطيع أن يبين على سبيل المثال أن إسكندر بك في حياته تجاوز الانقسام بين المسيحيين والمسلمين مثلما يفعل الحزب نفسه ، وأنه مثل أنور خوجه كان معادياً للإمبريالية[٧٧] . وفي النهاية لن يكون عليه أن يتحدى مكان الأدب الملحمي .

حقا ، إن البحث التاريخي بدون النزعة الوضعية صعب . ولحسن الحظ كان لدى ألبانيا شعراء يهوون الاشتغال بالتاريخ وباحثون يشتغلون به في الخارج[٧٨] . وفي أواخر القرن التاسع عشر ، كان أشهر مؤرخ ألباني بخلاف فيشتا هو الشاعر نعيم فراشيري (١٨٤٦ ١٩٠٠) . وكان بين قصائد فراشيري بعض القصائد التي تتبنى موضوعات تاريخية ، مثل إسكندر بك (١٨٩٩) وبعض آخر بمثابة مهرجانات مسرحية مبنية على قصص القرآن والإنجيل[٩٧] . ويمجيء القرن العشرين ، كانت ما تزال هناك فرصة ضئيلة للقيام ببحث مبتكر ، فالبلاد ظلت مفتقرة إلى سياسة للأرشيف . وهكذا ، نجد العملين الكبيرين من أعمال البحث التاريخي اللذين كتبهما مؤلفان ألبانيان ، وهما دراسة فان نولي عن إسكندر بك (بوسطن ١٩٢١) (نيويورك ١٩٤٧) ، ودراسة أثاناسي جيجاج Athanase Gegaj عن الغزو التركي لألبانيا (لوفان ١٩٣٧)

(*) يرجى الاستمرار [illegible]

الناشر المترجم

قد كُتبا من حيث الأساس فى الخارج . وكانت التطورات الرئيسية فى البلاد تنحصر فى نشر مراجع مدرسية مختصرة ، وافتتاح المتحف الوطنى فى تيرانا (١٩٢٢)[٨٠] . ولكن الدراسة التاريخية لم يكن لها قاعدة مؤسسة ذات أهمية قبل العهد الشيوعى . فقد رعت ألمانيا النازية لمدة وجيزة معهداً للعلوم والفنون كما فعل الإيطاليون ، ولكن بإنشاء معهد العلوم عام ١٩٤٧ بواسطة الحزب الليبرالى الألبانى ، نستطيع الكلام عن مؤسسة كانت تتضمن على أقل تقدير اهتمامات المؤرخين[٨١].

وكان هذا المعهد هو الذى أخذ على عاتقه تنظيم الأرشيفات القومية ، وافتتاح جناح من المكتبة القومية مخصص لدراسات ألبانيا . وإنشاء معهد للتاريخ واللغويات وكتابة تاريخ قومى . وكان التقدم بطيئاً . وبقيت دراسة الإثنوجرافيا جزءاً ضخماً من عمل المعهد الجديد ، كما كانت فى المعهد القديم . وأثناء السنوات المبكرة ، كرست هيئة الباحثين اهتمامها لتجميع المواد وتدريب العاملين على العمل المتحفى ، وعمل تخطيط للدراسات أكثر من الانكباب على كتابة التاريخ ذاته وبافتتاح معهد الفولكلور عام ١٩٦٠ ، تحرر المؤرخون لكى يقوموا بعمل آخر .

وفى عام ١٩٥٧ ، حينما أنشئت جامعة تيرانا التابعة للدولة ، كان قسم التاريخ وفقه اللغة أحد أقسامها السبعة ، غير أن أ. كوستاللارى A. Kostallari كان واحداً من أهم المتخصصين فى « اللغة الألبانية الفصحى » أكثر من كونه مؤرخا[٨٢].

وفى الستينيات برز الأستاذ فرانكو برندى Franco Prendi بوصفه الشخصية الرئيسية فى المجال الجديد من الدراسات الإليرية وهو مجال يشمل العصر البرونزى والعصر الحديدى . وقد صدمت بعض استنتاجات برندى ، التى قدمناها من قبل فى هذا الفصل ، الدراسين فى ذلك الوقت باعتبارها مثيرة للدهشة . فلو كانت أصول البلاد فى زعم برندى هى الساحل الإليرى البارز فى الكتابة اليونانية لترتب على ذلك أنهاكانت ذات وجود مستقل أثناء العصر الكلاسيكى الإغريقى ، مما يجعل السكان الحاليين ورثة لأمجاد أقدم بكثير من أمجاد إسكندر بك ، وهى نقطة الانطلاق المعترف بها للدراسات المتخصصة فى ألبانيا أثناء الستينيات . وفى الثمانينيات ، لم يكن ظاهراً أن الكتابة التاريخية قد كسبت أرضاً واسعة ، فالمشروع الكبير الذى وضعه المؤرخون نصب أعينهم ، كان إنتاج سلسلة من المراجع المدرسية أكثر حداثة[٨٣]

وماذا يستطيع المرء أن يتعلمه من هذه الجهود ؟ فعلى حين أن المراجع المدرسية ليست على الجملة أسهل الكتب تجاوباً مع التحليل التفصيلى ، إذا أخذنا فى الاعتبار ما يتطلبه ذلك النوع من إضفاء للتجانس ومن تبسيط ، فإن واحداً من هذه المراجع المدرسية الصادر فى هذه الفترة يسمح بالفعل لنا ببعض التعلق . إنه تاريخ ألبانيا بقلم بولو وبوتو المشار إليه فيما سبق . فهذا الكتاب الذى كتب بالتعاون مع المعهد التاريخى التابع لأكاديمية العلم يظهر أنه يحاول فتح الباب أمام تحرك البلاد نحو الليبرالية وأمام روابطهم المأمولة مع الغرب . فالمؤلفان يزعمان أنه طوال عصور مختلفة كانت المدينة الألبانية جزءاً من المدنية الغربية مع احتفاظها فى نفس الوقت بهويتها . وهكذا كان هناك « عصر ذهبى » أعقبه انحطاط ثم نهضة من خلال التفاعل مع الغرب الحديث . ولم يعد إسكندر بك بطلاً شعبياً يجسد العدالة ، بل محارباً من محاربى النهضة (البعث) . ولم تعد هوية إسكندر بك الدينية المختلطة هى الموضوع الذى كانت له جاذبية كبيرة عند فان نولى فى العهد الليبرالى ، وعند كتاب كثيرين بعد ذلك فى عهد الإدماجية ، بذات أهمية . وفى الثمانينيات أمكن تسمية الفترة العثمانية التى عاش فيها إسكندر بك فترة الانحطاط اللاحقة للنهضة ، وهى دلالة مأخوذة فيما يبدو من التاريخ الإيطالى .وهنا فرض على التكوين الإثنى الذى اعتبر ذات مرة طريقة لتحرير البلاد من الغرب أن يتطابق مع نظرية التحديث لبربط البلاد بالغرب . وهناك طفرات أخرى بادية للعيان . فالمؤلفان يطرحان الموضوع الذى كان قد أغلق بوجه عام للمناقشة من جديد وهو موضوع الألبان الذين قضوا حياتهم فى الخارج ، بل ويلاحظ أن تأثير إيطاليا والألبان الإيطاليين على ألبانيا الحديثة . وإن اختيار المؤلفين لمثالين توضيحيين فى كتابهما من كنيستين فى منطقة بيرات ، يمكن تفسيره باعتباره عودة إلى النزعة الطائفية الجماعية للطور الليبرالى الأول . بيد أن السمة اللافتة للنظر فى هذا الكتاب مثل غيره من الكتب التى علقنا عليها فى هذا الفصل هى هشاشته الفكرية ، فهنا يصل الأمر إلى أن كتاباً للتاريخ قد كُتب لكى تعاد كتابته من جديد .

لقد قدم هذا الفصل تاريخ ألبانيا الحديث ، من ١٨٧٨ إلى الوقت الحاضر بوصفه تاريخ دولة قبلية إثنية ، وكان ذلك تفسيراً تعديلياً للموضوع . وكانت الحجج

الرئيسية هى أن الثقافة المهيمنة ، بطابعها المتخصص فى ألبانيا ، شكل من المعرفة الروحية لا تختلف عن مثيله فى الدول القبلية – الإثنية الأخرى ، وأن تنظيم الثقافة فى بلاد مثل ألبانيا ، يعكس تفوق الفوضوية كنظرة إلى العالم .

وتلعب الكتابة التاريخية هنا دوراً محدوداً . ويبدو أن ذلك إما كان نتيجة لمد نطاق المعرفة الروحية أو كان شرطاً مسبقاً لمد نطاقها . ومهما يكن الأمر ، فإن الموقع الهامشى نسبياً للفكر التاريخى يسهم فى الحفاظ على النموذج القياسى السائد ، الذى يفترض أن مثل هذه البلاد لا تتمتع بالكثير مما يعد تاريخاً .

وتنبثق خصوصية ألبانيا كدولة قبلية – إثنية من شكل الاستجابة الشعبية لهذه الهيمنة . فمنذ القرن التاسع عشر أدركت الجماهير – لأسباب متباينة – أن مصالحهم تتضمن استقلال بلادهم ، وقد جعل ذلك ألبانيا من بين أكثر البلاد اتصافاً بالنزعة القومية فى العالم . فقد فتحت سلسلة من نظمه ، من القرن التاسع عشر فصاعدا منتهية بالملك زوغو ، أخفقت جميعاً فى صيانة الاستقلال ، الباب أمام أشكال من النزعة القومية متزايدة الراديكالية ، اختتمت بالحزب الشيوعى الألبانى ، وبعد عام ١٩٤٤ ، كانت دعوته إلى التنمية الصناعية دعوة لقيت رضاً واسعاً لبعض الوقت . وفى السنوات الحديثة ، مع استرخاء الحرب الباردة ومع إبطاء التنمية ، ولدت الهيمنة المضادة من جديد .

وفى معظم الدول القبلية – الإثنية ، على نقيض ألبانيا ، لم تدرك جماهير السكان فى مختلف الأحوال أن أى تهديد للدولة أو لحدى مكوناتها الإثنية يُعتبر تهديداً للكل يتطلب تدخلاً عمليا . وفى مواقف الأزمة فرض المنطق على هذه الجماهير – بطريقة عكسية – أن المقاومة ينبغى أن تأخذ شكل حركة انفصال إثنى أو حركة مرتكزة على الدين . ونقدم فى الفصل القادم حالة الكونغو/ زائير البلجيكية باعتبارها ممثلة لهذه المجموعة الأوسع نطاقاً .

هوامش الفصل السابع

١ – حول هذا الطريق ، انظر :

Leroy Vail, ed. The Creation of Tribalism in Southern Africa (Berkeley : Univ. of California Pres, 1991) , 9 ntro ductin and Chapter ; 11j

وفي الدراسات الألبانية ، فإن النموذج المقترح هنا قريب جداً من وجهة النظر التى تدرج ألبانيا فى عداد بلاد العالم الثالث . انظر :

Elez Bleraj, "Albania and the Third World :

ideological, political and Economic Aspects, " in Eastern Europe and the Third World, ed. Michael Radu (New York : Frederick A. Praeger, 1981) , 55 - 76

لكن أضف إلى ذلك أن بلاداً غربية أوروبية مثل سويسرا وبلجيكا وسكاندنافيا هى جوهرياً قبلية - إثنية وأن أجزاء من العالم الثالث ليست قبلية - إثنية . انظر :

Arshi Pipa, " Glasnost in Albania " , Telas no. 79 (Spring 1989) : 181 - 203, esp. 197.

٢ - فيما يتعلق بالتناقض بين الجنسين في دولة قبلية ، إثنية نجده مصوراً تصويراً رائعاً فى رواية السيدة لبنانية
Etel Adnan : Sitt Marie - Rose" (Saus alito : Post Apollo Press, 1982),

وبالنسبة لألبانيا هناك أدب إثنوجرافى ، أكثر عن الغج فى الشمال بالنسبة إلى التوسك فى الجنوب . وتضم الأمثلة :

Berth Danermark and others, Women, Marriage, and Family Traditionalism Vs Modernity in Albania, " International Jaurnal of Sociology of the Family 19 (1989) : 19 - 41, Ian Whitaker, Asack for Carrying Thingo' : The Traditional Role of Women in Northern Alleanian Society, Anthrop alogical Quarterly 54, no. 3 (1981) : 146 - 156.

وهناك صيغ متلازمة للقهر الجنسى مثل إيثار رفع معدل الإنجاب فرأ ، وهى سياسة متطرفة فى ألبانيا ، انظر :

Henry Philip David, " Eastern Europe : Pronatalist Policies and Private Behavior, " Population Bulletin 36, mo. 6 (1982) : 2 - 47.

كما تدعم أشكال غير مباشرة من البينات اعتبار ألبانيا الحديثة قبلية - إثنية مع إضافة معنى جديد من الارتكاز على أساس النوع (ذكر/انثى) . ويواجه العاملون من المستشفيات الأمريكية مشكلة معالجة المرضى من ألبانيا ، وينقلون فى كتابات العيادة تجاربهم ونظراتهم ، فالألبان معروفون بتسلط فكرة حياء الأنثى ، والتحفظ فى مناقشة تنظيم الأسرة ، وتفضيل خدمات القابلة على خدمات طبيب المستشفى وعدم الاهتمام بالرعاية السابقة على الولادة . وتتعلق الملاحظات الأخرى باستجابة الألبان لفكرة الطب النفسى ، انظر مقال مدير المستشفى :

Howard Weinberg, " Staff Over comes Cultural Barriers to Care, Hospitals 49, no 16 (August 16, 1975) : 60 - 2.

ويتعمق مقال أخر فى الطرق المختلفة التى تقيَّد بها العائلات طفلها المولود حديثاً ، فالألبان فى جنوب إيطاليا هم بين أكثر العائلات كثافة حتى بالمقاييس الإيطالية :

Lucille F. Newman et al., " Early Human Interactin : Mother and Child, " Primary Care 3, no 3 (1976) : 491 - 505 , esp. the pages by Janet Schreiler, 499 - 504.

ويمكن استخلاص شكل أخر من الشواهد غير المباشرة من دراسات فى القانون المقارن . وتوضح إحدى هذه الدراسات أن الدول القبلية - الإثنية فى أوروبا تتقدم الصفوف فى إعطاء الحقوق للطفل غير الشرعى على حين أن مصلحة الطفل فى الديموقراطيات ، وفى دول الطريق الإيطالى .

تتم موازنتها مع مصلحة الأبوين فى المحافظة على التمييز بين الشرعية وعدم الشرعية . ولا تريد الدول القبلية - الإثنية بوضوح أطفال لا يرتبطون بآباء ، وفى ألبانيا ستفصل المحكمة فى مسألة من يحصل على الطفل فى الحالات التى لا تكون فيها الأبوة واضحة ، انظر : Robert Kiebala & George Naschitze " The Paternity Siut in Europe, " Buffala Law Revew 16 (1966 - 7) : 287 - 305.

3 - Partha Chatterjee, " The Nationalist Resolution of the Women's Question, " in Recasting Women Essays in Colanial History, eds. Kumbum Sangari and Sudesh Vaid (New Delhi 1989), 233 - 254, esp. 252.

٤ - إن الرجوع إلى الكتابات فى « العلاج النفسى عبر الثقافات » يمنح بعض المصداقية لفكرة أن الفصام مشكلة كبرى على أقل تقدير فى عدد من الدول القبلية ، الإثنية المعاصرة كما هى فى أنواع أخرى من الدول مهما تختلف الأسباب . ويستشهد إبراهيم سو Sow الباحث السنغالى بدراسة توضح أنها الشكل الأكثر انتشار من المرض العقلى المزمن فى أفريقيا الاستوائية ، انظر :

I. Sow, Anthropological Structures of Madness in Black Africa (New York : International Universities Pren, 1978), 28.

وفى قائمة المراجع الشاملة عن ألبانيا التى صنفها ويليام ب . بلاند William B. Bland كانت الدراسة الوحيدة حول موضوع مفرد المستشهد بها فى مجال الطب النفسى تدور حول موضوع معالجة المصابين بالفصام. Albania. (Oxfordi Clio Pres Ltd, 1988).

وبالنسبة للرأى المضاد القائل بأن الفصام ليس من المحتمل أن يحدث فى المجتمعات « البدائية » انظر فيما يتعلق بالكونغو البلجيكية .

R. Faris, Sone Observations on the Incidence of Schizophrenia in Primitive Societies, Journal of Abnormal Social Psychology 29 (   ) : 30 - 1.

٥ – تشمل الكتابات صاحبة التأثير الكبير بأقلام كتاب ألبان فيما وراء البحار :

Stavro Skendi, The Albanian National Awakening 1878 - 1912 (Princeton : Princeton Univ Press, 1967) ; Peter Prifti, Socialist Albania Since 1944 - Domestic and Foreign Developments (Cambridge : Mit, 1978) Arshi pipe, Albanian Stalinism Ideo - Political Aspects (Boulder : East European Monographs, 1990.).

The Politics of Language in Socialist Albania, Baulder : East Eurapean Monographs,, 1989.

٦ – فى القرابة بين الشيوعية الألبانية طائفة المعمودية Anabaptism (إعادة تعميد البالغين) وهى طائفة مسيحية فوضوية صوفية تطابق تأسيسها فى ألبانيا والكونغو البلجيكية ، انظر : Anton Logoreci : The Anabap-tists of European Communism, " Problems of Communism 16, no3 (1967) : 22 - 8.

٧ – هناك عملان متضادان عن العرفان ، فعن الفلسفة الزائيرية : V. Y. Mudimbe, The Invention of Africa - Gnosis, Philosophy, and the order of Knowledge (Bloomington : Indiane Univ. Pres, 1988)

كما يقدم باحث متخصص فى الدراسات الألبانية وباحث لغوى كتابة : Androkli Kostallari, Le Devel-oppement des Etudes Albanolagique en Albanie, Problemes Nouveaux et Taches Novvuelles, Studia Albanica 1, no. 1 (1964) : 5 - 46.

ويظهر الاعتراف بالمعرفة الروحية الألبانية بشكل عرضى غير مباشر فى مرجع سابق لجون هالبداى .

٧ – فى مواضع متفرقة من مقال :

Arshi Pipa, " Party Ideology and Purges in Albania " Telos no. 59 (Spring 1984) : 95

كما نجد فقرة طريفة :

« فقد اتهمت مجلة أدبية بولندية ذات مرة وسائل الإعلام الألبانية بأنها تتكلم ما أسماه مؤلف المقال « بالرطانة التيرانية » التى تتميز بعدم اعتبار كامل الحقائق وبتبادل مواقع السبب والنتيجة ، وفصل الكلمات عن معانيها الفعلية وتسمية الأشياء بأسماء غريبة تماماً عليها ، وتسلسل كامل للاستدلال مبنى على تفسير تحكمى والكامل للواقع » .

Paul Underwood, " Albania " in World Press Encyclopedia, ed. George Thomas Kurian (New York : Facts on File, 1982), 82.

8 - Pipa, The Politics of Language, im passim.

٩ – تكشف المزاعم حول ألبانيا أشكالاً من الاختلاط واللبس عند الغرباء عنها من أشكال هيمنة أخرى ، فعلى حين يراها البعض دولة محبة للحرب تشكل خطراً ، يراها بعض آخر مسالمة على نحو غريب ، فهى البلد الوحيد الذى يتعايش فيه المسلمون والمسيحيون والأرثوذكس بسلام . وكان ذلك رأى محمد على البعوث الهندى إلى عصبة الأمم الذى

دافع عن وجوب أن تكون ألبانيا دولة مستقلة ، انظر :

Fan Noli, Fiftieth Anniversary Book of the Albanian Orthodox Church in America, 1908 - 1958 (Boston, 1960) , 117.

١٠ – سمى سمير أمين ذلك « فك الارتباط » .

11 - Elez Biberaj, Albania Asocialist Mavereck (Boulder : Westinew Pres, 1990) iso stant.

12 - Stavro Skendi , ed. Albania (New York : Frederick A. Praeger, 1956), 122, 325 - 326; Arshi Pipe, " Party Ideology and Purges ... in Albanian Stalinism 89, 95,

ويلاحظ أرش بيبا أنه فى ألبانيا وحدها بين البلاد الأوروبية كان من الممكن التوقع أن الذى قام بالتطهير يمكن أن يكون ضحية لتطهير لاحق . وقد رأى كثيرون تحقق ما يشبه ذلك فى زائير .

١٣ – هناك أعمال تشايع فكرة مقارنة ألبانيا وكوريا الشمالية وكمبوديا لإبراز التضاد مع الاتحاد السوفييتى

William B. Simans & Stephen White, eds. The Party Statutes of the Communist World (The Hague : Martinus Nijhoff, 1984), 25 - 6, 536; J. S. Roucek, Criminal Law of Mascow European Satellites, " The International Journal of Legal Research 2 (1967) : 113 - 129, ep. 113.

والمقال الأخير يلاحظ أن دستور ألبانيا لا يقتبس الهيكل الفدرالى الموجود بأشكال مختلفة فى الاتحاد السوفييتى ويوغوسلافيا .

14 - Enver Hoxha, On the Further Revolutioniz ation of the Party and the Whole Life of the Country : Speeches 1971 - 1973 (Tirana, 1974), 7, 95 - 6, 100.

١٥ – فى حالتى ألبانيا والكونغو البلجيكية يجد المرء علاقات صراعية محتدمة بين الكنيسة والدولة .

وبالنسبة لحالة الكنيسة فى ألبانيا انظر ما سيجىء بعد ذلك ، وبالنسبة إلى الكنيسة فى الكونغو البليجيكية ، انظر :

David Northrup, A Church in Search of a State : Catholic Missions in Eastern Zaire, 1879 - 1930 Journal of Church and State 30 (1988) : 309 - 309.

16 - Emin Riza, " Les Villes - Musees, Leur Valeus et Leur Place de nos Jours, Studia Albanica 14 , no - 1 (1987) : 129 - 138.

17 - Pipe, Party Ideology and Purges..., " 70.

18 - Adi Schnytzer, Stalinist Economic Strategy in Practice, The Case of Albania (Oxford, Oxbord University Pres, 1982) Ch. 6.

وهو يلاحظ أن الستالينية على حين أنها كانت أساساً مستمراً للاستشهاد كانت تتعرض للتكييف المستمر :

Jan Halliday, ed. The Artful Albanian Memoirs of Enner Hoxha (London : Chatto and Windus 1986) . وهو يتحفظ أيضا على تطبيق كلمة ستالينية على أنور خوجه ١٥ – ١٦

19 - Jon Halliday, op. cit., 328.

٢٠ – فى مذكرات خوجه المستشهد بها آنفا لم يقدم زوجته المقبلة ببساطة باعتبارها كادراً قيادياً ، بل باعتبارها مخلصة له . نفس المرجع ٧٦ – ٧٧ .

٢١ – فيما يتعلق بألبان ما وراء البحار ، انظر :

Rupert Emersen et al, The Albanian Struggle in the Old World and the New (Boston : The Writen Inc., 1939)

وبالنسبة للزائيريين الذين صار لهم نفوذ فى المنفى والذين غالباً ما يشير إليهم المؤرخون الزائيريون بوصفهم كذلك هناك مثال أبى اليكسيس كاجا نى ,Abbe Alexis Kagane وابتداء من الأربعينيات قدم كاجامى للزائيريين تفسيراً حداثياً لفلسفتهم التقليدية . كما أن المفكر السياسي توماس كانزا Thomas Kanza وأبناء جيله من الأربعينيات حتى الستينات الذين عاشوا فى باريس وبروكسل صاغوا أفكار النضال الوطنى من أجل بلد مستقل كان عليه أنئذ أن ينتظر سنوات كثيرة ليتحقق له ذلك مستقبلاً .

٢٢ – فيما يتعلق بتطور فروع مختلفة من القانون الألبانى ، أثناء الفترات السابقة للشيوعية ، وأثناء الفترة الشيوعية ا، نظر الفصول التى كتبها المحامى الألبانى كمال على فوكوبولا Vokopola فى .

Vladimir Gsovske and Kazimrey Grzylowsk, Govenment, Law and Courts in the Soviet Union and Eastern Europe (New York : Frederick A Frederick, Inc., 1960) , 2 Vols, esp. 1 : 184, 188 , 634.

وهى صفحات تمتدح القانون التشريعي للعشرينيات . كما أن صفحة ٩٧٠ الجزء الثانى تعلق على المحاكم العسكرية فى الفترات المختلفة ، والصفحتين ٩٧٢ و ٩٧٤ تلاحظان تدهوراً فى القانون الوضعى طوال القرن الماضى ، وهذا شهادة على الاستمرارية ، وصفحات ٩٧٥ و ٩٨١ و ١٩٩٧ تدور حول قانون الوراثة ، وصفحات ١٢٠٢ – ١٢٠٤ و ١٧٢٦ و ١٧٣١ تدور حول بعض الاستمرار فى الإصلاح الزراعى بين الثلاثينات والخمسينات .

23 - Christopher Baelun, " Execution Within the Clan as an Extreme Form of Ostracism, Social Science Information 24 , no. 2 (1985) : 309 - 321.

٢٤ – مسار التفسير المتبع هنا يؤكد استمرار التاريخ الألبانى الحديث ، ويسمى منهج الاستمرارية فى الكتابة التاريخية الألبانية مدرسة التكوين الإثنى Ethnogenesis انظر على سبيل المثال :

Pranvera Bagdani, " Les Tendances a l'unification Etatique des Territoires Albanais dans la Seconde Moitie du XIV Siecle et du Deleut du XV, Studie Albanica 19 (1982) : 221 - 231 ;

Alfred Uci " La Culture Nationale au Fil de la Lutte Pour la Liberte et L'Independence' Studia Alleanica 25 , no. (1988) : 19 - 33;

وتميل المدرسة الحديثة إلى تأكيد الانتشار الثقافى أكثر من التكوين الإثنى ، انظر :

Bajka Sakalova " Les institutions Scolares et Culturelles Nationals en Albanie et la Formation de l'Intelligentsia Albanaise a l'Epoque de la Renaissance " Etu des Balkaniques 22,no. 3 (1986) : 38 - 61.

٢٥ – يبرز تواز بين هذه فترة فى البلقان وفى أفريقيا فى دراسة عن بسمارك وخطط التقسيم المختلفة حول ١٨٨٠ وعن ألبانيا فى تلك الفترة ، انظر :

Stavro Skendi, Beginings of Albanian Nationalist and Autono mous Trends : The Albanian League, 1878 - 1881", The American Slavic and East European Review 12 (1953) : 219 - 232,

Stefanaq Polla & Arleen Puto, The History of Albania (London : RKP, 1981) , Ch. 6.

٢٦ – هذا التسلسل الزمنى مأخوذ من :

Stavro Skendi, " Albanian Political Thought & Revolutianary Activity, " Sud - Ost Fors Chungen 13 (1954) : 159 - 199.

27 - Stavro Skendi, " The History of the Albanian Alphabet : Acase of Complex Cultural Political Development " , Balkan Cultural Studies. (Baulder : East European Manographs, 1980) Ch. 14.

28 - Nikolaos A. Stavrou, " Albania " in Political Parties of Europe - Albania - Norway, dited by Vincent, Mchale and Shoron Skawraski (West port : Green wood Press 1983), 10 - 17.

29 - Gwen Ralyns, Geraldine of the Albanians The Authoirized Biography (London : Muller, Bland and White, 1987) 16

30 - Skendi ed Alleania., 190.

31 - Pollo and Puto, op. Ct., 198, 212, 216.

32 - Bernd Jurgen Fisker, King Zog and the Struaggle for Stability in Albania (Bouldes : East Europen Monrae ophs, 198

٣٣ – حياة الأمير ليكا مثال مفيد لشخصية من النخبة فى دولة قبلية – إثنية . ولنأخذ اعتماده على الدول الكبرى . وقد ترعرع « رئيس أبناء النسر » ، هذا ليكون عميلا للمخابرات المركزية الأمريكية ، ومهربا عالميا للسلاح متخصصاً فى

الأسلحة الروسية والصينية لزبائن في جميع أرجاء العالم بما فيهم العرب ، وقد اشتهر بأنه أعطى لرونالد ريجان فيلا صغيراً حينما كان ريجان محافظاً لكاليفورنيا ، كما اشتهر كذلك بقرابته لريتشارد نيكسون من خلال جدته لأمه . انظر :

Charles Fenyvesi, Splendour in Exile - The Ex - Majesties of Europe (Washington D. C. : New Repulelic Books, 1979), 229,

وكان عضو الشيوخ جيسي هلمز Jesse Helms أيضا لزمن طويل مؤيداً : Gwen Rabyns, op. cit., 10 وقد عكس بحث الملك زوغو – كما لاحظ روبنس عن زوجة بين النبلاء نوعاً من التشبث الشديد بالعذرية (ص ١٣) ، كما مر يظهر تفسير الأحلام مثل تذكر جير الدين لنصحية جدتها التي جاءتها في حلم في ألبانيا بأنه ينبغي عليها ألا تقرأ أبداً فرويد أونيتشة أو شو بنهاور لأنهم ضارون بها ، بل يجب عليها أن تثق في الموعظة على الجبل ، ص ٤٥ . وكان مكتب جيرالدين في القصر مصمماً للنظر في المشاكل الشخصية لمقدمي الشكاوى من جميع أرجاء ألبانيا ، وقد عزز من قوته ارتباطات جيرالدين الشخصية بالصليب الأحمر العالمي (٥١) . وتذكرت جيرالدين أيضا تكريم زوغو لشقيقاته الست بتعيينهم كولونيلات فخريات في القوات المسلحة .

34 - Margaret Hasluck, The Unwritten Law in Albania (Cameridge : Camleeridge Univ. Press 1954), 261,

ومنذ وقت قريب ظهر قانون ليك مترجماً مع هوامش : Kanuni I leke Dukagjinit -The Code of Leke Dukadjini (New York : Gjonlekaj pulelishing Co., 1989).

35 - Marcelus Redlich, Albania, Yesterday and Today (Worcester : The Alleanian Messen ger, 1936), 78 , 144 FF.

36 - Fischer, op. cit., ch. 8.

37 - Pollo and Puto, op. cit., 224.

38 - Ramadan Marmullaku, Albania and the Albanians (Hamden, Ct. : Archan Books, 1975), 25 - 6.

39 - Peter Prifti, op. cit., 105 FF

ويستشهد بيتر بريفتي بتصريحات خوجه عن تحرير المرأة .وكان لدى خوجه مثل الملكة جيرالدين قبله نفور قوي من نيتشه وفرويد . فقد اعتقد خوجه أن هذين الكاتبين يروجان لفكرة أن الرجال إيجابيون والنساء سلبيات مما يؤدي إلى النازية في السياسة والسادية في الجنس .

٤٠ – المادة الحادية عشرة من دستور ١٩٥٠ تقرر أنه لاحق لأحد في استعمال الملكية الخاصة ضد الدولة ، وأن الملكية الخاصة يمكن الحد منها أو نزعها إذا كان ذلك للصالح العام Skendi, ed. Allonia, 68, 96 .

41 - Pipa, " Party Ideology and Purges ... " , 78.

42 - Elez Biberaj, Albania and China - A study of an Unequal Alliance (Boulder : Westviw Press, 1986), 97 dd.

وهو يقدم مناقشة للفاعلية الاقتصادية الصينية ضد ألبانيا .

43 - Prifti, op. cit., 61,67; Staro Skendi, ed. Albania, 210,

وتدل واقعة إعلان أن سوق المقايضة ليست قانونية وإلغائها عام ١٩٥٦ على مقاومة المنتجين المباشرين لإجراءات الانتزاع الجديدة . وفى الخمسينيات هاجم كُتاب الأعمدة الصحفية تعاونيات الحكومة لنهمها إلى الأرباح الفاحشة والتكديس والمضاربة .

44 - I an Whitaker, " Tribal Structure and National Politics in Albania, 1910 - 1950, " in I. M. Lewis, ed. History and Social Anthropology (London : Tavistock, 1968), 254 ff.

45 - Andre Blan Blanc, " L'Euolutian Contemporaine de la Vie Pastorale en Albanie Meridionale, " Revue de Geographie Alpine 51 (1963) : 455 - 6

وعلى الرغم من الالتزام الحماسى للمؤلف بالتنمية ، فهو يجد نقصاً محتملاً للتغير شمال تيرانا ، والاستمرار العنيد للتقاليد حتى فى الجنوب الريفى . وفى مقال أحدث عهداً يرصد إثنوجرافى ألبانى دعاء الفلاحين من أجل تدخل إعجازى من السماء ، لكى تكون المحاصيل حسنة ولعلاج الأمراض ، وأدعية من أجل معجزات أخرى :

Mark Tirtja, Surrivances Religieuses du pasie dasé le View du Peuples (obiets et Lieux de Culte), " Ethnegr aphie Albanaise (Tirana, 1976) : 49 - 71.

Andro Magi, " Aprons in Albanian Popular Costume fom the End of the Nineteenth Century to the First Half of the Twentieth, " Costume (1986) : 44 - 62.

على الرغم من عشرات التباديل المحلية ، فإن تصميم الإزار يصلح دفاعاً عن التقاليد ضد الدولة . فالإزار تميز بين النساء المتزوجات وغير المتزوجات ، وبين المسلمات (اللون الأسود) والأرثونوكسيات اليونانيات (لون الكرز أو اللون القرمزى وشكل شبه المنحرف) . ومن الشخصيات المألوفة فى الثقافة البلقانية شخصية الباجاليكا أو الساحر الذى يشفى الداء بالكلمات ، انظر :

Bablara Kerewsky - Halpern, " Trust, Talk and Touch in Balken Folk - Healing. " Social Science and Medicine 21, no. 3 (1985) : 319 - 325.

وهناك مثال من بلد شيوعى أخر هو رومانيا فى :

Val Cordun, Les Saints Thaumaturges d'Ada Kaleh, " Turcice 3 (1971) : 101 - 116,

ويظهر تعقيب عن الأطباء السحرة الألبان فى :

Edith Durham : High Albania (Boston : Beacon Press, 1987 (1909), 83 , 316.

والعمل المقر عن الأطباء السحرة الزائيريين هو :

John Janzen, The Quest for Therapy in Lower Zaire (Berkeley : Univ. of Calitofnia Press, 1978).

46 - Enver Hoxha, On the Further Revolutionizatin ..., 106, 110111, 129, 130, 135, 300 - 301.

47 - Arahi Pipa, " The Political Culture of Hoxha's Albania, " in The Stalinist legacy - its impact on Twentieth Century World Politics. ed. Tariq Ali (Boulder : lynne Rienner Publiskers, 1985), 435 - 464, esp 455 - 6;

وبالنسبة لتعليقات عن الاستمرار فى التاريخ الألبانى :

Klaus Lange, Grundzuge der Albanis chen Politik (Munich, 1973), 95, 118.

48 - Elez Bileraj, Albania - A Socialist Maverick (Boulder : Westview Press, 1990.).

وفيما يتعلق بالإشارة إلى الوجود المستمر للقوى الإقطاعية والليبرالية فى المنفى ، انظر :

Mihail - Di mitri Studza, Grandes Familles de Grece, d'Albane et de Constantinople (Paris, 1983).

49 - Orjan Siöberg, " Urban Albania : Develepments 1965 - 1987, " in Albanien Umbruch, ed. Franz Lothar Altmann (Munich, 1990), 171 - 224.

50 - Robert Elsie, " Modern Albanian Literature, ibid., 2481, Biberaj, op. cit., 63.

والمرجع الأخير يستشهد مسئول فى عام ١٩٨٥ يصرح بأن السياحة لا تلقى تشجيعاً لمنع الشباب الألبان من التأثر بالعادات الأجنبية .

٥١ - تشمل التعقيبات على قضايا النوع :

I n Whitaker. , op. cit.,

وادعاء نيخميجى خوجه Nexhimije زوجة أنور خوجه أن النساء أكثر ثورية من الرجال :

Some Fundamental Questions of the Revolutionary Policy of the Party of Labor of Albania About the Development of the Class Struggle (Tirana, 1977)

وحول غياب أى تعقيب عن النساء فى مذكرات خوجه ، انظر :

Halliday, op cit., 13 - 14.

John Kalsti, " From, Courtyard, to Cabinet, The Political Emergence of Albanian Women, " in Women, State and Party in Eastern Europe eds. Sharonl. Wolckik and Aprned G. meyer (Durham Duke Univ. Press, 1985), 138 - 151.

وسيظهر أن النساء البارزات متزوجات جميعاً (أى تربطهن روابط القرابة) بالمسئولين فى مستويات الحزب العليا . أما ثيمى ثوماى Themi Thomai المعلقة السياسة فى التليفزيون ولنكا تشوكو Lenka Cuko سيدة الإدارة فقد صعدتا بكفاءتهما وبروابطهما الحزبية الخاصة .

52 - G. H. Bousquet,, Notes sur les Reformes de l'Islam Albanais," Revue des Etudes Islamiques 9 (1935) : 399 - 410,

Margaret Hasluck, " The Non. Conformist Moslems of Albania," Muslim World 15 (1925) : 388 - 398, A Popovic, les Ordres Mystiques Musulmans du Sud - Est Europeen dans la Periode Post-Ottomant," in Les Ordres Mystiques dans l'Islam, eds. A. Popovic and G. Veinstein (Paris : CNRS, 1985) , 63 - 101.

53 - Nathalie clayer, l'Albanie, Pays des Derviches (Berlin, 1990), 224, A. Popovic, "l'Islam et l'Etat dans les Pays du Sud - Est Europe ," in l'Islam et l'Etat dans le Monde Aujiurd' hui ed. O. Carre (Paris, 1982) , 133.

وهناك نظير واضح مواز لإلغاء الأديان فى ألبانيا هو تأسيس موبوتو لحزبه MPR بوصفه الحزب الوحيد فى زائير ابتداء من ١٩٦٧ . وبعد هذه الخطوة تصور أن إيديولوجية الحرب ستكون البديل للإنجيل . وفى كلا البلدين ظن النظامان أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أداة للتدخل الإمبريالى العالمى (انظر هامش ١٥ السابق) .

54 - Rene Epp, " l'Eglise Cathalique en Albanie, " Revue des Sciences Religieuse 50 (1976) : 52 - 76.

55 - Steplien R. Bawers,.Church and State in Albainia Religion in Communist Lands 6, no 3 (1978) : 148 - 152.

56 - Kostallari, op. cit.,

وهو مقال عن الدراسات المتخصصة فى ألبانيا ، شديد الطابع النقدى بين أشياء أخرى لكتابة التاريخ المعاصر .

وفيما يتعلق بغلبة النزعة الفوضوية فى ألبانيا لا يوجد مصدر واحد أو ثبت بالمراجع . وللشواهد على الفوضوية فى الدراسات الاقتصادية نجد معلقا متعاطفا هو الإخصائى الزراعى رينيه دومونت René Dumont فى :

Finis les lendemains Qui Chantent (Paris Seuil, 1983).

ويمكن ملاحظة الفوضوية فى الثقافة الألبانية في مجالات مثل توجه الأدب الأجنبى المترجم إلى الألبانية . وبين الأعمال الأمريكية المترجمة إلى الألبانية بعض أشعار والتى ويتمان وتيودور درايزر ومارك توين . وتشمل قائمة المؤلفين الروس بوشكين وتولستوى وتشيخون وجوجول ودوستويفسكى وهناك كتاب آخرون مثل فولتير وهايتى وطاغور ، (انظر بريفتى مرجع سابق ص ١٣٣ - ١٢٤) . وتظهر النظرة الفوضوية إلى العالم فى فكر أكبر الكتاب الألبان . ويمكن أن نختار مثالاً من الأسقف فان نولى . ومن رواية حديثة لحياته نحاط علماً بتأثره «بشفاهية الثقافة» ، فقد قضى زمناً طويلاً

يمارس عمل قائد جوقة الترتيل أى كان منشداً . وقد اتهم نولى بوصفه مترجماً أدبياً بأنه فوضوى النزعة وخاصة فى ترجمته لهاملت ودون كيخوته . ففى هذين العملين تجاهل نولى العناصر الشكلية مثل « اللغة والأسلوب » والحبكة والحوار ونماذج السرد وأبنية النظم » . وبالنسبة لكاتب سيرته كان نولى بذلك « أحادى الجانب » ، وامتدت أحادية الجانب هذه إلى تفسيره للأدب أيضاً . فعلى حين اعتادت معظم أقطار أوروبا أن ترى هاملت متردداً ، صورت نولى باعتباره إنساناً أعلى ، مؤكداً حزمه ومهارته كدبلوماسى . وحتى دون كيخوته فى رأى نولى قد اتخذ مظهراً فوضوياً باعتباره بطلاً للفروسية القديمة ضد البكوات الصمنار الفاسدين فى زمنه . كما انجذب نولى إلى مسرحية إبسن « عدو الشعب » مدخلاً عليها استبصاراً مؤداه أنه فى دنمارك إبسن (وهى دولة أخرى قبلية إثنية) يمكن لمؤلف مثل إبسن أن يبغض الثقافة الشعبية دون أن يشعر برابطة تربطه بالجماهير . ويمكن التدليل على أن تلك الورطة كانت ورطة نولى أيضا . ويمكن استخلاص شواهد أخرى تدعم الصلة بين نولى والوضوية من مخطط سيرته الذاتية الذى أشار فيه إلى « مغادرة أوروبا على ظهر سفينة وهو يحمل بنتشه بين يديه » ، ووجد نولى من دراسته لحياة بيتهوفن أن الموسيقى الكبير كان محتقراً للملوك والنبلاء والقساوسة . وقد قام نولى انطلاقاً من أعماله عن الكنيسة بوصفه رئيساً لما أصبحت الكنيسة الأرثوذكية الألبانية المستقلة autocephalous بتغيير طقس القربان المقدس . ومن أمثلة مبادرات نولى تخلمه لإنجيل متّى شعراً ، انظر :

A. Pipa, Fan Noli as a National and International Figure, Sudost Eprschungen 43 (1984) : 241 - 270, eq. 250 - 251, 352, 362, 269.

وفيما يتعلق بالروائى المعاصر الشهير إسماعيل قادارى تمكن ملاحظة أن مهمة الشخصية الرئيسية فى أشهر رواية ألبانيا « جنرال الجيش الميت » وهى لضابط ألبانى يبحث عن قتلى الحرب فى ألبانيا كانت قيامه بدور وسيط بين الموتى والأحياء . وكما ينبغى لساحر أفريقى تشاجر البطل مع قسيس كاثوليكى حول الرقى الشريرة . ولكن القسيس نفسه لا يستطيع أن يمنع جراثيم الموتى من العودة بعد عشرين عاماً لتقتل الأحياء الذين يلاحقونهم . وتصنف الرواية عالم ألبانيا، كما لو كان عالماً سفلياً وسيطاً تستطيع فيه جثة الكولونيل زد التى تتلبسها قوة شريرة أن تواصل مراوغة الشخصية الرئيسية .

Ismail Kadare, The General of the Dead Army (New Yark : Grossman, 1972).

٥٧ - وهكذا إذا أردنا الدقة ، ليس من الصواب تسمية إضفاء الوضوح على الأبجدية وقواعد النحو واللغة المحلية إدخالاً « للتوحيد القياسى على اللغة » ، كما جرت الممارسة المتبعة . فليس ذلك هو الهدف تماماً إذا كان العرفان فى الذهن ، وليس هو الناتج تماماً كما يمكن أن نرى نتيجة لنشوء الثنائية اللغوية : Janet Byron, Solections Among Alternatives in Language : Standardijation : The Case of Albanian (The Hague : Mouton, 1976).

58 - Stauro Skendi, " The History of the Albanian Alphabet... ", Joan Fultz Kontos, Red Gross, Black Eagle : A Biography of Albania's American School (Boulder : East European Maoographs, 1981).

59 - On details of the life, Fan Noli, Fiftieth Anniversary Book of the Albanian Orthodo Church in America.(Boston, 1960) ; Arshi Pipa, " Fan Noli ... "

60 - Martin E. Huld, " Birds, Beasts and Indo Europeen Merismatic Copounds in Albanian, " Zeitsehrift Fur Verglei chende Sprachforschung 96 (1982 - 3) : 152 - 158 esp. 152

وعن البشر فى الفولكلور ، انظر :

Arshi Pipa, Mythologie de l'Albanie, " in Dictionnaire des mythologies,ed. Yves Bonnefoy (Paris : Flammarion, 1981), 1 : 5 - 6.

61 - Eric P. Hamp, " Albanian edhe " And " in Bono Homini Donum, eds. Yoel L. Arbeitman and Allan Bamhard (Amsterdam, 1981) , 127 - 131 ; J. Knobloch," Female Speech" in Greek, Armenia and Albanian, " Journal of Indo - European Studies 16 (1988) : 123 - 125.

٦٢ - ابنته سميراميس ، عميدة كلية العلوم الطبيعية فى تيرانا هى زوجة الزعيم الألبانى الأحدث عهداً رامز عاليا :

Eqrem Çabej, " Alexander Xhuvani et la Linguistique Historique Albanaise ", Studia Albanica 18, no. 2 (1981) : 67 - 71.

وهل كان من الممكن لشخصية مثل خوفانى أن تواصل البقاء فى نمط آخر من الهيمنة . متحركة مثله على أساس الولاء الشخصى من الليبرالية إلى الفاشية إلى الشيوعية ؟

٦٣ - وهذا هو الموضوع الواسع عند بيبا فى « سياسات اللغة » ، انظر أيضاً :

George Messing, "Politics and National language in Albania, " in Contributions to Histcrical Linguistics (Leiden : E. J. Brill, 1980) , 3, 270 - 28t.

٦٤ - ولكن هل تتغلب وسائل الاتصال الجماهيرية على الثنائية اللغوية Paul Underwood, op. cit, 80-282 حول المساعدة التقنية الصينية للإذاعة الألبانية ؟

٦٥ - المصادر عن الستينيات والسبعينيات تعلق بحرية على الأزمة فى التطوير :

Peter Prifti, " Albania Towards an Atheist Society" is Religion and Atheism in the U.S.S.R and Eastern Europe, eds. Bohdan R. Bociurkin and John Strong (Toranto : Univ. of Taronto Press, 1975), 396.

وهو يستشهد بدارس الفولكلور الألبانى نهنى ساكو استشهاداً مؤداه أن الشخصية الفولكلورية الألبانية المفضلة هى نصر الدين خوجه Nasrusddin وهى شخصية دينية لا تتسم بتوقير التقاليد . وهذا بالتأكيد تبجح من جانب النظام ، Nickolas Pano, "TheAlbanian Cultural Revolution,Problems of Communism (July 1974) : 44-57, Annicke Miske, les Albanaises (Paris, 1976), Peter Pr : fti, " The Albanian Party of Labor and the Intelligentsia, " East European Quarterly 8, no 3 (Fall 1974) : 307 - 335, Julian

Birch, " The Albanian Politcal Experience, " in Political opposition in one - Party States, ed. leonard Shapiro (london : Magnllon, ed. leonard Shapiro (london : Macmillon, 1972),

وهو يعرض المشاكل النابعة 200 - 179 عن التنمية .

٦٦ – مواد هذا القسم مأخوذة من :

Robert Isie, A dictionary of Albanian Literature. (Westpost : Greenwood Press, 1986);

وفيما يتعلق بشكودر يمكن استخلاص عرض أكثر تفصيلاً من :

Stuart E. Manر, Albanian Literature (London : Bernart Quaritch, ltd., 1955), 63 - 82.

٦٧ – الصعاب في الحصول على نوع الشعر المطلوب يتم التلميح إليها في :

Koco Bihiku, " Problemes du Jour de Tradition et d'Innovation dans Notre Literature du Realisme Socialiste, " Studia Albanica 10, no 2 (1973) : 3 - 27.

68 - Muzafer Karkutis " Decouvrir l'Archeologie Albanaise," in la tres Ricke Albanie Archeologique (Paris : Dossiers Histoire et Archeolagie vo. 1,a December 1986),

وهناك حول افتتاح المتحف الألباني للتاريخ الطبيعي في تيرانا عام ١٩٨١ مقال للمدير برهان سيراكو Burhan Ciraku :

" The Albanian Museum of Natural History ", Museum 36, no 1 (1981) : 49 - 54.

٦٩ – يظهر استناداً إلى محاضر جلسات مؤتمر نشرت في تيرانا عام ١٩٧١ أن التوقعات الخاصة بالآثار كانت منخفضة طوال النصف الأول من القرن ، وأنه في ١٩٤٥ لم يكن هناك إلا من ٨ إلى ٩ إليرية ، ولكن هذه ارتفعت إلى ١٧٠ مما يسمح للدارسين أن يتكلموا بثقة عن حلقات الوصل بين إليريا القديمة وأربانون العصر الوسيط وألبانيا الحديثة . وتكشف إحدى الخرائط عن أن كتلة القلاع الإليرية القديمة ، وكل المدن القديمة ومعظم المواقع الكلية كانت في الجنوب . أما في الشمال فكانت الاكتشافات الرئيسية هي قلاع العصر الوسيط وركام القبور . وقد أدت هذه الاكتشافات إلى تحقيب لتاريخ ألبانيا القديم مبني على إنجلز :

Les Illyriens et la Genese des Albanais (Tirana, 1971) , 6, 37, 253, - Shender Anamai, " l'Archeologie Albanaise dans ces 25 Ans, Studia Albanica 5, no. 2 (1969) : 21 - 34.

وبموازاة علم الآثار شجعت الدولة أيضا ترجمة الشعر اليوناني الكلاسيكي والملاحم التاريخية والأعمال التي تحيل القراء إلى إليريا :

Martin Ferguson Smith, Classics in Albania, " (Ilfard, The Albanian Society, 1984).

70 - Prifti, op. cit, 113 dd.

71 - Androm a aqi Gjergji and Abaz Dojaka, " Un Quart Siecle de Travaux dans le Domaine de l'Ethnographie, " Studia Albanica 5 (1969) : 57 - 68, Prok Zjzi, " l'Ancienne division regionale ethnographique de peoaple Albanais, Ethnographio Albanaise, 7 - 199 - see alsa Aleks Buda, l'Ethnagraphie Albanaise et Quelques uns de ses Problemes, " Studio Albanica12, no.2 (1976) 12 - 35.

72 - Zihni Saka, " Les Vaies de Developpement des Etudes Folkloristiques et du Falklare Allanais, " in Actes dule Congres Intenmatinal des Etudes du Sud - Eak Europe (Athens, 1973), 471 - 490, esp. 484 - 6 , 489, for this connun drum see also, Alfred uie,le Folklore Albanais entre le Passe et le Present, " Studie Alleanica 12, mo. 2 (1976) : 12 - 35.

٧٣ - فى حالة الدول القبلية - الإثنية حيث تكون الدولة نفسها ضعيفة ، يمكن أن يكون العكس صحيحاً مثل بيروت .

74 - Jahn I. Thonas, " The Envolvement of Communist Education in Albania, " Ph. D. diss, Univ. of Connecticut, 1967).

٧٥ - حول قائمة للدراسات التاريخية الألبانية التى يدور معظمها عن الحزب :

Erwin Lewin and Willy Steltmer, " Bibliographie Albanischer Literature zur Geschichte Allanens (1944 - 1958) , " Jahrbuch Fur Geschichte desu dssr und der Valks dem akratis chen Lander Eurapas 4 (1960) : 457 - 475;

وكمثال على عمل حديث فى تقليد سلسلة الأنساب انظر المقال غير المذكور مؤلفه :

" Contribution de Grande Portee pour la Nouvelle Historiographic Albanaise ", Studia Allanica 20, mo. 1 (1983) : 3 - 17.

وهو يركز على الفائدة التى تعود على المؤرخين من دراسة أنور خوجه المعنونة التهديد الأنجلو أمريكى لألبانيا (١٩٨٢) ، وفيما يتعلق بإقرار شرعية مهنة التاريخ فى اتجاه سلسلة النسب هذه انظر مقالاً بقلم مؤرخ ألبانى نابه يقتبس تعليقات قدمها أنور خوجه مثنيا على تخصص هذه المدرسة التاريخى :

Stefanaq Palla, " L'Historiogrophic Marxiste leninist Albanaise et Les Chemins de son Denetoppement, " Studia Allamica 18, mo 1 (1979) : 3 - 4.

وفيما يتعلق بمثال عن الدراسة التاريخية محدودة النطاق أو التاريخ المرتكز على الحوليات ، انظر أيضاً :

Selami Pulaha, " Aspects de Demographie Historique des Contrees Albanaises Pendant les XVe - Xvl Siecles, Studia Allamica 21, mo. 2 (1984) : 65 - 76,

فيما يتعلق بتعقيبات عن التاريخ الديبلوماسى بقلم ممارس نابه : Arlen Puto, "Introductim a l'Historie Diplomatique de l'Imdipendence Albanaise".

وهو مقال مأخوذة من دراسة حديثة له حول موضع واحد ونشرت 64 - 19 : (1979) Studia Allcani Ca 18, 1 .

ويوضح هذا المقال الدور الذى يستطيع التاريخ الديبلوماسى أن يلعبه أخذا فى الاعتبار الاهتمام الضخم الذى يوليه الألبان للإمبريالية .

76 - Aleks Buda, " Quelques Questions de l'Histoire de la Format in du Peuple Albanais, de la Formation du Peuple Albanais, de la langue et de la Culture, " Studia Albanien 17 (1980) : 41 - 61

وهو يفسر التكوين الإثنى .

٧٧ – تدل قائمة بالكتب الحديثة فى ألبانيا حتى ١٩٦٧ أن كل مفسر للثقافة على وجه التقريب له عمل واحد على الأقل عن شخصية إسكندر بك ، انظر :

Pubications Albanaises a l'Occasion du 5 e Centenaire de la mort de Georges Katriote Skanderbey, Studia Albanica 4, no. 2 (1968) : 137 - 195;

ويقدم كول لوكا Kole Luka فى :

Chansonnier Epique Albanais (Tirana, 1983)

عدداً من النصوص عن إسكندر بك وكذلك عن موضوعات تاريخية أقرب زمنا أنتجها منشدو الملاحم . وفيما يتعلق بالانجذاب الشعبى نحو الملاحم التاريخية حتى التى تدور حول موضوعات تاريخية فى أحدث عهداً من الحركة الوطنية معارضة الملك زوغو والاستعمار الإيطالى ومناصرة الاشتراكية ، انظر :

Qemal Haxhihasani, " L'Epique Populaire Histoire Histoiso Albanaise aux XIX - XX e Siecles," Studia Albanica 12 (1975) : 71 - 79;

وحول تحليل تقنى لشكل الشعر الملحمى ، انظر :

Arshi Pipa, Albanian Folk Verse : Structure and Genre (Munich : Trogenik, 1978), ch. I.

وفى أوروبا الغربية كان إسكندر بك شهيداً طوال القرن الثامن عشر ، ولكن ابتداء من ذلك الوقت لم تظهر إلا إشارات ضئيلة مما ضاعف مشكلة عزلة ألبانيا .

78 - Aleks Buda, Fan S. Noli (1882 - 1965) : " Le Vie Scientifique. Conference Scientifiqueal'Occasion du Centenair de la Naissance de Fan S. Noli, Studia Albanica 19 , no. 1 (1982) : 240 - 249

ويمكن أن يقود تحليل النظرات إلى العالم السائدة فى أشكال مختلفة من الهيمنة إلى دراسة بنية القواعد النحوية القومية . ويدل تعقيب حديث على صيغة التعجب أحد فروع الصيغة الدلالية (الموضوعية) أن تلك الصيغة تدعم تقرير وقائع لا يحمل المتكلم عنها أى مسئولية . وهذا الفرع يتسم بالسخرية والمواربة وعدم الاستغراق . وفى الإنجليزية أو الفرنسية لن ينتسب هذا الفرع إلى الصيغة الدلالية :

Victor A. Friedman, Evidentiality in the Balkans, Bulganian, Macedonian and Albanian, (Norwood, N. J. : Ablex Publ. Corp., 1986), Ch. 10.

79 - Skendi, Albanian National Awakening, 122, 124.

80 - A. Ducellier, " L'Orientation des Etudes Historique en Republique Populaire d'Albanie, 1945 - 1966, Revue Historique no. 237 (Jan - June 1967) : 121 - 144.

81 - S. Skendi; ed. Albania, 282 - 3.

82 - Bynon, op. Cit., 59.

٨٢ – كان أحد الأمثلة هو الكتاب متعدد الأجزاء « تاريخ البناء الاشتراكى » فى ألبانيا ١٩٤٤ – ١٩٧٥ الصادر بموافقة أكاديمية العلوم و P. S. R. فى ألبانيا ومعهد التاريخ (تيرانا ، ١٩٨٣ (١٩٨٨) ، انظر أيضا بوللو وبوتو مرجع سابق .

الفصل الثامن

الكونغو البلجيكية - زائير
مثال أفريقى للطريق القبلى - الإثنى
(١٨٨٥ - ١٩٩٠)

يتناول هذا الفصل التطور التاريخي للكونغو البلجيكية – زائير كمثال أفريقى للهيمنة القبلية – الإثنية . قد قصدنا بمعالجة مقترنة بالفصل السابق أن نتحدى ما جرت عليه العادة فى الدراسات الأكاديمية التى تفرق بين أوروبا وأفريقيا[1].

ويحدد الجزء الأول من هذا الفصل وضع هذا التفسير للكونغو البلجيكية – زائير بالنسبة للدول الأخرى . ويتناول الجزء الثانى تاريخ زائير من منظور الاقتصاد السياسى . ويتناول الجزء الثالث تنظيم الثقافة باعتباره جزءاً من الاقتصاد السياسى ، ويدرس الرابع كتابة التاريخ كجزء من هذا التنظيم للثقافة .

وتفسر المدرسة الليبرالية موضوع التاريخ الحديث بوصفه تقدما من دولة الكونغو الحرة (١٨٨٥ ١٩٠٨) ، إلى الكونغو البلجيكية (١٩٠٨ – ١٩٦٠) إلى جمهورية الكونغو (١٩٦٠ ١٩٦٤) ، إلى جمهورية الكونغو الديموقراطية (١٩٦٤ – ١٩٧١) ، وأخيراً ، إلى جمهورية زائير (١٩٧١) .

ووفقاً للاقتصاد السياسى الذى يميل بقدر أكبر نحو التحليل الهيكلى ، يبدأ التاريخ الحديث بانتشار الرأسمالية وبالنظام السياسى الذى ترتب عليها ، أى بمرحلة الهيمنة الليبرالية أو حكم الطبقة الواحدة (١٨٨٥ – ١٩٤٤) ، حيث قامت العناصر المسيطرة من الرأسماليين وغير الرأسماليين ، بالعمل معاً لبناء نظام يرتكز على الانقسامات القبلية والإثنية[2] . وبظهور البورجوازية الصغيرة كقوة سياسية فى أعوام ما بين (١٩٤٥ ١٩٧١) استمرار التاريخ الحديث خلال محاولة فاشلة لإقامة الإدماجية وفى النهاية فى الفترة ما بين (١٩٧١ - ١٩٩٠) عادت الليبرالية عندما اتحدت الرأسمالية العالمية والطبقة الحاكمة المحلية للقضاء على تحدى البورجوازية الصغيرة .

وكما هى الحال فى ألبانيا ، كانت النماذج التفسيرية التى اكتسبت أكبر مكانة فى البلاد نفسها هى تلك المتأثرة بالفوضوية. وتتضمن الأعمال المعروفة أمثلة على ذلك. منها أعمال الانثروبولوجى لوك دى هيوش Luc de Heusch مؤلف كتاب الملك السكير

أو أصل الدولة (وقد صدر الأصل الفرنسى فى باريس ١٩٧٢) أو أعمال الفيلسوف فى - ى موديمبى V. Y. Mudimbei مؤلف أعمال مثل « عتق الأب ، مقال حول حدود العلم» (باريس ١٩٨٢) L'Odeur du Pére - Essai sur des Limites de la Science.[١] .

وكما كانت الحال كذلك مع ألبانيا ، فإن التخصص المعاصر حول الكونغو البلجيكية ، مهد الطريق لهذا النوع من إعادة التفسير الذى نقدمه هنا ، فيما يتعلق بالخطوط البنائية العريضة لما يشكل الهيمنة و الهيمنة المضادة ، وفيما يتعلق بتنظير أنظمة الإنتاج القائمة على سلسلة النسب ، وبإعادة النظر فى المعنى المتغير لمصطلحات مثل الإثنية[٤]. ويلقى ذلك العون أيضا من دراسات للفرص السياسية المتاحة لمختلف المناطق الإثنية للبلاد[٥] . وتسمح هذه التطورات الأحدث بتجاوز خطوط التحليل ذات التوجه الخارجى ، والتى تتمركز على الاستعمار والتبعية الاقتصادية ، أو الصلات الثقافية الإقليمية ، مما يسمح للمرء أن يقدم الحجة التى تتخلل هذا الفصل بأكمله ؛ ومؤداها أن خصوصية زائير أو أصالتها تنبع من هذا النوع من التحليل الداخلى .

الاقتصاد السياسى للكونغو البلجيكية/زائير
(١٨٨٤ - ١٩٩٠)

.القسم السابق : عهد ليبرالى (١٨٨٥ - ١٩٤٤) ، ومحاولة فاشلة لإقامة الؤدماجية (١٩٤٥ - ١٩٧١) ، وطور ليبرالى جديد (١٩٧١ - ١٩٩٠) .

ووفقاً للمصطلح الاقتصادى ، تحقق ميلاد العهد الليبرالى فى كونغو القرن التاسع عشر ، نتيجة لدخول رأسمالية دينامية بكل معانى الكلمة فى منطقة تغلب عليها علاقات ما قبل الرأسمالية . وهى منطقة يمثل فيها عرب الكونغو على أكثر تقدير رأسمالية راكدة تماماً ومحدودة إقليمياً . وبلغة السياسة ، اتسم ميلاد العهد الليبرالى

بتشكيل يتحالف بين الأوروبيين وهم البلجيك فى الأساس والكونغوليين ، ومعظهم قادمون من مقاطعة شمالية واحدة ، وقد مكن التحالف الفريقين من أن يصيروا بشكل تدريجى ، قادرين على توسيع سيطرتهم المشتركة على مساحة أكبر من الأرض ، وأن يقوموا بذلك على نحو أكثر تماسكاً .

ولكن التطور السياسى كان أبطأ ، فلم يكن هناك نظام واحد أو حركة واحدة ، بل كانت هناك قوىً إقليمية متعددة . وهكذا لم يكن مستغرباً عندما حدث اختراق البلاد من خلال حوض نهرها ، أن قامت تحالفات لاحقة بين البلجيك وكل المرتبطين بهم وبتجارتهم . وبذلك كانت عشيرتا النجومبى والمونجو ، فى المقاطعة الاستوائية ، السند الرئيسى للبلجيك ، ثم صارتا بعد ذلك أساساً للطبقة الحاكمة المعاصرة(٧) . وسرعان ما انضم آخرون إلى التحالف ، وبينهم أثرياء عشيرة الباكونجو من زائير الدنيا ، اللوندا الأرستقراطيين الذين يتنمون إلى الجنوب الشرقى . وكانت كتلة سكان البلد الجديد تتألف من الجماهير التى تتكلم السواحيلية فى الشرق ، ومن أجزاء من سكان الباكونجو فى الغرب والجنوب الغربى .

ولا تزال العوامل التى تلاقت فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر لكى تسمح لحوض الكونغو أن يتطور فى اتجاه تكوين أمة واحدة فى حاجة إلى ايضاح . وأحد هذه العوامل دول أوروبا الكبرى – مثل ألمانيا – رأت أنه التطور الممكن لدولة كونغولية يعد أمراً ثانوياً بالنسبة لهم ، ومن ثم لم تعترض سبيله . وعامل آخر هو أن البلجيك ، الذين جاءوا إلى الكونغو ، كانوا مجموعة من الأجانب المهرة عوضوا ما كان ينقصهم من حيث المكانة الاقتصادية بالبراعة السياسية المتحصلة من تجربتهم فى حكم دولة قبلية – إثنية هى بلدهم بلجيكا .

فقد لعبت السياسة البلجيكية الداخلية دورها أيضا . ففى فترة الملك ليوبولد ، كانت بلجيكا قد شرعت فى اكتساب بعض السمات ، التى يمكن تسميتها بسمات

الديموقراطية البرجوازية ، وصار المجتمع المدنى وحكم القانون أكثر تغلغلا عما كانا فى السابق فى أوائل القرن التاسع عشر . وقد حد ذلك من السلطة الملكية فى الداخل ، وهيأ الحاكم لتوجيه طاقاته إلى الخارج ، نحو مشروعات بعيدة ، وكانت هناك مشروعات عدة من هذا القبيل ، فى عهد الملك ليوبولد ، كان الكونغو أهمها(٨) .

وهناك عامل آخر يجب أخذه فى الاعتبار وهو استعداد الرأى العام البلجيكى لقبول الاستعمار . وفيما يبدو كان البلجيك يطالبون لأنفسهم فى بلادهم بالحريات البرجوازية والرفاهية الاجتماعية ، ولم يكن يهمهم ما يفعل الملك ليوبولد فى الخارج للحصول على المال اللازم لسداد ثمن ذلك . وأخيراً فى عام ١٩٠٨ ، بعد ثلاثين عاماً مما يسمى اقتصاد «اطعن واحرق » جاءت الحكومة البلجيكية تحت ضغط عالمى ثقيل لإنقاذ سكان الكونغو ، واستهلت رسمياً نظاماً استعمارياً وضع نهاية لعصر السلب والنهب السافرين .

وانعكاساً لسبب إطالة دور دولة الكونغو الحرة فى بناء البلاد ، تنبغى ملاحظة أن ذلك الرق لم يخدم المصالح البلجيكية وحدها ، ولكنه خدم أيضا مصالح الزعماء المحليين المختلفين ، فقد كان رخيص التكلفة وذلك عامل مهم . لقد كانت بلجيكا من صغر الحجم ؛ بحيث لاتستطيع المنافسة فى سوق المنتجات الصناعية ، حيث كان يتم تحقيق الأرباح الضخمة فى ذلك العصر ، ولكنها كانت تستطيع بفضل مؤسساتها البحرية والبنكية المتطورة أن تنافس الآخرين فى مجال صناعة التعدين كصناعات النفط والمطاط والنحاس والعاج ، التى كانت ذات سوق مضمونة إذا ظلت تكلفة العمل منخفضة . ويستطيع رؤساء العشائر من جانبهم أن يكفلوا تدفقاً من العمل الرخيص ، إذا تلقوا نسبة من الأرباح ، وكان يمكن تأمين ذلك بتخفيض تكاليف إدارة الدولة إلى الحد الأدنى .

وقد سار الفتح الاستعمارى ، كما سار نمو تشكيل الدولة إذا عدنا إلى الموضوع مرة أخرى – من الغرب إلى الشركة ولم يعتمد على التحالفات مع التجمعات

الكبرى فى الجزء الغربى من البلاد فحسب ، بل اعتمد أيضا على التعاون اليومى لأقوام متعددة على طول نهر الكونغو أصبحت متحالفة معاً . وكان الكثيرون من هذه المجموعة الأخيرة يتكلمون اللينجالا Lignala ، وهى أوسع اللغات انتشاراً ويفهما معظم سكان منطقة حوض نهر الكونغو[٩] . وبعد الفرنسية نعد اللينجالا - وما تزال حتى اليوم - أهم لغة فى البلاد ، وقد اعتمد الغزو كذلك على بناء السكك الحديدية . وعند نشوب الحرب العالمية الأولى وصل الخط الحديدى من ماتادى على ساحل الأطلنطى إلى ليوبولد فيل (هى كنشاسا اليوم) . وقد أعطى ذلك للحلفاء قاعدة لمزيد من التغلغل عبر حوض نهر الكونغو (كوفيت Cuvette) . وكانت نقطة التدعيم التالية هى ستانلى فيل . المدينة التى أعيدت تسميتها فيما بعد كيسانجانى . ووصل النقل بالسكك الحديدية فى النهاية إلى بوكوما ثم إليزابث فيل ، وهى المدينة الجنوبية الشرقية التى سميت لوبومباشى فيما بعد .

وخلال التسعينيات من القرن الماضى ، وجه الحلفاء أنفسهم ضد التحدى لهيمنتهم القادم من الشرق . فهناك كان يعمل « عرب » الكونغو ، وبينهم عصابات من التجار المسلحين جيداً ، وربما أرادوا التوسع كما ظن الاستعماريون . لذلك تمت الاستعانة بمبادرة دعائية لإثارة الرأى العام من أجل المواجهة ولهذه الغاية ، بدأ البلجيك وحلفاؤهم إعلان تمسكهم بقضية إلغاء الرق ونشر المسيحية . ويعجب المرء لما حققته هذه العبارة من نجاح ، فمن كان يمكن أن يحمل كل الأثقال مجانا ، ويبنى السكك الحديدية ويستخرج خامات المعادن ، ويقوم بالزراعة دون مقابل ؟ من الصعب تخيل أن عمالاً آخرين غير العبيد يمكنهم القيام بذلك[١٠] .

وبغض النظر عن عرب الكونغو ، ظلت مهمة تشكيل الدولة أمام الحكام الجدد مهمة بالغة الصعوبة لأسباب أخرى كذلك . فعندما أعلن الملك ليوبولد عام ١٨٨٥ فى يوما بكل ثقة ميلاد « دولة الكونغو الحرة » ، فإن مناصريه سرعان ما وجدوا أن هذه الثقة ليست فى محلهافى واقع الأمر . فقد اتضح للأوربيين أن الزعماء المحليين

يمتلكون سلطات أكثر من اللازم ، وأن سلطاتهم تعوق تكديس الأوربيين للأرباح . وإذا نظرنا إلى الأوضاع عن كثب ، فستجد أن قدراً هائلا من المناورات فى سبيل السلطة كان قائماً على قدم وساق بين كل المجموعات الموجودة على المسرح . فعلى حين كان بعض الحكام المحليين ، مثل ابن المسيرى Msiri وهو ملك لعشيرة اليكى Yeke كان يحتاج إلى المساعدة من البلجيك لإخضاع رعاياه وبذلك كان سهل القياد ، فإن كثيرين غيره لم يكونوا كذلك ، وخاصة الذين فى الشرق . وكان بين هؤلاء المسلمون المتكلمون بالسواحيلية ، وعرب الكونغو فى السابق الذين غيربعضهم الجانب الذى يؤيدونه . وهكذا ، فحتى السنوات المتأخرة من ١٨٩٢ إلى ١٨٩٤ وجد التحالف السائد نفسه يعزل حلفاءه السابقين ، ويحاول أن يستبدل بهم تابعين أشد طواعية .

ولكن – تأكيداً لتاريخ سابق – بدأت منذ عام ١٨٨٥ عناصر مهمة من الدولة الحديثة فى الظهور ، لا الحكام وحدهم بل البيروقراطيون ، وكذلك العلمانيون والدينيون . فإلى جوار البعثات التبشيرية الكاثوليكية - التى كان يسوؤها ذلك كثيراً كانت هناك الإرساليات البرتستانتية – وعلى حين كان رجال الدين من الكاثوليك أساساً يتحكمون فى التعليم والثقافة ، كان الإداريون العموميون المعروفون بعلمانيتهم ونزعتهم المعادية للكهنوت يسيطرون على ما عدا ذلك[١١] .

وفى عام ١٩٠٠ ، كان الطور الأول من تشكيل الدولة يقترب من نهايته . ولم يكن بالمستطاع مواصلة منهج « اطعن واحرق » فى التراكم البدائى من المطاط لأسباب بيئية ، فالمزيد من الربح ، والمزيد من الربح الدائم يمكن ضمانه من خلال تنمية التعدين . إن التعدين على أية حال يتطلب نظاماً سياسياً أوسع وأكثر ترشيداً من النظام الذى سبقه حتى ذلك الحين . فى عام ١٩٠٦ ، قامت الطبقة الحاكمة البلجيكية ، وقام حلفاؤها المحليون بإنجاز النقلات المطلوبة ، وانبثقت مؤسسات جديدة فى السياسة والثقافة والقانون ، وبموازاتها ظهرت صناعات جديدة تقودها شركة التعدين الشهيرة ، « اتحاد مناجم كاتانجا العليا »[١٢] . على الجملة ، فقد استمرت المشاكل القديمة من كل

نوع . ولم يغير تبدل الوضع السياسى للبلاد من دولة حرة إلى مستعمرة من الهيمنة . وواصل الأوربيون النظر إلى مواقف الزعماء نحو مسائل حقوق الأرض ونحو الجريمة باعتبارها رخوة . فقد اعتقد الأوربيون أن الأرض « الخالية » ينبغى أن تكون أرضاً للدولة ، وينبغى أن يكون للأوربيين حرية استعمالها على الرغم من اعتراضات الأفريقيين على ذلك . وفى هذا الوقت - على أى حال - كان هناك قدر كافى من التماسك فى صفوف الطبقة الحاكمة للسماح للمشاكل السياسية أن تصير مشاكل بيروقراطية . وفى مايو ١٩١٠ ، صدر مرسوم إدارى مهم يقضى بتصنيف الزعماء وإعطائهم مرتبات . وحددت سلطاتهم باعتباهم أدوات بوليسية ومنفذين ، وقد زودهم المرسوم بهذه الصلاحيات .

وفى عام ١٩١٤ ، اعترفت بروكسل بأن الإدارة بلغت من المركزية درجة تحد كفاءتها ، وأن قرابتها السفلى تنقصها السلطة المتكافئة مع المسئولية . ويوحى هذا الاعتراف - أو على الأقل توحى هذه الطريقة لصياغة القضية - بأن قليلا من التقدم قد أُحرز فى اتجاه حل المسألة الحقيقية ، مسألة تقسيم السلطة بين البلجيك والكونغوليين . كما كانت هناك مشكلة دائمة هى المنافسة بين هيكلى السلطة ، الدينى والعلمانى . وكان لكل منهما أسلوبه الخاص فى العمل ، فالهيكل العلمانى رغب فى الحفاظ على ثقافة ليبرالية (حرية العمل) ، والكنيسة كانت تريد تطوراً اجتماعياً وثقافياً . وحينما لم يجد الكونغوليون فى هذه الفترة إلا فرصا ضئيلة داخل الدائرة العلمانية ، ضاعفوا جهودهم فى الدائرة الدينية .

ومع نمو الاقتصاد الحديث أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها ، وهو مبنى على نحو متزايد على التعدين ، نشأت طبقة عاملة . وفى عام ١٩١٩ ، أضرب عمال المناجم فى شركة اتحاد المناجم ، فسحقت الشركة الإضراب بلا رحمة . وقد ثبت أن تلك اللحظة لحظة حاسمة فى علاقات العمل . فهى التى أدت إلى هروب قوة العمل البيضاء[١٤] .

وابتداء من ذلك الوقت أصبح التعدين عملا يزاوله السود وحدهم .

وبعد هذه الهزيمة عام ١٩١٩ ، كان انخفاض الروح المعنوية وسط عمال المناجم ملحوظا ، كما أصبح المرض مشكلة كبرى كذلك . وفى الأعوام التالية للإضراب هرب الكثيرون خلسة ، وفى البداية كان يتم إخفاء العمال الهاربين بواسطة الزعماء التقليديين ، وبعد ذلك - عند نهاية العشرينات ، ومع إنشاء حى أفريقى فى إليزابث ڤيل - بدأ العمال يعنون بشئون زملائهم . وسرعان ما أصبحوا قادرين على استعمال الحى مكانا يشنون منه نضالاتهم . ونمت المحافل وجمعيات الأصدقاء هناك ، كما انتشرت بمرور الوقت فى المدن الكبرى الأخرى .

ومع نمو الرأسمالية فى العشرينيات ، ظهرت الطبقة الحاكمة فى هذه الأثناء منقسمة أكثر فأكثر على أسس سياسية . وظل المحافظون وأعنى بهم ليبراليى القرن التاسع عشر يرون أن الزعماء العشائريين على كثرتهم ضعفاء أكثر مما ينبغى ، وأنه لو كان عددهم قليلا لكانوا أقوى ، وأن المثقف الأسود الذى تلقى تعليما أوربيا قد يكون أفضل من زعيم عشائرى غير مناسب . (١٥) . وكانت تلك خلاصة ما يسمى بإصلاحات لويس فرانك Louis Franck .

وفى الثلاثينيات ، وصل البلچيك من الإداريين المحافظين مثل مارتن روتين Martin Rutten المدعى العام فى كاتنجا إلى الاعتقاد بأن الليبراليين أى « استعماريى الرفاهية » يقودهم المستثمرون البريطانيون ، والموظفون الاستعماريون البريطانيون فى المستعمرات القريبة ، والإرساليات البروتستانتية فى الكونغو ، يخططون لإثارة عصيان جماهيرى ضد البلجيك وضد أموالهم ، وضد الكاثوليكية نفسها . وعلى حين كان ذلك رأيا متطرفا وشديد التحيز ، فإنه يكشف عن التكوين الجنينى لأزمة العهد الليبرالى القادمة . كما يبين أيضا الرغبة المستميتة لإنكار ما حدث من تغيير ، فالتغير بعد كل شىء كان محفوفا بالمخاطر . فإذا كان أسرع من اللازم أمكن أن يهدد الهيمنة ، وإذا كان أبطأ من اللازم أمكن أن يحدث أزمة كذلك . وقد حمّل منتقدو روتين - ومن بينهم كثيرون من رجال الكنيسة والدولة المركزية ، ووزارة المستعمرات المسئولية عن رسم سياسات ضد التغير ، وكان لأنصار روتين ، من ناحية أخرى ، رأى مخالف . فهم مثله يريدون تقليص دور الدولة المركزية ، وترك تغيير السياسة للسلطات المحلية . وكان مما

يقلقهم أن التغيير قد يؤدى إلى تفاقم « السياسات العمالية » . لقد كانوا يخشون محافل العمال ، ويرتابون فى أن ثمة صلات تربطها بالفرق الدينية الأكثر ريفية ، والتى لا يمكن التحكم فيها التى عرفت بـ « برج الحراسة » ، وكان لمخاوفهم ما يبررها – إلى حد ما – لأن تلك الصلات كانت قائمة بالفعل كما كان للنشاط التبشيرى البروتستانتى تأثير تحريرى على العمال .

وإذا أمعنا النظر فى أزمة العهد الليبرالى فى بلاد كثيرة ، وجدنا أن الكساد الاقتصادى لعب دورا ملحوظا فى تلك الأزمة . ولم تكن الكونغو استثناء للقاعدة ، فالعائدات من التصدير انخفضت انخفاضا شديدا فى الثلاثينيات ، على حين ازداد التحريض السياسى (١٦) . وكان الانتعاش ، وعلى الأقل الأنتعاش السريع يتطلب إنتاجية أكبر ، مما يعنى بالنسبة لكل المقاصد والأغراض أن البلاد مضطرة بكل بساطة للانتظار حتى ينتهى الكساد ، وأن تواصل الصبر على المعاناة . ونتيجة لذلك زادت المعاناة كما زادت المقاومة للحكم البلجيكى مما يبرر استعمالنا للتعبير : أزمة العهد الليبرالى (١٧) .

وفى مايو ١٩٤٠ ، اجتاحت ألمانيا بلجيكا . وكانت القيادة البلجيكية السابقة مصممة على ممارسة المعارضة للنازيين ، وقد قامت بذلك انطلاقا من مستعمراتها . وهكذا فتحت ظروف الحرب باب الفرص أمام الكونغوليين فى دوائر مثل القوات المسلحة والبيروقراطية والمناجم . وبذلك لم تسقط النظام على الرغم من أن أوضاع الأغلبية ازدادت مشقة ، فقد كان هناك طلب متزايد على أعمال السخرة ، وجمع الصمغ ، لأنه كان يقدم فرصا لم يسبق لها مثيل ، إلى أقلية من السكان على الأقل .

وفى الأعوام ما بين (١٩٣٦ – ١٩٤٤) ، ارتفع الطلب على النحاس والمعادن الأخرى ارتفاعا حادا بدخول الدول الكبرى الحرب . فطلبت الشركات بدورها الكثير والكثير من عمال المناجم ، مما أدى إلى نمو السخط فى صفوف العمال .

وفى عام ١٩٤١ ، وقع إضراب عام بين عمال المناجم ، وكانت إيديولوجية « الملك الألفى السعيد » ، التى قد تكون نتاجا لتأثير مذهب « برج الحراسة الدينية » ظاهرة وسط العمال المضربين .

وفى عام ١٩٤٤ ، وقع إضراب كبير ثان . وفى هذه المرة ظهرت إيديولوجية أكثر بروليتارية مما يوحى بضعف التحالف بين القرية والمدينة .

وعندما واصل القطاع الزراعى ركوده ، وزادت قوة الضغوط لمغادرة الريف بدت الحكومة قلقة على سيطرتها هناك ، وأصبحت المدارس الكاثوليكية حصنا متزايد الأهمية لبقاء الأوضاع على حالها فى الريف ، وكان التعليم الكاثوليكى وسيلة للناس لكى يجدوا طريقهم خارج الريف بطريقة منتظمة . وعلى الرغم من كل ذلك نما التحضر (الطابع المدينى) سريعا ؛ لأن أعداداً أكبر من الناس غادروا الأرض ليكتسبوا النقود التى يحتاجونها لدفع الضرائب . وكانت هناك نتيجة أخرى ، فبالنسبة للكثيرين ، أدى التحضر إلى حراك صاعد إلى صفوف البرجوازية الصغيرة ، مما أنتج تأييدا متزايدا للنزعة القومية .

محاولة فاشلة لتحقيق الإدماجية
من ١٩٤٥ - ١٩٧١

بالنسبة إلى المؤرخ تعد الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٧١ أكثر الفترات تحديا فى التاريخ الحديث للبلاد . فقد وقع الكثير من الأحداث فى تلك الفترة ، لا يزال معظمها بلا تفسير ، ولكن ما هو واضح لا يزيد على المعالم العريضة للتغير الذى حدث . ويقدم ذلك أساسا لبعض التفسيرات .

وشهدت هذه الفترة – من الناحية الاجتماعية – نشأة طبقة برجوازية صغيرة لديها استعداد لتحقيق أهدافها من خلال تحالف مع البرجوازية الكبيرة . وقد رفضت البرجوازية الكبيرة من جانبها هذا التحالف ، واختارت بدلا منه اللعب على الانقسامات داخل البرجوازية الصغيرة لتتجاوز هذا التحدى ثم تمضى قدما فى طريقها القديم . ولا يعكس تاريخ الفترة فى كثير من المراجع المدرسية ذلك ، لأن المؤرخين يفضلون تنظيم عملهم أولا حول صعود وسقوط باتريس لومومبا فى السنوات التى سبقت ١٩٦٠ ، ثم حول فترة الفوضوية ، ثم حول الرجوع إلى الاستقرار فى أعقاب صعود موبوتو .

وتبعا للتحليل الطبقى ، يبدو أن القبض على لومومبا وإعدامه فيما بعد بواسطة عملاء سافرين للإمبريالية ، كان بداية مرحلة يمكن تسميتها « بالثورة الثانية » ، ربطت أثناءها شريحة من البورجوازية الصغيرة – جاءت من شرق البلاد أساساً – نفسها بالجماهير الريفية فى حركات مثل حركة بيير موليلى Pierre Mulele فى كيفو Kivu .

وبحلول منتصف الستينيات ، كان من الواضح أن هذه الحركات محكوم عليها بالفشل مهما كانت شعبيتها . وقد بزغ نجم موبوتو السياسى وثيق الصلات بدوائر الأعمال العالمية ، باعتباره القوة الحقيقية فى البلاد . وحينما اندلعت حركات المعرضة كان يتلقى ما يكفى من العون العالمى لإخمادها . ومع ذلك ، فقد اضطر موبوتو طوال السنوات الست الأولى من حكمه (١٩٦٥ – ١٩٧١) أن يحافظ على إطار القومية والإيديولوجيات الأخرى الأثيرة لدى الطبقة الوسطى الدنيا . ولم يشعر بما يكفى من رسوخ السلطة لكى يصرح علنا بطبيعة حكمه بوصفه حكم طبقة واحدة إلا فى عام ١٩٧١ . (١٨) .

أما لماذا أخفقت الإدماجية رغم التضحية الضخمة من جانب الشباب الزائيرى لفرضها ؟ فهى مسألة لم تحسمها الأدبيات المتاحة تماما .

وإذا نظرنا إلى المسألة نظرة مقارنة ، وهو النهج الذى نتبناه هنا ، فإن ما يبرز هو الصعوبة التى واجهتها الحركة القومية التى كانت القوة الدافعة وراء الإدماجية فى تعبئة تأييد جماهيرى .

وعلى حين تمتلك معظم الدول القبلية – الإثنية ما لا يزيد على ثلاثة أو أربعة من التجمعات الكبرى ، فإن زائير تمتلك العشرات منها . فهل من المتسغرب أن الحكام كانوا ينحون دائما في تأليب جماعة ضد أخرى ؟ .

وكانت اللغة هى الصعوبة الثانية المرتبطة بذلك ، التى واجهتها الحركة القومية . فإذا اضطر سياسى قومى النزعة إلى أن يقوم بعمله التنظيمى من خلال اللغة الفرنسية كوسيط ، وهى اللغة القومية الوحيدة المؤثرة بين صفوف خريجى المدارس الكاثوليكية ، فإن الذين يمكن تنظيمهم محدودى العدد من ناحية ، وخاضعين لضغوط مضادة من جانب الكنيسة من ناحية أخرى ، حيث كانت الكنيسة تناصب القومية العداء .

بالإضافة إلى ذلك كانت هناك أسباب لفشل الادماجية ، وإذا كررنا نقاطا سبق عرضها فى هذا الكتاب ، فسنجد على وجه العموم ، أن انطلاق الإدماجية يتحقق فى مقابل الأنقسامات فى البورجوازية ، فيميل أحد أجنحة البورجوازية إلى التحالف مع البورجوازية الصغيرة . وفى الحالة التى أمامنا ، من الملاحظ أن ذلك لم يحدث ، فلم تقع انقسامات اقتصادية ، ولم يكن ثمة جناح فى حاجة لمثل هذا التحالف .

ولكن على الرغم من فشل البورجوازية الصغيرة فى إقامة دولة إدماجية ، فإن صعود هذه الطبقة ونضالاتها يمثل مرحلة هامة فى تاريخ الكونغو الحديث ، يبرر تماما الاهتمام الذى نوليه لها هنا .

وفي عام ١٩٤٥ ، فى أعقاب تمرد للجنود فى ثكنة فى مدينة لولوا بورج – Lulu abourg الإقليمية ، أصبح من الممكن أن يتكلم المرء عن الميلاد السياسى لمرحلة جديدة ولطبقة جديدة أيضا . وقد أخذت هذه الطبقة – كما لاحظ المعبرون عنها فى ذلك الوقت – جانب السلطة الاستعمارية فى إخماد التمرد ، وأصبحت الآن تمتلك الحق فى أن تقدم مطالبها للدولة فى المقابل . وقد أصدرت مجموعة من المتعلمين تعليما أوروبيا استنادا إلى هذا الاعتقاد ما يسمى « تصريح المتمدينين » ، وقد طالب هذا التصريح بحق التعليم العالى والذى كان مصدر قوتهم فى ذلك الوقت ؛ حتى إن نشر ذلك التصريح فرض إعادة النظر فى سياسة التعليم الاستعمارية .

وقد بدأت شخصية فى قامة جوزيف فان وينج Joseph Van Wing – رجل التعليم اليسوعى الشهير – فى حث الإدارة على فتح التعليم العالى أمام أهل الكونغو .

وفى عام ١٩٥٥ ، لاحت شواهد أكثر على قوة المتعلمين تعليما أوروبيا أثناء زيارة الملك بودوان للبلاد . وتشير الروايات عن هذه الزيارة إلى أن الملك أصر على محاولة كسب ود هؤلاء المتعلمين ، وزار عددا من جمعيات الصداقة البلجيكية الكونغولية . وفى هذه الفترة نفسها ، سعت الكنيسة إلى دفع علاقتها بهؤلاء المتعلمين إلى الأمام . ففى عام ١٩٥٦ ، نشرت سلطات الكنيسة « بيان الضمير الأفريقى » وفيه دعت إلى برنامج السنوات الثلاثين الذى يؤدى إلى التحرير . ولكن « تحالف الباكونجو » لم يستجب لهذه المبادرات . فدعا تحت قيادة جوزيف كاسا فوبو Kasavubu إلى الاستقلال السياسى

الفورى . وبذلك حدد اللحظة التى سميت « انطلاق القومية » . وفى عام ١٩٥٨ ، أدت سياسات « المتمدينين » إلى تشكيل عدة أحزاب ، منها حزب إقليمى فى كاتا نجا (CONAKAT) وفى كيفو (CEREA) وحزب قومى (MNC) ، وهو الحزب الذى قاده باتريس لومومبا ، ولعب الدور القيادى في النضال الوطنى . (١٩) .

وفى عام ١٩٦٠ ، جاء الاستقلال ، وجلب معه احتدام فى الصراعات الإثنية والقبلية والطبقية . وعلى سبيل المثال ، حينما قرر البرلمان الجديد رفع مرتبات أعضائه خمسة أضعاف ، أى إلى مستوى المناصب التى كان يشغلها البيض فيما سبق ، اندهش الأعضاء من تمرد اندلع وسط صغار ضباط « القوة العامة » ، التى كانت تسودها نفس الأوضاع ووجد لومومبا نفسه يستجيب للتمرد من منطلق موقعه الطبقى الجديد ، فحث ضباطه على ضبط النفس ، بينما كان أعضاء حزبه لا يلتزمون بذلك .

وبمضى سنوات الستينات ، وتزايد قوة البورجوازية الصغيرة ، أصبح تأميم الصناعة وتدخل الدولة فى الاقتصاد أمرا عاديا ، إلا أن النتائج لم تكن على نحو ما قد نتوقعه .

ونظرا لضعف الدولة المركزية ، وجدت جماعات كثيرة الفرصة متاحة للتمرد . ونتيجة للتدخلات الحكومية والتمردات تدهورت الزراعة ، وأصبحت مناطق بأكملها في حالة من الفوضى . وحينما اقتربت الفترة التى أسميتها محاولة فاشلة لتحقيق الإدماجية من نهايتها فى أواخر الستينات ، كان رأس المال المالى فى صعود . ففى هذا الوقت لم يكن هناك سبب ملح يدفع الرأسمالى للاستثمار فى الإنتاج ، على الرغم من أن الدولة واصلت تأميم الصناعة القائمة ، وواصلت الاستثمار فى الصناعة الجديدة دون توقف ، حتى حينما كانت برامجها مبنية على التمويل بالعجز . ونتيجة لهذه السياسات ، ظهر قطاع خاص جديد غير قانونى أو لا يزيد على أن يكون شبه قانونى لاستغلال سياسة الاستثمار المسرفة فى الأنفاق ، وقد انهمك هذا القطاع فى ممارسات مثل تخزين السلع (السوق السوداء) والتهريب . (٢٠) .

وشهدت الستينات اهتماما كبيرا من جانب الحزب بمجالات كالتعليم والثقافة ، وهى مجالات تسيطر عليها الكنيسة تقليديا . ونتيجة لهذا الاهتمام تصاعد التوتر بين الكنيسة والحزب ، ومثال ذلك ما حدث حينما طالب موبوتو أن يتسمى المواطنون

بأسماء أفريقية بدلا من الأسماء المسيحية ، وأن يدرسوا مذهب موبوتو أو الموبوتية بدلا من المسيحية ، وأن تؤمم الجامعات . ومع ضعف التحدى تدريجيا من جانب البورجوازية الصغيرة ، ضعفت كذلك عزيمة الحزب وشهدت السبعينات انحسارا للتوتر ، بعد أن أصبح موبوتو أكثر اعتمادا على أوروبا كمصدر للقروض ، وصار تأييد الكنيسة الكاثوليكية ذا أهمية متزايدة من أجل الحصول على هذه القروض . وفى عام ١٩٨٠ – إذا نظرنا بعيدا – قام البابا يوحنا بزيارة زائير فعلا .

الليبرالية الجديدة (١٩٧١ - ١٩٩٠)

كان إعلان موبوتو بأن زائير جمهورية علامة على الانتقال إلى الليبرالية الجديدة التى أشرنا إليها فيما سبق . وكانت الليبرالية الجديدة هنا – كما هى الحال فى كل مكان آخر – تستتبع تصفية القطاع العام وتحويل أصول اقتصاد البلاد إلى أصدقاء الحاكم . وكان هذا البرنامج فى زائير يسمى إضفاء الطابع الزائيرى . وكما هى الحال فى الأماكن الأخرى ، كان الهدف المعلن لكل المبادرات الليبرالية الجديدة هو تقوية الاقتصاد . ولا جدال أنه فى المدى القصير – على الأقل – كان من الممكن تحقيق ذلك لو لم يحدث أن توقيت البرنامج تزامن مباشرة مع تدهور ضخم فى سعر النحاس فى السوق العالمية . وهكذا ، فطوال السبعينات ، وبشكل متزايد طوال الثمانينات ، كانت القدرات المالية للدولة تعانى عدم الاستقرار لأسباب لا تتعلق مباشرة بسياساتها .

ومن الناحية السياسية أيضا ، جلبت الليبرالية الجديدة عدم الأمان إلى زائير ، وإن يكن من الصعب القول ما إذا كان ذلك يفوق ما حدث فى أماكن أخرى ، فالذين شعروا أن حقوقهم الإنسانية والمدنية قد انتهكت من جانب النظام ، بدأوا يتطلعون إلى التدخل الخارجى ، فلم يكن لهم – فعلا – ملجأ سواه .

وهكذا ، فإن الكنيسة والقضاء والحركات الدينية البديلة مثل « الكيمبانجويست » و « الكيتا واليست » بحثت جميعا عن الدعم الخارجى ، وانتهى بها الأمر إلى الاصطدام بالدولة .

وهنا يمكن أن نلاحظ – على الهامش – بعض التوازيات مع الوضع فى ألبانيا . فمن أجل الاستمرار فى السلطة ، ألغى موبوتو – مثل خوجه – منصب رئيس الوزراء ، ومحا الطابع البرلمانى للمجلس التمثيلى ، وأنشأ مكانهما حزبا وحيدا هو قبيلة جديدة من حيث الجوهر ، وقد انتقد موبوتو كوادر حزبه مثلما فعل خوجه لافتقادهم الروح النضالية ولإنعزالهم عن الجماهير ، التى كان من المفترض أن يكونوا فى خدمتها . وكان موبوتو مثل خوجه تتسلط عليه أزمة الشباب ، التى برزت حينما دعم النظام مواقعه . كما كانت سياسته تشبه كثيرا سياسة خوجه ، فى أن الشباب كان من الواجب عليه أن يعمل لمدة سنة من أجل الدولة قبل دخوله الجامعة ، وأن الآباء كان ينبغى عليهم ألا يرسلوا أبناءهم إلى الخارج من أجل التعليم ، فهل جعلت الخطوة نحو الليبرالية الجديدة موبوتو فى موقف حرج ؟ يبدو أن الإجابة ستكون بالنفى .

فعلى الرغم من عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى ، والتخلف الاقتصادى الواضح ، وضعف تطور « المدن المتحفية » ، وغياب دور للمرأة المتعلمة ... إلخ ، لم يكن موبوتو فى وضع أكثر أو أقل حرجا من حكام العهد الليبرالى الأول . فلكى نتحدث عن تحرج الوضع السياسى ، لابد أن يكون هناك تحد ، ليس تحد لموبوتو فحسب ، بل لنوع الدولة التى ورثها والتى يحتفظ اليوم بها . ولكى نعمق هذه النقطة سننتقل إلى دراسة أكثر تفصيلا لجهود وتحقيق الهيمنة المضادة التى ظهرت حتى ١٩٩٠ (٢١) .

المعارضة والهيمنة المضادة
فى الكونغو البلجيكية وزائير

أخذت المعارضة المنظمة فى الكونغو البلجيكية / زائير فى معظم الأحوال شكل تحديات إقليمية وإثنية تتفاوت تبعا للمناسبة . وقد شجع انفتاح زائير على السوق العالمية درجة ما من درجات المشاركة الأجنبية فى هذه المعارضة ، ولم تلق المعارضة فى الظروف الحسنة والسيئة جميعا النجاح إلا فيما ندر . وقد أصر الناطقون باسم النظام الاستعمارى ، ثم باسم موبوتو فيما بعد ، على أن الكونغولى الأصيل هو عضو فى

قبيلته ، ولذلك فإن الثورات ضد النظام هى - ببساطة - أعمال أثارها التحريض الأجنبى . (٢٢) .

وأشهر مثال للنضال القبلى - الإثنى الانفصالى فى الكونغو البلجيكية / زائير هو ما حدث فى كتانجا . ومنذ فترة ما بين الحربين ، كان الفكر الانفصالى سائدا هناك ، تغذيه فى أغلب الأحوال مصاعب الفترة . وعلى سبيل المثال ، كان من بين خطوات خفض الميزانية عام ١٩٣٢ ، التى استوجبها تأثير الكساد العالمى ، قرار حكومة ليوبولد فيل ، حيث إعادة النظر فى هيكل حدود كتانجا ونزع منطقة « لومانى » منها . بيد أن هذه المنطقة كانت المصدر الرئيسى لعمالة المناجم ، لذلك أدى قرار الحاكم العام إلى وقوع الاضطراب . وفى السنوات القليلة التالية ، دون اعتبار للرأى العام ، خفضت الحكومة النفقات بقدر أكبر بواسطة الهبوط بنواب الحاكم العام إلى مرتبة مندوبين اقليميين . واحتجاجا على ذلك ، استقال عدد من المسئولين الرئيسيين وسط جو انتشرت فيه المطالبة بالانفصال ، وعلى حين لم يؤد التهديد بالانفصال فى تلك اللحظة إلى شىء ، فإن الإدارة الاستعمارية شعرت بالحاجة إلى تقديم بعض التنازلات الفعلية وبعض التنازلات الرمزية للسكان الأوروبيين فى إليزابث فيل ، وقد قامت بذلك فعلا . (٢٣) .

وهكذا أسس الأوروبيون - عام ١٩٤٤ - فى كتانجا « اتحاد الاستعمار » (UCOL) للضغط من أجل استعادة الاستقلال الذاتى لكتانجا ، والترويج للاستعمار الأوروبى عامة . وفى عام ١٩٦٠ - أثناء حكم باتريس لومومبا - أعلن ألبرت كالونجى A. KALONJI من جنوب كاساى KASAI استقلال مقاطعته ، وأمر لومومبا الجيش بإعادة النظام ، ولكن الجيش تمرد . وبعد التمرد ، انضم سويس تشومبى من كتانجا إلى ألبرت كالونجى فى التمرد . وحين أعلن لومومبا الأحكام العرفية وقبل العون من الاتحاد السوفيتى طرده كاسافوبو ، وسمح لموبوتو بالوصول إلى السلطة . وبعد ذلك بزمن قصير أُغتيل لومومبا حينما كان سجينا فى كتانجا .

وقد كان باتريس لومومبا (١٩٢٥ - ١٩٦١) علامة على نوع آخر من التحدى ، أرى فيها محاولة لتجاوز الطابع القبلى - الإثنى من الهيمنة ، وللسعى لمخاطبة الشعور القومى والشعور الطبقى وتحقيق الإدماجية . وكان لومومبا قد حقق شهرته بوصفه

رئيسا لحركة نقابية عمالية ، كما كان نشيطا فى الحزب الليبرالى البلجيكى فى الكونغو ، أى فى حركتين تعددت فيهم الأعراف . وفى ١٩٥٨ ، أسس الحركة القومية الكونغولية . وفى عام ١٩٦٠ ، كان بطلا قوميا ، وأول رئيس وزراء للدولة ، وقد أغضب إعدامه عام ١٩٦١ الرأى العام فى بلاده ، وفى جميع أرجاء العالم الأفرو - أسيوى .

ويستطيع المرء فى البحث عن أسباب سقوط لومومبا الفائق السرعة أن يأخذ فى حسابه دون شك دور المخابرات المركزية الأمريكية . فقد كان ذلك أحد العوامل فعلا ، وكان نجاح المخابرات المركزية يعتمد عادة فى السياق السياسى . وكان السياق هذا ، كما أشرت فى السابق ، السبب فى انقسام الطبقة الوسطى الدنيا انقساما عميقا ، بالإضافة إلى انقسام الطبقة العاملة . وقد جعلت هذه الانقسامات التحدى السياسى صعبا ، لأن الدولة كانت أمامها خيارات كثيرة جداً تحت تصرفها .

وبقدر مساو يمكن للمرء أن يأخذ فى حسابه عند البحث عن أسباب لتفسير السقوط البالغ السرعة للومومبا عامل توفر الثقة أو غيابها عند الشخصيات التى كان يعتمد عليها . ولنأخذ على سبيل المثال : جوستن بومبوكو JUSTIN BOMBOKO وزير خارجيته ، وجوزيف يان JOSEPG YAN وزير اقتصاده ، والكاتب أنطوان روجيه بولامبا ANTOINE ROGER BOLAMBA. وزير إعلامه ، فقد كانوا من المشهورين بتمتعهم بالحماية البلجيكية . وكان من بين الحلفاء وثيقى الصلة بلومومبا عدد من السياسيين ، الذين يتبعون علنا أهدافا خاصة بهم . ويمكن أن ندرج وسط هؤلاء إدمون رودا هندوا EDMOND RUDAHINDWA وزيره للمناجم والطاقة ، الذى كان أيضا عضوا فى جماعة ضغط تعمل لصالح مستوطنى كيفو ، ورفاييل باتشيكاما BATSHIKAMA وهو أحد ممثلى آباكو ABAKO . وبالإضافة إلى ذلك كان بين حلفاء لومومبا بعض الذين تصادف أن تعلقوا بأذياله من ستانلى فيل والذين كانوا قليلى المنفعة إيديولوجيا . وتضم هذه الشخصيات أمثال : كريستوف جبينى CHRISTOPHE GBENYE وزير داخليته ، وجوزيف لوتولا LUTULA وزير زراعته ، وألفونس سونجولو SONGOLO وزير مواصلاته . وفى النهاية يستطيع المرء أن يتعرف على خيارات قام بها لومومبا فى تعييناته ذات الطابع المأساوى ، لو نظرنا إليها فى حدود ما ترتب عليها من نتائج . ويمكن أن ندرج بين هذه الخيارات شارل كيسو لوكيلى KISOLOKELE ، الذى عينه وزيرا للدولة ، لأنه كان من « الكيمبانجويست » . ويبدو أن لومومبا ظن أنه بتحوله

إلى هؤلاء ، يستطيع أن يحدث انقساما لدى البانكو جو وفى الأباكو ، كما يستطيع أن يضعف منافسه جوزيف كاساقوبو . وكان الخطأ الثانى هو تعيين ألبير ينيمبو NYEMBO وزير دولة للدفاع ، فقد عمل جاسوسا لتشومبى مما جعل من المستحيل على الحكومة استعادة مقاطعة كتانجا بمجرد أن نشبت الثورة هناك . وكان الخطأ الثالث هو القطيعة مع اليسار ، أى مع الشخصيات المحنكة مثل : أنطوان جيزنجا GIZENGA (٢٤) .

وماذا عن القاعدة الطلابية للحزب ؟

لا جدال فى أن لومومبا حصل على التأييد الحماسى من جانب اتحادى الطلبة الزائيريين AGEI و UGEC . وقد يبدو ذلك مصدرا للقوة وعائقا فى نفس الوقت . فالاتحادان متفقان فى استعدادهما لتحدى هيكل السلطة ، ولكنهما ليسا إطلاقا ندان له ، وهما عاجزان عن الرد على حملات الاعتقال وعن التغلب على مشاكل إغلاق الجامعات أثناء الإضرابات ، وعن مواجهة مشاكل تجنيد الطلبة فى الجيش (٢٥) .

وأخيراً ، يمكن القول تفسيرا للسقوط البالغ السرعة للومومبا : إن حزبه فشل فى إعداد الأرض إعدادا متصلا فى منطقة معينة ، كان العظام القديم يتخذ منها وضع الدفاع أى فى منطقة السياسة الخاصة بالنوع (المرأة والرجل) ؛ إذ لا يبدو أن مفكرى الحزب ذوى النفوذ كانوا مهتمين أصلا بذلك .

وعلى سبيل المثال ، فإن السيرة الذاتية لتوماس كانزا المعنونة « بلا ضغينة » SANS RANCUNE (بروكسل ١٩٦٥) تعطى الانطباع بأن المؤلف مستاء من استقلال النساء الأوروبيات ، وبأنه لا يرغب فى أن يتحقق هذا الاستقلال المرأة الكونغولية .

أما أنطوان روجيه بولامبا وزير إعلام لومومبا ، ومؤلف كتاب « مشاكل ارتقاء المرأة السوداء » (إليزابث فيل ١٩٤٩) فقد رفض إمكان حدوث تقدم ملموس للنساء طوال حياته على الأقل . وفى نفس الوقت لاجدال فى أن الكثيرات من الأفريقيات المتعلمات تعليما أوروبيا كن يناصرن حزب لومومبا (٢٦) .

ويمكن أن نضيف أنه حتى دون تأييد أو استحسان ، فإن مجموعات معينة من النساء كانت مناهضة مناهضة شديدة للاستعمار . وتوضح الدراسات المعاصرة أن هذه المجموعات ابتدعت وأذاعت أساطير وشائعات كان لها تأثيرها الضار بالمشروع

الاستعماري . ومن هذه الأساطير أسطورة موتو مبولا MUTUMBULA الأبيض الذي يأكل السود . وكانت هذه الأسطورة تستخدم فيما يبدو كتحذير وخاصة للنساء ، حتى لا يكن بمفردهن ليلا ، وخاصة في طرق السيارات . وأثناء الحرب العالمية الثانية استخدمت النساء في كاساي التهديد بموتومبولا لإعاقة إجراءات التجنيد وظل اندلاع نوبات من الرعب من مجيء موتومبولا ساريا حتى عام ١٩٦٠ (٢٧) .

وقد أدى فشل القيادة العلمانية المنتمية إلى الطبقة الوسطى الدنيا مثل قيادة الحركة الوطنية MNC الملتفة حول لومومبا ، في تحويل الأوتوقراطية القديمة للعهد الليبرالي إلى الإدماجية الشاملة إلى فتح الباب أمام تحديات أخرى ، جاء بعضها تماما من خارج النظام ، مثل حركة بير موليلي سابقة الذكر ، وبعضها الآخر من داخل النظام مثل التحديات « الشعبوية » . وحينما نتحول إلى دراسة التحديات الشعبوية نجد أن أهمها من حيث الجدارة بالدراسة هو كنيسة الكيمبانجويست . وترتبط أصول هذه الكنيسة وسنواتها المبكرة بشخصية سيمون كيمبا نجو (١٩٨٩ – ١٩٥١) مؤسس كنيسة « يسوع المسيح على الأرض » من خلال النبي سيمون كيمبانجو الذي أصبح مخلصه المنتظر . وبعد الحرب العالمية الأولى أدانت السلطات سيمون كيمبانجو مثلما أدانت الكثيرين غيره من الوعاظ المستقلين واعتقلته . وكانت عاقبة ذلك أن ذاع صيته على الدوام . وبمرور الزمن ، ظلت الحركة في ازدهار مما جعل السلطات تعتقل عدداً من المشتبه في اتصالهم بها . ومنذ ذلك الحين صار السجن مركزا هاما لنشر العقيدة . وفي عام ١٩٧٠ ، ربما كان عدد أتباع هذه الكنيسة حوالي المليون . وهم يشبهون نظائرهم الألبان من البكتاشيين في العمل وفقا لنظام مفصل للرفاهية الاجتماعية . كما كانوا مشاركين مهمين في سياسة البلاد . فقد كان شارلس كيسو لوكيلي المذكور آنفا ، عضوا في مجلس الوزراء ، ولم يكن يعد على أي حال الشخصية البارزة الوحيدة . ومع ذلك واصلت صورة « الكيمبانجوية » المضادة للثقافة السائدة البقاء . وفي حادثة شهيرة في باندوندو عام ١٩٦٤ ، أطلق الجيش الرصاص فقتل مجموعة من الكيمبانجويست باعتبارهم « أعداء الدولة » (٢٨) ، ويدل ذلك على أن الحركة لم تفقد كل طابعها « الشعبي القومي » الكامن داخلها .

تنظيم الثقافة

تقوم دولة الكونغو / زائير مثل - غيرها من الدول فى العالم الحديث - بتنظيم الثقافة ، وذلك لأنها تعتمد على الإقناع فى الحفاظ على سيطرتها (٣٠) ، وهى تفعل ذلك تبعا لمنطق عرفناه فى الفصل السابق ، بأنه منطق المعرفة الروحية . ويتناول هذا القسم أولا دور الهيكل الدينى ، دارسا إسهام الكنيسة الكاثوليكية فى هذه الهيمنة ، ثم يتحول إلى دراسة المساعى النموذجية للهياكل العلمانية مبرزا السياسات تجاه الإثنوجرافيا واللغة وعلم الآثار والأدب والموسيقى والطب . وينتهى هذا القسم بعرض موجز لشخصيتين فريدتين . جمعتا بين هذه الأجزاء المتباينة من تنظيم الثقافة فى كل موحد في فكرهما ، وهما فردان يمكن أن نطلق عليهما وصف « المثقفين الكبيرين » .

والحكم من خلال المعرفة الروحية يعنى سياسة زعزعة الاستقرار . فكانت الإدارة الاستعمارية تحرص على أن تبدو - يوميا - حامية لكل ما هو خاص وتقليدى فى المجتمع من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت حليفتها التى لا غنى عنها ، وهى الكنيسة الكاثوليكية تأخذ على عاتقها - يوميا - تقويض ما هو خصوصى وتقليدى ، من خلال التحديث والتعليم والتنمية لعبت الكنيسة - بدرجة أقل - هو دور « المثقف التقليدى » بعكس ما كانت عليه حالها فى إيطاليا ، كما لعبت - بدرجة أكبر - دور الشريك ، وفى فترة ما بعد الاستقلال كانت هذه المواجهة المتوطنة بين الهياكل العلمانية والدينية ما تزال مستمرة ، فكلية الإلهوت الكاثوليكى تعارض الحزب ، والمسيحية الأفريقية والفلسفة تعارضان الأصالة والزنجية ، ولم يكن أحد الطرفين أسيرا للآخر ، ومن ثم كان « مثقفا تقليديا » (٣١) .

لقد كان التعليم تاريخيا احتكارا للكنيسة ، استعملته لا لتأكيد الدين ولا حتى بوصفه تعليما أساسيا ، بل لتأكيد قبول مذاهب الدولة وعقائدها مثل الاختلاف المطلق بين الرجال والنساء .

فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلم التلاميذ أن واجب المرأة الطاعة التى بها تطيب الحياة .

وكان ذلك واجبا مطلقا لم يتأثر بنمو الحداثة الكاثوليكية على الصعيد العالمى ،

كما لم يتأثر بالاتجاهات الليبرالية والتطورية داخل المجتمع أو حتى داخل الكنيسة ذاتها . وهكذا ، رغم نمو الثقافة الحضرية ، أكدت الكنيسة فى نظامها التعليمى على مثالية الحياة الريفية المسيحية ، وعلى الشرور المرتبطة بالهجرة إلى المدينة ، وبالمجتمعات المتعلمة ، وبالثقافة العلمانية أيضا ، فكلها تجعل المرأة أقل طاعة . وأخيرا ، على الرغم من تنامى مشاركة النساء فى الاقتصاد الحديث ، أكدت الكنيسة ضرورة أن يكافأ الرجال على عملهم على عكس النساء للحفاظ على التراتب الاجتماعى الطبيعى الذى يضع الرجال فى مرتبة أعلا من النساء . فهل من الغريب أن نجد مدارسهم تحابى الذكور على حساب الإناث . وأن عدد الطلبة الذكور ومستوى تقدمهم الدراسى كان يفوق عدد زملائهم من الاناث ؟

وإذا أخذنا فى الاعتبار قوة الهيمنة ، فإن الضغط السياسى لم يهز مكانة الكنيسة فى تلك المجالات أبدا ، حتى عندما جاء الضغط من الفئات ذات الأهمية بالمجتمع . وعلى سبيل المثال ، طلب « مجلس الحى الأفريقى فى ليوبولد ڤيل » – وهو تجمع هام للمتدينين – تحسين مستوى تعليم الإناث ، في عام ١٩٥٢ . وكان على النساء الراغبات فى التعليم أن يتجشمن مشقة الإبحار إلى برازا ڤيل للحصول على بغيتهن . وكان الوضع حساسا بالنسبة للكنيسة التى اتخذت موقفا متميعا ، فلم تقبل الطلب ولم ترفضه . وبعد مرور ثمانى سنوات – عام ١٩٦٠ – التحق عدد قليل من الإناث بالجامعة ، غير أن الإحصاءات تشير إلى عدم حدوث تغيير كامل ، ففى تلك السنة بلغت أقصى نسبة البنات اللاتى يلتحقن بالتعليم الثانوى ٥ر١٪ من تلميذات المرحلة الابتدائية .

وفى السبعينيات وما بعدها ، أصدر موبوتو سلسلة من القوانين ساعدت على زيادة انتكاس وضع المرأة بجعل التعليم أكثر صعوبة بالنسبة للإناث ، وجاء ذلك مصاحبا لتلاشى تحدى البورجوازية الصغيرة .

وفى هذه الفترة تكرر ما حدث فى العشرينيات ، فكان من الضرورى أن تحصل المرأة على موافقة زوجها لكى تعمل وتسافر أو يكون لها حساب في البنك . وفى أثناء تلك الفترة ظهر فى قرارات المحاكم أن الأرامل أو النساء اللاتى لم يكن لهن أقارب من الذكور قد فقدن حقوقهن القانونية ، وكان على الكنيسة أن تختار بين معارضة هذه

المبادرات باسم التقدم وبين تأييدها باعتبارها من محاور العقيدة المسيحية . وقد اختارت التأييد واستفادت من ذلك .

وحينما قاومت النساء بقدر متزايد هذا القهر المجدد ، قامت الكنيسة أيضا بحركة استراتيجية متبنية موضوع حقوق الإنسان ، ووضعت نفسها فى موقع القاضى الذى يحكم على القيم الضرورية للهيمنة ؛ فإذا رفضت المرأة اليوم عرضا بزواج شرعى وفضلت أن تكون عشيقة لرجل ثرى ، أو إذا اشتركت فى اقتصاد التهريب المحظور أو توجهت إلى الكنائس البديلة ، ألا يمكن القول إن هذه الأفعال تتطلب إعادة تكريس البلاد لتعاليم يسوع المسيح ؟ (٣٢) .

وبالمثل كانت الكنيسة بمثابة حصن الدولة ضد الكيمبانجويست ، وهى حركة جماهيرية وطنية وأصيلة ، ولكنها لم تكن – كما رأينا من قبل – حتى ذلك الوقت ندا للكنيسة الكاثوليكية فهذه الكنيسة تقدم نفسها باعتبارها أفريقية وحديثة ومؤيدة للدولة ، خلافا للكيمبانجويست . فهل هؤلاء مع الدولة أم ضدها ؟ وهذا سؤال غير مريح . لقد اختارت الكنيسة المتحدثين باسمها من بين « مثقفى الدولة » كما سنرى بعد قليل ، بينما لم يفعل الكيمبانجويست ذلك ، وقد كلفهم ذلك – أيضا – الكثير . وهكذا ، نجد فى السنوات الأخيرة أن فنسنت مولاجو Mulago (Gwa Cikala Musharhamina) وهو كاتب معروف فى الفلسفة الأفريقية واللاهوت يتكلم باسم الكنيسة (٣٣) .

وقبل مولاجو نجد فى الفترة الاستعمارية لعب الأب فان وينج Van Wing نفس الدور .

وأخيراً قادت الكنيسة جهد الدولة لإعادة البروتستانت والوعاظ الشعبيين إليها وإدماجهم فى حظيرتها . وهناك دراسة حديثة نشرتها كلية اللاهوت ، راعت ذلك عندما اتخذت موضوعا لها « الكلمة » باعتبارها التجلى الشخصى للرب فى القربان المقدس تبعا لكتابات مارتن لوثر ، نافية عن لوثر الاتهام بمناوأة القربان المقدس ، مدافعة ضمنًا عن لاهوته ضد التقليد الذى يؤكد ذلك ، والمستلهم من ألمان القرن التاسع عشر ، مثل هارناك Harnack ، الذى ذهب إلى أن « الكلمة » كانت ببساطة ناقلة للرسالة . وتدافع الدراسة بذلك عن حقوق البروتستانت في العودة إلى الأداء الشفاهى والعقيدة الكاثوليكية وعن حقوق الوعاظ ذوى الكاريزما فى الاحتفاظ بالأداء الشفاهى ، ولكنها تجعل ذلك جزءا من اللاهوت الكاثوليكى . (٣٤) .

كما لعب المثقفون العلمانيون ، مثل الإثنوجرافيين ، دورا مهما في تنظيم الثقافة ، سواء في خلق هويات قبلية جديدة مثل هوية اللوبا Luba (٣٥) ، أو في جعلهم من كينشاسا ولوبومباشي وكتسانجا في مدنا متحفية (٣٦) . أو في تقرير أن ممارسة معينة تعد في لحظة ما بدائية ، وفي لحظة أخرى أصيلة ، وفي لحظة ثالثة أجنبية المصدر ، كما يمكن أن تعد وفقا للحالة حديثة وقومية .

وقد أُنشئت ابتداء من الفترة الاستعمارية متاحف شهيرة للإثنوجرافيا الكونغولية مثل متحف ترفورن Tervuren في بلجيكا . وبعد عام ١٩٦٠ ، انتقل مركز علم المتاحف إلى زائير . وفي عام ١٩٧٠ ، أنشأ موبوتو « معهد المتحف القومي » . وفي السنوات اللاحقة اقتنى المعهد المصنوعات القبلية من الريف ومن المستودعات الأوروبية ، ووضعها في متاحف زائير الرئيسية . وبمرور الزمن صار جدول الأعمال الأساسي في علم المتاحف واضحا ، فالفن القادم من الجزء الشرق من البلاد ينبغي أن يكون فنا فولكلوري الطابع . والفن « الحديث أو العالمي » ينبغي الاحتفاظ به لاستوديوهات كنشاسا ولكل منهما مكانته ، وإن كانا لايقفان على قدر المساواة بطبيعة الحال . (٣٧) .

وابتداء من العشرينيات عرّف الإثنوجرافيون البارزون المرتبطون بالاستعمار الأدب الكونغولي بأنه أدب شفاهي ، وهو هنا يمثل المقابل للفن الفولكلوري ، الذي تظهر دراساته في الدوريات المرموقة مثل « الكونغو » ، وهي دورية أبحاث « المعهد الملكي الاستعماري البلچيكي » . وفي عام ١٩٣٥ ، أدى الضغط البرلماني البلجيكي إلى تشكيل لجنة لحماية الفنون والحرف التقليدية التي تبدو مهددة بخطر الانقراض . وفي هذه الفترة كذلك ، بدأ تعاون البلجيك مع الكونغوليين لإنشاء روابط أصدقاء الفنون الوطنية .

وفي بعض اللحظات العرضية انهار تعاون النخبة هذا ، مما سمح بإلقاء نظرة وراء الستار ، أي نظرة إلى كيف تعمل المعرفة الروحية بالفعل . إن عالما في الإثنوجرافيا هو : ك . ي . لامان K. E. Laman وهو سويدي بروتستانتي يخرج بعض الشيء على ما أتفق عليه معاصروه ، لقد طلب من مثقفي باكونجو المحليين أن يتعاونوا معه عن طريق تقديم تقارير عن ثقافتهم هم . وهكذا اعتمد كتاب لامان الذي يقع في أربعة مجلدات عن إثنولوجيا الكونغو المنشور بين ١٩٥٣ و ١٩٦٨ على كتابات وشهادات مثقفين محددين من باكونجو . ونتيجة لذلك أصبح العديد من المتعاونين الكونغوليين معروفين تاريخيا من خلال أعمالهم الثقافية .

وقد ظهرت حتى قبل لامان خطوات فى هذا الاتجاه . فإن شخصية ذات أهمية خاصة ، هى دافيد ما لانجاديلا D. Malangadila (توفى ١٩١٥) الذى كان مصدر معلومات للباحثين الأوروبيين ، أصبح ساخطا ، وترك عمله مستاء من إضفاء صفة المحلية على أناس كان واحدا منهم فلماذا يجب – عند الضالعين فى المعرفة الروحية أن يكون الكونغوليون دائما مجهولى الاسم وأن يكون الأوروبيون دائما معروفين بأسمائهم ؟

إن الكونغو البلجيكية / زائير بلد يتكلم سكانه عشرات اللغات . ويطرح ذلك السؤال عن كيف ينبغى على الحكومة أن ترسم سياسة للغة ؟ وكان الحل الذى تم التوصل إليه هو جعل الفرنسية لغة الدولة ، مع التقليص الحاد من إلمام أهل الكونغو بها . ولأن الكونغو لم تكن قط « نظام تعبئة » فقد كان الحكم من خلال لغة لا يتكلمها أو يقرؤها إلا القلة أمرا مقبولا ، فكلما كانت السياسة اللغوية تعين على الحد من الدخول إلى الساحة السياسية كان ذلك أفضل . وهكذا نجد لغة استعمارية تلبى حاجات الدولة حتى فى الفترة ما بعد الاستعمارية ، وهى دولة ، على ما فى ذلك من مفارقة ، غارقة في شواغل الهوية القومية والأصالة الثقافية .

ووفقا لمقال حديث ، كان التعليق الأولى الفعال عن إسهام السياسة اللغوية فى الهيمنة داخل البلاد ، هو مداخلة علمية متخصصة حول هذا الموضوع ظهرت عام ١٩١٢ بقلم الكونت جاك دى ليشترفيلد Jacques de Lichtervelde ، فهو أول من أفصح عن الاستراتيجية التى تسمح للسكان المحليين بدرجة محدودة من الإلمام بالفرنسية ، والتى ترى أفضلية ذلك على إلمام غير محدود باللغة الكيسواحيلية . فالخيار الأخير سيقدم للسكان المحليين روابط متعددة جدا مع العرب فى الشمال ، وهو شىء قد يكون خطيرا . ومن ناحية أخرى ، فإن اعتمادا كليا على الفرنسية قد يؤدى إلى وضع تكون فيه المعارضة الأفريقية للحكم الاستعمارى شيئا من الصعب تجاهله ، ولم تكن اللغة الفلمنكية خيارا واقعيا . فعلى حين أنها قد تكون اللغة الأولى لكثير من البلجيكيين الذين يعملون فى الكونغو ، إلا أن الطلبة كانوا لا يبدون اهتماما بتعلمها . فالذين كانوا يريدون الاتصال بالخارج أرادوا لغة عالمية لا لغة قبلية أخرى . وبدا ذلك متوقعا بدرجة كافية . بيد أننا نجد عند مجىء فترة ما بعد الاستعمار أن مبرر اتخاذ الفرنسية لغة رسمية للدولة يصبح أكثر إبهاما .

وتشير المراجع العامة إلى أن ذلك جاء استجابه للسياسة الحديثة أو ضرورات النزعة التنموية ، إلا أن ذلك التفسير ليس دقيقا على نحو ما يجب أن تكون عليه التفسيرات . فلا تحتوى الفرنسية على شيء يقود إلى التنمية إذا قدرنا ذلك على ضوء خبرة السنوات الخمس والسبعين التى تمثل التاريخ . ولقد أثبت الباحثون أنه فى التجارب صغيرة النطاق من الممكن – بلا ريب – نقل حتى القضايا التقنية والفلسفية إلى اللغات المحلية . فالفرنسية ليست مما لا يمكن الاستغناء عنه إلى هذه الدرجة .

فما الذى يحافظ – إذن – على الفرنسية اليوم ؟

ومن منظور الحزب على الأقل تبدو الإجابة واضحة ، ولا يقتصر الأمر على أن استعمالها يفصل بين الحاكم والمحكوم ، بل يتعدى ذلك إلى أنها تقيم عائقا فى طريق الكنيسة . وكانت هناك ملاحظة عامة مؤداها دائما أن غرابة الفرنسية بالنسبة إلى كتلة السكان يشكل عائقا فى وجه تعليم المسيحية . وهناك اعتبار إضافى آخر – وهنا نعود إلى مناقشة التحاق التلاميذ بالمدارس – قد يكون ضآلة عدد النساء اللاتى يعرفن الكثير جدا من الفرنسية ، لأن عددا ضئيلا من النساء يلتحقن بالمدارس . وكان استعمال الفرنسية بحكم طبيعية يسهل تهميش النساء ، وهو ما يعد – بالتعبير المحايد – هدفا غير معلن ، وإن يكن هدفا واقعيا للنظام .

وبإيجاز بقيت الفرنسية لأسباب سياسية لغة الدولة ، وبقيت اللغات الأخرى – لأسباب عملية – تخدم حاجات الذين يقومون بممارسة الاتصال داخل البلاد . وفى واقع الأمر ، بدأت إحدى هذه اللغات ، اللنجالا ، تنافس الفرنسية بشكل متزايد ، ولم تعد مجرد لغة للتجار فى حوض النهر كما كانت فى القرن التاسع عشر ، ولكنها الآن اللغة الفعلية الطبيعية للخطاب اليومى فى العاصمة ، وللموسيقى الحديثة وللبوليس والجيش (٣٨) .

وحينما يتناول المرء متطلبات الاستعمال اليومى للغة داخل هيمنة قبلية – إثنية ، تبرز نقاطا عامة معينة تستحق المزيد من الاهتمام . فمثل هذه اللغة ليست مرآة للفكر كما يعتقد الوضعيون ، ولا يكفى الزعم بأنها نغمية Tonal (تعتمد على جرس الصوت) بل هى على الطريقة الفوضوية – طلسمية (تعويذية Talismatic) أو أيقونية ، فإذا أراد الماركسيون الغربيون رفض كتابات خوجه لأنها مشوشة ، فإنه ينبغى عليهم أن يضفوا أنها مشوشة بالنسبة لهم ، لأنها ليس كذلك بالنسبة لجمهور السكان الألبان . ويمكن تقديم حجج مماثلة – فيما يتعلق بالكتاب الأخضر للقذافى ، والأعمال الكاملة لكيم إيل

سونج وبيان النسيلى Manifeste de la Nsele لموبوتو – أساس الموبوتية – وأعمال أخرى من هذا القبيل .

وبمصاحبة علماء الإثنوجرافيا واللغويات ، كان علماء الآثار من بين أولئك الذين يقدمون إسهامات مهمة فى تنظيم الثقافة .

وبينما يقدم علماء الأديان أسطورة عن الأصول التى تتميز بالثبات ، يستطيع الأثريون دائما أن يجدوا شيئا جديدا . وفى الفترة الاستعمارية ، روج الأثريون صورة لما قبل التاريخ تدعم نزعة هيمنة باكونجو ، وهى صورة تقرر أن الصناعة فيما قبل التاريخ ازدهرت فى الكونغو الدنيا وحول كينشاسا . وفى الأربعينات ، تحدى الأثريون من أفريقيا الشرقية وجنوب أفريقيا هذه المزاعم بأخرى من عندهم عن المجتمعات القديمة فى شرق البلاد . واحتدمت المجادلات بين الأثريين فى البلاد المختلفة طوال الأربعينات . وبعد الاستقلال عانى علم الآثار الزائيرى من « غيبوبة » أفاق منها فى السبعينات من خلال عمل جديد فى شابا ، يربط شابا القديمة بمصر القديمة . (٣٩) .

ولماذا يعكس علم الآثار سياسة النظام بقدر أكبر من المجالات الأخرى ؟ يبدو عندما نكرر ما سبق ذكره من نقاط فى الفصول السابقة – أن الدخول فى مجال علم الآثار محدود بسبب التكلفة العالية للبحث ، فالدول وحدها تستطيع تحمل تمويل البحث ، ومن يدفع للزمار يحدد اللحن . وغالبا ما تدور المجادلات – كما هى الحال فى علم الآثار – بين دارسين فى بلاد مختلفة ، يعكسون مصالح قومية مختلفة . وقليلا ما تتوثق التقاليد القومية فى الآثار فى البلد الواحد .

يعد الأدب مجالا أيسر ولو جاء مقارنة بعلم الآثار ، ويستطيع المؤلفون أن يضلوا الطريق بسهولة ، كما أن النقد المتصل ضرورى . وقد يكون ما حدث من نشر تفسير حديث للتاريخ الأدبى حالة تتصل بصميم الموضوع . فبمجرد نشره تعرض للهجوم ، وكما أوضح النقاد ، لقد اختار المؤلف أن ينظم تاريخه للأدب من خلال محور التاريخ وليس محور الأدب . وعلا صياح المؤسسة الأدبية الزائيرية ، التى تضم بطبيعة الحال أولئك النقاد القريبين من الدولة ، أين الفراغ الأدبى أو الفنى ؟ أى نوع من النقد هذا ؟ وإذا فهم المرء الأدب الأفريقى باعتباره استجابه للقهر الاستعمارى كما فعل المؤلف فى ظاهر الأمر ، فماذا سيبقى إذن من الأدب الأفريقى بعد رحيل المستعمرين ؟ ألن يكون

مقبولا بقدر أكبر أن يتخذ المرأ أساسا نقديا له من التجربة المتطورة التى خلقها العرق ؟ أليس من المفضل بدرجة أكبر اعتبار الأدب الزائيرى قد قام بوصفه جزءا من الثقافة الزنجية الأفريقية الأوسع ، وهى حضارة تزدهر فيما بين هارلم ، والحى اللاتينى فى باريس ، وأفريقيا ؟

ولم تكن نتيجة هذه المجادلات أكيدة . فرأى نقاد الكتاب لم يكن يهزأ بأيديولوجية موبوتو فى الأصالة بأكثر من رأى المؤلف الذى ينصب عليه النقد . فأين – بعد كل شىء – تنتهى الثقافة السوداء لكل أفريقيا وتبدأ ثقافة باكونجو ؟ ومن المؤكد أن الموبوتية لا يمكن اختزالها فى الجامعة الأفريقية . وتفتح مثل هذه الأفكار المجال أمام سؤال أوسع من السؤال حول كيفية التخلص من عمل غير مرغوب فيه من أعمال التخصص الأدبى ، فهى تطرح السؤال حول أى اتجاه ينبغى على مسئولى الدولة السير فيه حينما يقومون بخيارات حول السياسة الثقافية ؟ (٤٠) وبإيجاز ، فإن الأدب بأشكاله المتنوعة أصعب قيادة من حيث السيطرة والإفادة من علم الآثار .

ويبدو كالريشة فى مهب الريح ، تحديد الطريق الذى تسلكه الدولة فى مجالات مثل الأدب ، هى بطبيعة الحال مجالات متاحة للكثيرين ، ويمكن أن نجد مثيلا لها فى موقف الدولة من الموسيقى . وقد تكون طريقة السيطرة على مجال تنخرط فيه جماهير واسعة ، يعنى ببساطة السماح بالتنوع السائد للجمهور أن يؤكد ذاته . ويبدو أن تلك كانت السياسة تجاه الموسيقى الشعبية .

ووفقا لتاريخ الموسيقى منذ الستينات ، ازداد عدد الموسيقيين فى البلاد ، كما ازداد عدد أنماط الموسيقى المعزوفة . وتشمل فترات الذروة فترة الستينيات حينما انحاز كثير من الموسيقيين إلى الحرية وتصفية الاستعمار ، كما تشمل السبعينيات حينما اختار كثير من الموسيقيين فى رد فعلهم على الإضطراب فى البلاد . أن يتبنوا مواضيع حكومية مثل السلطة ، وتضامن المجتمع ، واحترام النساء . (٤١) .

وكانت الشخصية الضخمة فى تطوير الموسيقى الزائيرية الحديثة هى ك . تشامالا Tshamala (١٩٣٠–١٩٨١) أو « كالى العظيم » وهو موسيقى كبير ، كان معروفا كذلك بفرقته « الجاز الأفريقى » المؤسسة عام ١٩٥١ فى كينشاسا . وكانت هذه الفرقة مصدر إلهام ، لكثير من أبناء الجيل التالى ، وهم كثيرون . فإذا كان فى كينشاسا عشرون فرقة عام ١٩٦٣ ، فقد أصبح فيها عام ١٩٨٤ ما يتراوح بين ١٨٠ و ٢٠٠ فرقة (٤٢) .

وهناك جزء أخير من تنظيم الثقافة مازال فى حاجة إلى دراسة ، هو تنظيم الثقافة التى تعد وضعية بطبيعتها ، ومع ذلك فهى ضرورية بالنسبة للطبقة الحاكمة ، وأنا لا أقصد هنا المجالات التقنية الرفيعة التى تسمح للحكومة باستئجار خدمات مدرس أو أخصائى أجنبى ، بل مجالات مثل الطب الذى يمس الحياة العادية للمجتمع بصورة يومية . فى مواجهة خلفيات الكثير من المشاكل الطبية ، جاءت المأثرة المذهلة لمنهج المعرفة الروحية ، هى تأليب عدد من التقاليد التى لا يربطها أى رابط ضد بعضها البعض ، وبذلك يقل التهديد من جانب أى منها ، وبذلك يصبح الطب الوبائى أو الطب الوضعى « الغربى » اتجاها من بين اتجاهات عدة (٤٣) .

ولكى يكون الطب الوبائى مدركا فى زائير بوصفه مجرد تقليد بين عدة تقاليد أخرى ، بأخذ مصادره وجاذبيته فى الاعتبار ، كان على الجماعة المثقفة التى ترغب فى الحفاظ على هذا الوضع أن تعكف على نقد متصل للعلم الوضعى ، وهذا ما فعلته . ويمثل هذا النقد كتاب على غرار « مشاكل المناهج فى الفلسفة والعلوم الإنسانية فى أفريقيا » (بالفرنسية كينشاسا ١٩٨٦) .

وهو عبارة عن الأعمال المنشورة لمؤتمر حول فلسفة المناهج ، ينقل بوضوح تام أفكار إحدى كليات النخبة عن نواحى القصور فى المنهجية الوضعية . فهناك قسم يهاجم رأى كانط حول أن الموضوع يمكن فهمه دون إحالة إلى المنهج المتبع فى تناوله ، وقسم آخر يدعو إلى علم أفريقى ، وثالث يدلل على أن الفلسفة الوضعية على سبيل المثال هى فى أساسها ثقافة بكل بساطة ، ورابع يدلل على أن كل فلسفة تدير « نظاما من الشفاهية » وكل البشر فلاسفة ، ويعد ذلك هجوما على اهتمام الوضعية بتحليل النصوص وتقديم المسوغات .

وبعد أن قدمنا الخطوط العريضة لتنظيم الثقافة فى زائير ، يبدو من الملائم أن نختم هذا القسم بتناول تفصيلى بعض الشىء لنشاط اثنين من الشخصيات واسعة التأثير ، لعبا دورا فى هيمنة المثقفين « العضويين » أو القياديين ، وهما : فان وينج وفنسنت سولاجو . وقد اشتهر هذان الرجلان ، كما أوضحت الإشارات السالفة ، بأنهما مفكران دينيان وكلاهما انشغل بمخاطر الوضعية ، وفى دراسة هاتين الشخصيتين يصل المرء إلى فهم كيف تستطيع المعرفة الروحية أن تتعايش داخل هيكل السلطة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

لقد كان جوزيف فان وينج (١٨٨٤ - ١٩٧٠) وهو إنجيلى يسوعى حجة فى الباكونجو ، وهو شهير بوصفه عالما وسياسيا معا . وكان من بين الكاثوليك الإنجيليين الأوائل فى الكونغو ، وكانت الكاثوليكية الإنجيلية هى التيار السائد وسط المبشرين الذين رفضوا منهج الانتقاص إلى حد ما عند المبشرين الأقدم ، ثم تطلعوا فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى إلى حداثة أفريقية . ولم يكن فان وينج بطبيعة الحال إلا واحدا بين عدد من هؤلاء يدرس الباكونجو ، ولكن عمله الأكبر « ديانة وسحر الباكونجو » (طبع عدة مرات بالفرنسية) كان من بين أوائل الأعمال التى أكدت عقلانية لاهوت وشعائر باكونجو . وقد شغل فان وينج باعتباره سياسيا عددا من المناصب ، واشتهر بمواقفه المدافعة عن المصالح الكونغولية . لقد كان - على سبيل المثال - منتقدا « لتجاوزات » الاستعمار المفرطة . وقد اعتبر تمزيق أوصال الاقتصاد الأفريقى ، والهيكل الاجتماعى الأفريقى ، مدمرا ولا ضرورة له . وفى عام ١٩٤٨ ، شغل فان وينج موقعا مهما هو موقع ممثل الإرسالية فى المجلس الاستعمارى . وقد واصل فى هذه الفترة - كما فعل فى فترة أسبق من حياته - اتخاذ عدد من المواقع الليبرالية مثل حق أهل الكونغو فى التعليم العالى ، وحق البروتستانت فى القيام بأعمال التبشير ، وما إلى ذلك . وفى تلك الفترة أيضا شجع فان وينج الباكونجو على أن يشكلوا تنظيما لحماية مصالحهم . وسرعان ما أصبح تنظيم الأباكو قوة كبرى فى الشئون الكونغولية . كما شجع إدمون نزيزا لاندو Edmond Nzeza Landu وهو واحد من تلاميذه فى دير كيسانتو على كتابة بيان لوحدة باكونجو باسم هذا التنظيم . وفى أواخر أيامه ، أصبح فان وينج مهموما بشو فينية الباكونجو وخاصة عند بروز جوزيف كابسا فوبو . (٤٤) .

ويظهر من دراسة العمل الأساسى لفان وينج التحام الدراسات الأفريقية باللاهوت الكاثوليكى عنده . وقد اكتسب مثقفون آخرون من جيل فان وينج وبينهم ليبراليون مكانة من الاحتجاج على لا إنسانية الممارسات الاستعمارية البلجيكية على أسس عقلانية فقط ، ولكنهم سرعان ما عانوا بعد ذلك من الإهمال . أما فان وينج فظل بطلا مدافعا عن الطابع الأصيل ، ولكنه قام بذلك بوصفه مؤمنا بالتقدم من خلال الوضع القائم (٤٥) .

وقد استمر عمل فان وينج فى نشاط « المثقف العظيم » المعاصر آبى مولاجو (٤٦) .

وقد ولد مولاجو أو مولاجو جوا بسيكالا موشاشامينا عام ١٩٢٤ فى منطقة كيفو ، وكان طالب لاهوت فى الكونغو ، ثم أصبح فيما بين ١٩٤٩ و ١٩٥٥ طالب لاهوت فى روما ، حيث أصبح بين أوائل أهل الكونغو الذين تلقوا درجة الدكتوراه فى اللاهوت . كما حصل على إجازة فى القانون الكنسى ودرجة جامعية فى الصحافة ، وقام بالتدريس فيما بين ١٩٥٦ – ١٩٦٢ فى بوكافو . ثم صار أستاذا فى كلية اللاهوت الكاثوليكى بكينشاسا عام ١٩٦٢ . وفى عام ١٩٦٧ ، أصبح مديرا لمركز دراسات الديانات الأفريقية ، ومحررا لدورية « دفاتر الأديان الأفريقية » ، وفى عام ١٩٧١ صار نائبا لعميد كليته ومستشارا لسكرتارية غير المسيحيين فى روما . وفى السبعينات ، طور تلامذته وعلى الأخص ألفونس نجيندو Ngindu وأوسكار بمونيى Bimwenyi فكرة « لاهوت للتجسيد » ، وفى هذا اللاهوت يكلم الله كل الكائنات البشرية ، وتحتاج الكنيسة إلى أن تتكيف مع هذه الحقيقة . ولكن مولاجو لم يسر فى الطريق إلى هذا الحد .

ومولاجو معروف كدارس متخصص بفضل عدد من الأعمال في فلسفة البانتو ، وأشهرها : الديانة التقليدية للبانتو ورؤيتهم للعالم (بالفرنسية كنشاسا ١٩٧٣) . وهو يشبه فان دينج قبله كثيرا فى دمج الدراسات الأفريقية والكاثوليكية ، متتبعا موضوع التواكب بين اللاهوت الصوفى الكاثوليكى وفلسفة البانتو فى مفهوم الاتحاد الحيوى Union Vitale [٤٧] .

وعند التمعن فى الفرق بين فترتى فان وينج ومولاجو ، تبرز القوة المتنامية للمعرفة الروحية الذى استعمله المثقفون فى تنظيم الثقافة . وعلى نحو تصاعدى ، ازداد اتساع المجالات المتاحة للتساؤل وزعزعة الأركان . ولكن التاريخ الذى ننتقل إليه ظل شيئا استثنائيا .

الكتابة التاريخية فى الكونغو البلجيكية / زائير

كان النوعان الرئيسيان من الكتابة التاريخية فى زائير منذ الفترة الاستعمارية إلى اليوم هما التاريخ السياسى والدبلوماسى وسلاسل الأنساب ، وصدرت أعمال مفيدة فى بعض الأحيان للتعليم وفى بعضها الآخر لموظفى الحكومة (٤٨) .

وفى غياب الرعاية الرسمية التى كانت تمثل الوضع العام ، أصبحت المراجع المدرسية شكلا سائدا لأنها تغطى تكاليفها (٤٩) . وكانت المراجع المدرسية فى التاريخ الدبلوماسى والتاريخ السياسى - وهى النوع السائد - تتبع منهج التسلسل الزمنى فى المعتاد . وكان الإدلاء بالحجج غير مباشر يتخذ صورة تقديم المعلومات . ولم تقدم رؤى قطعية معينة كما هى الحال فى أعماق ضاربة الجذور فى نزعة وضعية أكثر تطورا ، بل ظلت الأعمال لصيقة بالمصادر التى تعتمد عليها (٥٠) ، وأخذت سلاسل الأنساب من ناحية أخرى شكل السير الشخصية القصيرة . وكان بعضها يعالج نشوء ونمو القبائل والإثنيات المتباينة ، وبعضها الآخر يتناول الشخصيات المرموقة . وفى واقع الأمر ، كان أضخم عمل مفرد فى التاريخ فى زائير وهو « التراجم الاستعمارية البلجيكية » ويقع فى خمس مجلدات (١٩٤٨) عملا فى دراسة الأنساب ، كما صارت الكتابة عن موبوتو تتبع هذا المنهج أيضا .

وكما أوضح الفصل السابق ، فإن تسلسل الأنساب هو الصيغة من التاريخ الأكثر ملائمة للأسطورة ولمنهجية التاريخ الشفاهى . وتصبح الأسطورة والتاريخ - فى مثل هذه الدراسات - قابلين لتبادل فيما بينهما ، مما يعطى للتخصص التاريخى الأوسع مكانه اللائق (٥١) . وفى الحقيقة يمكن التدليل على أن التاريخ الشفاهى - وهو أحد المنهجين اللذين أشرنا إليهما هنا - ولد فى الكونغو البلجيكية فى عمل الأنثروبولوجى جان فانسينا Jan Vansina ، كما أن فكرة الأسطورة باعتبارها تاريخا ليست جديدة بطبيعة الحال وبالنسبة إلى القارىء الغربى ، قد تبدو الفكرة - فى الواقع - عتيقة ومهجورة . هل ينبغى أن يقارن المرء وضع المؤرخين الزائيريين بوضع هيرودوت المؤرخ اليونانى الذى كتب تاريخه فى عالم يعرف فيه الشعراء والكهنة لا معنى هذا العالم وحده ، بل معنى العالم الآخر أيضا وهو عالم لا يستطيع فيه المؤرخ أن يجد جمهورا بسهولة ؟

ولماذا لا ؟ لماذا لا يقبل المرء عناصر من العتيق المهجور باعتبارها حديثة ، إذا كان من الواجب استعمال كلمة مهجور ؟ إن كوزمولوجيا (علم الكونيات) الباكونجو مثل كوزمولوجيا اليونان تفصل بين هذا العالم والعالم الآخر كما توحد بينهما . ووفقا للرؤيتين الكونيتين يكون العالم الآخر ممتلئا بأسباب الأحداث فى هذا العالم ، ويؤثر ذلك فى اتجاه مضاد للتاريخ . وبطبيعة الحال ، على حين توجد أحداث كوزمولجية فى هذا العالم مثل ظهور إسكندريك الألبانى أو بياتريس فى الكونغو . إلا أنه لا توجد رغبة كبيرة من جانب المجتمع فى هذا النوع من الحقيقة عن هذاالعالم ، أى النوع الذى يمكن للمؤرخ وحده أن يطمح إلى تقديمه (٥٢) – على المستوى الشعبى على أقل تقدير . هناك اهتمام أكبر بالقوة التى قد يزاولها العالم الآخر من خلال السحر ، لتؤثر فى هذا العالم الآخر (مبوتو) ، هو فى الفكر الشعبى موطن البيض ، أى نوع من الصيغة الأسطورية لأوروبا وأمريكا . ويذهب الموتى إلى أمريكا ، وكانت تجارة الرقيق طريقة لجعل هذا المعيار الشامل تافها نتيجة للتأثير الصاعد للسحر . وكان من الممكن وجود بعض المبشرين بين السحرة . وإذا أخذنا فى الاعتبار الأخطار المحدقة بهذا الوضع بالنسبة للناس العاديين فى هذا العالم ، يصبح من المنصوح به اتخاذ بعض الاحتياطات ، مثل المشاركة فى طقوس العبادة والاستفادة من سلطة الزعماء القبليين فى إعاقة السحرة عن توجيه القوة لصالحهم الخاص ، فقد يرسلون الناس إلى العالم الآخر قبل الأوان . وتقترب حركة التاريخ الناجمة عن هذا الإدراك للعالم من أن تكون تذبذبات بين النظام واختلال النظام ، أكثر من كونها تطورا أو تقدما من النوع الذى يدرسه المؤرخون فى المعتاد . ويخاطب أكثر المؤرخين المعاصرين شعبية ، وهو زامنجا باتوكيزانجا Zamenga Batukezanga ، رجل الأدب القادم من باكونجو -- لكى نستكمل هنا هذا المسار فى التفكير – جمهوره بوصفه راوية ، ويأتى التاريخ عنده مصطحبا بالكوزمولوجيا . (٥٣) .

وفى الفترة الاستعمارية لم تكن الأحوال ملائمة للبحث التاريخى على الإطلاق . وعلى غرار ألبانيا ، لم يقف الأمر عند نقص المؤسسات المتخصصة ، بل تعداه إلى افتقاد فعلى كامل للتمويل . ولم تكن تلك حالة الكونغو وحدها ، بل حالة بروكسل أيضا ، العاصمة الاستعمارية . وعلى حين أن أسباب ذلك لا يمكن اختزالها تماما إلى واقع الشكل القبلى – الإثنى من الهيمنة فى بلجيكا ، فإن من الجدير بالملاحظة أن دراسة

التاريخ البلجيكى الحديث نفسها ، وهى واسطة العقد فى التخصص ، ليست مجالا يتميز بالقوة فى بلجيكا كما هى فى أى نمط آخر من الهيمنة .

وأثناء العهد الاستعمارى ظهر التاريخ الكونغولى فى بلجيكا بوصفه جزءا من الدراسات الأفريقية فى مدرسة أنفرس Anvers الاستعمارية . ولكن هذه المدرسة - التى تأسست عام ١٩٢٠ - بلغت من ضآلة التمويل حداً جعلها تستمد الدعم من اللجنة الأمريكية للغوث فى بلجيكا (٥٤) .

وفى وقت لاحق أطلقت المدرسة على نفسها اسم « الجامعة الاستعمارية » ووسعت أساس دعمها وتلقت العون من مؤسسة أنثروبولوجية هى المتحف الملكى لأفريقيا الوسطى فى ترفورن Tervuren . ومن مؤسسة سوسيولوجية هى « الجمعية البلجيكية لعلم الاجتماع » . وعلى الرغم من أنه لاشك فى أن هذا الدعم قد ساعد المؤرخين ، إلا أن الجامعة الاستعمارية لم تصبح قط مركزا متخصصا للتاريخ .

ويعثر المرء فى نتاج ذلك العهد - كما أشرت سابقا ، على تواريخ سياسية ودبلوماسية وسلاسل أنساب . وأهم عمل فى الأولى ، كان كتاب طومسون . « تأسيس دولة الكونغو المستقلة » (بالفرنسية ، بروكسل ١٩٣٣) . وأهم عمل فى الثانية ، كان « التراجم الاستعمارية البلجيكية » الذى أشرنا إليه من قبل (٥٥) .

وفى عام ١٩٥٤ أسست جامعة لوفانيم Lovaniam فى كنشاسا وبعد اثنتى عشرة سنة - أى فى ١٩٦٦ - بدأ قسم التاريخ فى عمله هناك ، وقد لعب هذا القسم دورا مهما فى تطوير ذلك التخصص العلمى وخاصة فى السنوات المبكرة من الاستقلال . وخلال الستينيات والسبعينيات ، وهى الفترة التى كان يدرس أثناءها فرانسوا بونتينك F. Bontinck المؤرخ البلجيكى ، أحرز شهرة واسعة بسبب كتابه « نحو أصول دولة الكونغو المستقلة - وثائق مستمدة من الأرشيفات الأميريكية » (بالفرنسية لوفان ١٩٦٦) ، وهو كتاب فى التاريخ الدبلوماسى يسير على نهج التقليد الذى أسكنه مؤلف طومسون سابق الذكر ، وفى الحقيقة تشير المقارنة بين النصين إلى أن أى اختلاف يبدو نابعا أساسا من نقاط ثانوية . إن بونتينك الذى كتب فى عصر الهيمنة الأمريكية قد ربط الشئون العالمية للكونغو بدرجة أكبر من سلفه بأمريكا . وقد اختار سلفه على الرغم من أنه كان أمريكيا - وهى نقطة قد يريد المرء إبرازها ، بأن يربط الشئون العالمية

للكونغو بدرجة أكبر بشئون أوروبا . وهكذا بدأ بونتتيك عمله بعرض للدور الأمريكى فى خلق الدولة الحرة ، على حين أن سلفه أكد بقدر أكبر دورا بريطانيا العظمى .

ولا شك أن للتاريخ الدبلوماسى بعض النفع لأى حكومة ، فإن الدراسة المرتكزة على النزعة الوضعية – كما أوضحنا فيما سبق – تهدد المعرفة الروحية ؛ لذلك ليس من المستغرب أن نجد نقدا من جانب مسؤولى الحكومة موجها حتى إلى كتابة التاريخ الدبلوماسى . وعلى سبيل المثال ، يقدم مقال يرجع إلى السبعينات بقلم ندايول . ى . نزيم NdayweIE Vzem – وهو أستاذ فى معهد التربية القومية ، ورئيس الـ Sohiza (منظمة التاريخ الزائيرى) والسكرتير الدائم لمجلس إدارة UNAZA – نقدا ضمنيا لمنهج بونتينك فى التاريخ . فالمؤرخون ، فى رأيه ، ينبغى أن يقبلوا أطروحة ديوب Diop Thesis عن الأصول الأفريقية للحضارة . أما مؤرخو الدبلوماسية من أمثال بونتنك فيميلون بطبيعة الحال ، إلى أن يكونوا من أنصار المركزية الأوروبية ، وبلغة عملية ينبغى على المؤرخين أن يجمعوا المعلومات عن زائير بلغاتها الأصلية أولا . والمعانى المتضمنة لهذا الخط الفكرى تكشف بوضوح عن تحفظات المؤلف حول فكرة حرفة التاريخ القومى التى عكف عليها بونتينك واهتمامه بالمصالح الأجنبية الخطيرة فى تاريخ زائير (٥٦) .

إن دراسة التاريخ لم يقدر لها أن تظل متخذه من لوفانيم مركزا لها . بل من الجامعة المؤسسة حديثا فى لوبومباشى وخاصة فى الأعوام ما بين ١٩٧١ – ١٩٧٦ . ففى هذه الفترة ازدهر التاريخ كجزء من الثقافة السياسية الأوسع المضادة للهيمنة فى المنطقة الشرقية .

وفى عام ١٩٧٦ قام موبوتو بهجومه ، ووجه فرض الطابع الزائيرى ضرباته إلى حرفة التاريخ ، وفقد التخصص أبرز شخصيتين فيه وهما : ب . جوسيويكى B. Jewsiewicki وچيه . ل . فيلوت J. L. Vellut وكلاهما من جامعة لوبومباشى . وبعد ذلك بدا أن حرفة التاريخ مقدر لها أن تغوص هابطة إلى مستوى عدم الفاعلية المميز للفترة الاستعمارية (٥٧) . وربما كان ذلك مارمت إليه الحكومة عند القيام بما فعلته ، على أقل تقدير ، فإن من الواضح أن كل ما يحدث لايتم على نحو ما تريد الحكومة . فقد استمرت دراسة تاريخ الكونغو فى الشرق بصرف النظر عن سياسة فرض الطابع الزائيرى ، واستمرت حتى علاقة التاريخ بالعلوم الاجتماعية كما هى . وهكذا كان من بين الشواغل الخاصة لمركز لوبومباشى للتاريخ ، تلك التى يلهمها الاتصال بالعلم

الاجتماعى مثل دراسة مناهج وتقنيات تدريس التاريخ المحلى ، وخاصة التاريخ المحلى لأفريقيا الوسطى (٥٨) . وكان هذا المركز – كما تجدر الملاحظة – يشبه أن يكون نموذجا لمراكز البحث الإقليمى الأحدث التى كانت تنشأ فى السبعينيات . وعلى سبيل المثال ، نشر الأستاذ بيشيكو ابو Bishikwabo فى مركز كيفو فى بوكافو دورية تهتم بعض الاهتمام بالمنهجية والتحليل الاجتماعى ، وكذلك فعل مركز آخر فى كيسانجانى (٥٩) .

وتوضح بعض المصادر الأخرى حول السبعينات أن منظمة التاريخ الزائيرى SOHIZA ظلت لأسباب متباينة تنتهج موقفا دفاعيا فى الأغلب ، فهى قد ظلت تناضل من أجل أن تبنى لنفسها دورا أكثر رسوخا ، وظلت قيادتها تحاول أن تخمد الأصوات المنشقة . فإذا كانت سياسة فرض الطابع الزائيرى قد أعطت للمؤرخين الزائيريين عددا أكبر ، بقدر محدود ، من الوظائف . لقد فعلت القليل لتجعل التاريخ . مهما فى أعين النظام . وقد سعت منظمة التاريخ إلى أن تدافع عن مصالح التاريخ فطالبت بأن تنشىء الدولة نظاما للأرشيفات القومية يكون للمؤرخين فيه بعض التوجيه . ولكن ذلك لم يؤد إلا إلى القليل . فطوال السبعينات على أقل تقدير كانت الأرشيفات القومية قومية بالاسم فقط ، ولم تنجح منظمة التاريخ ، إلا فى أن تكون لها سلطة على الجزء الغربى من البلاد ، وحتى هناك كانت تنقصها السلطة على أماكن المحفوظات فى المناطق .

وحينما نتجه نحو الثمانينيات يبدو أن الحرفة قد انقسمت على نفسها . فقد احتفظ التاريخ فى لوبومباشى بصوته المنتقد ، ولكن التاريخ فى كينشاسا واصل العمل كجزء من درسات الهيمنة الأفريقية باعتبارها نزعة موبوتية .

وكما يعرض كاتب من لوبومباشى المسألة ، فإن ما تدعو الحاجة إليه هو تاريخ سياسى « يوجه الاتهام علنا إلى الانقسامات وأشكال عدم الاستقرار التى تهدد زائير » (٦١) . ولكى يكون للتاريخ السياسى نفع ، وجب عليه أن يترابط مع تحليل اجتماعى اقتصادى لكى « يستنكر الجور » ، كما يجب أن يترابط مع تحليل ثقافى ، لكى يناهض « نزعة الجمود » ، ويواصل هذا الكاتب القول بأنه من سوء الطالع أن الدولة اختارت ألا تستخدم حرفة التاريخ إلا قليلا . وقد ترك التاريخ فى الأكاديمية وحدها بدلا من تشجيعه على أن يضطلع بما تحتاج إليه الدولة من بحوث . (٦٢) وسرعان ما ردت الدولة على منتقديها بالدفاع الفعلى عن رؤيتها للمجال ، فى أن تكون الدراسات الأفريقية

تعبيرا عن الموبوتية . وقد انتهزت الحكومة فرصة العيد الخمسينى لتأسيس المركز الاستوائى ، وهو مركز بحثى فى المقاطعة الاستوائية ، عام ١٩٨٧ لتعقد مؤتمرا عالميا ضخما . وقد سمح للمنظمين المحليين أن يسعوا وراء التمويل الألمانى للمؤتمر ، ولنشر نتائجه ، وأن يحصلوا على هذا التمويل . وكانت النتائج عملا ضخما عنوانه « الدراسات الأفريقية فى زائير » . (مباندكا ١٩٨٩) .

وقد أوضح محررو هذا المجلد أن وظيفة هذا المركز التاريخى الشهير كانت دائما الحفاظ على معرفة الثقافة المحلية ، وأن هدف مؤتمر العيد الخمسينى كانت إعادة تجديد الصلة بين تخصص اليوم وتخصص الآباء المؤسسين للمركز وبينهم ى . بويلارت Boelart وجى هلستيرت Hukstaert ، وكانا دارسين مخلصين فى البحث عن مثل هذه المعرفة . وبالروح التهكمية التى يبدو أن المعرفة الروحية تبتعثها ، مضى المحررون فى ملاحظة أن من المؤسف أن دورية المركز نشرت فى الأربعينيات بعض المقالات الملتهبة بدرجة سيئة الطالع عن النزعة المحلية فى أكل لحوم البشر . ونتيجة لذلك كان المركز ودوريته فى إنحدار ولكن الأحوال تغيرت عام ١٩٨٠ ، ومنذ ذلك الوقت فقط ، بدأ المركز ودوريته فى الازدهار من جديد .

وكان لدى الدولة رد على منتقديها فى مسألة أخرى تتعلق بالمؤرخين ، مسألة كتابة المراجع المدرسية فى التاريخ السياسى والدبلوماسى . وكان تأليف المراجع المدرسية مصدرا للدخل والمكانة عند الأساتذة كما لاحظنا فيما سبق . وفى أواخر الثمانينات أبدت الدولة رغبتها فى أن تنأى بنفسها عن حرفة تاريخها نفسه ، حتى فى هذا النطاق ، وهكذا نجد فى هذه الفترة أن وزارة الثقافة والسفير الزائيرى فى باريس توجها إلى روبير كورنفان Robert Cornevin ، وهو أوروبى ، ألف مرجعًا تقليديًا عن الكونغو وقام برعاية كتابته لطبعة حديثة من مرجعه « تاريخ الكونغو » (بين الستينات والسبعينات) ، لكى ينشر بعنوان جديد « تاريخ زائير (بروكسل ١٩٨٩) . ولا يبدو أن النص الأساسى لهذه الطبعة الأخيرة قد تغير كثيرا بالقياس إلى الطبعات الأقدم . وعلى هذا ظل القسم الاستهلالى يتناول الجغرافيا والثروات والإمكانيات السياحية ، ويجيء بعده أيضا عرض لما قبل التاريخ ، والتاريخ السابق للعهد الاستعمارى ، ويستمر

الأمر على هذا المنوال ، وصولاً فى النهاية إلى قسم مطول عن حكومة اليوم ، أى حكومة موبوتو . ومن الواضح أن هذا الكتاب كان فى استطاعة أى مؤرخ زائيرى أن يكتبه ، ولكن الحكومة لم ترغب بشكل واضح فى أن يتم الأمر على هذا النحو .

لقد دلل هذا الفصل على أن الكونغو البلجيكية / زائير كان مثالا أفريقيا لدولة قبلية – إثنية . ونتيجة لهذا الطابع البالغ المركزية من تاريخها الرأسمالى المبكر ، استطاعت الطبقة الحاكمة أن تتفادى التحدى السياسى الضئيل من جانب البورجوازية . وكانت الفترة التى وصل فيها ذلك إلى الذروة تسمى فترة المحاولة الإدماجية الفاشلة ، وقد أدى هذا الإخفاق – كما رأينا – إلى فتح الباب أمام أشكال من الصراع ، مثل تلك التى بين بيير موليلى وسيمون كيمبانجو ، وهى أشكال لم تكن ممكنة على الإطلاق لو كانت البورجوازية الصغيرة قد وصلت بالفعل إلى السلطة .

وسيتجه الفصلان التاليان إلى عرض الشكل الرابع والأخير من الهيمنة ، ابتداء بمثال التاريخ الحديث للمملكة المتحدة .

هوامش الفصل الثامن

١ - انظر : Alpha Conde, Guinee : L'Albanie de L'Afrique Ou Neo Colonie Americaine ? (Paris 1972); Claude Gabriel, Le Tournant Africain ? (Paris, 1978); Haim Gerber, Islam, Guerilla War and Revolution (Boulder : Lynn Riemer 1988); كما أن الروابط الإسكندنافية الأفريقية هى أيضا طريقة أخرى لمتابعة المقارنات بين الدول القبلية - الإثنية . انظر : Arne Sorenson, " The Scandinavi an Concept of History, " in Torben Lunbaek, African Humanism - Scandinavian Culture A Dialogue (Copenhagen, 1970) 136 - 139, notes e. g. s

هناك شعبية لكلود ليفى ستراوس الأنثروبولوجى البنيوى وسط المؤرخين الدانمركيين ، وهو كذلك واسع الشعبية فى زائير . ومن ناحية أخرى نجد الدارسين فى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ، قد هاجموا ليفى ستراوس ولوك دى هيوش Luc De Heusch وآخرين لاستعمالهم الخيال والحدس ، انظر جان فانسينا :

Jan Vansina, " Is elegance Proof ? Structuralism and African History, " History in Africa 10 (1983) : 307 - 348, esp. 314; David Pace, Claude Levi - Strauss : The Bearer of the Ashes (Boston : RKP, 1983), 95 FF, Grawfard Young and thomas Turner, The Rise and Decline of the Zairian State, (Madison : Unir. Of Wisconsin Pren, 1985), 443, Ftn. 55.

وهذا الهامش يقدم إمكان مقارنة فكر موبوتو بفكر القائد الكورى الشمالى كيم إيل سونج . كما تجرى ملاحظة استعمال الأسطورة السياسية باعتبارها مصدرا . فإذا كانت زائير فى أساطير باكونجو امرأة نبيلة تبحث عن حريتها من قبضة سيدها العربى ، فهل هذه نظرة باكونجو عن نشأة الدولة الحديثة وتدمير عرب الكونغو (نفس المصدر ٣٤٣ هامش ٤٤) . وبالمثل انظر :

Ronald Cohen, " Oedipus Rex and Regina : the Queen Mother in Africa, " Africa 47, no 1 (1977) : 23,

ويتراكب بحث بوجوميل يفسفسكي Bogumil Jewsiewicki عن نسق معرفي (إبستيمة) جديد مع صياغة دولة قبلية – إثنية ، انظر : – " African Historical Studies ACademic Knowledge

as " Usable Past " and Radical Scholarship, " (Boulder, ACLS / SSRC, 1987), Ftm. 3.

٢ – مثال للتسلسل الزمني الوضعي النزعة : Mansjumba Mwanyimi - Mbonda, Chronolagic Generale de L,Hirtoire du zaire (Kinshasa, 1986), Janet Mac Gaffey, The Real Economy of Zaire (Phila delphia : Univ. of Penneybvania Press, 1991) for the contemporary econowy.

٣ – فيما يتعلق بمنظورات أخرى ، ارجع إلى كتابات كلية اللاهوت الكاثوليكي في كنشاسا وتشيمباكا يانجا :

La Parente, Egyptienne des Peuples du Zaire (Lubumbashi, 1989) .

4 - Nzongola - Ntalaja, Revolution and Counter Revolution - Essays in Contemporary Politics (London : Zed, 1987).

وفي تعديلي هنا لنمط الإنتاج القائم على النسب اعتمدت على : "Peter Geschiere, Applications of the Lineage Mode of Production" in African Studies, Canadian Journal of African Studies 19 (1985) : 81

وهو يبرز مشكلة تجسيد ذلك المفهوم بالإحالة إلى الكونغو قبل الفترة الاستعمارية وفي نقد المفهوم المنشىء للعرقية الموجود في الكتابات الماركسية وغير الماركسية اعتمدت على : Aidan Southall, " The Ethnic Heart of Anthropology" Cahiers d' Cahiersd' Etudes Africaines 25, No. 4 (1986) : 567 - 572, esp. 572,

وهناك مقال.يلخص جان لوب آميل Jean-Loup Amselle وإليكيا ميوكولو Elika M' Bokolo (محررين) :

Au Coeur de L' Ethnic, Ethmies, tribalisme et l'Etat en en Afrique. (Paris, 1985).

٥ – هناك إيضاح لتطور الرأسمالية داخل سياق تستفيد فيه منطقة إثنية على حساب منطقة أخرى في :

Robert Harms, Land Tenure and Agricultural Development in Zaire 1865-1961 (Madison : Land Tenure Center, 1974).

وهو يشير إلى أن ملكية أرض المونجو في المقاطعة الاستوائية كانت أشد المناطق تطورا نحو الرأسمالية . وفي الكونغو على الجملة ، حفزت الكثافة الضئيلة للسكان لكل ميل مربع ، كما حفز تنوع التربة وتغايرها نظام السلطة سواء في منطقة المطاط أو الفول السوداني أو القطن والأرز فيما بعد على أن تقتصر على جباية الضرائب دون تغيير علاقات الإنتاج . وهناك مصادر أخرى عن المحسوبية في المناطق :

Edourd Mokilawa Mpimbo, "La Province de L'Equoteur,S Courrier African Nos. 82 - 3 (October 30, 1968) ; Poids Socio - Politiques des ressort is ants de L' Equateur a Kinshasa, " Courrier Africain no. 84 (November 8, 1968).

وبالنسبة للمناطق غير المحظوظة ، انظر :

Jean Luc Vellut, " Rural Poverty in Central and Southern Africa Seds. Robin Palmer and Neil Parsons (Berkeley : Unin. of Calif. Press, 1977), ch. 12, Bogumil Jewsiewicki, Unequal Development : Capitalism and the Katang an Econony 1919 - 1940 ibid., Ch. 13.

٦ – يختلف الكتاب اختلافا طفيفا في استخدامهم للمصطلحات ، مثل : Jean Phillippe Peemans, Acumulation and un derdevelopment in Zaire : General Aspects in Relation to the Agrarian Crisis, "in the Creisis in zaire : Myths and Realities, ed. Nzongola. Ntalaja (Trenton : Africa Warld Press, IMC., 1986), 87 - 83.

وهو يستخدم مفهوم « التراكم البدائي الاستعماري » بالنسبة للسنوات من ١٨٨٥ – ١٩٤٥ ، وبالنسبة للسنوات التي أتت بعد ذلك وهي خمس عشرة سنة من زيادة الرخاء ، فقد تضخمت دورة الاستهلاك المحلي . ثم انهارت ضوابط سيطرة الدولة بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ مما سمح بارتفاع في حجم التجارة الريفية وانهيار في التصدير الزراعي . ويتبع الكتاب هذا المسار .

1- Bagumil Jewsiewicki, " The Great Depression and the Making of the Colonial Economic System in Belgian Congo, " African Economic History 2 (Fall, 1977) : 153 - 176.

وهو يتناول موضوعه بطريقة تتضمن السباق الاقتصادى بعد الاستعمارى أيضا . وتؤيد دراسات المستوى المحلى أكثر من دراسات المستوى القومى وجهة نظر المؤلف فى استمرار بقاء هياكل السلطة التقليدية خلال فترة الاستقلال وما بعدها . انظر : Samba Kaputa, "Phenomene d'ethnicite et conflit ethno - politique dans les centres urbaine d' l' Afrique Noire. Le Cas des Kusu et des Shidans La ville de Bukavu, " Revue de L'Institut de Sociologie 49, No. 1 (1976) : 149 - 172.

٨ - من الأمثلة المبكرة فى مجال رفض منهج اقتصاد بحت فى الاقتصاد السياسى للاستعمار عمل :

Bruce Fetter, Colonial Rule and Regional Imbalance in Central Africa (Boulder : Westview Press, 1983) 26, : وهناك مقال آخر على نفس المنوال وذو أهمية لفهم الهيمنة Thomas M. Callaghy, External Actors and the Relative Autonomy of the Political Aristocracy in Zaire, : Journal of Commonwealth and Comparative Politics 24 " (1983) ; 61 - 88,

ويجد وجهة نظر نقدية للتبعية وللأفكار ذات الخط المفرد للتطور فى : Wyatt Macgaffey, :The Politics of National Integration in Zaire " The Journal of Modern African Studies 20, no. 1 (1982) : 87 - 105.

٩ - هناك تعقيب على المنافسة المستمرة بين لغة لنجالا واللغة الفرنسية على موقع السيطرة فى كنشاسا اليوم فى : Mwatha Musanji - Ngalasso, "Usage du Francais dans Un Milieu Urbain : Africain : Kinshasa, Presence Africaine no. 33 (1988) : 105-120.

10 - Bogumil Jewsiewicki, : The political Culture of Ethnicity in the Belgian, Congo

" The Ideology of Slavery in Africa (Beverly Hills : Sage Publ., 1981) ..., Bogunil Jewsiewicki and Mumbanza Mwa Bawele, " The Social Context of Slavery in Equatorial Africa During the 19th and 20th Century, : Ibid., ch. 3.

11 - L.H. Gann and Peter Duignan, The Rulers of Belgian Africa 1884 - 1914 (Princeton : Prin ceton Univ. Press, 1979), chs. 2 - 3.

وقد ظهرت أمارة على الطابع القبلى - الإثنى للدولة فى التشريع عام ١٨٩٨ ، وهو تشريع يقضى بأن الأرض ينبغى أن تُجنب على نحو منفصل للأوروبيين والملونين . وظل هذا التشريع فى السجلات حتى ١٩٥٩ . انظر : George Brausch, Belgian Administr ation in the Congo (Oxford, Institute of Race Relations, 1961), 21 - 2, وقد دامت أشكال أخرى من التمييز من الأربعينات حتى ١٩٦٠ فى الإسكان والتعليم وتسهيلات الترفيه .

12 - Bogumil Jewsiewicki, : Zaire enters the World System : Its Colonial Incorporation as the Belgian Congo, 1885 - 1960, "in Zaire - The Political Econony of Underdevelopement, ed. Guy Gran (New York: Frederick A. Praeger, 1979), 29 - 53.

13 - Roger Anstey, King Leopold's Legacy. (Oxford Univ. Prens, 1966), 47 FF.

14 - John Higginson, AWorking Class in the Making (Madison : Univ. of Wisconsin Press, 1989), 42 - 54.

15 - Anstey, Op. Cit., 63.

16 - Migginson, ibid., 115.

17 - Bogumil Jewsiewicki, "The Great Depression ".

١٨ - يظل تفسير لومومبا بوصفه راديكاليا فى حاجة إلى مراجعة : فقد رحب به السوفييت ، فى وقت اتجهوا فيه نحو الانفراج والليبرالية مما يشير قبل أى شىء إلى نقص محتمل فى راديكاليته . وهذا الانطباع تدعمه النظرة إلى نشاطه الأسبق كذلك . ففى ١٩٥٥ قبل وقت قصير من صعوده إلى الزعامة القومية كان نائبا لرئيس الحزب الليبرالى فى كيسانجانى . وحينما قام

الملك بودوان بزيارته الشهيرة إلى الكونغو فى هذه السنة ، امتدح لومومبا النزعة الأبوية البلجيكية بوصفها شيئا مفيدا للجماهير . انظر : George N. Nzongola, The Bourgeoisie and the Revolution in the Congo, "The Journal of the Modern African Stucties 8, No. 4 (1970) : 511 - 530, esp. 524, Ftn. 3.

١٩ – نفس المصدر . وقد شهدت كتانجا استراتيجية شديدة التطور من جانب الرأسماليين للسيطرة على العمالة ، وهى استراتيجية لا تستتبع فحسب خلط القبائل ضمن عصبة العمل ، بل أيضا صهر هوية جديدة فائقة للقبيلة من قطاعات قبلية لخلق قبيلة جديدة عمالية ، التشانجا – تشانجا . ولكن تخلى خلط الإثنيات أثبت أنه استراتيجية محفوفة بالخطر ، وقد تخلى عنها البلجيك وعادوا إلى سياسة تدعم المجموعات الإثنية السائدة تقليديا . وعادوا بذلك من جديد إلى الاعتماد على تضامن اللوندا وولاء الزعيم الروحى للوندا ، الماوانت يا آف .Mwaant Yaav ، فى ١٩٥٥ حينما زار الملك بودوان الكونغو كرم هذا الزعيم . وفى السنوات الأقرب عهدا منح موبوتو هذا الزعيم رتبة فى الخدمة المدنية . انظر أيضا : Jean - Luc Vellut, "Mining in the Belgian Congo " in History of Central Africa (London : Longman, 1983), 2 : ch. 4; Edouard Bustin, Lunda under Belgian Rule - The Politics of Ethnicity (Cambridge : Harvard Univ. Press, 1975), 160, 238.

20 - Jean Philippe Peemans, "Accumulation and underdevelopment. Op. cit.,

21 - Michael G. Schatzberg, The Dialectics of Oppression in Zaire (Bloomin gton : Indiana Univ. Press, 1988)'

وهذا المؤلف يقترب كثيرا جداً من مفهوم (المدينة المتحف) المستخدم فى الفصل السابق عن ألبانيا . وتبدو ليسالا (٩) وكيسانجانى (٦٨) مثل مدن المتحف . وفى عدم مناعة النظام ، انظر مناقشة عامة عند : Kenneth B. Nable, " Pretoria Said to Advise Zairian Army, " New York Times, August 17, 1991, 2 (International Edition).

٢٢ – هناك كتابات حول مقاومة إيديولوجية النزعة الإثنية أو على الأقل مقاومة فرض هوية إثنية معينة على شعوب مختلفة ، لا تقف عند زائير ، بل تشمل بلاد أخرى كذلك . ومثال ذلك أن

اتجاه المخلّص القادم كان قوى التأثير فى نزعة كيمبانحوا وبين المنشقين على الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بما فيهم ألبان ينتمون إلى فترة زوغو المبكرة ، وهذا الاتجاه بدأ بين الإرساليات الأرثوذكسية اليونانية . انظر : Nectaire Hatzimichali, " L' Eglise Orthodoxe Gompass, 22, No. 1 (1975) : 85 - 95.

كما كان لمذهب تجديد العماد القادم من البلاد الإسكندنافية تأثيره فى هذه المناطق .

23 - Bruce Fetter, The Creation of Elisabethuille 1910 - 1940 (Stanford : Hoover Institute, 1976), 138 - 141.

24 - Thomas Kanza, The Rise and Fall of Patrice Lumumba - Conflict in the congo (Cambridge : Schenkman Publishing Co., Inc., 1979), 100 - 121,

وكان موبوتو بطبيعة الحال مرتبطا بمصالح الولايات المتحدة .

٢٥ – إذا أخذنا فى الاعتبار سهولة التفرقة حتى بين الطلبة بواسطة الندائات الإثنية ، عرفنا أن غير المتعلمين أقل استجابه . وليس ذلك شيئا تنفرد به زائير . ففى ١٩٨٥ سعى أندر خوجه إلى استمالة الجمهور من أنصار الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وكان معظمهم من الشباب المحبط الذى خلقه نظام التعليم الحديث بأن عرض عليهم استخراج عظام القديس كوسما الإيتولى وإعطاءها إلى السلطات اليونانية ، « عظام الصداقة » فى عدد الإيكونومست ١٢ يناير ١٩٨٥ ص ٤٢ .

26 - Barbara A. Yates, " Colonialism, Education and Work : Sex Differentiation in Colonial Zaire, " in Women and Work in Africa, ed. Ednag. Bay (Boulder : Westview Press, 1982), ch. 6, Francille Wilson, "Reinventing the Past and circumscribing the Future Authenticity and the Negative Image of Women's Work in Zair, " Ibis., Ch. 7.

27 - Rik Ceyssens, "Mutumbula. Mythe de L' Opprimé, " Cultures et Devel oppement 7 (1975). 483 - 550.

وقد سمحت هذه الثورات لأهل الكونغو بأن يقوموا بتنمية ثقافة مشتركة تناهض الثقافة

الأوروبية الاستعمارية . وربما أسهم ذلك فى الرغبة المتزايدة من جانب الزعماء ومن جانب المتعلمين تعليما أوروبيا فى أن تدعم بروكسل مكانتهم ،

Jean - Luc Vellut, "Une Image du Blanc dans La Société Coloniale, " in Stereo types Nationaux et Prejuces Raciaux aux XIX et XX Siecles. (Leuven, 1982), 91 - 116.

28 - Rene Lemarchand, "The Politics of Penury in Rural Zaire : The View From Bandundu " in G. Gran, ibid., 240; Kanze, op. cit., 117; Ency clope die Brittanica (Chicago : Univ. of Chicago Press, 1975), 5 : 810.

29 - Susan Asch, L' Eglise de Prophete Kimbangu (Paris : Karthola, 1983), 287 - 290.

٣٠ – تظهر عبارة قريبة من تلك العبارة عند الكاتب أنيست موبى فانسياما - Anicet Mobe - Fansiama : فى " L' Expression Culturelle dans les ecoles du Zaire, " Afrique Litteraire et Artishique. no. 64 (1982) : espe cially 48 - 49.

٣١ – ليس هذا هو الرأى القياسى . فالرأى القياسى يشدد على مدى قوة الإدارة العلمانية بالمقارنة بنظائرها فى أماكن أفريقية أخرى . والحاكم بوصفه ملكاً فيلسوفًا وفكرة الكنيسة باعتبارها تحديا للهيمنة من داخلها ليست فكرة مألوفة . انظر :

Marvin Markowitz, Cross and Sword (Stanford : Hoover Institute, 1973); وحــول عـرض حـديـث للـصـراع بـين الكنيـسـة والدولـة ، انـظـر : Michael G. Schatzberg, The Dialectics : .., 116 FF.

وحول منهج الملك الفيلسوف أنظر اقتباسا من توماس هودجكين فى : Crawford Young, Politics in the Congo (Princeton : Prin Ceton Univ. Press, 1965), 10.

٣٢ – تضم المقالات حول الخلفية التاريخية : Barbara A. Yates, "Church, State and Education in Belgian Africa, Implications for Contemporary Third World Women, in Women's Education in the Third World : Comparative Perspectives, eds. Gail Kelly and Carolyn Elliott (Albany : Suny Press, 1982), Ch 6; Barbara A. Yates, "Colonialism, Education

and Work...," loc. cit., Sylvia M. Jacabs, "Their Special Mission" : Afro - American Women as Missionaries to the Congo, 1894 - 1937, " in Black Americans and the Missionary Movement in Africa ed. Sylvia M. Jacobs (Westport : Greenwood Press, 1982), Ch. 8, Francille Rusan Wilson Op. cit; Terri F. Gould, " Value Conflict And Development, The Struggle of the Professional Zairian Woman, " The Journal of Modern African Studies 16, no. 1 (1988) : 133 - 139;

وهنـاك دراسـة عـن كنيسـة بديلة تلعـب المرأة فـيـهـا دورا مـهـمـا : Willy de Craemen, The Jamaa and the Church - A Bantu Catholic Movement in Zaire (Oxford : Clarendon Press, 1977;

وعن الجانب الأكثر عنفا فى صراع الجنسين ، انظر :

Jean S. Lafontaine, " The Free Women of Kinshasa : Prostitution in a City in Zaire, " in Choice and Change. ed. J. Davis (London : The Athalone Press, 1974), 89 - 113; M. Chatherine Newbury, "Ebutumwa Bur' Emiogo : The Tyranny of Cassava, A Women's Tax Revolt in Eastern Zaire, " Canadian Journal of African Studies, 18, no. 1 (1984) : 35 - 55, Africa Baraza, Rapes, Tortures and Execution of Women in Zaire (Boston 1982) .

33 - Mulago, La Religion Traditionelle des Bantus et Leur Vision du Monde (Kinshasa, 1973).

وهناك عمل آخر للمؤلف نفسه يلتقط موضوع الاتحاد الحيوى فى لغة البانتوأى فى فكر اللوبا وفى اللاهوت الصوفى الكاثوليكى . انظر بالإضافة إلى ذلك عملا أحدث فى نفس الاتجاه للاهوتى الزائيرى كابسابيلى لومبالا Kasabele Lumbala :

Alliances Anes le Christ en Afrique - In culturation des Rites Religieux au Zaire (Athens, 1987);

وهناك إشـارة إلى قوة الكنيسة ونجاحها فهى لم تذكر فى عمل ضخم ذى توجه حزبى عن شرور التأثير الأجنبى : Mabika Kalanda, La Remise en Question - Base de La Decolonisation Mentole (Brussels, 1967);

وفيما يتعلق بالتعبير عن الهموم العلمانية حول دور الدين ، انظر ف . موديمبى V. Mudimbe :

Parables and Fables (Madison : Univ. of Wis consin Press, 1991) 53 FF.

34 - David Northrup, "A Church in Search of a State : Catholic Missions in Eastern Zaire, 1879 - 1930, " Journal of Church and State 30 (1988) : 309 - 319, P. Kisimba Nyembo, La Parole Comme Manifestation Personnelle de Dieu dans les Sacrements selon Martin Luther 1483 - 1546 (Kinshasa, 1988); Wyatt Macgaffey, Modern Kongo Prophets (Bloomington : Indiana Univ. Press, 1983).

35 - Bogumil Jewsiewicki, "The Formation of the Political Culture of Ethnicity in the Belgian Congo, 1920 - 1959," in The Creation Of Tribalism In Southern Africa, ed. Leroy Vail (Berkeley : Univ. of California Press, 1991), Ch. 11.

36 - David J. Gould, " Local Administration in Zaire and Under development, The Journal of Madern African Studies 15, no. 3 (1977) : 349 - 378.

37 - Museums have their political objectives. Sarah Brett - Smith, " The Doyle Collection of African Art, " Record of the Art Museum Princeton Univ. 42, no. 2 (1983) : 2 - 43.

وهذا السجل يقدم الرحلة البطولية لرجل أعمال أمريكى وزوجته للحصول على الأعمال الفنية لقبائل كوبا وبندى وتشوكوى . وتصورها مقتنيات برنستون دويل بوصفها القلب الذى لا يتقادم مع الزمن لأفريقيا الوسطى . ومن منظور الحكومة الزائيرية وحتى من منظور الإدارة البلجيكية قبلها ، كان لمسألة المنطقة المتعينة أهمية أكبر مما لها بالنسبة لجمهور أمريكى .

Shaje Tsniluila, " Return and Restoration - Inventorying Movable Cultural Property : National Museum Imstitute of Zaire, " Museum no. 153 (1978) : 50 - 51.

وعن تفاصيل حملات اقتناء المعهد فى زائير ، انظر : Lucien Cahen, ed. Rapport Institut des Musees Nationaux (Kinshasa, 1972).

وكاهن مثل آخرين فى زائير لا يميز الفن بمجرد نمطه الإقليمى ، ولكن بمن يمتلك

السلطة اليوم . وعلى سبيل المثال ، فإنه يرصد زيارة دارس للموسيقى هو الأستاذ بنوا كيرسان Benoit Quersin» من شركة الراديو الفرنسية إلى المقاطعة الاستوائية لتسجيل موسيقى الإكوندا «الحديثة » نفس المصدر ص ٣٣ . وليست كل التدخلات الأمريكية سواء . ففى عام ١٩٨١ ، فسر مديرو المعرض القومى للفن فى واشنطن الأسطورة القومية فى زائير ، أسطورة زائير بوصفها وارثة مملكة الكونغو ، بأنها انبثقت من الجزء الشمالى والغربى من البلاد ، جاعلين منها موضوعا لعرض ضخم لثقافة باكونجو :

Robert Farris Thompson and Joseph Cornet, The Four Moments of the Sun. Kongo Art in Two Worlds (Washington : National Gallery of Art, 1981).

وكان ما تحقق منه المتحف أن المقاطعة الاستوائية هى المكان الذى يجب إبرازه بالنسبة لكل التطورات .

38 - Sully Faik et al., La Francophonie au Zaire (Lubumbashi 1988), Johannes Fabian, Language and Colonial Power - The Appropriation of Swahili in the Former Belgian Congo 1880 - 1938 (Cambridge : Cambridge Unin. Press, 1986; Eyamba G. Bokamba, " Authenticity and the Choice of a National Language : The Case of Zaire, " Studies in the Linguistic Sciences 6, no. 2 (Fall 1976) : 23 - 65; Lufuluabo Mukeba; Some Aspects of Billingualism and Bilingual Education in Zaire, " in International Handbook of Bilingualism and Bilingual Education, ed. Christian Bratt Paulston (Westport : Greenivod Press, 1988), Ch. 27;

وعلى نحو أوسع ويستلزم الضبط الاجتماعى ماهو أكثر من استعمال سياسة لغوية ، أى الرقابة أيضا . انظر على سبيل المثال :

World Press Encyclopedia 2 : 1108 - 9, see also Bokwa Muelan Zambi, " Communication in Zaire " Educational Broadcasting International 9 (1976) : 147 - 149.

39 - Daniel Cahen, "Histoire de la Recherche Archeologique au Zaire, " Etudes dr' Histoire Africaine 9 - 10 (1977 - 1978) : 33 - 6, Mvya Kamwanga, Les Industries Prehistori ques de la Plaine de Kinshasa, " ibid. : 49-62.

٤٠ – عـن الشـجـار حول تحـقـيب الأدب الزائيـرى . انظـر : P. Ngendu Nkashama, " La Litterature Zairoise : Problematique d'une ecriture, " Zaire - Afriques no. 116 (1977) : 379 FF,

وعن التعقيب على أعمال موكالاكاديما نزوجى .

Mukala Kadima - Nzuji, La Litterature Zavriise de Langue Francaise Paris Karthala; 1984);

وللتعقيب على المسرح :

P. Ngandu Nkashama, " Le theatre et la dramaturgie du mosque au Zaire, " Culture Francaise 3 - 4 (1982 - 3) : 58 - 76.

وتظل الأصالة فى المسرح غير واضحة . ويبرز إمكانات التعبئة الناتجة عن إرسال الفرق إلى الريف متحدث رسمى ، هو أو نيونموان إدبيرى, Unionmwan Edebiri فى :

Le Contre - Litterature (Paris, Presses Universitaires de France, 1975), Bernard Mouralis, " Vincent Mudimbe et le Savoir Ethnologique. " L'Afrique Litteraire et Artistique no. 58 (1981) : 112 - 125.

41 - B. E. Botombele, Cultural Policy in the Republic of Zaire (Paris : Unes co 1976).

42 - Hommage a Grand Kalle (Kinshasa, 1985).

43 - John M. Janzen, The Quert for Therapy in Lower Zaire (Berkeley : Univ. of California Press, 1978), Ch. 12; see also : Zola NiVunda, "La Scien Ceen Afrique ou Les Tribulations d'une Science Africaine," : Canadian Journal of African Studies 13 (1979) : 211 - 221, Gilles Bibeau, " New Legal Rules for an Old Art of Healing - The Case of Zairian Healers' Associations, " Social Science and Medicine 16 (1982) : 1843 - 1849; Ellen Corin," Vers une reappropriation de la dimension in dividuelle en psychologie Africaine, " Canadian Journal of African

Studies 14, no. 1 (1980) : 135-156 focussing on the ritual of individuation in mone other than Equatorial Province.

44 - Markowitz, op. cit.

45 - For a turn of the century liberal protest see : Wm Roger Louis and Jean Stengers, E. D. Morel's History of the Congo Refrm Movement (Oxford : Clarendon Press, 1968); for a more recent version of the some thing, Jeffrey M. Elliot and Marvyn Dymally, Voice of Zaire (Washington : Washington Institute Press, 1990); for an example of the liberol critirque among Zairion intellectuals today, see the writings of N. Y. Mudimbe.

٤٦ – هذه الحقيقة هى التى أدت إلى الحلقة الدراسية غير المعتادة المنشورة بعد ذلك ككتاب عنوانه :

Actualités et Inactualite's des "Etudes Bakongo " du P. Van Wing : Acte du Colloque de Mayidi (1980) (Inkisi : Grand Seminare Mayidi, 1983).

47 - A. J. Smets, Philosophie Africaine - Textes Choisies (Kinshasa, 1975). 1, 116 - 127.

ويستطيع المرء أن يستنتج من مسح حديث للمقررات مدى أهمية الفلسفة فى التعليم الزائيرى بالمقارنة مع ذلك المدى فى بلاد أخرى :

Teaching and Research in Philosophy : Africa (Paris : Unesco, 1984), 185-213;

ولتفسير لاهوت مولاجو ، انظر :

V. Y. Mudimbe Porables and Fobles 53 - 68.

٤٨ – لا تستطيع دراسة الكتابة التاريخية فى زائير أن تهمش بالكامل مسألة الأثر المتراكم للتخصص الخارجى مهما تكن ضآلة الالتزام الرسمى بدراسته .

٤٩ – يومىء مثال ألبانيا إلى أن أى بلد لا يستطيع تنمية أو لا يقوم بتشجيع تنمية الرواية فى الأدب ، فى الرواية على سبيل المثال لن يكون من السهل عليه تنمية الكتابة التاريخية

كـذلك ، لتـصـوير المصـاعب أمـام الرواية انظر : Mbulamuanza Mukaal Kadima Nzuji. op. cit., Mudimbe Boyi, "Les Editions du Mont - Noir au Zaire, "Afrique Litteraire et Artistique no. 44 (1977) : 69 -72.

ولأشكال التـردد فـيـمـا يتـعلق بمصـيـرالرواية فى زائيـر : Jeannick Odier, " Bilan de la Litterature Zairoise depuis l' Independance" Afrique Litteraire et Artistique no. 35(1975); 30, Ngandu Nkashama, " La Litterature au Zaire depuis l' Independance," Zaire - Afrique no. 70 (1972) : 624.

٥٠ – هذه النقـاط وغـيـرها تم تطويرها فى المقـال المهم لبـوجـومـيل يوسـفـسكى Bogumil Jewsiewicki " African Historical Studies - Academic Knowledge as "Usable Past" and Radical Scholarship," African Studies Review 32, no. 3(1989) : 1 - 76, Benoit Verhagen, Introduction à L'Mistoire Immediate (Gembloux, Belgium : Duclot, 1974).

والعمل الأخير كان مـحاولة مبكرة لتكييف الكتابة التاريخية مع العرفان لم تلق متابعين . وكان فرانسوا بونتنك ممثلا نابها للمؤرخين ذوى الاتجاه الوثائقى .

٥١ – عن مـثـال حـديث للـجدل المحيط بالتـاريخ الشـفـاهى : Jan Vansina, Gral Tradition as History, (Madism : Univ. of Wisconsin Press, 1985).

وفيـمـا يتعلق بنقدالتاريخ الشـفـاهى عند فانسـينا باعتبـاره مـغـاليا فى نزعـتـه الوضـعـية بقلم شخصية واسعة التأثير قريبة من المؤسسة فى زائير ، انظر :

Luc De Heusch, The Drunken King or the Origin of the State (Bloomington : Indiana Univ. Press, 1982), 8.

وللدفاع عن عمل فانسينا ، انظر:

Robert W. Harms " The Wars of August, Diagonal Narrative in African History," American Historical Review 88 (1983) : 816;

وفيـمـا يتـعلق بمثال عن الملحمة التاريخية الكونغولية إذا عدنا إلى مـوضـوع سـكـاندريج فى

The Mwindo Epic, eds. Daniel Biebuyck and Kahombo CO Mateene : الفـــصل الســـابق (Berkeley : Univ. of California Press, 1969).

52 - Mbulamuanza Mudimbe Moyi, " Beatrice du Congo de Bernard Dedie, Signe de temps ou piece a clé ? " L'Afrique Litter aire et Artistique no. 35 (1975) : 19 - 26.

53 - Wyatt May Gaffey, " The West in Congolese Experience, " in Africa and the West Intellectual Responses to European Culture, ed. philip D. Curtin (Madison : Univ. of Wisconsin Press, 1972), 49 - 72, Wyatt Mac Gaffey, " Zamenga Batukez and a : The Novelist and Ethnographer, " African Journal 13 (1982) : 91-97.

وباتوكيزانجا يجمع بين الأدب والتاريخ ، ومن الواضح أن معرفته بحياة القرية ضخمة . وفى كتابه « بانسوكى » أو « السحرة » نجد فكرة دفن الأحياء كجزء من تبادل العلاقات مع العالم الآخر فكرة هامة ، Odier, OP. Cit., 34.

وفى السياق الألبانى كان هذا الموضوع مهما باعتباره تيمة عند الروائى إسماعيل كادارى . انظر تناولا أعم عند : Zihni Sako, " The Albanian Entombment Balled and Other Common Balkan Different Versions, " in Questions of the Albanian Folklore (Tirana, 1984), 155 - 165, see also Bogumil Jewsiewicki, Collective Memory and the Stakes of Power.

وانظر قراءة للخطابات التاريخية الزائيرية فى : History in Africa 13 (1986) : 202

لتجد تعقيبات عن سلطة الرواية المتعلق « بالمرأة الحرة » .

54 - Jean Luc Vellut, Guide de L'Etudiant - en Histoire du Zaire (Kinshasa, n.d), 41.

٥٥ – هناك تعبير مبكر يؤكد هذا الاهتمام عند : I an Cunnison, " History and Genealogy in Conquest states," American Anthropologist 59, no. 1 (1957) : 20 - 31.

56 - Ndaywel Enziem, " African Historical Study " in Jewsiewichi and Newbury,

op. cit., Ch. 1. وتمكن مقارنة دور فرانسوا بونتنك فى زائير بوصفه معلما للتاريخ بدور مشابه لشخصية مؤسسة لحرفة التاريخ المغربية الأستاذ جرمان عياش Germain Ayyash . فعياش مثل بونتنك كان معلما للتاريخ الوثائقى فى سياق دولة قبلية .

٥٧ – كان بين منجزات لوبومباشى نشر ٧ مجلدات من « دراسات التاريخ الأفريقى » بين ١٩٧٠ – ١٩٧٥. كما صدرت دراسات معتمدة على الأرشيف فى تلك الفترة أيضا مثل :

J. Stengers, " Belgian Historiography since 1945", in Reappraisals in Overseas History, eds. P. C. Emmer and H. L. Wesseling (Leiden : Leiden Univ. Press, 1979), 161 - 182.

58 - Mumbanza Mwa Bawele and Sabakinu Kivilu, op. cit.; Benoit Verhaegen, " L'Histoire au Zaire : Enseigment, Recherches, Publications, " Revue Belge d' Histoire Contemporaine 8 (1977) : 291 - 314.

59 - Best Known was Benoit Verhaegen, Introduction à L' Histoire Immediate.

وقد استمد تسلسل التاريخ المضاد أو التاريخ الفوضوى من ماوتسى تونج والسيكولوجيا المضادة للنج Laing ، ومجموعة من الكتاب فى كنشاسا حوالى ١٩٧٠ بما فيهم سودمبى . ويُجعل فيرهيجن الصلة المباشرة بين الملاحظ (بالكسر) والملاحظ (بالفتح) أساسا لنقده المنهجى لكتابة التاريخ الوضعية التقليدية . ويعلق مودمبى على كتاب فيرهيجن فى « رائحة الأب » ١٧٢ – ١٨٢ .

60 - Mumbanza Mwa Bawele and Sabakinu Kivilu, " Historical Research in Zaire, " in African Historiographies What History Which Africa. eds. Bogumil Jewsiewicki and David Newbury (Beverly Hills : Sage Publications, 1986), 226, Ndaywel Enziem, "Les Archives du Zaire en question," Zaire - Afrique no. 124 (1978) : 207 - 213.

61 - Mumbanza Mwa Bawele. " Authenticit, Histoire et Developpement " in Authenticite' et Developpement (Kinshasa, 1981), 149 - 194, esp. 156, 166 , 182.

والمؤلف هو الآن مدير الـ CERDAC وأستاذ التاريخ الاجتماعي في لوبومباشي .

62 - Enseignement de l' Histoire au Zaire Actes du Colloques Organisée par le CERDAC Lubumbashi 1978 (Lubumbashi, 1978).

وقد تضمن شكاوى تتعلق بالمشاكل المالية للمنظمة ، وبالإحباط الناتج عن التقدير الهابط من جانب الطلاب لمعلمي التاريخ ، وبالطريقة الآلية التي يدرس بها التاريخ تقليديا . وهناك مجموعة من المقالات الجدالية من لوبومباشي تتخذ موقفاً يطالب بألا تكون هناك محاباة لأماكن محفوظة في كتابة تاريخ زائير .

Epanya S. Tshund' olela et al., Histoire du Zaire (Lubumbashi : CERDAC, 1981), 1.

وقد لاحظ كاتب يتخذ موقفا مقاربا من كتابة التاريخ في أفريقيا أن الـ UNAZA كانت متفردة لاهتمامها المقتصر على تاريخ الفن والتاريخ السياسي :

Atieno Odhiambo, " The Content of History Education In East, Central and Southern Africa," in the Teaching of History in African Unirersities, ed. E. J. Alagos (Lagos, (1977), 49 - 64.

الفصل التاسع

الديمقراطية البورجوازية فى بريطانيا العظمى

(١٨٨٠ - ١٩٩٠)

يقدم هذا الفصل تفسيرا للتاريخ الحديث لبريطانيا العظمى فى الفترة من ١٨٨٠ إلى ١٩٩٠ بوصفها مثلا للديمقراطية البورجوازية ، وتزعم فرضيته الأساسية أن الديمقراطية فى حالة بريطانيا العظمى – وبعد محاولات جرت لفرضها وأخرى لمقاومتها فى أواخر القرن التاسع عشر – قد استقرت دعائمها فى النهاية ، عندما أصبحت الطبقة الحاكمة قادرة على القضاء على إمكانية ظهور تحالف بين الطبقة العاملة فى أيرلندا وبريطانيا ، وهو تحالف كان من شأنه بالتأكيد – لو قام – أن يدمر كلا النظامين العرقى والطبقى . لقد عرضت الطبقة الحاكمة فى هذه الحالة أن توفر للعامل الإنجليزى دولة رعاية اجتماعية وتقبل العامل الإنجليزى عرضها هذا ، وهو ما لم تستطع الطبقة الحاكمة أن تحققه فى حالة الولايات المتحدة التى سنتناولها فى الفصل القادم باعتبارها ديمقراطية بورجوازية أخرى ومختلفة .. وأدى ذلك إلى نتائج أخرى (١) .

والقسم الأول من هذا الفصل يحدد السمات المشتركة للديمقراطية البورجوازية ملاحظا انعكاسها على الصورة التاريخية للمملكة المتحدة ، بينما يناقش القسم الثانى مراحل الهيمنة فى بريطانيا العظمى فى الفترة من ١٨٨٠ إلى ١٩٩٠ . أما القسم الثالث ، فيقدم موضوع الهيمنة من حيث التنظيم الثقافى ، ويوضح القسم الرابع والأخير الدور الذى لعبته كتابة التاريخ كجزء من هذا التنظيم .

الديمقراطية البورجوازية كصورة من صور الهيمنة وانعكاسها فى الدراسات عن المملكة المتحدة

يدرس القسم الأول ستة ملامح متداخلة للديمقراطية البورجوازية بوصفها

صورة من صور الهيمنة ، واضعا المملكة المتحدة فى إطار تلك الملامح : فهو يتناول الديمقراطية البورجوازية أولا كفكرة سياسية ، وثانياً كنظام اجتماعى مبنى على محاولة الحكم من خلال الاتفاق العام ، وثالثاً كنظام إيديولوجى يعمل على استمرارية إيديولوجية « الشعب المختار » ، ورابعاً كنظام ثقافى يقوم على أساس العلم ، وعلى الأخص مفهوم علمى للأجناس ، وخامساً ككيان له مداخلاته المميزة فى العلاقات الدولية وذات الصلة الوثيقة جداً بالسياسات المطالبة بالتطابق ، وسادساً ككيان له اتجاهاته الخاصة فى دراسة التاريخ والتراث .

إن الديمقراطية مفهوم يكتنفه الغموض فى الفكر السياسى الحديث ، فالكلمة تستخدم أحيانا لوصف النظم التى يُظن أنها تتمتع بالحرية السياسية ، وأحياناً للإشارة إلى تقليد سياسى معين نابع من اليونان القديمة . والمؤرخون يستخدمون مصطلح الديمقراطية غالباً بوصفها نقيض الدكتاتورية ، وقد شاع هذا الاستخدام فى حقبة ستالين وهتلر ، وما زال يلقى رواجا لدى منظمات حقوق الإنسان . ويبدو أنه من الأفضل - خلافا لهذا الواقع - أن نستخدم هنا مصطلح الديمقراطية البورجوازية بدلا من مجرد الديمقراطية . ولكن أيا كان المصطلح المستخدم ، فبوسع المرء أن يرى أنه لم يعد مقتنعاً حقيقة بادعاء أن الديمقراطية أو الديمقراطية البورجوازية يمكن أن تكون معادلا للحرية .

إن الديمقراطية البورجوازية فى هذه الدراسة ، هى كما أوضح الفصل الأول حكم بواسطة العرق ، وهى إحدى الاستراتيجيات الأربع لتنظيم الهيمنة فى العالم الحديث . فالحكام فى الديمقراطيات يعطون الطبقة العاملة حقوقا قانونية ، ويجعلون منهم مواطنين ، ولكنهم يستخدمون الإجراءات البيروقراطية والثقافية لضمان استمرار وجود فئة عرقية دنيا على الرغم من ذلك (٢) . وحتى ينجح الحكام فى اللعب بالورقة العنصرية ضد الورقة الطبقية ، فإنهم يحاولون أن يرفعوا صورة لاحتواء جماهير العمال البيض الفقراء فى نظام ثقافى ذى توجه عنصرى ، بينما يضمون أعدادا قليلة من الفئة العرقية المذكورة ، ليدخلوا كأفراد إلى هذا العالم الأكثر تميزا . وفى الغالب ليست وظيفة هذه الفئة العرقية الدنيا اضطهاد السود - مثلا - بل هى الحفاظ على ولاء الطبقة العاملة البيضاء . والدليل على ذلك هو استعداد الدولة لتشجيع السود على أن تكون

لهم حياة ثقافية ، وعلى تطوير أنفسهم شريطة أن يفعلوا ذلك كسود ، بمعنى أن يروا أنفسهم شتاتا (ديا سبورا) أفريقيا غير قابل للذوبان فى مجتمعه . وتشجيعا لهم على الإيمان بذلك ، يمكن التلويح لهم بأن أسلافهم مصريون ، أو مصريون أثروا فى اليونان . وبذلك تقوم هذه الفئة العرقية بدور الوجود السلبى بالنسبة للعامل من الجنس السائد ، فيقول هذا العامل بلسان الحال : حمدا لله أنى لست من « هؤلاء » ، وأن شعبى وبلادى « أبيضان » .

و « هؤلاء » قد يكونون الكاثوليك فى شمالى أيرلندا ، أو المهاجرين من الكومنولث أو من سكان المستعمرات عموما ، أو السود فى الولايات المتحدة ، أو ذوى الأصول الأمريكية اللاتينية ، أو الأصول الشرقية ، أو الهنود الحمر . وقد كانت هذه الصورة من صور الهيمنة تعنى بالنسبة للسود والأيرلنديين نوعا من « العنصرية المؤسساتية » أو « الكولونيالية الداخلية » ، واستُخدمت هذه المصطلحات بالفعل فى بعض الأحيان لوصف الديمقراطية (٣) .

والهيمنات لها – على نحو نموذجى – أفكارها الحاكمة ومثقفوها الذين يعبرون عن هذه الأفكار . ويظهر هذا البناء الفكرى أوضح ما يظهر فى الكتابات عن الشخصية القومية ، وفى التعليقات على القانون والليبرالية والبرلمان ، ولكنه يخفق فى الوصول إلى تحديد ما هو خاص بالديمقراطيات . ويميل الكتاب فى موضوع الشخصية القومية – مثل المؤرخ الأمريكى بيرى ميللر – إلى التركيز على الواقع المشاهد للاتفاق الاجتماعى القائم فى الديمقراطيات البورجوازية والمتمثل فى إنجلترا فى تقاليد حزب الأحرار ، أو فى « الكنيسة السمحة » .

ولا شك أن الاتفاق موجود في الديمقراطيات ، ولكن من الصعب أن يقطع المرء بأنه موجود فيها أكثر مما هو فى غيرها . ومن الصعب بالمثل معرفة كيف أمكن التوصل إليه والحفاظ عليه . ولكن ما يمكن تقريره باطمئنان هو أن الاتفاق فى الديمقراطية عنصر من عناصر الإيديولوجية المسيطرة ، وفكرة هامة تربط المفاهيم الخاصة بكيفية عمل المجتمع المدنى معاً لحل المشكلات سلمياً وكيفية ازدهار الثقافة والتنوع الثقافى مع استمرار بقائهما مصونين بالمفاهيم الفضفاضة عن الحريات الفردية .

تعمل الديمقراطيات أيضا على استمرارية إيديولوجية الشعب المختار . وبينما

هناك مجتمعات أخرى – مثل تلك التى تسلك الطريق الروسى – تمر بمراحل يسوعية تمسها فيها روح الرب ، ومثل مجتمعات الهيمنة القبلية العرقية تمر عليها لحظات من عالم الرؤى تعاين فيها حضور الرب .. فإن فكرة الاتحاد مع الله ، وأن يكون المرء شخصا مختاراً ينتمى إلى الغرب ، له تاريخ يمتد بأصوله إلى الشرق الأدنى القديم ، هى من الأفكار المسيطرة فى الديمقراطيات ، وهى تشتق وجودها من الشرق الأوسط نفسه متمثلة فى فكرة « أهل الكتاب » . ولو قارنا بضعة أمثلة مختلفة من الكتابات عن الشخصية القومية فى الديمقراطيات البورجوازية ، فسيظهر لنا أن فكرة الاصطفاء هى واحدة من أكثر الأفكار ترسخا فى تلك البلاد . وهى تظهر فى بعض الأحيان كفكرة من أفكار العلم ، وفى أحيان أخرى كبشارة دينية . وهى تعبر عن نفسها أحيانا فى صورة الإيمان بتميز الغرب ، وأحيانا فى صورة الصهيونية ، وأحيانا فى صورة الاعتقاد الصريح بتفوق الجنس الأبيض . وقد يأتى التعبير عنها بصورة دينية فيعتقد الناس أنهم من طراز خاص لأن بينهم وبين الله ميثاقا ، بينما يعتقد العلمانيون أحيانا أنهم مختلفون ، ربما وببساطة لأنهم أكثر حداثة .

وقد يغلب على الظن أن فكرة الشعب المختار هى فكرة ذات جاذبية شاملة . وعلى الرغم من أن الأمر ليس على هذا النحو ، حتى فى الديمقراطيات . فمن الواضح أن هذه الفكرة يؤيدها أكثر من جمهور طبقة واحدة والأغلبية الظاهرة فى المجتمع العنصرى السائد تشب فى إطار الاتجاه إلى الاعتقاد بفكرة الشعب المختار ، أو تتحول إليها ، أو تتلاءم معها بصورة أو أخرى . وإيديولوجية الاتفاق العام تهيئ طريقة تجعل لهذا الواقع معنى .

وفى الشروط العملية يوفر مفهوم الاصطفاء تبريرا للفصل السائد بين أفراد الجنس السائد وأسرهم وأحيائهم وبين أفراد وأسر وأحياء الفئة العرقية الدنيا . وفى نفس الوقت يحرر هذا المفهوم الشخص الأبيض من المسئولية عما قد يكون أسلافه قد فعلوه بالعبيد أو الهنود ، أو فعلوه لنشر المسيحية والحضارة الانجلو سكونية . ويمكن أن نقرر الافتراض السائد على نطاق واسع على هذا النحو : إن الفئة العرقية الدنيا ليست من الشعب المختار . ربما كانوا من المسيحيين ، ولكن أسلافهم لم ينحدروا من الشرق الأوسط مثل أسلافنا . وبالتالى ، فإن ما يحدث لهم قد يكون فى الحقيقة من

قبيل سوء الحظ . ومثل هذه المآسى هى ببساطة أحداث مجردة وليس لها انعكاس على ثقافة المرء أو هويته . قد يفقد اليهود حياتهم على يد النازى ، أو يفقد الهنود أو الفلسطينيون أرضهم ، أو يصبح مواطنو الكومنولث ضحايا لممارسات يومية متعسفة من الشرطة .. ولكن كل هذا ليس إلا أحداثا بعيدة بشكل ما حتى لو كانت تقع فى الشارع المجاور لنا . ومن ناحية أخرى ، لن نعدم أن نجد العنوان الرئيسى فى صحيفة غربية يعرب عن قلق جموع مواطنى اليوم من تهديد محتمل تتعرض له إسرائيل زميلتنا فى الديمقراطية ، والتى قد تبعد عنا بمقدار نصف المحيط الذى يطوق الكرة الأرضية ، ولكنها أقرب إلينا ممن هم فى الشارع المجاور لنا .

وهكذا يعيش البريطانيون شعبا مختارا على أمجاد رجال ونساء من طراز جون بول وونستون تشرشل والسيدة الحديدية وسائر الرموز التى تشير إلى تفردهم ومنعتهم ، بينما الأميريكيون يفعلون نفس الشىء تقريبا مع أمجاد مبدأ مونرو « هم » وإعلان استقلال « هم » وفيالق سلام « هم » ورابطة « هم » الأمريكية .

إن الشعب المختار لا يعرف – من الناحية النظرية على الأقل – حدا يقف عنده . إنه قد يعيش فى دول قومية مثل الآخرين ، ولكن هذه الدول ليس لها حدود ثابتة ونهائية . فالبشر العاديون هم فقط الذين يعيشون فى دول ذات حدود ثابتة ونهائية . وفى حالة بريطانيا العظمى ظل مما يدعو إلى الفخر زمنا طويلا أن الشمس لا تغرب أبدا عن الإمبراطورية البريطانية . أما فى حالة الولايات المتحدة فالرب والطبيعة خلقا الحدود وحدهما . وكذا فإن حدود إسرائيل ما زالت أمرا غير محسوم .

بينما العنصرية هى – كما أوضحنا سابقا – شىء مشترك فى كل الهيمنات ، فإنها تتخذ أشكالا مختلفة فى الهيمنات المختلفة . وبينما تكون فى الطريق القبلى والطريق الروسى والطريق الإيطالى عنصرية « ثقافية » ، تصبح فى الديمقراطيات البورجوازية عنصرية « علمية » ، تتسم بالثبات ، فلا تتغير وليست شيئا مؤلفا ولا قابلا للتشكيل . ويرجع هذا الثبات – على الأقل فى العقل الشعبى – إلى ما يفترضه المجتمع البورجوازى من أن العلماء يمتلكون الحقيقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وعلى هذا النحو يستثمر العلماء فى الديمقراطيات أحيانا هذا الوهم ، فيقومون بأبحاث مريبة عن الأجناس ، وغالبا ما يفلتون بها ، لأن العلم لا يجوز أن يكون محلا للاستراب .

وبصورة عامة ، يمكن القول إن العلم يصبح فوق المساءلة إذا غاب نقاد الوضعية . ولكن إذا كان هناك مثل هؤلاء النقاد - الذين يمكن أن نجدهم فى ظل تقليد ميتافيزيقى مستقل فى إيطاليا أو روسيا أو تقليد فوضوى هدام كما فى زائير - فإن الوضعية وأفكارها عن الأجناس تصبح عندئذ جزءا مما هو واقع لا من الحقيقة نفسها .

بيد أن الديمقراطيات البورجوازية لسبب ما ، قد يكون النزعة الفردية أو النزعة الاستهلاكية أو نزعة الاستغراق فى الحاضر « الآنية » ... إلخ ، لا تعرف نقادا ذوى شأن للوضعية ، أما التقليد الرومانسى الميتافيزيقى فيسهم فى تعزيز الوضعية أكثر مما يتحداها . وعلى ذلك تصبح الديمقراطية البورجوازية هى الهيمنة الأكثر انفتاحا على العلم ، لا كبحث نقدى فحسب ، وإنما كعقيدة (دوجما) وساحة لها مقولاتها الثابتة أيضا ، وتؤول مناهضة العنصرية إلى القول بأن الجنس هو تصنيف زائف طالما المرء لا يستطيع أن يهاجم فكرة التصنيفات نفسها ، وإلى القول بأن الخلاسيين ليسوا مجنونين ، وأنهم أنفسهم ليسوا « خنة للأجناس » (جنسا خائنا) .

تكشف الديمقراطيات فى مسلكها فى العلاقات الدولية عن نماذج معينة من التفاعل يمكن التنبؤ بها . وذلك أمر جدير بالملاحظة ، ويستطيع المرء أن يقسم هذا الموضوع إلى العلاقات مع البلدان ، التى ليست ديمقراطيات والعلاقات مع بلدان الديمقراطيات . فبالنسبة للأولى سيقول البعض : إن هذه العلاقات تتسم بصورة متوقعة بالعنف والاستغلال ، وهو قول ينطوى بالتأكيد على حقيقة خصوصا فيما يتعلق بعلاقات الغرب مع العالم الثالث . ويبدو هنا مرة أخرى أن لفكرة إيديولوجية الشعب المختار أو السياسات المطالبة بالتطابق قيمة إيضاحية ، فإذا كان على المرء أن ينفذ مشيئة الرب ، فليس مُهمًا ما يفعله بأناس لا يعدون شعبا مختارا .

وفى مجال سياسات الهجرة يظهر واحد من النماذج المتوقعة فى تفاعل الديمقراطيات مع غيرها من البلدان . فحيث يحاول السياسيون فى بعض الطرق التاريخية الأخرى أن يحلوا مشكلاتهم بالخلاص من شعوبهم ، يحاول السياسيون فى الديمقراطيات أن يفعلوا نفس الشىء باستقدام عمالة رخيصة جديدة من خلال الهجرة ،

وغالبا من البلدان التى تقع خارج الديمقراطيات . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى أن المرء لا يمكنه الخلاص من شعب مختار . وأيا كان الأمر ، فإن النموذج الشائع هو أن يأتى الناس ليؤدوا عملا رخيصا من الهيمنات الأخرى ، فإذا استقروا خضعوا لتحول هائل فى الهوية وأصبحوا شعبا مختارا . ومرة أخرى ، وبما لا يدع مجالا الشك فى أن مصالح الرأسمالية مصونة ، فإن الايديولوجية الثقافية الأوسع للهيمنة هى التى تقرر لماذا ينبغى أن يحدث هذا للمهاجرين ؟ ولماذا نرى بعض المجموعات تذوب ببساطة (فى المجتمع الجديد) بمجرد وصولها ، بينما نرى مجموعات تجد صعوبة فى الذوبان أو لا يمكن ذوبانها واستيعابها فيه ؟

أما العلاقات بين البلدان الديمقراطية وبعضها البعض فلها روافدها الأخرى ونتائجها الأخرى التى تكون أحيانا بمثابة الكارثة . فبالنظر إلى مشاعر التضامن التى يستشعرها المختارون ، يعد الهجوم على إحدى الديمقراطيات ، خصوصا إذا جاء من قوة غير ديمقراطية ، هجوما على سائر الديمقراطيات ، وسرعان ما تتحول الحروب إلى حروب عالمية وتصبح روسيا أو اليابان أو العالم الثالث عدوا مشتركا ، وهتلر - الغريب القادم من بافاريا - سرق ألمانيا ، ولكن الغرب استعادها أخيرا . ومن النماذج التى ترد على الخاطر لهذا التضامن بين الديمقراطيات فى السنوات الأخيرة . مشروع مارشال ، وحلف الناتو ، ومساعدة إسرائيل ، والتعاطف مع البيض فى جنوب أفريقيا . ويبدو أنه يترتب على الالتزام بهذا الشكل من العلاقات الدولية أن الديمقراطيات غالبا ما توجد فى العالم كمجموعة فى واقع الأمر ، وهو ما يفضى إلى أن تصبح الدولة الديمقراطية قوة رهيبة .

وعلى الرغم من هذه القوة الظاهرة فى الديمقراطيات ، فإن مواطنيها عادة ما يتخذون موقف المهدَّدين بوجود الهيمنات الأخرى ، مستشعرين ضرورة القيام جماعيا بواجب « جعل العالم آمنا بالنسبة للديمقراطية » . وجعل العالم آمنا بالنسبة للديمقراطيات له تعبيراته المختلفة التى تتراوح بين الفشل فى فهم البلدان الأخرى أو فهم لغاتها ، وبين الاعتقاد بضرورة إعادة تشكيلها أو تدميرها . وفى موقع بين هذين الطرفين يأتى موقف التباهى العدوانى بمناقب الديمقراطيات . وقد تكون هناك شوائب فى الماضى مثل العبودية ، ولكن الشوائب انتهت جميعا الآن . وهذا الموقف يشكل

الأساس للنشاط التبشيرى والمعونة الأجنبية ، وحتى للتدخلات السياسية . وقد يكون من الحق أن المجتمع المدنى وسيادة القانون أكثر تطورا فى الديمقراطيات عما فى غيرها ، وأنهما – فى نظر الإيديولوجية الديمقراطية – مستقلان عن السياسة ولو من الناحية الرسمية على الأقل ، بيد أن المزيد من البحث التاريخى أظهر منذ جرامش فلا حقا أن المجتمع المدنى ليس حرا ولا مستقلا بذاته ولكنه بشىء من التبسيط بناء تخترقه الدولة على أساس منتظم لتأمين الخروج بنتائج مرغوبة . وهذه الحقيقة عن « التدخل الحكومى » تجعل قضية الحرية كملمح للديمقراطية أقل وضوحا ، وتجعل الديمقراطيات أقرب إلى الهيمنات الأخرى مما يظن عادة .

ولنا أن نتخيل حال أسرة تعيش فى بلد ديمقراطى تعتقد أن « بيت المرء هو قلعته » وأنها قررت ذات يوم أن تحدث تغيرا ملحوظا فى مظهر بيتها بإضافة حجرتين فى الخلف ، لأنها قررت أن تدعو بضعة أصدقاء للعيش معها لبعض الوقت عندما لا يكونون مرتبطين بعمل ، ولنفترض أن لدى هذه الأسرة أطفالا . إن مثل هذا القرار الذى تتخذه الأسرة سيجعل المصائب تنصب على رأسها من حيث لا تحتسب .. مثل النشطاء الاجتماعيين وأخصائى قانون تقسيم المناطق وأشباه هؤلاء .. والنتيجة أن الأسر التى تقع فى هذه الورطة يمكن أن تواجه ، إن لم تكن على قدر ملحوظ من اليسار ، الطرد أو حرمانها من الوصاية على أطفالها .. إلخ – إذن ، لماذا هذا الغضب من أجل الحرية ؟ ولماذا كل هذه الدعاوى التى لا تسندها أدلة قوية ؟ يبدو أن مظهر الحرية الذى تقدمه الديمقراطية يتفق مع المنطق القائل بأن أفراد الشعب المختار يجب أن يختاروا اختيارات حرة ، وحتى يفعلوا ذلك يجب بالتالى أن يكونوا أحرارا فى فعله ، ويجب ترتيبا على ذلك أن يعيشوا فى أكثر المجتمعات حرية . ويستغل الرأسماليون هذه الإيديولوجية بصورة تدعو إلى السخرية عندما يزعمون أن رعاية الحكومة للفقراء تحرمهم من فرصة تدبير أمور حياتهم بأنفسهم . ويبلغ من قوة هذا الإيمان بالحرية أن كثيرا من الفقراء يحرمون أنفسهم من المبالغ التى قد تقدمها إليهم الحكومة اعتقادا منهم بأنهم يجب أن يشقوا طريقهم بأنفسهم .

يتمثل جزء آخر من العلاقات الدولية فى المحافظة على تراتب (هيراركية) ثقافى عالمى من خلال مؤسسات مثل جائزة نوبل ، وبصورة أكثر ابتذالا من خلال نقد الكتب

والأفلام . ويعتقد مواطنو الديمقراطيات أن القدرة الإبداعية تعتمد على الحرية ، وأنهم إذا يتمتعون بأقصى قدر من الحرية ، فإنهم يتمتعون بأعلى قدرة إبداعية . وسواء كان ذلك صحيحا أو كان غير ذلك ، تعد الإنجازات الفردية ملمحاً واضحاً من ملامح الديمقراطيات . وكيفية تفسير ذلك ليست على هذا القدر من الوضوح ، فربما كان يرجع إلى أن الرأسمالية تستفيد من قلة عدد الدول التى تنتج فيها التكنولوجيا الجديدة . وهذا ، على أى حال ، يبدو موضوعا للتفكير والتقدير فهناك العديد من المراحل التى تجتازها المفهومات منذ تبزغ بوادرها حتى تتحول إلى أفكار ، ثم إلى تطبيقات ، ثم إلى منتجات فعلية . ولسوف تتشتت بالمرء السبل ويضيع منه وقت طويل قبل أن يتمكن من أن ينسب الفضل إلى أصحابه بدءا من الطبيب العراف بأعشابه ، إلى الصيدلية بأقراصها المستخلصة من هذه الأعشاب ، وهكذا ، فإن السياسة لابد أن تلعب دورها عندما نرى المئات من الأفراد فى الديمقراطيات البورجوازية يعرفون لدى جيرانها كمخترعين أو أصحاب إنجازات غير عادية ، بما يفوق كثيرا ما يحدث فى الطرق التاريخية الأخرى ، وكلها تقريبا بيضاء ، وقد يكون منح كيميائى إنجليزى جائزة هو ببساطة عمل من أعمال التكريم ، ولكن لن يكون الأمر على هذا النحو عند منح طبيب عراف - وهو نظيره - فى زائير جائزة ، ففى دولة قبلية عرقية ليس تكريما لأحد أن يتلقى جائزة ، والفردية لا يعلى من شأنها هناك على عكس ما يحدث فى ديمقراطية كإنجلترا .

وأخيرا ، فإن المواطنين فى الهيمنات الديمقراطية البورجوازية يشتركون فى نظرة معينة إلى التاريخ . ومما يدعو إلى الدهشة - بالنظر إلى مشاركتهم فى شئون الدولة - أنها نظرة لا مبالية . وتصر الحكومات البورجوازية على أن المواطن يجب أن يعرف تاريخ بلاده كما يعرف القانون . والتاريخ - فى الحقيقة - من أهم ما يشغل قادة التعليم فى بلاد الديمقراطيات . من قبيل المفارقة ، أنه على الرغم من هذا الانشغال على المستوى الرسمى ، يظل هناك اتجاه عميق نحو اللا تاريخية فى الثقافة ككل . وفى الظاهر تعمل الوضعية والفردية على إخراج أعداد هائلة من كتب التاريخ على يد مجموعة صغيرة من الأفراد ، ولكن النمط الشائع من الطلاب عادة ما يقولون : حيث إن التاريخ « يعنى شيئا ميتا ، فليذهب أدراج الرياح ، فلم تعد له أهمية » . وقد يكون هذا واحدا من أكثر الاستخدامات شيوعا لكلمة « التاريخ » . وفى السنوات

الأخيرة أبدت وسائل الإعلام الرسمية انزعاجها من أن الدراسات الاجتماعية قد استأصلت من أرضها التاريخ ، ومن أن الطلاب لم يعودوا يعرفون الأحداث فى سياقاها . وبالعودة مرة أخرى إلى أدب « الشخصية القومية » يجد المرء قطاعا عريضا من المتعلمين ينصرفون بسبب إيديولوجية الشعب المختار عن التاريخ إلى التراث ، أو يعودون إلى التاريخ لا من أجل الفهم فى أغلب الأحيان ، ولكن كنوع من الحنين إلى الماضى (نوستالجيا) .

وهذا الاتجاه القائم على الحنين المرضى والذى يدعى حاليا باسم « التاريخ العام » أصبح شائعا ، لدرجة أنه أصبح فى الحقيقة يهدد بأن يطوق العالم الصغير للطلاب والأساتذة المهتمين بالتاريخ كتخصص مهنى .

إن ما يعنيه الهروب من التاريخ الحقيقى فى أعماقه ، أو تفسير لماذا يوجد هذاالقدر من النوستالجيا (الحنين إلى الماضى) هو أمر جدير بالتأمل . وأكثر الفروض تماسكا هو ما ألمحنا إليه سابقا من أن إيديولوجية الشعب المختار لا تتغلب على نحو كامل على مشاعر الضيق أو الإثم التى تشعر بها الفئات الوسطى البيضاء المسيطرة تجاه العلاقات العرقية فى الماضى والحاضر ، وأن التركيز على التطابق من خلال التراث فى مقابل التاريخ هو ببساطة الطريق الأكثر مدعاة للراحة فى توجيه معنى الماضى . ومن ثم يجد المرء أن الديمقراطيات تعلم شبابها على المستوى القاعدى الحضارة الغربية أو التراث الغربى ، وأنها لا تركز بنفس القدر على معرفة التاريخ . وجهل الشباب هو نقد دارج . وهو جهل مبرر بمعنى من المعانى (٨) ، فالشخص المتعلم فى بلد ديمقراطى يشعر بالانتماء أكثر ما يشعر به إلى اليونان والعهد القديم ، وربما العصور الوسطى أو عصر النهضة ، ولكنه لا يشعر بمثل هذا الانتماء إلى الماضى التاريخى الأخير حتى وإن كان ماضى بلده هو ، وذلك على الرغم مما نعرفه من أن التاريخ الحديث غنى بكثير من قصص النضال والأمل من التاريخ القديم كما نعرفه .

وعودة إلى حالة المملكة المتحدة ، فإن ما يصدم أعين كثير من المعلقين ، على الرغم من ذلك هو سلطة الدولة فى مواجهة المجتمع المدنى والطبقات العاملة ، فمنذ ثمانينيات القرن الماضى فلاحقا ، استطاع السياسيون أن يعقدوا سلسلة من

التحالفات لم تثلم حدة الصراع بين العمال وأصحاب العمل فحسب ، ولكنها أعطت الدولة أيضا الحرية فى إقحام نفسها فى كثير من جوانب الحياة فى البلاد . وقد وصف ستوارت هال عالم الاجتماع البريطانى هذه الدولة بـ « الدولة التدخلية » . ولم تكن معارضة هذه الدولة بالأمر السهل ، فإن ما كان يحدث للفئة العرقية الدنيا فى أواخر القرن التاسع عشر أخذ يصبح « أمما منفصلة » مما يعنى أنها أصبحت بالضرورة خارج التاريخ الحديث الدارج للبلاد .

والصورة التاريخية الدارجة ، وأعنى بها كتابات المؤرخين الوضعيين والماركسيين عن الفترة الحديثة ، تقوم على أساس التاريخ الاقتصادى أكثر مما تقوم على أساس التاريخ السياسى والثقافى . ومثل هذه الأعمال تبدأ عادة بالثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر . وتركز هذه الكتابات فى حديثها عن الفترة ١٧٨٠ – ١٨٨٠ على النمو الاقتصادى أكثر مما تركز على أى شىء آخر ، ويتراجع السياسة والثقافة فيها إلى خلفية الصورة . ثم إن الصورة التاريخية الرومانسية تبدو أقل إقناعا ، فهى تعالج التاريخ الحديث كحاشية على التقليد الإصلاحى ، الذى نهض فى العصور الوسطى ، والذى أخذ يشق مجراه منذ ذلك الحين من عصر انتصار النورمنديين ، وعبر أحداث بواكير العصر الحديث ، إلى ثقافة العصر الفيكتورى . وبالنظر إلى هذه الثقافة بصورة أكثر نقدية ، تشير كثير من الدلائل إلى أنها عانت من تمزق فى سبعينيات وثمانينيات القرن الماضى ، حيث كان عليها أن تخدم احتياجات الهيمنة الثقافية للدولة الحديثة . لقد كانت كما أظهر ذلك ستوارت هال وآخرون مختلفة عما كانت عليه من قبل . وتحاول هذه الدراسة أن تعمل بمضامين اللوحة التى رسمها هال للحداثة فى المملكة المتحدة .

منذ أوائل القرن التاسع عشر شاركت النخب الزراعية والصناعية والتجارية فى أيرلندا وأسكتلندا وويلز وإنجلترا فى مملكة متحدة واحدة من خلال الزواج والاستثمارات والمشاركة فى مدينة لندن نفسها . وفى النصف الثانى من هذا القرن حدث اندماج ملموس بين هذه النخب . وقد جعل الاندماج فى القمة مصحوبا بتوسيع حق الانتخاب فى القاعدة من الصراع الطبقى إمكانية ذات شأن . ولكن المحافظين الأحرار ، حفاظا منهم على النظام القديم لـ « الأمة الواحدة » ، تخلوا تدريجيا عن سياساتهم القائمة على مبدأ « دعه يعمل » والتى تتلخص فى فكرة أن الدولة تعمل « كحارس » وأحلوا محلها بناء جديداً من السيطرة هو « الدولة التداخلية » . وفى

الفترة من ١٨٨٠ إلى ١٩٢٠ ، استنفدت الليبرالية التى سعت الدولة إلى حمل رايتها أغراضها ، وكانت هذه السنوات الأربعون هى الفترة التى بدأت فيها الدولة الحديثة ، وتلا ذلك فترة اندماجية اصطلحنا هنا على تسميتها بالجماعية (١٩٢٠ / ١٩٧٠) ثم مرحلة الليبرالية الجديدة من ١٩٧٠ إلى ١٩٩٠ .

نهوض الدولة الحديثة : عصر من الليبرالية
(١٨٨٠ - ١٩٢٠)

إن نسبة مصطلحات الليبرالية والحداثة إلى الفترة التالية لعام ١٨٨٠ ، هى فى الأساس نسبة سياسية (١٠) ، لأن الرأسمالية كانت قد أصبحت منذ فترة طويلة القوة المسيطرة اقتصاديا ، ولكن ما كان جديدا هو الروابط السياسية أو « تدخلات » الدولة . ودعنا نشير باختصار إلى السياق الاقتصادى قبل أن نتحول إلى السياسة ، فخلال هذه الفترة بدأت الصناعة البريطانية تواجه المنافسة على نطاق العالم ، ومع استمرارها فى التوسع أخذ توسعها يبطأ شيئا فشيئا ، وأخذ الرأسماليون يتراجعون بصورة متزايدة إلى الخدمات التجارية والمالية . ونتيجة لإعادة التوجه هذه اتسعت قوة عمل ذوى الياقات البيضاء وامتدادها فى الطبقة الوسطى الدنيا التى عملت فى الصناعة أو الحكومة . ورافق هذا التوسع اتساع نطاق المشاركة السياسية أيضا . ورافقه أيضا ظهور أنواع جديدة من الانقسامات فى الحزب الليبرالى المسيطر . وخرج عدد من المثقفين (ت . هـ . جرين وهو بسون وآل هاموند) على الإجماع الواسع الذى كان يؤيد الاقتصاديات الليبرالية القائمة على مبدأ « دعه يعمل » منادين بمبادئ الرعاية الاجتماعية . وفى النهاية أخذ حتى السياسيين يخرجون على هذا الإجماع . وخذ مثلا جوزيف تشامبرلين الذى كان عمدة لبرمنجهام ، فقد تخلى عن الاقتصاديات الليبرالية وطرح سياسات دولة الرعاية الاجتماعية ، وهى السياسات التى وصفها معاصروه ساخرين بأنها « اشتراكية الغاز والماء » (١١) .

وكان حل « المسألة الأيرلندية » قضية هامة تواجهها الهيمنة الجديدة ، أو هذا

على الأقل ما ادعاه السياسيون الليبراليون . وكان واضحا حتى بالنسبة لمغامرى تلك الفترة أن المسألة الأيرلندية فى السياسة الإنجليزية تحمل فى حشاياها عناصر خلخلة الهيمنة · سواء بتحدى التراتبية (الهيراركية) العرقية ، أو بطرح الاشتراكية أو بمعاداة الكولونيالية ، أو بالثلاثة معا . ولكن ذلك لم يحدث ، فقد عملت إيديولوجية « الأمة الواحدة » على دمج هذه الأمة بما سمح فى نهاية الأمر بسقوط الحقبة الليبرالية ، لتفتح الطريق لمرحلة جماعية من داخل نفس الهيمنة . وقد ربط التشريع التاريخى لقانون حكومة إيرلندا الصادر فى ١٩٢٠ ست مقاطعات إيرلندية شمالية مع بريطانيا ليصبحوا الأمة الواحدة . وهذا القانون الذى كان حلا وسطا بين حكم الوطن والاتحاد أبقى المملكة المتحدة سليمة لم تمس ، ولكنه أبقى أيضا قسما من السكان الأيرلنديين كفئة عرقية دنيا فى المملكة المتحدة .

كانت معالجة الدولة لسياسات النوع (الذكور والإناث) من المجالات الأخرى التى حققت فيها نجاحا نسبيا . وفى الوقت الذى كان فيه كثير من نساء الطبقة المتوسطة يتعاطفن مع النساء الفقيرات ، نجحت الدولة فى تقسيم النساء ضد بعضهن البعض ، وفى إثارة النزعة البيتية لدى الطبقة المتوسطة ضد احتياجات النساء العاملات . وقد استطاعت العمليات التى قامت بها الشرطة فى لندن فى ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى أن تكسر الاكتفاء الذاتى لنساء الطبقة العاملة اللاتى كن يعملن كفانيات ، وأن تفصلهن عن جيرانهن وأقاربهن . واتخذ الهجوم على البغاء صورة تسجيل البغايا وإجبارهن على الانتقال للإقامة فى أماكن منفصلة عن أماكن أسرهن . وباسم مكافحة الأمراض المعدية أو الحفاظ على الآداب العامة ، حققت الدولة فى هذه الحملة نجاحا لم تحقق مثله فى أى من معاركها السابقة . وكانت للمعركة نتائجهاالعديدة ، ومن أهمها أن الدولة أصبحت قادرة على فرض الأسرة النووية (التى تتمحور حول عائلها) باعتبارها الشكل الوحيد المقبول للأسرة . وقد أصبح الكثير من نساء الطبقة العاملة مضطرات للزواج أو البقاء متزوجات نظرا لأنهن لا يكسبن ما يكفيهن لإعالة أنفسهن [١٣] . وأصبح واضحا من نجاح هذه الحملة أن للدولة نوعا من القاعدة المساندة بين نساء الطبقة المتوسطة ، وبدا ذلك منطقيا على الأقل بمعايير ذلك الزمن ، فقد كان هؤلاء النسوة هن من يتعين عليهن أن يتصالحن مع مفهوم الأسرة النووية ، وربما أصبحن لذلك يمتعضن من النساء اللاتى لا يصنعن صنيعهن . وقد كان هؤلاء النسوة هن

أيضا اللاتى كسبن أخيرا جزءا هاما من إجراءات المساواة القانونية فى القانون البريطانى لملكية النساء المتزوجات الصادر فى ١٨٨٢ .

إن نجاح الهيمنة الليبرالية يتوقف فى النهاية على قدرتها على احتواء تحدى القوى العاملة لها . وقبل الحرب العالمية الأولى ، وقعت قيادة حزب العمال فى أيدى رجال نشأوا تحت جناح الحزب الليبرالى ، ولم يكن محتملا أن يشكلوا تحديا قويا جدا للحكومة . وبتعبير أكثر تحديدا ، كان التحدى العمالى ممكنا فى أمور تتعلق بالأجور وشروط العمل ، ولكنه لم ينتقل إلى ما قد تشترك فيه الطبقة العاملة مع القوميين الأيرلنديين . وحتى المثقفين العماليين ، الذين كانوا يتحدون الحكومة فى كثير من القضايا ، رأوا أن استمرار الكاثوليك الأيرلنديين المستوعبين جيدا فى إنجلترا فى مواصلة حياتهم دون مشكلات لا داعى لها يؤكد حكمة الأمر الواقع ، وذلك رغم ما كانوا يحملونه من وجهات نظر متشككة دينيا ومعادية للكاثوليكية . وكان من رأيهم أن أيرلندا الشمالية تحتاج ببساطة إلى ما دأب المحافظون دائما على الادعاء بأنها تحتاجه : مزيدا من التحديث ومراسيم بابوية أقل [١٢] . ولا يبدو أنه ظهر تفسير أعمق لدور الأيرلنديين فى الهيمنة البريطانية .

إن انكسار الهيمنة الليبرالية أو ما يطلق عليه « موت إنجلترا الليبرالية » يتحدى التفسيرات السهلة . ومن الواضح أن النكسات الخارجية كالتى وقعت في حرب البوير والتآكل النسبى فى المكانة الصناعية لبريطانيا إزاء منافسيها ، وأخيرا تكاليف الحرب العالمية .. كل هذه الأشياء لعبت دورا . بيد أن أكثر ما يهمنا هو الديناميات الداخلية ، حيث إن الخيارات الأساسية اتخذت هنا فى مواجهة المصاعب المختلفة التى واجهتها البلاد . ويبدو داخليا أن انكسارالليبرالية اتخذ صورة انجراف نحو الإدماجية . وبالتدريج ، وعلى مدى عشرين أو ثلاثين سنة ، أصبح حزب العمال جزءا من التحالف الحاكم ، وكان البشير بذلك برنامج الرعاية الاجتماعية للأعوام ١٩٠٦ - ١٩١٢ .

ومن المفاهيم الخاطئة الشائعة حول انكسار الليبرالية ونهوض الجماعية أن ذلك كان مشروعا يساريا . وليس ذلك المفهوم غير منطقى ، لأن الطبقة العاملة استفادت استفادة واضحة ، ولكن بمزيد من التدقيق نجد أن اليمين شأنه شأن اليسار ، كانت له يد فى الاتجاه نحو الجماعية . وفى الحقيقة نجد أن دعوة اليمين السياسى إلى حركة عمالية منظمة قد أعطت الطبقة الحاكمة أسبابا أكثر للاعتماد عليها . وقد اشتركت

الطبقتان فى اتجاهات متشابهة نحو القضية العرقية ، على الأقل انطلاقا من التأييد الذى منحته كلتاهما لحركات مثل رابطة الأخوة البريطانية التى تأسست عام ١٩٠٢ للحد من الهجرة (١٤) .

الفترة الجماعية : (١٩٢٠ - ١٩٧٠)

أعقبت الفترة الجماعية من ١٩٢٠ إلى ١٩٧٠ القرار الحاسم الذى اتخذته الطبقة الرأسمالية الإنجليزية بأن تصطف مع القوة العمالية ، وأن تحمى سوق البلاد وقاعدتها الصناعية . وأعقبت أيضا وبقدر مساوٍ القرار الحاسم للحركة العمالية بالتحول عن المجابهة إلى التعاون مع الدولة . وهو قرار صدر من اليمين واليسار على السواء داخل الحركة العمالية . وهو قرار يمكن القول : إنه اتخذ بالقصور الذاتى مع انقضاء التهديد بالإضراب العام والمشاركة النشطة فى المسألة الأيرلندية فى السنوات ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٦ (١٥) .

ومن هذا التحول فى استراتيجية كل من العمل ورأس المال ، نبت بالتدريج العقد الاجتماعى ودولة الرعاية الاجتماعية . ولا تقتصر العوامل التى أسهمت فى هذه النتيجة على مجرد رغبة الطبقة العاملة فى أن تتبع الدولة فى مجالى العرق والنوع (الذكورة والأنوثة) بل تشمل أيضا الاتجاهات الرأسمالية فى الطبقة العاملة . وهكذا ، فقد كشفت الدراسات الأخيرة عن الطبقة العاملة لا عن قدرتها النضالية فحسب ، ولكن أيضا عن اتجاهات « رأسماليى البنس » فيها للدخول فى المشروعات . ورأسماليو البنس هؤلاء هم ذلك القطاع من الطبقة العاملة الذى انخرط أفراداً وأسرا فى المشروعات الإنتاجية صغيرة الحجم . وقد أظهرت دراسة أخيرة أن مثل هذه الأسر جلبت إلى مجاوراتهم العمالية الكثير من نزعتها المحافظة (١٦) . كذلك كان ما يتعلق بالإمبراطورية مجالا آخر تشابكت فيه مصالح الدولة والطبقة العاملة . فقد شعرت الطبقة العاملة بما لا سبيل إلى إنكاره بأن لها مصلحة فى تقدم الإمبراطورية . بقيت نقطة أخيرة .. إذ يجب على المرء ليقبل مصطلح الجماعية الشائع أن يؤكد أنه لم يكن قط تحالف أنداد ، بل تحالف طبقات . وفى الهيمنات الأخرى ، وفى الحقيقة فى الديمقراطيات الأخرى مثل الولايات المتحدة ،

يجب أن يستخدم المرء كلمة الإدماجية ، لأن الدولة والطبقة الحاكمة من الناحية الفعلية قامتا بتمزيق الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة إلى شظايا فى سياق عملية التحالف معهما ، بينما لم تفعلا ذلك هنا أو لم تستطيعا أن تفعلاه .

فى سنة ١٩٢٥ ، نهضت القضية العرقية لتتحدى الجماعية ، فقد أجبر العمال البيض فى الموانىء ، مثل ليفربول ، الاتحاد الوطنى للبحارة على استبعاد السود من العمل كعمال أرصفة . ولما لم يكن السود من الكثرة بما يبرر ذلك الإجراء ولا كانت هذه بأى حال هى المحاولة الأولى للحد من هجرة العمال ، فقد كانت هذه هى النقطة التى تحول عندها السود بحثا عن الحماية إلى منظمات مثل رابطة هارولد مودى للملونين ، وهى منظمة أصبحت هامة فى السنة التالية .

وأخذ السود يحلون بالتدريج محل اليهود فى مكانتهم كمركز للفئة العرقية الدنيا فى المملكة المتحدة (١٧) ، وأخيرا ، وبنظرة هنا إلى فترة لاحقة ، فقد دفع التحدى الذى مثله سكان الكومنولث حكومة العمال فى ١٩٦٨ إلى إقرار قانون هجرة الكومنولث الذى يمنع دخول حملة جوازات السفر البريطانية / يمكن أن تقرأها « الملونين » / ، والمقصود أولئك الذين لم يولدوا فى المملكة المتحدة (١٨) . وعند هذه النقطة انتزع السود مرة وإلى الأبد مركز المسرح من الأيرلنديين فى السياسات العرقية البريطانية .

ولا يعنى هذا أن المسألة الأيرلندية قد انتهت ببساطة مع الجماعية أو مع وصول السود ليحتلوا موقع الأيرلنديين ، ولا هو يعنى بالطبع أن اليهود كفوا عن أن يكونوا « أمة يهودية » داخل المملكة المتحدة . لقد استمرت هذه الأشياء حية . وعلى الأقل بقيت المسألة الأيرلندية دون حل . واستمرت الإيديولوجية « الأورانجية » * فى ترسانة بلفاست البحرية تقسم العمال على نحو ما كان سابقا على أسس دينية وعرقية . وقد استفادت الطبقة العاملة البروتستنتية بوضوح من « الأورانجية » . وليس هؤلاء العمال كما تصور كثير من الكتاب مغفلين يخدعهم الرأسماليون البروتستنت ببساطة ، إذ لم يكونوا ليكسبوا شيئا من التضامن مع إخوانهم الكاثوليك ، لأن مجريات الأمور لم تكن

* نسبة إلى أعضاء الجماعات السياسية البروتستنتية فى ألستر (أيرلندا الشمالية) . المترجم

تحمل أملا لأى منهم . وهل تستطيع طبقة عاملة متحدة فى بلفاست أن تشق طريقها ضد بنيان سلطة أكبر ذات توجه ريفى فى أيرلندا الشمالية ؟ وهكذا ، فإن المسألة الايرلندية ظلت تثور دون أن تصل إلى ذروتها خلال فترة الجماعية فاقدة بالتدريج أهميتها مع تحول الفئة العرقية الدنيا فى البر الرئيسى ، لتصبح مؤلفة أكثر فأكثر من السود والآسيويين الجنوبيين .

وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية اقتصادية ، فسنجد أن تحالفات الحقبة الجماعية مالت إلى الربط بين الدولة والعمال الذكور من ناحية ، والدولة ونساء الطبقة المتوسطة من ناحية أخرى على حساب الفقراء عموما - ذكورا وإناثا - وخصوصا نساء الفئة العرقية الدنيا . لقد كانت هناك استثناءات من ذلك ، وكان هناك تغيير ، ولكن تلك كانت هى الصورة العامة . وإذا استوعب الصناعيون البريطانيون التايلورية بدأوا مثل نظرائهم الأمريكيين فى سنوات ما بين الحربين يجورون على وضع حلفائهم : العمال المهرة . وقد أتاحت ضرورات فترة الحرب فى الحربين العالميتين لأصحاب العمل مزايا إضافية . فخلال الحربين استخدموا النساء حيثما لم يكن هناك رجال . وقد وجدوا العاملات أرخص أجرا وأسلس قيادا ، لأنهن كن فى حاجة بائسة إلى الدخل . وكانت النساء من الطبقة العاملة معزولات سياسيا ، يفصلن إذا تزوجن أو التحقن بنقابة أو ظهر أنهن ملتحقات بنقابة ، ويفصلن إذا عارضن الاتفاقيات التى توصل إليها ممثلو النقابة باسمهن . وكانت نساء الطبقة المتوسطة قد كوفئن على إذعانهن للجماعية باكتساب حق التصويت ، كما لاحظت بحزن فرجينيا وولف فى رواية شهيرة عن الحرب العالمية الأولى [٢٠] . إن الخطوة الأولى فى المساواة بين الجنسين مازالت جنينا فى رحم المستقبل . ومازالت الدولة تستطيع أن تطمئن - على الأقل لهذه الفترة - إلى تحالفها مع نساء الطبقة المتوسطة .

لم تكن العوامل التى أسهمت فى انهيار الجماعية جديدة ، بل إنها قائمة هناك منذ البداية ، إذ كانت الجماعية بالنسبة للرأسماليين تشكيلا ترجو من ورائه جنى الفوائد ، فلما لم يعد يفى بهذا الغرض انسحبوا من التحالف مع العمل ، وحاولوا أن يعودوا لفرض الليبرالية الكلاسيكية ، أما بالنسبة للعمال ، فقد سدت الجماعية حاجات معينة كانت مهملة مثل تأمين الحياة والرعاية الاجتماعية ، وعندما تم الوفاء بهذه

الحاجات اكتشف كثير من أعضاء حزب العمال أنهم يريدون أكثر مما يستطيع الحزب أن يقدمه سواء فى مجالات السلام ، أو نظافة البيئة ، أو تحسين حالة الضواحى ، فانسحبوا من الحزب بعد أن فقدوا اهتمامهم بالتحالف الجماعى .

إن قوة العمال كانت متناسبة مع مستوى النضال الذى كانوا مهيئين لخوضه . وإذ قبلوا مبدأ الجماعية أصبح حجم ما لديهم من قدرة على تسيير الأمور متناسبا مع درجة سعى الرأسماليين لتكوين الأموال من خلال السلع المصنعة المنتجة فى بريطانيا . ومن الواضح أن سياسة الدولة كانت تفضل فى مستهل الفترة الجماعية مصالح رجال الأعمال على مصالح رجال الزراعة ، ثم انتقلت الأولوية بعد جيل من ذلك إلى الرأسمالية المالية .

فى عام ١٩١٩ ، رفعت الحكومة الضريبة على التركات ، وكانت تلك ضربة جديدة ثقيلة للعقارات الزراعية فى إنجلترا التى كانت تقليديا تنتقل من جيل إلى تاليه بالوراثة . وإذ أصبحت وراثة الأرض أكثر تكلفة فقد عجل هذا الاتجاه نحو تفتيت الملكيات الزراعية ، ومن ثم الاتجاه نحو تملك الأرض عن غير طريق الوراثة ، وهو اتجاه شمل نحو مليون اكر (مليون فدان) من الأرض الزراعية فى بريطانيا . وفى رأى مؤلف متأخر أن العشرينيات الأولى من هذا القرن ، أى مستهل الفترة الجماعية ، شهدت تدمير طبقة ملاك الأراضى التقليديين ، وإيجاد طبقة جديدة من اليوامنة (صغار ملاك الأرض) (٢١) .

وبينما استطاعت قلة من الأسر الريفية الثرية العريقة أن تصمد جيلا آخر ، فإن معظم هذه الأسر استسلمت لهذا التطور . ولم تكن ضريبة التركات فى العشرينيات هى كل ما واجهته هذه الأسر ، بل واجهت أيضا مشكلة فى إدارة بيوتها ، إذ شهدت هذه الفترة أزمة عامة فى الخدم ، ونهاية فعلية لفئة مديرات المنازل والمربيات البريطانية . ومرة أخرى ، لم تكن سياسة الدولة بعيدة عن ذلك ، فقد أنهت الدولة فى العشرينيات قانون الفقراء وأحلت محله قوانين للإسكان العام وتقرير معاشات للأرامل واليتامى . وبدأ الفقراء يجدون لديهم خيارا آخر سوى الخدمة فى العزب الريفية (٢٢) . وبالإضافة إلى السياسات الموجهة ضد النخبة الزراعية ، والتى أفادت الصناعة بصورة غير مباشرة يستطيع المرء أن يحدد سياسات أخرى استهدفت بوضوح فائدة الصناعة . وخذ على

سبيل المثال سياسات الدولة تجاه « الراديكالية » العمالية . فقد كان رجال الصناعة يرون فى الراديكالية العمالية تهديدا لمصالحهم . ونظرا لوجود حزب العمال فى التحالف الحاكم ، فقد استطاعت الدولة أن تنخرط فى قمع عنيف للعمال الأكثر راديكالية فى السنوات الأولى من الجماعية (١٩١٨ – ١٩٢١) مطالبة المسئولين من حزب العمال فى التحالف بالمشاركة فى سياساتها . وقد نجحت فى ذلك .. فعندما أصبح تورط هؤلاء المسئولين من حزب العمال واضحا كان قد حدث إفساد كبير للطبقة العاملة . ولنضع الأمر بصورة أخرى : كان قد حدث توازن جديد .. توازن سوف يستمر جيلا آخر .

وعندما نصل إلى نهاية الستينيات متحولين الآن إلى نهاية الحقبة ، نجد أن القطاع الصناعى قد أصبح قطاعا ضعيفا ، وأصبح بصورة متزايدة غير قادر على المنافسة . وعليه فإن الدولة بدأت فى تلك الفترة فى التخلى عن الصناعة التى أصبحت عاجزة عن التحليق ، وعاد الآن قطاع المال ليصبح مصدر الأرباح العظيمة ، وأصبح من الضرورى من وجهة نظر مختلف الماليين أن تبيع الدولة الصناعات التى تملكها ، وأن تكف عن دعم الصناعات الباقية من أجل مصلحة قطاع المال ، وتمديد هذا الدعم إلى القطاع الأوسع ، قطاع الخدمات ، ليبلغ كامل قدراته . كان يجب تحرير رأس المال لجنى أكبر عائدات ممكنة ، ولكن جنى أكبر عائدات ممكنة لم يعد ممكنا فى المملكة المتحدة . وهكذا ، ظهرت فى أواخر الستينيات من هذا القرن الحاجة لا إلى تغيير الاستراتيجيات الاقتصادية وحدها ، وإنما تغيير الاستراتيجيات السياسة أيضا .

نهوض الليبرالية الجديدة
من ١٩٧٠ إلى الآن

تعددت المصطلحات التى أطلقها مختلف الكتاب على السنوات العشرين الأخيرة ما بين الليبرالية الجديدة وسنوات الليبرالية والليبراليين والتاتشرية . وأيا كان ما نطلقه عليها ، فقد مثلت قطيعة مع سياسات الجماعية . أما كيف نشأت هذه الفترة ؟ وما الذى

جعل الصناعات البريطانية غير مربحة على هذا النحو ؟ .. فسؤالان يبدو أنهما متداخلان . وأحد الأسباب الواضحة فى معرض الرد على السؤال الثانى يتمثل فى حدة المنافسة الدولية بعد نهوض ألمانيا وشرق آسيا . ولكن على الصعيد الداخلى كان الصراع الطبقى يتخذ أشكالا جديدة أكثر تعقيدا . وهذا بدوره أنتج بالطبع ردود أفعال من جانب الرأسماليين ، فحاول بعضهم بسط سيطرتهم على العمال بزيادة حجم الموظفين الإداريين ليُفاجأوا بأن ربحية أعمالهم قد انخفضت مع زيادة عدد الإداريين ، وحاول آخرون أن يستخدموا إيديولوجية الحرب الباردة كشكل من أشكال السيطرة الاجتماعية ، ليكتشفوا أن هذا المنهج ليس فعالا جداً فى حالة بريطانيا . وأخيرا ، تصدى بعض الرأسماليين لمشكلة هبوط الصناعة البريطانية بمحاولة تجربة حظهم فى العالم الثالث ، ولكن لم يكن عليهم جميعا أن يذهبوا إلى هذا المدى ، لأن فئات هامة من الطبقة العاملة أخذت تتحول أكثر فأكثر إلى طبقة متوسطة ، وأصبح هؤلاء يعملون أيضا ، كما أشرنا آنفا لهجر حزب العمال . وقد أخذ هذا القسم باستراتيجيات طبقة المحافظين الجديدة الحاكمة التى ظهرت لتعزيز العودة إلى رأسمالية « دعه يعمل » فى الوقت الذى انهارت فيه الحقبة الجماعية .

ومع دخول السبعينيات أصبح واضحا أن الصراع الطبقى يتحول بصورة متزايدة ليدور حول قضايا الطبقة المتوسطة . وأصبح التهديد بالإضراب أكثر فأكثر وسيلة لإنهاء السيطرة على الرأى العام . ففى الحقيقة تحول الصراع بين الحاكمين والمحكومين إلى صراع للسيطرة على الرأى العام . وقد أشار معلقون عديدون إلى أن دور وسائل الإعلام ازداد أهمية بدءا من هذه الفترة ، وإلى أن تاتشر والمحافظين الجدد الآخرين ، الذين ظهروا فى الساحة كانوا شخصيات إعلامية متميزة ، ولم يكونوا معزولين عن المجتمع مثلما كان المحافظون القدماء بسبب ما كانوا يتلقونه من تعليم متميز وتنشئة خاصة . وهكذا استطاع المحافظون الجدد أن يتباهوا بشخصياتهم العادية . وبالنظر إلى ماهم عليه يمكن القول من الناحية الاجتماعية : إن منظرهم وهم يعبرون عن ثقتهم فى مستقبل البلاد ، هزّ وترا عميقا فى أفئدة الطبقة المتوسطة البريطانية .. أعط صوتك للعمال فستجد نفسك عائدا على الطريق من حيث بدأت .. من تفضل لحماية نفسك من أخطار الإرهاب والعمالة الأجنبية والجريمة فى الشوارع والغش فى الرعاية الاجتماعية ... إلخ .. العمال أم المحافظين ؟ وأخذ حزب العمال

يزداد ضعفا بعد ضعف بانشقاق أنصاره بين ذوى الياقات الزرقاء وذوى الياقات البيضاء ، وبدأ يشارك على غير إرادة منه فى الصورة التى قدمتها تاتشر عنه كحزب ينتمى إلى الماضى (٢٤) .

ومهما يكن سعى حزب العمال لايجاد قاعدة له بين صفوف الطبقة المتوسطة الجديدة مقبولا من الناحية الظاهرية ، فقد عمل على إضعاف روابطه بالطبقة العاملة وفتح الباب أمام ارتداد الناخبين عنه . بيد أن هذا الاتجاه كان لا مناص منه تقريبا ، فمع تحرك ناخبى الطبقة العاملة إلى الضواحى نشأت قضايا جديدة قسمت صفوف مؤيدى الحزب . إذ أصبح ساكنوا الضواحى مهمومين بالقضايا العرقية وقضايا الجريمة بصورة تختلف عما كانت عليه الطبقة العاملة الحضرية القديمة . وبالنسبة لساكنى الضواحى ، لم تعد الرعاية الاجتماعية شيئا يتعين عليهم أن يؤيدوه بمثل الحماس السابق . أما فى المدينة فكان الواقع مختلفا عما كان عليه فى جيل سابق ، فهناك كان جيل جديد من شباب الطبقة العاملة ينهض قاطعا على غير هدى كل صلة له بالأحزاب الرئيسية ، ويستطيع المرء أن يقدر أن الانشقاقات فى صفوف الطبقة العاملة قد تعمقت ، وأنها كبدت حزب العمال خسائر فى الأصوات ، إن لم يكن لصالح المحافظين ، فلصالح الجبهة الوطنية ذات التوجه الفاشى ، التى نشطت واكتسبت ولاء كثير من هذا الجيل الجديد . وأصبح مصير حزب العمال مثل مصير نظيره فى الولايات المتحدة .. الحزب الديمقراطى : أن يكون الخاسر الدائم على المستوى الوطنى ومع هزيمة عمال المناجم فى إضرابهم الكبير فى ١٩٨٤ - ١٩٨٥ ، لم يعد واضحا لماذا يتعين على عامل المناجم أن يعطى صوته لحزب العمال ؟

ولكن يبقى أن نسأل : لماذا يتعين على أى واحد أن يعطى صوته للمحافظين ؟ من الواضح أن الحكم فى المملكة المتحدة من هذه الفترة فلاحقا ، كان يعنى التمكن من فن إدارة الأزمات ، فن تقديم الوضع باعتباره أزمة وأن الحزب الحاكم الحالى شىء لا غنى عنه لحل الأزمة . والمهم فى هذا الصدد ليس التحول من الناحية الواقعية إلى نظام الحزب الواحد ، بل الطريقة التى نجح بها السياسيون من قادة المحافظين فى إبعاد السياسة عن القضايا التى لا تُحل إلى القضايا التى يمكن معالجتها فى الواقع من خلال إدارة الأزمات ، وهكذا استطاع السياسيون بالتهويل من شأن جريمة

الشوارع والإرهاب الخارجي أن يحولوا مجرى الخطاب من الحديث عن مستقبل البلاد الأكثر إشكالية والأطول مدى إلى الحديث عن نجاحات في المعارك الصغيرة في الحاضر ، إن أي حكومة تستطيع بأدنى قدر من الحظ أن تدير أزمة مثل أزمة الشباب الهائمين على وجوههم في الشوارع ، وأن تدعي في هذا الشأن نجاحا إثر نجاح . وكما حدث في أواخر القرن التاسع عشر أدت إدارة الأزمات في سبعينيات هذا القرن بسهولة إلى سياسات مساندة للشرطة والجيش ، وإلى صورة جديدة من الدولة التدخلية القديمة يزداد على الدوام طابعها كدولة حارسة .

لقد ارتكزت سياسات التاتشرية بشدة على اللعب على حساسيات الطبقة المتوسطة . فهنا كانت طبقة متأثرة تأثرا بالغا بصورة بريطانيا في القرن التاسع عشر . لقد كانت بريطانيا ذات يوم تحكم الأمواج ، ولم يكن من السهل تحديها . ولكن الأمور آنذاك كانت مختلفة . ولا يستطيع محافظو اليوم أن يدعوا أنهم ورثة هذا التقليد . والصورة الأخيرة جدا من نزعة حزب المحافظين لا تحمل إلا شبها ضئيلا بتلك الصورة الأقدم عهدا ، فعلاقاتها بالعالم الثالث تحمل أثر التدخلية البراجماتية الخالصة . خذ مثلا جزر فوكلاند أو حرب مالفينا (٢٥) . إن دزرائيلي كان يستطيع أن يستحضر ألف سنة من السوابق التاريخية ، ولكن المحافظين القدماء والمحافظين الجدد مختلفون جداً حقيقة . فقد كان الماليون آنذاك يسعون على نقيض ماليي اليوم إلى الاقتران بالنخبة الصناعية أو أرستقراطية ملاك الأراضي . وإلى أن يضربوا بجذورهم في الطبقة الحاكمة « الحقيقية » ، وقد أضفى هذا على السياسة الخارجية البريطانية ثباتا معينا من خلال توغلها بجذورها في عمق التاريخ والتقاليد ، وذلك على النقيض من بريطانيا المعاصرة ، حيث فقدت تلك الأشياء إغراءها وأصبحت – على الأقل بالنسبة للنقاد – شيئا مزيفا .

ولكن يبقى أنه من حيث المهارة في معالجة دواعي القلق بشأن الطبقات والأجناس والنوع في عصر مخيف ، أبدى المحافظون الجدد مستوى من المهارة يصمد للمقارنة مع الفيكتوريين في اللعب بأحد التناقضات ضد الآخر . فكما كان في القرن الماضي ، كذلك اليوم يجد المرء لا العنف والقمع فقط من جانب الدولة ، بل يجد أيضا إلى جانب ذلك تربية ماهرة لقلة من السود وقلة من النساء ، حتى إن المحافظين ليساعدون بعضهم

وبعضهن ليُنتخبوا ويُنتخبن فى البرلمان . وقد ظهر واحد من الأمثلة الأخيرة لهذه الصورة من تربية الليبرالية الجديدة لشخصيات مختارة من الفئة الدنيا فى قرار تاتشر بحماية حياة سلمان رشدى على نفقة الدولة ، إن وضع رشدى اليوم لا يمكن أن يخطر لأبناء جنوب آسيا فى بريطانيا إلا فى الأحلام .

وثمة أمثلة أيضا فيما يتعلق بالنوع يمكن إيرادها لتظهر كيف أن سياسات الليبراليين يمكن أن يكون لها تأثير « يصب فى النهاية » لمصلحة المحافظين في الانتخابات . ففى ظل تاتشر اكتسبت النساء البريطانيات سنة ١٩٨٣ الحق فى إكساب أطفالهن جنسيتهن دون نظر إلى جنسية أزواجهن . وقد استغلت وسائل الإعلام هذه الحقيقة إلى أقصى حد . وفيما سبق ، وقبل عام ١٩٤٨ ، كانت النساء أقل حرية ولكنهن كن أيضا أقل فقرا بكثير . وفى تلك الأيام كانت جنسية النساء تتبع جنسية أزواجهن ببساطة . وفى سنة ١٩٤٨ ، اكتسبت النساء الحق فى الاحتفاظ بجنسيتهن البريطانية ، ولكن الزواج الذى ينتج عنه أطفال من أجنبى ظل فى حاجة إلى الاعتراف الموثق . وفى عام ١٩٨٣ ، حاولت تاتشر باختصار أن تستغل هذا التناقض وتحول مزيدا من النساء ، خصوصا من فئة سيدات الأعمال الجديدة ، إلى ناخبات يدلين بأصواتهن للمحافظين .

وفى الوقت نفسه وجدت هى ومن حولها سبيلا ليضعوا أنفسهم كحملة لتقاليد البيورتيان والقادة من أمثال أوليفر كرومويل ، مصرين بفعلهم ذاك على أنهم هم حملة القيم الإنجليزية الحقيقية . وإذا حكمنا بالنتائج ، فقد جعل نظام تاتشر من المزيج الغريب من البيوريتانية والليبرالية شيئا يمكن تصديقه نوعا ما . فهى – أى تاتشر – جزء من تقليد الشعب المختار ، بقدر ما هى واحدة من الأحرار كأى شخص آخر ، وعلى نحو متعاقب استطاعت أن تستغل صفات القهر الشمولية لكرومويل ، ثم استطاعت بنفس السهولة أن تجسد الصفات التى دعا إليها منتقدوه بالتعويل على الصفات البراجماتية الفردية أو التسامحية لمناهضى الكرومويلية . وخصومتها هى مع اليساريين البريطانيين الذين تدعى أن جماعيتهم تجعلهم عاجزين عن فهم المسئولية الأخلاقية الشخصية . ومن هنا يأتى إخفاقهم فى تقدير فساد دولة الرعاية الاجتماعية . وباختصار ، استطاعت تاتشر أن تحيى العادات الأقدم للفكر البريطانى

التى تميل إلى الهبوط بالقضايا الاجتماعية العريضة مثل : فقر الجماهير إلى مجرد مسائل خلقية ، ينظر إليها ويصدر الرأى فيها من زاوية المزايا التى يتمتع بها أو يفتقر إليها الأفراد (٢٦) .

ومن الصعب أن تبدو لنا التاتشرية ذات حجة دامغة ، إذ يبدو معقولا أن نتصور أنه حتى التاتشريين وأنصار ميجور اليوم يتساءلون الآن عما سيحدث عندما تنضم بريطانيا إلى المجموعة الاقتصادية الأوربية كمشارك ضعيف تماما ؟ وكيف سيبقون دون عائدات بترول بحر الشمال ؟

فهل هناك من يتحدون التاتشرية فى الواقع البريطانى الحديث ممن يدركون ما يلوح لهم من فرص ؟ هنا يأتى المرء إلى بعض النتائج المحبطة : فليست هناك حركة بريطانية تواجه قضية الفئة العرقية شبه المغلقة ، أو تقيم بصورة عميقة قدرة الدولة على استخلاص ولاء رعاياها ، وما ذلك إلا بسبب اشتراكهم جميعا فى إيديولوجية الشعب المختار . لقد كان التعاطف مع الأيرلنديين كعمال مضطهدين شعورا فى وجدان الطبقة العاملة البريطانية قبل الحرب العالمية الأولى ، ولكن فكرة التحالف مع الحركة القومية الأيرلندية كانت شيئا خارج نطاق إدراكهم . إن معظم حركات المعارضة فى الأوقات الحديثة جاءت من داخل الطبقة العاملة أو الطبقة المتوسطة ، وتعكس اهتمامات طبقية وعرقية ضيقة تماما . والمثل الأبرز لهذه الحركات هو الحزب الشيوعى البريطانى .

ولكن كانت هناك من وقت لآخر استثناءات أو استثناءات جزئية من هذه النقطة العامة ، فقد ظهرت مجموعات بذلت جهودا لتوحيد الجماهير المختلفة معا ؛ وعلى سبيل المثال : الحملة ذات النزعة اليسارية من أجل نزع الأسلحة النووية فى السنوات الأخيرة ، وقد يكون إلقاء نظرة مقتضبة على هذه الحركة طريقة ملائمة لاختتام هذا الجزء من حديثنا .

حاولت استراتيجية الحملة من أجل نزع الأسلحة النووية أن تدعى لنفسها أرضية لا يستطيع المحافظون أن يدعوها . وبتأثير الفكر الاستراتيجى للمؤرخ أ . ب . طومسون وعالم الاجتماع ستيوارث ، هل حاولت الحركة أن تدعى لنفسها تقاليد الكنيسة السمحة التى كان يعتنقها المحافظون الكلاسيكيون ، وهى منطقة لا يستطيع

المحافظون الجدد أن يدخلوها ، فإنهم إذا أسرفوا فى إظهار مدخلهم البيوريتانى إلى إنجليزيتهم سيفقدون مؤيديهم الليبراليين والعكس بالعكس ، إنهم يستطيعون الاحتفاظ بكلا الفريقين من الجماهير فقط عن طريق تدليس الخلاف بين الموقفين - الليبرالى والبيوريتانى - على الجماهير ، إذن فكيف يكافح المحافظون الحملة من أجل نزع السلاح النووى ؟ وهل ستدفع الحملة المحافظين إلى السماح بتكون فاشية لها طابع الجبهة الوطنية ؟ حتى الآن يبدو أن المحافظين يأملون فى إبقاء الحملة من أجل نزع الأسلحة النووية منشقة . ثم إن الحملة بعد كل شىء ليست هى ما يمثل الثورى الحقيقى فى بريطانيا تاتشر ، ولاهى التى ستحرر الجماهير من الدولة (٢٩) . ومن الواضح أن الحملة من أجل نزع الأسلحة النووية مازالت لها حتى الآن ، وبأى اعتبار ، حدودها التى تقف عندها ، وانقساماتها التى تمزقها .

تنظيم الثقافة فى المملكة المتحدة
(١٨٨٠ - ١٩٩٠)

منذ القرن التاسع عشر ، سعت الدولة الإنجليزية إلى تنظيم السياسة الثقافية ، وتنفيذ مشروعات للإقناع تكون مفيدة فى الحفاظ على هيمنتها . وكان من أهم الاستراتيجيات التى أخذت بها الدولة فى مجال الثقافة احتكارها لفكرة « الإنجليزية » ، أو تحديد الصورة المقبولة للإنجليزية : فأن تكون إنجليزيا يعنى أن تكون مقبولا ، وألا تكون إنجليزيا يعنى أن تكون مستبعدا . وبفحص فكرة « الإنجليزية » فى بعض تفصيلاتها يصبح المفهوم المجرد للشعب المختار أكثر تحديدا . وسوف نختتم هذا القسم من الفصل بتعليقات على زيادة أهمية الإعلام الجماهيرى وعلى وضع التعليم العالى الذى يعد إشكاليا إلى حد ما .

إن تحديد أبعاد استخدام كلمة محورية مثل « الإنجليزية » يمثل مشروعاً هاماً . وكان على كبار مثقفى الدولة أن يعيدوا صياغة ما يعنيه هذا المصطلح فى كل فترة من الفترات الثلاث ، محل بحثنا . نظرا إلى تغير مصالح الطبقة الحاكمة ، وكان عليهم

أن يكبتوا مما يعنيه هذا المصطلح أجزاء حقيقية ولكنها ليست مفيدة ، وذلك من أجل استبعاد الفئة العرقية الدنيا . كما كان عليهم أن يبالغوا في إبراز أجزاء من « الإنجليزية » ، ربما لم تكن عميقة الجذور فى الثقافة البريطانية فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت مفيدة للنظام ، كأن تربطها إقليميا بجنوب شرق إنجلترا . وفى الفترة ما بين ١٨٨٠ - ١٩٢٠ التى كانت جذور الدولة فيها تمتد فى تحالف من الصناعيين ، ومصرفيى لندن ، وأرستقراطية الأراضى ، قدم المثقفون « الإنجليزية » فى إطار إثنى . وفى الفترة ما بين ١٩٢٠ - ١٩٧٠ قدمت فكرة ذات مضمون اجتماعى عام للإنجليزية لتواكب استراتيجية الجماعية . وفى الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٩٠ عاد تعريف الإنجليزية مرة أخرى ليدور لطريقة أكثر محدودية حول البيوريتانية والليبرالية .

وحتى نتناول الأمر بتفصيل أكثر ؛ فإن الإنجليزية كانت - فى القرن التاسع عشر - تمثل ما يمكن أن تتفق عليه البلوتوقراطية الحاكمة فى مواجهة القضايا التى تقسم صفوفها ، ولنذكر بعض هذه القضايا مثل : أيرلندا ، والإمبراطورية ، وتزايد أهمية لندن ، وسياسات التوسع فى التعليم ليصل إلى الجماهير ، والهبوط التدريجى فى الاقتصاد . وبنظرة من قريب إلى تفاصيل فكرة « الإنجليزية » فى تلك الفترة ينكشف لنا أن أمكن الاتفاق عليه كان جغرافيا ، إذ أكدت الإنجليزية على المنطقة الأكثر نفوذا من الناحية السياسية فى البلاد ، أى ريف جنوب شرقى البلاد . وهذا التحديد للموقع هو ما أعطى « الإنجليزية » فى تلك الفترة نكهتها العرقية . ثم زادت هذه العرقية قوة بالأهمية التى أضيفت على النثر السائد . وكان التمكن من هذا النثر ممكنا من خلال المدارس العامة ، وهى المدارس التى كانت مفتوحة لنوع معين من الرجال الإنجليز . ويتضح هذا المفهوم اللغوى العرقى للإنجليزية أكثر عندما يتحول المرء إلى الشعر ، فشعراء هذه الفترة - وحتى المشاهير منهم - يبدون كغرباء عن الفكرة السائدة للإنجليزية . وربما نتيجة لهذا ، أصبح بعضهم بشكل صريح متمردين وفوضويين ورمزيين ... إلخ (٣٠) .

يرى مفهوم الإنجليزية أن الكاتب الحديث هو نتاج الربع الأخير من القرن التاسع عشر . إنها محاولة واعية لاستيعاب ما هو إنجليزى فى قالب معين ، وإزاحة ما هو أيرلندى أو غير إنجليزى إلى خارج هذا القالب بصورة عامة (٣١) .

تعاونت كنيسة إنجلترا وجامعاتها معا ، فكان من الملامح المحددة التى برزت ، التفضيل الملحوظ للصوت الفعال ، وللصوت الرجالى ، وللقواعد المقررة في الأدب . وهذه هى الفترة التى أخرجت الأداة المرجعية الهامة .. « قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية » لخدمة كل من المؤرخ والحكَم اللغوى . وهى أخيرا الفترة التى شهدت نمو دراسة فلكلور السلّت إلى جانب دراسات المستعمرات بالطبع ، التى عدت ثقافة متدنية وجدت ووضعت إلى جانب الثقافة العالية للإنجليزية ، والدهاء هنا واضح أيضا .. فالمرء يجد الاهتمام التقليدى للمحافظين بالتوسع فى المفاهيم ظاهرا فى التوسع الحصيف فى تأويل ما يندرج ضمن الأدب الإنجليزى ؛ ليشمل هذا الأخير قلة من الأعمال لأنها ببساطة محبوبة عند المجتمع كله ، مثل بيتر بان . من الغريب أن الكلاسيكيات التى كانت محل اهتمام الأرستقراطية القديمة لم تدخل الفترة الحديثة إلا لتضمحل ، لأنها لم تكن ضمن أدب هذه الفترة .

إن " الإنجليزية " كشكل ذى توجه عرقى من أشكال الهيمنة كانت بالتأكيد هشة أمام هجمات الأجانب ، وهو ما سنشرع فى بيانه تدريجيا ؛ فالأمر الذى ليس معروفا جيدا هو أن كبار الكتاب الإنجليز كانوا يشعرون بهشاشتهم حتى فى دوائرهم الخاصة. وهو ما يعكسه الإصرار فى بعض المستويات الرسمية على ألا يكون " معجم الإنجليزية الجديد " New English Dictionary لجيمس موراى مجرد تسجيل للتطورات اللغوية فحسب ، وإنما أيضا حكما فى هذه التطورات . وقد كان موراى محرر المعجم وهو اسكتلندى وخارج على الكنيسة الإنجليكانية ، يتصور مشروعه كمجرد تسجيل للاستخدامات اللغوية ، ولكنه عندما التمس مساندة أكسفورد واتصل ببنجامين جوويت عميد كلية باليول ، وجد الأخير مصرا على عدم الاقتصار على تسجيل اللغة ، وعلى أن يكون المعجم أيضا حكما على الاستخدام الجيد لها . وهكذا ظهر معجم " أكسفورد للإنجليزية " The Dxford English dictionary وهو نصب تذكارى لتاريخ لغة الأحرار منذ عام ١١٥٠ فصاعدا .

أما الهجوم الأكبر على الإنجليزية ، فلا شك أنه جاء من أولئك الذين ليست لهم جذور ضاربة فيها . وقد عطل الكتاب الطليعيون الأيرلنديون محاولات تأسيس تقاليدية إنجليزية ؛ وكانت لجويس على سبيل المثال قطيعة مع استراتيجية السرد التقليدية ،

وقدم بيتس ، بالفصل بين التاريخ والأسطورة وكذلك شو ، للجمهور الإنجليزى بديلا عما قرأوه للكتاب الذين تعلموا فى أكسفورد وكمبردج . ولم يكن الطليعون الأيرلنديون وحدهم ؛ فبشىء من التأمل نجد أنهم كانوا جزءا من تيارات أوسع للحداثة الأدبية ضمت حتى بعض كبار كتاب النثر الإنجليز مثل : ا . م . فورستر و د . هـ . لورانس والذين أكدوا على بعض الموضوعات المقبولة مثل الإمبريالية . وهكذا كان تأثير المؤرخين وقلة من الشخصيات الأدبية من أمثال كبلنج محدودا بما لا يسمح لهم أن يكونوا طرفا مقابلا مكافئا . شهدت الفترة الجماعية تحولا فى أسس الإنجليزية بدءا من اللغة والفولكلور إلى العلم والاقتصاد وعلم السياسة وعلم الاجتماع ، وحتى إلى التاريخ الاجتماعى .. وهى مجالات تيسر تحقيق شمولية أكبر . ففى هذه الفترة أصبحت الإنجليزية فى الواقع تعكس التحالف متعدد الطبقات ، وهو التحالف الذى جمع بين حزب العمال وممثلى الطبقات العليا التقليدية بقيادة الصناعيين . أما الليبراليون التقليديون وأقسام من المؤسسة الدينية ، فقد أصبحوا على الهامش . ولكنهم بدلا من أن ينهاروا فقد قووا مركزهم كما أوضح بيرى أندرسون عالم الاقتصاد السياسى باستيراد أو اجتذاب طائفة من المثقفين اللامعين من القارة (أوربا) كانوا جميعا خصوما للجماعية والميتافيزيقا ، وما يساوقها من تفكير شمولى . ويرى أندرسون أن آخر المثقفين الانجليز العظام برتراند رسل وجون مينارد كينز و د . هـ . لورانس وكلهم حققوا نضجهم قبل الحرب العالمية الأولى قد تركوا الساحة فيما بين الحربين – فيما عدا رسل وكينز - للشخصيات المستوردة من أمثال لودفيج فتجنشتاين أستاذ الفلسفة النمساوى ولويس ناميير المؤرخ البولندى وكارل بوبر المنظر الاجتماعى النمساوى وأشعيا برلين المنظر السياسى الروسى .

كان الاقتصادى جون مينارد كينز ممن يمكن أن ينطبق عليهم وصف " المثقف العظيم " ، فقد جمع فى فكره بين فلسفات الرأسمالية الصناعية والعمالية ، وأصبح هذا الجمع هو الأساس فى هيمنة النظام . وكاقتصادى كان كينز عالما . وبذلك اشتق شكلا آخر من الشرعية فى الثقافة الإنجليزية ، وفى مسيرته كاقتصاد ومستشار اقتصادى وجد كينز طريقا داخل المقولات الموروثة للاقتصاد الكلاسيكى الجديد ، لتأويل " الإنجليزية " بحيث تعنى نوعا من تدخل الدولة . يؤدى إلى تجنب الأزمة الاجتماعية . وكان المفهوم السائد عند كينز فى « إدارة الطلب » هو الجسر الذى ربط بين

مصطلحات الرأسمالية والعمالية ، والذى قاد فى التطبيق إلى سيطرة الحكومة على الأجور والأسعار (٣٣) .

إلى أى مدى يجوز أن تتدخل الدولة ، ولأى غاية ؟ إن السياسيين فى هذه الفترة دفعوا الدولة إلى تدخلات أعمق فأعمق فى تنظيم الثقافة وفى المجتمع ، وعندما فعلوا ذلك أصبحت هناك حاجة فى كثير من المجالات إلى علماء الاجتماع والعاملين الاجتماعيين والأساتذة الأكاديميين . وقد نمت وصاية الدولة بشكل محسوس ، وأرسى التشريع أساس هذه الوصاية . ومن أمثلة القوانين التى أثرت على اتجاه سياسات الدولة قانون المكتبات العامة (١٩١٩) وقانون التربية البدنية والترفيه (١٩٣٧) . وبعد الحرب العالمية الثانية افتتحت الدولة العديد من جامعات الأعداد الكبيرة ، ولكن تبين على عكس توقعاتها أن الكثرة لا تعنى الأفضل . وفى الحقيقة ، أثبتت هذه الجامعات انها تلعب دورا انقساميا ؛ فالمحافظون الذين كانوا جزءا من الائتلاف الجماعى لم يروا حاجة إلى تعليم الطبقة العاملة ؛ أما الراديكاليون فلم يرغبوا فى أن تمارس الدولة نفوذا مباشرا على الطبقة العاملة بتوفير الترفيه والتعليم لها . وهكذا ، فإن الحزب الشيوعى لبريطانيا العظمى ، تحول – على سبيل المثال – منذ فترة الكساد الكبير إلى تنظيم الرياضة والحياة الأكاديمية كما فعل الفاشيون البريطانيون ، فجعلوا من تنظيم التربية الرياضية ، بل ومن التعليم العالى شيئا أقل فأقل عائدا بالنسبة للدولة (٣٤) . بل إن الشيوعيين فى النهاية فتحوا " جامعة شيوعية " .

ومع انحدار بريطانيا بعد " الحرب العظمى ، وجد عدد من المثقفين البريطانيين أنفسهم فى مهب الريح . وقد لاحظ أندرسون أنهم فضلوا أن يتركوا مقدمة المسرح للأجانب الذين جاءوا إلى الجامعات البريطانية ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يلعبون دورا كبيرا فى الحياة البريطانية لسنوات عديدة . ومن الأمثلة الهامة لهذه الشخصيات الفيلسوف برتراند راسل ؛ فقد شغل راسل نفسه منذ الحرب العالمية الأولى وما بعدها بقضية السلام العالمى . كذلك خدم مثقفون بريطانيون آخرون عصبة الأمم ، وخدم آخرون المنظمات الإنسانية الدولية والكنيسة . والأمر غير العادى هو القوة الصامدة للكتاب المناصرين مباشرة أو بصورة غير مباشرة للإيديولوجية الأقدم لرأسمالية " دعه يعمل " خلال الحقبة الجماعية ، بل وخلال فترة الكساد الكبير (٣٥) . وكذلك كان بقاء الجماعية فترة أطول فى ظل هذه الظروف أمرا غير عادى أيضا .

كانت " إنجليزية " ما بعد عام ١٩٧٠ هى إنجليزية " البيوريتانية الجديدة " . ولأول مرة فقدت الإنجليزية حقيقة جانبيتها الطبقية المميزة ؛ فقد ذهبت إنجليزية القرن التاسع عشر الأرستقراطية ونمطية الطبقة العليا فى فترة الجماعية . ولم تكتف " إنجليزية " تاتشر بدعوة المصرفى الى الانشغال بمسألة التضخم فحسب ، بل دعت أيضا العامل الإنجليزى إلى الانشغال بالتهديد الذى يمثله العمال المهاجرون (٣٦) . وفى هذه الفترة أصبح أساس الإنجليزية موجودا فى مجالات مثل علم الآثار الذى كشف عن تراث ينسب إلى كل الطبقات فى إنجلترا ، ومثل النقد الأدبى الذى جعل كلام وذوق الرجل العادى مساويا لكلام خريج أكسفورد أو كمبردج . كذلك كشفت هذه " الإنجليزية " عن نفسها فى تصاعد نفوذ المتدينين بين أولئك الذين أصبحوا المرة الأولى أصوليين . وقد أيدت هذه المجالات انهيار الهندسة الاجتماعية طالما أن الدولة لم تعد ترى فى الاختلافات الاجتماعية مشكلة .

ومنذ السبعينات ، نهضت " مجموعة سيلسدون من المحافظين " الراديكاليين " ومن بينهم : مرجريت تاتشر والسيركيت جوزيف ونيجل لاوسون ، ليدعوا إلى العودة إلى الليبرالية الكلاسيكية قائلين إنها ليست الليبرالية الكلاسيكية الفاسدة للمحافظين القدماء ؛ لكنها طبعة إنجلية من الليبرالية تشتق جذورها بعيدا من البيوريتان . وقد أصروا على أنه ليس حزب العمال وحده هو الذى أخطأ معنى الكساد الكبير بتركيزه على تشغيل العمال على حساب الحد من التضخم ، بل شاركه الخطأ أيضا المحافظون ، وعلى سبيل المثال رئيس الوزراء السابق هارولد ماكميلان مؤلف " الطريق الوسط " .

وقد لعبت الضغوط الخارجية دورها فى تطور هذه الهيمنة . ولكن المهم فى نهاية الأمر هو الطريقة التى اختارها سياسيو هذه الفترة لاستغلال هذه الضغوط . وهكذا نجد الحكومة المحافظة بعيدة النظر تستغل أزمة حظر الأوبك للبترول عامى ١٩٧٣ / ١٩٧٤ لا لإجراء تخفيضات فى الميزانية العسكرية ، ولكن لاقتراض القروض من صندوق النقد الدولى . وبحلول عام ١٩٧٦ ، كان ضغط صندوق النقد الدولى على الحكومات العمالية المتعاقبة قد أثمر ثمرته ، واضطر التيار الرئيسى من العماليين للتخلى عن هدفهم فى تحقيق العمالة الكاملة ؛ وبالتالى استطاعت الحكومة المحافظة أن تستخدم إضراب عمال المناجم فى ١٩٨٤ ، لإقناع الرأى العام فى مجموعة بما تنطوى عليه كل تقاليد الفترة الجماعية من لا معقولية مطلقة .

وعندما أرادت تاتشر – على سبيل المثال – أن تخفض ضرائب الدخل التى ادعت أنها كانت معوقا لقادة المشروعات والأعمال ، أفرطت فى الثناء على تقليد المبادرة الفردية للبريطانى . لقد كانت هذه التخفيضات تؤذى الطبقة العاملة لكنها لم تفصح عن ذلك قط . واستغلت تاتشر سلسلة من المناسبات الإعلامية للحديث عن عدم كفاءة الأعمال التى أصابتها العلاقات الطويلة والحميمة مع هيكل الدولة المتضخم بالبلادة ؛ دون أن تعنى أدنى عناية بضرورة إنهاء العلاقات غير المشروعة ، واكتفت فقط بالحديث عن ضرورة بيع بعض مصالح القطاع العام . لقد أظهرت تاتشر بمسلكها هذا أن السياسيين يستطيعون أن يتحدثوا عما يفعلونه دون أن يقولوا على الإطلاق ماذا يفعلون . وهكذا استطاعت تاتشر أن تتحدث عن إلغاء تثبيت الأساتذة فى وظائفهم وتقليص عددهم فى الجامعات ، كوسيلة لتحرير المواهب من الاحتباس طول حياتهم فى الخدمة العامة ، بينما يجب أن تخدم القطاع الخاص البريطانى عندما يحتاج إليه . وعلى نفس المنوال ظهرت مبادرات مماثلة فى وسائل الإعلام تعارض مبدأ وضع حد أدنى للأجور أو توفير إسكان رخيص فى شمال إنجلترا ، على ذلك أيضا يُعد تعبيرا عن المصلحة الوطنية ، ولما كان النضال ضد تاتشر يجد نفسة فى الغالب مضطرا لأن ينطلق من مستوى محلى ، فقد كانت تاتشر – وخصوصا تاتشر التى تظهر على شاشة التليفزيون – طليقة اليد فى أن تدعى لنفسها عباءة (الإخلاص) للإنجليزية كما حدث – على سبيل المثال – فى حزب فوكلاند [٣٨] .

والذى يسترعى النظر – عندما نفحص عن كتب بنيان " الإنجليزية " فى هذه الفترة – وهو نجاح النخبة السياسية فى إيجاد تحالفات لها مغزاها مع فئات ذات تأثير من الطبقات المتوسطة دون أن تقدم لها شيئا من منافع الجماعية .. وهكذا لم يقتصر الأمر على دخول عناصر من إيديولوجية تاتشر على رحاب الثقافة العامة ؛ بل إن هذه العناصر دخلت فى نهاية الأمر الى الثقافة الأكاديمية ذاتها . وكان أحد التغيرات الكبرى فى المجال الأكاديمى فى ذلك الوقت هو فقدان الأنثروبولوجيين الذين تمتعوا بمكانة عالية فى الستينيات مكانتهم لصالح النقد الأدبى الذى أصبح فجأة مجالا بالغ التأثير . وكذلك شهد علم الآثار صعودا واضحا فى نجمه .

ولنبدأ بتأمل انهيار الأنثروبولوجيا ، فقد كان ذلك اتجاها جديدا فى السبعينيات من هذا القرن ، وهو يلقى شيئا من الضوء على إعادة تنظيم الثقافة فى تلك الفترة . فقد أخذ عدد من الكتاب آنذاك ينظرون إلى الأنثروبولوجيا باعتبارها صورة متحولة من النظام الكولونيالى أو امتدادا غير مشروع له . ومع أن هذا النقد لم يكن يخلو من قدر من الصدق ، إلا أنه لم يكن متوقعا بعد سنوات طويلة من الفترة الكولونيالية ، كما أنه لا يستطيع أن يفسر استمرار نشاط وقوة الأنثروبولوجيا فى فترة ما بعد الكولونيالية . ولنتذكر هنا مارى دوجلاس . هناك حدثان يبدو أنهما يتواكبان بصورة أكثر دقة مع انهيار مكانة الأنثروبولوجيا ، وكلاهما كان أوثق ارتباطا بالوطن ، وأكثر تمزيقا للهيمنة ، مما يمكن أن يخرج به المرء مما كُتب فى المجالات الأكاديمية . أما أولهما ، فما يجده المرء فى هذه الفترة من انبعاث الحركة النسوية مستهدفة هذه المرة تعظيم الحرية التى تقدمها الليبرالية ، ومع انبعاثها جاء تجديد نقد الأسرة . أما الحدث الثانى ، فيجده المرء فى نضال مواطنى الكومنولث فى المملكة المتحدة من أجل الحريات المدنية « ونزع الصبغة الكولونيالية » عن المعارف المتعلقة بهم وبأسلافهم . وفجأة أصبح الأنثروبولوجيون الذين كانوا مفيدين للهيمنة فى الفترة السابقة ، موضعا للخلاف والجدل لنفس الأسباب المتضمنة فى السابق . وربما كانت فكرة الأسرة أو القبيلة نسبية أو قائمة على شروط خاصة فى نهاية الأمر . ومع ظهور مثل هذه الأفكار بدا أن الحكومة تسعى إلى مجالات جديدة توضح من خلالها أفكارها عن كيفْ نكون غربيين ومتحضرين وإنجليز .

وكان النقد الأدبى من المجالات التى تحولت إليها الحكومة لتؤكد تحديدها لهيمنتها على مستوى ثقافى . وهناك كسب المحافظون الجدد أول موطىء قدم لهم فى الثقافة الأكاديمية . ولكنهم وجدوا أن موطىء القدم هذا سيكلفهم غاليا ، فمنذ البداية كان للنقد الأدبى ثمنه الذى يجب أن يدفع . وكان على المحافظين أولا أن يعترفوا بأن النقد الأدبى الذى اجتذبهم لم يكن إنجليزيا ، بل كان مستوردا من القارة الأوربية . ثم إنهم باحتضانهم النقد الأدبى القادم من القارة وضعوا أنفسهم ثانيا · فى موضع من ينكر صحة النقد الأدبى البريطانى السابق . وهذا لم يكن سهلا بالنسبة لأى سياسى بريطانى ، ناهيك عن أن يكون من المحافظين . وكان النقد الأدبى البريطانى كما أشرت سابقا – قد اكتسب سمعة عالية ، واستطاع أحيانا أن يجد لنفسه روابط علمية . ولكن

نقاد الأدب الجدد – أو ما بعد البنيويين – أظهروا قدرة غير عادية فى أدائهم لمهمتهم ، إذ هاجموا فكرة العلم ذاتها . واتبعت الأعمال الجديدة جميعا نمطا واحدا ، فهى تعثر على « أثر دالّ » على هامش نص ما ، ثم تستثمره لتدمير المنطق الأكثر محورية فى النص أو لتدمير حجيته . ومن نص مغلق له معنى وحيد يمكن أن يقرره المرء تنبثق تعددية لا يمكن اختزالها أو تبسيطها . وكان الجانب الجذاب فى هذا عند التاتشريين هو أن تفسير الأقوى يمكن على هذا النحو أن يصبح أقوى تفسير (٣٩) . ولكن الصعوبة هنا – مرة أخرى – كانت أن النقد الأدبى ، أو أى مجال يرتبط ارتباطا وثيقا بما بعد البنيويين ليس فقط « أجنبيا » فى مظهره ولغته ، ولكنه أيضا ينطوى على مطلب أساسى ، ألا وهو أن يتخلى مستخدموه عن مفهوم عزيز لدى بريطانيا هو مفهوم العلم .

كان علم الآثار مجالا آخر شهد صعودا خاطفا فى حظه بفضل هيمنة المحافظين الجدد ، وفى فحص هذه الظاهرة ينهض تفسيران رئيسيان : أولهما تفسير مركب ، فعلم الآثار – شأنه شأن وسائل الإعلام الجماهيرية الجديدة – يتطلب تمويلا واسع النطاق ، وذلك يسمح بسيطرة كاملة ، وتحت ظروف السيطرة الكاملة يمكن التلاعب بالنتائج طبقا للحاجة . وقد قدم العمل عالم الآثار حول التراث البريطانى – على سبيل المثال – للتاتشريين وسيلة للسيطرة على الماضى بدون التعامل مع المؤرخين ، أو بتعبير أكثر اتساعا بموضوعية أو بالعلم .

أما التفسير الثانى ، لزيادة منفعة علم الآثار ، فتفسير يركز أكثر على نواح مثل الحظ أو صدفة الوقت أو بدرجة أقل على أمور ذاتية . فبعد سيطرة تكاد تكون كلية لليسار الماركسى على علم الآثار فى فترة ما بين الحربين بفضل كتابات الأثرى الشهير ف . جوردون تشايلد وقع علم الآثار فيما بعد الحرب العالمية الثانية فى أيدى الفنيين ذوى الأفق المحدود ، والذين كانوا نظرا لآرائهم السياسية الأكثر محافظة ، منفتحين للتعاون مع حكومة المحافظين .

وقد اتفق أيضا أن كولين رينفرو أبرز الدارسين المتخصصين فى بريطانيا فى « علم الآثار الجديد » كان معروفا بأنه من المحافظين . وهو يعد فى الدوائر الأكاديمية من أصحاب نظرية الهندو – آرية . وهو مؤسس اتجاه فى داخل هذا المجال التقليدى ،

إذ يعتقد بوجود انقسام بين العالمين الآرى والسامى ، ولكنه يدافع عن رأيه من أرضية جديدة ، فبينما معظم أصحاب نظرية الهندو - آرية من علماء الاشتقاق اللغوى نجد أن رينفرو ليس كذلك ، بل هو أقرب فى منهجه إلى مدرسة الحوليات فى التاريخ . وهكذا فهو يأخذ بفكرة انتشار الزراعة من تركيا إلى سائر الأراضى الآرية غربا مستندا فى ذلك إلى شواهد يمكن قياسها كميا . وهو يرفض الاعتراف بفائدة الأعمال التى قام بها سابقوه ، والتى تضرب بجذورها في علم الاشتقاق اللغوى المقارن . فعلم الآثار عند رينفرو شيء أكثر دقة وصرامة من الاشتقاق اللغوى ، فهو علم ، بل هو فى الواقع أكثر من ذلك . إنه أكثر المشروعات العلمية دقة وصرامة . ومن خلال أخذ العينات واستخدام الكمبيوتر يستطيع الآثرى أن يقوم باختبارات علمية رياضية للتثبت من صحة الفروض ، وبطرق لا يغنى غناءها ليس فقط علم الاشتقاق اللغوى التقليدى ، بل أيضا العلم التقليدى . والسبب فى هذا هو أن علم الآثار مجال أكثر حذقا وبراعة من سائر المجالات . فالأثريون - بحسب ما يرى رينفرو - يستطيعون عندما يشاءون أن يتحلوا باستبصار ما بعد البنيويين وعلماء الدلالة (السيميولوجيا) ، في حين لا يستطيع العلماء ذلك . ولننظر - نحن - إلى الأمر بطريقة أخرى : إن ذلك يعنى أن الأثريين هم قوم فى غاية الطواعية .

ويعرض كتاب أخير شارك فى تأليفه رينفرو علم الآثار كعلم وكسياسة هيمنية على السواء . فعلى الجانب العلمى يشيد المؤلفون بأهمية استخدام الإشعاع الكربونى مقياسا لتحديد تاريخ الأشياء وعمرها . ويدعى رينفرو أن كثيرا مما كان يعتقد أنه متوسطى أو شرق أوسطى فى أوربا القديمة يسبق فى الحقيقة حضارات البحر المتوسط أو الشرق الأدنى . يالها من أخبار طيبة !

إن نجاح علم الآثار يمضى إلى ما هو أبعد من النجاح المهنى لكولين رينفرو . ويمكن أن نلاحظ مثلا أن البرنامج التليفزيونى « الحيوانات ، الخضروات ، المعادن » قد كسب لعالمى آثار شهيرين آخرين هما : جلين دانييل ومورتيمر ويلر جائزة شخصية العام التليفزيونية فى ١٩٥٤ و ١٩٥٥ . والدليل الهام على نجاح الآثريين البريطانيين يتمثل بلا شك فى أنهم استطاعوا أن يتمتعوا بمنح هائلة من خلال صندوق التراث البريطانى الذى تموله الحكومة ، والذى أدى إلى تقليص الاعتمادات المالية التى يمكن أن تُوجّه إلى دراسة التاريخ بمعنى الكلمة .

لقد أصبحت التاتشرية لدى معارضيها أمرا مسلما به أكثر مَنْ كونها ندا لهم . وهم لم يتحدوا قطّ اختيارها وتحديدها لفكرة الإنجليزية تحديا جديا . وإذا كانت تاتشر تحدد اليوم فكرة الإنجليزية بما يسمح لمعارضيها بحرية وجود محدودة ، فإنه يبدو أن معارضيها على استعداد لقبول ما قد يحصلون عليه من تعزيز فى سياق منطقها القائل بأن « الانجليزية » نوع من « التحررية » . وانظر على سبيل المثال : المساحة التى تركت للحزب الليبرالى والمؤسسة اليسارية الماركسية الجديدة والجبهة الوطنية . حقيقة وجد أتباع تاتشر بعض الصعوبة فى تسويغ تصعيدهم للقمع السياسى والعنصرية باسم « الإنجليزية » ، ولكنهم نجحوا فى نهاية الأمر . وفى السنوات الأخيرة اضطرت الحكومة إلى التراجع ، على الأقل بسبب تورطها فى بعض المبادرات غير المشروعة ، وإلى حد القيام بتحقيقات رصينة فى عمليات مثل Clock Work Drange وهى محاولة غير قانونية لتشويه سمعة سياسيى حزب العمال ، ولكن كل هذه الأمور مرت حتى الآن دون أن تفقد جوهر التاتشرية بريقه .

فى ١٩٩٢ ، ١٩٩٣ بدأت مشاركة بريطانيا فى السوق الأوربية المشتركة ، ومن المتوقع أن يحاول سياسيو حزب المحافظين التكيف مع التقليد الجماعى فى القارة ، وأن يضطلعوا بنصيبهم من المسئولية مع الاشتراكيين ، وأن يحدوا من علاقتهم بالولايات المتحدة ، فإلى أى شىء فى ترسانتهم سوف يلجأون للقيام بذلك ؟.

لقد أشير فى هذا الكتاب عدة مرات إلى الأهمية الكبرى لوسائل الإعلام فى دعم الهيمنة ، وأشرنا فى الفصل السادس إلى أن وسائل الإعلام لابد أن تحظى بقبول واسع ، وألا يُنظر إليها ببساطة على أنها صوت الحكومة حتى تصبح وسائل إعلام جماهيرية كما هى الحال فى الولايات المتحدة . ويمكن ملاحظة أن نفس الشىء يحدث الآن فى المملكة المتحدة بعد انتهاء الحقبة الجماعية .. فعندما كان للطبقة العاملة شىء من القوة المنظمة ، استطاعت أن تقاوم هذا النزعة لإضفاء الجماهيرية على وسائل الإعلام ، ولكنها الآن وقد انهارت قوتها المنظمة لم تعد تستطيع ذلك .

وكما أشار هذا الكتاب أيضا ، يبدو أن الدولة تحول تركيزها فى عمليات الإقناع من تعليم الطلاب مباشرة في المدارس إلى تعليم الشباب من خلال وسائل الإعلام

الجماهيرية وألعاب الفيديو والكتاب الهزلى . ومع حدوث هذا التحول الهام تراجع ببساطة دور المؤسسات التقليدية .. أكسفورد وكمبردج وماتبعهما على طريقهما من جامعات أحدث . لقد استمر التعليم والدراسة ، ولكن دون دور واضح محدد فى تعزيز الترتيب الاجتماعى القائم . وأصبح الذهاب إلى الجامعة لا يضمن وظيفة مرموقة .

ومع تقدم القرن أخذ تبلور وترابط الفكر الهيمنى يتحول إلى وسائل الإعلام .

ونظرة سريعة إلى وسائل الإعلام البريطانية تفيد فى الحقيقة فى تجسيد ملامح هذه الصورة . لقد أصبح من الملامح المميزة لبرنامج الـ بى . بى . سى (هيئة الإذاعة البريطانية) تلك البرامج الخاصة التى تستهدف كسر المحاولات التى شهدتها الحقبة السابقة لتحقيق التوحيد الاجتماعى من خلال التعليم . والآن نجد برامج خاصة للطبقة العاملة التى تتحدث لهجة أحياء لندن الشعبية ، وبرامج خاصة للطبقات العليا التقليدية التى تتحدث لهجة أكسفورد وكمبردج . وأصبحت وسائل الإعلام تستهدف تكوين فئات خاصة من المشاهدين بتوجيه برامج خاصة تعتمد على الاختلافات فى السن والنوع والجنس والطبقة الاجتماعية . وتشمل الملامح الأخرى لتنظيم وسائل الإعلام البريطانية وجود وسائل إعلام خاصة موجهة إلى اسكتلندا ، بينما تهمل وسائل الإعلام فى لندن وفى الجنوب المناطق العرقية الأكثر ازدحاما بالسكان فى وسط وشمال إنجلترا . ولكنها عندما تنهج هذا النهج تستطيع الدولة فى المقابل أن تتغلب على هذا الانقسام الذى أوجدته وسائل الإعلام المحلية باستخدام وسائلها الإعلامية لخلق جمهور أعرض من المشاهدين والمستمعين . والدولة تفعل ذلك – كما تظهر مسيرة تاتشر - بتقديم عروض تطمس معالم القضايا . ووسائل الإعلام لديها المقدرة على أن تطمس معالم القضايا فى عرض للجمهور الأعرض ، ثم توضح هذه القضايا وتزيل غموضها فى عرض آخر لجمهور خاص (٤٣) .

وبينما من السهولة بمكان تخمين السبب الذى يدعو السياسيين إلى انتهاج هذا السلوك فى وقت أصبحت فيه تكنولوجيا الاتصالات الجديدة متاحة ، فإن هذا السلوك لا يتفق مع حقيقة أن ميزانية التعليم فى المدى الطويل قد زادت أيضا . لماذا دعمت

حكومة المملكة المتحدة الجامعات بهذا المستوى خصوصا وأنها تستطيع الحصول من الاستثمار فى وسائل الإعلام على نتائج أفضل وأكثر قابلية للتنبؤ بها ، مما تحصل عليه من الاستثمار فى النظام الجامعى ؟ وماذا تطمع فيه الدولة فى نهاية الأمر من مساندتها للتعليم ؟ الإجابة الواضحة هى الدور الحاكم للعلم . وتعود المناقشة لتركز على تحديد ما هو علمى . والاعتقاد هو أن التقدم يتوقف على العلم . وهكذا ، فإن المجتمع العلمى - وجزء كبير منه يوجد فى الجامعات - جدير بالمساندة حتما .

ولكن هذا الدعم سواء فى المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة جلب معه نصيباً من الاحباطات ، فكثير من الاكاديميين بما فيهم العلماء لا يعتنقون - خلافا العاملين فى أجهزة الإعلام - مذهب الدولة فيما يتعلق بالاختلافات العرقية واختلاف النوع ، بل إن بعضهم يذهب إلى حد انتقاد صَرْح العلم نفسه .

وتلخيصا لما سبق ، فى السنوات من ١٨٨٠ إلى ١٩٢٠ نظمت الدولة الثقافة للدفاع عن مفهوم عرقى للإنجليزية ، ومع نهوض الجماعية فى الفترة من ١٩٢٠ وحتى ١٩٧٠ تضاءل إلى حد بعيد عنصرا اللغة والعرقية فى تحديد مفهوم « الإنجليزية » ، وأصبح هذا المفهوم يدور حول الاقتصاد الإنجليزى والمجتمع الإنجليزى . وفى هذه الفترة أصبح الاقتصاد مجالا له تأثيره البعيد شأنه شأن علم الاجتماع والتاريخ الاجتماعى . أما فى الفترة التى بدأت منذ ١٩٧٠ ، فقد تحولت الدولة عندما بدأت تفقد سيطرتها على الاقتصاد وعلم الاجتماع والتاريخ إلى التركيز على مجالات أخرى ، مثل علم الآثار ، وصورة فوضوية من النقد الأدبى [٤٤] . وفى القسم التالى من هذا الفصل سوف نتناول تفصيلا موضوع كتابة التاريخ . وفى مجالات مثل التاريخ يحدث أحيانا أن تحتضن إيديولوجية الشعب المختار هذا المجال ، ولكنه فى أحيان أخرى يكون قادرا على انتقادها باحتوائه على ما تنبذه جانبا عن طريق كتابة ما يسميه المؤرخون التاريخ « العلمى » . ونتيجة لذلك نشأت للدولة علاقة طويلة مع هذا المجال هى مزيج من الحب والكراهية .

كتابة التاريخ فى المملكة المتحدة

تتطلب كل البِنى الهيمنية كتابة التاريخ بصورة أو بأخرى . ومعظم هذه الصور تستخدم طريقة رسم « لوحة » للماضى تضم فى إطارها : ميلادا أصيلا للتراث ، ثم « عصراً ذهبيًا » ، ثم فترة من الانحطاط ، ثم فترة حديثة تتميز بالإحياء . ولكن العناصر الهيمنية فى الديمقراطية تؤكد فى المقابل ، واتساقا مع إيديولوجية الشعب المختار التى تعتنقها صورة التقدم المستمر عبر القرون ، وفى بريطانيا العظمى نجد ذلك فى وجهة نظر « الأحرار » عن التاريخ .

فى كل البنى الهيمنية يتحسس المؤرخون من مطالبتهم بالعمل كدعاة للنظام ، ولكن المدهش أن قسما كبيرا من المشتغلين بالتاريخ فى بريطانيا العظمى الحديثة ، لا يتخذون موقفا نقديا من وجهة نظر الأحرار عن التاريخ ، وهى وجهة النظر الدارجة فى الكتب المدرسية . ومنذ القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا ، استجاب المؤرخون البريطانيون شأنهم شأن نظرائهم الأمريكيين لتوقعات الشوفينية التى فُرِضت عليهم بالإفراط فى الثناء على فضائل التاريخ « العلمى » ، ويعنى به التقليد الذى اقترحه ليوبولد فون رانكه بدراسة الماضى بمنطق الماضى نفسه ولحسابه . وفى السنوات الأخيرة خدمت مدرسة الحوليات أو الماركسية غرضا شبيها (٤٦) .

وعندما يعود المرء إلى المرحلة الليبرالية الأولى يبدو واضحا أن عملية تحول التاريخ إلى مهنة ، حدثت على نحو أبطأ وأقل اكتمالا ، مما حدث فى بلاد كثيرة أخرى ، وما حدث فى المجالات الأخرى فى المملكة المتحدة نفسها . فإذا تجاوزنا المرحلة الليبرالية الأولى ، صادفنا وحتى اليوم الانتقاد القائل بأن المؤرخين يستحقون ما حاق بهم من خمول الذكر نسبيا ، لأنهم أخفقوا فى أن ينظموا أنفسهم ، وفى أن يكسبوا لأنفسهم جمهورا أكبر من المريدين (٤٧) .

وإذا نظر المرء إلى حالة المملكة المتحدة فى نهاية القرن التاسع عشر ، فإنه يجد عددا من العناصر الهامة التى تُثقِل بوطأتها على تنمية عملية تحول التاريخ إلى مهنة ..

فأولا ، كانت هناك عناصر فى الدولة ترغب فى إيجاد مهنة التاريخ وأكثر اهتماما بدراسة التاريخ الحديث فى مقابل تاريخ العصور الوسطى . وثانيا ، كان هناك عدد من المؤرخين المهمين مستعدين لدراسة التاريخ الحديث ، ولكنهم لا يرغبون فى أن تكون لهم أى علاقة بالدولة . وثالثا ، كانت هناك عقبات يفرضها تقليد الأحرار على طريق تمويل التاريخ إلى مهنة .. ورابعا ، كانت هناك إمكانية لحل « بيروقراطى » تحققت أخيرا بمولد منظمة تستوعب بقدر الامكان أكثر هذه الاهتمامات .

وأول عامل تجدر الإشارة إليه فى مناقشة نمو مهنة التاريخ هو أن ثقافة بريطانيا فى القرن التاسع عشر كانت تميل إلى الموضوعات التى تتناول التاريخ القديم والعصور الوسطى أكثر مما تميل إلى الموضوعات الحديثة . ولكن التوسع المفاجىء في حق الانتخاب ، وتكوين بريطانيا الحديثة ، أوجدا الحاجة إلى التاريخ الحديث ، وهى الحاجة التى تطلعت الدولة إلى أن يسدّها المؤرخون المحترفون قبل أى شىء. ولكن التاريخ عموما – والتاريخ الحديث خصوصا – ظل حتى الثمانينيات من القرن الماضى نظاما أكاديميا « أدنى درجة وأقل أمنا » . وكان التقليد الحاكم فى التاريخ هو ذلك الذى أرساه ت . و . أرنولد ، وهو تقليد يمجد الكلاسيكية . وكان هذا من منظور الدولة الحديثة من سوء الحظ . وكان حق الانتخاب العام قد أوجد قاعدة من الناخبين لا يحفل إلا أقلهم باللاتين أو الإغريق .

أما العامل الثانى الذى أثر فى تقدم مهنة التاريخ ، فتمثل فى أنه فى الوقت الذى كان فيه لدى بريطانيا مؤرخون لديهم اهتمام بالمجال الحديث ، فإن هؤلاء المؤرخين لم تكن لديهم رغبة فى أن تكون لهم علاقة بالحكومة القائمة آنذاك . وكان هذا هو السبب فى ظهور مجلة تاريخية قوية هى « مجلة التاريخ الاقتصادى » The Economic History Review التى أسستها وحافظت عليها مجموعة صغيرة من الأفراد المستقلين ، وقد اختار هؤلاء أن ينشروا مقالات فى القالب الرانكى (نسبة إلى رانكه) متحاشين الوقوع فى نزعة الأحرار ، وقد أصبحت لهم بالتدريج اليد العليا على نقادهم ، وليس العكس . وفى الواقع انتصر التاريخ العلمى الذى مجدته « مجلة التاريخ الاقتصادى » فى نهاية الأمر ، وأصبح يمثل الطريقة المقبولة لكتابة التاريخ . بل إن مانشستر المركز

الرئيسى الذى علَّم فيه هؤلاء المؤرخون حققت شيئاً من الشهرة . ولكن هؤلاء المؤرخين وكذلك مجلتهم وكتابة التاريخ عموما ظلوا يفتقرون إلى التنظيم ، فكان ذلك مخيبا للآمال ، على الأقل من وجهة نظر الدولة .

كان العامل الثالث الذى أثر على تطور مهنة التاريخ ، هو تقليد الأحرار الذى كان يمثل التصور الحاكم لوظيفة التاريخ فى جامعات الصفوة التقليدية . وفى جامعات مثل أكسفورد وكمبردج اصطدمت فكرة النظر إلى التاريخ باعتباره علما ، وإلى المؤرخين الذين يخدمون نمو المعرفة باعتبارهم علماء ، مع الاعتقاد الراسخ بأن الوظيفة الحقيقية للتاريخ هى بناء الشخصية الفاضلة ، وكانت مهمة قمة التحية من أساتذة التاريخ ، الأستاذ الملكى للتاريخ الحديث فى أكسفورد وكمبردج هى أن يتحدث إلى العالم عن القضايا الخلقية الكبرى ؛ وليس الإسهام فى مجال متميز من مجالات المعرفة التخصصية تهتم بتطويره مهنة التاريخ (٤٨) . ولم يكف تقليد الأحرار عن أن يكون عقبة فى طريق تحول التاريخ إلى مهنة إلا بتطوير برنامج التاريخ الحديث فى كمبردج فى أواخر القرن التاسع عشر .

أما العامل الرابع ، وهو الحاجة البيروقراطية التى لا سبيل إلى تجاهلها ، فقد سارت فى طريقها الطبيعى مؤدية فى نهاية الأمر إلى تشكيل منظمة مهنية تأخذ بمبدأ التخصص . وفى عام ١٩٠٦ ، بدأت الجمعية التاريخية نشاطها . وقد نجحت هذه المنظمة بدءا من ذلك العام وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ومن خلال انفتاحها فى تجميع شتى الجماعات من المؤرخين للكشف عن قدراتها ؛ وذلك بالتركيز على قضايا وجدت الغالبية من هذه الجماعات أنها ليست مما يثير الجدل والخلاف بينها ؛ قضايا مثل الإمبراطورية وتدريس التاريخ فى المدارس . ثم بدا أن الجمعية توشك أن تفقد أهميتها بانهيار الإمبراطورية وروح الجماعية فى المملكة المتحدة ؛ ولكنها فى السنوات الأخيرة أخذت تعود إلى سابق عهدها بالتعدى لموضوعات مثل تصفية المستعمرات .

أخيرا ، فإن الدولة التى طالما أعلنت عن حاجتها إلى المعرفة التاريخية الحديثة ، والى منظمة مهنية لتطوير هذه المعرفة ، رأت أيضا فى الجمعية التاريخية منذ مولدها موضوعا مثيرا للجدل والخلاف من الناحية الواقعية . وكان هذا أيضا رأى كثير من

المؤرخين الأفراد فى السنوات الأولى من هذا القرن . ولا شك أن مشاعر الأحرار كانت عاملا فى هذا الموقف ، ولكن ربما كانت هناك اعتبارات سياسية أكثر تحديدا ، لعبت دورها فى هذا الموقف سواء لدى الدولة أو لدى هؤلاء الأفراد . كان من ملامح الجمعية انفتاحها ، وبينما كان البعض يرون فى ذلك سر قوتها كان آخرون يرون العكس . لقد حمل الانفتاح فى طياته شيئا من إقرار التنوع . وهكذا ، فإن عمل مجموعات صغيرة من المؤرخين فى موضوعات حساسة بوجهات نظر لا تمثل بالضرورة وجهات نظر الغالبية قد يؤثر على مصداقية المنظمة ؛ بل قد يهدد كيانها فى مجمله . ويخطر على الذهن هنا مثال خاص تلطخت فيه سمعة الجمعية من جراء عمل قامت به مجموعة صغيرة من أعضائها ، وليس من قبيل الصدفة أن هذا المثال كان يتعلق بأيرلندا ؛ فقد قامت جماعة صغيرة من المؤرخين فى أوائل القرن العشرين بالإشراف على دراسة التاريخ الأيرلندى . وكانت مبادرة هذه الجماعة محل ترحيب غالبية العاملين فى المجال على أسس علمية وترحيب الجمعية التاريخية كجزء من سياستها الانفتاحية بلاشك . ولكن عندما بدأ أوين كامنيل (١٨٦٧ - ١٩٤٥) فى نشر أعماله مقررا أن الأراضى السلتية لها تاريخ سابق على الغزو الإنجليزى النورمندى فى عام ١١٦٩ ، شعرت الجمعية أنها تصدق فى الواقع على استخدام المناهج التاريخية العلمية فى تحدى مفهوم الإنجليزية . ولم يكن هذا موضع تقدير ؛ فالإنجليزية كما نذكر من مناقشة الجزء السابق تذهب الى أن على المرء أن يعالج الحواشى السلتية كفولكلور وليس كتاريخ (٥٠) . وقد عانت الجمعية التاريخية من وجود أمثال أوين ماكنيل بين صفوفها .

ويمكن استقراء الشواهد على الموقف السلبى نوعا ما فى المملكة المتحدة من تهميش التاريخ ؛ وبالتالى وضمنا من الجمعية التاريخية ؛ من وجود تيار يكاد يكون بلا نهاية من المؤرخين الذين يعتنقون إيديولوجية الأحرار ، متحاشين اعتبار أنفسهم مؤرخين محترفين ؛ وساعين إلى تأكيد وضعهم كهواة ، وما زال هذا النوع من المؤرخين مذكورا حتى اليوم .. وعلى سبيل المثال هـ . ج . ويلز مؤلف موجز التاريخ (١٩٢٠) الذى يُذكر بمشروعاته التجارية ، والسير كارل بوبر مؤلف النزعة التاريخية (١٩٥٧) الذى يذكُر بمداخلاته الفضولية . وإذا نظرنا نظرة على المدى الطويل ، فسنجد

أن ضعف تمهيد التاريخ الذى نشأ عن هذا النقد كانت له ، بالقطع ، بعض النتائج الإيجابية وأيضا بعض النتائج السلبية . فهو - من بين أشياء أخرى - قد حرَّر المؤرخين الذين يملكون أفكاراً خلافية ليخرجوا كتبهم ، كما أنه خدم احتياجات المؤرخين المتعاطفين مع حركة السلام وسائر الاتجاهات المناهضة للهيمنة (٥١) .

كان أول مؤرخى التاريخ الحديث هو السير جون روبرت سيلى (١٨٣٤ - ١٨٩٥) مؤلف توسع إنجلترا (١٨٨٣) ونمو السياسة البريطانية : بحث تاريخى (١٨٩٥) ، ويذكر مؤلف آخر سيرة كتبت عنه ، أن سيلى كان شخصية عامة معروفة يُعزى إليها تحويل الرأى العام إلى مساند وموال للامبراطورية ، كما يعزى إليها تحديث منهج التاريخ فى جامعة كمبردج ، وهى المهمة التى قام بها منذ عام ١٨٦٩ الذى عين فيه أستاذا ملكيا للتاريخ الحديث بها .

كان لإسهام سيلى فى برنامج التاريخ فى كمبردج تأثيره بلا شك . وكان ذلك التأثير ببساطة أوسع من تأثير كمبردج نفسها ؛ فقد ساعد سيلى بإثارته اهتمام الطلبة فى كمبردج وأكسفورد بالتاريخ العلمى فى إزاحة عقبة كبرى أمام نمو تمهين التاريخ عموما فى المملكة المتحدة ؛ تمثلت فى نزعة الأحرار . ويمكن أن نرى تأثير سيلى فى كمبردج حتى اليوم ، فى اهتمام هذه الجامعة بالتاريخ الحديث . كان سيلى يرى وجوب إنقاذ التاريخ من أيدى المتأدبين ، وأن يمارسه أولئك الذين يأخذونه بجدية وبحس مهنى ، وأن يبقى بمعزل عن الكتاب الشعبيين . وأقنع سيلى الصفوة بأن التاريخ علم مفيد يرتبط موضوعه بالدولة فى نهاية الأمر (٥٢) . وكان سيلى نفسه " رجلا جديدا " وقد ترك هذا تأثيره على وجهات نظرة فى التاريخ . جاء من الطبقات الوسطى غريبا عن أثرياء كمبردج . وكان " رجلا جديدا " بمعنى ثان . كانت أسرته إنجيلية فتمرد عليها منضما إلى " الكنيسة المتحررة " .

وباعتباره عضوا فى الصفوة ولكن على هامشها ، كان سيلى على بينة من نقاط ضعفها وتجاوزاتها ، ورأى مالم يستطيعوا أن يروه دائما . ولذلك أبدى انزعاجه من انتشار العلمانية والشك بين المثقفين وسيطرتهما على الطبقات العليا الإنجليزية . وكان أيضا مهتما وقلقا من تطور الصراع الطبقى . وشارك آخرين من جيله

مثل ت . هـ . جرين وب . بوزانكيت القلق من أن تصبح بريطانيا " أمة – دولة عضوية " . وانطلاقا من هذا الاهتمام الأوسع ، وصل سيلى إلى موقفه فى مختلف القضايا المحددة . وعلى سبيل المثال أيد الامبراطورية البريطانية والاتحاد مع إيرلندا ؛ ولكنه فى القضايا الداخلية أيد إتاحة التعليم العالى للنساء .

كانت المنظمات المهنية على عهد سيلى ضيعفة ، وكان العلماء المهمون على علاقة مباشرة بالسياسيين . وقد كرمت الحكومة سيلى خلال تاريخه المهنى ، لإنجازاته وآرائه السياسية بتعيينه مستشارا ملكيا . وقد ظهر كمتحدث باسم القضية الاتحادية (مع أيرلندا) وكرمز لحركة الاتحاد الإمبراطورى . غير أن سيلى كما تكشف رؤية أدق ، كان يحمل أيضا آراء تمثل إشكالية لإيديولوجية الطبقة الحاكمة . وعلى كل حال فقد قبلته الدولة بلا شك لأنه لم يكن هناك من يقوم مقامه فى مواهبه وخدماته .

وإذا وضع المرء سيلى بين معاصريه ، فسيظهر أن أهميته تنبع من موقفه الرابط بين التاريخ والهيمنة . ويتضح هذا أكثر ، إذا قارناه بمعاصره المشهور ماندل كريجتون أستاذ التاريخ الكنسى فى أكسفورد القادم من الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة ومؤسس « المجلة التاريخية الإنجليزية » ، فبينما كان كريجتون من أتباع رانكه لم يكن سيلى كذلك ، وقد حاول سيلى أن يشغل ما تصوره موقعا وسطا . وهكذا ، رأى أن الشروط التى تسمح بدراسة التاريخ علميا تتضمن شروطا سياسية . وبالنسبة لكريجتون يبدو هذا الرأى مراوغا ، فالرانكى الصميم يرى أن التاريخ إما أن يُدْرس من أجل التاريخ أو لا يدرس على الإطلاق .

غير أن سيلى شأنه شأن المؤرخين العلميين الآخرين كان ناقدا صريحا لوجهة نظر « الأحرار » فى التاريخ . وتحدى الأحرار فى واحد من أهم ميادينهم وهو التاريخ الدستورى قائلا إن الفيكتوريين أرجعوا الديمقراطية البريطانية الحديثة إلى ما قبل الألف عام فى الماضى ، إنما يعيشون فى عالم من الأساطير . استهدف سيلى معاصره البارز ، و. ستيوبس أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى أكسفورد بصفة خاصة ، فحاول سيلى أن يدحض رأيه القائل بأن هناك استمرارية فى التطور الدستورى منذ عام ١٠٦٦ (٥٢) .

لم يكن التاريخ الحديث هو الميدان الوحيد الذى اهتمت به الدولة . وإذا كانت الفترة قد شهدت هبوطا فى الاهتمام بالكلاسيكيات ، فقد صحب ذلك نهوض للتاريخ القديم . وكانت هناك دروس يجب تعلمها من الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية . وفى دراسة أخيرة حول اتجاهات التاريخ القديم فى القرن الماضى .. وجد المؤلف أن يوليوس قيصر كان يُنظر إليه فى أواخر القرن التاسع عشر بوصفه منفذا للديمقراطية لحساب الطبقات الوسطى . وعلى سبيل المفارقة ، فإن الحكومة الثنائية الأغسطسية (نسبة إلى أغسطس قيصر أول امبراطور رومانى) والتى تربط بين الحاكم ومجلس الشيوخ ، قد ذاع صيتها بين العلماء فى الحقبة الجماعية ، وفى فترة أقرب يمكن أن يظهر تأثير مذهب الليبراليين . ولكن فى كتابات الكلاسيكى البريطانى رونال سايم مؤلف كتاب الثورة الرومانية (أكسفورد ، ١٩٣٩ ، ١٩٧٩) وهو كتاب ما زال له تأثيره القوى حتى الآن ، لم يعد لفضائل أغسطس وجود ، ويظهر العالم الكلاسيكى بكل براجماتيته الباردة فارغا من المثل العليا والتاريخ القديم فى عملية تقدمه أكثر طواعية ومرونة من التاريخ الحديث .

فى أواخر القرن التاسع عشر كانت إنجلترا الإنجلو - نورمندية موضوعا لسيل كاسح من القصص التى تزعم روايتها كبار مؤرخى الأحرار الرسميين من أمثال ف . م . ستنتون مؤلف إنجلترا الإنجلوسكسونية . واليوم – كما يعترف مؤلف قدم عرضا حديثا للكتابة الرسمية للتاريخ – أصبح مجال التاريخ الإنجلو – نورمندى نهبا للعديد من وجهات النظر . وتبخر حلم نظام القرون الوسطى الذى طالما داعب خيال القرن التاسع عشر فى عصرى الجماعية والليبرالية الجديدة . ومن الواضح أن أحوال « صندوق التراث » يمكن أن تعيد جمع ما تناثر من هذا الحلم .

كتابة التاريخ فى الحقبة الجماعية (١٩٢٠ – ١٩٧٠)

أدى نمو حزب العمال – كما بينت فيما سبق – إلى تشكيل تحالف حاكم عابر

للطبقات ، توافق فى حالة المملكة المتحدة مع تغيرات خارجية كبرى من أبرزها انهيار الإمبراطورية .

وتشير الشواهد من حقل كتابة التاريخ إلى أن صعود الجماعية كان مثيرا لأعصاب الأحرار بوضوح ، ففك التاريخ الليبرالى عقاله ، بل أصبح انتقائيا ، وغير ساحاته ، فلم يعد نضاله بعد ، ضد التاريخ العلمى ، بل ضد التاريخ الماركسى . أما الاقتصاد السياسى الماركسى وتاريخ العمل فقد نهضا وأصبحت لهما اليد العليا فى بعض القضايا .

وبالطبع ظل التاريخ الرسمى الليبرالى محكوما باعتباراته الخاصة . وكان اتجاهاه الأساسيين هما « النزعة العالمية » ، ودفاع من نوع « حرب الخنادق » عن مواقف الأحرار التقليدية . وكان هناك اتجاه ثالث تمثل التصوير الدرامى الماضى التى قام بها لويس نامبير ، وظهر هذا الاتجاه فى أوساط المؤرخين قرب نهاية هذه الفترة ، وهو ما سنناقشه بتوسع أكبر فى الجزء الأخير من هذا القسم . لقد ألقت النامبيرية بظلالها على محاولات لاحقة من جانب الليبراليين لاستعادة سلطانهم المفقود .

وعندما تم تهميش الليبراليين نوعا ما فى فترة ما بين الحربين ، خرج منهم عدد من المؤرخين البارزين الذين ارتكزوا على منطلقات متعددة فى وقت واحد ، وإن كانت نزعتهم عالمية ، وخاصة فى مجال التاريخ السياسى الذى ظل بمنأى عن السياسة اليومية . ومن المحتمل أن أشهر هؤلاء كان أ . ج . ب . تايلور الذى اتخذ موقفا شديد المراجعة فى تحديد أسباب وأصول الحرب العالمية الثانية . ومن الأمثلة الأخرى جيوفرى باراكلو ، وهو مؤرخ تصدى لموضوع يتميز بحساسيته هو موضوع الانهيار البريطانى .

وجد معظم أفراد المؤسسة الليبرالية أنفسهم غارقين فى مواجهة مع العمال ، ومضطرين للقتال دفاعا عن نموذجهم التفسيرى فيما يشبه « ظروف حرب الخنادق » فى ميادين الموضوعات التى اختارها العمال . وبينما كان الليبراليون فى فترة أسبق ينهمكون أحيانًا فى مناقشة العمال فى تفسير الحرب الأهلية الإنجليزية ، أصبح

الموضوع الرئيسى مع نهوض العمال هو الثورة الصناعية . وكان هناك موضوعان يرتبطان بالثورة الصناعية ، ويسيطران على بعض من أفضل عقول هذه الفترة .. أحدهما أرستقراطية العمال ، والآخر مستوى المعيشة خلال الثورة الصناعية .

ويبدو معقولا أن نُخَمِّن أن المؤرخين الماركسيين ، من أمثال أ . ج . هوبسباوم الذى كان متأثرا بلينين ، قد اختاروا موضوع أرستقراطية العمل للزج بفكرة المستقبل الاشتراكى إلى تحليل تاريخ هذه الطبقة . ولنا أن نتوقع أن يعارض الليبراليون مثل هذا التضمين ، فعندهم أن هذه الأرستقراطية نشأت من تفاوت مهارات العمال الأفراد ، وهى فكرة لم تكن مقنعة فى فترة الجماعية .

ولنعد إلى صياغات هوبسباوم . حاول هوبسباوم فى الفترة ١٩٤٩ – ١٩٥٤ أن يجعل من مصطلح أرستقراطية العمال جزءا ثابتا من منطق الرأسمالية ، لينأى به عن منطقة الاكتشاف السعيد لنزوع العمال إلى الليبرالية . وكان منطلقه دراسة تاريخية للعرض والطلب فى سوق العمل . ومن الصورة العامة للعرض والطلب برهن هوبسباوم على منطق نهوض نظام تقديم عمل للعمال خارج عقود العمل فى القرن التاسع عشر . وحاول أن يدلل على أن العمال الذين دخلوا فى مغامرات العمل خارج العقد شاركوا موضوعيا فى تحقيق بعض مصالح رأس المال . لقد كانوا أرستقراطية عمالية . ولكن تحليل هوبسباوم لأستقراطية المال كان محصورا فى زمن محدد ومرتبطا بفكرة الميكنة الجزئية فى المصانع الجديدة حين كان العمال المهرة مازالوا مطلوبين ، وقد انتهى ذلك فى حوالى عام ١٨٩٠ . لقد كان تحليل هوبسباوم بأى معيار ثقافى تحليلا لامعا . ولكنه من الناحية السياسية أخفق فى أن يعطى الليبرالية مكانها . ولعله لهذا السبب أخفق فى أختراقها . ويمكن أن نجد دليلا على ذلك . فى الحقيقة أنه فى سنة ١٩٧٠ وما بعدها استطاع الليبراليون أن يعيدوا تأكيد رأيهم فى أرستقراطية العمال مستندين إلى (علم) العلاقات الصناعية . وفى هذا الوقت أيضا أصبحت لليسار أهداف أخرى غير تلك التى كانت لهوبسباوم فى فترة الحرب الباردة . وأخذ بعض مؤرخيه الذين يكتبون من منظور العمل فى فحص العلاقة بين الأرستقراطية العمالية وسياسات الهيمنة (٥٧) متسائلين : أليست فكرة أرستقراطية العمال تشير إلى شىء من التكيف

مع فكرة الأحرار عن الأرستقراطية ؟ وأليست فكرة غير متلائمة مع ماركس ؟

كان الموضوع الهام الآخر فى المناقشات التاريخية فى حقبة الجماعية هو السؤال عن مستوى المعيشة خلال الثورة الصناعية . وقد قرر اليسار الماركسى بقيادة هوبسباوم أن هذه الثورة وقعت فى سياق انخفاض صاف (أى فى المحصلة النهائية) لمستوى معيشة الطبقة العاملة ، ومرة أخرى أكدت السلطة السياسية للعمال والنفوذ الثقافى للمؤرخين من أمثال هوبسباوم سيادة وجهة النظر هذه . ولكن هذه السيادة أيضا لم تكن أبدية . وأخفق الماركسيون فى نهاية الأمر لافتقارهم إلى آلية لاستيعاب وجهة النظر الإيجابية للتقدم أو الاستفادة منها بطريقة أو أخرى . وبحلول السبعينات كانت التحليلات الاقتصادية التاريخية لمدرسة مارشال قد احتلت مواقعها فى جامعة كمبردج . ويمكن أن نميز تأثيرها بسهولة فى الكتب الخطيرة لعميد التاريخ الاقتصادى الصاعد فى تلك الجامعة ، السير جون كلافام (٥٨) .

على المرء – كما أوضحت مرارا خلال هذا الكتاب – أن يعود إلى ميدان السياسة القومية بحثا عن شرح للطريقة التى يمكن أن تتحول بها أفكار « خاسرة » مثل العنصرية أو الليبرالية إلى أفكار منتصرة ، وأولى ما نلاحظه فى هذا الصدد أن انهيار الإمبراطورية الذى طالما سعى إليه حزب العمال لم يفد هذا الحزب عندما حدث . وعند هذه النقطة نلاحظ أن رطانة الحزب البلاغية ضد الاستعمار تصادمت مع المصالح الاقتصادية لأعضائه . ويتبين هذا إذا وضعنا جنبا إلى جنب الدعوات التى أطلقها مثقفو العمال إلى كولونيالية الرفاهية مع دعوات مجلس نقابات العمال ، للحد من عدد المهاجرين من الكومنولث . ومن الواضح أن جمهرة أعضاء الحزب لم تشارك قلة من مثقفيه الاهتمام بحقوق المستعمرين (أهل المستعمرات) . ولما كان الاختلاف بين حزب العمال والليبرالية فى مثل هذه الحالات ليس كبيرا حقا ، فقد أعطت السياسات العرقية من حيث الجوهر – المواقع الليبرالية فرصة جديدة للحياة ، بما فى ذلك مواقعها فى مجالات مثل البحث التاريخى . الملاحظة الثانية الجديرة بالوقوف عندها ، هى ما ظهر من أن كثيرا من قادة حزب العمال فى فترة ما بعد الحرب يفسدون أو يعترضون على مزايا الرعاية الاجتماعية ، سواء تلك التى كسبها الحزب بسلطته الفعلية أو تلك التى لم

يكسبها بالطبع . وفى تلك الفترة ظهر هؤلاء القادة وقد تملكهم شعور بالرضا الذاتى . وقد دفعت فوائد المعونة الأجنبية الأمريكية - على نحو يقر ب كثيرا مما كان يفعل الليبراليون - باعتبارها فترة نمو دائم . لقد أظهر حزب العمال أمارات دالة على أنه يفقد رؤيته الطبيعية وينتهج طريقة ليبرالية فى التفكير دون أن يعى ذلك . وهذا أيضا أثر على فكره التاريخى (٥٩) .

أسفر الاندماج فى عام ١٩٥٢ بين مجموعة من كبار المؤرخين الماركسيين بما فيهم أ . ج . هوبسباوم ، والمؤرخين غير الماركسيين عن إصدار أشهر مجلة تاريخية فى الجزء اللاحق من الحقبة الجماعية وهى مجلة Past and Present (الماضى والحاضر) . وكانت مساحة مرموقة لمعارضة الحرب الباردة ، وكانت نزعة الحرب الباردة قد أصبحت السلاح المشهر فى نضال الليبرالية الجديدة ضد دولة الرعاية ، وقد أجبر وجود هذه المجلة بعض المؤرخين البارزين على تحديد موقفهم : إما بالكتابة فيها ، أو الاعتراف بانتماءاتهم السياسية اليمينية . كما أن المنحنى الذى سلكته المجلة من حيث تحقيق التوازن بين الناشرين فيها المقالات المنشورة فيها أو جدير ببعض الاهتمام أيضا ، فبعد عام ١٩٥٨ زاد نفوذ الحوليين وتراجع نفوذ الماركسيين ، وأخيرا فى عام ١٩٧٦ انضم أصحاب التاريخ الاجتماعى إلى المجلة .

كتابة التاريخ فى ١٩٧٠ وما بعدها

شهدت فترة ما بعد ١٩٧٠ فى مجال التاريخ زيادة كبيرة فى مشروعات الكتابة عن التراث والتاريخ العام ، وانهمرت المؤلفات التقليدية متعددة الأجزاء من أكسفورد وكمبردج . وهذه الأنشطة التى تستوقف أى مراقب تكشف عن القوة التى عاد بها الأحرار مما يشبه المنفى فى حقبة الجماعية ، ليحققوا سيطرة نسبية .

ولكننا نستطيع أن نلاحظ بنفس القدر أن هذا الانبعاث الواسع النطاق لم يؤدّ إلى تشكيل مدرسة حاكمة جديدة فى التاريخ الرسمى . ويرجع السبب فى ذلك إلى ما سبق

أن قلناه : ألا وهو أن الانشغال بالماضى التاريخى ليس مجزيا بصفة خاصة الليبراليين ونظامهم ، فالماضى التاريخى شىء يقوم على الوقائع إلى حد بعيد بما يجعله أضيق من أن يكون مفيدا .

وعندما ينظر المرء عن كثب إلى ما تم رصد المال له ، وما لم يتم تمويله فسيجد أن الأموال الحكومية ساندت تطوير المتاحف التاريخية وتجديد البيوت القديمة والمبانى العامة والآثار ودعمت المجلات التى تحتاج إلى دعم . وثانيا ، ساندت هذه الأموال مركز دراسات السكان فى كمبردج وبرنامج ما يمكن أن يسمى النسخة البريطانية من مدرسة الحوليات ، وهو اتجاه فى التاريخ يمكن أيضا أن يقال إنه كان الأكثر ملاءمة لنزعة الليبراليين . وفى نفس الوقت نهض وازدهر بتمويل حكومى قليل أو بدون تمويل حكومى على الاطلاق ، الاتجاه الذى أثار أكبر قدر من الاهتمام والنقاش وهو مدرسة الثقافة الشعبية . وهو اتجاه يعكس – فيما يعتقد بعض الكتاب – العمل على فصل عُرى الترابط بين الطبقات الأدنى فى الاقتصاد بعد – الصناعى وبين الثقافة الوطنية (٦١) .

كذلك شهدت سبعينات القرن ، لأسباب تعد فى جزء منها إلى عمليات التمويل المشار إليها توا ، انبعاثا ملحوظا فى أنواع مختلفة من التاريخ الرسمى الليبرالى بعد جيلين من تراجع هذا النوع من الكتابة التاريخية . وبدا هذا التاريخ موجها ضد التاريخ العمالى الماركسى . وانتهت النزعة العالمية المتحفظة – للفترات الأسبق ، وبذل الليبراليون جهودا كبيرة لإلحاق الهزيمة مجددا بمجال التاريخ الاجتماعى البريطانى الحديث . ولما كانت النظرية تنتمى إلى الماركسية ، فقد كانت الاستراتيجية المنطقية هى إظهار أن النظرية لا طائل منها بالنسبة إلى المؤرخ الاجتماعى . ولا يحتاج المرء ليقوم بذلك سوى إلى تفتيت الواقع بما يكفى لكى لا تتكون صورة أعرض ، ومن ثم يشير إلى أنه ليست هناك صورة أعرض .. وهكذا لا تقوم حاجة إلى النظرية . وهكذا ، بدأت المقالات فى مجلة « التاريخ الاقتصادى » The Economic History Review تهاجم فى تلك الفترة تقييمات علماء الجيل السابق لحجم وأهمية الثورة الصناعية مستندة إلى ما ظهر من إحصاءات تاريخية عن مختلف المناطق ، إذ يستطيع المؤرخ أن يزعم ببساطة

أن صناعة النسيج فى لانكشير كانت استثناء لا يقبل التعميم ، وأن معظم البلاد لم ينمُ النمو الذى افترضه الماركسيون . وانقضى أيضا الافتراض بأن الثورة الصناعية كانت حدا فاصلا فى تاريخ البشرية ، وأهيل التراب - بالمثل - على صورة بريطانيا كنموذج عالمى للتجارب الصناعية اللاحقة . وهكذا كان تأثير البراجماتية الليبرالية حتى على نزعة الأحرار التقليدية .

كان من بين اتجاهات التاريخ الرسمى الليبرالى التى ازدهرت فى هذه الفترة ذلك الاتجاه الذى أسميتُه النسخة البريطانية من مدرسة « الحوليات » والذى أزعم أنه الأكثر ملائمة لنظام الليبراليين ، لأنه الاتجاه الأبعد عن التاريخ التقليدى . ويمكن القول بأنه إذا كانت دولة ماضعيفة الصلة بمجتمعها - كما تنوى الدولة البريطانية أن تكون - فسوف تسعى إلى مواصلة توسيع مساحة التاريخ القصىِّ بطريقة الليبراليين الأسبق عهدا . وقد تفى بالغرض هنا جداول بالترتيب الزمنى للأحداث السياسية أو خرائط لطبقات الصفوة . وحتى نكون أكثر تحديدا ، فإن التاريخ الاجتماعى يتمخض بلا نهاية عن وقائع جديدة ، وهذه الوقائع هى ملكية مشتركة وتنطوى على الحاجة إلى المشاركة بين الناس . ولما كانت دولة من النوع الذى ألمحنا إليه توا قد لا تريد الانخراط فى المشاركة ، وحتى تتجنب شيئا كهذا ، فإنها قد تفضل أن تكون المعرفة فى صورة بيانات يمكن أن يغلق عليها فى بنك بيانات كما هى الحال فى كمبردج اليوم . ومن ناحية أخرى ، فإن التاريخ إذا تحول إلى بيانات فسيمكن التلاعب به عندما تنشأ الحاجة إلى ذلك ، وبذلك يصبح أقل خطرا من مجال كمجال التاريخ التقليدى الذى يقوم كلية على أساس الوقائع . إن الوقائع من منظور الليبراليين - إذا تذكرنا المناقشة السابقة عن علم الآثار - هى أشياء خطيرة لما تحمله من عبق المطلقية . إنه لمن الصعب التلاعب بالوقائع ، ولكنه من السهل التلاعب بالبيانات (٦٢) . من هنا يأتى فيما أعتقد انجذاب الدولة إلى مدرسة الحوليات .

وقد يعترض أحد - وهو اعتراض معقول - بأن لمدرسة الحوليات فى فرنسا على الأقل صورة تقدمية ، فقد آلت إلى تحدى التاريخ السياسى المتزمت الضيق نوعا الذى ساد البلاد . وهذا بالطبع قول له وجاهته ، ولكن على المرء أن يتذكر أن مدرسة

الحوليات مرت بمراحل مختلفة ، وأنها تتخذ أشكالا مختلفة باختلاف البلاد التى تبنتها . وفى فرنسا نهضت بعد عام ١٩٥٢ مدرسة حوليات تنتمى إلى فترة الحرب الباردة ومصحوبة باتجاهات « مالتوسية – جديدة » قوية ، ونتيجة لذلك أصبحت حجرا جاذبا للديمغرافيين والإحصائيين وسائر العاملين فى حقل البيانات . وهذا الجزء الأكثر جِدَّة فى تقليد الحوليات هو الذى جذب – أكثر من الجزء الأقدم والأكثر إنسانية – دولة الليبرالية الجديدة فى بضع دول مختلفة .

ويستطيع المرء ،إضافة إلى ذلك ، أن يلحظ بنفس القدر أن الأفكار التى ساندتها مدرسة الحوليات وبدت كما لو كانت جزءا من الأدبيات السياسية لليسار يمكن – بتحليل أدق – أن تتحول إلى أفكار تميل إلى خدمة اليمين . ودعنا نفحص هذه الإمكانية : فإذا ناضلت مدرسة الحوليات لإقامة « تاريخ كلى » فلا يعنى ذلك حقا تصحيحا للمفهوم الماركسى عن المجموع الاجتماعى أو ارتباطا به وتداخلا معه ، بل هو بالأحرى مسخ له إلى حد التفاهة . فإذا كان التاريخ الكلى لوحة تصور الخبرة الإنسانية فى انتشارها وارتباطها بالصناعة ، لكن معرفتنا بالتاريخ الكلى تأتى من الدراسات التاريخية المجهرية ، وليس من النظرية لأن التاريخ المجهرى ينفك عن مركز يشده ، وبالتالى فهو متحرر من الميول المؤكدة للاستبداد .. إذن فلن نستطيع استخدام حتى المعرفة النظرية التاريخية فى تحدى أو معارضة أى بنيان أكبر . وهكذا ، فإن ما يبدو تقدميا هو فى الحقيقة ، بنظرة أكثر قربا ، مجرد حفاظ على الأمر الواقع . وإذا كانت الدولة تغدق أمالها على مدرسة الحوليات ، أعنى كمبردج ، فلا يختلف ذلك كثيرا عن مساندتها للنقد الأدبى بعد البنيوى الذى يمَّمَ وجهه شطر كمبردج وأكسفورد أيضا : قليل من الاستخدا لنيتشة .. قليل من الهجوم على التقليد .. قليل من الاستعانة بالإلغاز .. تلك – على ما يبدو – هى السمات المشتركة (٦٣) .

وبينما لا يمكن فى مثل هذا النحو من الحديث امتحان تلك المسألة تفصيلا ، تجدر ملاحظة أن ما بعد البنيوى والحولى يفضل كلاهما أن يركز على التكنولوجيا واللغة أكثر مما يركز على السياسة . ولنشر هنا على سبيل المثال لعمل لما بعد بنيوى مقروء على نطاق واسع فى المملكة المتحدة ، ففى تفكيك بودريليارد للذات ، يزعم المؤلف أن

المفهوم التقليدى للذات هو ملجأ زائف من وسائط الاتصال الحديثة (الميديا) . إذ يقيم دعواه هذه على أن تكنولوجيا الميديا وإستخدامها للغة ينفيان الذات كقوة تاريخية محتملة . إن هذا يضع ما بعد البنيوية قريبا من المدرسة العقلية الحولية وتفكيكها أو تقويضها لفكرة الذات .

تبقى هناك مساحة أخرى للالتقاء بين ما بعد البنيوية هى ما يجمعهما من شكوك فى الغائية . فما بعد البنيوية ترفض « مشروعات ما وراء السرد » بل هى فى الحقيقة ترفض كل مشروعات السرد بوصفها غائية ، وتنظر إلى مثل هذه المشروعات باعتبارها صورة من « تسلط الموضوع » وهكذا يفعل الحوليون . إن المفهوم الحاكم لبروديل « المدى الطويل » يقصد بوضوح إلى نقد الغائية . إنه يعلن حاجة القوى العنيدة الغشوم للطبيعة والأزمات ، ويعلن ضمنا غياب الفاعلية التاريخية الانسانية ، ربما باستثناء السوبرمان ، إذا تذكرنا نيتشه هنا [٦٥] .

ويبدو على السطح تأثير مدرسة الحوليات فى الفكر البريطانى محدودا . وهذا افتراض شائع . غير أن ندوة أخيرة حول التاريخ الرسمى البريطانى خلصت إلى أن ذلك قد يكون افتراضا خادعا ، ويستطيع المرء فى الواقع أن يضع قدرا لا بأس به من الكتابة التاريخية البريطانية تحت هذا العنوان دون أن يخطىء . ولننحّ جانبا لحظة بيتر لاسليت من جامعة كمبردج ، فحتى مدرسة لويس ناميير التى أشرنا إليها آنفا كانت فى رأى أحد المؤلفين « بروديلية فى روحها » .

ولكن حتى لو صحّ أن مدرسة الحوليات لها تأثيرها القوى بصورة أو أخرى فى المملكة المتحدة ،فهل يعنى هذا أن لذلك علاقة حقيقية بالهيمنة ؟ يبدو أنه لا يكفى هنا أن نتوقف عند مسألة توافق مدرسة الحوليات مع السياسات الليبرالية للدولة ، فهذا لا يعنى أن الدولة اختارات أن تستخدمها . والسؤال الأكثر جوهرية هو كيف يمكن لشىء على مثل هذا القدر من التخصص الفنى أن يؤثر فى الإدراك الثقافى العام اليومى ، ومن ثمّ يصبح جديرا بالاستثمار فيه ؟ إن على المرء – إذن – أن يخطو الخطوة الأخيرة ويناقش – ولو على سبيل الافتراض – المكسب الإيجابى الذى يمكن أن تجنيه الدولة من مساندة هذا العمل المكلف الذى تقوم به قلة من صفة العلماء .

أود وأنا أحـاول التـصدى لهذه المناقشـة أن أزعم كمـا زعـمت سابقا فى صدد المسـاندة الحكومـيـة لعلـم كـولين رينفـرو فى مـا قـبل التـاريخ أن للدولة مـصلحـة فى السيطرة على صورة المـاضى ، خصوصا إذا وضعنا فى الاعتبار مصلحة العناصر المناهضة للهيمنة فى ذلك أيضا . إن المؤرخين – على خلاف علماء الآثار – تصعب السيطرة عليه لأنهم لا يعتمدون فى عملهم على مبالغ كبيرة من المال . ولذلك ، فإن الدولة إذا وجدت بعضهم ممن سوف يتعاونون لأنهم يحتاجون مساندتها ، فسيكون ذلك أفضل كثيرا . إن رينفرو الأثرى المفضل ولاسليت المؤرخ المفضل يشتركان فى الواقع فى صفات تجمعهما . ويستطيع المرء أن يعزوها إلى مثقفى الدولة . فكلاهما ناقد لمستوى الإدراك اليومى والعام لـ « تاريخ الأحداث » الرانكى أو الماركسى ، وهو التاريخ المفتوح الذى نستطيع جميعا الاطلاع عليه والنفاذ إليه . وكلاهما ناقد بنفس القدر للأفكار الأثر تقليدية حول البنية Structure وهى أيضا أفكار مفتوحة يمكن لنا جميعا أن ندركها ونطلع عليها . إن كليهما يضع محل ما هو قابل للفهم والاتصال ما هو مستغلق ، ومن ثَمَّ يحولان علم الآثار والتاريخ إلى مجالات قاصرة على « العلماء » لا تعدوهم . كذلك يشترك رينفرو ولاسليت فى سمة مفيدة أخرى ترتبط بتنظيم الثقافة ، ألا وهى المرونة . فالحوليات مثل ما قبل التاريخ يمكن أن تكون علما ، ويمكن أن تنكر العلم . ويمكن أن تكون راديكالية وبيئية ، أو يمكن أن تكون معادية بصورة فجة للماركسية . وكما لاحظ المؤرخ الأمريكى يوجين جينوفيز عن دراسة من هذا النوع كانت عن الأسرة وصيغت فى أرقام أدخلت إلى الكمبيوتر أنها أصبحت غاية فى حد ذاتها ، جعلت الحوليات من التاريخ هدفا فى ذاته بديلا عن الهم التقليدى للمؤرخين .. التغيير الاجتماعى .

بقى جانب آخر من المناقشة حول كتابة التاريخ فى هذا القسم . ان الدولة تحولت فى الواقع ضد غالبية العاملين فى هذه المهنة التقليدية بعد عام ١٩٧٠ . وهكذا ، أصبح كثير من المؤرخين الذين تبذهم الوضع الاجتماعى بصورة مطردة متعاطفين تعاطفا واضحا مع الحركات المعادية للهيمنة . وكانت لذلك نتائجه فى التاريخ الذى يكتبونه .

ففى السنوات الأخيرة ، بينما كشف كثير من الكتاب فى التاريخ السردى التقليدى

عن سوءات الحاضر قياسا إلى الماضى غاص كثير من كتاب التاريخ الاجتماعى أعمق فأعمق فى تاريخ الحركات والثقافة المعادية للهيمنة ، وواصل كثير من كتاب الاقتصاد السياسى تحليلهم النقدى للحياة فى ظل الرأسمالية ، ودفع الإحساس المتنامى بالمعارضة لتانتشر هذه الكتابات إلى الأمام .

قد أظهرت الدوائر التاريخية فى سبعينات وثمانينات هذا القرن تقديرا متزايدا لمؤلفٌ كريستوفر هيل عن القرن السابع عشر . لقد ظل هيل على مدى جيل واحد من الشخصيات الكبيرة فى التاريخ الاجتماعى والاقتصاد السياسى ، وهو بلا جدال أكبر شراح التاريخ الإنجليزى فى القرن السابع عشر . وليس صدفة أن هذا التقدير الذى حظى به توافق مع انبعاث البيوريتانية التى كانت أيضا من موضوعاته الأساسية .

وفى نفس الفترة اتخذ عمل آخر من أعمال الكتابة التاريخية مواقف قد تكون أكثر صراحة فى معارضة الهيمنة ، أبدعت مجموعة من المؤرخين منهم الوضعيون ومنهم الماركسيون – أو هى تبدع الآن – نوعا جديدا أطلقوا عليه الثقافة الشعبية . وفى مجالات مثل « الدراسات الثقافية » Gultral Studies من برمنجهام والورشة التاريخية History Workshop وفى كتابات رافائيل صمويل وكثيرين آخرين ، تظهر الآن تحليلات للطبقات الثانوية الإنجليزية تدفع فى هذا الاتجاه ، بل إن بعض الكتاب يعتقدون بإمكان ظهور طبعة مجددة من الماركسية هى « الماركسية الشعبية » .

كان أ. ب . تومبسون وستيوارت هال أبرز العلماء المناهضين للهيمنة فى العشرين عاما الماضية . وقد قام تومبسون بدور قيادى فى الحركة الأوربية لنزع السلاح النووى ، وفى الحملة من أجل نزع السلاح النووى فى بريطانيا . وكان كتابه حول تكوين الطبقة العاملة البريطانية أفضل عمل واحد فى التاريخ الاجتماعى البريطانى (٦٩) . وكانت العلاقة بين هذين الجزءين من عمله واضحة بالنسبة له . فقد أوجد الحرفيون والصناع المهرة الراديكاليون فى القرن الثامن عشر الطبقة العاملة البريطانية من خلال نضالهم ليحتفظوا بالسيطرة على عملهم . وكذلك حركة السلام فى أيامنا هذه ، فهى حركة ديمقراطية شعبية ماثلة تدور حول مسائل السيطرة . وليس تومبسون وحيدا على الإطلاق ، فهناك ستيوارت هال ، وهو عالم آخر من النشطاء الاجتماعيين ، قد يكون

أشهر من تومبسون (٧٠) . وينفرد هال فى الدراسات البريطانية المعاصرة بتحليله للدولة البريطانية من أواخر القرن التاسع عشر صعودا حتى تاتشر . يتميز هال أيضا بفهمه الفريد لصنع وفك التحالفات في التاريخ البريطاني الحديث ، فهو يرى أن قضايا السلام ونزع السلاح التى يستخدمها تومبسون لتنظيم الطبقة المتوسطة قضايا هامة ، ولكنها يجب أن تستخدم فى النهاية لتعبئة الطبقة العاملة والفئة العرقية الدنيا متحالفتين معا لتحدى هيكل السلطة .

ومهما يكن ما تحمله السنوات القليلة القادمة لمهنة التاريخ البريطانية فان الفترة الحالية لا يمكن أن توصف إلا بأنها فترة غير عادية ؛ فترة رفضت فيها الدولة مؤرخيها ، ونشط فيها كثير من المؤرخين نتيجة لذلك إلى إقامة تحد للدولة .

لقد وضع هذا الفصل فى مجمله لتقديم الديمقراطية البرجوازية كطريق تاريخى مميز له سماته التى تتحدى موقف النموذج التفسيرى السائد ، القائل بأن الديمقراطية تفهم أفضل ما تفهم كمثل أعلى للإنسان العام .. مثل تقترب منه أكثر حفنة من البلدان التى توصف على نحو أكثر سعة بالديمقراطية . إنه يزعم بدلا من ذلك إن الديمقراطيات هى هيمنات تقوم على أساس الحكم بواسطة العرق ، وترشدها إيديولوجية الشعب المختار ، وأن التاريخ له دور يقوم به فى مثل هذة الهيمنة . وفى حالة بريطانيا كان ذلك الدور هو ما أطلقنا عليه وجهة نظر الأحرار فى التاريخ .

وزعمنا أيضا أن خصوصية المملكة المتحدة يمكن العثور عليها فى قبول النظام لمدة طويلة للطبقة العاملة ممثلة فى حزب العمال . وهو ما يميز المملكة المتحدة عن الولايات المتحدة – المثل الذى سنتناوله فى الفصل التالى – وهو ما يشرح أيضا اتساع مساحة الفكر النقدى فى التاريخ الرسمى البريطانى ، إذا تعرض لموضوع الطبقات الاجتماعية ؛ بينما يصاب بالعمى إذا تعرض لقضيتى الجنس والنوع ، وهما قضيتان " اختفتا من التاريخ " على حد قول أحد الكتاب .

هوامش الفصل التاسع

1 - Quintin Hoare and Geoffrey Nowell - Smith, eds, Selections From the Prison Notebooks of Antonio Gramsci (London: Lawrence &Wishart, 1971), 277-320

وهو يربط « الأمريكانية » باقتصاد خط التجميع الذى يطلق عليه « الفوردية » ، أما Alain Lipetz ,

" Towards Global Fordism ?" New Left Review no . 132 (march 1972) : 33-47 .

فيقدم تعريفا معاصرا للفوردية باعتبارها استراتيجية رأسمالية للحفاظ على استمرارية التحويل الذاتى لقوة العمل بما يضيف - مع التكنولوجيا المتغيرة - إلى التراكم ، وذلك بربط الأجور والأسعار معا . هذا ويعالج كثير من الكتاب من أصحاب التقليد الجرامشى مسألة الهيمنة من منظور سياسى أكثر مما يعالجونها من خلال تقسيم العمل Roger Simon, Gramsci's Political Thought (London: Lawrence & Wishart, 1982), Ch. 7;

من أجل نظرة شاملة لأزمة فكر الاقتصاد السياسى البريطانى ، انظر :

Heith Nield, " A Symptomatic Dispute ? Notes on the Relation Between Marxian Theory and Historical Practice in Britain, " Social Research 47 (1980) : 479 - 506 .

٢ - فى نقد النموذج التفسيرى السائد فيما يتعلق بالديمقراطية ، اظر :

For a critique of the dominant paradigm Conceming democracy, Peter Bachrach, The Theory Of Democratic Elitism-a Critique (Boston : Little, Brown and Company, 1967) .

٣ - هناك مدرستان فكريتان فى تفسير الفئة العرقية الدنيا فى الديمقراطية البورجوازية ، تؤكد إحداهما على فكرة التقدم من خلال الوحدة الاجتماعية كما يقيسها مرور الزمن ، والأخرى تختلف مع هذا الاتجاه وتشير إلى الانسحاب والاستقلال الوطنى ، وهاتان المدرستان معروفتان جيدا فى الكتابات عن الإيرلنديين فى أيرلندا الشمالية والأمريكيين الهنود والافرو أمريكيين والأمريكيين ذوى الأصول اللاتينية والأسيويين الشرقيين فى الولايات المتحدة ، والفلسطينيين والسود الجنوب أفريقيين ، ومن الدراسات المفيدة عن فكر السود الأمريكيين والتى تعرض لهذه التجاهات : Harold Cruse, the Crisis of The Negro Intellectual

ومن الكتب المعروفة فى المملكة المتحدة عن الجانب القومى ، كتاب :

Michael Hechter, Internal Colonialism - The Celtic Fringe in British National Development, 1536 - 1966 (Berkeley : Univ. of California Press, 1975) .

ومن الكتاب الذين قدموا الموضوع كأحد موضوعات التاريخ المقارن :

George Fredrickson, White Supremacy - A Comparative Study in American and South African History (New York : Oxford Univ. press, 1981) .

وهو عمل يركز على جنوب أفريقيا والجنوب الأمريكى ، والمناقشة هنا مختلفة فهى أولا تأخذ جنوب أفريقيا

والولايات المتحدة ككل ، وثانيا : تركز على العلاقات العرقية أقل مما تركز على الحفاظ على النظام محاولة أن توضح كيف أن مجموعا أصغر يمكن أن يخدم أو يتلاءم مع مجموع أكبر ، إنها الديمقراطية .

٤ - للتعرف على مكانة الأنجلوسكسونية بين المؤرخين ، انظر :

David H . Burton, American History - British Historians (Chicago : Nelson-Hall, 197) :

إن دراسة الحدود أمر مهم بالنسبة لكل الديمقراطيات ، وهى فكرة رئيسية فى كل من الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا ويدعو الكتاب أيضا إلى فكرة « الاستثنائية » التاريخية ، ومن المقالات المهمة التى تعارض الاستثنائية بين الطبقة العاملة الأمريكية :

Sean Wilentz, " Against Exceptionalism : Class Consciousness and the American Labor Movement," International Labor and working Class History no, 26 (Fal l 1984) : 1-24 .

٥ - وبحلول السبعينيات من هذا القرن ، عادت ليبرالية القرن التاسع عشر من جديد ، انظر :

- Robert William Fogel and Stanley L. Engerman' s, Time on the Cross: The Economics of American Slavery (Boston : Little, Brown and Company, 1974).

وقد ناقشا فى كتاب مثير لأشد الجدل أربحية العمل غير المأجور على العمل المأجور .

٦ - من الكتب المعروفة كتاب أحد المؤرخين البريطانيين البارزين ، انظر :

Sheila Rowbotham's Hidden From History - Rediscovering Women in History from the 17 th Century to the present (New York : Vintage Books, 1976); Elizabeth Pleck, Domestic Tyranny : The Making of Social Policy Against Family Violence From Colonial Times to the Present (New York : Oxford Univ, Press, 1987) .

٧ - Ian Harden and Norman Lewis, The Noble Lie-The British Constitution and the by Law Rule (London : Hutchinson, 1986), Chs , 1-4; Phil Scranton and paul Gordon, eds, Causes for Concern - Questions of Law and Justice (Middlesex : Penguin Books, 1984), Ch, 1 .

٨- الكتب الأمريكية حول الأسباب التى ناقشناها فى المتن أكثر وضوحا فى تلك النقاط من الكتب البريطانية ، انظر مثلا :

David W. Noble, Historians Against History (Minneapolis : Univ, of Minnesota Press, 1965).

٩- هناك ارتباط بين دور السياسة الذى يجرى التهوين عموما من مشكلاته والاستخدام المبالغ فيه لمصطلح « الأزمة » انظر: Roger Simon, OpCit وهو يجد « أزمة عضوية » تمتد من ١٩١٠ إلى ١٩٤٥ ، ومن ١٩٧٠ فلاحقا .

١٠- يجارى النص هنا ما ورد فى :

Stuart Hall, "The Rise of the Representative/ Interventionist State," in State and Society in Contemporary Britain eds, Gregor McLennan, David Held and Stuart Hall (Oxford : press, 1984), Cr. 1; Bob Jessop et al, " Thatcherism and the Politics of Hegemony : A Reply to Stuart Hall, " New Left Review no. 153 (Sept, 1985) : 87 - 101.

وهو يقدم انتقادات مختلفة لصيغة هال ، ولكنها لاتبدو مركزة جيدا . إن نمو الاقتصاد غير الرسمى فى منتصف القرن أخطر من أن يكتفى بوصفه بأنه « مأزوم » أو « غير مخطط » .

١١ - John Benson, The Penny Capitalists-A Study of the Nineteenth Century Working - Class Entrepreneurs (Dublin : Gill and Macmillan, 1983) Conclusion; Geoffey Crossick, ed. The Lower Middle Class in Britain 1870 - 1914 (New York : St. Martin' s Press, 1977) .

١٢ - Thomas william Heyck, The Dimensions of Brittish Radicalism : The Case of Ireland 1874 - 1895 (Urbana : Univ. of Illinois Press, 1974); Margaret Ward, Unmanageable Revolutionaries - Women and Irish Nationalism (London : Pluto press, 1983), Ch. 1 .

١٣ - Judith Walkowitz, Prostitution and Victorian Society : Women, Class and the State (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1980) ; Bernard Porter, The Origins of the London Metropolitan Police Special Branch Before the First World War (London : Weidenfeld and Nicholson, 1987) .

١٤ - Stan Taylor, The National Front in English Politics (London : Macmillan Press, 1982), 5 .

١٥ - Stuart Hall and Bill Schwarz, " State and Society, 1880 - 1930, " in The Hard Road to Renewal - Thatcherism and the Crisis of the Left, ed. Stuart Hall (London: Verso, 1988), Holl وهويستشهد بالإمبريالية ، والليبرالية الجديدة الفابية الجماعية imperialist, new liberal and Fabianist roots of Collectivism George Dangerfield, The Strange Death of Liberal England (New york : H. Smith and R. Haas, 1935); : للاطلاع على عرض أولى لتاريخ الفوردية ، راجع Alain Lipietz, Mirages -and Miracles-The Crisis of Global Fordism (London : Verso, 1987), Ch. 2 .

١٦ - John Benson, op. Cit., 135 f f.

١٧ - Ron Ramdin, The Making of the Black Working Class in Britain (Aldershots, Hants, Gower Publishing Co. , 1987) .

Women, Immigration and Nationaml Group, Worlds Apart - Women Under- ١٨ Immigration and Nationality Law (London: pluto press, 1985) , 34 .

- Paul B. Rich, Race and Empire in British Politics (Cambridge : Cambridge Univ. – ١٩ Press, 1986) , Chs. 5 - 7 ; an alternative formulation emphasizes the Jewish immigration as Parallel to that of the Irish and the Commonwealth ones Catherine Jones, Immigration and Social policy (London : Tavistock Publications, 1970), Ch, 4 or Joseph British Movement and Zionism 1917 - 1948 (London : Frank Cass, 1983), 237 - 239 .

إنه لا يبدو معقولا أن نؤكد أن اليهود كانوا فئة عرقية دنيا فى الثقافة البريطانية بالمعنى الكامل للكلمة . لقد تحدث اللورد بلفور عن اليهود كأمة ، وربما كان قد تأثر بفقر اليهود فى إيست أند بلندن فى إعلانه ، ولكن الهيمنة البريطانية لم تُنظم قط حول قهر اليهود ، أخذت المعلومات عن الفترات التى مرت بها المسألة الأيرلندية فى فترتى نهوض وسقوط الجماعية من ..

Belinda probert, Beyond Orange and Green : The Political Economy of the Northern Ireland Crisis (London ; Zed, 1978); Henry Patterson, Class Conflict and Sectarianism - The Protestant Working Class and the Belfast Labour Movement 1868 - 1920 (Belfast : Blackstaff Press, 1980), Conclusion .

- Sheila Rowbotham, op. cit., Ch. 19 . – ٢٠

- Harold Perkins, The Rise of Professional Society in England Since 1880 (London –٢١ : Routledge, 1989), 251 f f .

- Ibid. , 337 . –٢٢

٢٣ – كانت الليبرالية الجديدة ظاهرة عامة منذ سبعينيات القرن ، والملمح الخاص للحالة البريطانية كان هو نقاء التوجه الحرياتى ، أما فى حالة الولايات المتحدة فكانت الحرياتية قد تمزقت بسبب المنافسة مع الأصولية والليبرالية .

- Richard Hoggart, The Uses of Literacy (London: Chatto and Windus, 1957); – ٢٤ Barbara Ehrenreich, Fear of Falling: The Inner Life of the Middle Class (New York: Pantheon,1989) .

- Diane Elson, " Imperialism, " in The Idea of the Modern State eds, Gregor- ٢٥ Mclennan et al, (Milton, Keynes: Open Univ, Press, 1948), 154 - 182, esp, 170 .

٢٦ - Raphael Samuel, " British Marxist Historians, 1880 - 1980: Part One, " New Left Review no, 120 (March 1980) : 21 - 96, esp. 42 ff; Paul K. Conkin, Puritans and praomatists - Eight Eminent American Thinkers (Bloomington : Indiana Univ, Press, 1968); Geoff Eley and William Hunt, eds, Reviving the English Revolution (London : Verso, 1988), 8 - 9;

للاطلاع على الجانب التسامحى للثقافة البيوريتانية ، انظر :

John Carroll, Puritan, Paranoid, Remissve, A Sociology of Modern Cultures (London : Rkp , 1977).

٢٧ - فى دراسة أخيرة ، لام المؤلفون تاتشر على ارتفاع عدد الجرائم التى لم يعرف مرتكبوها ، وأشاروا إلى أن معظم الجرائم التى كانت تحل عن طريق المجتمع المحلى ، وأبدوا أسفهم لركزة سلطة الشرطة فى السنوات الأخيرة وسحبها المسئولية من المجتمعات المحلية ...

Richard Kinsey et al., Losing the Fight against Crime (Oxford :Basil Blackwell, 1986).

ولاشك أن المؤلفين على شئ من السذاجة لمساواتهم بين « الحرب ضد الجريمة » وحل الجرائم ، أن « الحرب ضد الجريمة » البريطانية شأنها شأن « الحرب ضد المخدرات » الأمريكية ، هدفها ببساطة هو القمع العنصرى .

٢٨ - إن حملة نزع السلاح النووى هى حركة خارج النظام الحزبى ، وقد استوعبت حتى الآن قضايا النوع بأفضل مما استوعبت القضايا الطبقية والعنصرية ، من أجل سيرة ستيوارت هال أحد زعمائها انظر :

Robert Gorman, ed Biographical Dictionary of Neo - Marxism (Westport : Greenwood Press, 1985), 197 - 200 for E. P. Thompson, another leader, Bryan D. Palmer,The Making of E. P. Thompson (Toronto : New Hogtown Press, 1981);

إن وجهة النظر الحالية تعكس تقديرا للصعوبات التى واجهت المتحدين السابقين . وعلى سبيل المثال ، لمعرفة مسيرة حياة جيمس كونللى الذى حاول أن يربط العمال الإيرلنديين بالعمال البريطانيين من خلال الأشتراكية ، راجع :

David Howell, A Lost Left - Three Studies in Socialism and Nationalism (Chicago : Univ. of Chicago Press, 1986).

٢٩ - Stuart Hall, " The Great Moving RIGHT Show, " The politics of Thatcherism, eds. Stuart Hall and Martin Jacques (London : Lawrence and Wishart, 1983), 42-3; Stuart Hall et al., Policing the Crisis - Mugging, the state and Law and Order (Now York : Holmes and Publishing co., 1978);

هذا الخط من التفكير يندمج مع مكون آخر فى دراسة أخيرة ، هو اتجاه « أمركة أوربا » ومن الواضح أنه مع انهيار الجماعية قفزت إلى السطح القيم الفردية الاستهلاكية المندمجة مع البيوريتانية ، انظر : Daniel

Snowman, *Britain and America - An Interpretation of their Culture, 1945 - 1975* (New York : Harper and Row, 1977); David Bouchier, *Idealism and Revolution - New Ideologies of Liberation in Britain and the United States* (New York : St. Martin' s Press, 1978).

هو تكملة لكتاب سنومان . وينبرى بوتشيير لمناقشة الاختلافات بين اليسار الجديد فى بريطانيا والولايات المتحدة ، ولكنه ماتكاد الشواهد التى ساقها تجلوها بصورة قوية حتى يحصر مناقشته فى الجماعية البريطانية فى الستينيات .

٣٠ - عندما أرهقت مشكلات الحفاظ على النظام الإمبراطورى البريطانيين انبعثت نزعة جزرية بريطانية ، وتجدّد اهتمامهم بالريف البريطانى والفولكلور خصوصا فى الجنوب ، وصاحب ذلك نزعة لإحياء التيودورية وبحث عن موسيقى إنجليزية تبدى فى عبادة بعض الشخصيات مثل السير إدوارد الجر ...

Philip Dodd, "Englishness and the National Culture, " *in Englishness - Politics and Culture* 1880 - 1920 eds. Robert Colls and Philip Dodd (London: Croom Helm, 1986), 29 ff. *In this Period as well, Heny Tate Openad his gallary of British art*, Malcolm Bradbury, The *Social Context of Modern English Literature* (New York : Schocken Books, 1971), Ch. 3 .

وفى هذه الفترة أيضا ، افتتح هنرى تيت معرضه للفن البريطانى .

٣١ - *Dodd, op. Cit.*, 1 - 23 and im Passim .

٣٢ - Dodd, *op. Cit.*, 17 - 18 .

٣٣ - Perry Anderson, " Components of the National Culture, *New Left Review* No. 50 (July1968):, 3 - 57, esp . 17 ff .

٣٤ - Stephen G. Jones, " State Intervention in Sports and Leisure in Britain Between the Wars, " *Journal of Contemporary History* 22 (1987) : 16 - 182 .

٣٥ - Kenneth Hoover and Raymond Plant, *Conservative Capitalism in Britain and the United States - A Critical Appraisal* (London: Routledge, 1988), 142 .

٣٦ - Joel Krieger, *Reagan, Thatcher, and the Politics of Decline* (Oxford : Oxford Univ. Press, 1986), 63.

٢٧ - Hoover and Plant, *op. Cit.*, 141 .

٢٨ - John Gyford, *The Politics of Local Socialism* (London : George Allen & Unwin, 1985); Sheila Button, " Women' s Committees - A Study of Gender and Local Government Policy Formulation, "(Univ, of Bristol: School for Advanced Urban Studies, Working Paper No. 54, 1985) .

٢٩ - Anthony Easthope, British Post - Structuralism Since 1968 (London:- Routledge, 1988), Ch. 13; Terry Eagleton, Literary Theory - An Introduction (Minneapolis : Univ. of Minnesota Press, 1983) .

٤٠ - C. O. Brink, *English Classical Scholarship - Historical Reflections on Bentley, Porson and Housman* (Cambridge : James Clarke & Co., Ltd., 1986), 116 ff , 198; John Kenyon, *The History Men - The Historical Profession in England Since the Renaissnce* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1983), 171; Colin Renfrew, *Archaeology and Language - The Puzzle of Indo - European Origins* (London: Jonathan Cape, 1987), 285, 288; Glyn Daniel and Colin Renfrew, *The Idea of Prehistory* (Edinburgh Univ. Press, 1988), 166 - 7, 171, 173 , 180, 193 - 4 .

تبدو كتابة رينفرو توقعا مسبقا لدخول بريطانيا المجموعة الاقتصادية الأوربية فى ١٩٩٢ ، كما تبدو أيضا خط دفاع حذر ضد مارتن برنالى فى كتابه « أثينا السوداء » بأن الحضارة الأوربية تحتوى كثيرا من العناصر الأفريقية ٢٠٣ – وكان العالم الأمريكى لويس بينفورد معلم رينفرو الثقافى فى مثل هذه الأمور ومؤلف كتاب « العظام : البشر القدامى والأساطير الحديثة أكثر مباشرة فى معالجته لهذه القضية الخلافية ، وهو فى كتابه هذا يحاول أن يظهر أن العظام والمصنوعات اليدوية فى المواقع الأفريقية لايمت أحدهما للآخر بصلة . وقد استشهد دانييل ورينفرو بأقواله فى المرجع السابق ص ١٨٧ .

٤١ – أورد شيرلى ويليامز الوزير السابق بمجلس الوزراء ورئيس الحزب الاشتراكى والحزب الليبرالى الديمقراطى ، هذه الانتهاكات فى :

" The New Authoritarianism, " *The Political Quartetly* 60, No. 1 (1989) : 4 - 9; Stuart Hall, " Gramsci's Relevance for The Study of Race and Ethnicity, " *Journal of Communication Inguiry* 10, no. 2 (1986) : 5 - 27 .

٤٢ - Wyn Grant, " The Erosion of Intermediary Institutions, " *The Political Quarterly* 60, No. (1989) 14 - 15 .

٤٣ - Jeremy Tunstall, *The Madia in Brdtain* (New York : columbia . Umiv, Press, 1983), 21, 127 , 136, 226, 237.

يلاحظ تونستال فى ص ٣٢ المستوى العالى لمشاهدى التلفيزيون فى المملكة المتحدة فى ١٩٥٤، والذى لايفوقه فى العالم سوى المشهد العام فى الولايات المتحدة . وفى ص ٥٦ ومابعدها أمثلة على السيطرة الرسمية على وسائل الإعلام ولدراسة أكثرتفصيلاً للتلاعب الحكومى فى المنطق العام فى بريطانيا فى فترة مابعد الحرب ، أنظر :

William Crofts, *Coercion or Persuasion ? Propaganda in Britain after 1954* (London: Routledge, 1989);

وللإطلاع على مناقشة الوصاية على الفن كجزء من الحفاظ على التصنيف الاجتماعى ، راجع :

Carol Duncan, " Who Rules the Art World," Socialist Review 13, No. 4 (July 1983) : 99 - 119 .

٤٤ - منذ مارشال ماكلوهان دأب الكتاب على وصف الأكاديمية فى عصر وسائل الإعلام (الميديا) بأنها حفريات ، وفى هذا مبالغة واضحة .

٤٥ - لم تشق الولايات المتحدة طريقها متعصبة لنفسها فحسب ، بل فعلت ذلك أيضا بالبحث العلمى ، أنظر :

Ray Billington, The Historians, Contribution to Anglo - American Misunderstanding (London: Rkp, 1966);

ولأسباب تتعلق بإمكانية التحقيق لن تتعرض لدراسة التاريخ المحلى البريطانى ، وهو مجال لايكثر من الإلحاح المباشر على فكرة المؤرخين والهيمنة . وبالمثل لم يتم التأكيد على عمل المؤرخين الإمبراطوريين على افتراض أن كثيرا من هذا العمل ليس له معنى تاريخى مهم ، لأنه لايعدو أن يكون ببساطة معرفة أرادتها الحكومة ، واستخدام المؤرخون ضمن أخرين لتقديمها ، انظر مثلا :

Robin Winks, ed., The Historiography of The British Empire Common Wealth (Duke univ - Press, 1966 .

٤٦ - Gareth Stedman Jones, " The Pathology of English History, " *New Left Review* No. 46 (November 1967) : 29 - 43 .

٤٧ - Rosemary Jann, " From Amateur to professional : The Case of The Oxbridge Historians," *The Journal of British Studies* 22, No. 2 (1983) : 122 - 146 .

٤٨ - فى مناظرة مشهورة ، قدم ديفيد كانادين وجهة النظر التاتشرية فى مواجهة عدد من النقاد ، انظر :

" British History : Past, Present - and Future ?" *Past and Present* No. 116 (August 1987) : 169 - 191; No. 119 (May 1988) : 171 - 203 .

٤٩ - Keith Robbins, " *History*, The Historical Association and the National Past, " *History* 66 (1981) : 413 - 425,

.... يلاحظ دور أليس ستوبفورد فى دفع الجامعات الأيرلندية والإنجليزية إلى تدريس التاريخ الأيرلندى الحديث فى ثلاثينيات القرن وإنشاء قسم للتاريخ الاسكتلندى منذ ١٩١١، وقسم لتاريخ ويلز منذ ١٩٣٠ ، وليس من المدهش أن يكون السود فى بريطانيا المعاصرة على جدول الأعمال .

٥٠ - F. J. Byrne, " Macneill," *The Historiam, in The Scholar Revolutionary: Eoin Macneill, 1867 - 1945, and The Making of the New Ireland*, eds. Francis X. Martin and F. J. Byrne (Shannon : Irish Univ. Press, 1973),

لم يكن ماكنيل « أفضل العلماء » ودائما ماكان النقاد يهاجمونه .

٥١ - للإطلاع على معلومات عن الكتاب الذين استخدموا التاريخ عندما أصبح حرا مثل طومسون ، وستيورات هول ، الأمريكى يوجين جينوفير ، انظر :

- Richard Johnson, " Edward Thompson and Eugene Genovese, and Social - *Humanist* History, " *History Workshop* No. 6 (August 1978): 79 - 100; Perkins, op. cit., Doris S. Goldstein, " The Organizational Developmant of the British Historical Profession, 1884 - 1921," *Bulletin of the Institute of Historical Research* 55 (1982) : 180 - 193 .

٥٢ - Deborah Wormell, *Sir John Seeley and The Uses of History* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1980), Introduction, 44 - 5, 60, 120 - 1; Jann, *op cit.*, 139 - 140 .

٥٣ - P. B. M. Blaas, *Continuity and Anachronism* (The Hague : Martinus Ni jhoff, 1978), xii; عن تاريخ الفوضوية في الولايات المتحدة ، أنظر : Peter Novick' S, *That Doble Dream - The " objectivity Question " and the American Historical Profession* (Cambridge : Cambridge Univ. Press, 1988) .

٥٤ - Frank Turner, " British Politics and the Demise of the Roman Republic : 1700 — 1939," *The Historical Journal* 29, No. 3 (1986): 577 - 599, esp. 595 .

٥٥ - Edward Kealay, " Recent Writing About Anglo - Norman England," *The British Studies Monitor* 9, No. 1 (1980): 3 - 22, esp. 16 .

٥٦ - James Smallwood, " A Historiscal Debate of the 1960' s: World War II Historiography - The Origins of the war, A. J. P. Taylor, and His Critics," *Australaian Journal of Politics and History* 26 (1980) : 402 - 410 .

وهـو يـرى أن تايلور – مثل الذين هادنوا هتلر فـى الثلاثينيات – عاجـز عن فـهم « العقل الشمولى » . إن الخوف من المهادنة على حساب المبادئ ثم أخيرا من « الإرهـاب » هـاجس رئيسى فـى « العقل البيوريتانى » الذى عـاد إلى الظـهور فـى السبعينيـات . الفوضى النـاجمة عن ذلك فى التاريخ السياسى الليبرالى التقليدى هى موضوع ريتشارد برنت ، انظر :

" Historiographical Review - Butterfield's Tories : High Politics' and the Writing of Modern British Political History," The Historical Jouncal 30, No. 4 (1987) : 943 - 954; Geoffrey Barraclough, *An Introduction to Contemporary History* (New York : Basic Books, Inc., 1964) .

٥٧ - John Field, " British Historians and the Concept of Labor Aristocracy, " Radical *History Review* No. 19 (Winter 1978) : 61 - 85; Jonathan Zeitlin, " From Labour History to the History of Industrial Relations, " *Economic History Review* 60, No. 2 (1987) : 159 - 184 .

٥٨ - أظهر ملخص للأفكار التى طرحت حول هذا الموضوع فى السنوات الأخيرة مرة أخرى انتصاراً فكريا حاسما لهو بسباوم ، انظر :

E. J. Hobsbawm, " The Standard of Living During the Industrial Revolution, " *Economic History Review* 16, No. 2 (1963 - 4) : 119 - 146 With replies by the well - known liberal historian, R. M. Hartwell .

٥٩ - David Cannadine, " The Present....", 131 - 172; Harvey J. Kaye, *The British Marxist Historians* (Oxford : Polity Press, 1984) 138 ff .

٦٠ - E. J. Hobsbawm et al., " *Past and Present* - Origins and Early Years, " *Past and Present* No. 100 (August 1983) : 3 - 28 .

٦١ - حول التاريخ العرقى ، انظر :

Stewart Brown, " Assimilation and Identity in Modern Scottish History, " *Journal of British Studies* 25, No. 1 (1986) : 119 - 129 .

تبدو محاولات حكومة تاتشر لجعل التاريخ المحلى بديلاً للتاريخ الوطنى غير عملية ، حتى فى نظر معلق متعاطف ، ولذا فلن أناقشها هنا ، انظر :

J. R. Lowerson " Local and Regianap History in Southern Tertiary Education " *Southern History*, 2 (1980) : 228 - 46 .

٦٢ – مع قيام الاتجاه التحررى فى عدد من الدول الغربية ، سعى الشيوعيون الأوربيون الجدد إلى التلاؤم معه ، على سبيل المثال ، اتجاه مجلة « الفيلسوف الجديد » الفرنسية ، والاحتفـاء بثورة الاتصالات مثلما فعل جان فرنسوا ليوتار ، أنظر :

The Postmodern Condition : A Report on Knowledge (Minneapolis : Univ. of Minnesota Press, 1986) 3ff. ;

وللاطلاع على تحليل أدق لثورة الكمبيوتر ، راجع :

Barbara Garson, The Electronic Sweatshop : How Computers are Transforming the Office of the Future into the Factory of the Past (New York : Simon and Schuster, 1988); Ellen Meiksins wood, The Retreat From Class - A New' True' Socialism (London: Verso, 1986) .

وهو عرض شامل لتلاؤم الماركسية مع « الديمقراطية الاجتماعية » والحرياتية فى السبعينيات .

٦٣ - Francois Dosse, L' Histoire en Miettes - Des Annales a la Nouvelle Histoire (Paris : Editions la Decouverte, 1987). 193 ff., 207 .

٦٤ - Lawrence Grossberg, " History, Politics and Postmodernism: Stuart Hall Cultural Studies, " Journal of Cmmunication Inguiry 10, no. 2 (Summer 1986) : 61 - 77 .

حول بودريليارد وتشاؤمه لاحظ ستيوارت هال أن دعاة التحرير فى العالم الثالث تعلموا استخدام وسائل الإعلام الحديثة لاختراق الوعى الغربى .

٦٥ - Raphel Samuel, " on the Methods of History Workshop : A Reply, " History Workshop no. 9 (Spring 1980) : 162 - 176, esp. 173 - 4 .

٦٦ - Peter Burke, " Reflections on Historcal Revolution in France: The Annales School and British Social History, " Review 1, no. 3 - 4 (Winter - Spring 1978) : 147 - 156; "Comments " 157 - 163 .

وهـو يقرر أن تقليد الحـوليات يعـود إلى كـتـاب « المـاضى والحـاضر » للفين دويوفسكى ، ويعلق المؤرخ والأمريكى على عمل عوبرت جوتمان وكُتّاب " New Social History" ناعتا إياهم بأشباه الحوليين ، ١٨٢ ، ويتعلق بهـذه النقطة اعتراف مدرسة كمبردج بدينها لهذه المجلة الأمريكية ومجلة " New economic History" ويبدو أن هذا كان هـو طريق مدرسة الحوليات إلى بريطانية ، وعلى سبيل المثال هاجمت مدرسة كمبردج الماركسية على سنن التقليد الحولى ...

٦٧ - Gregor Mclennan, Marxism and the Methodologies of History (London : Verso, 1981), 141; Elizabeth Fox - Genovese and Eugene D. Genovese, Fruits of Merchant Capital (Oxford : Oxford Univ. Press, 1983), 205; وتقديم كتابات روبرت برير المؤرخ الأمريكى نقدا عنيفا لمدرسة الحوليات ، انظر :

the American Historian, see The Bryenner Debate, eds. T. H. Aston, and C. H. E. Philpin, (Cambridge : Cambridge Univ. Press, 1985).

٦٨ - Geoff Eley and William Hunt, op. Cit.

٦٩ - Kevin Davis, " Thompson, Edward p.," in Biographical Dictionary of Neo - Marxists, ed. Robert A. Gorman (Westport : Greenwood Press, 1958), 409 - 411. وضع رايموند ويليامز وريتشارد هوجارت الأساس الفكرى للشعبية اليسارية فى الآونة الأخيرة انظر :

Cf. Paul Jones, " Organic' Intellectuals and the Generation of English Cultural Studies," Thes is Eleven nos. 5, no. 6 (1982) : 85 - 124.

٧٠ - Ellen Meiksins Wood, " The Politics of Theory and the Concept of Class : E. P. Thompson and His Critics, " Studies in Political Economy 9 (1982) : 52 ff; Easthope, op. Cit., 100 - 103. قامت إلن وود وغيرها من الكتاب بمتابعة هذا الخط النقدى فى Harvey J. Kaye and Keith Mcclelland, eds. E. P. Thompson - Critical Perspectives (Philadelphia : Temple Univ, Press, 1990).

والنقطة الرئيسية ليست انسياق تومبسون من جسم الرأسمالية إلى الخبرة الطبقية ، ولكن هى ماوجده أولم يجده فى الخبرة الطبقية مما يمكن أن يساعد فى التغلب على الانقسام العرقى .

الفصل العاشر

البرجوازية الديمقراطية : الولايات المتحدة الأمريكية

(١٨٧٧ - ١٩٩٠)

يقدم هذا الفصل مثلا ثانيا للهيمنة المسماة بالديمقراطية البرجوازية هو الولايات المتحدة فى الفترة ١٨٧٧ – ١٩٩٠ ينقسم هذا الفصل كسابقه إلى أربعة أقسام : يشكل أولها ، ملامح هذا التفسير فى علاقته بالتفسيرات الأخرى [١] ويصف ثانيها ، الاقتصاد السياسى للولايات المتحدة من ١٨٧٧ الى ١٩٩٠ . وينظر الثالث ، فى تنظيم الثقافة باعتباره جزءا من هذا الاقتصاد السياسى . أما الرابع ، فيحلل كتابة الأمريكيين للتاريخ باعتبارها جزءا من تنظيم الثقافة .

ولا يثير قولنا هنا إن التاريخ الحديث عن الولايات المتحدة يتصف على أفضل وجه بخصائص الديمقراطية البورجوازية جدلا ، بافتراض اتباع الصياغات الأكثر اصطلاحية الواردة فى الفصل السابق . ففكرة الشعب المختار جاءت الى أمريكا صرخة فى البرية " تقفو أثر قصة موسى الذى ذكر العهد القديم أنه خلّف وراءه فساد مصر . وكانت أمريكا مثل صحراء سينا أرضا للحرية ، وهى حرية تسمح للشعب المختار بأن يشحذ عزيمته .. ويرتبط بذلك أن شمال أمريكا لا يسكنه أناس بعد وجودهم سببا فى اختلاف الصورة .

وبمرور الوقت نشأ تيار آخر من داخل النموذج التفسيرى السائد ؛ تيار أكبر اهتماما بما هو حديث هنا والآن ، واتخذ صورة تاريخ رسمى وضعى أو ماركسى ، واتخذ من فكرة الانتخابات شيئا مسلما به تغليبا للتجسيد المعاصر لفكرة المختارية على تجسيدها من خلال أسطورة الأصول .

ويثير هذا مسألة تحديد مبدأ التاريخ الحديث ومعنى الحداثة . تقترح إجابات المؤرخين الأمريكيين نقاطا عديدة على امتداد الفترة من الحرب الأهلية الى الحرب العالمية الأولى ؛ مماهو ببساطة فصل آخر فى التمدن الأمريكى إلى ما يمثل مرحلة

فريدة تجاوزت الحدود الوطنية ؛ على نحو ما يفهم من عبارات مثل القرية الكونية ونهاية التاريخ .

يرسم المتخصصون فى دراسة تكوين الدولة القومية الحديثة موضوعهم بصورة نموذجية من خلال فترات متعاقبة محددة بدقة : فالحقبة التى أعقبت ١٨٧٧ تطلق عليها أوصاف مختلفة : العصر الذهبى (١٨٧٧ ١٩٠٠) ، أو مولد الجنوب الجديد (١٨٧٧ -- ١٩٠٠) ، أو تنمية الغرب (١٨٦٥ ١٩٠٠) ، أو السياسة القومية (١٨٧٧ – ١٩٠٠) . وتلى ذلك حقبة تقدم تدريجى . " التحول إلى قوة عالمية " (١٨٩٦ – ١٩٢٠) ، وظهور أمريكا " كقوة عظمى " وهى فترة تواكب عصر " الحرب العالمية) . وبعد الحرب الأولى تأتى حقبة " ازدهار كولدج " ، فالكساد العظيم ؛ فالنظام الجديد (النيوديل) ، فالحرب الباردة .. إلخ . إن هذا الصنيع يشكل تاريخا حديثا من جهة ويعزز إيديولوجية الشعب المختار من جهة أخرى ، ويطرح فكرة تفرد التاريخ الأمريكى والطبيعة الحسية للخبرة الأمريكية ، ومن ثم فى النهاية اعتماد الأمريكين على تراثهم الخاص .

إن المعالجة المقترحة فى هذا الفصل تقف إلى جانب الحداثيين ، ولكنها مصممة بحيث تستظهر ما تشترك فيه البلاد مع غيرها من الديمقراطيات لتظهر بعد ذلك مواطن الاختلاف عنها . وقد تبين بعد هذه المعالجة أن الولايات المتحدة طورت وجود فئة عرقية دنيا ، وأنها تلعب بورقة العمال البيض ضد السود . وهى لا تفعل ذلك عند التعيين فى الوظائف فقط ؛ وإنما أيضا فى ميادين التعليم والإعلام .. إلخ . وهذا يجعل الولايات المتحدة ديمقراطية بالمعنى الذى تم تحديده لهذا المصطلح حتى الآن [٢] . ولكن المرء يلاحظ أن فرص الديمقراطية كان أقل اكتمالا أو على الأقل لقى مقاومة أكبر مما كان عليه الحال فى المملكة المتحدة ؛ فالعمال البيض لم يصبحوا عنصريين كما كان متوقعا منهم ، والسود قرّ عزمهم على الاندماج وعدم قبول وضع الدولة المنفصلة وأدى عجز الدولة عن " الأمركة " الفعلية لذلك العدد الهائل من السكان المهاجرين بحيث

ينخرطون فى الكراهية العنصرية إلى دفعها إلى الاستثمار فى المزيد والمزيد من وسائل القمع . وبدا هذا ناجعا فى السنوات التسعين الأولى من سبعينات القرن الماضى إلى ستينات هذا القرن ، لأن البلاد كانت تشهد نموا مستمرا ، وفيما بعد دفعت التحديات التى مثلتها الطبقة العاملة وحركات الحقوق المدنية الصناعيين إلى خارج البلاد ، تاركين البلاد للرأسمالية المالية ، وطفت على السطح سياسيا مجموعات اليمين المسيحى وليبرالى عهد الليبرالية .

إذا استطعنا تبنى هذا الغرض أمكننا أن نبنى التاريخ الأمريكى بحيث تشابه مراحله مراحل التاريخ فى الديمقراطيات الحديثة الأخرى . وإذا اخترنا ، كحل وسط سنة ١٨٧٧ ، كنقطة انطلاق للتاريخ الحديث فسيكون جليا أن الولايات المتحدة دخلت مرحلة من حكم الطبقة الواحدة أو الليبرالية الكلاسيكية أو الرأسمالية المالية كما فعلت بلاد كثيرة أخرى في نفس الوقت تقريبا .

وقد استمرت هذه المرحلة حتى سنة ١٩٣٢ ، وبعبارة أخرى غطت هذه المرحلة الفترة الزمنية للتحديات التى مثلها رجال الحزب الشعبى (*) والوبليون Wobblies (**) وأخرون وصولا إلى تحديات فترة الكساد العظيم . أما الفترة ١٩٣٢ - ١٩٧٠ فقد كانت فترة حكم عابر للطبقات أو إدماجية . والآن أصبح الشيوعيون وأخرون للمرة الأولى يقفون غالبا إلى جانب الدولة . وقد ترافقت هذه الفترة مع سيطرة نسبية للرأسمالية الصناعية ، ونجح النظام خلال فترة معينة ؛ وبشكل ملحوظ خلال سنوات الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة ؛ فى الحد من التحديات عن طريق المطالبة بالمزيد من الوطنية . ولكن التحديات بدأت تنمو تدريجيا كما لاحظنا سابقا إلى الحد الذى أصبحت مواجهتها عنده أصعب فأصعب ؛ خصوصا مع ازدياد ضعف القدرة

(*) حزب الشعب الأمريكى أنشىء عام ١٨٩١ ، ودعا إلى سيطرة الدولة على السكك الحديدية ، والحد من الملكية الخاصة للأراضى (المراجع)

(* *) أعضاء اتحاد عمال الصناعة العالمى Industrial workers of the world (IWW) وقد أطلقت عليهم كلمة Wobblies وهى كلمة دارجة مجهولة الأصل اللغوى (المراجع) .

التنافسية الصناعية الأمريكية . وأخيرا ، فإن الفترة من عام ١٩٧٠ إلى الوقت الحاضر تتميز بعودة إلى ليبرالية القرن التاسع عشر ، وإلى ثقافة سياسية واقتصادية تُعَدّ بمعنى من المعانى أكثر نقاء من الثقافة الأصلية . وأصبح للرأسمالية المالية فى السنوات الأخيرة سيطرة كلية فعلية على سائر الاقتصاد ، وعاد التحدى فى هذه المرحلة ليتركز على المستوى المحلى .

إن لكل مرحلة من المراحل أشكالها المتميزة من النضال ، ومن تنظيم الدولة الثقافة ، ومن القمع (٣) .. فقد شهدت المرحلة الأولى ظهور الطرف الثالث ؛ الحركات الإقليمية والمحلية ، وغض الطرف عن قيام منظمات خارج ما يسمح به القانون مثل كلوكلوكس كلان . أما المرحلة الثانية ، فكانت مرحلة نضالات مثل النضال حول الحقوق المدنية والنضالات النقابية . وشهدت المرحلة الثالثة ، تحول النضال إلى المستوى المحلى والإقليمى ، ومنازعة الجانب العرقى للجانب الطبقى فى تخصيص الاعتمادات فى ميزانية المدن .

كذلك أثرت طبيعة التحالف الذى تمثله الدولة على أشكال النضال . إن الدولة الأمريكية يمكن أن توصف بالدولة المنضبطة ؛ فهى تبنى الأجنحة المسيطرة للرأسمالية الأمريكية : الرأسمالية الدولية فى الساحلين الشرقى والغربى ، والرأسمالية الوطنية فى وسط الغرب والجنوب ؛ ثم تستثمر التناقض فيما بينهما لتكسب وتعزز مواقعها . وبالطبع ، فإن الانضباطية تنطوى على البيروقراطية ، وما يترتب على ذلك من أن كثيرا من النضال الذى يجرى فى الولايات المتحدة إنما تحكمه قيود البيروقراطية .

وباختصار ، فإن هذا الفصل يسعى لاقتراح بديل للمعالجة التى ترى فى الحالة الأمريكية حالة استثنائية ، وهو الأمر الذى ينتهى فى الممارسة إلى جعل التاريخ الأمريكى متصلا بالنزعة المركزية الأوربية .

الاقتصاد السياسى فى الولايات المتحدة
(١٨٧٧ - ١٩٠٠)

إذا جاز لنا أن نتبنى معالجة للاقتصاد السياسى تركز على الصراع بين الحاكم (الدولة والطبقات الحاكمة الإقليمية) والمحكوم (الطبقة العاملة التقليدية) والمجموعات التى قد يثار النزاع بينها وبين الطبقة العاملة : الأمريكيين الأفارقة والجنوبيين البيض الفقراء ، فسيبدو أننا نستخدم هذه المعالجة على أفضل وجه وبأقل قدر من المحاذير . وكما قلنا في القسم السابق ، ووفق ما تذهب إليه كثير من الدراسات المعتبرة - أيضا - كانت مساومة ١٨٧٧ بداية هذه الاستراتيجية ، ومن ثمَّ أصبحت صالحة كنقطة بداية لقصة التاريخ الحديث .

إن الحرب الأهلية (١٨٦٠ - ١٨٦٥) مثلت معلما هاما فى وحدة المجتمع عندما هزم الشمال الرأسمالى الجنوب العبودى ؛ ولكنها لم تحقق حلا سياسيا ؛ فالصفوة الجنوبية لم تقبل أن يصبح العبيد السابقون مواطنين أكفاء . وفى سبعينات القرن الماضى أدت النضالات العمالية فى الشرق والاضطرابات فى الغرب إلى تفاقم عدم الاستقرار السياسى .

ولكن إعادة صياغة الهيمنة فى عام ١٨٧٧ ، أعادت السلطة الى الصفوة الجنوبية وانتهت المحاولات الفيدرالية لإصلاح الحقوق المدنية فى تلك المنطقة . وفى المقابل كسبت الرأسمالية الشرقية الجنوب كسوق للعمل ومورد للأخشاب والمنتجات الزراعية والمنسوجات . وهكذا ، عادت الهيمنة إلى الاعتماد على الأقلية كدعامة للعنصرية . لقد كان نظاما استهدف الحفاظ على مصالح " الشمال والجنوب " التاريخيين والحفاظ على مصالح الدولة التى لعبت دور الحكم والمنظم .

إن مصطلحات مثل المنطقة والإقليمية لها دلالات مختلفة فى الخطاب التاريخى الأمريكى ، فالمنطقة هنا تستخدم بمعنى ضيق للإشارة إلى نوعين من الكيانات

الاجتماعية الاقتصادية : أحدهما تسيطر عليه رأسمالية الساحل الشرقى المندمجة ، ويضم إليه – على الأقل حتى سنة ١٩٧٠ " الجنوب الجديد " والمدن الكبرى فى وسط الغرب وعلى ساحل الباسفيك . أما المنطقة الأخرى فكانت تسيطر عليها الرأسمالية الوطنية ، وتتكون من الولايات التى تعرف عادة ب " ثقافة المركز " . وفى هذا الفصل سوف تنصب ثقافة المركز على الجنوب ؛ حيث تطفو القضية العرقية قريبا من السطح هناك . وأى رواية للتاريخ الأمريكى تولى اهتماما أكبر وخالصا لمناوأة الهيمنة كجزء من هذا التاريخ ، يجب أن تتضمن أيضا وصفا للنضال الشعبى فى الغرب البعيد وأعالى الغرب الأوسط .

ولقد وصُفت هنا الاستراتيجية السياسية التى ظهرت على أعلى المستويات بالدولة المنضبطة . ويمكن أن يفهم قرار الحكام بالحكم من خلال دولة منضبطة على أفضل نحو بثلاث طرق رئيسية : إنه طريقة لترشيد المصالح المتصارعة . وهو بنفس الدرجة طريقة لتشجيع المصالح المتصارعة بما يعطى الدولة مزيدا من السلطة - وأخيرا وهو الأمر الأهم – كانت الانضباطية هى طريقة التصدى للصراع الطبقى ، فالرأسمالية الأمريكية لم تكن تستطيع أو لم تكن ترغب فى شراء سكوت الطبقة العاملة على نحو ما فعل بسمارك فى ألمانيا . وكان الحل المثالى إقامة نظام من حزبين يباعد ما بين التقسيمات العنصرية والإقليمية .

وهكذا ، أقيم هيكل للسلطة يتألف من خريجى مدارس الساحل الشرقى الذين أصبحوا موظفين مدنيين ، بينما أخذ الجنوب والغرب على عاتقهما تزويد الهياكل العسكرية والدينية بما يلزمها من قوى بشرية . أما المراكز المهمة فى كل من هذه الهياكل فيتم تخصيصها تبعا لقوة كل جناح من أجنحة الرأسمالية .

سرعان ما تشكلت المعارضة لهذا الهيكل من السلطة على طول الخطوط الطبقية والإقليمية والعنصرية والحركات النقابية والحركات الشعبية وحركات الحقوق المدنية . وكان ما تبع ذلك من نضال بين الحاكمين والمحكومين – لا من قبيل الإجماع العام هو ذلك الذى شكل التاريخ التالى . ولنلق الآن نظرة سريعة على هذه الهياكل من المعارضة .

كانت النقابات جزءا من التحدى الذى يواجه الهيمنة منذ البداية . ولم يكن هذا التحدى قط تحديا سهلا بالنسبة للدولة ، على الأقل حتى سنة ١٩٧٠ عندما أتيح للرأسمالية خيار المغادرة . وكان الهجوم على النقابيين صعبا ، لأنهم أصروا دائما على اجتناب السياسة واتباع خط نقابى حر ، ولكن يبقى أن استراتيجياتهم – كما لاحظ ناقدوهم – كان لها عدد من النتائج التى لم تكن كلها إيجابية . فربما استطاعوا أن يتخلصوا من الهجوم على أرضية سياسية ، ولكنهم أيضا تعرضوا للالتفاف حولهم اقتصاديا وللاستقطاب ثقافيا . ولأن تركيز الحركة النقابية كان فى الشمال والشرق استطاعت الدولة أن تثير منطقة ضد أخرى مستغلة القضايا العمالية ، ولأن النقابات تجنبت التعرض للسياسة الرسمية – برفضها مثلا مقترحات الشيوعيين – فقد استطاعت الدولة أن تتبع سياساتها فى الداخل والخارج دون خشية من معارضة سياسية . وهذا يقودنا إلى موضوع الإمبريالية .

استطراد الفرص المتاحة للولايات المتحدة لتصبح إمبريالية :

حتى هذه النقطة اقتربنا من موضوع الإمبريالية بصورة غير مباشرة من حيث مفهوم الكتاب في مختلف الهيمنات لها ، أو من حيث نزوع مختلف أنواع الحكام إلى التحالف مع الإمبرياليين ، مع بعض الإشارات السابقة إلى الإمبريالية تناثرت خلال المناقشات حول القوى العظمى . والآن دعنا نعرض مباشرة ديناميكيات الإمبريالية فى التاريخ الحديث ، فنادرا ما يقدم أحد عرضا للاقتصاد السياسى للولايات المتحدة لا يتناول هذا الموضوع .

إذا جاز لنا أن نجازف بتعميم حول كل الدول الإمبريالية الحديثة ، وكل القوى العظمى التى تعد الولايات المتحدة واحد منها ، فإن لنا أن نقول إن المنظرين بالغوا فى أهمية مكائد النخب السياسية الغربية وأهمية منطق الرأسمالية الداخلى والتراكمية ، ولم يقدروا التفسيرات متوسطة المدى حق قدرها ، وذلك مثل التفسيرات التى تعول على طبيعة تنظيم الطبقة العاملة وتنظيم هياكل السلطة فى العالم الثالث ، فإذا نظرنا على هذا المستوى ، فإن ما يبرز لنا هو أن الطبقات العاملة فى البلدان الإمبريالية لا تتقدم بمطالب سياسية رسمية . وتستطيع الطبقة الحاكمة أن تستخدم هذا الصمت – إذا

شاعت – كصورة من صور التسليم بمشروعات التوسع والاستغلال فى الخارج . ويبدو أن هذا هو الحال حتى فى بلاد كالولايات المتحدة ، حيث تحمل الكولونيالية وصحتها ، وتضطر الامبريالية فى الغالب أن تتخذ شكل التدخلية ، بمعنى إرسال مشاة البحرية بدلا من إقامة بيروقراطية كولونيالية .

وفى حالة الولايات المتحدة أعطت ترتيبات الطبقة العاملة فى أواخر القرن التاسع عشر فى ادعاء تجنب السياسة واتخاذ موقف « النقابية الحرة » الرأسمالية فى الولايات المتحدة فرصة هامة ، واستمرت هذه الفرصة قائمة فى الوقت الذى كانت فيه فرص منافسيها – مثل بريطانيا العظمى – تتقوض بسرعة من جراء نهوض حزب العمال فى أوائل القرن العشرين .

وابتداء من ثلاثينات القرن الحالى ، سمحت قيادة الحركة النقابية فى الولايات المتحدة للدولة بأن تستقطبها ، مما جعل الإمبريالية الأمريكية تتطور بشكل أسرع وسرعان ما أصبح « السلام الأمريكى » نظاما عالميا جديدا ترأسه الولايات المتحدة . وعلى الرغم من ذلك ، فإن عدد العمال النقابيين أصبح أقل فأقل . وقد تطورت الإمبريالية أيضا في حالتى الاتحاد السوفيتى واليابان ، ولكن إيديولوجية الطبقة العاملة فيهما اختزلت فى نوع من عبادة الحاكم . وكان هذا هو الحال جزئيا فى ألمانيا أيضا .

برز دور العمال أيضا فى المرحلة الباكرة من قيام الاتحاد السوفيتى . لقد كانت روسيا قوة إمبريالية كبرى فى القرن التاسع عشر قبل أن يرتفع للعمال صوت . وفى السنوات الأولى من الثورة البلشفية خمدت الإمبريالية لأن مطالب الطبقة العاملة حولت اهتمام الدولة إلى الداخل . ثم بدأت الإمبريالية من جديد فى الحقبة الستالينية مع احتكار الدولة للساحة السياسية .

إن أكثر ضحايا الإمبريالية فى العصور الحديثة هم الأفارقة . وهذه نقطة لم تشرحها بسهولة النظريات التقليدية عن الأمبريالية ، ففى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن سهلا تمييز حالة أفريقيا عن حالة الهند أو جنوب شرق آسيا أو الشرق الأوسط . ولكن أفريقيا بعد قرن من الزمان انتهت إلى حضيض الفقر المحبط ، وبينما يمكن

تفسير جزء كبير من ذلك بديناميكيات موجودة داخل أفريقيا نفسها ، فلا يسع المرء أن يغفل الدورالهام الذى لعبته الديمقراطيات فى أفريقيا فى ذروة الكولونيالية والإمبريالية . كيف أمكن السماح بتدمير الحياة الأفريقية ؟ إن الإجابة سوف تنبع فيما يبدو من ديمقراطية الإمبرياليين . ففى المجتمعات المنقسمة عرقيا كما هى الحال فى الديمقراطيات تسمع شكاوى المواطنين الملونين المحلية ، ولكن مناطق مثل أفريقيا حيث تتجسد صورة العرق الأدنى بأجلى معانيها فى المخيلة الغربية تصبح جبهة أمامية يمارس فيها الاستغلال بأبشع مما يمارس فى أى مكان آخر .

وعلى أى حال - وتكرارا لنقطة أثرناها فى فصول سابقة - فإن كثيرا من حكام الطريق القبلى - العرقى / وليس فقط أولئك الموجودون منهم فى أفريقيا / قد اختاروا التعاون مع الإمبريالية الغربية . ودوافعهم إلى ذلك - كما أشرنا فى فصول سابقة - ما تزال غير مفهومة جيدا : فربما خاف بعضهم من أن يأتى فائض الأوربيين ليشكلوا دولة استيطانية على أرضهم أكثر من خشيتهم من التجارة غير المتكافئة . وربما خشى بعضهم من تهديد طبقاتهم العاملة ، وكانوا مستعدين للتسليم للمصالح الاقتصادية الخارجية أو الاستعمار مقابل ضمان أمنهم الشخصى . ويبدو أنه فى المجتمع المدنى الكبير فقط -- كما هى الحال فى الديمقراطيات - يجد الحكام من الصعوبة بمكان أن يجعلوا من الصلة الأجنبية جزءا من هيمنتهم . ولكن فى السنوات الأخيرة وجد الحكام سبيلا - حتى فى الديمقراطيات - ليفعلوا ذلك خصوصا ، حيث لا يوجد حزب مستقل للعمال . ونحن نرى الطبقة الحاكمة فى الولايات المتحدة تصنع نفسها الآن فى صف واحد مع اليابان وألمانيا ، بينما أجزاء من الولايات المتحدة نفسها توشك أن تبدو جزءا من الأطراف ، والوضع شبيه بذلك فى المملكة المتحدة اليوم .

ولنعد إلى مناقشة التحديات التى تواجه الهيمنة ، فسوف نجد أنها لم تعد تضم فى صورتها الحديثة فى الولايات المتحدة الحركة النقابية وحدها ، وإنما تشمل أيضا الشعبية وحركة الحقوق المدنية . وفى سبعينات وثمانينات القرن الماضى كانت الراديكالية الإقليمية شيئا هاما فيما اصطلح لبعض الوقت على تسميته بالحركة الشعبية . ولو استرجعنا هذا الماضى ، فسيتضح أن هذه الحركة كانت واحدة من

حركات كثيرة مماثلة . ولعلها لم تكن الأولى ، وهى بالقطع لم تكن الأخيرة . وقد ازدهرت فى سنوات تشكيل الدولة الحديثة ، وانزوت مع نهاية القرن الماضى . أما سائر الحركات المماثلة ، فقد استمرت وهى مستمرة حتى اليوم .

إن تاريخ الشعبية هو تاريخ النضال الشعبى فى تلك المناطق حيث النقابية والهوية العرقية أضعف ، وحيث يبلغ – نتيجة لذلك – الفكر الاقتصادى والسياسى والثقافى على مستوى الجماهير أقصى توحد له . وحينما تحالفت الحركات الشعبية مع الرأسمالية مالت إلى اليمين ، ولكنها عندما شقت طريقها الخاص مالت إلى اليسار ، أى أصبحت مناوئة للهيمنة .

وخلال القرن التاسع عشر – أى فى الفترة التى ألمحنا إليها توا كانت الشعبية الغربية والجنوبية مناوئة للهيمنة . وكانت الرأسمالية الوطنية مازالت معتمدة على الرأسمالية الشرقية ، وأقل قدرة من أن تظهر كممثل يوثق به لمنطقها . وقد انتهت هذه المرحلة بالنسبة إلى الجنوب والغرب فى أوائل القرن العشرين . وبعد عام ١٩٧٠ ، ربطت حركة الاندماج مرة أخرى الرأسمالية الوطنية والرأسمالية الدولية معا . ومرة أخرى أيضا عادت الشعبية التقدمية إلى النهوض على الرغم من اليمين الأصولى ، مستفيدة هذه المرة من انهيار نفوذ النقابية الحرة .

وبحلول عام ١٩٧٠ ، كان واضحا أن النقابية التقليدية قد دخلت دور المحاق . وكان جورج مينى رئيس الحركة النقابية فى وقت مبكر يعود إلى الخمسينات ، يتحدث باسم كثير من النقابيين حينما أبلغ شريكه والتر رويتر أنه لافائدة من تنظيم عمال فقراء مثل عمال المزارع الجنوبيين . ويبدو أننا - بعد أن عرفنا مثل هذه العقلية نستطيع أن نشرح سر الفجوة التى قامت بين الشعبيين ودعاة الحقوق المدنية من ناحية ، وبين النقابيين من ناحية أخرى . إن مينى الذى كان عنوانا للقائد النقابى الامريكى ، كان جديرا أن يسأل نفسه : كيف يعود تنظيم عمال المزارع على اتحاد العمال الأمريكى بالنفع ؟ وهل سيكون الانغماس في الجنوب الأسود الريفى مجزيا ، أم أنه سيحول الحركة النقابية إلى حركة طبقية ؟ إن مثل ضيق الأفق هذا لدى القيادة هو المسئول – بدرجة كبيرة – عن انهيارها (٥) .

إن حركة الحقوق المدنية هى المركز الثالث للنضال المناوئ للهيمنة فى الولايات المتحدة . ويكمن تميزها فى أنه لا الشعبيون ولا النقابيون تصدوا لقضية العرق . وقد بدأ التاريخ الحديث لنضال الحقوق المدنية بمرحلة من الإثارة الثقافية ارتبطت بشخصيات من أمثال و . أ . ب . دبيوا ، وانطوت على محاولات مختلفة لتعديل هيكل الليبرالية القائم على العزل العرقى من خلال استراتيجيات للتكامل العرقى ، ومن خلال إعادة السود إلى أفريقيا . وقد وصلت هذه المحاولات إلى ذروتها خلال فترة الإدماجية . وخلال هذه الفترة (١٩٣٢ - ١٩٧٠) كانت الثقافة الأمريكية فى ذروة قدرتها على الاستيعاب ، وكانت الدولة أكثر قبولا لفكرة الحقوق الجماعية . ولم يقتصر النضال على الشوارع ، بل بدأ أيضا من داخل النظام القانونى . وجاء انكساره في أواخر الستينات عندما أحست الطبقة الحاكمة الأمريكية أنه يشكل تحديا حقيقيا .

وقد يعن للمرء - استطرادا - أن يتساءل : لماذا تشعر طبقة حاكمة بمثل ما هى عليه من الازدهار فى الولايات المتحدة بمثل هذه الهشاشة فى مواجهة الحركات المناوئة للهيمنة ؟ ولماذا تم نبذ الاجماع العام من أجل استخدام القمع الصريح فى أواخر الستينات ؟ وهنا تخطر على الذهن نقطتان : الأولى هى أنه من الصعب أن نتصورهيكل سلطة ثرى فى العالم كله أحس مطلقا بالأمان . والنقطة الثانية والأكثر تحديدا ، هى أنه يبدو معقولا افتراض أن الحركات المناوئة للهيمنة - حتى لو كانت محدودة - من شأنها أن تؤثر فى السياسة إذا أخذنا فى اعتبارنا لا مجرد وجود الصراع الطبقى فحسب ، بل أيضا وجود منافسين وهيكل للمنافسة فى داخل الهيكل التراتبى للحكام . وسيظل السؤال اليومى دائما : هل ستفلت الصراعات التى دفع بها النظام من يده ؟

واختصارا نقول : إن الدولة المنضبطة تحكم من خلال الحفاظ على التقسيمات والصراعات القديمة مثل الصراعات العرقية والإقليمية ، ومن خلال الظهور فى الساحة بمظهر المنظم . واستراتيجيتها فى هذا أن تحول الصراع عن مكوِّنه الطبقى إلى مكوناته العرقية والإقليمية بما يؤدى فى النهاية إلى إدراك كافة الأطراف . إن هناك حاجة إلى حلول وسط وترتيبات ، ما الذى تستطيع الدولة أن تفعله عندما تصبح منطقة

واحدة – وشكل واحد من الرأسمالية – فى حقب معينة بالغة السيطرة بما يؤجج المنافسة بينهما وبين المنطقة الأخرى ، وبما لا يتيح مجالا فسيحا للترتيبات التنظيمية ؟ لقد تعرضت سلطة الدولة للتهديد خلال هذه الحقب – وكان هناك عدد منها - وتضاءلت قدرتها على التدخل والتنظيم . وعلى سبيل المثال فى سبعينيات وحتى تسعينيات القرن الماضى ، وفى الحقيقة حتى ستينيات هذا القرن ، كانت سلطة الدولة محاصرة بالسيطرة النامية لرأسمالية الشركات الكبرى فى الساحل الشرقى على الرأسمالية الوطنية فى الجنوب والمدن الصغرى . وفى وقت لاحق من سبعينات القرن الحالى واجهت الدولة أشكالا جديدة من التحديات ، فبفضل اندماج كثير من الشركات الوطنية والدولية فى هذه الفترة لا نجد فقط عدم التوازن الإقليمى ، وإنما أيضا ظهور شيء جديد وأكثر تهديدا : طبقة حاكمة موحدة نوعا وأقل حاجة إلى الدولة المنضبطة مما كان عليه الحال فى أى وقت سبق (٦) .

ألا تستفيد الدولة المنضبطة بالفعل فى مواجهة مثل هذه السلسلة من التحديات من جو النضال الذى يمكن أن يؤمّن لها دورا تلعبه ؟ لقد طرحت هذا السؤال أخيرا باعتباره صورة من الصور الرئيسية التى يتبدى بها النموذج التفسيرى السائد ، والذى يطلق عليه أحيانا اسم « المدرسة الألمانية » أو « التفسير من طراز التطهير » وهذا النموذج له ميزة شرح السبب فى وجود مناوأة الهيمنة ، ولكن لا يتحقق إلا تغييرا محدودا . إنه يفترض أن الدول الحديثة ورثت القوة بفضل التكنولوجيا والرشد . ومما يدعو إلى السخرية أن هذا التفسير ظهر أول ما ظهر بين مجموعة من العلماء المهاجرين إلى الولايات المتحدة الذين أخطأوا كلية الحكم على ما يحدث فى ألمانيا .

تذهب الدراسات النمطية إلى أن أول معلم هام فى نهوض الدولة الحديثة كان فى عام ١٨٨٣ ، فهذا العام شهد ظهور سلك الخدمة المدنية وضباط الجيش (٧) . وفى كلا المجالين المدنى والعسكرى حد الاحتراف بشدة من التأثيرات المحلية على النظام الفيدرالى فى مجال العالمين ، كما أعطى مستخدمى الحكومة مزيدا من الاستقلالية . ومن ثمانينيت القرن الماضى تتابع كما تظهر تواريخ البيروقراطية ظهور الوكالات النظامية الحكومية والقوانين الحكومية حتى يومنا هذا .

شوهدت المعالجات النظامية أيضا فى مجال العمل . فمنذ سبعينات وثمانينات القرن الماضى سويت المنازعات فى هذا المجال لا عن طريق استخدام القوة فحسب ، وإنما بالقوة المقترنة بالوساطة التى تفرضها مختلف أجهزة الدولة . ومن بين أوائل الحركات التى عملت على غير هوى الدولة فووجهت بهذه المعالجة النظامية الجديدة حركة فرسان العمل فى سبعينات القرن الماضى . وكان الفرسان نقابيين ، كما كانوا حركة شعبية توجهوا إلى النقابيين الصناعيين وصغار المزارعين عبر الخطوط الإقليمية والعنصرية . وقد رأت الدولة عن حق أن الحركة ذات مقاصد راديكالية ، ومن ثم تحولت ضدها ، وعملت على إضعافها بتأليب جزء منها على الآخر .

وبدفع الفرسان إلى معارضة الهجرة ، قدمت الدولة قضية انقسامية هامة . وحتى نعرض جانبا من تطور القضية نذكر أن شركات الأعمال عملت خلال ثمانينات القرن الماضى على تدمير الحركة النقابية باستقدام عدد كبير من المهاجرين .. ووصل فيضان من المهاجرين ، وأصبحت الوظائف غير مؤمنة . واختلف الفرسان حول كيفية الرد على هذا التهديد ، فرأى البعض معارضة المزيد من الهجرة ، ورأى آخرون العمل على تنظيم كل العمال . وقد أدى هذا إلى انقسام داخل الحركة . وكان لقضايا أخرى تراوحت بين منع الخمور والحقوق المدنية نفس التأثير الانقسامى فى نفس الفترة . وبعد « الهجوم على العمال » فى عام ١٨٨٦ لم يلتئم شمل الفرسان . وقد سمح انهيارهم بعد « إضراب الجنوب الغربى العظيم » بصعود نجم مجموعة جديدة هى « اتحاد العمال الأمريكى » .

وتحت تأثير النكسات التى حاقت بالعمال فى عام ١٨٨٦ ، اختار صمويل جومبرسى والقادة الأوائل الآخرون لاتحاد العمال الأمريكى عن عمد استراتيجية مختلفة عن تلك التى اتبعها سابقوهم . وقد وصف المؤرخون استراتيجية اتحاد العمال بأنها استراتيجية صراع طبقى خفى ، استراتيجية تتمسك بالمثل الأعلى لجاكسون .. دولة أمريكية محدودة ، أو ببساطة دولة من المتطوعين أو النقابيين الأحرار . وفيما يتعلق بالقضية الرئيسية آنذاك وهى قضية الهجرة أيد اتحاد العمال مبدئيا تقييدها عن طريق اختبار للقراءة والكتابة ، ربما ليعكسوا شعورا بدونية المهاجرين من أجل

استبعادهم . ولكن اتحاد العمال لم يتدخل عندما عرض الأمر فى الكونجرس ورفضت مؤسسة الساحل الشرقى إجراءات الاستبعاد الموجهة ضد الصينيين فى كاليفورنيا . لقد ظلت وما تزال السمة الأساسية للاتحاد هى الحكمة والحصافة . وفى شرح ذلك ركز المؤرخون على الاختلاف بين قادة اتحاد العمال وقادة الفرسان ، وعلى اختلاف الطرق التى جندت بها المنظمتان أعضاءهما ، فقد قادت اتحاد العمال اتحادات الحرف الوطنية بينما قادت الفرسان المجموعات المشكلة فى البلديات ، وهذا يعنى حتما انغماسها فى دائرة أوسع من القضايا الاجتماعية أكثر مما ينشغل به أعضاء اتحاد العمال الأكثر اهتماما بالنواحى المهنية (٩) .

خلال ثمانينات القرن الماضى سعى قادة اتحاد العمال إلى بحث الإمكانيات التى يمكن أن توفرها لهم استراتيجية « النقابية الحرة » ، فعندما بسطوا يدهم على سبيل المثال إلى العمال الأفرو – أمريكيين وجدو أن الطبقة الرأسمالية قد انزعجت ، وعندما حاولوا توسيع نطاق العضوية بين العمال البيض ، جازفوا بإحداث انقسامات حتى بين الأعضاء الموجودين بالفعل . لقد كانت السياسة قريبة بصورة حتمية من ظاهر الأمور ، وأصبحت هى القضية ، فاشتعلت المعركة عندما حاول جومبرس أن يدمج منظمة تقليد العمل الحر للجمهوريين (يعنى عمالا من وسط الغرب ذوى أصول ألمانية) بالعمال ذوى الأصول الايرلندية الذين كانوا جزءا من جهاز الحزب الديمقراطى فى الساحل الشرقى . وبالتدريج ، وبالنظر إلى المزايا النسبية ، لم يكن لاتحاد العمال من خيار سوى الانجذاب إلى الشرق وإلى الحزب الديمقراطى .

أكان الحزب الديمقراطى إذن بسبيله لكى يصبح حزب العمال ؟ أكانت الولايات المتحدة إذن على نفس طريق المملكة المتحدة ؟ بالقطع لا . فخلال التسعينات من القرن الماضى أُحبطت مناورات وقوة اتحاد العمال ، ووجود الاتحاد – الذى لم يكن متمرسا بالسياسات الحزبية كنظيره الإنجليزى – نفسه مدفوعا إلى حزب يخدم مصالح الرأسماليين . وفى انتخابات ١٨٩٦ ، فقد العمال فرصتهم الأخيرة للعمل لحساب أنفسهم من خارج النظام . وفيما بعد ، أصبح الاتحاد أسيرا لحزب يحتاجه لحمايته ، ولكنه رأى الحزب لا يقدم إليه سوى شقشقة لفظية فى الدفاع عن مطالبه .

غير أن اتحاد العمال كان له تأثير هام - وإن يكن هزليا نوعا ما - على الحزب الديمقراطى على الرغم من إدعائه غير ذلك . لقد أثر الاتحاد على الحزب حتى لا يقف إلى جانب الرعاية الاجتماعية . كانت قيادة اتحاد العمال ترى أن الرعاية الاجتماعية تجعل العمال معتمدين على الدولة وليس على اتحادهم . وكان من رأى الاتحاد أن سلطة وقوة الاتحاد تأتى فى المحل الأول ، أما الرعاية الاجتماعية فتأتى في المرتبة الثانية . وكما تشير دراسة أخيرة كانت دولة الرعاية الاجتماعية كما ظهرت فى النهاية فى الولايات المتحدة أقل ترابطا وأضيق نطاقا وأبعد عن التوجيه العمالى مما كانت عليه الحال فى أوربا . ولما كانت النقابات العمالية على هامش عملية تكوين دولة الرعاية الاجتماعية - بل كانت فى الحقيقة معارضة لها - فقد ظلت أيضا على هامش عملية توسيعها وإدارتها » (١١) . وحتى اليوم مازالت فكرة التأهيل الاجتماعي غريبة عن العمال مثلما هى غريبة عن الرأسماليين .

بعد عام ١٨٩٦ ، أصبحت حدود النقابية الحرة واضحة بشكل متزايد ، وأصبحت « التروستات » هى الحاكمة العليا فى أماكن العمل ، وبدا أنها قادرة على القضاء على التحديات حين تشاء . وأخذ ينتشر استخدام التايلورية على خطوط التجميع - وهى صورة أخرى من الترتيبات النظامية الجديدة - وواجه العمال تكثيفا فى الانضباط المصنعى . وبالاضافة إلى ذلك أخذ ينتشر أيضا استخدام العمال المهاجرين ، وأصبحت الخبرة الشائعة هى : « اخرج من الصف فتطرد » ، وإذا أصبح جدول الأعمال بيد الرأسماليين فرضت التكنولوجيا الجديدة ، وزادت مقطوعية الإنتاج (الحصة المفروض على العامل إنتاجها) كما زاد الإنتاج نفسه . ولكن الجمهور العريض والنضالية كانا أيضا فى نهوض كما يكشف عن ذلك تاريخ « عمال العالم الأمميون » وغيرها من المجموعات الراديكالية . وكان إحجام قيادة العمال عن الاحتجاج على استقدام الملايين من المهاجرين غير الناطقين بالإنجليزية للعمل فى المصانع الأمريكية سببا فى سحب الثقة منها . وبمرور السنوات ودخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى ، استطاعت حركات مثل « عمال العالم الأمميون » أن تقنع المزيد والمزيد بأن هذه الحرب ليست حربهم بل هى حرب الرأسماليين .

شهد عام ١٩١٧ تصاعد الاحتجاج ضد الحرب بعد ثلاث سنوات من دخولها . وشهد هذا العام أيضا الثورة المسلحة الوحيدة للمواطنين ضد الحكومة فى هذا القرن . ومما له مغزاه أن هذه الثورة وقعت فى ولاية غربية عندما بدأ المزارعون المستأجرون قريبا من دورانت أوكلاهوما مسيرة نحو أوكلاهوما سيتى عاصمة الولاية أملا فى مواصلة السير حتى واشنطن لإنهاء الحرب (١٣) . ويبدو هذا الأمر هاما لأن الثورات فى المناطق الأكثر تعرضا لقمع الهيمنة ، أعنى الجنوب والغرب وبين المجموعات من أمثال السود ، كانت تاريخيا تخيف الدولة أكثر من أمثالها فى المناطق الأكثر تمتعا بالمزايا .

وفى عام ١٩١٨ ، تأسست الجمعية الوطنية لتقدم الملونين وبدأت الفصل الأول من نشاطها فى المسيسيبى وأركانساس ، وبدأت الأنباء تنتشر فى حزام القطن حول السياسات الوطنية والدولية مثيرة رياح التغيير فى المناطق المعزولة والمقهورة .

وفى عام ١٩١٩ ، سمحت مجموعة مذعورة من الزراع فى عمق الجنوب لنفسها بأن تعتقد أنها على وشك التعرض لهجوم ، وهاجمت بلدة الين أركانساس ، وقتل فى هذا الهجوم ٢٥٠ من الأمريكيين الأفارقة . وفيما بعد كان الخوف من تجمعات الأمريكيين الأفارقة فى مآويهم الأخوية ذريعة لكثير من عمليات الإعدام بدون محاكمة .

بحلول العشرينات من هذا القرن ، أصبح واضحا أنه لا الجناح الشمالى ولا الجناح الجنوبى من الطبقةالحاكمة فى وضع سهل ، وأنه إذا كانت الطبقة الحاكمة الجنوبية تواجه مشكلات مع العمال ، فإن الطبقة الحاكمة الشمالية تجد نفسها محجوبة عن تطوير أسواقها الخارجية بفعل تيارات العزلة القوية التى اجتاحت البلاد بعد الحرب . ولم يكن لإقامة مكتب المباحث الفيدرالى FBI ووضع برنامج لأمركة قوة العمل سوى أثر ضئيل فيما يبدو فى تهدئة مخاوف الحكام .

كانت المشكلة الرئيسية فى الشمال هى مشكلة فائض إنتاج ، وظلت كذلك حتى نهاية العصر الليبرالى . فهل وجدت الطبقة الرأسمالية الشمالية -- وقد قبلت واقع انتصار تيار العزلة ومن ثَمّ تضاؤل الفرص فى الخارج -- أن خير ما تفعله هو التحول

إلى مهمة خلق مستوى أعلى من النزعة الاستهلاكية فى الولايات المتحدة ؟ وكيف يمكن للنزعة الاستهلاكية وهى إيديولوجية رأسمالية أن تصبح إيديولوجية العمال ؟ وكيف يمكن أن تصبح جزءا دائما من « إيديولوجية نمط الحياة الأمريكية » ؟ أيمكن أن يكون ذلك من خلال الرعاية الاجتماعية ؟

إن المثل الذى تقدمه المملكة المتحدة لا يقدم – حتى السنوات الأخيرة على الأقل – إجابة على هذه الأسئلة . لقد كانت النزعة الاستهلاكية ايديولوجية النخبة وليست إيديولوجية وطنية . وكان ولاء الطبقة العاملة – على الرغم من روابطها السياسية مع الراسمالية – للعلَم (الوطنى) وليس للاقتصاديات الرأسمالية . كانت هناك بالطبع تغيرات بعد الحرب العالمية الثانية ، ففى ذلك الوقت انتقل كثير من العمال البريطانيين إلى الضواحى بعيدا عن أحيائهم العمالية القديمة بكل ما استتبعه ذلك ، ومنه بعض الارتفاع فى الحس الاستهلاكى . وعلى العكس ، فإن الرأسمالية فى الولايات المتحدة بدعمها لإيديولوجية طريقة الحياة الأمريكية ، وبقليل من الحث ، استطاعت أن تحوّل الاستهلاكية إلى إيديولوجية جماهيرية . وهذا أمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة . وربما كان السبب ببساطة أن الطبقة العاملة الأمريكية كانت أضعف ، فهى تفتقر إلى حزبها السياسى ، وكان سهلا على الدولة أن تشكل تفكيرها .

كانت كتابات أنطونيوجرامشى من السجن فى إيطاليا من بين أوائل التحليلات للرأسمالية الشمالية فى هذه الفترة . وكان من رأيه أن النزعة الاستهلاكية لدى الطبقة العاملة هى بالفعل جزء من استراتيجية إدارية جديدة ، وأنها تستخدم لتقسيم الطبقة العاملة ، وأطلق على هذه الاستراتيجية « الفوردية » نسبة إلى هنرى فورد ، وفى السنوات الأخيرة لقى تفسيره هذا ما يسانده (١٤) .

على كل حال ، ظل العصرالليبرالى مهدّدا ، فحتى إذا كانت النزعة الاستهلاكية قد أصبحت جزءا من طريقة الحياة الأمريكية ، وحتى إذا كانت ليبرالية القرن التاسع عشر قد ظلّت قوة قوية ، فإن المرء يستطيع أن يزعم أن أزمة كانت تلوح فى الأفق فى أواخر العشرينات من هذا القرن . كان النضال النقابى والاشتراكية والشيوعية تتلمس طريقها إلى الوعى الوطنى ، وكانت الحركات الشعبية مستمرة فى الجنوب .

إن ما وضع حدا للعصر الليبرالى هو بوضوح الكساد : الأزمة التى جاءت من أعلى بسبب فائض الإنتاج ، والأزمة التى جاءت من أسفل بسبب البطالة . وقد أجبر الارتباط بين هاتين الأزمتين المنفصلتين والمرتبطتين معا الدولة على التحرك تجاه الادماجية والسماح للنقابات ، وحتى للشيوعيين بأن يلعبوا فيها دورا ، ولم يكن عام ١٩٣٢ علامة شديدة القِصَر على النضال من أسفل لأى سبب سوى الفقر الموقع الموجود آنئذ فى كل أنحاء الولايات المتحدة ، والذى كان يمكن أن يقود إلى مثل هذا النضال . ومع وجود روزفلت فى الرئاسة انطلقت الدولة لتأليب الفقراء ضد بعضهم البعض ، وتقيم تحالفا عابرا للطبقات فى الشمال ، ولتترك الجنوب مرة أخرى لأقداره الاقتصادية بالغة التعاسة .

الإدماجية فى الولايات المتحدة
(١٩٣٢ - ١٩٧٠)

اتخذ التحالف عابر الطبقات الذى ظهر فى هذه الفترة بين الطبقة الحاكمة وأجزاء من البورجوازية الصغيرة صورة الإدماجية . لقد عقدت العناصر المسيطرة ككل تحالفات منتقاة طبقا لشروطها كما حدث فى إيطاليا ، وكانت الدولة هى الكاسب الأعظم ، كما فى حالة إيطاليا .

وفى تلك الفترة كانت رأسمالية الشركات الكبرى أكثر قوة من الرأسمالية الوطنية . وكان اندماج موظفى الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة فى الهيمنة هو سبيل الدولة للضغط على رأس المال الكبير لإجباره على دفع ثمن الخروج من الكساد . وكان فى نفس الوقت طريقة دعمت بها الدولة نفسها فى مواجهة الاحتجاج الراديكالى الذى كان يتزايد بسرعة فى الجنوب وأجزاء من الغرب الأوسط [١٥] .

فى الجنوب كان مستوى المعاناة ومستوى عنف الاحتجاج فى ازدياد حقيقة . وهى نقطة - كما نقول هنا تكرارا - كانت بالنظر إلى بنية الهيمنة أهم بكثير مما لو كان الأمر عكس ذلك ، ففى منطقة هارلان بكنتاكى تبودل فى ١٩٣٢ إطلاق الرصاص بين عمال المناجم المضربين وحراس الشركة ، وفى ١٩٣٢ أيضا فُرض الحكم العرفى على عمال المناجم فى ايللينوى ، وفي نفس العام أعرب حاكم كارولينا الشمالية وهو يستعرض إضرابات عمال مصانع الملابس المحبوكة عن خشيته من قيام إضراب عام . كذلك سلّح المزارعون أنفسهم فى كثير من الولايات للقتال ضد استيراد السلع المسعَّرة بأسعار تقل عن أسعار السوق . واندلعت إضرابات عمال النسيج وعمال شحن السفن فى أجزاء من البلاد أيضا .

وفي عام ١٩٣٤ ، نظم هـ . ل . ميتشيل - وهو راديكالى جنوبى أبيض ومالك لمغسلة للتنظيم الجاف فى تيرونزا باركانساس « اتحاد المزارعين المستأجرين الجنوبى » وهو منظمة اشتراكية غير عنصرية ، وكان لتحدى إنشاء هذه المنظمة فى ذلك الوقت وذلك المكان مغزاه ، فقد كان الزراع الذين لم يُدخلوا ميكنة الإنتاج بعدُ فى حاجة إلى العمل الرخيص ، وكان مما يعوق الإنتاج - فى رأيهم - أن يُمنع منظم الاتحاد من القيام بعملهم ، حتى ولو كان ذلك يعنى أن تتفاقم مشكلات العمل فى المدى الطويل أكثر مما هى عليه فى المدى القصير . وبدأ التوتر يشتد فى دلتا المسيسيبى مع ازدياد شعور طبقة المزارعين بعدم الأمن تجاه مستقبلهم ، وأخذت تشيع فى كل مكان أعمال الإعدام بدون محاكمة وسائر أنواع التصرفات الاستفزازية . لقد كان التفات روزفلت إلى الاتحادات العمالية الشمالية ليعرض عليها سياسته الاقتصادية الجديدة « النيوديل » مناقضا لماضيه ، ولكنه فعل ذلك من أجل تحقيق الاستقرار المنشود (١٦) .

كانت نتائج المبادرات التى عرضها روزفلت على قيادات الحركة العمالية - كما يمكن أن يتصور المرء مما سبق - ذات أبعاد كبيرة . ففى مقابل الحقوق والمزايا الجديدة وجدت القيادة العمالية نفسها مستقطبة أكثر من أى وقت مضى . وعلى سبيل المثال ، وجد قادة العمال أنفسهم ملتزمين لأول مرة بمنع أعضاء النقابات من إثارة القضايا الاجتماعية والسياسية أثناء العمل . وفى مقابل تقديم القادة النقابيين لمثل هذه الخدمات أقرب الحكومة فى عام ١٩٣٥ قانون علاقات العمل الوطنى ، وهو القانون

الذى أضفى من الشرعية على نقابات العمال ما لم يضفه قانون آخر . وألزم هذا القانون – ومازال يلزم العمال حتى اليوم ، بأن يمثلهم اتحاد واحد هو اتحاد توافق عليه الحكومة ، وهو ما يستأصل فى الواقع إمكانية أى تمثيل نقابى للأقلية . إن الاتحادات النقابية طالما اعتُمِدت تصبح احتكارات ، ولكن أصحاب العمل يكسبون أيضا فى الواقع قدرة السيطرة على النقابات والسياسات النقابية من خلال نفوذهم على المسئولين النقابيين المنتخبين على النحو المطلوب . إن القاعدة العريضة تكف عن أن تكون مؤثرة فى مواقف نقابة ما ، حالما تكتسب الأخيرة الحق القانونى فى أن تكون المفاوض الوحيد . ويصبح التهديد الرئيسى لنقابة ما ، أو على الأقل لمسئوليها ، هو أن يشن أصحاب العمل حملة لسحب اعتمادها . وهكذا ، أصبحت العلاقات الجيدة مع أصحاب العمل أهم وأبقى من الحفاظ على علاقات جيدة مع القاعدة العريضة (١٧) .

كان استمرار نحو سلطة رأس المال الكبير المتلاحم من ملامح الفترة أيضا . وعلى الرغم من أن الصورة الشائعة عن فترة (النيوديل) هى أنها كانت فترة تمثل فيها الدولة أكبر الفاعلين ، فكثيرا ما كانت مبادرات الدولة تُنحَّى جانبا ، وخصوصا عندما كانت تهدد مزايا الشركات الكبرى . وعلى سبيل المثال ، أزاحت الشركات الكبرى جانبا التشريع الخاص بمكافحة التروستات الاحتكارية عن طريق السيطرة على الوكالات التنظيمية التى أقامها روزفلت لرقابة الشركات . وحتى المحكمة العليا عملت ضد (النيوديل) معلنة عدم دستورية عدد من القوانين المؤثرة فى الصناعة (١٨) .

أفلَت قانون التأمين الاجتماعى الذى بدأ فى عام ١٩٣٥ من المحكمة العليا وبإقرار هذا القانون تعين على العمال جميعا ومرة واحدة القبول بأن يملوا بأنفسهم نظام تقاعدهم ، وأصبح على كل العمال المأجورين أن يدفعوا لصندوق المعاشات رغم ما تبين من أنهم ليسوا جميعا لهم الحق فى أن يقبضوا منه . ولبعض الوقت استبعد من الضمان الاجتماعى معظم العمال الأمريكيين الأفارقة وذوى الأصول اللاتينية والنساء العاملات وكثير من عمال الجنوب الذين ليس لديهم ما يعتمدون عليه عند التقاعد (١٩) .

يستحق قانون الإسكان الفيدرالى الصادر فى عهد روزفلت الإشارة إليه أيضا – إلى جانب قانون الضمان الاجتماعى – كممثل للعهد . ففى الفترة ما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٧ ،

فقدت مؤسسات الادخار والإقراض مليارى دولار ، ولم تعد تستطيع الإقراض مقابل الرهون . وبدأ انهيار سريع فى صناعة الإسكان ، وزادت عمليات حبس الرهون (منع الراهن من استرجاع المرهون) زيادة رهيبة . وفى الفترة من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٤ ، أجازت الحكومة الفيدرالية عددا من القوانين لمكافحة هذا الاتجاه وضمان الرهون وتوفير القروض للإسكان . وقد أدى هذا إلى استقرار سوق الإسكان ، وإلى زيادة تدخل الحكومة فى هذا المجال المتعلق بكيفية حياة المواطنين . وفى النهاية – وبالرغم من معارضة اتحاد العمال الأمريكى لوقت طويل – دخلت الحكومة مجال الإسكان العام بقانون وانجر / ستيجال فى عام ١٩٣٧ . وحتى عام ١٩٤١ أصبح الإسكان العام يمثل عشرة بالمائة من المساكن الجديدة . وبتدخل الحكومة هذا أصبح واضحا أن الدولة تستطيع أيضا أن تتحكم فى تحديد من يحصل على هذه المساكن . وقد أوضحت الدراسات الأخيرة أن الذين حصلوا عليهم كانوا هؤلاء الذين يتواءمون مع مفهوم الدولة عن الأسرة الطبيعية (٢٠) .

لقد هيأت الحرب العالمية الثانية التى كانت تلوح نذرها فى الأفق مقارنة مثيرة للاهتمام بين الإدماجية فى الولايات المتحدة والجماعية فى المملكة المتحدة ، فالمملكة المتحدة لم تختر الحرب عندما ووجهت بديكتاتور ومنافسة تجارية ، ولكن الولايات المتحدة اختارتها . إن محاولات تشمبرلين للتهدئة أظهرت أن الاتجاه إلى المصالحة متوقع من نظام جماعى ، حيث توضع موضع الاعتبار مصالح أكثر من طبقة واحدة . وعلى العكس أعلن روزفلت فى أعقاب بيرل هاربور نيابة عن نظافة الإدماجى أن « هذا اليوم سيظل مجلّلا بالعار » ، وسرعان ما أعلن الحرب لا على اليابان وحدها ، بل على كل حلفائها أيضا .

وحالما أُعلنت الحرب أعربت المملكة المتحدة عن أملها فى الحصول على تعويضات حرب للتخفيف من خسائرها المالية ، أما الولايات المتحدة فقد أوضحت – مقابل ذلك – أن هدفها هو الاستسلام دون قيد أو شرط ، وهو ما يسمح لها بالصياغة الاجتماعية لمنافسيها التجاريين .

إن المؤرخين غالبا ما يرون فى الحرب – وخصوصا فى جانب المنتصرين – إرجاء للتناقضات الداخلية . وهذا ليس صحيحا تماما ، فالتناقضات القائمة قبل الحرب

تستمر عموما ، وأحيانا تتخذ صورة مكثفة مهيئة الطريقة لانفجار بعد الحرب . وكان هذا هو الحال فى الولايات المتحدة - سواء فى الشمال أو الجنوب - مع حلول عام ١٩٤٥ . وقد قررت الدولة أن تجعل فترة ما بعد الحرب فترة قمع مع عودة الجنود واحتياجهم إلى تمويل حكومى ، ومع نجاح اتحادات العمال فى الضغط من أجل المزيد من المنافع ، ومع خروج السود من الجيش ، وقد تعاظمت آمالهم فى أن يكونوا مواطنين كاملين ، ومع اشتراك عدد من العمال غير مسبوق فى تاريخ الولايات المتحدة فى إضرابات عام ١٩٤٦ ، ومع تعرض مزارعى الجنوب لتهديد مشكلات العمل .

وكانت الدولة عند هذه النقطة فى أوج قوتها وقادرة على تنفيذ سياسات القمع هذه ، ومنذ أواخر الأربعينات انخسفت الوكالات النظامية (الحكومية) القديمة من الناحية الفعلية بفعل مجموعة جديدة من المؤسسات السرية سمحت لقطاع من الدولة والطبقة الحاكمة بترتيب سياسات الدولة دون أن تسمح لدورها (أى دور هذه المؤسسات) بأن يكون جزءا من النطاق العام (أى تحت بصر الجمهور) . ويظهر مثل معروف على هذه السلطة التنظيمية الجديدة فى التطهيرات التى قامت بها لجنة مجلس النواب للنشاط غير الأمريكى .

وكانت الدولة ترى أن مؤتمر المنظمات الصناعية * هو الأخطر من بين كل أعدائها ، وهو بالتالى الأجدر منطقيا بأن يكون هدفا لهجومها . وكان من المعروف جيدا فى فترة ما بعد الحرب أن المؤتمر ضم الكثير من الراديكاليين . وبالإضافة إلى ذلك ، كان الاتحاد النقابى الذى أظهر قدرة على تحقيق تعاون حقيقى بين الأجناس ، وأخيرا فقد كان الاتحاد النقابى الذى نجح فى كسب الحقوق النقابية فى القطاعات الصناعية الرئيسية : الصلب والسيارات والصناعات البحرية . وكان على المؤتمر حتى يستمر أن يعمل على تآكل الحدود الجوهرية فى النظام بدءا من العرق حتى المنطقة ، ولكن هذا لم يحدث . فبحلول عام ١٩٤٦ وخلال عملية الولايات الجنوبية استسلمت القيادة سريعا

---

* مؤتمر المنظمات الصناعية Congress of Industrial Organisations (CIO) منظمة نقابية تقوم عضويتها على أساس الفرع الصناعى : السيارات - الحديد والصلب - المناجم ... الخ . تأسس سنة ١٩٣٨ واندمج مع اتحاد العمال الأمريكى فى ١٩٥٥ - المترجم - .

المناخ المعـادى للشـيـوعـيـة فى الجنوب ، وبدأت فى تطهـيـر أو إسكات عناصـرها الراديكالية ، وكما هو معروف ، فإن هجمات المكارثيين التى جاءت غداة هذه الأحداث حطمت مؤتمر المنظمات الصناعية ، وكلفت كثيرا من الناس مستقبلهم .

لقد كان مكارثى مفيدا للهيمنة إلى حد بعيد . وبالطبع كان القيام بما فعله جوزيف مكارثى رئيس لجنة مجلس النواب للنشاط غير الأمريكى بنفس الطريقة دون الاستناد إلى دليل واعتمادا على الغمز والتجريح .. كان ذلك عملا غير قانونى . وكانت هذه مشكلة يجب على الدولة أن تتغلب عليها ، وتغلبت عليها بالفعل . وهكذا ، فإن كثيرا مما فعله مكارثى أصبح قانونيا ، لأن الدولة دفعت فى اتجاه تمكين التشريع من السماح به . وكان التشريع الأساسى فى القيام بالتطهيرات هو قانون مجلس الأمن القومى ٦٨ الذى كان قانونا فجا ، افترض وجود خطر واضح وحالّ على الولايات المتحدة ، وبذلك أوجد السياق الملائم لنشاط مكارثى . ومن أمثلة هذا النوع من التشريعات التى هيأت السبيل لمكارثى قانون سميث / كونللى فى ١٩٤٣ ، الذى سمح - ومازال يسمح - بالاستيلاء على الصناعات التى تمزقها الاضرابات ، وبالحظر القانونى على المساهمات السياسية للنقابات . وكان هذا بالطبع ضربة عامة لمؤتمر المنظمات الصناعية . وفى عام ١٩٤٧ جاء تشريع ثالث من نفس النوع هو قانون تافت / هارتلى ، الذى يحظر قانون الإضرابات التضامنية ، ومازال هذا القانون ساريا أيضا . وفى عام ١٩٥٠ ، جاء قانون ماكارين الذى أعطى القادة والرؤساء النقابيين سلطة فصل المشتبه فى شيوعيتهم . وفى عام ١٩٥٢ أعطى قانون ماكارين - والتر وزير العمل سلطة كاسحة على الهجرة ، وكان هذا القانون - وما يزال - واحدا من مفاتيح الهيمنة . وقد أصبح واضحا بتمرير مثل هذه القوانين للكافة ، حتى ولمن لم تمسهم المكارثية مساً مباشرا أن عليهم أن يضعوا أنفسهم تحت سيطرة العمل « المنظم » (التنظيمات الرسمية للعمل) حتى ينجوا بأنفسهم ، وذلك ما فعلوه .

والسؤال الذى يجب التصدى له هو : لماذا سمح العمال العائدون من الحرب للحكومة بتفكيك اتحاداتهم وتوجيه الاتهام إلى قادتهم وزملائهم بأنهم شيوعيون ؟ ولماذا ظن المجتمع أن الاتحاد السوفيتى يجب أن يكون عدوا بعد أن كان حليفا ؟ ولماذا حلّت

الحرب الباردة ؟ إن الخبرة الإنجليزية هنا لها بعض العلاقة ، فإيديولوجية الحرب الباردة كان لها تأثير ضئيل على فكر الطبقة العاملة الإنجليزية ، ولم يكن هناك شيء يشبه المكارثية ، ومرة أخرى يقوم هنا فارق في المقارنة هو افتقار الولايات المتحدة لحزب عمال ، ونتيجة لذلك كانت الطبقة العاملة الأمريكية ، على الأقل العمال البيض في الشمال ، أكثر تأثرا بدعاية الطبقة الحاكمة . وعلى الجملة يبدو أن السبب في غياب الحرب الباردة من بريطانيا يعود إلى بقاء حزب العمال سليما . وفقط عندما انهار الحزب عمليا بصعود مرجريت تاتشر إلى السلطة ، أصبحت الدولة البريطانية قادرة على إدخال عمليات التطهير والازدراء على نحو يقبل المقارنة من كل وجه مع إيديولوجية الحرب الباردة الأمريكية والمكارثية .

منذ عام ١٩٥٠ ، كان الافتقار إلى حزب عمالي وعزوف النقابات عن التصدي للدولة في الأمور السياسية سببا في إعطاء الدولة نفوذا فعليا على جميع المستويات ، وخصوصا في الشمال الصناعي . وأصبح العمال مطالبين لا بالتخلي عن حقوقهم السياسية فحسب ، بل بالتخلي أيضا عن سيطرتهم على أماكن العمل . اقبلوا هذا وتمتعوا بأجور أعلى .. كان ذلكم هو العرض أو بالأحرى هو المطلوب .

وبالنظر إلى مستويات الربح العالية للشركات الأمريكية في تلك الفترة ، كان أصحاب العمل قادرين بسهولة على دفع ما يستلزمه ذلك (٢١) .

كان الصراع بين إيديولوجية الحرب الباردة والإيديولوجية النافية لها ساريا في أوساط العمل في الجنوب . ومع نهاية الحرب العالمية ، وحّد اتحاد المزارعين المستأجرين الجنوبي كثيرا من جُناة القطن الأفرو - أمريكيين في الدلتا . وإذ واجه الزراع ارتفاع تكاليف العمل نتيجة اتفاقيات العقود الجديدة والمحسّنة بعد توحيد العمال ، فإنهم صعّدوا الحرب الطبقية بإحضار عمال مؤقتين غير نقابيين من الناطقين بالأسبانية من الخارج (٢٢) ، واستمر القتال .

في أربعينات وخمسينات القرن بلغت نضالات العمال الزراعيين في منطقة أخرى هي كاليفورنيا ذروتها أيضا . ومرة أخرى نظم ميتشيل - مع هانك هاسيوار هذه

المرة – الاتحاد . وكان الاتحاد هذه المرة – « الاتحاد الوطنى للعمل المزرعى » – ضد مصنع دى جيورجيو للنبيذ ، الشركة الكبرى فى أنشطة الأعمال المرتبطة بالزراعة فى كاليفورنيا ، والتى يقال إنها أكبر مصنع لإنتاج النبيذ فى العالم . وفى إضراب خرافى استمر عامين فى بلدات دى جيورجيو فى محافظة كيرن ، أصبح نضال الاتحاد واحدا من النضالات الدراية البطولية للأمة . وظهر الشاب ريتشارد نيكسون أمام لجنة مجلس الشيوخ حول النشاطات غير الأمريكية مدافعا عن دى جيورجيو – وراسما – فى إخلاص لشخصيته الحقيقية – صورة للاتحاد باعتباره تهديدا شيوعيا . وقد تم كسر الإضراب فى النهاية من خلال استخدام الشركة لقطاع الطرق ، وذلك بالرغم من المساندة التى أولاها للإضراب الشاب رونالد ريجان رئيس نقابة ممثلى السينما آنئذ . لقد كان ريجان فى ذلك الوقت منحازا للمضربين .

وفى المدى الطويل ظهرت أهمية امتداد نضال الاتحاد إلى حقول كاليفورنيا في تنظيمة للأمريكيين المكسيكيين . لقد كان سيزار تشافيز الأمريكى المكسيكى هو في الواقع القائد الذى خرج من غمار هذا الإضراب ليرتفع نجمه فى الستينات بمساندة اتحاد العمال الأمريكيين ومؤتمر المنظمات الصناعية ، وأصبح واحدا من أهم قادة العمال فى الولايات المتحدة .

وفى عام ١٩٥١ ، امتد النضال العمالى إلى منطقة ثالثة : ليويزيانا ، أولا إلى حقول الفراولة ، ثم بعد سنتين إلى عمال قصب السكر ، وبعد قليل إلى صيادى الجمبرى أو رجال « قوارب الرنجة » . وهنا تحقق واحد من الانتصارات الشهيرة فى هذا العقد ، فقد نجح الاتحاد فى تنظيم العمال – وكانت هذه المرة بمساعدة قانونية من الرئيس التنفيذى لمحافظة بلتيمور فى بلتيمور ماريلاند ، وهو محام شاب اسمه سبيرو . ت . اجنيو . وقد أصبح فيما بعد نائبا لرئيس الولايات المتحدة . ومرة أخرى لعب هاسيوار وميتشيل أدوارا هامة كمنظمين .

وهكذا ، بينما الأيام المجيدة للعمل التنظيمى التقليدى تقترب من نهايتها ظلت على الرغم من كل نكسات الماضى والمستقبل تحقق الكثير من النجاحات ، لقد أصبحت الوظائف النقابية شيئا فشيئا أكثر استقرارا ، وأصبحت تدر أجورا أعلى ومزايا حقيقية .

ثم جاء هروب رأس المال ، وتمسكت القيادة بموقفها التقليدى فى عدم تسييس الحركة النقابية مهما يكن الأمر . ولذا فليس من المدهش أن مائة فى المائة من العمال النقابيين فى البلاد بدأوا فى التساقط ، وهو اتجاه مازال مستمرا حتى اليوم .

ولكن حتى هذه الفترة الكئيبة لم تخلُ من لحظات نجاح ، فعندما يسمح قادة النقابات لأنفسهم بمساندة سيزار تشافيز فى تنظيم عمال المزارع المتحدين فى كاليفورنيا ، وفى تنظيم الاتحاد الوطنى للعمل الزراعى وجد هؤلاء القادة أنفسهم فى الجانب الكاسب (٢٣) ، ولكن هذا للأسف لم يكن له تأثير عميق على تفكيرهم ، فقط استقطبتهم إلى حد بعيد علاقاتهم مع الدولة ومع الشركات ، بل فى بعض اللحظات علاقاتهم مع الجريمة المنظمة .

وبحلول عام ١٩٧٠ ، كان هروب رأس المال يمضى فى طريقه بالتأكيد ، وأصبح ما يقرب من ثلث الاستثمارات السنوية لشركات السيارات الأمريكية يتم فى الخارج . وفى نفس هذه الفترة أيضا كان ما يقرب من ثلاثة أرباع الصادرات الأمريكية معاملات لفروع خارجية للشركات الأمريكية . وقد أعطت قوانين الضرائب فى تلك الفترة إعفاءات سخية للشركات شجعتها فى هروبها للخارج .

ازداد سخط الكثير من الناس وخاصة الشباب – سواء فى الشمال أو الجنوب – فى ستينات القرن من جرّاء تركهم بلا معين فى اقتصاد أرهقه الركود بسبب هروب رأس المال ، وسرعان ما اتخذ سخطهم شكلا سياسيا : لماذا تحارب الولايات المتحدة فى فيتنام ؟ ولماذا تنكر على الناس حقوقهم المدنية ؟ بالطبع ، كانت هناك مجموعات صغيرة طالما عارضت تورط الولايات المتحدة فى فيتنام وفى الأماكن الأخرى على مدى سنوات (سابقة) ، وكذلك كان نضال السود من أجل الحقوق المدنية أقدم عهدا ، ولكن إمكانية ظهور حركة شعبية يسارية على نطاق الأمة برزت لأول مرة مع وجود أزمة اقتصادية هيكلية على نطاق البلاد . وأصبح كثير من أفراد الطبقة المتوسطة وكثير من شبابها من دعاة الحقوق المدنية ومناهضى حرب فيتنام النشطين .

وإذ واجهت الدولة هذا التحدى من حلفائها السابقين ، من « أفضلهم وألمعهم » ،

لم تعد ترى نفعا بعد فى الموقف الإدماجى ، ورأت أن الانضباطية تعمل أفضل باتباع استراتيجيات العصر الليبرالى الأول ، ولم يعد مما يستحق المخاطرة العمل على تآكل الحدود العرقية والإقليمية للحفاظ على الإدماجية لمدة أطول من ذلك .

وتظهر الدراسات التى تناولت الفترة الأخيرة من الستينات أن انتخابات عام ١٩٦٨ ، التى جاءت بريتشارد نيكسون إلى الرئاسة كانت علامة على بداية التحول من الإدماجية إلى الليبرالية ، وعلامة أيضا على مولد تحالف جديد سيسيطر على السنوات التالية ، وهو تحالف محافظ يقوده الجناحان الرئيسيان للرأسمالية الأمريكية ، ويمكن اعتبار سنة ١٩٧٠ (بقليل من التعسف) النقطة الفاصلة بين العهدين القديم والجديد .

ولننظر إلى هذا التحول بشىء من التفصيل . فى سنة ١٩٦٨ ، بدأت الدولة تبعد نفسها عن قطاعها العام حتى تصل إلى الاستعاضة عنه بالتحالف الجديد . وسميت هذه الخطة بـ « الاستراتيجية الجنوبية » ، وتضمنت تقوية حركة معارضة بيضاء ضد الحقوق المدنية ، والاستيلاء على ما كان يسميه ريتشارد نيكسون وآخرون « الأغلبية الصامتة » .

لم يكن نيكسون بالطبع معارضاً كليةً للحقوق المدنية ، بل كان همه أكثر براجماتية ، ألا وهو الحفاظ على الهيمنة . كانت بعض مبادرات الدولة الانضباطية فى الستينات قد أخفقت ، فكان عليه أن يظهر أن الدولة ما زالت محتفظة بسيطرتها ، وإذ أخذ خطه من وول ستريت بدأ يدعى أن برامج الرعاية الاجتماعية والتأهيل لم تفعل شيئًا ، إلا أن أوجدت أناسا ساخطين ، ولم تقدم مساعدة حقيقية . وهكذا ، فإنه وجميع الذين اتبعوه من جمهوريين وديمقراطيين صكوا الدعاوى اللازمة لكل أولئك الذين يريدون أن يولوا ظهورهم لتقليد روز فلت ويساندوا العودة إلى الاعتماد على المبادرة الخاصة .

وبالنظر إلى نيكسون على هذا النحو يمكن أن نفهم تورطه فى سياسات تبدو متناقضة ظاهريا ، من مثل إنشائه فى عام ١٩٦٩ مكتبا لمشروعات أعمال الأقلية وإطلاقه العنان فى نفس الوقت لهجوم فريد على الكتل السوداء ، وكذلك ما يسمى بإجراءات مكافحة الجريمة . أن ذلك يشرح أيضا ، لماذا أخرج النيكسونيون أمريكا من

فيتنام . إن الحرب لم تكن تستحق ما يبذل فيها ، بل إنها أعطت الحركة المناهضة للهيمنة قضية بالغة القوة تستند إليها .

ربما أدركت القيادات النقابية فى الاتحادات الرئيسية فيما بين عامى ١٩٦٨ و ١٩٧٢ أنها قد تصبح هدفا للحركات الارتجاعية من اليمين واليسار ، ولهذا قررت أن تصفّ نفسها مع الأغلبية الصامتة مساعدة فى تحويل الكثير من الناخبين الديمقراطيين تقليديا – وخصوصا البيض منهم – إلى الحزب الجمهورى . وعلى سبيل المثال أعلن جورج مينى الذى كان رمزا لوحدة العمال مع الحزب الديمقراطى فى عام ١٩٧٢ حياده إزاء ترشيح المرشح الديمقراطى جورج ماكجفرن .

وفى تذكر التفاصيل الرئيسية لفترة التحول قد يكون من الخير أيضا أن نتذكر النكسة التى تعرضت لها الهيمنة القديمة ، وأن إعادة صياغة الهيمنة مجددا تميزت بزيادة العنف من جانب الدولة ، وبالتغييرات فى القانون التى خدمت بطريقة ما تقنين هذا العنف .

إن العنف غير المسبوق ضد الحركات السياسية السوداء من مثل الفهود السود أسفر عن وقوع كثير من القتلى واعتقال الكثير من الناس ، وبدأ البيض يشعرون بالخجل ، وبدأ الدعاة السود تدريجيا يفقدون الأمل فى أن تتغير الهيمنة حقا .

ومن بين التغييرات فى القانون فى تلك الفترة يمكن الإشارة إلى قانون المساعدة فى تنفيذ القانون الذى أصدره ليندون جونسون فى أواخر عام ١٩٦٨ ، وهو القانون الذى اكتسب أهمية كبيرة فى ظل نيكسون فيما بعد ، ونتيجة لهذا القانون نمت بسرعة كبيرة قوات الشرطة فى البلاد ، ومن القوانين الأخرى فى حقبة نيكسون والتى أصبح لها أهمية كبرى مستقبلا قانون المساعدة المالية المحلية (مصلحة الإيرادات العامة) فى عام ١٩٧٢ ، وهو قانون حل محل برامج المجتمع العظيم الموجهة فيدراليا فى الستينات ، والتى كانت تأتيها الأموال من واشنطن . وقد وضع هذا القانون الصادر فى عام ١٩٧٢ عبء مسئولية تدبير الأموال لكل البرامج العامة على عاتق الولايات مباشرة .

وبأسلوب المقارنة تذكرنا فترة الانتقال النيكسونية بفترة الرئيس الأسبق رذر فورد

هيز ، ففتور حماس نيكسون للقوانين القائمة ، كما يعكسه مثلا رفضه لتأييد الحقوق المدنية فى الجنوب ، يذكرنا بقرار سحب القوات من الجنوب ، وقبول الوضع العرقى القائم فى العصر الليبرالى الأول . ويبقى أن نكرر أنه لا نيكسون ولا هيز كانا معاديين للسود ، ولكنهما كانا يبحثان عن الاستقرار .

وإذ ووجه نيكسون أيضا بتحدى إمكانية نشوء حركة جديدة معادية للهيمنة ومنظمة حول القضايا البيئية والصحية ، فقد وضع خطة عامة حول كيفية مواجهة الدولة لمثل هذه التحديات ، وهى خطة ما زالت مطبقة حتى اليوم . ولإزاحة التحديات التي تعترض الصناعة فى مجال البيئة ، اعتمد نيكسون على الترتيبات التنظيمية . وهكذا شهد عام ١٩٧٠ إنشاء وكالة الحماية البيئية ، وشهد نفس العام أيضا بداية تشريع جودة الهواء والماء [٢٤] . إنها حقبة جديدة أو - إن شئت القول - حقبة قديمة قد بدأت .

الليبرالية الجديدة : ١٩٧٠ حتى الوقت الحاضر

أفسح انهيار الإدماجية المجال لعودة ليبرالية جديدة فى الاقتصاد وعودة حكم الطبقة الواحدة سياسيا ، وأصبحت الرأسمالية أكثر توحدا . وبحدوث ذلك ، فإن دور الدولة الذى اتسع ذات يوم ، عاد مرة أخرى إلى الانكماش .

ولشرح التغيرات الاقتصادية والسياسية الهامة فى هذه الفترة يبدو معقولا - على سبيل الفرض - أن نؤكد أولا أن الطبقة الرأسمالية القديمة فى الولايات المتحدة - شأنها شأن عدد من مثيلاتها فى البلدان الأخرى - قد راكمت ثروتها أوليا من خلال التصنيع ، ووصلت فى منتصف الستينات إلى حد جعلتها فيه هذه الثروة عرضة للتحدى والهجوم . إن سوق السلع الصناعية لم يعد يقبل التوسع بعد . أما الجناح الذى أصبح آنذاك أكثر ديناميكية وثورية ، أى الرأسمالية المالية ، فقد رأى فرصته فى إزاحة الصناعيين جانبا لما يبدو من ترنحهم . لقد ألقى بالصناعة خارج البلاد إلى مناطق العمل الرخيص ، وأصبح مركز الثروة الحقيقى هو البنوك وشركات التأمين .

ولاحظ مراقبو هذه الفترة أن البنوك وشركات التأمين يمكنها الاستثمار انتقائيا ، حيث تتحقق الأرباح في المدى القصير ، بينما الصناعيون باستثماراتهم الثقيلة فى المصانع لا يستطيعون ذلك . وهكذا ، بدأت الشركات التقليدية فى إعادة هيكلة نفسها حتى تظل قادرة على المنافسة ، فتخلصت بالبيع مما هو غير مربح واشترت الشركات الرابحة ، مهما يكن المجال الذى تعمل فيه أو اشترت أجزاء منها . وهذا هو السبب فى أن بعض الكتاب أطلق على فترة التحول إلى الليبرالية « فترة اندماج الشركات » . والأمر الثانى هو أن المرء عندما ينظر الآن إلى الشركات العملاقة التى أعيد هيكلتها بشكل جديد مع وفرة وتعدد استثماراتها الجديدة المتغيرة أبدا ، فإن ما يبرز للعيان هو تحول آخر فى السلطة ، تحول يمضى بعيدا نحو شرح سيطرة الرأسمالية المالية على الرأسمالية الصناعية . وأشير فى هذا الصدد إلى صعود طبقة إدارية جديدة على حساب الملاك التقليديين للشركات الكبرى والمؤسسات الكبرى الأخرى . إن ازدياد السلطة فى داخل الشركات الكبرى لا يتحقق بالطبع بسهولة ، فمالك مصنع الصلب التقليدى قد لا يدعى أنه يعرف شيئا عن السوق فيما يتعلق بالخط الجديد للمناديل الورقية (الذى إضافه لشركته) ، ولكنه فى هذه الحالة يجد نفسه مضطرا إلى التخلى عن سلطته للمدير (CEO) ، وهذا ما حدث فى تلك الفترة ، وفى شركة بعد أخرى . ومع انخفاض قيمة الأسهم الصناعية بدأ حَمَلَتها يبحثون عمن يرفع الأرباح ويستطيع ذلك ، وبذلك يزيد عائدات الأسهم . وليس مما يدعو للدهشة أن حمَلَة الأسهم غالبا ما يؤيدون ما يقترحه المديرون من تنويع الاستثمارات ، ويرفضون النصيحة المحافظة لطبقة الملاك التقليديين التى تجاوزها الزمن .

ومع تقدم الاتجاه نحو تحقيق الأرباح فى المدى القصير من خلال عمليات الاندماج ظهرت فرص جديدة فى الساحة السياسية للطبقة الحاكمة الأمريكية ، فعمليات الاندماج جمعت معا رجال الأعمال المتمرسين فى الطرق الجديدة من الجناحين الوطنى والدولى فى الاقتصاد . وقد وجد هؤلاء شيئا واحد مشتركا ، ألا وهو كراهيتهم لسياسات الدولة التنظيمية . فهل يستطيعون أن يتواطأوا لإجبار الدولة على الابتعاد عن دورها التنظيمى ؟ وهل يستطيعون إرغامها على أن تغرق أكثر من الديون

لشراء سلعهم وخدماتهم ؟ إن سبعينات وثمانينات هذا القرن تبين أن ذلك كان ممكنا حقا . إن الدولة يمكن إضعافها ، ويمكن لقوى الضغط العاملة لحساب المصالح الخاصة أن تبعدها تماما إلى الأطراف .

ولكن هل كان ممكنا أن تمضى الشركات الكبرى ببساطة فى عمليات توسع عشوائى لمجرد أنها تمتلك من النقود ما تشترى به الشركات الأصغر ؟ إن على المرء هنا أن يعترف بأن ذلك كان ممكنا فى الحقيقة بسبب ملمح آخر من ملامح الفترة هو نفاذ هذه الشركات إلى تكنولوچيا الاتصالات الجديدة . هل كانت هذه الشركات الدولية الضخمة – وبعبارة أدق شركات المجموعات المختلطة العملاقة ، والتى وجدت نفسها معا صدفة – تستطيع البقاء دون هذه التكنولوجيا ؟ وعودة إلى الاعتبارات السياسية لهذه الفترة لا نتجاوز إن زعمنا أن التغييرات التى أسفرت عنها هى أكثر بكثير من مجرد سحق الحقوق المدنية للسود . لقد كان هناك تدمير أوسع للمجتمع المدنى أيضا . ولعل الأمر وصل إلى حد العبث بفكرة تغيير الهيمنات ، أو ربما التحول إلى نظام من الطريق الروسى .

ومع الثمانينات أصبحت الدولة قادرة على تقسيم المجتمع إلى فئتين : أولئك الذين يملكون المال وأولئك المحرومين منه . ولما كان الذين يملكون منهم سود والذين لا يملكون منهم بيض ، فقد أتاح هذا للدولة أن تدعى أنه من النظام القديم بعنصريته يبزغ مجتمع جديد يتحرك صوب حلمها : أن تكون بوتقة تنصهر فيها العناصر القوية المزدهرة .

وبالطبع ، فإن معظم ما بقى فى المجتمع كان الوظائف ضعيفة الأجر فى قطاع الخدمات (٢٥) . وإذا كان الفقر من نصيب أحد ، فقد وقع فى الشَّرَك . وهكذا ، فإن الشباب الذين حرموا من مستقبلهم – بيضا كانوا أم سودا – حاولوا أن ينهضوا مثلما حدث فى الستينات ، ولكن الأمر كان بالغ الهزال هذه المرة ، فلم تكن هناك حركات يستظلون بلوائها . والحركة النسائية (٢٦) ، وهى الحركة الناهضة الوحيدة آنذاك لم تكن تستطيع أن تحمل هذا العبء ، فقد اختارت فى كل حالة أن تبقى قريبة من جدول أعمال المصالح المسيطرة .

هل جاءت فئة دنيا اقتصادية هنا لتحتل مكان الفئة الدنيا العرقية ؟ الإجابة هي بالنفي طبعا ، فلو ظهرت إلى الوجود فئة دنيا اقتصادية ، فسوف تزيد احتمالات الصراع الطبقي دون تقديم طريقة للانحراف به . والخلاصة أنه بينما جعلت البطالة البنيوية في المناطق الصناعية القديمة والمزارع كثيرا من البيض الفقراء في أسفل السلم الطبقي ، فإن البقاء في أسفل السلم الاجتماعي شيء والانتماء إلى فئة دنيا مغلقة شيء آخر [٢٧] .

ليست هناك إجابة اقتصادية بحتة على التساؤل عن السبب في أن التحول إلى الرأسمالية المالية يجب أن يحدث مثل هذا الانهيار في الاقتصاد المنظم . لقد واجهت رأسمالية الشركات الكبرى بالتأكيد منافسة من جانب اليابانيين والألمان بعد ١٩٧٠ . ولكن هذا لا يكفي لتفسير الاستسلام للتخطيط قصير المدى على حساب التخطيط طويل الأجل ، حتى لو أضفنا إليه ضغوط الاتحادات العمالية ومطالب الحقوق المدنية ومطالب حملة الأسهم والمديرين ، إذ كيف يتسنى للطبقة الحاكمة في بلد صناعي أن تمتنع عن وضع سياسة صناعية أو تجارية لحماية مصالحها الوطنية ؟ إن هذا يظل أمرا دون تفسير . مما يدعو للدهشة أن كل الدول الصناعية الكبرى الأخرى لها سياساتها في الاستثمار وفي قواها العاملة وفي تكنولوجياتها وفي بنيتها الأساسية . من الواضح أن هذا كان اختيار الطبقة الحاكمة أيضا . ما الذي جعل الأمريكيين يختارون الطريق السهل للخروج من ذلك : أن يحولوا شركاتهم إلى تقديم مبيعات لاتنافسية من مواد لا حاجة إليها مثل الأسلحة إلى الحكومة ، لتقوم بدورها بالاستدانة لدفع أثمانها ؟ إن حقيقة غياب التخطيط طويل الأجل يجب تفسيرها في ضوء الاعتبارات السياسية ، فماذا بقي ؟

إن السياسيين ورجال الأعمال يجب أن يؤمنوا بالأجل الطويل إذا كان لهم أن يدخلوه في اعتبارهم . إن فكرة المدى الطويل هي فكرة سياسية بقدر ما هي فكرة اقتصادية . فإذا كانوا يؤمنون بها ، فسوف يخططون للمدى الطويل ويتقبلون الخسائر على الطريق . هل كان هذا هو الحال في الولايات المتحدة في ١٩٧٠ ؟ أقول : لا ، فقد كانت الهيمنة في وسط الهزيمة . وبخلاف كل المزايا كانت هناك طبقة وسطى سوداء قد

نهضت . ومن هذه الطبقة ظهر كثير من الموهوبين فى الحياة الوطنية . وللعودة إلى « الحالة الطبيعية » الأمريكية ، أعنى إلى التفوق الأبيض القديم فى القرن التاسع عشر ، فإن الخيارين الوحيدين اللذين قد تفضل العناصر الهيمنية التقليدية أحدهما هو : تقليص هذه الطبقة إلى أقصى حد ، أو إحلال فئة عرقية دنيا تحل محلها . وكلاهما غير ممكن ، ومرة أخرى لأسباب سياسية . ومن السياسات المقترحة والمتبناه نستطيع أن نحكم بأن معظم الطبقة الحاكمة لم تكن تستطيع أن تقبل فيما يظهر بعد ١٩٧٠ ، واقع أن الإيديولوجية العنصرية كانت على المنحنى الهابط أكثر مما كانت فى القرن التاسع عشر ، وإن الوقت قد حان للمساومة (٢٨) . وكان هناك قسم آخر أصغر يبدو متفائلا بأن التلاعب بسياسات الهجرة يمكن أن يوجد مجموعات جديدة يمكن استغلالها ضد السود ، وأن السود سوف يدفعون بذلك مرة أخرى إلى أسفل ، وبالطبع كان هناك أيضا من ظن أن الماضى يمكن أن يعود من خلال الحماسة الدينية .

ولكن الأغلبية التى أخفقت فى أن تشق طريقها طبقا لمفهومها عن الأصول أصبحت سياستها ببساطة هى أن تجر المجتمع إلى الحضيض ، وإذا كان روزفلت قد أنقذ الأمريكيين بتحويلهم إلى مستهلكين ، فإن ريجان أنقذ الرأسماليين بتحويل معظم أموال البلاد إلى أيدى الخمسة فى المائة الموجودين فى قمة سلّم الدخول لتخرج هذه الأموال بدورها إلى خارج البلاد . وعاد قانون الفقراء القديم ، واستبدلت بالرعاية الاجتماعية رعاية العمل ، وأصبحت أنشطة الأعمال منفتحة على قدر كبير من العمل شبه المجانى مرة أخرى مما يجعل المرء يفكر فى هيمنات أخرى .

ولكن مثل هذه الممارسات الوحشية للطبقة الحاكمة لم تمر مرور الكرام ، حتى وإن كانت المعارضة التقليدية فى حالة من الفوضى . فقد ظلت البلاد بلادا حضرية ، وقاوم جزء كبير من سكان الحضر فى الشمال الليبرالية الجديدة ، وظلوا يعطون أصواتهم للديمقراطيين الليبراليين وللرعاية الاجتماعية ، وقاومت أجزاء لا يستهان بها فى الجنوب والغرب أيضا ، وأدرك كثيرون فى المنطقتين أنهم قد غُدِر بهم ، وأضفى هذا إلحاحا جديدا على انتقاداتهم للمدارس وللنظام الصحى والبيئة والحروب ... إلخ .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الفئة الواقعة فى الحضيض الاجتماعى طبقيا وفئويا لم تكن مثل فقراء ومقهورى الأمس . إنها كانت أكثر ميلا إلى المغامرة والشطط ، أو بعبارة أخرى ، كانت القوى التى تقهرها أقل فاعلية . ومن يستطيع أن يتجاهل موسيقى الراب الصاخبة التى تحياها أو مساهماتها فى الاقتصاد غير المشروع ؟

وقد يستطيع البعض أن يزعم نهوض قطاع بكاملة من الاقتصاد فى ثمانينات القرن ، قطاع نستطيع أن نطلق عليه أنشطة الأعمال غير القانونية ، وهى أنشطة تضم إلى جانب الفقراء والمقموعين آخرين بعضهم يعمل من داخل نفس المؤسسات التى تتعرض لنيران هذه الأعمال .

يُحمّل البعض الدولة مسئولية نمو الاقتصاد غير القانونى ، ويرى البعض أنها مقيدة إلى حد أفقدها فاعليتها ، ويلوم آخرون الأجانب لاختراقهم بمهارة اقتصاد البلاد : فهل يستطيع المرء أن يستشهد بفكرة تحوّل الآليات الفاعلة فى الهيمنة ؟ إن هذا يبدو تزيّدا . فلو أخذنا المبادرة الرئيسية للدولة ضد الأعمال غير الشرعية ممثلة فى الحرب ضد المخدرات لوجدناها سياسة تتفق بوضوح مع تطبيقات الديمقراطية . وفى الواقع يزداد اتجاه الدراسات إلى تأكيد أن هذه الحرب لا تخُاض بقصد كسبها وإنما لإعادة تنظيم المجتمع (٣٠) . والفكرة هنا أنه كلما تم القيام بسجن المزيد والمزيد من السود الفقراء ، تستطيع أن تربط فى النهاية بين الجريمة نفسها والسود ، وفى الوقت نفسه توجد مصدرا للعمل غير النقابى من داخل السجون . وهكذا نعود تدريجيا إلى القرن التاسع عشر .

كيف يمكن لمثل هذه السياسة أن تكون غير شعبية ؟ إن الجريمة فى الشوارع – مرتبطة بالمخدرات أو غير مرتبطة – قد مست حياة كثير من الناس حتى أصبحت لمثل هذه الحلول جاذبية فى كثير من الأوساط . فلماذا الاهتمام بأسباب الجريمة أو الفقر ؟ ولماذا لا نقصر اهتمامنا على سلوك المجرمين والفقراء ؟ إن المبادرة تفعل فعلها ، ومعظم المدن الرئيسية أخذت فى هذه الفترة تنتخب عمدها ممن يحرصون على القانون والنظام ويعربون بوضوح عن مثل هذه المشاعر .

ولكن يجب أن يُضاف أن غالبية الحضر يدركون بشكل متزايد - على الرغم من ذلك - أن التزاما أعمق بالرعاية الاجتماعية وإعادة الاستثمار الاجتماعي هو وحده الذى يمكن أن يغير حياتهم . وفى الثمانينات ظهر عمد المدن الرئيسية كمجموعة ضغط من أجل التجديد الحضرى . إن SWAT * فرق القمع الخاصة لاتستطيع أن تكافح الإيدز أو السل .

وإذا أوضحنا النقط السابقة بالإشارة إلى الشمال أكثر مما أشرنا إلى الجنوب يبدو ضروريا الآن أن نتذكر اهتمام الطبقة الحاكمة الأمريكية طويلا بالإبقاء على الجنوب منطقة « العمل الرخيص » وأن نوجه اهتمامنا إلى هناك . لقد كان الجنوب نقطة الضعف فى استراتيجية الليبرالية الجديدة ، إذ كيف يمكن السيطرة على الفقراء البيض هناك بعد أن ازدادوا فقرا ؟

مع تدفق الصناعة إلى الاقتصاد الجنوبى بعد عام ١٩٦٠ ، بدا أن ما يسمى بـ «الجنوب الجديد» آخذ فى النهوض . ولكن هذا التغيير - كما أشرنا آنفا - أثبت أنه قصير الأمد وزائف . فمنذ أوائل السبعينات ، انتقل كثير من الشركات الكبرى من الجنوب إلى العالم الثالث أو تحول إلى الميكنة التامة . وحتى صناعة البترول التى ظلت طويلا عماد الاقتصاد الجنوبى الغربى لم تستطيع أن تصمد طويلا للمنافسة الجديدة فى السبعينات وتركت مدنا مثل : دالاس وهيوستون لتسقط على أم رأسها . وبالتدريج ، بدأت تبرز إلى المقدمة فى أنحاء الجنوب - كما فى كل مكان آخر - الأعمال المصرفية وأعمال العقارات والتأمين . وإذا حدث ذلك أخذت الفجوة تتسع سريعا بين الأغنياء والفقراء .

فى هذا الوضع أتيحت الفرص لظهور هياكل أخرى للسلطة ، ولتفرض هذه الهياكل نفسها على المستويين الإقليمى والوطنى . فلم تكن الأصولية على سبيل المثال تروق لغالبية الأمريكيين فيما سبق ، ولكن المجتمع المنظم جعلها تستهوبهم ، وهكذا ، فإن كثيرا من الأمريكيين وقفوا إلى جانب « الحرب » ضد الإنسانية العلمانية وإلى جانب القيم الأسرية فى سبعينات وثمانينات وتسعينات هذا القرن . وأصبح الجنوب بمشاكله فى بعض الأحيان مقرا أوليا لهذه الحرب .

---

* قوة شرطة أمريكية مدربة على استخدام أسلحة وتكتيكات خاصة - المترجم .

وكان من المراكز ذات النفوذ – وتستطيع أن تضيف : « الغنية » – للأصولية جامعة الحرية المعمدانية لجيرى فيلويل فى لينشبرج بفرجينيا وكنيسة جيمى سواجارت فى باتون روج وكنيسة روبرت شولر فى كاليفورنيا الجنوبية وكهنوت بيكر فى جنوب كارولينا ، وأخيرا أشهر الجميع كهنوت أورال روبرتس التليفزيونى فى تولسا بأوكلاهوما . وفى منتصف الثمانينيات أصبحت ثروات هؤلاء الرجال مشكلة ، وأصبحوا جميعا أبطالا لفضائح تداولتها الشائعات والثرثرات لتكشف عن نزواتهم . ومع حملة الحاكم كلينتون فى ١٩٩٢ عادت كثير من الأموال إلى السياسيين العلمانيين (٣١).

إن الهيمنة فى الولايات المتحدة لا تشمل فقط مبادرات الأجنحة الإقليمية للرأسمالية الأمريكية ، بل تشمل أيضا مبادرات الدولة . فماذا كانت مشروعات الدولة ، وكيف حافظت على كيانها فى الأزمنة الأخيرة ؟

ربما يجب أن نبدأ هنا بأن نتذكر مرة أخرى أن حقبة الاندماجات بين الشركات فرضت تحديات على الاستراتيجية الانضباطية القديمة ، وأن الدولة كان عليها أن تقوم بتنازلات فى بعض النواحى لدعم الطبقة الحاكمة . وعلى سبيل المثال ، يجد المرء أن وظائف الخارجية أصبحت أكثر ارتباطا بالسياسة والمحسوبية منها بالتعليم والتدريب . وعانت مؤسسة الرئاسة ضربة قاضية فى ووتر جيت .

يبقى بعد كل شىء أن الدولة خلال هذه الفترة (١٩٧٠ – ١٩٩٠) ظلت تدير شئونها فى ثلاث مجالات رئيسية تحظى كلها باعتراف التاريخ الأمريكى السابق . فأولا ، نجح كبار السياسيين فى الادعاء بأن الإرهاب فى صعود وأن الدولة هى حامية البلاد . وثانيا ، أصرّت الدولة على أنها مؤهلة بطريقة فريدة لقيادة مهمة البلاد الأخلاقية من أجل حقوق الإنسان وانقاذ البيئة . وثالثا ، كانت الدولة مؤهلة بطريقة فريدة لترتيب القضايا المعقدة لمجتمع متعدد الثقافات .

لقد وجد كل الرؤساء تقريبا منذ أيام الحرب الباردة وحتى أيامنا هذه أن هناك خطرا ماثلا مصدره الإرهابيون الأجانب . وكانوا فى البداية يصورون هذا الخطر قادما من الاتحاد السوفييتى . ولكن لما تبين أن الاتحاد السوفييتى دخل منذ

الخمسينات مرحلة ليبرالية طويلة أخذ مصدر الخطر يتحول بالتدريج ليصبح قادما من العالم الثالث . وشاع فى السبعينيات ربط الإرهاب بالفلسطينيين والاتجاه الإسلامى . وفى النهاية لم يعد مهما بالنسبة للدولة من يكون الإرهابيون ، بل لم يعد مهمًا ما إذا كانت الأحداث الأرهابية المزعومة حقيقية أم ليست حقيقية طالما أنها تحتل العناوين الرئيسية للصحف لعدة أيام ، إذ يبدو أن هذه السياسة تؤتى ثمارها حتى لو عرف الناس أن هناك كثيرا من الزيف فيما قبل ، لأنه ستكون هناك بالطبع تهديدات حقيقية للأمريكيين فى الخارج بهذه المناسبة . وإلا كيف يكون الأمر بخلاف ذلك ؟ إن الاستثمارات العشوائية من أجل جنى الأرباح فى المدى القصير تأخذ الأمريكيين إلى كل مكان لتعرضهم – كما لم يتعرضوا من قبل – لانتقام الأهالى المحليين .

لعل أكثر المبادرات الرئاسية حظا من التعليقات فى الأكثر من عشرين سنة الأخيرة كانت تلك المتعلقة بحقوق الإنسان وليس بمكافحة الإرهاب . ألا وهى حملة حقوق الإنسان التى بدأها الرئيس جيمى كارتر . ويبدو معقولا أن نفسر هذه الحملة بأنها تعبير عن قيم الرجل وعن كثير من قيم الجنوب الجديد . بيد أن قبولها على نطاق أوسع فى واشنطن وفى كل مكان آخر ، يجب أن يفسر فى ضوء مصالح الدولة . ومن الناحية العملية ، يبدو معقولا افتراض أنه – من وجهة نظر الدولة – إذا كانت البنوك تريد أن تقدم قروضا لبلاد العالم الثالث ، فقد تسنح الفرصة للدولة أن تدعم وضعها كحكم يقرر من تقدم له القروض . وعلى أى أساس يمكن تقديمها . وأصبح موقف الدولة يتمثل فى ما يمكن أن يفعله متلقى القروض لمحاولة التمثل بالقيم الأمريكية ، مثل قيم حقوق الإنسان ، فإذا كانت المؤسسات المالية ترى أن القرض ليس إلا قرضا ، فإن القرض - من وجهة نظر الدولة – يجب أن يتضمن قيم خلقية تعارض النظم الشيطانية أو الإرهابية فى العالم .

والمجال الثالث لمبادرة الدولة جاء فيما يسمى المشكلات السياسية العسرة مثل مشكلة الشرق الأوسط ، ومن الصعب أن نتلاشى الاستنتاج بأن الدولة استفادت من مشكلة الشرق الأوسط – حتى دفعت إلى عملية السلام – لأنها تواءمت سنين طويلة مع سياق السياسات التنظيمية – فقد كان هناك جانبان لأزمة الشرق الأوسط طوال تلك

السنوات ، أحدهما تمثله شركات الساحل الشرقى للبترول ، التى كانت تنشر الاستقرار فى الشرق الأوسط ، وثانيهما الثقافة المحورية التى أرادت أن يكون الشرق الأوسط « الأرض المقدسة » ، ولكن الصراع بين الجانبين ترك مساحة للتنظيم .

وكما رأينا من قبل ، شهدت مدن الأطراف نموا سريعا من الخمسينات إلى السبعينات ، أتاح الفرصة لظهور ثروات جديدة ، وأصبحت تلك المدن تعيش رخاءً كبيرا ، بينما ازداد الريف المحيط بها فقرا (٣٢) .

وخلال هذه الفترة كان على رجال الأعمال الأثرياء الجدد المستفيدين من هذه التغييرات أن يوجهوا – بمقتضى بروزهم – انتقادات المجتمع الأوسع الذى كانوا يوما جزءا منه ولكنهم الآن يستغلونه من خلال مضارباتهم المغامرة . ولكى يفعلوا ذلك كانوا فى حاجة واضحة إلى مزاج شعبى ثقافى جديد ، وجدوه كما أسلفنا فى الدين . وعندما يمعن المرء النظر فى هذه التطورات من حيث علاقتها بمشكلة الشرق الأوسط ، فسوف يتبين له تطور موقفين متميزين من هذه المشكلة داخل النخبة الجنوبية .

ففى الجنوب الغربى كان الجنوب الجديد يمينا جديدا أيضا . ولم يشأ هذا اليمين الجديد أن يعترف بذلك ببساطة ، بل أعلن انفصال الأغنياء أى أنفسهم عن غيرهم . وكان جوهر هذا الإعلان اصطفاهم شعبا مختارا . وفى هذا السياق شهدت وجهة نظر اليمين الجديد تغيرا دراميا من معاداة السامية إلى الولع بها . ونتيجة لهذا التغيير وجه كبار السياسيين من الجنوب الغربى دعوة غير مسبوقة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحيم بيجن لزيارة كنيسة تكساس فى ١٩٨٠ ، واتخذ بيجن قراره غير المسبوق بنفس الدرجة بتلبية الدعوة . ومنذ تلك الفترة أصبحت الحركات التقليدية المعادية للسامية فى الثقافة المحورية من مثل « الأمة الآرية » أكثر أمْنا فى المدن الصغيرة والمناطق الريفية منها فى المدن الكبرى (٣٣) .

أما سياسيو « الجنوب الجديد » فى الجنوب الشرقى – وكثيرون منهم - كانوا أغنياء جداً أيضا ، فقد عالجوا مشكلة الشرق الأوسط بطريقة مختلفة تماما . فالجنوب الشرقى كان أكثر تماسكا من الجنوب الغربى ، وخصوصا فى المدن مثل

أطلانطا . وعندما ظهر سياسى مثل جيمى كارتر من أطلانطا ، كان له سجله الحافل بالعلاقات مع مختلف الأجناس ، وكانت لديه رغبة قوية فى تحقيق العدالة لـ « كلا » الجانبين فى الشرق الأوسط . وهكذا ، نجد أن « المعمدانيين التقدميين » الذين كان كارتر واحدا منهم قد بدأوا يجتمعون فى السبعينيات مع الفلسطينيين . وعلى الجانب الآخر من الأطراف . فى الجنوب الغربى كان هناك أيضا ازدهار حضرى ، ولكن لم يكن هناك تغيير فى العلاقات بين الأجناس . وهناك اتخذت موالاة إسرائيل شكلا ثابتا من موالاة الليكود أدى إلى دعوة رئيس الوزراء بيجن .

كان الأمر فى الساحل الشرقى متباينا مع ما كانت عليه الحال فى الجنوب . ففى الستينيات كانت لدى الساحل الشرقى أفكار مختلفة جدا حول الشرق الأوسط . وصاغت رأسمالية الشركات الكبرى التى تقودها (الشقيقات السبع) * السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط . وكانت سياستها هذه تقوم على أن الولايات المتحدة تقف إلى جانب الاستقرار فى الشرق الأوسط . وكان هناك أيضا جماعة ضغط (لوبى) صهيونية أمنت بأن إسرائيل هى مفتاح هذا الاستقرار . ولكن مع تقدم الستينيات ، بدأ النضال من أجل وحدة الأجناس فى الولايات المتحدة يغير من السياسات إزاء المنطقة (الشرق الأوسط) . وفى الطبقة المتوسطة أو « أوساط الحركة » التى كانت تدفع إلى هذه التغييرات ، أخذت الدعوة إلى حقوق الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين الأصليين (الهنود الأمريكيين) تتضمن دعوة إلى « العدالة للفلسطينيين » ، واعتبر هذا جزءا من الليبرالية الشمالية .

وفى السبعينيات تغير الموقف من مشكلة الشرق الأوسط فى الساحل الشرقى مرة أخرى . لقد أخذت « الحركة » تضعف ، وكفت عن أن يكون لها نفس الأهمية . وبدأ فصيل صاعد مؤثر من الرأسمالية المالية يمثله على سبيل المثال مايكل ميلكين ملك جونك بوند يضع بصماته ، فبينما كانت الحركة تنتقد إسرائيل وتقاطع جنوب أفريقيا

---

* الشقيقات السبع : هى شركات البترول الكبرى التى تتحكم فى السوق العالمى وتلعب دوراً أساسيا وخطيرا لخدمة مصالحها ، وتشمل : إكسون ، وجالف ، وتكساكو ، وموبيل ، وسوكال ، والبريطانية للبترول ، وشل (المحرر) .

ذكرت التقارير أن ميلكين ساعد فى تمويل شركة كور الإسرائيلية (أكبر مجموعة شركات إسرائيلية حالياً - المترجم) التى كانت واحدة من أهم الحلقات التى تربط تلك البلاد بجنوب أفريقيا .

إن هذه الانقسامات بين الشمال والجنوب وفى داخل كل منهما حول مشكلة الشرق الأوسط ، أعطت الدولة الفرصة لتلعب دورا تنظيميا هاما تناسب والدور النموذجى للشرق الأوسط فى الثقافة الأمريكية ، واختارت الدولة فى هذه الحالة أن تعقد ما أسمته علاقة خاصة مع إسرائيل . ومع اقتراب عام ١٩٩٠ ، كان ميلكين فى السجن ، وتعطلت العلاقة الخاصة ، ولكن استراتيجية إبقاء الشرق الأوسط كمشكلة مازال يبدو فيها شىء من التعويض .

لم تكن مشكلة الشرق الأوسط سوى واحدة من القضايا الخلافية التى استغلتها الدولة فى هذه الفترة لتؤكد دورها التنظيمى . وكان من هذه القضايا الخلافية أيضا تنظيمات البرامج الدينية فى التليفزيون . فعلى مدى سنوات ، حاول المسيحيون من أصحاب الثقافة المحورية أن يشتروا وقتا لبث برامجهم على شبكات التليفزيون الرئيسية ، ولكن الدولة حالت بينهم وبين ذلك متمسكة بانفصال الكنيسة ، وبمبدأ الدولة بطريقة لقيت استحسان الساحل الشرقى . ولكن هؤلاء المسيحيين استطاعوا فى نهاية الأمر فى السبعينيات أن يجمعوا الأموال الكافية ، ليشتروا محطة تليفزيون خاصة بهم ، بل إنهم حاولوا أن يشتروا محطة سى بى أس (محطة الاذاعة الكابلية) إحدى الشبكات الرئيسية ، وبدأ ينمو الخلاف حول الحق فى وقت للبث ، وحينما حاولت لجنة الاتصالات الفيدرالية FCC أن تنظم العروض التى تبثها المحطات المسيحية طبقا لمبدأ العدالة اختصمتها هذه المحطات فى المحكمة قائلة إن السوق - وفى النهاية المستهلك .. هو الذى يحكم على مستوى الرسالة الإعلامية وليست الحكومة . وهو موقف مهما تكن مزاياه ليس متوقعا من هذه المحطات ، إذا وضعن فى الاعتبار موقفها من البرامج الإباحية . ولما كان الأمر على هذا النحو ، فقد كسبت الدولة هذه الجولة ، ولكنها فى مرات أخرى كانت أقل نجاحا . وعندما قررت لجنة الاتصالات الفيدرالية أن التبشير التليفزيونى ليس عملا يستهدف الربح ، فربما لم يكن ذلك يعنى إعفاء الأموال التى

تجمع عن طريق التبرعات من الضرائب (٣٤) . لقد كان هذا القرار محل نقد .

ولكن الدولة التى لم تردعها الخفاقات ، قررت أن تجعل من البرامج الإعلامية ميدانا هاما لدورها التنظيمى لما فى ذلك من إمكانية إبقاء القضية حية . وفى سنة ١٩٧١ أنشأت مجلسا وطنيا حول الدين والتعليم لتظهر الخلافات فى الرأى حول هذه الموضوعات بين الساحل الشرقى وثقافة القلب (٣٥) .

يجدر هنا أن نشير أيضا إلى مجال ثالث حاولت فيه الدولة أن تنظم مشكلة مزمنة . فتحت ضغط رجال الدين من الكنائس الرئيسية وخاصة من الثقافة المحورية استهدفت الدولة مجموعات تعبدية مختلفة باعتبار أنها تنطوى على خطر جسيم وأنها ليست متدينة حقا . وفى السبعينات والثمانينات ذهبت الدولة إلى المحاكم ووسائل الإعلام مرارا ، مصرّة على أن هذه المجموعات ليست كنائس « حقيقية » ، ومن ثم فهى تهدد المجتمع . وفى هذه الصراعات نجحت الدولة وكسبت امتنان الثقافة المحورية . أما الساحل الشرقى فكان يشعر بالازدراء لأن الثقافة المحورية استطاعت أن تنتهك الحريات المدنية لهذه المجموعات . وبالطبع يمكن أن تعتقد الحكومة أن مجموعات مثل : المونيين * والسيانتولوجينى ** Scientologists يشكلون تهديدا محتملا للهيمنة ، وأنهم يمكن أن تكون لديهم المهارة لعبور الخطوط العنصرية والإقليمية أو ليصبحوا أطرافا ثالثة . ولكن الواضح أيضا أن الدولة سيكون لديها دور تقوم به طالما تواصل هذه المجموعات صراعها (٣٦) .

وحتى نختم هنا المناقشة حول الاقتصاد السياسى ، نقول إنه مع عام ١٩٩٠ وبعد عشرين سنة من الليبرالية الجديدة كان معسكر السلطة المسيطر يواجه نكسات فى كل أجزاء البلاد : يرتبط هذا جزئيا بوضعه الاقتصادى الدولى غير المواتى ، ويرتبط جزئيا

---

* أتباع سون ميونج مون المولود ١٩٢٠ – مبشر كورى إنجيلى مزج الأفكار الأصولية المسيحية بالتصوف الشرقى .

** أتباع عقيدة ونظام للعلاج أسسهما ل . رون . هوبارد مؤكدا ضرورة استشارة الراعى الكنسى لعلاج الروح بما يخفف علل الجسد -- المترجم –

بتراجع قدرته على تنظيم الثقافة وعمليات الإقناع . وكان لاتجاه الطبقة الحاكمة لبسط هيمنتها دورا فى هذا . لقد ازدادت حدة المرارة والاغتراب فى أنحاء البلاد تجاه السياسات المفروضة فى هذه الفترة .

ويبدو أن هذا فى معظمه كان متوقعاً . فإذا كانت مجموعات الشركات المختلطة تضع نفسها – ليس فقط داخليا فى الولايات المتحدة ، بل أيضا خارجيا – فى صف واحد مع الرأسماليين اليابانيين والأوربيين ؛ لترغم البلاد على أن تغرق أعمق فأعمق فى الديون وتفقر مواطنيها فى أثناء تلك العملية ، وإذا كانت إسرائيل تستطيع أن توجه الدولة حين تشاء ، أليس واردا أن يأتى الوقت الذى تجعل فيه الديون الوطنية والنفوذ الأجنبى من تنظيم الثقافة شيئا بالغ الصعوبة ؟

منذ سنوات طويلة بين جرامشى – فى حالة إيطاليا – أن الرأسماليين يفعلون أى شيء للبقاء فى السلطة بما فى ذلك الانحياز إلى الإقطاعيين . أما في المملكة المتحدة والولايات المتحدة فتسود وجهة نظر أخرى تعتقد أن الرأسمالية نفسها ثورية وأصيلة ، وأن الرأسماليين يستفيدون من هذه الهالة التى تحيط بهم : إنهم ينخرطون فى أشياء تقدمية مثل التنمية مثلا . ولذلك فحتى عندما ظهرت أشياء رجعية أصيلة مثل لجوء الاقتصاد الهزيل إلى قانون الإيمان المسيحى لم يستطع اليسار الأمريكى أو البريطانى أن يستجلى حقيقة الأمر . ويبقى أن الصراع الطبقى بدأ يتعمق مع ازدياد الظروف الاقتصادية فى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تدهورا ، وسيستمر هذا الصراع حتى بدون راديكالية منظمة جيدا . إن صوتا (انتخابيا) للعمال أو صوتا للديمقراطيين هو صوت للرجل العادى ، صوت للبيئة ، للصحة العامة . إن هذه القضايا الطبقية هى فى الحقيقة تمثل الصورة البارزة للصراع الطبقى .

إن نشوء حركة منظمة على نطاق البلاد من خلال الصراعات المختلفة الدائرة يقتضى وجود أشخاص ومجموعات ذات قدرة على جمع مختلف الثقافات الإقليمية والطبقية والعريقة فى سبيكة واحدة . وفى التجربة الأمريكية كان الذين استطاعوا أن يطوروا مثل هذه الحركات هم اليمين الدينى وأعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمى (Wobblies) وهم خليط من التقليديين الشعبى والاشتراكى . وهاتان

الجماعتان مختلفتان تماما . فاليمين الدينى يريد الحفاظ على الوضع الاقتصادى القائم للرأسمالية مع إعادة تنظيم المجتمع ، أما المنتمون إلى اتحاد العمال الصناعيين العالمى فيتحدون الرأسمالية ، وفى مراحلهم الأولى كانوا – على ما يبدو – يتجهون إلى النضال ضد الهيمنة . ومع قدوم الحرب العالمية الأولى وقرار غالبية النقابات بالوقوف إلى جانب الدولة عانى اتحاد العمال الصناعيين العالمى من القمع وشدة البطش (٣٧) . وبينما ظلت روابطهم قائمة فى كثير من المجتمعات الأمريكية ، إلا أنها كانت كامنة لأنهم لم يكونوا قادرين فى ذلك الوقت على التصدى للدولة أو لليمين الدينى . والآن دعنا ننظر فى سيطرة الدولة على الثقافة .

تنظيم الثقافة فى الولايات المتحدة

تعتمد كل الهيمنات على الإقناع كجزء من الحكم . وهى تنظم نظمها الثقافية لتحقيق ذلك . وفى الديمقراطيات يعمل تنظيم الثقافة على تعزيز التقسيمات العنصرية الأساسية التى تعتمد عليها عملية تمويه الصراع الطبقى (٣٨) . وفى الولايات المتحدة جاء تنظيم الثقافة من خلال أعمال الوكالات النظامية الحكومية ومن خلال الرعاية التى تقدمها الدولة والطبقات الحاكمة فى جهودهما لتوجيه وصياغة الاتجاهات فى المجتمع المدنى ، وهى جهود أثمرت استدامة « الطريقة الأمريكية فى الحياة » .

ولنؤجل لحظة مناقشة الممارسات المحددة لنلاحظ أن الطريقة الأمريكية في الحياة تختلف عن نظيرتها الإنجليزية الأكثر نخبوية والأكثر صقلا وتشذيبا وإحكاما ، وذلك فى شموليتها (أى الطريقة الأمريكية) الزائفة لممارسات ومعتقدات فئات أوسع من المجتمع . إنها تضم حتى عددا صغيرا من الأمريكيين الأفارقة . ولكنها على الرغم من هذه الحقيقة تشترك مع الإنجليزية فى النهاية ، فى الاتجاه إلى تعزيز التناقضات العامة للجنس والطبقة والنوع .

وطبقا لهذه الإيديولوجية ، فهذه الثقافة فى أمريكا هى لكل شخص ، والمهاجرون والأقليــات يصبحون محل ترحيب عندما يستوعبونها . أما فى إنجلترا فالثقافة – سواء على المستوى الإيديولوجى أو فى الواقع – لا ترتبط فقط بالطبقة ، وإنما أيضا بالمواطنة . وكما أوضح الفصل السابق ، تتصور الطبقة الحاكمة هناك أن الأيرلنديين ومواطنى الكومنولث مختلفون عنهم جوهريا – أمة أخرى مختلفة – ولذلك لا يمكن استيعابهم أو ذوبانهم بين الإنجليز . ويبدو النموذج الأمريكى مناسبا لاحتياجات دولة تنظيمية تلعب بورقتى الاستيعاب والعزل ، أما النموذج الإنجليزى فيناسب الموقف الواضح المعالم ، والذى تتميز فيه العلاقات بالثبات .

يبدو أن جهود الدولة الأمريكية كانت ناجحة تماما فى تنظيم الثقافة فى الفترة من ١٨٧٧ إلى ١٩٧٠ ، وكان هذا عاملا رئيسيا فى عجز الحركات الثورية عن التطور . وخلال هذه الفترة مارست الدولة نفوذا ملحوظا من خلال وظيفتها التنفيذية فى العلوم والعلوم الاجتماعية والإنسانيات ، بينما شاركت الطبقة الحاكمة على المستوى الإقليمى فى هذا العمل كوكيل عنها . ومن شواهد هذا النجاح أن المجتمع على اتساعه كان ينظر ببساطة إلى المدارس والكنائس والتليفزيون والطب والقانون والعمل الاجتماعى .. إلخ على أنها مجرد مجالات « مهنية » . أما فيما بعد ١٩٧٠ ، فإن تنظيم الثقافة – بالرغم من ازدياد إنفاق الأموال – كان أقل نجاحا فيما يتعلق بإقناع جمهرة السكان باحتضان الأمر الواقع ، وأصبحت هناك حاجة إلى مزيد من القسر . وقبل أن ننظر فى تاريخ تنظيم الثقافة دعنا ننظر فى دور المثقفين فيه .

إن الأمريكيين معروفون بمعاداتهم للنزعة الثقافية [٣٩] . والنظرة الشائعة إلى المثقفين بينهم أنهم ليسوا أهلا للثقة ، فهم ليسوا أناسا عمليين . ولكن النظر إلى الموضوع من زاوية أخرى يبين أنهم بينما يوجهون سهام نقدهم (إلى المثقفين) يواجهون من الجانب الآخر احتمال أن تحول معارضة المثقفين والنزعة الثقافية فى نفس الوقت دون تنمية الأفراد والمجموعات الذين قد يدعمون مصالحهم ، وهكذا فإن الدولة تستطيع عندما تشاء أن تستفيد من المثقفين وتدافع عنهم ضد المجتمع . والمثل هنا اينشتين وليس روز نبرج (٤٠) .

مثل الإنجليزية ، كان للطريقة الأمريكية فى الحياة تاريخيا ثلاث صيغ مسيطرة فى التاريخ الحديث ؛ فشهدت المرحلة الليبرالية الأولى أو « الفيكتورية » ميل الدولة إلى الجانب الأخلاقى للثقافة المحورية البيوريتانية لموازنة النهوض السريع لبراجماتية الساحل الشرقى (٤١) . أما المرحلة الإدماجية فشهدت محاولة الدولة توسيع نطاق حاكميتها واستخدام روزفلت لمختلف جوانب تقليد لينكولن لتسخيره لأغراض الحكم . وأخيرا منذ السبعينيات أصبحت الطريقة الأمريكية فى الحياة تضم دمجا غريبا بين الأصولية والليبرالية التحررية (٤٢) .

اتخذت المشاركة الأساسية للدولة فى تنظيم الثقافة خلال هذه المراحل شكل التنظيم . ومع نمو الدولة واتساع قدراتها التنظيمية كان حتما أن يتقدم خبراؤها وبيروقراطيوها إلى الساحة . وهؤلاء لم تكن لهم فى الغالب شعبية ، ولذا كان على القادة السياسيين أن يصادروا على النقد بإعلان الحاجة إلى إصلاح بيروقراطى . ولذلك فإن الأحاديث عن الإصلاح البيروقراطى هى مقياس لدرجة الصراع الطبقى (٤٣) .

كان من الميادين الهامة للمشاركة التنظيمية من جانب الدولة فى الثقافة ميدان العلوم . وهناك سببان واضحان لذلك : أولهما أن علمنة البلاد جعلت البراجماتية تكسب أرضا ، والتقليد الميتافيزيقى الأمريكيى ينهار . وأصبح كثير من الأمريكيين يساوون بين العلم والحقيقة . وكان هذا هو الوضع بصفة خاصة فى الساحل الشرقى . والسبب الثانى هو أن الشركات وجدت من صالحها أن تنغمس الدولة فى تشجيع العلم لأنها تحتاج إلى مساندتها فى إيجاد أسواق وتكنولوجيات جديدة والحفاظ عليها . أما ما كان يعنيه هذا السياق الخاص للعلم بالنسبة إلى النساء والأقليات وحتى بالنسبة إلى العلماء أنفسهم فأمر بدأ الآن يصبح مجالا للبحث (٤٤) .

من الأشكال الشائعة لتنظيم العلم شكل ظهر مع الدولة الحديثة ، وهو منح براءات الاختراع للمخترعات الجديدة . إن البراءات أو حقوق الاختراع شكل من أشكال الاعتراف القانونى بالاختراع ، وهى تحدد أيضا شروط الحصول على التكنولوجيا الجديدة . وسرعان ماوجدت الحكومة نفسها مع تطور هذا الشكل من التنظيم منخرطة فى شكل آخر من التنظيم هو تنظيم الأوزان والمقاييس والمكاييل . وتبع ذلك شكل ثالث من التنظيم هو تصنيف أبحاث علمية معينة باعتبارها ذات أهمية وطنية ، وأخيرا جاء

شكل رابع هو الإشراف المباشر على البحث العلمى .

غالبا ما اتخذ تدخل الحكومة فى تنظيم العلم شكل إصدار القوانين وإيجاد الوكالات النظامية . فعلى سبيل المثال ، أسست الحكومة فى ١٨٧٨ وكالتها لمسح السواحل والقياسات الأرضية (الجيوديسية) . وفى نفس العام عززت قبضتها على الغرب من خلال تأسيس هيئة مساحة جيولوجية أمريكية . وأعقب ذلك فى سنوات قليلة إيجاد هيئات حكومية مشابهة مثل مكتب الإثنولوجيا الأمريكية واللجنة الأمريكية للأسماك . وفى سنة ١٨٨٤ ، فكر كثير من أعضاء الكونجرس فى أن الوقت قد حان لإنشاء وكالة تنسق المساندة الحكومية للعلم ، وشُكلت لجنة لبحث الأمر هى لجنة أليسون . وقد لقيت الفكرة معارضة من مصالح الساحل الشرقى فصُرف النظر عنها فى النهاية بدعوى أن الوكالات المركزية لا تخدم الرفاهية العامة (٤٥) .

وفى عام ١٨٩٨ ، رفعت الحكومة مصلحة الزراعة إلى المستوى الوزارى .

أتاحت الحرب العالمية الأولى للدولة فرصة كبرى لتوسّع نطاق تنظيمها فى مجال العلم بسبب الوضع الطارىء . وفى عام ١٩١٥ عين وزير البحرية المخترع توماس . أ . اديسون رئيسا للجنة الاستشارية للبحرية ، وهى جهاز مسئول عن تحسين تكنولوجيا الأسلحة . وفى نفس العام أوجدت الحكومة لجنة استشارية وطنية لعلم الطيران . وفى عام ١٩١٦ ، تأسس مجلس الأبحاث الوطنى وهو جهاز ظل قائما لما بعد الحرب كجزء من الأكاديمية الوطنية للعلوم . وكان لهذه الأجهزة حق تشجيع الشركات على المنافسة للحصول على التعاقدات من الجيش . وقد أثبتت رعاية هذه المنافسة أنها طريقة مربحة وهامة تمارس بها الدولة سيطرتها على تحديد ما يُنتج ومن يحظى بمكافأة إنتاجية .

عندما عاد السلام فى فترة ما بين الحربين أخذت الصناعة على عاتقها مهمة تمويل وتنظيم البحث العلمى . وأصبحت المؤسسات الخاصة أيضا مصدرا هاما لما يمكن أن يخرجه الباحثون . أما الفترة المعاصرة التى تميزت مرة أخرى بتفوق الدور الذى تلعبه الدولة فى العلم ، فقد بدأت خلال الحرب العالمية الثانية .

وابتداء من عام ١٩٧٠ ، أحست دوائر الأعمال أن الدولة قد أصبحت « قوية أكثر من اللازم » ، وأن التنظيمات تكلفها مالا كثيرا . وفى هذه الفترة اتخذ الرئيس ريجان إجراءات لإلغاء تنظيمات شركات الطيران والاتصالات ولبيع الأراضى العامة وإعطاء الشركات الخاصة السيطرة على الاختراعات الممولة من الأموال الفيدرالية .

كان السباق الأمريكى فى العلم نتاجا لوظيفة الدولة التنظيمية ، فأى نوع من العلم كان هذا الذى أنتجته الصناعة والحكومة ؟ يبدو أن الإجابة هى أن العلم فى الولايات المتحدة كان علما عمليا . وتم تشجيع العلماء بصفة خاصة على أن يخدموا احتياجات صناعة الدفاع ، أما البحوث الأساسية فكانت تأتى فى المحل الثانى لما تحمله من طبيعة أكثر تأملا . ويحمل هذا الخط الشكّى والاحترازى إلى المجالات الأخرى موضع اهتمام الدولة مثل النوع والجنس ، نجد أن صالح الرجال كان أولوية علمية ، وصالح النساء والأقليات يأتى فى مستوى أدنى . وإلا فبأى شيىء آخر يمكن تفسير أن جزءا من المجتمع العلمى مازال يجد التمويل لمتابعة قضايا خاسرة مثل « بحوث الأجناس » ، بينما تخفق فى ذلك البحوث الخاصة بتنظيم النسل .

هل لنا أن نزعم كما يزعم كثيرون أن كل هذا فى سبيله إلى التغيير ؟ فالتكنولوجيا الجديدة تزيل الأعباء التقليدية ، والنساء والأقليات يدخلون فى قوة العمل بأعداد متزايدة أبدا . ولكن الإحصاءات لا ترسم فى الواقع مثل هذه الصورة الوردية . وتأمل ما يلى : خرجت دراسة أخيرة بأنه – على عكس ما قد يظن المرء – يتزايد الطلب باستمرار على بيوت وأطفال أنظف وأجمل مع كل جيل جديد من التكنولوجيا التى تقتصد فى عمل ربات البيوت . وهكذا ، فبينما يظن المرء أن معجزة التكنولوجيا الجديدة سوف تحرر النساء من العمل المنزلى ، فإنها لا تفعل ذلك أبدا . والعمل المنزلى المفروض على النساء اليوم يستهلك من وقت النساء فى المتوسط قدر ما كان يستهلكه منذ نصف قرن ، أى قبل تطور كثير من هذه التكنولوجيا . إن التكنولوجيا الجديدة تحتبس من طاقة النساء قدر ما كانت تفعل التكنولوجيا القديمة (٤٧) .

ولكن أليس المزيد من النساء يدخلن مجالات العلم ؟ وأليست هذه مشكلة انتقالية ؟ إن الإجابة تبدو بالسلب ، فلا يبدو أن مستقبل العلم - أو على الأقل مستقبله القريب - يعد بمثل هذه التغييرات . إن معظم المدارس والجامعات تقبل الطلاب بالدراسة العلمية على أساس اختبارات « القدرة العلمية » . ومن نتائج هذه الاختبارات على مدى فترة طويلة من الزمن نستطيع أن نحكم بأن هذه الاختبارات نجحت باستمرار فى سد الطريق أمام دخول النساء والأقليات مجالات العلم . ونظرا للطريقة التى تُصمَّم بها هذه الاختبارات ، فإن رجال الطبقة المتوسطة البيض يؤدونها على نحو أفضل ، ولذلك فإن هؤلاء هم الذين يدخلون مجالات العلم . ولو لم تكن هذه هى النتيجة المطلوبة لاستطاع واضعو الاختبارات أن يصمموا اختبارات تقلب هذه الاتجاهات . وفى الحقيقة هناك مشروعات بحث رائدة قائمة ترى أن من الممكن بسهولة تصميم مثل هذه التغييرات فى الاختبارات إذا أرادت الحكومة ذلك ، لا يحدث .

بل إن سجل الوقائع يبين على العكس أن الدولة نشطت على الأقل فى بعض المناسبات لإخراج النساء اللائى كن فى مجالات مثل الطب من مجالهن . ونستطيع أن نأخذ مثلا على ذلك الحملة المعروفة فى أوائل القرن العشرين لمنع إعطاء القابلات شهادات . وكانت هذه بوضوح مبادرة من الدولة ، لأنه لم تكن هناك حركة هامة فى المجتمع تطالب بإنهاء عمل القابلات ، بل على العكس تماما كان هناك ومايزال نضال تشنه مجموعات مختلفة لتأمين بقائهن واستمرارهن .

وإذن فلحسن الحظ أو سوئه ترتب على إدراج العلم ضمن السياسة التنظيمية لجعله جزءا من الأمر الواقع فحسب ، بل أيضا التخلص من بعض الأوهام حول الإمكانيات التقدمية للعلم فى الفكر الأمريكى ووجود بعض الشكوك فى هذه الإمكانيات . وربما ترتب عليه أيضا شىء من العزوف عن اختيار العلم طريقا مهنيا . فمن الطبيعى - أولا - أن يتساءل الطلبة عما إذا كان لدى الدولة أى التزام حقيقى بالعلم . وإذا كان هذا حقاً فما هذا الالتزام ؟ وهل هناك فى الولايات المتحدة شىء مثل العلم أم أن الأمر لا يعدو ببساطة أن يكون ذريعة تحمى ممارسات غير مترابطة ونماذج خاصة مثل « النموذج الطبى » ، وهى ممارسات ونماذج قد لا يجمعها سوى أنها تبرّ

أرباحا ؟ وثانيا : لماذا كانت وجهة النظر المعتبرة حول العلم وحتى تاريخ العلم محصورة فى هذه النزعة الضيقة المحلية ؟ ولماذا تكون وجهة النظر ذات البعد الخارجى - سوسيولوجيا العلم مثلا - تهديدا إلى هذا الحد ؟ إن النقاد - بما فيهم المهتمون بقضايا الجنس والنوع - ينقسمون حول هذه النقاط كما ينقسمون حول النقاط الأخرى ، ولكن معظمهم متفقون على أن تنظيم العلم هو جزء بالغ الأهمية من تنظيم الثقافة (٤٨) .

ومن حيث الاقتصاد السياسى على الأقل يأتى من المقارنة بين العلماء شاهد أخير يربط تنمية العلم بالفكرة الواردة هنا عن تنظيم الثقافة : فبعضهم على ولاء لفروض الأمر الواقع ، وبعضهم ليس على هذا الولاء ، وفى ألمانيا النازية بدا معظم العلماء مؤيدين لإيديولوجية الدولة العنصرية . وكان العلماء والأساتذة الألمان في الأجناس والذين يطلق عليهم الـ Mandinerate محل تبجيل الدولة . وعلى العكس فى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ؛ حيث كان العلماء وسائر الأساتذة ينتقدون فكرة الجنس العنصرية . كان العلماء حتى البارزين منهم عرضة للهجوم السياسى ، أو على الأقل تُركوا فريسة لهذا الشعور . هذا بالرغم من أن بعض هؤلاء العلماء عاشوا بفضل سمعتهم الفردية يتمتعون بالشهرة والثراء . وكان الأنثروبولوجى الأمريكى فرانز بواز (ت - ١٩٤٢) من أمثلة هؤلاء العلماء المشهورين والمعادين للعنصرية ، والذين كانوا مثارا للجدل والخلاف . لقد وجد بواز إلى جانب طريقه العلمى الوقت للمشاركة فى مختلف المنظمات التى تعارض العنصرية بما فيها « اللجنة الأمريكية ضد القمع الفاشى فى ألمانيا » وجماعة « النضال من أجل حقوق الزنوج » .

لقد كانت هناك - على أى حال - نتائج ترتبت على الموقف المعارض فى القضايا العنصرية ، وهى إن لم تكن أصابت أشخاصا بذواتهم مثل بواز شخصيا ، فإنها أصابت - فيما يبدو - النظام الذى كانوا جزءا منه . وباستعراض الوقائع يمكن أن نستخلص أنه عندما تجد الدولة فى ديمقراطية ما علماءها ومثقفيها ساخطين على سياستها الرسمية ، فإنها تتحول إلى وسائل الإعلام . وللمفارقة ، فإن الأمريكيين على عكس ذلك عندما يكون مجتمع العلماء على وفاق كبير مع الأفكار العنصرية للدولة .

وهنا تقفز إلى الذهن أمثلة ألمانيا النازية وإسرائيل وجنوب أفريقيا حتى وقت قريب . وفى هذه البلدان الأخيرة تتمتع الجامعات بمكانة لا ينافسها فيها أحد كما أن وسائل الإعلام لا تدانيها أهمية .

وإذا كان العلم فى الولايات المتحدة قد ظل طويلا هدفا للتنظيمات الرسمية ، فكذلك كانت – وإن بدرجة أقل – الفنون والعلوم الاجتماعية . وكلمة عن هذا فى السياق .

إن التفسير التقليدى لدور الدولة فيما يخص الفنون والعلوم الاجتماعية هو أنه يبدأ ضئيلا ثم ينتهى إلى أن يكون كل شيء . ولا شك فى أن هناك بعض الحقيقة فى هذا الرأى ، فالدولة لم تدعم الفنون إلا مع النيوديل ، ولم تدعمها منذ ذلك الحين إلا أحيانا عن طريق تعيين الفنانيين المتعطلين لفترات قصيرة عن طريق إدارة مشروعات الأشغال (WPA) * ومن الحق أيضا أن إدارة مشروعات الأشغال تعرضت فى ١٩٣٨ لهجوم النائب مارتين ديز ولجنة مجلس النواب للنشاط غير الأمريكى . وفى الواقع أنهى روزفلت فى ١٩٤٣ كل مشروعات هذه الإدارة . وعلاوة على ذلك تحاول الدولة حتى يومنا هذا أن تجمع أموالا خاصة لمساندة كثير من أشكال الثقافة التى تهتم بها ، وعلى سبيل المثال الرياضيين « الهواة » من أجل الدورات الأولبية كل أربع سنوات .

ويبقى أن النفوذ الحكومى فى المجالات الثقافية ربما كان أكثر تغلغلا مما يُعترف به عادة . بل إن هذا الموضوع لم يدرس جيدا . وتأمل – على سبيل المثال – مليارات الدولارات الفيدرالية التى أنفقت فى هذا القرن فى إقامة مبانٍ عامة رمادية ذات طابع عسكرى . إن أى مدينة لاتخلو من مثل هذه المبانى . وهذا الطراز من العمارة هو رمز قوى لما عليه الدولة . وتأمل أيضا نفوذ العسكرية على الموسيقى والملابس والرياضات والطعام والنظام القانونى ، وحتى الهوايات .

---

* Works Projects Admisnstration إدارة مشروعات الأشغال : وكالة حكومية أمريكية تأسست فى عام ١٩٣٥ تحت اسم Works Projects Admisnstration وألغيت فى ١٩٤٢ ، وكان هدفها توفير الوظائف فى الأشغال العامة خصوصا . – المترجم –

فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وحين كانت سلطة الدولة فى صعود لا شك فيه نرى الدولة - ولنتابع هنا حكايتنا - تقيم مؤسسة وطنية حول الفنون والإنسانيات في عام ١٩٦٥ وشركة للإذاعة العامة ومعهدا أمريكيا للسينما فى ١٩٦٧ ، وأخيرا تصدر قانونا فى ١٩٦٨ للمواقع والآثار التاريخية .

فى السبعينيات تغيرت السياسة تجاه الفنون ، حيث نمت الآن قوة الطبقة الحاكمة التى أصبحت أكثر تدعيما مقارنة بالدولة . وفى هذه الفترة ظهرت إلى العيان المصالح الطبقية للفنون .

وهكذا أخذت الحكومة فى الحملة الانتخابية فى ١٩٧٦ تدعى أن عليها مسئولية فى دعم الفنون . وارتفع الإنفاق الحكومى (فى هذا الباب) من خمسة ملايين دولار فى ١٩٦٥ إلى أكثر من ١٥٧ مليون دولار فى ١٩٨٠ . وفى الستينات والسبعينات أنشأت الدولة عددا من المؤسسات الثقافية الجديدة مثل الصندوق الوطنى للفنون والصندوق الوطنى للإنسانيات ، وكما أشرنا سابقا شركة الإذاعة العامة . وبالإضافة إلى ذلك بدا أن الدعم الحكومى للعمل الثقافى أخذ يوسع نطاقه ، فإلى جانب ثقافة النخبة بدأت الدولة تدعم « الفن الشعبى » منذ ١٩٧٢ ، فوجود أحدهما يعزز وجود الآخر (٥١) . ما زال المجتمع الفنى واحدا من أكثر المجالات أهمية وحساسية في السنوات الأخيرة .

وعلى العكس من ذلك ، كان دور الدولة كراعية فى مجال الإنسانيات .. دورها فيما يختص بالعلماء الاجتماعيين . كان هذا الدور على نحو أكثر تحديدا دور المستخدم أو صاحب العمل .. وإذ يتصور المرء هذه الحقيقة ، فإن ذلك وحده يشرح كثيرا مما جرى فى العلم الاجتماعى الأمريكى آخذا فى الاعتبار سلطة وثروة الدولة (٥٢) .

يزعم كاتب درس تاريخ الرابطة بين الدولة والعلم الاجتماعى أن هذه الرابطة نشأت قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان لها ثلاثة ملامح هامة : فالحكومة الفيدرالية احتاجت - أولا - إلى العلماء الاجتماعيين للعمل في وكالاتها لجمع المعلومات

الإحصائية الصحيحة عن الاتجاهات الديموغرافية والموارد الطبيعية ، كما احتاجت إليهم أيضا فى مجامعها لتمليك الأرض والعمل فى برامج مصلحة التوسع الزراعى فى أنحاء البلاد . وثانيا – احتاجت الحكومة الفيدرالية إلى نصيحة الخبراء حول كيفية تنفيذ الإصلاحات التى اقترحها السياسيون خصوصا فى الفترة التقدمية ، وإن استمر ذلك فيما بعد أيضا . وكان هناك تسليم بأن هذا المجال يدخل فى اختصاص العلماء الاجتماعيين . وثالثا – احتاج الجيش إلى العلماء الاجتماعيين لدراسة المجندين أثناء الحرب العالمية الأولى (٥٣) .

أدى ظهور الإدماجية إلى توسيع دور العلماء الاجتماعيين فى الساحة الرسمية . وتطلب استمرار الأزمة الاقتصادية فى البلاد فى ١٩٣٣ تحويل الوكالات الإحصائية إلى مكاتب إحصائية مركزية . كما أن أولئك المهتمين بإقرار تشريع الأمن الاجتماعى فى ١٩٣٥ كانوا فى حاجة إلى معرفة محددة حول المجتمع الأمريكى لمناقشة قضيتهم ، كما فعل معظم السياسيين المشاركين فى تشريعات « الهندسة الاجتماعية » ، منذ ذلك الوقت وحتى عصر كيندى . وفى الواقع ، فإن العلماء الاجتماعيين – بعد أن أصبحت الهندسة الاجتماعية هى نظام اليوم – تحولوا من مجرد القيام بدور من يقدم المعلومات الإحصائية إلى دور المفسِّر للترتيب الاجتماعى . بل إن العلماء الاجتماعيين قدموا إلى الدولة كثيرا من الإيديولوجية فى مجالات مثل الحرب الباردة والتنمية .

ولكن وضع العلم الاجتماعى تغير فى الستينيات . ففى هذه الفترة وقع فى أزمة عميقة ، كما كان الحال بالنسبة للدولة نفسها . وكانت هناك نقطة تحول فى هذا العقد بالنسبة للعلماء الاجتماعيين بعد اكتشاف تورط بعضهم فى عملية كاميلوت أثناء حرب فيتنام . وقد أظهرت التحقيقات أن عمل هؤلاء العلماء استُخدم لتدمير المدنيين وتضليل عامة الأمريكيين ، وأنه أضَرّ بالثقة المطلوبة فى أى بحث من أى نوع فى العالم الثالث مستقبلا .

فى السبعينيات أصبح الانخراط فى العمل السرى مفهوما ومسلّما – على نطاق واسع – بأنه جزء من العمل المهنى . وفى هذه الفترة أصبحت وزارة الدفاع مستخدما

رئيسيا . وقد قبل كثير من العلماء الاجتماعيين دورهم الجديد ، وانسحب بعضهم . وثارت مناقشات حادة فى داخل المهنة حول المضامين الأخلاقية لهذه المشاركات (٥٤) .

ومع خفوت أهمية العلم الاجتماعى نهضت مجموعة أقدم من المتحدثين لتخدم الدولة مرة أخرى . أولئك هم نقاد الأدب والوعّاظ . وما زال الوقت مبكرا لتقييم دورهم . وما يبدو واضحا فى حالة نقاد الأدب هو نزوعهم إلى نوع من الفوضوية النيتشوية أكثر مما كان عليه أسلافهم فى القرن التاسع عشر . وعلى نحو ما سنين بعد قليل كانت لهم جذور فى أجزاء من البلاد أكثر مما كان لأسلافهم . ويبدو أنهم يرضون الدولة بإنكارهم لوجود حقيقة خارج اللغة . ومن المعروف جيدا أن الطبقة الحاكمة كانت منزعجة تماما من تحليلات العلم الاجتماعى للحقائق الاجتماعية . ولكن يبدو أن هؤلاء النقاد يَحُدّون من فائدتهم ، لأنهم لا يقدمون أساسا لأى علم أو تقدم أو تنمية أيا كانت ، ولا أساسا للتعامل مع الجناح الأصولى من الهيمنة .

هناك شكل أخير وهام للتدخل الحكومى فى تنظيم الثقافة جاء من خلال تنظيم الإعلام الجماهيرى (الميديا) وهو موضوع أشرنا إليه سابقا عند الحديث عن تنظيم البث الدينى . وبشكل أكثر عمومية نقول : إن الإعلام الجماهيرى وفر للدولة فرصة لتعزيز قوالب ذهنية عن الجنس والنوع ليس التعليم على استعداد لتقديمها . وأهم تشريع صدر لتقنين مشاركة الحكومة فى هذا المجال كان قانون الاتصالات فى عام ١٩٣٤ . وقد أدى صدور هذا القانون إلى إيجاد لجنة اتصالات فيدرالية أصبحت واحدة من أهم الوكالات الحكومية لا بتنظيم الإذاعة والتليفزيون فحسب ، بل بتنظيم نقل الأفلام أيضا .

وفى السبعينيات عندما أصبح التليفزيون آداة لنقل الموسيقى الشعبية – الريفية والغربية والروك أندرول والبانك روك ... الخ – وسّعت الحكومة دورها التنظيمى أكثر ، وقطعت على السيطرة الإقليمية فى عالم الموسيقى ، وهى السيطرة التى كانت موجودة فى السابق فى مدن مثل دوترويت وناشفيل . ومع السبعينيات ونتيجة لتنظيمات لجنة الاتصالات الفيدرالية أصبحت الفرق الموسيقية التى تسعى للظهور فى الراديو والتليفزيون مضطرة للخضوع لكثير من الضوابط السياسية والاقتصادية والثقافية بما

فيها قوانين الابتذال . وقد اختارت معظم الفرق الخضوع لهذه الضوابط لأنه لم تكن لديها سوى فرصة ضئيلة للاختيار . ولكن قليلا من الفرق الأكثر إمتاعا رفضت الخضوع لها ، ولذلك فإنها تجذب جمهورا متناميا لهذا السبب . ويؤكد المعلقون على التنظيمات الحكومية لوسائل الإعلام الجماهيرية ضخامة هذا التدخل . ويكفى أن يعود المرء ليلقى نظرة على ما كان فى القرن التاسع عشر . ففى ذلك الوقت كانت المشروعات الثقافية الكبيرة ، مثل الفرق السيمفونية وفرق الأوبرا ، تتطور من خلال المعونات الخاصة الإقليمية . مع سياسة النيوديل وحدها بدأت الدولة تشارك فى تقديم الإعانات المالية بأقل كثيرا مما تتدخل بالتنظيمات والمعنى واضح : أن قدرة الدولة على تنظيم محتوى وسائل الإعلام الجماهيرى اليوم تمثل تقدما هائلا فى مجال كان قاصرا ذات يوم على الثقافات الإقليمية المكتفية ذاتيا إلى حد كبير .

غير أن المرء يستطيع أن يدعى بنفس القدر من منظور جرامشى أنه كلما تغيرت الأشياء كلما بقيت على ما هى عليه . لقد كانت الرعاية القديمة منصرفة إلى الموسيقيين الذين يستخدمون القالب الأوربى وليس إلى أولئك الذين يستخدمون القوالب الأمريكية مثل موسيقى الجاز . وعندما شاركت الدولة لم يتغير الوضع حقيقة ، فهل من المصادفة أنه ليست الحكومة وحدها ، بل صناعة موسيقى الأفلام في هوليود ومنتجو المسرحيات الموسيقية فى برودواى أيضا .. كلهم تجنبوا منذ الثلاثينات موسيقى الجاز ، وأن موسيقيى الجاز لم يتلقوا حتى اليوم من الدعم الحقيقى إلا قليلا ؟ [٥٦] ألا تتلقى الجاز اليوم كما فى الماضى عدة ضربات موجهة إليها ؟ أليست هذه الموسيقى هى الشكل الموسيقى الذى طالما أسهم فيه الأمريكيون الأفارقة والنساء بدور هام ؟ وأخيرا ، ألا يستجيب موسيقيو الجاز لمشاعرهم المباشرة فى حرية يحسدهم عليها الباحثون ونجوم الرياضة ؟

لنعد هنا إلى نقطة سابقة مشيرين إلى أن تنظيم الثقافة لا يتضمن فقط أنشطة الدولة ولكن أيضا أنشطة الطبقات الحاكمة إقليميا .

فإذا كان لنا أن نبدأ الحكاية من الجنوب ، فسوف يستتبع ذلك حتما الحديث عن الدور الذى قامت به النخبة الجنوبية فى تنظيم الثقافة من خلال الكنيسة المعمدانية

الجنوبية ، المؤسسة الثقافية الكبرى في الجنوب ، وأيضا ماتم فى تطوير النقد الأدبى الحديث (٥٧) ، ويبدو أن الأمر يستحق أن نتابعه فى بعض تفصيلاته ، إذ يبدو أن الجنوب يُخرج ببطء الأنواع السائدة من مثقفى الدولة الذين ظهروا مع تراجع العلماء الاجتماعيين حوالى سنة ١٩٧٠

بفحص دور الكنيسة المعمدانية الجنوبية من حيث إسهامها فى تنظيم الثقافة نجد أن الملمح البارز فى ذلك كان العمل على ربط الأفراد بسلطة الكتاب المقدس كما يفسره رعاة الكنيسة . وفي بيانَىْ الإيمان للمعمدانية الجنوبية بسنتى ١٩٢٥ و ١٩٦٣ نجد تأكيدا مجردا لواحد من الملامح التقليدية لإيديولوجية الطريقة الأمريكية فى الحياة ، ألا وهو عصمة الكتاب المقدس . إن الكتاب المقدس فى عقيدة المعمدانيين هو الوحى . والوحى الذى هو كلمة الرب ليس فقط حقيقيا ، بل هو الحقيقة نفسها . وبالطبع ، فإن ما يعنيه الوحى أو أى عقيدة أخرى فى منطقة باتساع وتنوع الجنوب الأمريكى أو الثقافة المحورية الأمريكية هو موضوع ضخم فى حد ذاته . فبعض القسس يرون أن العصمة تشمل كل جوانب الكتاب المقدس بما فى ذلك الإشارات التاريخية والعلمية الواردة فيه ، وبعضهم يقصرها على الإشارات إلى الشئون الدينية .. بعضهم يفضل القراءة الحرفية ، وبعضهم لا يرى ذلك .. بعضهم يعطى دورا أكبر لدور الراعى الكنسى أكثر من الآخرين .. ولكن هذه كلها قضايا ثانوية ، فما يبقى بعد كل شيء هو أن الكنيسة المعمدانية بوقفتها القوية فى العقيدة تحاول أن تعبر الخطوط الطبقية تاركة الخطوط العرقية فى الجنوب دون أن تمسها ، ويحدث هذا حتى فى كنائس المناسبات Occasional Churches المتحدة عرقيا (٥٨) .

ليست الخطوط العرقية وحدها هى التى لم تمس ، بل نستطيع أن نضيف إليها أيضا الخطوط الإقليمية ، فالكنيسة المعمدانية الجنوبية بتأكيدها القوى على العقيدة تقف كحصن حقيقى ضد الثقافة الشمالية عموما .

وفى كتاب أخير حذّر معمدانى جنوبى إخوانه المؤمنين من التعلم من الخبرة التعيسة للكنيسة المعمدانية البريطانية عندما اختارت أن تتخلى عن الوحى وتقبل أفكار داروين ونقاد الكتاب المقدس ، وهى أفكار يربطها الجنوبيون بالشمال . ويظن الكاتب أن المعمدانى البريطانى العظيم تشارلس هادون سبرجون هو وحده الذى حارب هذه

التأثيرات الهدامة ، ولكنه لم يستطع أن يمنع انهيار الكنيسة المعمدانية البريطانية بعد أن هجرت عقيدتها الأصلية .

بعد عقيدة الوحى تأتى لدى المعمدانيين عقيدة ميلاد يسوع من عذراء ، وهذا الاعتقاد تأكيد لوجود الرب ، وبدون الرب لاخلاص ولا كفّارة ولا أمل . وهنا أيضا تنشأ انقسامات تلفت الانتباه ، إلا أن النقطة الرئيسية هى وجود هذا الاعتقاد القلبى الذى يقف حائطا أصم أمام دعاوى العلم والنسبية فى الشمال .

هناك نقطة ثانية ، إذا كانت النخبة الجنوبية قد نجحت - لسعادة معظم المراقبين - فى أن تحمل معا ثقافة كنسية ، فإنها أيضا كانت قادرة على المشاركة - لصالحها - فى تنمية الثقافة العلمية الوطنية . وهذه نقطة تستحق تعليقا .

فى بداية هذا القرن نشأ الجنوب وسط ثقافة وطنية شكلتها أعمال كتبت على أساس التقليد الفولكلورى مثل كتابى مارك توين : توم سوير وهكلبرى فين . وكان هذا هو الموقف الذى تبنته أيضا صناعة السينما . ولكن الظروف تغيرت فى منتصف القرن ، وأصبح طفل المدرسة الشمالى يستطيع أن يقرأ جيدا وليم فوكنر ، وأصبحت صورة الجنوبى فى الذهن أشبه بالمأساة منها بالمهزلة (٥٩) .

وإجمالا للقول نقول : إن مؤسسة الساحل الشرقي بعلاقاتها الوثيقة مع الجامعات الألمانية سيطرت فى السنوات التى أعقبت إعادة البناء على ما يُعرف فى البلاد بالثقافة الراقية أو الثقافة الحديثة . أما الجنوب فقد أخرج كثير من الكتاب المتمرسين فى التقليد الكلاسيكى ، وهو تقليد كان فى تراجع فى تلك الفترة (٦٠) . وبعد جيل أو نحوه حدثت تغيرات هامة ، فالمراكز الثقافية الإقليمية مثل ناشفيل أصبحت منطلقا لموجة جديدة من النقاد والكتاب الحداثيين ، رجال ونساء ارتفعوا إلى مراكز بارزة قوميا . ويمكن اكتشاف التأثيرات الأولى لهذا الهجوم الأدبى الجنوبى على المستوى القومى فى فترة باكرة تعود إلى عشرينات وثلاثينات القرن . وبدأت مبادرات من هذه الفترة فى جامعة فاندربلت في ناشفيل وفى أجزاء أخرى من الجنوب تقود إلى تأكيد وطنى جديد على الأدب الأمريكى كجزء من ذخيرة الأدب الإنجليزى . وكان أول مركز استجاب في الشمال لهذه المبادرات هو جامعة كولومبيا ، وكان ذلك فى العشرينات ، ولكن سرعان ما انتشرت فى الشمال فكرة أن الأدب الأمريكى له قيمته ومكانته .

كان قبول جامعة كولومبيا المبكر للأدب الأمريكى من أسباب أخذها بناصية القيادة ، واضطلاعها فى الثلاثينيات بمشروع إخراج معجم للإنجليزية الأمريكية ، وهو ما أنجزته على الرغم من أن القوة الرافعة إليه كانت جنوبية بوضوح .

فى الفترة ما بين عشرينات وستينات القرن ، وبحافز من جهود عدد من المنظمات والأفراد فى الشمال والجنوب أصبحت دراسة أمريكا جزءا محترما من الثقافة الحاكمة في الولايات المتحدة . وهو تغيير في الاتجاه يبدو أكثر وضوحا وأهمية إذا لاحظنا التزام الانتلجنسيا بالتراث الغربى وجو الحرب الباردة ومشاركات البلاد الهائلة فيما وراء البحار ، ولكنه تغيير حدث على كل حال . وفى الستينيات انتشرت ونمت بسرعة فى جميع أنحاء البلاد مجموعة من برامج الدراسة الأمريكية ، وأصبحت الثقافة الوطنية أكثر توحدا .

وخير ما نفعله لنكون انطباعا عن هذه الظاهرة من التوحد الثقافى أن نفحص تغير مكانة الروائى الجنوبى المعروف وليم فوكنر . فعندما ظهرت فى الثلاثينيات حكاياته العديدة عن طبقة الزراع الجنوبية التى تعانى من سكرات الموت ، وتحدق بها من كل جانب المشكلات العرقية التى لا تُحَلّ ؛ لم تلق إلا القليل من ترحيب النقاد . ولكن كاتبا جنوبيا مثل فوكنر ، أو – على سبيل التوسع – رساما مثل جاكسون بولوك الذى ينتمى أصلا إلى الغرب ، كان يمكن أن يظهرا كشخصيتين على المستوى الوطنى فى أواخر الأربعينات ، فعندما أضل رجال ذوو أصول جنوبية مثل الناقد الأدبى روبرت بن وارين مكانا مرموقا فى الأدب الأمريكى ، وعندما شهد اليسار الشمالى انهيارا حادا . فإن فوكنر وبولوك كانا يعدان فى أوائل سنوات الحرب الباردة نموذجين يمثلان القوة الأمريكية والعنف الأمريكى ، أو – بعبارة أخرى – الحداثة الأمريكية (٦١) .

فى سنوات الحرب الباردة وحتى الفترة الأخيرة من الفترة الكوربورالية ، استغل نقاد الأدب – وعدد منهم جنوبيون – التوسع المستمر فى الدور التنظيمى للدولة ، ليعربوا عن اعتقادهم أن الدولة يجب أن تدعم لا كاتبا واحدا هو فوكنر ، بل كثيرا من

الكتاب . وفى الواقع ، قائمة من الكتاب بدءا من بو إلى جيمس . وترافقت ذروة المعركة لكسب قبول الدولة لهذه القائمة مع سنوات اضمحلال الإدماجية (١٩٤١ - ١٩٧٠) . ومن الواضح أنه بالنسبة للدولة لابد أن يكون هناك من هم « مع » ومن هم « ضد » ، وأن فرز هؤلاء من أولئك يستغرق بعض الوقت . وبالتأكيد ، فإن وجود قائمة أدبية يوفر سيطرة أكبر على ما سيقرؤه المجتمع مما لو لم تكن موجودة ، ولكن هذا له ثمنه أيضا . والثمن هو أن الدولة يجب أن تؤيد جهاز العمل هذا فى مقابل أن تكتفى ببساطة بتنظيم ما يظهر فى مختلف المناطق . لقد كان الثمن أفدح مما يستحقه وجود هذه القائمة ، وهى قائمة من شأنها أن تجعل الثقافة الأمريكية هيمنية ، وأن تجعل من النزعة التنظيمية بعد كل شيء عملا أكثر صعوبة ومشقة .

وعودة الآن إلى مقارنتنا : ففى المملكة المتحدة يمكن لوجود قائمة أدبية وشكل متميز من اللغة الإنجليزية أن يلعب دورا مفيدا فى السيطرة على الثقافة ؛ نظرا لطول فترة تحالفات الطبقة الحاكمة . ولكن الأمر ليس كذلك فى الولايات المتحدة ، وأقصى ما يمكن أن تنتفع به الدولة من ذلك هو أن تؤيد سياسة تشجيع وجود حد أدنى من اللغة الإنجلوساكسونية الأمريكية ، يعنى سياسة تعارض الازدواجية اللغوية (٦٢) .

بيد أن هذا ليس هو كل شيء ، فإذ يمثل وجود قائمة قدرا من الالتزام أكثر مما يجب تريد الدولة طريقا لتشكيل الثقافة ؛ طريقا تلعب فيه بهوية مجموعة ضد هوية الأخرى . وهذا هو الطريق الذى عُرف فى الثمانينيات بالتعددية الثقافية .

وحتى نفهم التعددية الثقافية كنشاط تنظيمى ، وهذا هو أكثر المناهج تماسكا ، يجب أن نضعها فى سياق مبادرات الدولة الأخرى تجاه الشئون العرقية . ونستطيع أن نلاحظ فى الوقت الذى بدأت تظهر فيه التعددية الثقافية سلسلة من الإجراءات التى اتخذتها سلطات الهجرة لِتَبْنى فى المجتمع الأمريكى ما يمكن أن نسميه « الأجناس العازلة » ، ومنها على سبيل المثال : الناطقون بالأسبانية ، والشرق أوسطيون ، والشرق آسيويون . وهى سياسة تذكرنا بسياسة الهجرة الأمريكية فى أوائل القرن . ويظهر أن منطق هذه السياسة ومنطق تأييد التعددية الثقافية هو أن إدخال مجموعات

جديدة فى هذه البيئة الثقافية يقضى على قدرة السود على احتكار الادعاء بوجود قمع عنصرى (ضدهم) ، ولكن دون أن يترتب على ذلك التسليم بأى شىء أساسى لهذه المجموعات الأحدث عهدا . وهكذا ، فإن التعددية الثقافية كانت طريقة يتغلب بها البيض علي شعورهم بالإثم تجاه السود . وفي الستينيات عندما كان شخص أسود يسرق بقالا كوريا كان يُنظر إلى الأمر سياسيا ، أما الآن فإذا سرق شخص أسود بقالا كوريا فَلَكَ أن تتوقع أن تلتقط وسائل الإعلام كرة البلياردو من التعددية الثقافية ، لتلعب على فكرة الحاجة إلى تسامح أكبر وقبول متبادل ثقافيا . ومع وجود كتلة ضخمة من الجنس الآسيوى فسوف تتساءل وسائل الإعلام : لماذا لا يستطيع السود أن يتعلموا زيارة حى صينى أو منطقة لبورتوريكو أو منطقة هندية كما يفعل البيض ؟

وإذ يوشك هذا القسم أن يأتى لختامه نقول : إن تنظيم الثقافة لعب – وما يزال يلعب -- دورا كبيرا فى الهيمنة فى الولايات المتحدة . وفى نفس الوقت يجرى فى الولايات المتحدة – كما فى كل مكان آخر – تجاهل المجالات التى تعترض طريق تنظيم الثقافة مهما كانت هامة . وسوف يعالج القسم الأخير مَثَل التاريخ ، وهو مجال عانى من هذا المصير بدرجة أو أخرى .

كتابة التاريخ فى الولايات المتحدة

حتى الآن دارت فكرة هذا الفصل حول أن الديمقراطيات عموما والولايات المتحدة خصوصا تمد جذورها فى إيديولوجية الشعب المختار . وهى إيديولوجية تغريها بالنظر إلى تراثها كمُحَدّد لهويتها فى معارضة تاريخها . وهذا يستتبع أن المؤرخين الذين يودون أن يكون لهم تأثيرهم مهنيا يجب أن يحاولوا التركيز على التراث . وقد رأينا أن هؤلاء المؤرخين استخدموا فكرة الاتفاق العام كمدخل إلى معالجة التاريخ ، متجنبين بالتالى مداخل التركيز على التغيير والصراع ، وهى مداخل قد لا يمكن الجمع بينها وبين التراث . ولكننا أشرنا بوضوح من ناحية أخرى إلى أن كتابة التاريخ كان لها تأثير محدود جداً على مستوى الدولة ، وكانت أفضل خدمة اعتُرِف بها للمنظمة الوطنية للمؤرخين (الجمعية التاريخية الأمريكية) فى وقت السلم هى تزويد الحكومة بخبراء

المكتبات والأرشيف . من ناحية أخرى لعب المؤرخون دورا هاما كمثقفين إقليميين ، كلسان معبر عن الشمال والجنوب والغرب فى التاريخ الأمريكى . وأخيرا ، فإن استكنان التاريخ داخل المجتمع المدنى كانت له نتيجة أبعد : إنه أصبح مجالا قادرا على بعض النقد والتفكير المستقلين . وبعد ١٩٧٠ أصبح هذا واضحا بالنمو المطرد لاتجاه « مراجع » فى التاريخ .

نمو التاريخ المهنى فى العصر الليبرالى

فى المملكة المتحدة والولايات المتحدة كلتيهما ووجهت محاولات إقامة حرفة التاريخ بصعوبات لم تواجهها مهنة أخرى . وقد سيطر المؤرخون الهواة فيها ؛ لأن الدولة فى أى من البلدين لم تكن فى حاجة لخدمات المؤرخين المحترفين .

وبينما المؤرخون البريطانيون من العصر الليبرالى تسللوا فى النهاية إلى ركن صغير ملائم فى داخل الإنجليزية لم يُتح لنظرائهم الأمريكيين نفس الشىء قط . وهكذا ، فعلى الرغم من أن الجمعية التاريخية الأمريكية تأسست فى ١٨٨٤ لم يستطع أحد قادتها ، وهو المؤرخ البارز هربرت باكستر آدمز إلا فى ١٨٨٩ وبعد خمس سنوات من الضغط ، أن يُؤمِّن لها ترخيصا من الكونجرس يلحقها بصورة فضفاضة بمعهد سميثسونيان (٦٤) . وقد استغرق الأمر سنوات من المؤرخين حتى يحققوا مكانتهم البارزة اليوم كأمناء مكتبات .

ومثل نظرائهم الإنجليز فى مانشستر حاول المؤرخون المحترفون الأمريكيون الأوائل أن يحتكموا إلى اهتمام دولتهم بالعلم كوسيلة لإضفاء المشروعية على محاولاتهم للاعتراف بالتاريخ كمشروع جاد . وهذا يفسر المحاولات الأولى للجمعية التاريخية الأمريكية لتعريف نفسها بأنها من مدرسة ليوبولد فون رانكه الألمانية العلمية فى دراسة التاريخ (٦٥) .

ولكن كان على قيادة الجمعية أن تناضل ضد واقع أن الدولة الأمريكية أثناء

بنفسها من نظيرتها البريطانية عن الانحصار فى تفسيرات محددة ، ناهيك عن مناهج محددة . إنها كانت بعد كل شىء دولة تنظيمية .

وبالتدريج انتهى المؤرخون الأمريكيون إلى التسليم بهذا الواقع ، ووجدوا طرقا أخرى للبحث عن النفوذ . وتذكر مقالة أخيرة حول هذا الموضوع أن الجيل الثانى من المؤرخين الأمريكيين المحترفين تمردوا على « ميتا فيزيقا رانكه » وأحلوا محلها إمبريقية اسمية أشد صرامة . وفى نهاية العصر الذهبى ، كان مؤرخو الساحل الشرقى على الأقل يعلّمون طلاب الدراسات العليا أن الوقائع التاريخية هى على الحقيقة بيانات . وأن على المرء أن يسخر من دعاوى الحقيقة الموضوعية (٦٦) . وفى خلال هذه التحركات يرى المرء عددا من كبار مؤرخى الجمعية التاريخية الأمريكية يقبلون دورهم كمنتجين لثقافة إقليمية فى معارضة ثقافة وطنية .

وعندما أخفقت الجهود الأولية للجمعية التاريخية الأمريكية فى توسيع نطاقها من قاعدة ثقافية إقليمية للساحل الشرقى ؛ لتحتل وضعا وطنيا حاولت بعض الشىء أن تغير استراتيجيتها ، وفى خلال ذلك فتحت أبوابها لعدد أكبر من المؤرخين معززة بذلك دعواها بأنها فى الحقيقة مؤسسة وطنية ؛ حتى بدون اعتراف رسمى . وقد أدى هذا إلى دخول مؤرخين بارزين من أمثال فردريك جاكسون تيرنر وفرنون . ا ، بارينجتون كممثلين قياديين للثقافة المحورية الأمريكية . ويبقى أن الجمعية التاريخية الأمريكية كانت إلى حد بعيد مجموعة من السادة ذوى توجه إلى الطبقة العليا فى الساحل الشرقى ، وأن هذه الحقيقة جعلت جاذبيتها خارج منطقتها وطبقتها ونوعها محدودة للغاية . ويمكن استخلاص الشاهد على ذلك من حقيقة أن المنافسة التى واجهتها – وقد واجهت منافسة بالفعل – كان لابد أن تكون إقليمية أو عرقية أو نوعية بالتحديد . وعلى سبيل المثال ، تأسست فى ١٩٠٧ الجمعية التاريخية لوادى المسيسيبى ، وسرعان ما أصبحت منافسا للجمعية التاريخية الأمريكية فى المجال الذى يدل عليه اسمها (٦٧) ، ثم تلتها منظمات أخرى تباعا .

وكما فى المملكة المتحدة واجه التاريخ المهنى فى الولايات المتحدة مشكلة أخرى لا تتعلق بموقف الدولة فقط ، ولكن أيضا بأذواق قراء كتب التاريخ . وقد كلف التاريخ

العلمى الجمعية التاريخية الأمريكية فقدان قاعدة شعبية بين القراء ، وفَضّل الجمعية التاريخية الأمريكية عن الجمعيات والمجموعات التاريخية المحلية التى نظرت إلى تاريخها باعتباره متغيرا متداخلا مع تراثها ، ثم وجدت مدافعا عنها - لا فى الجمعية التاريخية الأمريكية ولا حتى فى منظمة التاريخ الأمريكى - ولكن فى المنظمات الأقرب إلى وجهة نظرها إلى العام ، مثل جمعية التاريخ فى الحكومة الفيدرالية والمجلس الوطنى للتاريخ العام . ولما كانت الجمعية التاريخية الأمريكية قد استحوذت لنفسها على ساحة التاريخ العلمى ، فقد كانت تستطيع بسبب أوراق اعتمادها العلمية أن تدعى فى أحسن الأحوال أنها الرئيس الشرفى لكتابة التاريخ .

وقصارى القول أن الشخصية التى تمثل الجمعية التاريخية الأمريكية فى العصر الليبرالى ، كان يجب أن تكون رجل تنظيم مثل ج . فرانكلين جيمسون (١٨٥٩ - ١٩٣٧) وليس صاحب أفكار ومناهج مثل نظيره البريطانى جون سيلى . لقد أخذ جيمسون على عاتقه مهمة الارتقاء بالمهنة من حيث تركها هربرت باكستر آدمز فى ثمانينات القرن الماضى . لقد قبل حقيقة أن الجمعية التاريخية الأمريكية هى وجود غريب بالنسبة لواشنطن ، وسعى إلى كسب التأييد السياسى والمهنى بأى صورة ممكنة ليرسى جوانب البناء الضرورية مستقبلا . وبفضله أقيمت مؤسسة ذات أهمية عظيمة للمؤرخين هى الأرشيف الوطنى . ولم يكن قط معروفا كمدرس أو كاتب على عكس جون سيلى الذى كانت شهرته فى كمبردج بالمملكة المتحدة مستمدة ، كما أوضح الفصل السابق ، من تأصيله للتاريخ العلمى فى النظام التعليمى النخبوى .

التاريخ فى الفترة الإدماجية : الحروب ، والاتفاق العام ، والتاريخ ، وأنسنة النخبة

ازداد وضع الجمعية التاريخية الأمريكية أهمية بسبب ما خاضته البلاد من حروب كبرى . لقد رفعت الحرب مكانة الجمعية عندما احتاجت الحكومة فجأة ، خلال الحرب

العالمية الأولى ، إلى مؤرخين يفهمون أوربا . وبعدها حلت فترة من التراجع استمرت حتى الحرب العالمية الثانية حين ارتفعت مرة أخرى مكانة الجمعية ، وعمل عدد من المؤرخين المحترفين لحساب مكتب الخدمات الاستراتيجية . لقد استطاع المؤرخون أخيرا أن يبدأوا فى هذه الفترة فى تحدى نفوذ النسبية وطرد الشكوك التى أحاطت بالتاريخ المهنى الذى ظل يتعثر فى طريقه على الأقل حتى هذه الفترة . وكانت فترات الحروب هى التى بدأ فيها المؤرخون يدرّسون برامج خاصة تربط الولايات المتحدة مع حلفائها ، برامج مثل تلك التى تدور حول الحضارة الغربية (٧٠) .

كانت مشكلة التاريخ المهنى هى وقت السلم ، ففى هذا الوقت فقدت الجمعية التأييد . ولو أنها سعت مثلا إلى الأخذ بوجهة نظر فى التاريخ تتعارض مع عالم الأعمال في الساحل الشرقى ؛ حيث توجد الكتلة المؤثرة من عضويتها ، لخاطرت بتدمير دعواها . إنها تؤيد « وجهة نظر الاتفاق العام » فى التاريخ ، وهى وجهة نظر مطلوبة أيضا لعبور الخطوط الطبقية والإقليمية والعرقية .

أكانت هناك طريقة تستطيع بها الجمعية التاريخية الأمريكية أن تتخلى عن تاريخ « الاتفاق العام » ؟ يبدو أن الاجابة ستكون بالنفى . فأولا : يسمح تاريخ الاتفاق العام ، أو على الأقل تسمح لغته الاصطلاحية بوجود طريقة للتعايش داخل المهنة ، فهذه اللغة تسمح للمؤرخين من مختلف الخلفيات الإقليمية والعرقية بأن يدرس كل منهم أعمال الآخر تحت مظلة منتظمة وطنية دون الدخول فى صراعات سياسية .

وثانيا : يستخدم تاريخ الاتفاق العام كمبدأ تفسيرى فى كتابة التاريخ ، ويؤدي استخدامه – كما لاحظنا من قبل – إلى اتفاق بين كثير من المؤرخين على تمييز فترات التاريخ الأمريكى باعتبارها جزءا من الاتفاق العام أو جزءا من الصراع .

وثالثا : يتواءم تاريخ الاتفاق العام – كما لاحظنا من قبل أيضا – مع التراث .

أما تكاليف الأخذ بمنهج تاريخ الاتفاق العام فهى أيضا واضحة تماما . فتاريخ الاتفاق العام لا يفرض فقط وجهة نظر سياسية معينة على التاريخ ، بل إن هذه الوجهة السياسية تعمل لحساب الأشكال الأكثر تقليدية فى كتابة التاريخ ، وضد

الأشكال الأحدث التى أصبحت الآن أكثر أهمية ، إذ كيف يمكن أن يكتب تاريخ للعمال والعمل أو تاريخ اجتماعى دون استحضار الصراعات ؟ وكيف يمكن أيضا لتاريخ نقدى عن إنتاج المعرفة ألا يزيح الستار عن الصراعات ؟

ثم هل يمكن لتاريخ الاتفاق العام الذى يغرس أقدامه - كما هو الحاصل بالفعل - فى التراث ، وخصوصا التراث الغربى أن يخاطب خبرة الأفرو أمريكيين أو الهنود الأمريكيين ؟ أيستطيع أحد أن يدعى أمام مثل هؤلاء القراء أن هناك فترات من الاتفاق العام ، أم أن تاريخ الاتفاق العام هذا هو فى الحقيقة التزام بالولاء لأمر الواقع العرقى ؟

وحتى كثير من مؤرخى الجمعية يعتبرون أن مدخل الاتفاق العام يؤدى إلى نتائج متميزة ، ومن هؤلاء معظم « المدرسة المراجعية » ، ومعظمهم بيض ومن الطبقة المتوسطة وذكور . ولو أن أحدا مثلا اعتبر الحقبة التقدمية « حقبة صراع » وفترة الخمسينات من هذا القرن « حقبة اتفاق عام » لكان بذلك يشوه عمله بداهة . فهل حقا قدم تشارلس بيرد المؤرخ الكبير من الحقبة التقدمية تفسيرا صراعيا للنضال من أجل الاستقلال الأمريكى ، أم إن هذا التفسير فرضه عليه ببساطة مؤرخون لاحقون بفعل نموذجهم التفسيرى ؟ إن نظرة من قرب إلى ما كتبه بيرد ، تشير إلى أنه استخدم مصطلح الطبقة ، ولكنه استخدمه بمفهوم التصنيف الاجتماعى وليس بمفهوم الصراع . إن موقفه المعرفى هو موقف وضعى ، والوضعية تسلم بالانسجام الأساسى وليس بالصراع . فهل أسىء تفسير موقفه لسبب أو آخر ؟

وإذا كانت فترات الحرب الأهلية وإعادة البناء فترات صراع ، وكان الاتفاق العام قد بدأ بعد مساومة ١٨٧٧ ، فماذا يفعل المؤرخون بكتاب هام يبين أن السود والبيض معا قد حققوا ازدهار الجنوب فى حقبة إعادة البناء ، وأن الركود الاقتصادى قد بدأ فى الجنوب فى عهد جيم كرو فى ثمانينات القرن الماضى وما بعدها ، وهى الفترة التى تتميز - فيما يفترض - بالاتفاق العام ومن ثم التقدم ؟ وهذا الكتاب هو بالطبع كتاب و . أ . ب . دبيوا « البناء الأسود فى أمريكا » (١٩٣٥) ، الذى ليس له إلا نظائر قليلة فى كتب التاريخ الرسمى الأمريكية .. سواء حكمنا عليه من حيث مستواه ، أو من

حيث رواجه فى الأسواق . ولكن الجمعية التاريخية الأمريكية حاولت أن تتجاهله لسنوات طويلة ؛ لأنه كان خارج نموذجها التفسيرى .

وإذا فرضنا أن سنوات ما بعد ١٨٧٧ هى جزء من مرحلة الاتفاق العام أو التقدم فماذا نفعل بقوانين جيم كرو ؟ وكيف نفسر مصير الراديكاليين الجنوبيين مثل توم واطسون ، وكيف نشرح سبب استغلال الشمال المتجدد للجنوب ؟ إن هذه المشكلات توضح فيما يبدو الاستجابة المترددة للعاملين فى مهنة التاريخ إزاء كتابات مؤرخ جنوبى عظيم آخر هو س . فان وودوارد (ولد ١٩٠٨) الذى طرح هذه المشكلات . وفى حالة وودوارد بالمقابلة مع ديبوا أبدت الجمعية التاريخية الأمريكية لسنوات طويلة احترامها له - أى لوودوارد - دون أن تعترف بما انتهى إليه . ولذلك ، فلن يتعلم المرء من كثير من الكتابات الدارجة عن تاريخ البلاد أن وودوارد وجد فى التمرد الزراعى الذى قاده توم واطسن نهضة الجنوب الجديد ، جزءاً من تاريخ الاتفاق العام هزم توم واطسن الشعبى التقدمى من جورجيا ، وحوله إلى عنصرى . ولن يتعلم من هذه الكتابات أيضا أن وود وارد فى كتابه « أصول الجنوب الجديد ١٨٧٧ - ١٩٣١ » الصادر فى ١٩٥٠ أظهر أن الاتفاق العام يعنى « الرحيل الجديد » للديمقراطيين ، وأن سياسيى سبعينيات القرن الماضى وما بعدها الذين استغلوا الجنوب قصدوا إلى حماية مجموعة من الأفراد حققوا أرباحا لا يستهان بها من استخدام عمل السجناء .

وعندما يتأمل المرء خمسينيات القرن الحالى ، وهى فترة أخرى يعتبرونها حقبة إتفاق عام ، فستبدو الخلافات بين كبار المؤرخين جليةً بما لا يداريه إلا قبولهم الجماعى لفكرة الاتفاق العام . ففى هذه الفترة تجاور ريتشارد هوفستاتر البراجماتى مع دانييل بورستين الذى وجد فى مصادره معنى سطحيا مشتركا على طريقة الوضعية مع لويس هارتز المؤرخ الذى كان على شىء من الماركسية . إن ريتشارد هوفستاتر يجب أن يُقرأ بطريقة انتقائية . ومن الأفضل ألاّ ننسى مقاله الشهير عن معاداة النزعة الثقافية فى الولايات المتحدة ، فإنه مفيد جداً فى فهم إيديولوجية نمط الحياة الأمريكية . لقد أظهر هوفستاتر أن معاداة النزعة الثقافية كانت عاملا مؤسسيا ودائما خلال التاريخ الأمريكى الحديث . فقد حدث التصادم مع النزعة الثقافية لا فى الفترات

التى يعدها المؤرخون فترات صراع فحسب ، بل أيضا فى فترات الاتفاق العام . وأدعى إلى السخرية مقابلة هوفستاتر بلويس هارتز الذى استخلص من تحليل مغلف بقشرة ماركسية أنه لم يكن هناك صراع فى تاريخ أمريكا الحديث . وربما بسبب هذه النتيجة تجاوز هارتز ماركسيته ، وأصبح مصدرا رئيسيا من مصادر مدرسة الاتفاق العام (٧١) .

والحقيقة أنه يصعب من منظور أكثر معقولية أن نعتبر الخمسينات فترة اتفاق عام فهى فترة مكارثى والتطهيرات . وفى هذه الفترة ربما فزع عدد من المؤرخين مما كان يحدث ، فقرروا أن ينقلبوا على زملائهم . وفى هذه الفترة المثخنة بالجراح ، والتى فقد فيها عدد من المؤرخين وظائفهم لاتهامهم بجريمة أنهم كانوا يوما من الأيام ماركسيين ، أو أنهم فكروا بلغة نماذج الصراع فى الماضى .. فى هذه الفترة كانت هناك قلة ارتفعت مكانتها ، ومن هؤلاء دانييل بورستين الذى وصفه أحد دارسى التطهير بأنه « موزع الاتهامات » وقد أصبح بورستين عميدا لتاريخ الاتفاق العام (٧٢) .

فى أواخر الستينيات تغير الجو الثقافى فى الولايات المتحدة تغيرا عميقا ، فقد دخلت الدولة وكثير من الهياكل المهنية المرتبطة بها فى أزمة . وتطورت حركة الحقوق المدنية والاحتجاجات ضد الحرب فى فيتنام . وإذا كانت هذه الأحداث تنطوى على احتمالات لوقوع انقسامات فى الجمعية التاريخية الأمريكية ، فقد رفض كثير من المؤرخين الكبار أن ينحازوا إلى أحد الجوانب فى قضايا اليوم ، وحاولوا أن يجعلوا من هذا الرفض مبدأً لهم . وعلى كل حال فقد أخذ العقد يمضى لطيته وتوالت الأحداث تحفل بالنذر أكثر فأكثر ، وأصبح من الصعب تجنب اتخاذ موقف فى القضايا المطروحة . وفى هذا الوضع ظهر أن كثيرا من المؤرخين القياديين يفضلون انتصارا فادح الثمن على أن يقوموا بتغيير استراتيجيتهم . وهكذا ، أخذت إدارة الجامعات واحدة بعد الأخرى تفتح أبواب أقسام التاريخ تحت ضغط من الطلاب لوجوه جديدة ، ووجهات نظر جديدة ، ولم يكن غريبا أن يطلق الحرس القديم من الجمعية التاريخية الأمريكية على هذا التطور « انهيار الاتفاق العام » .

وقصارى القول ، فإن الصراع والاتفاق العام كانا مقولتين استخدمهما غالبية

المؤرخين الأمريكيين طوال حقبة الإدماجية لتفسير تاريخ الولايات المتحدة ، وكان الوضع يختلف كثيرا بالنسبة للمؤرخين فى المملكة المتحدة فى الفترة المناظرة .

ففى فترة الجماعية فى المملكة المتحدة يستطيع المرء مُوَفَّقا أن يختار اريك هويسباوم بوصفه الشخصية الممثلة للعاملين فى مهنة التاريخ . إن كتابه عن إرستقراطية العمال ، وأفكاره عن الثورة الصناعية باعتبارها حدا فاصلا فى تاريخ البشرية قد أصبحا مقولات ثقافية هامة يحملها جيل من المؤرخين صبهم تقليد حزب العمال فى قالبه ، وإذا فكرنا فى الشخصية المناظرة بين المحترفين للتاريخ فى الفترة الإدماجية ، فلن تكون هذه الشخصية من مؤرخى الاقتصاد أو العمل ، وهما المجالان اللذان تخصص هويسباوم فيهما . بل سيكون الاختيار الأوفق والأدق هو لمؤرخ من داخل تقليد الاتفاق العام ، لواحد حاول أن يضفى الطابع الإنسانى على ثقافة النخبة كما فعل فرانكلين ديلانو روزفلت بدرجة أو أقل باقتصاد النخبة . ومثل هذه الشخصية يمكن أن تكون بيرى ميللر (١٩٠٥ - ١٩٦٣) المؤرخ من نيوانجلند البيوريتانية ، أن دراسات ميللر عن النصوص البيوريتانية « الأرثوذكسية فى ماساشوسيتس » (١٩٣٣) ، و « عقل نيوانجلند : القرن السابع عشر » (١٩٣٣) تزيح الوصمة التى تلحق عادة بمثل هذه الشخصيات مثل كوتون ماثر ، وتعطى البيوريتان وجها إنسانيا (٧٤) .

تاريخ حقبة الليبرالية الجديدة
١٩٧٠ وما بعدها

لا شك أن أى مراقب ممن يرقب السبعينيات المتميز يمكنه أن يلاحظ أن مهنة التاريخ أصبحت أكثر تنوعا عن ذى قبل ، فقد أصبحت أعداد لا بأس بها من النساء والأقليات أساتذة ، ولا شك أن تطورات الستينيات هى التفسير الرئيسى لذلك . وهناك تفسير آخر قلما يشار إليه هو تطورات السبعينيات ، فقد ظهر قبول رمزى للتعدد داخل الليبرالية الصاعدة آنذاك . وأنا أفضل - على أى حال - أن أفسر هذا التغيير ، كما فسره

دارس للموضوع ، بأن عددا « غير متناسب » من كبار المؤرخين فضلوا أن يتقاعدوا فى نهاية الستينات وأوائل السبعينات ، وبعدها حول العاملون فى المهنة تركيزهم الذى كان ينصب تقليديا على الدولة والتاريخ السياسى إلى المجتمع والتاريخ الاجتماعى (٧٥) . وهو تغيير مازال يحتاج إلى تقييم لمعرفة إلى أى مدى هو من نوع التغيير الذى يقود إلى كسر مفهوم الاتفاق العام ، مع ملاحظة غياب دور لحزب عمالى هنا .

وحتى نمضى فى المقارنة ، فإن التحول عن الجماعية فى المملكة المتحدة صحبه انقسام وسط العاملين فى حقل التاريخ ، وكان كثير من كبارهم يعارضون كلا من التاريخ الرسمى والسياسات الرسمية . ولكن التحول المناظر فى الولايات المتحدة يبدو أكثر مباينة وأكثر لطفا ، على الأقل إذا حكمنا انطلاقا من الدراسات التاريخية السائدة فى هذه الفترة (٧٦) .

فعلى الرغم من أن هذه الدراسات عالجت أفكارا جديدة ، فإنها ظلت تحتفظ إلى حد كبير بالمفهوم الأقدم للاتفاق العام كمثل أعلى فى كتابة التاريخ ، ولم تكن هناك سوى استثناءات طفيفة ، وظل قادة المهنة يحتفظون بإيمانهم بالنظام السياسى . وربما كان التغير فى هذه الفترة هو أن حركة المراجعة والماركسية الجديدة بدأت تزداد أهميتهما .

ولنبرز التباين بين كتابة التاريخ فى البلدين فى هذه الفترة . قد يكون من الأفضل أن نبدأ بالنظر إلى البيئة التى أحاطت بالتاريخ وأوجدها التاريخ العام والتراث .

ففى المملكة المتحدة كان للتاريخ العام والتراث مكانة ضئيلة خلال الفترة التى كان لحزب العمال فيها دور فعال ، ولكن هذا الاتجاه فى كتابة التاريخ شهد نموا سريعا فى السبعينات والثمانينات مع ظهور نظام الحزب الواحد فعليا . ويعود هذا النمو المفاجىء فى جزء منه إلى المساندة الرسمية من الدولة . أما فى الولايات المتحدة فقد شهدت السبعينات والثمانينات أيضا نموا فى التاريخ العام والتراث ، ولكنه كان أقل درامية ، لأن هذين المجالين ظلا يشهدان نموا مطردا طوال أكثر من قرن . وهى نقطة تستحق التفكير عند معالجة الغرض الذى يرى فى ١٩٧٠ حدا فاصلا .

ومن الحق أن ما ينطبق على التاريخ العام يمكن تطبيقه على نطاق أوسع . ففى دراسات الفترة المبكرة من تاريخ أمريكا ؛ قد يكون من الخطأ أن نزعم أن مفهوم الاتفاق العام قد انهار ، أو أن هناك حدا فاصلا مع الفترة السابقة قد أقيم ، وذلك على الأقل بين المؤرخين الأكثر شهرة . ومن الحق أن هذه الفترة هى التى خرجت فيها كتابات متكاملة عن البيض والهنود ، وتناولت بالطبع جوانب الصراع بينهما ، وهى دراسات كانت موزعة سابقا بين التاريخ البيوريتانى والإثنوجرافيا الهندسية (٧٧) . إنه من الواضح بنفس الدرجة أن أحدا على الرغم من ذلك لم يحتل موقع بيرى ميللر الشخصية البارزة فى الجيل السابق نتيجة لهذه الأعمال الجديدة ، بل إن إعمال بيرى ميللر « المؤرخ الفيلسوف » فى هذا المجال ظلت على مكانتها لم تمس ، وببساطة أضاف المؤرخون الاجتماعيون الجدد رؤاهم ، وهكذا فإن صورة البيوريتان فى الكتابات الأخرية أصبحت الآن تمثل حركة اجتماعية أكثر منها مجرد حركة دينية وأدبية . ولكن البيوريتان لا ينظر إليهم – على الأقل حتى هذه اللحظة – كحركة اجتماعية تشكلت من ديالكتيك العلاقات بينهم وبين الهنود . إن ما يميزه المرء فى الدراسات الجديدة ليس فقط المحافظة على الحدود القديمة ، ولكن أيضا شىء من مواصلة السير على درب الجيل السابق من المؤرخين (٧٨) . وإذن ، فأين الانقطاع مع مفهوم الاتفاق العام .

ظل موضوع الثورة الأمريكية أيضا لمدة طويلة جزءا من مفهوم الاتفاق العام فى معالجة التاريخ . وتبدو هذه الثورة فى عمل أخير وهى مازالت تحتل نفس الموقع (الذى كانت تحتله فى الدراسات السابقة) . وعلى الرغم من أن المؤرخين الاجتماعيين قد بدأوا الآن يتناولون الموضوع ، إلا أنه ليس من المحتمل أن يسمحوا بالعودة إلى عهد تشارلس ومارى بيرد ، وهو عهد وصفوه بـ « فترة الخلاف » ، كان المؤرخ دانييل بورستين من هارفارد مهندسا هاما لمدخل الاتفاق العام فى معالجة موضوع الثورة فى نهاية الفترة ما بين الحربين ، وكان كتابه « العالم المفقود لتوماس جيفرسون » (١٩٤٨) أيذانا بانتهاء « فترة الخلاف » ، وكان تشارلس بيرد المشار إليه آنفا ، وهو مؤرخ اجتماعى واقتصادى ، قد زعم فى العشرينات من الفترة التقدمية أن المصالح الطبقية كانت وراء سعى الطبقة العليا الأمريكية من أجل الحرية . ولكن الدراسات التالية – فى

رأى بورستين – وضعت وجهة نظر بيرد موضع التساؤل . ونتيجة لهذه الدراسات استطاع بورستين أن يستعيد الفكرة الأقدم التى تعتبر الإيديولوجية الوطنية عاملا سببيا يشرح لماذا فعل الثوار الأمريكيون المتوقدون حماسة ما فعلوه . وجاء بعد بورستين من واصل السير على نهجه فى الأخذ بمدخل الاتفاق العام ، وهو برنارد بيلين ، أستاذ آخر من هارفارد . وبينما قرر بورستين فى كتابه المذكور أن دراسة تقليد جيفرسون مازالت « غارقة فى مستنقع الإيديولوجية » استطاع برنارد بيلين بعد عشرين سنة أن يصلح هذا الوضع . ففى كتابه « الأصول الإيديولوجية للثورة الأمريكية » (١٩٦٧) زعم أن شحناء ظاهرية غطت على الاتفاق العام الباطن فى لغة النصوص (٧٩) . لقد ظل مفهوم الاتفاق العام حيا ، على الأقل فى تناول هاتين الناحيتين (العلاقات بين البيض والهنود والثورة الأمريكية) سواء بالتاريخ الاجتماعى أو بدونه .

أما فى تفسير الحرب الأهلية فكان تاريخ الاتفاق العام المسيطر على المجال يبدو أضعف . وكان التاريخ الأقدم يرى فيها حدثا شاردا ، ونضالا ربما لم يكن ضروريا فى قرن تميز فيما عداها بالاتفاق التام . وهى وجهة نظر ظلت متداولة بين المؤرخين حتى سنة ١٩٧٠ عندما نحاها جانبا طبقا للروايات الرائجة مؤرخون سود ونساء دخلوا الميدان حديثا . ولكن نظرة أقرب توضح أن هذا ليس دقيقا تماما ، فالذين تحدّوا وجهة النظر هذه لم يكونوا المؤرخين السود أو النساء ، بل مراجعى التاريخ الرسمى ، وبعض هؤلاء كانوا سودا أو نساء ، وبعضهم لم يكونوا كذلك .

يفترض المؤرخون المراجعون أن الحرب الأهلية كانت صراعا محتوما نظرا للملامح المتناقضة للنظام السياسى والاقتصادى السائد آنذاك . وعلى وجه العموم يتجه المؤرخون المراجعون بالنسبة للفترات اللاحقة إلى تأكيد قوة الرأسمالية الأمريكية فى الداخل والخارج ، ويرون أن الحرب هى نتيجة طبيعية لمبادراتها . وهم إذ يفعلون ذلك يلقون كثيرا من الضوء على الدوافع الحقيقية للطبقة الحاكمة كما يرونها فى السبعينيات ، ولكنهم يفعلون ذلك فى أحيان كثيرة من خلال تناول إقليمى شمالى للتاريخ الأمريكى . وهو مدخل يشبه كثيرا مدخل تشارلس بيرد أو التاريخ

الشيوعى الاقدم عهدا ، وهو أيضا مدخل يقلل من وزن سياسات الحكم ودور الدولة ، ويجعل العنصر والمنطقة ببساطة جزءا من بنية علوية ، ولكن هناك استثناءات قليلة ملحوظة [٨٠] ، منها على سبيل المثال ايوجين . د . جينوفيز (ولد ١٩٣٠) .

وجينوفيز مؤرخ هام للجنوب العبودى ، ومراجع بارز فى الفترة المعاصرة ، وعلى مدى تاريخ مهنى طويل ومنتج ، صارع جينوفيز فى مجال مقسم مشدود إلى أقصى طرفيه بين أولئك الذين يرون أن تاريخ الجنوب فى القرن التاسع عشر ليس إلا جزءا ضئيلا من التاريخ الأمريكى ، الذى يدور حول الشمال ويتحدد به ، وأولئك الذين يرون أن تاريخ الجنوب هو تاريخ منفصل . وقد وجد معلق متأخر على أعمال جينوفيز أنها تمثل دمجا فريدا بين المنظورين . ففى كتابه « الاقتصاد السياسى للعبودية » (١٩٦١) ناقش جينوفيز موضوع الجنوب معارضا الماركسية الأمريكية المتمركزة نوعا ما فى التقليد الشمالى ، وداعيا إلى دراسة الجنوب طبقا لديناميكياته الخاصة وأيضا فى علاقاته مع الاقتصاد العالمى ، ومؤكدا أن التاريخ الجنوبى ليس كما ظن معظم الماركسيين الأمريكيين ملحقا بالتاريخ الشمالى ، وأنه فى ضوء هذا الانفصال لم يكن ممكنا تجنب الحرب الأهلية ، فالشمال لم يكن ببساطة لِيحدِّثَ الجنوب ، كما كان للسياسة والعادات الاجتماعية تدخل فى هذه الحرب ، فالجنوب الزراعى لم يكن مستعدا أن يتخلى عن النظام العبودى – وهو نظام اقتصادى واجتماعى معا – على الرغم من أنه ليس مربحا أو مجزيا ، الأمر الذى أدى إلى نهايته لجملة أسباب داخلية وخارجية ليس أقلها الديون . مع السبعينيات تعمقت أكثر أفكار جينوفيز عن النظام الأمريكى – الشمال والجنوب – وفى كتابه – Roll Jordan, Roll The World the Slaves Made يعود إلى نظرية جرامشى عن الهيمنة مبتعدا عن الكتاب الماركسيين الأكثر إغراقا فى الاقتصاد فى خمسينيات وستينيات هذا القرن من أمثال موريس ضب ، وواضعا مكان إشكاليتهم إشكالية أخرى تؤكد على ثقافة الهيمنة والثقافة المضادة للهيمنة أخذا من « مذكرات السجن » لجرامشى . وفى كتاب جينوفيز هذا تتخذ ثقافة المزارع الهيمنية صورة أبوية للمزارع تجاه السود . وأظهر جينوفيز أن هذه الثقافة أضعفتها فى سياق الهيمنة .

إن هذه المشاكل الاقتصادية أخذت تفقد تأثيرها بصورة متزايدة . إنها لم تستطع أن تمنع النضال المعادى للهيمنة من كسب أرض فى الثقافة الدينية للأيدى الكادحة فى الحقول ، وهو نضال رأى فيه جينوفيز نواة النضال القومى .

وفى مقارنة جينوفيز بمؤرخى المملكة المتحدة يفاجأ المرء بالتشابه بين مواقفه ومواقف السوسيولوجى التاريخى البريطانى ستيوارت هال . فكلاهما يمثل تقليد الماركسية ذات الأساس الوطنى فى بلديهما ، وكلاهما ناضل ضد ضيق أفق الماركسية الدولية السائدة وتزمتها . وبالنسبة لستيوارت هال فقد أمضى كثيرا من السنوات العشرين الأخيرة فى تحليل الدولة طالما أن الطبقة العاملة فى بلاده ألزمت نفسها بمساندة الدولة . ولكن جينوفيز كان قادرا على أن يمضى أبعد ، إلى استكشاف لغة وأشكال مناوئة للهيمنة نظرا لتكافؤ الضدين القائم بين الطبقة العاملة والدولة فى الولايات المتحدة .

فى هذا الفصل ناقشتُ الديمقراطية الحديثة التى يعود تاريخها إلى ١٨٧٧ ، وبينت أنها كانت تقوم اقتصاديا على أساس نوعين رئيسيين من الرأسمالية : رأسمالية الشركات المندمجة والرأسمالية الوطنية ، وتقوم الدولة بينهما بدور المنظم ، وأنه كان خارج هذا الإطار مجتمع مدنى ، وخارج المجتمع المدنى فئة عرقية دنيا . ولما كانت الدولة دولة تنظيمية فإنها لم تبد إلا حماسا ضئيلا للعقيدة الدينية والشرائع الكنسية . وبينت أن الجمعية التاريخية الأمريكية كانت مفيدة كمصدر للعاملين فى أرشيف الدولة ومكاتباتها ، ولكنها لم تكن مُعَدَّة للمشاركة فى إنتاج التراث الذى يعد الطريقة الأكثر فعالية لتطبيق النموذج التفسيرى السائد ، ولا هى كانت أيضا معدة للتصديق على معالجة نقدية للتاريخ ، الأمر الذى كان يمكن أن ينقلب ضدها [٨٢] .

والنقطة الأساسية فى هذا الفصل تلخيصا هى أن تاريخ الولايات المتحدة يبدو مناسبا لإدخاله فى دراسة أوسع حول الديمقراطية . إنه يكشف عن نضال واضح يدور بين الحكام والمحكومين ، وهو نضال يصعب من معظم الزوايا أن تعتبره استثنائيا .

هوامش الفصل العاشر

١ - أعني بالاستثنائية المذهب الشامل فى تفسير أمريكا الذى يؤكد تفردها ، وهو مذهب متعدد الأذرع كالأخطبوط أوفضفاض من شأنه شأن مصطلحات من نوع الشرقية (الأورينتالية) . وأعنى بالاستثنائية فى التاريخ الأمريكى عدة أشياء : أولها قبول واسع غير مصرح به لهذا المذهب ، قبول لفكرة أن هذه البلاد هى المركز العالمى التام للتاريخ الحديث ، وأعنى بها ثانيا عددا من الدعاوى المحددة الشائعة بين المؤرخين ، والتى تُتّخذ لإضفاء المصداقية على الاستثنائية ، ومنها العزم الفريد لمؤسسى أمريكا على التمتع بالحرية صمام الأمان على الحدود ، وثالثا الاستمرارية « الويجية » للخبرة الأمريكية مستودعة لدى الأجيال فى صورة إجماع أو اتفاق عام ، ومن الواضح أن للاستثنائية أهمية بالغة للمدخل الذى تبناه هذا الكتاب . فإذا كانت الاستثنائية المدخل الوحيد حقا لمعالجة التاريخ الأمريكى ، فإن الخطوط الفكرية الأساسية فى هذا الكتاب قد تكون خاطئة ، وقدر المغامرة الكبيرة يوضح طول الفصل . ويؤكد بيان معاصر هام عن موقف الاستثنائية على تقديس الأمريكيين للآباء المؤسسين والدستور، وبصورة أعرض للطريقة الأمريكية فى الحياة .

Robert N. Bellah. " Civil Religion in America, " Daedalus 96, no. 1 (Winter 1967) : 1 - 21 .

ولايحتل التاريخ المقارن ، المجال الذى قد يفسح المجال لوضع الاستثنائية موضع التساؤل إلا مساحة ضئيلة جدا فى التاريخ الأمريكى .

Raymond Grew, " The Comparative Weakness of American History, " Journal of Interdisciplinary History 16, no. 1 (1958) : 87 - 101 .

ومن الميادين الهامة التى لعب فيها التاريخ المقارن دورا دراسات الأجناس : الأنجلو - ساكسونية وتاريخ السود ، انظر :

George Reid Andrews, " Review Essy : Comparing the Comparers : White Supremacy in the United States and South Africa, " Journal of Social History 20 (Spring 1987) : 585 - 599; Shula Marks, " White Supremacy : A Review Article," Comparative Studies in Society and History 29, no. 2 (1987) : 385 - 397 .

إن البيوريتانية جزء من الاستثنائية الأمريكية .

M elvin B. Endy Jr., " Just War, Holy War and Millenium in Revolutionary America, " William and Mary Quarterly 42 no. 1 (1985) : 3 - 25; Sacvan Bercovitch, " How the Puritans Won the American Reavolution, " Massachusetts Review 17, no. 4 (1976) : 597 - 630 :

ويبدو أن الجنوب الزراعى الذى وقف إلى جانب الجمهوريين فى ١٧٧٦ ، قد تحول أيضا دون صعوبة محسوسة إلى البيوريتانية عندما سانده الشمال المُصنّع فى القرن التاسع عشر .

Elizabeth Fox - Genovese and Eugene D. Genovese, " The Divine Sanction of Social Order : Religious Foundations of the Southern Slaveholders' World View," Journal of the American Academy of Religions 60, no. 2 (1987) : 211 - 233; Abraham I. Katsh, The Biblical Heritage of American Democracy (New York : KTAV Publ., 1977)

وهذا الكتاب الأخير يؤكد دور العهد القديم (من الكتاب المقدس) خلال الفترة الكولونيالية والحروب مع الهنود .

ومن المحاولات الهامة لتجاوز الاستثنائية الأمريكية محاولة النظر إلى أمريكا كنموذج من « الطريق الإيطالى » ، وعلى الرغم من محدودية هذه النظرة ، إلا إنها تلقى الضوء على عقود منتصف القرن التاسع عشر التى لم يقطع فى شأنها برأى ، وهى العقود التى كان للتاريخ فيها يتشكل ليتخذ صورته الحديثة . وفى هذه الفترة نلاحظ ميل الأمريكيين إلى إرسال شبابهم إلى برلين بدلا من كمبردج ، وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت من دول الطريق الإيطالى .

٢ - يمكن استنتاج أهمية التمييز بين الأجناس (تحديد الفوارق بينها) بالنسبة للعقل الرسمى من المحاولات الدائبة منذ وقت طويل وحتى الآن لتأكيد وضع الجنس كمقولة علمية فى الولايات المتحدة .

John H. Stanfield, Philanthropy and Jim Crow in American Scholarship (Westport : Greenwood Press, 1985) ;

وقد لمست بنفسى شيئا من النتائج الكثيرة التى ترتب على هذا التكوين العقلى عندما مُنع أحد الزبائن المتعاملين مع زوجتى (وهى محامية) وهو من عائلة بيضاء من تبنى طفل أسود . وللاطلاع على شئ من المناقشة لحقيقة بناء الجنس فى التاريخ الأمريكى ، راجع :

Barbara Jeanne Fields, " Slavery, Race and Ideology in the United States of America, " New Left Review (June, 1990) : 95 - 118; Traditional Histories of racism, e. g., Thomas F. Gossett, Race - The History of an Idea in America (Dallas : Southern Methodist University Press, 1985).

وهو يميل إلى أن يستخلص بطريقة ليبرالية أن العنصرية « شئ حقيقى » ، ولكنها مثل الأمراض الاجتماعية الأخرى فى أمريكا شئ يفرض نفسه ، وعموما فإن فكرة استمرار الفئة العرقية الدنيا توجد - ولوضمنا - فى عدد من الكتابات التقليدية المعتبرة .

John Ashworth, " The Jeffersonians : Classical Republicans or Lideral Capitalists ?" Journal of American Studies 18, no. 3 (1984), 425 - 435, esp. 433 - 5 .

وبينما يعتمد اشفورث على كتاب أدموندمورجان « العبودية الأمريكية والحرية الأمريكية » (١٩٧٥) ، فإنه يربط بين النزعة الجمهورية والعبودية ، ملاحظا أولا خطورة النظام الجمهورى دون وجود رابطة عرقية ، ومشيرا ثانيا إلى قوة الأيديولوجية الجمهورية فى الجنوب فى مقابل الفيدرالية فى الشمال ، ومشيرا ثالثا إلى السوابق الكلاسيكية للنزعة الجمهورية الحديثة فى المجتمعات القديمة القائمة على أساس عبودى . وهو يزعم - ولو ضمنا على الأقل - أن بقاء

الجمهورية بعد نهاية العبودية يتطلب وجود فئة عرقية دنيا وانتقالا من التركيز على السياسة إلى النواحى الاقتصادية ، نجد أن الماركسيين أكدوا على العلاقة بين الرأسمالية والعنصرية ، ومعظمهم فعل ذلك بطريقة تسمح لهم بالتلاؤم مع الليبرالية التيار الرئيسى الذى أشرنا إليه توا ، ولكن قلة منهم لم تفعل ذلك . وهؤلاء أظهروا الطبيعة الاستعبادية القائمة فى الرأسمالية المعاصرة سواء بدراساتهم للعمل غير المُوَثَّق أو بدراساتهم للكولونيالية الداخلية ، وأظهروا أن القمع العنصرى هو نتيجة للاقتصاد ، ومن هؤلاء :

Robert Blauner, Racial Oppression in America (New York : Harper and Row, 1972).

وأقل من هؤلاء من حاولوا الربط بين القمع العنصرى والديمقراطية المعاصرة ، وقد بدأ هذا المشروع أوليفر كوكس ، ولكنه مازال غير مكتمل إلى حد بعيد ، انظر :

George Snedeker, " Capitalism, Racism and the Struggle for Democracy : The Political Sociology of Oliver C. Cox, " Democracy and Socialism no. 7 (Fall 1988) : 75 - 96 .

وتقترح دراسة أخيرة حول العنصرية البنيوية طريقة لدراسة الفئة الدنيا العنصرية على مستوى البلاد ، انظر :

Philomena Essed, " Understanding Verbal Accounts of Racism : Politics and Heuristics of Reality Construction, " Text 8 (1988) : 5 - 40 .

وترى إسيد أن العنصرية البنيوية يمكن أن تكون لاشيئا مؤسساتيا فحسب ، وإنما أيضا لغويا ، فهى يمكن أن تمارس فى الهجوم اللفظى على السود فى اللغة العادية للبيض .

يمكن أن ترى أيضا تعليقات على أجزاء أخرى من فكرة الفئة الدنيا العرقية فى مقالة تنافس إمكانيات المقارنة بين السود والصينيين كجزء من الفئة الدنيا العرقية .

Luther W. Spoehr, " Sambo and Heathen Chinee : Californians' Racial Stereotypes in the late 1870' s. " Pacific Historical Review 62 (MAY 1973) : 185 - 204 ; On Puerto Ricans and Americanization Specifically, Charles Joseph Beirne, S. J., The Problem of Americanization in in the Catholic Schools of Puerto Rico (San Juan ; Univ. of Puerto Rico, 1975) ;

وكان اليهود الإنجليز – على الأقل خلال فترة مابين الحربين – جزءا من الفئة الدنيا العرقية أيضا . إن المقصود بدعوة اللورد بلفور إلى وطن قومى لليهود هو فلسطين بالطبع ، وليس إنجلترا .

Tony Kushner, The Persistence of Prejudice - Anti - Semitism Society During the Second World War (Manchester : Manchester Univ. Press, 1989),

٣ – ربط بول سويزى محرر Monthly Review مفهوم الدولة بمراحل الرأسمالية ، ورأى أن الدولة المعاصرة هى انعكاس للرأسمالية الاحتكارية .

Paul A. Baran and Paul M. Sweezy, *Monopoly Capital, An Essay on the American Economic and Social Order* (New York : Monthly Review Press, 1966).

ومن ناحية أخرى ، فإن ماركسيى مدرسة فرانكفورت مثل هربرت ماركيوز قد ميزوا الدولة الحديثة بالأجهزة التى تتخذها للسيطرة ، وعلى سبيل المثال وسائل الإعلام الجماهيرية ، انظر : هربرت ماركيوز « الإنسان ذو البعد الواحد ، دراسة فى أيديولوجية المجتمع الصناعى المتقدم » ، وإذ بدأنا فى كتابنا هذا من مقدمة أن الدولة تعتمد على التحالفات والبيروقراطية والسياسة الثقافية والإقناع إلى جانب القسر والإكراه : فلابد أن ننتهى إلى أن الدولة تستخدم مزيجا من مفاهيم مختلف المدارس الفكرية ، انظر مثلا على ذلك فى الهامش ٦ التالى . ومن الكتب المفيدة التى تتناوله السياسة الثقافية للدولة كتاب .

Charles C Mark, *A Study of Cultural Policy in the United States* (Paris: Unesco, 1969).

ومن الكتب المفيدة فى تنظيم الثقافة ، كتاب :

Robert A. Carlson, The Americanization Syndrome : A Quest for Conformity (New York : St. Martin's Press, 1987), Ch. 5;

وهناك أيضا كتاب :

Gary Gerstle, Working - Class Americanism - The Politics of Labor in a Textile City, 1914 - 1960 (Cambridge : Cambridge Univ. Press, 1989) .

الذى يتناول نضال الطبقة العاملة فى الساحل الشرقى للسيطرة على فكرة تحديد ماهو الأمريكى ؟

عندما تدخل الهيمنات مراحل أقل نجاحا ، فإنها تبدأ فى اللجوء إلى العنف ويبدو أن هذه كانت هى الحالة فى الولايات المتحدة ، انظر مثلاً :

Alan Dawley, " E. P. Thompson and the Peculiarities of the Americans, " *Radical History Review* no. 19 (Winter 1978 - 1979) : 33 - 59,

وفى السنوات مابين إضرابات السكك الحديدية فى ١٨٧٧ ومذبحة الصلب فى ١٩٣٧ امتلأت السجون بالسجناء السياسيين الذين انتهكت حقوقهم فى التنظيم عن طريق استخدام الأوامر القضائية فى الاعتراض على الأعمال التنظيمية ووقفها ، وجرت الاعتقالات عقابا على ممارسة حرية الكلام ، وتدبير الدعاوى القضائية ، بل (الإعدامات) على جرائم قتل ملفقة ، ووقعت انتحارات فى حجز الشرطة ، ومذابح بالجملة وعلى نطاق لايحلم به أحد فى إنجلترا الراديكالية . وكل هذه الأشياء هى الخبرة الحية للصراع الطبقى (حتى ولو كانت هذه الكلمة قد مُحيت من القاموس) ، انظر أيضا:

James Holt, " Trade Unionism in the British and US Steel Industries, 1880 - 1914 : A Comparative Study, " *Labor History* 18 (1977) : 5 - 53 .

الذى يتحدث عن تطور سريع جدا للتكنولوجيا وأجور عالية جدا وقدرة إدارية عالية فى مصالح الصلب الأمريكية مقارنة ببريطانيا ، ولكنه يشير أيضا إلى المعارضة العنيفة للحركة النقابية على خلاف الوضع فى بريطانيا .

وإلى جانب الحركة النقابية كانت توجد فى ساحة العمل المنظم الحركات الشعبية الراديكالية التى كان من أشهرها أعضاء اتحاد عمال الصناعة المعروفين بالـ Wobblies ركز سلفاتور سالينو على الجانب الفوضوى فى الـ Wobblies فى :

Red November / Black November - Culture and Community in the Industrial Workers of TheWorld (Albany : SUNY Press, 1989);

وهو كتاب يرى أن الـ Wobblios كانوا استمرارا حرفيا للشعبيين من عمال المناجم الغربيين ، انظر أيضا :

Ed Boyce and Bill Haywood, Melvyn Dubovsky, *We Shall be All : A History of the Industrial Workers of the World* (Chicago : Quadrangle Books, 1969), 58 - 59 .

ولدراسة ممارستهم لمناوئة الهيمنة بالربط مابين الطبقة والجنس والنوع والمنطقة أنظر :

James F. Pickle, " Race, Class and Radicalism : The Wobblies in the Southern Lumber Industry, " in *At the Point of Production - The Local History of the IWW*, ed. Joseph Conklin (Westport Greenwood Press, 1981), 97 - 111 .

٤ - من المقالات التى تظهر عدم التحول فى الجنوب .

Barbara Jeanne Fields, " The Nineteenth - Century American South : History and Theory, " *Plantation Society* 2, no. 1 (1983) : 7 - 27 and Steven Hahn, " Hunting, Fishing, and Foraging : Common Rights and Class Relations in the Postbellum South," *Radical History Review* no. 26 (1982) : 37 - 64 .

ويمكن أن نعالج هذا النوع من المادة الموضوعية تحت العنوان العريض : النمو غير المتساوى للرأسمالية ، ولكن هذه المقالات تظهر أن التناول التجريدى والمقتصد للموضوع يمكن أن يفقدنا الكثير، فضلا عن أنه يعتبر النمو غير المتساوى أمرا مسلما به دون أن يتساءل عن أسبابه ، وترى هذه المقالات أن أسباب هذا النمو غير المتساوى ترجع جزئيا فى الجنوب إلى المقاومة المحلية لإعادة تأسيس « الحكم الداخلى » وجزئيا إلى موقف الحكومة الفيدرالية التى كانت حريصة على أن تنأى بنفسها عن هذا الصراع الذى عرفه التاريخ فى تطوره باسم الحركة الشعبية ، وكانت الدولة ترى أن عدم الاستقرار يرجع إلى أن فقراء البيض يصفّون أنفسهم مع السود وليس مع الأغنياء البيض ، وهذه القراءة لعدم الاستقرار تحدّ كثيرامن فائدة مختلف الجهود العلمية لمقارنة الولايات المتحدة بالبرازيل أو بروسيا أو إيطاليا أو سائر الأنظمة المنتمية إلى الطريق الإيطالى . إن التناقض الأساسى فى الولايات المتحدة هو التناقض العرقى ، ثم يأتى التناقض الإقليمى ثانيا .

٥ - H.L. Mitchell, *Roll the Union*. (Chicago : Charles H. Kerr Publishing Co., 1987), 76 .

٦ - إن التحليل المفصل لتاريخ الكونجرس يسمح باستقراء مختلف المصالح لرأسى المال الوطنى فى الغرب الأوسط والجنوب مقابل رأس المال الدولى فى الساحل الشرقى .

Elizabeth Sanders, " The Regulatory Surge of the 1970 ' s in Historical Perspective, " in *Public Regulation - New Perspectives on Institutions and Policies*, ed Elizabeth E. Bailey (Cambridge : MIT Press, 1987), 117 - 150 .

وانظر أيضا :

See also, R. F. Bensel, *Sectionalism and American Political Development* (Madison : Univ. of Wisconsin Press, 1984);

وحول نهوض الدولة التنظيمية انظر :

Robert Higgs, *Crisis and Leviathan - Critical Episodes in the Growth of the American Government* (New York : Oxford Univ .

وهيجز مفيد من ناحيتين : لما يقدمه من إحصاءات ، ولمناقشته للأزمة . فالإحصاءات تبين أن الحكومة الآن تستخدم مابين ثلاثة إلى ستة أمثال العدد الذى كانت تستخدمه من العاملين حوالى الحرب العالمية الأولى . والأزمة كما يحددها يمكن النظر إليها باعتبارها لحظات تميزت بصورة خاصة بتفاقم المنافسة داخل الرأسمالية ، الأمر الذى أتاح للدولة - من المنظور الذى نتبناه هنا - فرصا لزيادة دورها التنظيمى .

٧ - العمل الكلاسيكى حول أصول أمريكا الحديثة الذى كتبه :

C. Vann Woodward, *Reunion and Reaction : The Compromise of 1877 and the End of Reconstruction* (Boston : Little, Brown and Co., 1951).

يحدد الكثير من الصفقات المشبوهة التى أدت إلى هذه المساومة ، وكتابه :

Origins of New South, 1877 - 1913 (Baton Rouge : Louisiana State Univ. Press, 1954)

يوضح الصفة غير الجنوبية للجنوب الجديد ، ويقدم إلى جانب كتاب :

W. E.B. Du Bois' major work *Black Reconstruction in America 1860 - 1880* (New York : Harcourt Brace, 1935) .

النقد الأساسى لتاريخ الاتفاق العام فى هذه الفترة ، كما يقدم الكتابان شرحا لأسباب نشوء الدولة الأمريكية كدولة تنظيمية ، ولمعرفة شيئا عن السياق البيروقراطي الذى نما مع نمو هذه الدولة التنظيمية الجديدة انظر :

Stephen Skowronek, *Building a New American State - the Expansion of National Administrative Capacities, 1877 - 1920* (Cambridge : Cambridge Univ. Press, 1982), 15; Robert H. Wiede, The Search for Order, 1877 -1920 (New York: Hill and Wang, 1967); Michael E. McGeer, *The Decline of Popular Politics-The American North. 1865 - 1928* (New York: Oxford Univ. Press, 1986).

وقد أدت البيروقراطية والتنظيم فى السياق الأمريكى إلى ازدياد فى قمع الدولة :

Robert Justin Goldstein, *Political Repression in Modern America-From 1870 to the Present* (Cambridge: Schenkman Publ. Co., 1978).

ويرى جولدشتين أن قمع الدولة للعمل المنظم فيما بين ١٨٧٣ و١٩٣٧ كان فى مثل شدة القمع فى أى بلد غربى أخر أو أشد . ووصل استخدام الجيوش الخاصة والشرطة ضد العمال إلى مستويات فريدة .

٨ - Leon Fink, "The New Labor History and the Powers of Historical Pessimism: Consensus, Hegemony, and the Case of the Knights of Labor, "*The Journal of American History* 75 (June 1988) : 115 - 136

يقدم أيضاً نقدا لوجهة نظر الاتفاق العام .

٩ - 9 - A.T. Lane, *Solidarity or Survival? American Labor and European Immigrants, 1830-1924* (Westport: Greenwood Press, 1987), 76-7;

وحول المزج بين الجانبين العرقى والطبقى فى اثنين من النضالات العمالية الهامة ، اقرأ عرضاً لنضال السود فى مصانع ونستون - سالم وديترويت فى أربعينيات هذا القرن فى :

Robert Korstad and Nelson Lichtenstein, "Opportunities Found and Lost: Labor, Radicals, and the Early Civil Rights Movement, "*The Journal of American History* 75, no. 3 (December 1988): 786-811.

ويرى المؤلفان أنه لم تكن هناك سنوات منسية فى النضال الأسود فى أمريكا حول النضالات الريفية فى الجنوب فى الثلاثينيات والتى سبقت النضالات الحضرية المشار إليها أعلاه فى الأربعينات ، انظر :

Mark D. Naison, "Black Agrarian Radicalism in the Great Depression, the Threads of a Lost Tradition, "*Journal of Ethnic Studies* 1, no.3 (1973): 47-65.

وحول فكرة أنه بالرغم من الهجرة السوداء الكبيرة من عمق الجنوب ما زالت تقوم هناك بيئة نضالية ريفية حتى اليوم . انظر : مقالة نان اليزابيث وودرف القيمة .

Nan Elizabeth Woodruff, "African-American Struggles for Citizenship in the Arkansas and Mississippi Deltas in the Age of Jim Crow, "*Radical History Review* 55 (1993): 33 - 51.

١٠ - Higgs, *op. cit.*, 103.

١١ - Leon Fink, "The New Labor History and the Powers of Historical Pessimism: Consensus, Hegemony and the Case of the Knights of Labor, "*im passim* "

١٢ - Gwendolyn Mink, *Old Labor and New Immigrants in American Political Development - Union, Party and State, 1875 - 1920* (Ithaca: Cornell Univ. Press, 1986), 17, 24, 42, and esp. 263

يلاحظ أن وجود حق الانتخاب مبكرا فى الولايات المتحدة جعل المشاركة والوحدة السياسية سابقة على نشأة الاتحادات النقابية ، بمعنى أنه لم تكن هناك قضية توحد الطبقة العاملة الأمريكية .

١٣ - Mitchell, *op. cit.*, 41

١٤ - John Foster Bellamy, "The Fetishism of Fordism, "*Monthly Review* 39 (no. 10) (1988): 14-33; an example of the critique of consumerism is, Debora Silverman, *Selling Culture-Bloomingdale's, Diana Vreeland, and the New Aristocracy of Taste in Reagan's America* (New York: Pantheon, 1986).

١٥ - يشير Higgs (المصدر نفسه - الفصل الثامن ، إلى تأمين البطالة ، والتأمينات الاجتماعية ، والرعاية الاجتماعية ، ودعم الأسعار الزراعية ، وتنظيم أسواق الأوراق المالية الخاصة .

١٦ - حول دلتا المسيسبى ، انظر وودرف (المصدر نفسه) ، وانظر أيضا :

Frances F. Piven and Richard A. Cloward, *Poor People's Movements-Why They Succeed, How they Fail* (New York: Vintage Books, 1979), 108-110;

وتجد تعليقا على صلات وأصول ثقافة الكنيسة السوداء الجنوبية وسياسات الحزب الشيوعى فى برمنجهام ، الا باما ، عند :

Robin D.G. Kelley , "Comrades, Praise Gawd for Lenin and Them': Ideology and Culture Among Black Communists in Alabama, 1930-1935, "*Science and Society* 52, no. 1 (Spring 1988) : 59-82.

وهذا مثال على استمرار التقليد الشعبى الراديكالى . انظر أيضا لنفس المؤلف :

Hammer and Hoe-Alabama Communists During the Great Depression (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1990). Steve Fraser and Gary Gerstle, eds. The Rise and Fall of *the New Deal Order, 1930-1980* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1990).

١٧ - Steve Fraser, "The' labor Question'," in Fraser and Gerstle, *op. cit.*, 55-81.

١٨ - إن تاريخ وقوف التروستات (الاتحادات الاحتكارية بين الشركات الكبرى) ضد تشريع مكافحة التروستات قد يكون من أفضل السبل لرسم خريطة الصراع بين الرأسمالية الوطنية والرأسمالية الدولية فى الولايات المتحدة . وفرنكلين ديلانوروزفلت شخصية مثيرة للاهتمام فى هذا التاريخ بسبب مساندته للتروستات ولمؤتمر المنظمات الصناعية CIO الذى تميل الصناعات الصغرى فى الرأسمالية الوطنية إلى معارضته . وتجد تعليقا على هذا الصراع التاريخى فى صناعة محددة هى صناعة الفحم عند :

Stanley Vittoz, *New Deal Labor Policy and the American Industrial Economy* (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1987), 80 - 81 esp. 113 .

وفى صناعة الصلب توصل مؤتمر المنظمات الصناعية وشركة يواس ستيل إلى اتفاق فى ١٩٣٧ بعد مفاوضات سرية طويلة . ومن ناحية أخرى ، شرعت شركات الطلب الصغرى بقيادة توماس جيردلر فى تحطيم مؤتمر المنظمات الصناعية .

Joseph G. Rayback, *A History of American Labor* (New York:The Free Press, 1966), 351-2 .

١٩ - Saha G. Lewis, *Slave Trade Today - America's Exploitaion of Illegal Aliens* (Boston : Beacon Press, 1979), 17-19 .

٢٠ - Richard L. Florida and Marshall M. A. Feldman, " Housing in US Fordism, "*International Journal of Urban and Regional Research* 12, no. 2 (1988) : 187 - 210, esp. 189 - 192 .

٢١ - Nelson Lichtenstein, " From Corporatism to Collective Bargaining : Organized Labor and the Eclipse of Social Democracy in the Postwar Era, " in Fraser and Gerstle, *op. Cit.*, 122 - 151; Philip Foner, *Organized Labor and Black Worker* (New York : International Publishers, 1982), 275ff., Florida and Feldman, op. *cit.* 195 ,

٢٢ - Nan Elizaberth Woodruff, " Mississippi Delta Planters and Debates Over Mechanization, Labor and Civil Rights in the 1940's, " *The Journal of Southern History* 60, no. 2 (1994); 263 - 284 .

٢٣ - تشمل المبادرات العمالية فى الستينيات النضالات التى خاضها كثير من العمال الجنوبيين فى مصانع النسيج بفضل النضالات النقابية بعد الموافقة على قانون الحقوق المدنية فى ١٩٦٤ .

Barry Bluestone and Bennett Harrison, *The Deindustrialization of America* (New York : Basic Books, 1982), Ch. 5; Holly Sklar, ed. *Trilateralism* (Boston : South End Press, 1980), CH. 1;

وقديكون صعود نجم جورج والاس حاكم الاباما والمناصر القوى للطبقة العاملة البيضاء صورة مصغرة للوحة الأكبر ، فإن مسيرة والاس ومسيرة الحركة العمالية فى الاباما شهدتا انهيارا حادا حوالى ١٩٧٠ مع تراجع الصناعة التحويلية .

Robert H. Zieger, ed. *Organized Labor in the Twentieth - Century South* (Knoxville : The Univ. of Tennessee Press, 1991), 269 .

٢٤ - Leon Friedman and William F. Levantrosser, eds. *Richard M. Nixon* (Westport : - Greenwood Press, 1991) .

٢٥ - لمعرفة المزيد عن فكرة « الجنوب المختفى » التقليدية ، انظر :

Robert P. Steed et al, eds. The *Disappearing South* (Tuscaloosa:) Univ. of Alabama, 1991) .

٢٦ - Art Carey, *The United States of Incompetence* (Bostsn:Houghton Mifflin, 1991); -

حول الستينيات كفترة شهدت الكثير من الديمقراطية انظر التقرير إلى اللجنة الثلاثية :

Michel Crozier et al, *The Ungovernability of Democracy* (New York : New York Univ. Press, 1975) .

٢٧ - من التعليقات الدالة هنا .

Carlton Rochell, Dreams *Betrayed - Working in the Technological Age* (Lexington : Lexington Books. 1987); Ruth Schwartz Cowan, More Work for Mother - The *Ironies of Household Technology from the Open hearth to the Microwave* (New York : Basic Books, 1983);

ويذكر أن هذه الفترة شهدت - مع فقدان كثير من المزارعيين مزارعهم - أزمة فى الصحة العقلية فى الريف ، وانتحار كثير من المزارعين .

Osha Gray Davidson, *Broken Heartland - The Rise of America's Rural Ghetto* (New York : The Free Press, 1990), 94 .

٢٨ - Elazar Barkan, *The Retreat of Scientific Racism : Changing Concepts of Race in Britain and the United States Between the Two World Wars* (Cambridge : Cambridge Univ. Press, 1992) .

٢٩ - حول التجارة فى المخدرات فى الفترة الأخيرة ، انظر :

Peter D. Scott and Jonathan Marshall, *Covaine Politics - Drugs, Armies and the CIA in Central America* (Berkeley : Univ. of California Press, 1991); drug books on .

وتؤكد الكتب عن المخدرات فى عهد ريجان على أفغانستان وفى عهد جونسون على كمبوديا ولاوس ، وفى كتابات متأخرة عن ذلك يطلق على العلاقة بين الدولة والجريمة المنظمة فى مجال المخدرات اسم « السياسات العميقة » .

٣٠ - من الكتب التى تمثل اليمين الجديد خير تمثيل كتاب :

James Q. Wilson, *Thinking About Crime* (New York : Vintage Books, 1973, 1985) .

٣١ - Michael D' Antonio, *Fall From Grace - The Failed Crusade of the Christain Right* (New York : Farrar, Straus, Giroux, 1989), 66; in

وبالإضافة إلى ذلك لم يكن الأفرو - أمريكيون يُكرهون على شئ فى الجنوب .

Richard A. Couto, *Ain't Gonna Let Nobody Turn Me Round - The Pursuit of Racial Justice in the Rural South* (Philadelphia : Temple Univ. Press, 1991); Nancie Caraway, Segregted Sisterhood - Racism and the *Politics of American Feminism* (Knoxville : Univ. of Tennessee Press, 1991) .

٣٢ - انظر مناقشة حول الجنوب المعاصر عند :

Thomas A. Lyson , *Two Sides to the Sunbelt - The Growing Divergence Between the Rural and Urban South* (New York : Frederick A. Praeger, 1989) .

٣٣ - Marc H. Tannenbaum et al., eds *Evangelicals and Jews in an Age of Pluralism* (Grand Rapids : Baker Book House, 1984), Part Five, on Proselytism .

وهو يرى أن التقارب بين الصهاينة والأصوليين له حدوده ، واتجه الاقتصاديون السياسيون إلى شرح « العلاقة الخاصة » : أولا - كنتيجة للخدمة التى تقدمها إسرائيل إلى الولايات المتحدة فى الخارج جامعةً للمصالح المختلفة

للدولة ورأس المال ، وثانيا – حاولوا شرح نفوذ إسرائيل بإرجاعه إلى نفوذ المجتمع اليهودى الأمريكى ، ولكن ذلك لايوفر إلا مفاتيح قليلة لفهم ارتفاع وهبوط « العلاقة الخاصة » .

٢٤ - Vincent Porter, " The Re - Regulation of Television : Pluralism, Constitutionality and the Free Market in the USA, France, and the Uk, " *Media, Culture and Society* 11 1989): 5 - 27); Razelle Frankl, *Televangelism - The Marketing of Popular Religion* (Carbondale : Southern Illinois Univ Press, 1987), Conclusion;

وحول نمو صناعة الاتصالات فى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والتى لم تكن منظمة آنذاك ارجع إلى :

Ralph Negrine, ed. *Satellite Broadcasting* (London : Routledge, 1988), Chapters 5, 8; for AT&T, Alan Stone, Wrong Number (New York : Basic Books, 1989) .

٢٥ – صدرت مجموعة من المقالات الدراسية عن هذا الموضوع من معهد J. M. Dowsam لدراسات الكنيسة فى جامعة باللور فى واكو ، تكساس :

James E. Wood, Jr., *Religion, The State and Education* (Waco : Baylor Univ. Press, 1984), 36 .

٢٦ - Roy Wallis, " Paradoxes of Freedom Regulation : The Case of the New Religious Movements in Britain and America, " *Sociological Analysis* 48, no. 4 (1988) : 355 - 37; Raskin, op. Cit., 196 .

٢٧ – للحصول على رؤية عامة للتغير فى أمريكا من خلال التاريخ الطويل للحركات الشعبية ، أنظر :

. Harry C. Boyte, *Commonwealth - A Return to Citizen Politics* (New York : The Free Press, 1989) .

٢٨ - يبدو هذا أكثر المواقف اعتدالا تجاه الموضوع ، وربما بسبب الاستثنائية الأمريكية يتخذ كثير من الكتاب الأمريكيون مواقف متطرفة ، فيركزون مثلا على حرية الفكر القصوى فى المجتمع المدنى ، أو على النقيض يركزون على أقصى دور يمكن أن يلعبه القهر – مثلا : باستيعاب السجون لنسبة عالية من المواطنين ، وأيضا هناك على سبيل المثال من يدحضون الاستثنائية من منظورنا تاريخ العمل :

Michael Goldfield, " The Color of Politics in the United States : White Supremacy as the Main Explanation for the Peculiarities of American Politics From Colonial Times to the Present, " in Dominick Lacapra, ed. The *Bounds of Race - Perspectives on Hegemony and Resistance* (Ithaca : Cornell Univ. Press, 1991), 104 ff; .

وفى بواكير التاريخ الأمريكى كان السكان الأصليون هم الفئة العرقية الدنيا بالنسبة للبيض ، وفى القرن التاسع عشر تغير هذا تدريجيا ليحتل الأمريكيون الأفارقة هذا الموضع ، ومن هذه النقطة ، بدأ البيض وآخرون يشكلون بالتدريج وجهة نظر تزداد لطفا وتعاطفا عن ثقافة الأمريكيين الأصليين وكتّابهم .

Michael Castro, *Interpreting the Indian - Twentieth Century Poets and the Native American* (Albuqerque : Univ. of New Mexico press, 1983);

وبعد حركة الحقوق المدنية فى الستينيات حاولت الحكومة فيما يبدو اتباع استراتيجية لإعادة تأسيس الأفرو أمريكيين كفئة عرقية دنيا من خلال إيجاد « أجناس عازلة » وهى مجموعات يمكن أن يستتر وجوه القمع الواقع على الأفرو أمريكيين ، ويبرز من بين هذه المجموعات فى أجزاء مختلفة من البلاد الآسيويون الشرقيون والأمريكيون اللاتينيون والشرق أوسطيون .

٣٩ - حول تاريخ الامريكانية واكتساحها يمكنك الرجوع إلى عمل تبنى تقريبا نفس تقسيم المراحل المستخدم هنا:

Wightman Fox *and T. J. Jackson Lears, eds. The Culture of Consumption* (New York : Pantheon, 1983); Richard Hofstadter, *Anti - Intellectualism in American Life* (New York : Alfred A. Knopf, 1963) .

٤٠ - حول وجهة النظر القائلة أن اليهود فى الولايات المتحدة لم يذوبوا على النحو المتصور ، انظر كتابات :

Leonard Dinnerstein, c. g., *Uneasy at Home : Antisemitism and the American Jewish Experience* (New York : Columbia Univ. Press, 1987) .

٤١ - T. J. Jackson Lears, No *Place of Grace - Anti - Modernism and the Transformation of American Culture* (New York : Pantheon, 1981) .

٤٢ - William Petersen , Michael Novak, and Philip Gleason, *Concepts of Ethnicity* (Cambridge : The Belknap Press, 1982), 79ff .

٤٣ - التفصيلات مستخرجة من :

Burton W. Adkinson, *Two Centuries of Federal Information* (Stroudsburg : Dowden, Hutchinson & Ross, Inc., 1987);

وحول تاريخ مشاهير المنظمين ، انظر كتابات :

Thomas K. Mccraw, *Prophets of Regulation* (Cambridge : The Belknap Press, 1984) .

٤٤ - هذا هو افتراض :

David F. Noble, *America by Design - Science, Technology and the Rise of Corporate Capitalism* (New York : Alfred A. Knopf, 1977) .

٤٥ - *A History of Science Policy in the United States, 1940 - 1985* (Washington : 99 th H. of R. / 2 nd Session/Serial R/Task Force Force on Science Policy, 1986), 7 .

٤٦ - المرجـع السـابق ، وللاطـلاع علـى مثـال عـن انخـراط الحكومة فى تنظيم العلم على المسـتوى الدولى ارجع إلى :

Regulation of Transnational Communication (New York : Clark Boardman Co., Ltd ., 1984) ;

وحول مثل كان التنظيم الحكومى فيه مضطربا فى الثمانينيات ، ارجع إلى :

William B. Ray, FCC (Ames : Iowa State Univ. Press, 1990), Ch. 8 ;

وأكثر اندفاعا كان :

Jeremy Tunstall, *Communication Deregulation* (Oxford : Basil Blackwell, 1986) .

٤٧ - Ruth Schwants *op. Cit* .

٤٨ - Charles Rosenberg, " Science in American Society, " *Isis* 74 (1983) : 356 - 367.

٤٩ - Elazar Barkan, *op. Cit.*, 284 .

٥٠ - Charles C. Mark, *OP. Cit* .

٥١ - Dick Netzer, *The Subsidized Muse - Public Support for the Arts in the United States* (Cambridge : Cambridge Univ. Press, 1978), 3 - 4, 15, 53, 208 .

٥٢ - Gene M. Lyons, *The Uneasy Partnership - Social Science and the Federal Government in the Twentieth Century* (New York : Russell Sage, 1969), 22 ff.; Carlo Antoni, *From History to Sociology* (Detroit : Wayne State Univ. Press, 1959) .

٥٣ - نفس المرجع والمكان .

٥٤ - ظهرت فى هذه الفترة تواريخ ذات منهجية صارمة ، مثلا :

Alvin Gouldner, *The Coming Crisis of Western Sociology* (New York : Basic Books, 1970) .

٥٥ - David P. Szatmary, *Rockin' in Time : A Social History of Rock and Roll* (Englewood Cliffs : Prentice - Hall., 1987), 184 ff .

٥٦ - - Grover Sales, *Jazz - America's Classical Music* (Englewood Cliffs:Prentice - Hall., 1984), Ch. 5; Nicholas E. Tawa, *Serenading the Reluctant Eagle - American Musica; Life, 1925 - 1945* (New Yowk : Schirmer Books, 1948);

أكد هربرت ماركيوز وآخرون من « مدرسة فرنكفورت » الأمريكية أن تقسيم العمل أخرج رجالا على درجة عالية من التخصص ومن ذوى البعد الواحد ، وهم منقسمون بحدة على طول الخطوط العرقية والنوعية ،، ولديهم نتيجة خبرتهم الحياتية الضيقة خيال نشيط وباحث ، وتستطيع الأفلام أن تستثير هذا الخيال وتحفز الأفراد على البحث عن تغيير ، وكانت هذه هى أيضا وجهة نظر برتولد بيخت النظرى الألمانى فى زيارته القصيرة لهوليود ، وبالطبع فإن هوليود ترى على نحو مختلف .

٥٧ - - Aldon Lynn Nielsen, *Reading Race - White American Poets and the Racial Discourse in the Twentieth Century* (Athens : Univ . of Georgia Press, 1988) .

٥٨ - - Nancy Tatum Ammerman, *Baptist Battles* (New Brunswick : Rutgers Univ. Press, 1990), CH. 4 .

٥٩ - Warren French, ed. *The South and Film* (Jackson : Univ. Press of Mississippi, 1981) .

٦٠ - طبقا لمقال أخير عن تاريخ الكلاسيكيات فى الولايات المتحدة ، فإن قضيتى الجنس والنوع أصبحتا الآن قضايا هذا المجال . وقد يكون هذا علامة على نهاية الدور الهيمنى التقليدى للمجال .

Phyllis Culham and Lowell Edmunds, eds. *Classics - A Discipline and Profession in Crisis* (Lanham : Univ. Press of America, 1989), 305 - 6, 314, 317; *Arethusa* (Fall 1989) a Special issue on Marntin' s, Black Athena; Meyer Reinhold, *Classica Americana* (Detroit : W ayne State Univ. Press, 1984), 241, 260 .

٧١ - - Lawence H. Schwartz, *Creating Faulkner's Reputation - The politics of Modern Literary Criticism* (Knoxville : Univ. of Tenn. Press, 1988), 30; Serge Guilbaut, How New Yowk Stole the Idea of *Modern Art : Abstract Expressionism, Freedom and the Cold War* (Chicago : Univ. of Chicago Press, 1983) .

٦٢ - حول السيطرة اللغوية فى المملكة المتحدة ، انظر :

Roger Fowler et al., *Language and Control* (London : Rkp, 1979) ;

وحول السيطرة اللغوية فى الولايات المتحدة ، انظر :

U. S., Cushing Strout, " Tocqueville the Idea of an American Literaturs (1941 - 1971), " *New Literary History* 18 (1986 - 1987) : 115 - 127;

وحول تنمية الثقافة العليا للساحل الشرقى ، انظر :

Lawence W. Levine, *Highbrow/Lowbrow - The Emergence of Cultural Hierarchy in Amirica* (Cambridge : Harvard Univ. Press, 1988) .

٦٣ – كان وقت الحرب هو الاستثناء ، حول الدراسات عن خدمات المؤرخين فى وقت الحرب ، انظر :

Jesse Lemisch, *On Active Service in War and Peace - Politics and Ideology in the American Historical Association* (Toronto : New Hogtown Press, 1975);

وأيضا :

Carol Grubr, *Mard and Minerva - World War I and the Uses of Higher Learning in America* (Baton Rouge : Louisiana Stste Univ. Press, 1975) .

٦٤ – انظر حول الاحباطات فى المهنة :

John Higam, *History* (Baltimore : The John Hopkins Univ. Press, 1986), 6 - 20, esp. 14

٦٥ – Michael Kammen, " Moses Coit Tyler : The First Professor of Americn History in the United States, " *The History Teacher* 17, no. 1 (1983) : 61 - 78, esp. 71 .

ويقارن تيلر (١٨٣٥ – ١٩٠٠) الذى جاء إلى كورنل فى ١٨٨١ بـ : ج .ل سيلى ، انظر الفصل السابق) . وهويُقدّم هنا باعتباره الشخص الذى جاء من خلفية دينية ، ولكنه يؤمن بأن الدولة يجب أن تحمل شعلة الأخلاق العامة (ص ٧٥) . إن ربط الدولة بالدراسة التاريخية كان يعنى فى حالة سيلى أن التاريخ السياسى هو شئ طبيعى ، وبينما أدى هذا الربط فى الولايات المتحدة إلى كتابة التاريخ الأدبى نظر الانتماءات تيلر إلى ثقافة القلب ، ويرى جون هيجام تيلر هو مؤسس التاريخ الثقافى فى الولايات المتحدة ، فهو البشير بالازدهار من بارينجتون .

" The Rise of American Intellectual History, " *The American History Review* 46, no. 3 (April 1951) : 453 - 471, esp. 456 .

٦٦ - Jurgen Herbst, *The German Historical School in Americn Scholarship* (Ithaca : Cornell Univ. PRess, 1965), 125 .

وهو يعلق على سوء وضع الترجمات الألمانية عن الصينية فى السياق الأمريكى ، وحول ثورة الجيل الثانى ، انظر:

Dorothy Ross, " on the Misunderstanding of Ranke and the Origins of the Historical Profession in America,"in *Leopold von Ranke and the Shaping of the Historical Discipline,* eds. Georg G. Iggers and James M. Powell (Syracuse : Syracuse Univ. Press, 1990), 154 - 169, esp. 168 - 9 .

٦٧ - هناك مثل هام للمنظمات ذات الأساس الإقليمى يقدمه :

James L. Sellers, " The Semicentennal of the Mississippi Valley Historcal Association," *The Mississippi Valley Historcal Review* 44 (1957): 494 - 518 .

إن نهضة هذه المنظمة « الجمعية التاريخية لوادى المسيسيبى » ثم تحولها إلى منظمة للمؤرخين الأمريكين كان موازايا لهبوط الهيمنة الثقافية للساحل الشرقى ، وتوجد أمثلة أخرى على العمل الإقليمى بين « التيرزيين الجدد » مثل رأى الين بلينجتون (١٩٠٢ - ١٩٨١) الذى كتب عن الحدود الغربية ، ووالتر سكوت ويب (١٨٨٨ - ١٩٦٣) الذى كتب عن السهول العظمى ، وهربرت يوجين بولتون الذى كتب عن « مدرسة الأراضى الحدودية » ، وديفيد ج ويبر الذى كتب عن « تيرنر والبولتونيين والأراضى الحدودية » .

The Boltonians and Borderlands, " *The American Historcal Review* 91, no. 1 (1986) : 66 - 81 .

ويبدو أن الجناح الدولى عندما ينتقد اليوم التيرنريين لافتقارهم إلى الإحساس بالعرقية أو بالبيئة ، فإنه يواصل بصورة جديدة إنكاره القديم للإقليمية .

William G. Robbins, " The' Plundered Province' Thesis and the Recent Historiography of the American West, " *Pacific Historcal Review* 55 (186) : 577 - 597 .

وعلى النقيض من ذلك هو إردلامار الذى كتب عن « الكثير مما يحتفل به فى ذكرى مرور ٢٥ عاما على قيام جمعية التاريخ الغربية .

Western Historcal Quarterly 17, no. 4 (1986) : 397 ff .

وعموما ، فإن كتّاب ثقافة القلب يميلون إلى إعطاء وجهة نظر أكثر تعاطفا عن الحركة الشعبية مما يفعل الدوليون :

Roger D. Launius, " The Nature of the Populists: An Historiographical Essay," *Southern Studies* 22, no. 4 (1983) : 366 - 85 ;

وتأتى وجهة نظر أخرى عن كتابة من جمعيات التاريخ المحلية :

David J. Russo, *Keepers of Our Past - Local Historical Writing in the United States, 1820' s - 1930' s* (Westport : Greenwood Press, 1988) .

- David Glassberg, " History and the Publoic : Legacies of the Progressive Era, " – ٦٨
The American Historcal Review 73, no. 4 (1987) : 957 - 980, esp. 957 ;

وهنا تعقيب آخر على محاولة التاريخ العام احتلال الأرض التى فقدها المؤرخون التقليديون يأتى جانب :

G. Wesley Johnson, " Professionalism : Foundation of Public Historcal Instrucion," *The Public Historian* 9, no. 3 (Summer 1987) : 96 - 110 ;

وقد أذيعت على الهواء مناقشة ممتعة بين المؤرخين الحكوميين والمؤرخين الأكاديميين فى :

" Roundtable - Government - Sponsored Research : A Sanitized Past ? " *The Public Historian* 10, no. 3 (Summer 1988) : 31 - 58 .

وكانت المقدمة التى انطلقت منها المناقشة هى حرية أصحاب البرج العاجى وعدم حرية العاملين لمنظمة ما ، وهى مقدمة تحتاج للمزيد من المناقشة ، ففى الدرجات الدنيا من الأجهزة الحكومية لاتجد الإدارة حاجة إلى أن تجعل من وحول الجهود الواهية نوعا للجمعية التاريخية الأمريكية لاجتذاب الجنوب ، يوضح :

David D. Van Tassel, " The American Historcal Association and the South, 1884 - 1913.," *The Journal of Southern History* 23 (1957) : 465 - 482 ;

إن السياسات التى طرحتها الجمعية فى فترة تعود إلى ١٨٩٥ حددت إطار مهنة التاريخ بما يقضى على الراوبط مع الجمعيات التاريخية المحلية وكتّاب التاريخ الشعبيين لصالح أساتذة الجامعة ، خصوصا أولئك الذين من جامعات كبرى .

John Higham, " Herbert Baxter Abams and the Study of History, " *The American Historcal Review* 89, no. 5 (1984) : 1225 - 1239, esp. 1237 .

وهذه السياسات التقييدية كان لها أثر أيضا فى تأخير دخول النساء إلى المهنة ، حيث إن معظم المؤرخات كنّ حتى بداية القرن معينات فى كليات صغرى وفى المدارس النسوية .

Kathryn Kish Sklar, " American Female Historians in Context, 1770 - 1930," *Feminist Studies* 3 (Fall 1975) : 171 - 184 .

وكانت فرضية شكل أن النساء أجُبرن على أن يكّن معا ، وأدى هذا فى وقت ما إلى تشكيل مؤتمر بيركشير فى ١٩٣٠(ص ١٧١) . وتعكس سيرة مارى بيرد وهى مؤرخة بارزة من الفترة التقدمية عددا من الانتقادات للوضعية التى كانت تسيطر على المهنة والخاضعة للسيطرة الذكورية .

Bonnie G. Smith, " The Contribution of Women in Modern Historiography in Great Britain, France and the United States," *The American Historical Review* 89 (1984) : 709 - 732, esp. 731 - 2 .

ولكن كان هناك اتجاه اخر فى المهنة على مبعدة من الجمعية التاريخية الأمريكية ظهر فى تأسيس The *Journal of Negro History* فى ١٩١٦ على يد كارتر . ج . وودسون وجون هوب فرانكلين .

" On the Evolution of Scholarship in Afro - American Historiography, " in *the State of Afro - American Historyl*, ed. Darlene Clark Hines (Baton Rouge : Louisiana State Univ. Press, 1986), 14 .

فى ثلاثينيات القرن الحالى فقدت الجمعية التاريخية الأمريكية نفوذها على التعليم فى المدارس الثانوية لحساب مدارس التعليم الناشئة حديثا . وخلال هذه الفترة رفضت الجمعية الاعتراف بصلة العلم الاجتماعى بالتاريخ ، وكان أساتذة التاريخ يتعطفون فى تعالٍ على المدرسين :

Truman Beckley Brown, " The American Historical Association and the Schools : A Study of Condescension," (Ph. D.. diss., SUNY - Buffalo, 1985); James T. Kloppenberg, " Review Article - Objectivism and Historicism : A Century of American Historical Writing," *The American Historical Review* 94, no. 4 (1989): 1011 - 1030, esp. 1013 - 1014, a review of Peter Novick, *That Noble Dream* .

وأخيرا ، فإن الجمعية التاريخية الأمريكية فقدت أرضا لحساب الدراسات الأمريكية ، انظر :

Finally the AHA lost ground to American Studies, see Philip Gleason, " World War II and the Development of American Studies," *American Quarterly* 36, no. 3 (1984):343- 358,

ومع اعتراف جليسون بأهمية صدور the *American Quarterly* فى ١٩٤٩ وتشكيل جمعية الدراسات الأمريكية فى ١٩٥١ ، فإنه يؤكد أهمية المرحلة « قبل المؤسساتية » بالنسبة للدراسات الأمريكية منوها بتأثير البذور التى زرعها فيرنون بارينجتون ، وقد وقعت الدراسات الأمريكية -شأنها شأن التاريخ نفسه-فى مصيدة دراسات الاتفاق العام:

Gene Wise, " Paradigm Dramas' in American Studies : A Cultural and Institutional History of the Movement, " *American Quarterly* 31, no. 3 (1979) : 293 - 337 .

٦٩ - Victor Gondos, Jr., *J. Franklin Jameson and the Birth of the National Archives, 1906 - 1926* (Philadelphia : Univ. of Pennsylvania Press, 1981) .

٧٠ – أوضح :

George T. Blakey, *Historians on the Homefront - American Propagandists for the Great War* (Lexington : Univ. of Kentucky Press, 1970) .

الخدمات التى قدمها مختلف الأساتذة لدعاية وقت الحرب فى المجلس الوطنى للخدمة التاريخية من وضع الكتيبات وإلقاء الخطب والعمل كرقباء وقد جاء اتهامهم بـ « النزوع إلى العزلة » فى الفترة التالية للحرب مباشرة فى أعمال لثقافة القلب مثل :

Harry Elmer Barnes, *The Genesis of the World War : An Introduction to the Problems of War Guilt* (New York, 1926), Cited by Blakey 135 .

ولكن مؤرخا واحدا منهم على الأقل هو جاى نستانتون فورد تحدى سنوات النقد والاتهام وعاش طويلا بما يكفى ليعود للعمل فى إدارة الحرب فى عام ١٩٤١ ، ومع الحرب العالمية الثانية اعتمدت الحكومة على وسائل الإعلام أكثر كثيرا مما فعلت من قبل : أنظر أيضا الهامش ٦٣ السابق .

٧١ - Michael Kraus and David D. Joyce, *op. Cit.*, 240 ff.; Bernard Sternsher, " The Critical Response to Consensuse History, " *Consensus, Conflict, and American Historicans* (Bloomington : Indiana Univ. Press, 1975), 70 ff .

حول ادعاء كل من مدرستى الاتفاق العام والصراع انتساب Hapartadter إلى طريقتها ، انظر

Susan Stout Baker, Radical Beginnings - *Richard Hofstadter and the 1930's* (Westport : Greenwood Press, 1985), Introduction .

وحول التعليقات التى ترى وجود استمرارية بين التقدمية وحقبة الاتفاق العام مناقشة :

Hofstadter's attraction to Beard, Ian Tyrrell, *The Absent Marx.* (Westport : Greenwood Press, 1986), 96 .

وإشارة تيريل الرئيسية إلى الطبيعة الاستقطابية غير العادية للتاريخ الرسمى الليبرالى الأمريكى ماهى إلا طريقة أخرى لتشكيل الزعم الوارد هنا عن استمرارية الاتفاق العام :

Allen F. Davis and Harold D. Woodman, *Conflict and Consensus in Early American History* (Lexington : D. C. Heath & CO., 1988), 7 th Edition, 11 .

٧٢ - - Victor S. Navasky, *Naming Names* (New York : Viking, 1980);

واجه الاشتراكيون فى صفوف المؤرخين الأمريكيين كثيرا من التطهيرات ، ويناقش Jesse Lemisch فى المرجع السابق قضية المؤرخين الأمريكيين الكبار الذين نشطوا فى التطهيرات فى ستينيات القرن الحالى ، وحول المزيد من الأمثلة الأخيرة ، انظر :

Geoff Eley et al., " The David Abraham case, Ten Comments From Historians, *Radical History Review* 32 (1985) : 75 - 95 ;

وللتذكير بتهديدات وجهها أرثر شليزنجر وبيتى . ل . فلابلاند ، انظر :

" Revisionists Vs. Abolitonists : the Historiographical Cold War of the 1930's and 1940's," *Journal of Early Republic* 6 (Spring 1986): 1 - 21, esp. 18 - 21 .

٧٣ - يمكنك أن تجد وجهات نظر الحرس القديم من المؤرخين فى :

- Oscar Handlin, *Truth in History* (Cambridge : Belknap Press, 1979).

ويكره هاندلين الطائفية ، وأن يتنكر المرء لأستاذه ، والنمط الجديد فى كتب العرض ، وطريقة تجنب إصدار الأحكام والاكتفاء بتعيين الاتجاه ، وزيادة برامج الدكتوراه فى التاريخ .. إلخ وفى ملاحظة تتصل بالموضوع يعارض عدد من الحرس القديم التعميم فى كتابة التاريخ . ومن هؤلاء :

Louis Gottschalk, ed. *Generalization in the Writing of History* (Chicago : Univ. of Chicago Press, 1963); Maurice Mandelbaum, *The Anatomy of Historical Knowledge* (Baltimore : The John Hopkins Unv. Press, 1977) ;

إن المعرفة بتاريخ مهنة التاريخ مازال حتى الآن يعتمد إلى حد كبير على هذا الجيل الأقدم :

John Higham, *History : Professional Scholarship in America*, (Baltimore : The John Hopkins. Press, 1986), Epilogue; Peter Novick, *That Noble Dream - The ' Objectivity Question' and the American Historical Profession* (Cambridge : Cambridge Unv. Press, 1988) Ch. 13. Novick's theme .

إن فكرة نوفيك حول مسألة الاستهدافية هى طريقة مفيدة لتحديد ملامح الصراع فى ميدان محدد من المعرفة ، وهى بصفة عامة أن الخلافات الأبستمولوجية (المعرفية) تشير إلى خلافات سياسية . ومن المحتمل هنا أنها تشير إلى الصراع بين الرأسمالية الوطنية والرأسمالية الدولية .

٧٤ - ;.Gene Wise, " 'Paradamas' ... " 301 ff ويلاحظ وايز تأثير زيادة الكونفو البلچيكى على كل مسيرة بيرى ميلر اللاحقة ، كما يربطه ببارينجتون .

٧٥ - Melvyn Stokes, " American Liberalism and the Neo - Consensus School," *Journal of American Studies* 20, no. 3 (1986) : 449 - 460 ;

وحول أمثلة أخرى لبناء الجمعية التاريخية الأمريكية لفكرة الاتفاق العام ، انظر : Darlene Clark Hine, *op. Cit.*. فهل تتطلع الجمعية لتصبح وكالة حكومية تنظيمية

٧٦ - Robert Hewison, *The Heritage Industry : Britain in a climate of Decline* (London, 1987) .

٧٧ - من الأمثلة البارزة للكتابة الجديدة :

Gary B. Nash, *Red, White and Black : The Peoples of Early America* (Englewood Cliffs : Prentice - Hall, 1974) ; James H. Merrell, " Some Thoughts on Colonial Historians and American Indians, " *William and Mary Quarterly* 46, no. 1 (1989) : 94 - 119, esp. 96; two other revisionist

ومن الكتاب المراجعين الآخرين جيمس اكستيل وفرانسيس جينينجز . وكان الأخير مؤلف ثلاثة كتب هامة فيما بين ١٩٧٥ و١٩٨٨ حول إساءة تصوير الهنود الأمريكيين في التاريخ ، انظر أيضا أعمال الأثريين التاريخيين :

Such as Bruce Trigger " American Archeology as Native History : A Review Essay, " *William and Mary Quarterly* 40, no. 3 (1983) : 413 - 452 .

٧٨ - David D. Hall, " On Common Gronud : The Coherence of American Puritan Studies," William and Mary Quartely 44, no. 2 (1987) : 193 - 229 .

٧٩ - Colin Gordon, " Crafting a Usable Past : Consensus, Ideology and Historians of the American Revolution," *William and Mary Quartely* 46, no. 4 (1989): 671 - 695;

ويرى مراقب آخر أن إنكار مدرسة بايلين للصراع كجزء من الثورة لايعدو أن يكون وقفا تقليديا اتخذه الموالون للحكم البريطاني في مواجهة المؤرخين الوطنيين في فترة الثورة نفسها :

Merrill Jensen, " History and the Nature of the American Revolution," in *The Reinterpretation of Early American History* ed. Ray Billington (San Marino : The Huntington Library, 1966) 101 - 128, esp. 122,

ومن الواضح أن جنس لايوافق على هذا الرأي . وتجد أمثلة على استمرار استخدام منهج الصراع في :

Alfred F. Young, ed. *The American Revolution : Explorations in the History of American Radicalism* (Dekalb : Northern Illinois Univ. Press 1976) ;

إن مايميز بوضوح التاريخ الذى لاينحدر إلى مجرد اتفاق عام وتراث أنه مفتوح إلى درجة ماالتجربة العقلية . ويرى مراقب أمريكى تشوب لهجته رنة كآبة أن هذا هو حال التاريخ الدينى الأوربى ، انظر :

Jon Butler, " The Future of American Religious History : Prospectus, Agenda, Transatlantique Problematique," *William and Mary Quarterly* 42, no. 2 (1985) : 167 - 183 .

80 - Eric Foner, " The Causes of the American Civil War : Recent Interpretations and- ٨٠ New Directions, " *Civil War History* 20, no. 3 (1974) : 197 - 214, esp. 199.;

وحول إعادة البناء ، انظر :

John Hope Franklin, " Mirror for Americans : A Century of Reconstruction History," *The American Historical Review* 85, no. 1 (1980) : 1 - 14

وهو يعطى انطباعا بانه لم يتغير إلا قليلاً فى هذا المجال منذ القرن التاسع عشر ومع أن كتّاباً ليسوا بوضوح من دعاة العزل العنصرى ، فإن تحاملهم على منهج نموذج الصراع يجعلهم يتداخلون ويتشابكون مع « مدرسة دننج » التقليدية ، وعلى سبيل المثال ، فإن « صدمة » الستينيات مازالت تسمى « إعادة البناء الثانية » ، إن السود إذا احتلوا مكانا أكثر بروزا فى هذا النموذج التفسيرى فلابد أن ينهار :

Armstead L. Robinson " The Difference Freedom Made : The Emancipation of Afro - Americans," in Hine, *op. Cit.*, 51 - 90 .

- August Meier and Elliott Rudwick, *Black History and the Historical Profession, 1915 - - 1980* (Urbana : Univ. of Illinois Press, 1986), 258 - 265 . ٨١

عندما شرد جينوفيز فى السنوات الأخيرة عن التيار الماركسى الرئيسى فى الشمال تعرض لمختلف الانتقادات ، انظر مثلا :

Susan F. Feiner, " Property Relations and Class Relations in Genovese and the Modes of Production Controversy, " *Cambridge Journal of Economics* 10 (1986) : 61 - 75 ;

وتوضح الكتابات عن جينوفيز الطبيعية التى لم تحل للجنس والمنطقة فى الفكر الراديكالى الأمريكى . وكان من أشهر الكتاب الذين واجههم جينوفيز .. هوبرت جوتمان ، وهو ليبرالى راديكالى ، وممثل عنيد لوجهة نظر الساحل الشرقى فى التاريخ الأمريكى .

وفى عرض لمناظرة مشهورة بين جوتمان وجينوفيز أعطت المحررة للأسف وزنا أكثر مما يجب للشخصيات :

Ira Berlin, ed. *Power and Culture* (New York : Pantheon, 1987), 55 - 9;

ولكن أيان تيريل (فى المرجع السابق ص ٢٠٩ ومابعدها) غطى هذه المناظرة بصورة أكثر فائدة ، أما بربارا جان فيلدز فهى متأثرة بجينوفيز وتحمل نفس خطة الفكرى ، انظر لها :

Slavery and Freedom on the Middle Ground : Maryland During the Nineteenth Century (New Haven : Yale Univ., 1985) .

وهى ترى أن التاريخ الحديث لماريلاند نشأ من ازدواجية النظام الاقتصادى الجامع بين العبودية والحرية ، وهو تفريغ من الصورة التى رسمها جينوفيز للاقتصاد السياسى للولايات المتحدة ككل . وترى نان اليزابيث وودرف فى كتابها:

Nan Elizabeth Woodruff, *As Rare as Rain - Federal Relief in the Great Southern Drought of 1930 - 31* (Urbana : Univ. of Illinois Press, 1985)

فى انهيار المساعدة الذاتية الإقليمية التطوعية رد فعل مناسب للأزمة مشيرة إلى مشكلتى الجنس والنوع اللتين لم تحلا .

٨٢ – من أمثلة الكتاب الداعين إلى منهج أكثر تكاملا وأكثر سياسية :

Eugene D. Genovese, " The Political Crisis of Social History : Class Struggle as Subject and Object, " in *Fruits of Merchant Capital*, eds, Elizabeth Fox - Genovese and Eugene D. Genovese (New York : Oxford Univ . Press, 1983), 179 - 212; J. Morgan Kousser, " Restoring Politics to Political History, " *Journal of Interdisciplinary History* 12, no. 4 (Spring 1982) : 569 - 595 .

الخـــاتمة

سعت الفصول السابقة لبناء تاريخ للعالم الحديث أخذا بمنطق التاريخ الاجتماعى، وتبدو هذه الفكرة معقولة إذا وضعنا فى الاعتبار الاتجاه الذى يتحرك فيه نظام المعرفة التاريخية ؛ وهى – وإن كانت تتصدى لمهمة غير مسبوقة ، فكرة ممكنة بعد أن أصبح هناك شئ من الاعتراف العام بأن مشكلة المركزية الأوربية – العقبة الكبيرة أمام التاريخ الاجتماعى ، أخذت تتضح فى الفكر العام ، فكيف لمثل هذا العمل أن يضرب بجذوره فى النظرية ؟ وكيف يمكن القيام به ؟

لقد بدأتُ بفكرة أن كثيرا مما كنت أحاول تحليله يصطلح علماء الاقتصاد السياسى على أنه مراحل من الرأسمالية المالية . ولحسن الحظ أو لسوئه ، كنت أحاول أن أفعل ذلك من نقطة متميزة للرؤية هى الحياة فى ظل رأسمالية مالية . ولم يخلُ هذا من شئ من النزق . فقد درجت نظرية الاقتصاد السياسى طويلا على أن تقيم أساسها على دراسة الرأسمالية الصناعية ، والآن أصبحت – نتيجة لتغير الوضع – لاتعمل بالكفاءة المطلوبة ،وذلك هو أحد أسباب أهمية وجود نظرية أخرى فى السنوات الأخيرة . لماذا – إذن - لاأحاول أن أستفيد من هذا الوضع ؟ فليس متاحا لكل فرد أن يعيش حتى يشهد « المعتقدات القويمة وهى تتخبط فى الفوضى » ! من هنا نبتت فكرة دمج أجزاء من جرامشى وفوكو لصياغة نقد للمركزية الأوربية ، ثم استخدام التاريخ الاجتماعى لتجاوزها .

كيف يتجاوز المرء المركزية الأوربية ؟ وكيف يستطيع أن يحرك مركز الجاذبية فى تاريخ العالم إلى حيث توجد الكتل السكانية وإلى حيث وصلت ؟ وكيف يستطيع أن يجعل من هذه الكتل جزءا هاما من موضوع تاريخ العالم ؟ هذه أمور لها وزنها وتستحق المناقشة .

غير أنى أشك فى أنها تُناقش فعلا ، وربما يعتقد غالبية المؤرخين أن هناك حلا قائما فعلا لهذه المشكلات ، ولذلك فإن المزيد من الانشغال بها ليس ضروريا ، والحل الذى يشير إليه المؤرخون هو نموذج النظام العالمى حيث تؤول غالبية سكان العالم إلى أن تكون جزءا من الأطراف . إننى أرفض هذا الحل لأنى لاأعتقد أن غالبية سكان العالم يمكن أن تكون جزءا من الأطراف ، أو أن هذه الأغلبية يمكن شرحها جيدا

بمصطلحات السوق الرأسمالية العالمية ، طالما أنها تتكون من الفلاحين وسكان الأحياء الفقيرة الحضرية .. يعنى أنها مجموعات خارج السوق إلى حد بعيد .

لقد أوضحت كتابات جرامشى ومن بعده فوكو أن السلطة تنتشر على نطاق واسع فى المجتمع الإنسانى ، ولذلك فإن الجدل / الديالكتيك / الحقيقى للمجتمع الحديث لمّا يوضع بعد . ومازال التاريخ اليوم " وحتى الاقتصاد السياسى " فى ضوء ميراث المركزية الأوربية مغلقين على مفهوم النخبة والجمهور بما يحول دون تقرير الناس العاديين فى التاريخ .

إن التاريخ الرسمى الآخذ بالمركزية الأوربية لايعتمد فقط على الأفكار الاجتماعية الاقتصادية المستقرة منذ وقت طويل ، مثل المركز والمحيط والنخبة والجمهور وإنما أيضا على الفروض الثقافية المستقرة منذ وقت بعيد ، وعلى سبيل المثال فكرة الحداثة ، أو على الأقل فكرة عن الحداثة . وهذا بالطبع يتطلب شيئا من إعادة التفكير . ولايكاد يكون هناك مفر من أن تساعد المرء فكرته عن الحداثة وكذا أفكاره عن المركز والمحيط والنخبة والجمهور فى أن يحدد أين يقع التاريخ ؟ ولماذا يجب أن يكون هناك ؟ ولماذا ليس هناك شئ آخر : التقليدى أو البدائى أو القديم ؟ ولماذا يجب ألا يكون هناك هذا الشئ الآخر ؟ كيف يمكن تسخير فكرة مثل الحداثة مثلا لخدمة مشروع جعل التاريخ علما يعنى بدراسة الناس ؟ كانت أول فكرة طرأت لى فى مثل هذه الدراسة أنه قد يكون مفيدا النظر إلى الحداثة باعتبارها إعادة ترتيب لما كان من قبل ؛ أكثر منها نفيا كليا له فغالبية الناس لايتنكرون لماضيهم بمثل هذه السرعة . وبدا أن الخيار هنا هو نبذ مفهوم الحداثة أو توسعته وبدا أن نبذه غير منطقى نظرا لاستمرار النظام الذى أنشأه ودَفَعه وهو نظام الدولة القومية ، وكان القرار الذى توصلت إليه هو محاولة توسيع المفهوم ، وهكذا فعوضا عن مساواة مفهوم الحداثة بثقافة الوضعية على نحو ماقدمتها حركة الاستنارة الأوربية ، أو على غرار منطق الرأسمالية الصناعية ، أو مساواته بفكرة التقدم على نحوما هو شائع . حاولت أن أبين أن الحداثة تكمن فى جدل بين الوضعية واللاوضعية . وهو جدل يستمر بصور مختلفة فى أمم – دول مختلفة ، وأنا أفترض أنه كلما زاد هذا الجدل غنىً اغتنت الحداثة ، وكلما ضعف تسطحت الحداثة وأصبحت أكثر آنية .

استتبع تخريج هذه الأفكار مايسميه المؤرخون المعالجة المراجعية .

واتخذت مراجعيتى صوّرة الهجوم على فكرة أن أوربا اليوم هى بنت طبعة الاستنارة / الصناعية من الحداثة ، ويظهر هذا الكتاب أن أوربا الحديثة هى أكثر تنوعا من أن يقال إنها وريثة لأى تقليد واحد . ونتيجة لذلك ، فإن وحدة التحليل الأدق هى مجموعة تحليلات للبلدان التى تتألف منها القارة ، وليس تحليلا واحدا شاملا لأوربا كلها . وعندما يحلل المرء البلدان المنفردة يصبح ممكنا ظهور سوسيولوجيا تاريخية متوسطة المستوى تقارن بها البلدان ذات الهيمنات المتشابهة ببعضها البعض سواء أكانت فى أوربا أم فى العالم الثالث أم فى كليهما .

كيف يبدأ المرء - إذن - مثل هذا الكتاب ؟ وأين تبدأ الحداثة على النحو الذى شرحناه ؟ وكم يكون نصيبها منه ؟ منذ جيل مضى حلّ المؤرخ ومنظّر الاقتصاد السياسى الإنجليزى أريك هو بسباوم مشكلة تحديد نقطة الانطلاق للتاريخ الحديث باختيار ثورة القرن الثامن عشر الصناعية فى إنجلترا . ولكن تاريخ العالم الاجتماعى المكتوب اليوم يظهر أن حل هذه المشكلة يكمن فى اكتشاف أن الحداثة كما تجسّدت فى نظام الدولة القومية الرأسمالية بدأت بعد قرن لاحق . أى فى الفترة من ستينيات إلى تسعينيات القرن الماضى ، وأنها لم تبدأ بنهوض الرأسمالية ، بل بانتشارها فى البلدان - وخصوصا الرأسمالية فى تلك الفترة - ونتج عن هذا عملية إعادة صياغة كبرى لاستراتيجيات الحكم السياسية ، وبالتالى اقتصاد سياسى جديد ، وأصبح على النخب السياسية للمرة الأولى أن تنصح باستراتجيات شاملة لنزع فتيل الصراع الطبقى ، لقد بدأ النضال الجماهيرى الذى يسم بطابعه التاريخ الحديث .

إن الكتاب يحدد أربع استراتيجيات كبرى للحكم - أربعا فقط - ظهرت فى هذه الفترة ، كلا منها بأشكالها المميزة من الجدل الثقافى الذى ظهرت منه مختلف العقلانيات والعلوم والفنون والآداب والتواريخ وأشكال الذوق العام التى نعدها جميعا ثقافاتنا الحديثة . وإلى جانب ذلك ظهرت أيضا حركات مضادة للهيمنة ؛ حركات تناضل للإطالة بهذه الهيمنات ، حتى أصبح العالم كله عند هذه النقطة كيانا كليا غير ممركز يتألف من هيمنات ومضادات للهيمنة .

إن اكتشاف أن هناك أربعة أشكال مستقرة فقط من الهيمنة يبدو أنه يفتح الباب فى المدى القصير لا لدراسة عدد من البلدان أكبر مما حاولتُ هنا فحسب ؛ وإنما أيضا لدراسات فى القضايا ، كما صاغتها حقيقة اشتراكها فى هذه الهيمنات المختلفة ، وربما

كـانت هـذه النقطة الأخيرة هى التى تحظى بـأكبر قدر من الجدّة وتستحق أعظم اهتمام . وفى الصفحات التالية أشير إلى عدد من موضوعات الأبحاث تتراوح بين الدراسات عن المرأة والدراسات العرقية والدراسات اليهودية .. إلخ ، وكلها موضوعات مسها هذا الكتاب مساً رفيقا ، ولكنى أود بمناسبة هذه الخاتمة أن أشير إلى أنها قد تستفيد من تطبيق معالجة منهجية مقارنة . كما أود أن ألفت النظر إلى عدد من الموضوعات التى ظهرت فى الكتاب ، وكان لها أهمية كبيرة ، ولكنها لم تنل حقها ، وهى تتطلب مزيدا من البلورة النظرية أكثر مما كان ممكنا هنا . ومن أمثلة هذه الموضوعات الدراسة المقارنة للعنف ودراسة هيمنات « الطريق المختلط » وأختم هذا المقال بانطباعات عمن - بخلاف الأكاديميين - يمكن أن يجد هذا العمل مفيدا . وفى رأيى أنه يمكن أن يساعد فى ممارسة الدبلوماسية أو فى أنشطة حقوق الإنسان .

يبدأ الكتاب بدراسة عن الطريق الروسى ، نوع من الهيمنة يخفى فيه الحكام الصراع الطبقى تحت قناع إيديولوجية فئوية . وفى مثل هذه النظم يكون لعضوية المرء فى الفئة الحاكمة - النومينكلاتورا أو الحزب - معنى موضوعى تفتقر إليه الفئة فى البلدان التى تحتل فيها مكانا ثانويا ، والتى يجد فيها المرء الفئات مخترقة بفئات أدنى منها مثلما نرى فى الهند ، وقد اخترت بلدان لتمثيل الطريق الروسى : روسيا والاتحاد السوفيتى والعراق . وكان البلد الأول هاما بصورة خاصة بسبب اكتشاف أهمية الهيراركية العقائدية كجزء من الفئة الحاكمة فى كلتا الفترتين الروسية والسوفيتية ، وبشكل أكثر عمومية بسبب دور البلد لوقت ما كقوة عظمى ، أما العراق فكان بلدا مفيدا فى مغايرته لإظهار جوانب المقارنة فى مثل هذه المناقشات ، وفى بعض القضايا التى اختُصّ بها بسبب من شرقيته ، وللعراق أيضا نخبته العقائدية التى قليلا ماتصدى لها المؤرخون بالدراسة ،كما أنه امتُحن أيضا بنزعة القوة العظمى .

لاشك أن انشغال العلماء التقليدى بالقوى العظمى ودورها فى التاريخ له مايبرره. ولكن السؤال هنا ماذا يعنيه هذا المصطلح (القوى العظمى) فى مجال جديد مثل التاريخ الاجتماعى ؟ وما خلصت إليه هذه الدراسة كان إبراز أن الاستخدام السائد للمصطلح بكل مايتضمنه حول الاقتصاد القوى والتكنولوجيا المتقدمة كان له معنى من معانى التاريخ الاجتماعى . وأن القوة العظمى هى بلد من أى هيمنة لديه مايكفى من التعاون الطبقى بين العمال والحكام بما يسمح بالنمو والتغيير التكنولوجى والتوسعية ، وأن مثل هذه البلدان تنزع لقلة عددها إلى أن تكون فى قلب السوق العالمية ، وإلى أن تكون أكثر البلدان ولعا بالقتال فى العالم ، ويوفر هذا الكتاب نظرة

لاعلى نهوض وسقوط اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية فحسب ، وإنما أيضا على العراق والمملكة المتحدة والبلدان الثلاثة أمثلة مباينة للولايات المتحدة ؛ حيث الانهيار مايزال فى بدايته .

ومواصلة لهذا الاستطراد فى الحديث عن نزعة القوة العظمى نقول : إن اليابان تشكل هنا تحديا لهذه الدراسة ، ولهذا لم تحظ فيها بمساحة تستحقها ، لا بسبب قضية القوة العظمى فحسب ؛ ولكن أيضا بسبب نوع الهيمنة فيها ، أن الهيمنة فى اليابان تبدو مزيجا من طريقين مختلفين ، ففيها عناصر من الطريق الروسى تتمثل فى العلاقة بين نخبة طوكيو وسائر البلاد ، ولكن هناك عناصر أخرى كثيرة أيضا ، فهذه الفئة الحاكمة تنم عن مشاعر عنصرية تجاه الأجناس « الأدنى » وهى مشاعر لم تتغير حتى عندما عاشت هذه المجموعات وعملت فى اليابان وتمكنت من لغة وثقافة الفئة المسيطرة ، إنها مشاعر يمكن أن نربطها بمثيلتها فى دول الطريق القبلى - العرقى . ويُفترض هنا أن الدراسات المبنية على هذه الدراسة سوف تستطيع مستقبلا أن تظهر - نتيجة لذلك أن اليابان - وربما الصين أيضا - هما برهان محتمل على طريق مختلط يعنى برهانا على صورة من التحليل الاقتصادى والسياسى أكثر تعقيدا مما تم تقديمه هنا .

أما معظم البلدان الأخرى فتبدو - على سبيل المغايرة - أسهل فى دراستها ، أنها قد تجمع بين أنواع مختلفة من الهيمنة ، ولكنها تفعل ذلك بطريقة تسيطر فيها بوضوح هيمنة واحدة فقط . فمثلا توجد عناصر ثانوية ، ولكن مقبولة من القبلية فى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة . ولكن هذين البلدين حاسمان فيما يتعلق بالهيمنة السائدة ، ومصر هى من بلاد الطريق الإيطالى ، ولكن بها عناصر ثانوية من الطريق الروسى فى سياستها الثقافية وفى جهودها للمركزة البيروقراطية .

تبقى نيجيريا وأندونيسيا علامتى استفهام ، ومن المحتمل أنهما أيضا مثالان على هيمنة من الطريق المختلط ، ولهذا لم نتعرض لهما ، وتبدو نيجيريا فى معظم الأحيان كدولة من الطريق القبلى - العرقى مثل كثير من البلدان الأفريقية الأخرى ، ولكن نيجيريا فى مدنها الجامعية الجنوبية تساند ثقافة وضعية فى مجالات مثل التاريخ تتجاوز كثيرا مثيلاتها فى دول الطريق القبلى - العرقى الأخرى ، فهل يمكن أن يكون الجنوب الجغرافى فى نيجيريا ، مثل الجنوب البرازيلى- نظيراً تحليليا للشمال فى طرق

الطريق الإيطالى ، ومن ثم يكون فهم نيجيريا من خلال العرقية وحدها طريقة لإخفاء القمع الواقع على الجنوب التحليلى ؛ أى على الكتلة السكانية من الهاوسا فى الشمال الجغرافى ؟ ألم يضطر الهاوسا طوال القرن الماضى إلى الهجرة بحثا عن العمل باستمرار ؟ ألايتمركز فى الجنوب الجغرافى مجتمع يحكمه القانون ، وله هيكل طبقى حديث .. إلخ ؟ وقد يكون هذا هو الحال فى أندونيسيا أيضا ؛ فمن ناحية هناك الرأسمالية « الشمالية » فى جاوه مقابل الإقطاعية « الجنوبية » فى بالى ، ومن ناحية أخرى هناك القشرة الخارجية – على الأقل – من القبلية تنعكس فى أماكن أخرى فى حرب الإبادة ضد مناطق مثل تيمور الغربية .

وعودة إلى عرضنا لمختلف الهيمنات نجد أن العراق باتباعه الطريق الروسى تقوم فيه الهيمنة – مثلما فى روسيا – على أساس حكم الفئة المغلقة . وهذه الاستراتيجية فى إخفاء الصراع الطبقى تلفت الانتباه إلى أهمية القيادة (الهيراركية) الشعبية التى انتقلت مما كان يظلها من خمول نسبى فى التواريخ المعتبرة لتصبح جزءاً من الفئة الحاكمة ، وتعد مبادراتها المختلفة لصالح الأوتوقراطية وضد الليبرالية صورة من صور التأكيد لما توصلنا إليه حول الدور السياسى للكنيسة الأرثوذكسية الروسية .

وعلاوة على ذلك نجد أن الهيمنة فى العراق اتخذت صورتها المعاصرة تجاوبا مع انتشار الرأسمالية فى السنوات الأخيرة من حكم الأمبراطورية العثمانية ، وتحديدا فى سبعينيات القرن الماضى . وعليه فإن مادرجت عليه الدراسات التقليدية من نسبة التحديث إلى البريطانيين ، وأنه بدأ فى عشرينيات هذا القرن هو أمر غير صحيح إلى حد بعيد، فالشواهد قائمة على تشكيل صورة الطريق الروسى منذ القرن التاسع عشر، وعلى سبيل المثال ، يلاحظ المرء منذ القرن التاسع عشر ممارسة الحكام لسياسة « حماية » بغداد من الكتل السكانية ، وتشجيع إنتاج ثقافة عالية حضرية كوزموبوليتانية ودولية ، وثقافة أخرى تنحو منحى فولكلوريا لسائر البلاد .. إلخ .

إن نزعة القوة العظمى ؛ الظاهرة التى ناقشناها من قبل ؛ ظهرت فى العراق بعد جيل من ظهورها فى الاتحاد السوفييتى . والتفسير الواضح لهذا الاختلاف فى الوقت هو الطبيعة القتالية والمتمردة لجمهرة سكان العراق قياسا إلى نظرائهم المتعاونين نوعا فى الاتحاد السوفييتى ، وقد تغير هذا فى الأعوام العشرين ١٩٧٠ ١٩٩٠ . واليوم بعد حرب الخليج ، فإن الدولة العراقية التى عادت مرة أخرى إلى العالم الثالث تواجه تحديات ريفية وعرقية وطبقية لا يستهان بها ، بينما الدولة السوفييتية مازالت أقرب إلى أن تكون قوة عظمى على الرغم من كل مانقرؤه عن المشكلات الداخلية التى تواجهها .

إن مثل العراق يفيد فى إلقاء الضوء على حقيقة أن هناك بدائل للنظرة الاستشراقية فى فهم بلدان الشرق الأوسط ، وتبدو الإشارة إلى هذه النقطة ضرورية ؛ لأنه لم يتحقق سوى نجاح ضئيل فى تحدى النموذج التفسيرى السائد فى دراسة هذه المنطقة .

وتلخيصا نقول : إن تحليل الفئة المغلقة أو النومينكلاتورا يشرح كثيرا من الأشياء فى نظم الطريق الروسى ، والمدهش أنه لا يشرح إلا القليل جدا فى نظم الطرق الأخرى مثل الهند فى الطريق الإيطالى التى تهب الدراسات السائدة منها فى مثل هذا التحليل .

ولننتقل الآن إلى نظم الطريق الإيطالى ، فسيجد المرء أن ما تشترك فيه هو استراتيجية لتمويه الصراع الطبقى باستغلال الثقافات الإقليمية ضد بعضها البعض ، أما التناقضات الأخرى التى توظفها الدولة فهى تناقضات ثانوية .

وكما أوضح جرامشى فى مثل إيطاليا ، لعبت الطبقة الحاكمة بورقة الشمال الأكثر رأسمالية ضد الجنوب الأقل رأسمالية ، ولم تكن هذه حالة إيطاليا فقط ، بل حالة عدد من البلدان الأخرى ذكرنا منها هنا الهند والمكسيك .

وبفحص حالة إيطاليا من خلال عدسات جرامشية تظهر عدة نقاط مثيرة للاهتمام أولها أن المرء يجد - على عكس وجهات النظر التى اعتنقها كتّاب النموذج التفسيرى السائد طويلا - أن استغلال الشمال للجنوب لم يتوقف قط ، بل استمر من أواخر القرن التاسع عشر إلى أيامنا الحاضرة وإن كان أحيانا مرئيا أكثر منه فى أحيان أخرى ، ففى الفترة التى أعقبت الحرب مباشرة غطت على حدة هذا الاستغلال الإقليمى أموال معونات التنمية والتحويلات المالية التى كان يرسلها العمال الجنوبيون مما تدّره عليهم وظائفهم فى أوربا الشمالية ، ولكن هذا الاستغلال عاد ليبرز أكثر وضوحا فى سنوات لاحقة من جرّاء بروز التناقض مع اقتصاديات أوربا الشمالية والعودة الاضطرارية لكثير من العمال الجنوبيين إلى إيطاليا .

وهكذا فإن الآخذين بالنموذج التفسيرى السائد يبدو أنهم يحملون شيئا من وجهة نظر جرامشى حول الجنوب فى عرضهم لأواخر القرن التاسع عشر ، ولكن الظاهر أنهم يتحرجون من متابعة هذا الخط من التفسير فى فترة مابعد الحرب دون أن

يوضحوا سبب استمرار ملامح قياسية للهيمنة : المافيا فى الجنوب والعصبة الشمالية فى الشمال .. إلخ .

النقطة الثانية هى أن معالجة فكرة الطريق الإيطالى للتاريخ الإيطالى توضح أن تطور النموذج التفسيرى السائد للثقافة الإيطالية على أنها ثقافة ليبرالية هو تصوره . وفى الواقع هناك عدد من الإيديولوجيات تتنافس فى إيطاليا ، والعصر الليبرالى فى إيطاليا ، أو العصر الذى يفترض أن السيادة فيه كانت لليبرالية ، كان بكل المقاييس غير مستقر إلى حد بعيد . وقد أطالت أجلَه المغامرات الاستعمارية ، والحرب العالمية الأولى ، ولكنه إنهار فى مواجهة تحدّ صغير نوعا ما من عمال تورينو وما حولها . ومثل هذه النقاط تضع استمرار تأكيد الباحثين للطبيعة الليبرالية لإيطاليا موضع التساؤل على الأقل .

النقطة الثالثة هى أن تفسير الطريق الإيطالى للتاريخ الإيطالى يقدم بعد آخر لمشكلة المركزية الأوربية ، ففى ظل هذا التفسير غالبا ما تم التبشير بالشيوعية الأوربية باعتبارها محاولة أخيرة لتلاؤم اليسار غير الديمقراطى مع الديمقراطية بدلا من كونها خيانة لفلاحى الجنوب .

كانت الهند مثلا ثانيا لنظام من الطريق الإيطالى ، وكان أهم مابدا هنا ، أولا أن مسألة الجنوب قد انتقلت بالمعنى الجغرافى ، وثانيا أن قيام حركة معادية للهيمنة على نفس الخطوط التى ناقشها جرامشى بالفعل يمكن أن يحدث فعليا أزمة فى الهيمنة .

وبينما الدراسات المعتبرة حول الهند تميز بين الشمال والجنوب من حيث اللغة والممارسات الزراعية ، وبينما تلاحظ رحيل أعداد هائلة من فقراء الهنود الجنوبيين إلى الخارج بحثا عن عمل فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .. فإنها الغرابة لاتجد مبررا للقول بوجود « مسألة جنوبية » ، إن هذا يبدو شاذا نوعا ما ، خصوصا مع اعتراف هذه الدراسات بوجود هوية ثقافية شمالية متميزة ، وهى الآن موثّقة جيدا . ألا يمكن أن تكون صورة الشمال نفسها امتداداً الآرية ، ومن ثم أصبح الشمال « مثل أوربا » وقدم نفسه فى صورة مركز التاريخ الهندى الحديث ؟ وعلى الرغم من كل هذا فليس هناك فى رأيهم مسألة جنوبية . إن النموذج التفسيرى السائد له اليد العليا ، ويعتمد تاريخ الهند الحديث على نقطة تركيز كل كاتب : فهو إما نتيجة الديمقراطية البريطانية أو كون الهند شبه قارة يصعب حكمها مركزيا ، أو كونها مجتمعا منظما على أساس طائفى .

قد يكون من أسباب استمرار إجماع المؤرخين على عدم الاعتراف بمشكلة جنوبية فى الهند أن هذه المشكلة تختلف عن نظريتها فى إيطاليا بما يكفى لعدم الاعتراف بالتماثل . فإذا كانت منطقة تاميل نادو فى أواخر القرن التاسع عشر موازية لجنوب إيطاليا ، فقد اختلف الوضع فيما بين الحربين ، ففى هذه الفترة الأخيرة يمكن أن نلاحظ تنمية رأسمالية نشطة فى المنطقة حول مدراس وفى أماكن أخرى من الجنوب القديم ، وأيضا ارتفاعا فى مستويات المعيشة ، ونستطيع أيضا أن نلاحظ أن الثقافة القديمة للفلسفة والفن التجريديين بدأت تفسح الطريق لثقافة أخرى تقوم على أساس وضعية صاعدة ، وفى نفس الوقت بدأ انهيار وانكماش فى البنغال الغربية ، وفقدت كلكتا أهميتها ، بينما الحكم يترنح والرأسمالية تنتشر على نطاق واسع فى شمال الهند . كذلك عانت بيهار هبوطا كان عليها أن تتخلص منه لتبدأ فى تصدير شبابها كعمالة زراعية رخيصة إلى مزارع البنجات وأوتار براديش ، وهى مناطق مناظرة لمنطقة بيدفونت فى شمال إيطاليا . وهكذا تكشف الهند عن حركة جزئية للمسألة الجنوبية من الجنوب إلى الشمال الشرقى .

تُعدّ قضية مناهضة اليهمنة ساحة أخرى يقدم فيها مثل الهند إسهاما فى تفسير الطريق الإيطالى ، وعموما أسفرت حركات مناهضة الهيمنة التى قادتها الأحزاب الشيوعية فى دول الطريق الإيطالى عما يسمى بـ « الشيوعية الأوربية » ، وهو مايعنى أنها أصبحت حركات إصلاحية تسلم بالمقدمات المنطقية للأمر الواقع فى « الشمال » . أما فى حالة الهند، فبينما كان هناك اتجاه فى الحركة الشيوعية اتخذ نفس الموقف ؛ فإن الاتجاه الآخر لم يفعل ذلك ، واستند – بدلا من ذلك – إلى فكرة تحالف العمال والفلاحين . وهذا الموقف أضفى تميزا وأهمية على سلسلة من التحركات كانت مسئولة عن الأزمة المعاصرة للدولة الهندية . وقد توزعت هذه التحركات مابين البنغال الغربية وأماكن أخرى ، وبين ريفية وحضرية . وفى عبارة موجزة ، أنه بينما خضعت إيطاليا لدولة تنمية ورعاية اجتماعية ، وبدأت الهيمنة فى الهند فى التحلل ، ولايعود ذلك إلى أن الهند بلد أكبر من أن يحكُم كما يرى النموذج السائد ، ولكنه يعود إلى أن المعارضين وجدوا طريقة أكثر فعالية فى النضال من خلال حركات ذات بعد من الانعتاق الإقليمى ، سواء كان ذلك من خلال الشيوعية ، أو من خلال الدين الشعبى فى فترة أكثر تأخرا .

نستطيع أن نضع حالة المكسيك فى وضع متوسط بين حالتى إيطاليا والهند ، إن حالة المكسيك أيضا مثيرة للاهتمام بسبب المسألة الجنوبية هناك . ويمكن أن نضيف

أيضا بسبب علاقة اليسار المتكافئة بها . والمكسيك أيضا مثيرة للاهتمام إذا لاحظنا أن الكتاب الذين يأخذون بالنموذج التفسيرى السائد ينكرون عليها دينا ميكتها الداخلية ؛ مفضلين تفسير هذه الحالة بربطها بأسبانيا أو الولايات المتحدة .

إن هذا يعنى أن تفسير الطريق الإيطالى بالنسبة للمكسيك هو تفسير استرجاعى ، ولكنه بشكل ما لا حاجة به إلى أن يكون كذلك ، فهناك كثير من الشواهد التى تشير إلى أن تنظيم المؤسسات الرسمية يعمل لاستدامة الازدواجية بين « شمال » و « جنوب » ، « هندى » فى مقابل « مكسيكى » ، وفلاح فى مقابل مدنى ، ولا رأسمالى فى مقابل رأسمالى ، والعرف والعادة مقابل القانون . هذه هى التقسيمات الثنائية التى تعززها التوصيفات الدارجة ، ولكنها لا تتكامل مع النظرية التى تصدر عن النموذج التفسيرى السائد . إن العربة هنا توضع قبل الحصان . فمن المؤكد أن التربة فى الجنوب أنهكها الاستخدام الطويل منذ عهود المايان ، ولكن هذا لا يدعو الدراسات المعتبرة إلى التساؤل عما إذا كان ذلك سببا قد يجعل من السهل على الشمال أن يستخدم الجنوب كمورد للعمل المهاجر الرخيص . إن الثقافة الهندية فى الجنوب والهضاب الوسطى قد تكون أكثر ارتباطا بالدين ، ولكن هل يفسر هذا أو يبرر احتكار الشمال للثقافة العلمانية أو احتكار شبابه للتعليم العالى ؟ أهى نتيجة ضرورية للسيطرة الإقليمية أن يفترض المرء أن التاريخ لم يوجد إلا فى المنطقة المسيطرة ؟ أياً كان الوضع ، فإن الجنوب ظل فى الدراسات المعتبرة أرض الأساطير بغض النظر عن الثورات التى يؤكد بها نفسه بين الحين والآخر . وإذا كانت حركة زاباتستا فى ١٩٩٤ تعارض النافتا (اتفاقية .. التجارة الحرة لأمريكا الشمالية) وتدعو للاستقلال الذاتى الإقليمى فى الجنوب باسم زاباتا ؛ فإن هذا يظل لدى كتاب النموذج التفسيرى السائد ببساطة حدثا جزافيا ودونكيخوتيا (نسبة إلى بطل رواية سرفانتس الشهيرة) إلى حدما .

ولماذا يكون الأمر بخلاف ذلك إذا لم يكن هناك تحدٍّ ؟ ففى حالة المكسيك لم يحدث إلا فى حالات نادرة جدا مثل أوائل ثلاثينات القرن الحالى ، أن حاول سياسى نقابى مثل اومباردو توليدانو أن يربط مسألة الجنوب التى هى مسألة هندية بمسألة العمال التى كانت مسألة شمالية ، أما فى معظم الأوقات فقد كان اليسار المكسيكى متمركزا فى الشمال ومن تيار الشيوعية الأوربية . ونتيجة لذلك اضطر الفلاحون الهنود الجنوبيون الذين فقدوا أرضهم إلى الهجرة إلى الأحياء الفقيرة العشوائية فى مدن مثل

مكسيكوسيتى ، أو إلى البحث عن عمل فى الـولايات المتحـدة مثلما فعل نظراؤهم فى أنظمة الطريق الإيطالى الأخرى .

إن الدولة القبلية -- العرقية هى شكل ثالث من الهيمنة ، تقوم استراتيجية الحكم فيه على استخدام النوع (الذكورة والأنوثة) كقناع أساسى للصراع الطبقى ، وتعتمد الانتماءات فيه على صلة الدم . وفى مثل هذه الدول تعزز الأيديولوجية الرسمية فكرة الاختلاف الشديد بين الرجال والنساء لتثلم حدة الصراع الطبقى بإعطاء الرجال حصة فى النظام مع تثبيت ومَنْطَقَةَ فكرة أن النساء يجب أن يكن خارج السياسة والتاريخ .

إن هذه النقاط تحتمل التكرار ، لأن خريطة تاريخ العالم المرسومة بنزعة المركزية الأوربية والتاريخ القومى يتعطلان هنا معا ، وتُعطَى هذه البلدان إلى الطلاب الذين يدرسون الأحداث الجارية أو الأنثروبولوجيا .

وفى اختيار الكونغوا البلچيكى / زائير كان المثير للاهتمام الطريقة التى اتبعتها الطبقة الحاكمة فى هذا البلد للإقناع الثقافى ومنهجا فى العلاقات الدولية .

وفى الدراسات المعتبرة عن البلدان ، فإن كل مايقرؤه الإنسان عن بلدان مثل الكونغو البلچيكى / زائير هو أشياء مثل العنف والقسر ، وغالبا ماتستخدم مثل هذه الملامح بما يكفى لتبرير استبعاد هذه البلدان من الدراسة التاريخية الجادة ، لأن هذا البلد غير متحضر وما زال خاماً ، بيد أنه من الواضح أن إعادة إنتاج الظاهرة الاجتماعية فى مثل هذه البلدان تجرى مـــن خـــلال الإقناع ، كما تجرى من خلال العنف والقهر ، وتأمل على سبيل المثال دور الكنيسة الكاثوليكية والإعلام والموسيقى .. إلخ . وهذا يطرح سؤالا أود أن يهتم الآخرون بمتابعته واستقصائه : هل العنف والقهر كما يفهمه العلماء على هذا النحو هو ما يبدو على السطح فقط ؟ وماذا – إذن – عن العنف الواقع – على سبيل المثال – فى البيروقراطية ، ولنعتمد فى هذه النقطة على فوكو – بمقارنته بالممارسات العسكرية ؟ وهل العنف فى النهاية يمكن حصره في أسلوب معين ؟

وما يبدو مؤكدا فى حالة زائير– رجوعا إلى نقطة الإقناع – هو نمو شكل من أشكال التطبيق الثقافى المهيمن طوال القرن الماضى ، وصفناه هنا بالغنوصية أو المعرفة

الروحية . وباتباع مثل هذا الشكل من التطبيق ، فإن من الأفضل أن يكون الولاء بدائيا قبليا أو أسريا أو ذا توجه حزبى ، وإذا تم الأخذ بفرضية ثنائية الرجل والمرأة الثابتة أو تم طرحها جانبا ، فإن سائر الثقافة ينبغى أن تخضع لنوع من النقد لاستئصال أى ولاءات تخريبية محتملة ، فمجالات مثل الطب الحديث يوضع مقابلها وفى منافستها الطب التقليدى ، والتاريخ يوضع فى مقابله وفى منافسته الدراسات الفولكلورية ، واللغة تتطور حول الشعر لا النثر ، والدين يتطور حول التصوف والباطنية وليس حول اللاهوت المدرسى ، وتنظيم الثقافة ككل يستفيد من درجة من الفوضى المحكومة . ونادرا مايحتاج الحاكم إلى بناء مهن منضبطة مخاطرا بتنمية ولاءات غير مرغوبة ولاعلاقة لها به ، مثل الولاءات المهنية .

إن دراسة الكونغو البلچيكى / زائير كنموذج للهيمنة القبلية - العرقية لها فائدتها أيضا فى فهم تشكيل السياسة الخارجية لعدد لابأس به من البلدان . فمن أجل الاحتفاظ بالسلطة دون الخضوع للتنموية ، تعتمد بلدان مثل الكونغو البلچيكى / زائير على تحالف يربط طبقتها الحاكمة بالطبقة الحاكمة فى بلد أجنبى قوى فى علاقة استعمارية تقليدية أو استعمارية جديدة . وفى سبيل تشكيل هذه التحالفات تقدم هذه الطبقات الحاكمة القوى والثروات المعدنية لبلادها فى مقابل المساندة السياسية والعسكرية الكفيلة بإبقائها فى السلطة . وهذه المساندة تكون – غالبا – مساندة تامة . وفى بعض الأحيان تذهب هذه البلدان الأجنبية إلى حد ضمان إعادة انتخاب حلفائها الرئيسية فى الخارج ومتابعة مبادراتها السياسية الخارجية من خلال الأمم المتحدة والنظام المصرفى العالمى ، وأى مجال آخر متوقع أن تتلقى المساندة التى تريدها من هذه الجهات كحقيقة لامراء فيها ، ومن منظور القوى العظمى مثل الولايات المتحدة يبدو أن هذا يفسر الأغلبية التى يمكن أن تتوقعها من تصويتات الأمم المتحدة من ناحية ، والنزعة التدخلية المستمرة غالبا فى شئون هذه البلدان التى يجب أن تتدخل فيها من ناحية أخرى .

إن اختيار ألبانيا كمثل مغاير للكونغو البلچيكى / زائير يقدم شكلا مختلفا من المعرفة الروحية والعلاقات الدولية فى مرآة شيوعية ، وفى ألبانيا كما فى الكونغو البلچيكى / زائير لاتشكك المعرفة الروحية فى النزعة الاجتماعية المتشددة فى محافظتها تجاه المرأة ، ولكن الدولة تسعى لزعزعة الأيديولوجيات الأخرى ، خصوصا تلك المرتبطة بالوضعية ، ومع أن الدولتين ليستا متطابقتين على الإطلاق ، إلا أن هناك

عددا كبيرا من الأشياء المشتركة التى من شأنها أن تثير دهشة جيل شب على أهمية التمييز بين ما هو شيوعى وما هو غير شيوعى .

إن خوجة زعيم ومنظر الشيوعية الألبانية ربما سمى حزبه حزب العمال الألبانى ، لكنه - كما تظهر كتابته - كان حريصا على تطوير فلسفة ذات أساس هادف بما يجعله كمتحدث عن الطبقة العاملة لايختلف كثيرا عن موبوتو . وهكذا ركزت معظم أعماله على مكائد غامضة للإمبريالية العالمية ، وأصبحت الشيوعية ثقافة مسخرة للمعرفة الروحية ، كما كانت نزعة موبوتو فى زائير . ويبدو أن دراسة خوجة إلى جانب مثقفى النظام فى الدول القبلية - العرقية الأخرى من أمثال كيم أيل سونج ، وكابرال ، وهوشى منه ، تفتح آفاقا مهمة للمؤرخين الاجتماعيين .

وتؤيد دراسة العلاقات الخارجية الألبانية النقاط التى سبق أن ذهبنا إليها فيما يتعلق بالكونغو البلچيكى / زائير ، ولكنها تقدم نقطة لم نصادفها من قبل ، وهى أن نظام خوجة الذى لعب دور العمالة لكل من الاتحاد السوفييتى والصين كان قادرا على أن يتخلى عن هذه العلاقات العميلة لينسحب من السوق العالمية وينكفئ على عزلته ، ويبدو أن الدول القبلية - العرقية هى وحدها القادرة على الهروب بمثل هذه الطريقة فى فترات مختلفة من الزمن ، والأمثلة على ذلك بخلاف ألبانيا هى اليمن الجنوبى وغينيا - بيساو .

وبمتابعة حالات زائير وألبانيا والدول القبلية - العرقية الأخرى فى السنوات الأخيرة يلاحظ المرء فى ختام هذه المناقشة الصعوبات التى تواجهها هذه الدول فى اقتصاد عالم اليوم الليبرالى الجديد . فبينما لا تهدد الحروب الأهلية كل الدول العرقية - القبلية ، إلا أن الكثير منها يصطلى بنارها . والواقع أن ألبانيا تبدو ممثلة لعدد كبير من هذه الدول ومن بينها لبنان ويوغسلافيا وأرض الصومال والسودان وكمبوديا وفيتنام وأنجولا وموزمبيق .. إلخ ، وهذه الهشاشة البادية للدول القبلية - العرقية فى مواجهة الرأسمالية المالية تتطلب المزيد من الدراسة ، ففى هذه اللحظة التى نناقشها ، ومع مقدم الليبرالية تفككت قياداتها وأيديولوجيتها ببساطة إلى مكوناتها العرقية المختلفة كلٌ منها تحمل أيديولوجيتها ، فقد انتقلت البلاد مابين عشية وضحاها من الشيوعية إلى الرابطة الإسلامية ، وسمحت لطائرات التجسس الأمريكية بأن تنطلق من أرضها ، ولنختتم هذه النقطة متسائلين ، لماذا حدث ذلك فى ألبانيا وليس فى زائير؟ فإن

الغرض الذى يقفز إلى الذهن هو أن الحركات القومية المعارضة تاريخيا لابد أن تكون بمثل هذه الهشاشة ؛ لأنه لا أحد خارج الطبقة المتوسطة يراهن على استمرار الوضع القائم ، بينما ليس هذا هو الوضع فى زائير نظرا لاتساع البلاد ، ويمكن أن نضيف الحركات ذات الوعى بقضية النوع مثل الكنائس « المعارضة » وذلك على الرغم من تاريخ البلاد الحافل بالحركات الانقسامية .

إن هذا يعيدنا إلى قضية التناقض ، فحيثما يكون التناقص أوليا يكون ثابتا ويتعذر إلغاؤه . وهكذا يجب أن نلاحظ فى حالة ألبانيا كيف تغلب منطق الاتجاهات السائدة تجاه المرأة على أفضل جهود المنظِّمين الشيوعيين لتحدّيه . وإلا فبأى شئ آخر نستطيع أن نشرح فشل الحزب حينما حاول جاهدا أن يفرض نظام الطريق الروسى وأن يحرر النساء ليشاركن فى الفئة الحاكمة ؟ إن معظم النساء اللاتى فعلن ذلك - حتى فى الحقبة الشيوعية - فعلنه بالطريقة التقليدية ، أى من خلال مساندة الأقارب الذكور البارزين . وهنا نتذكر السودان والجزائر وتونس بما عليه حالها اليوم بين كثير من البلدان الأخرى التى لا يختلف كثيرا تاريخها فى الفترة الأخيرة ولاسياساتها الحالية . وهناك بُعد آخر فى هذه القضية يتعلق بمعاداة الهيمنة ، فرعاة الحركة النسوية ، خصوصا أولئك الذين يعملون فى لحظات ضعف الهيمنة القبلية - العرقية ، يمكن أن يصبحوا - وقد تحقق ذلك فعلا شخصيات تاريخية إذا أخذوا على عاتقهم القضية الطبقية ، كما فعل بدرجة أكبر أو أقل دعاة الحركة النسوية الأمريكية الذين ارتبطوا بالقضايا العرقية والطبقية .

أما الشكل الأخير من الأشكال الأربعة الأساسية للهيمنة وهو الديمقراطية البورجوازية ، فهو ذلك الشكل الذى يلعب فيه الحكام بالقضية العنصرية ليزيحوا جانبا القضية الطبقية . وقد أوضح اختيارنا للمملكة المتحدة كيف أن الطبقة العاملة قبلت - أو استُدرجت إلى قبول -- فكرة وجود فئة دنيا عرقية ، كما أن هذا الاختيار ألقى الضوء فى النهاية على أنه حالما يصبح لهذه الفكرة وجود ، فإن الطبقة الحاكمة تستطيع تدريجيا أن تحول استهدافها مجموعة معينة لتصبح فئة دنيا من مجموعة إلى أخرى دون أن يزعج ذلك أو يربك الهيمنة .

إن الموقف الذى يمكن أن يتخذه العمال من المسألة الأيرلندية هو أحد المجاهل الكبيرة فى تاريخ العمال البريطانيين فى أواخر القرن التاسع عشر ، لقد كان هناك

كثير من العمال المنحدرين من أصول أيرلندية فى الطبقة العاملة الإنجليزية ، فهل أدّى ذلك إلى أن يتخذ العمال جانب القوميين لطرد البريطانيين عن أيرلندا الشمالية ، إن أيرلندا الشمالية إذا أصبحت جزءا من أيرلندا ، أى متحررة من الإنجليز ، فلن يصبح من المناسب بعدُ استخدام الأيرلنديين كفئة عرقية دنيا فى المملكة المتحدة ، وهذا ما جعل الطبقة الحاكمة البريطانية تعارض بشدة مطالب الكاثوليك فى أيرلندا الشمالية ، ومن خلال شئ من الربط بين تصور العمال البريطانيين لمصالحهم الخاصة وبين الهندسة الاجتماعية والثقافية التى تولاها السياسيون لن يساند العمال توحيد أيرلندا . وما حدث بعد ذلك كان أكثر إثارة للاهتمام . إن المسألة الأيرلندية التى كانت فى وقت ما القضية الأساسية المركزية تراجعت قليلا إلى الوراء عندما وُضع اليهود الأوائل ومواطنو الكومنولث فى موضع الفئة الدنيا العرقية ، وإن المرء ليتساءل هنا بين قوسين عما إذا كانت البطبقة الحاكمة الإسرائيلية التى أصبحت اليوم فى معرض مناظر بعض الشئ للطبقة الحاكمة البريطانية فى عام ١٩٠٠ ستشكل أسلوبا لإفراج الفلسطينيين ، وإذا كانت ستفعل ذلك فمن إذن هو الذى سيحل محل الفئة العرقية الدنيا الإسرائيلية .

ولنواصل عرضنا قائلين : إنه مع هذا التحول فى الهندسة الثقافية والاجتماعية أصبح واضحا أن الولاء الأول للطبقة العاملة كان للدولة وليس للفئة العرقية الدنيا أيًّا كانت ، إن العمال قبلوا العنصرية والسياسات الاستعمارية للدولة ، وتلقَّوا مقابل ذلك الرعاية الاجتماعية ، وبهذا الأساس الصلب من المساندة الجماهيرية أصبحت بريطانيا « قوة عظمى » ، وفى أوقات المصاعب الاقتصادية لم تخضع للنازية كما فعلت بضع ديمقراطيات أخرى كان التحالف الطبقى فيها أكثر اهتراء .

ويعلم المرء من هذه الدراسة أيضا أن المسألة العرقية تختلف تبعا للهيمنة ، فحيثما تكون المسألة العرقية مركزية كما فى الديمقراطيات تصبح لُبَّ السياسة ، وتصبح جزءا من التعليم ، وفى الحقيقة جزءا من العلم ، وحيثما تكون المسألة العرقية مركزية يصبح التراتب العرقى أيضا أكثر ثباتا . وهكذا ، فإن اختلاط الأعراق المختلفة وسياسات التبنى بين الأعراق وبعضها البعض أصبحت أمثلة للقضايا التى يثور بشأنها الجدل والخلاف فى الديمقراطيات ، بينما هذه الموضوعات فى الهيمنات الأخرى ينظر إليها بصورة مختلفة تماما ، ففى إيطاليا مثلا حيث بعد العرق تناقضا ثانويا ، فإنه يكتسب أهمية حينما يرتبط بالمنطقة والثقافة ، فمثلا تثار هذه القضية عندما يزعم عضو من الرابطة الشمالية أن نابولى هى أفريقيا أوربا (الجزء الأفريقى من

أوربا) ، أما فى دول الطريق الروسى ، فإن العرق مرتبط بفكرة تطورية عن الثقافة ، والروسى هو الأكثر ثقافة من التترى . والعرق لا أهمية له بالنسبة للأفراد ، فليس مهما الأصل الثقافى لمن يتعلم الروسية وطريقة الفئة الحاكمة ، ولقد كان افتراضى فى الحقيقة أنه على مدى نصف القرن الماضى أصبحت الفئة الحاكمة فى الاتحاد السوفييتى بالتدريج مليئة بالأعراق غير الروسية ، وأن هذه حقيقة سياسية هامة من حقائق اليوم . وفى هذا السياق أخذت تزداد أهمية القضية العرقية ، وأخيرا فإن العرق فى الدول القبلية العرقية يتخذ جملة من المعانى تحصره فى روابط الدم ، وفى هذا السياق يمكن أن يتغير الانتماء العرقى للإنسان بسبب التحول فى العقيدة الدينية أو المصاهرة .

أضاف اختيار الولايات المتحدة مثلا من الديمقراطية البورجوازية فكرة الجنس العازل إلى جدل الجنس / الطبقة الموجودة فى كل الديمقراطيات . كما أن هذا المثل أفاد كنقطة انطلاق لإعادة تشكيل دراسة العلاقات الدولية .

إن فكرة الجنس العازل نبعت من النضالات التى جرت فى الولايات المتحدة وليس من اتجاه النظام إلى العنصرية ، وقد ظلت الطبقة العاملة فى الولايات المتحدة بعيدة نوعا ما -- عن هذه الفكرة ، ونتيجة لذلك أصبح باستطاعة بعض السود - إن لم يكن جميعهم -- أن يكونوا أعضاء فى الاتحادات العمالية ، وهذا التضاد فى موقف الطبقة العاملة تجاه العنصرية كانت له نتائج معروفة جيدا ، أولها إحجام الدولة عن بسط الرعاية الاجتماعية على العمال وإبرام العقود الجماعية معهم ، ونتيجة لهذا أصبح اتجاه الرعاية الاجتماعية فى الولايات المتحدة أضعف منه فى غالبية الديمقراطيات الأخرى . وثانيا : استطاع السود الأمريكيون أن يتبنوا استراتيجية تقوم على الاندماج ، وهو خيار ليس متاحا لنظرائهم فى المملكة المتحدة . وحتى نتذكر هذه النقطة ، فإن غالبية البريطانيين فى المملكة المتحدة يعتقدون أن مواطنى الكومنولث يشكلون « أمّة » منفصلة ، وعلى العكس من ذلك فإن معظم البيض الأمريكيين يعتقدون أن السود يشكلون « أقلية عرقية » وثالثا وهذه هى النقطة الجديدة المميزة طورت الدولة فى الولايات المتحدة استراتيجية « الجنس العازل » فمن خلال سياسات الهجرة زرعت الدولة مجموعة أو أكثر من المجموعات العازلة ؛ لتقف فى المجتمع مابين السود والبيض ، ولتتصارع مع مصالح كليهما ، ومن ثم تحرف اتجاه التركيز على الجنس

بعيدا عن قضية السود والبيض ، وتنزع فتيل الصراع لتحوله إلى مايسمى الآن بالتعددية الثقافية . وهناك شواهد على وجود استراتيجية الجنس العازل فى الولايات المتحدة منذ أوائل القرن ، ففى ذلك الوقت جاءت أعداد كبيرة من اليهود والإيطاليين لتتحمل هذا الموقع ، وبعد ذلك بنصف قرن جاء الشرق وسطيون والآسيويون الشرقيون والأمريكيون اللاتينيون . وفى وسائل الإعلام ومن خلال النظام التعليمى غالبا ما تقدم هذه المجموعات الأحدث عهدا المشكلة العنصرية كما خبرتها باعتبارها تخلصا من السود من الناحية العلمية . وفى أعقاب التوسع الهائل فى حجم الأجناس العازلة بعد عام ١٩٧٠ ماتت حركة الحقوق المدنية فعليا ، وظل وضع البلاد كقوة عظمى سليما لم يُمَسّ .

ويمكن هنا أن نعود إلى التاريخ اليهودى الذى ألمحنا إليه سابقا فى سياق الأجناس العازلة والفئات الدنيا العرقية ، لقد حاولت هذه الدراسة أن تقرر أن اليهود يظهرون فى الدول القبلية كقبائل ، وفى دول الطريق الإيطالى كثقافات ، وفى دول الطريق الروسى كمجتمعات تسعى إلى الارتباط بالدولة ، أما فى الديمقراطيات - أو على الأقل فى الديمقراطيات الطبيعية - فإن هدفهم هو أن يكونوا جزءا من المجتمع المدنى ، إن هذه المعالجة لتاريخ اليهود من خلال منطق الهيمنات تبدو لها نتائج مهمة فى فهم تاريخ المجتمعات اليهودية وفى فهم الهيمنات المختلفة .

هناك ملمح ثان بارز فى تاريخ الولايات المتحدة هو سياستها الخارجية وخصوصا سياستها الخارجية تجاه النظم الجماعية ، ولاشك أن الديمقراطيات خلافا للهيمنات الأخرى تتلقاها النظم التى تنطوى على أى أيديولوچية جماعية بالخصومة والعداء ، وهو أمر ملاحظ جدا . والمقصود بالأيديولوجية الجماعية هنا أى أيديولوچية تختلف عن الفردية الليبرالية ، ولكن هذا ليس واضحا فى أى مكان قدر وضوحه فى الولايات المتحدة ، الديمقراطية التى لم تنفق قط مع حركتها العمالية ، ولذلك فإن فترة الإدماجية فى الولايات المتحدة فى تاريخ العالم الحديث كانت فترة شعرت فيها الولايات المتحدة بأنها مهددة بـ « الأعداء » ، وكان بعض هؤلاء الأعداء هم منافسوها التجاريون الأصلاء مثل اليابان وألمانيا ، ولكن بعض هؤلاء الأعداء لم يكونوا من هؤلاء المنافسين مثل عبد الناصر فى مصر ،بيرون فى الأرجنتين وسوكارنوا فى أندونيسيا ، وحتى موسولينى فى إيطاليا ، ففى هذه الحالات الأخيرة جاء الشعور بالعداء لدى الأمريكين خالصا انطلاقا من نيات وأيديولوجيات هذه البلدان ، وترى هذه

الدراسة أن ذلك عامل فى العلاقات الدولية للديمقراطية ، وكذا فى العلاقات الدولية لأشكال الهيمنة الأخرى ، وهو أمر يستحق المناقشة .

فعلى سبيل المثال ، جددت دول الطريق الروسى ، بسبب منطق الهيمنة - سياستها الخارجية على أساس المحافظة على أمن الدولة ، ولذلك فغالبا ماكانوا يخوضون حروبا دفاعية مضحين برعاياهم لانقاذ أمن الدولة ، وكانت استراتيجية العراق فى حرب الخليج الأخيرة والاستراتيجية السوفيتية خلال الحرب العاملية الثانية تمضيان على هذه الخطوط ، ويبدو أن هذه الدول تفضل التوسع فى الأراضى المحيطة بها ، أى مرة أخرى الأراضى التى تؤثر فى دفاعها ، مثلما كانت الحال فى مجال الرخاء المشترك اليابانى أو الكتلة الشرقية السوفيتية ، وذلك عن التوسع فى كوبا أو الكويت المجاورة للعراق ، وهذا يختلف عن أسلوب إمبريالية الديمقراطيات البورجوازية التى تبدو أكثر عالمية . ولتفسير ذلك هناك عامل الفرصة التى تتحملها السياسة الخارجية للدول القبلية العرقية والتى أشرنا إليها من قبل ، ولكن أيضا الاختلاف فى منطق الهيمنة : فإن « الآخر » العرقى يمكن أن يوجد فى أى مكان ، ولكن وجود ثقافة على شئ من العلاقة مع ثقافة الهيمنة الخاصة - على سبيل المثال الاتحاد السوفيتى - لايمكن أن تكون إلا فى مكان قريب . ولذلك كان من السهل على المملكة المتحدة أن تقيم أمبراطورية عالمية بسبب المعنى المستقر إلى حد بعيد لمعنى الاختلافات بين الأجناس ، وهى الخلافات التى توجد فى الداخل بين البيض ومواطنى الكومنولث ، وكان من السهل أيضا بالنسبة للولايات المتحدة أن تفعل نفس الشئ ولكنه لم يكن سهلا تماما بسبب اتجاهات الدمج العنصرى فى داخل البلاد ، إن « الآخر » لم يكن دائما « آخر » كما يستطيع المرء أن يشاهد فى علاقات الولايات المتحدة المؤلمة مع بورتوريكو و الفلبين ، أما السياسة الخارجية لدول الطريق الإيطالى مثل المكسيك ومصر والهند ، فقد كانت فى الغالب سياسة عدم إنحياز فى جوهرها وهى سياسات بلدان ترغب فى زيادة اعتمادها على نفسها اقتصاديا ، ومن العبارات المشهورة لسولينى قوله : « إننا لن نعيش على الخبز الأجنبى » . وهى عبارة تلخص الدوافع التنموية المستثارة فى سياسة واقتصاد كثير من دول الطريق الإيطالى .

وإذا كان يبدو أن العلاقات الدولية تنطوى على صدامات متوقعة بين مختلف الهيمنات ، فلماذا لايمكن تجنبها عن طريق الدبلوماسية ؟ إن الإجابة التى تقترحها هذه الدراسة هى أن شعوب مختلف الهيمنات تميل إلى أن تكون شعوبا ذات فلسفات

ثقافية مختلفة ومنطق مختلف ، ومثل هـذه الاختلافات تجعل تفاوضهم - حتى لو استخدموا لغة يشتركون فيها فرصة لأنواع من سوء التفاهم أكثر من أى شئ آخر .

إذن ، فما هى أنواع المنطق هذه ؟ إن الثقافة الحديثة فى كل أنواع الهيمنات - كما نكرر هنا - هى جدل مابين الوضعية واللاوضعية ، ولاشك أن الوضعية هى الغالبة فى داخل البلاد فى الديقراطيات وإن لم تسلم تماما من المعارضة ، أما فى سائر الهيمنات فالوضعية فى مركز دفاعى بدرجة أو أخرى ، حتى وإن كان شئ من النفوذ ، وفى نظم الطريق الإيطالى ، فإن النظرة المسيطرة إلى العالم هى الرومانسية وهى الصورة السائدة من الميتافيزيقا الفلسفية للنخبة ، أما الوضعية فمرفوضة كفلسفة ، وإن كانت التكنولوجيا والعلم مقبولين ولكن على أسس نفعية أساسا ، وفى الدول القبلية - العرقية تسود الفوضوية كنظرة إلى العالم ، وفى مثل هذه الدول يعزل الفلاسفة أنفسهم عن دعاوى العلم الوضعى من خلال التحليل ، ولذلك فإن كثيرا من العلم الموجود فى هذه البلاد مستورد ، وليس هناك إلا تشجيع ضئيل لإعادة إنتاجه محليا ، وفى دول الطريق الروسى فإن فلسفة النخبة هى طبعة من الماركسية الملتحمة بالوضعية لتتلاءم مع العالم الرأسمالى ، وقصارى القول أنه فى ظل الشروط السائدة فى الاتصالات الدولية حيث تتفقد القضايا غالبا ألا يستطيع الدبلوماسيون أن يستفيدوا من تعميق التفاهم بين هذه الهيمنات ؟ ألا يستطيعون أن يتعلموا ترجمة أفكارهم إلى أنواع مختلفة من المنطق كما يتعلمون ترجمتها من لغة إلى أخرى ؟

إننى أطرح الآن نفس السؤال على المشتغلين بحقوق الإنسان ، وأرى لكى نبدأ من نقطة مشتركة أن دول العالم الحديث تحتاج لا إلى الدبلوماسيين فقط ، ولكن أيضا إلى ثقافة عقلية تؤيد المحافظة على حقوق الإنسان ، وأن تكون ثقافة دولية بما يكفى لتمكينها من العثور على مستوى من الحقيقة فى مختلف الصور السائدة لفهم الحقيقة فى مختلف البلدان ، وأن تكون أيضا قادرة على تحليلها لعناصرها الأولية ، وأن ترى ما يتخلف عنها .

ولتحقيق هذه الغاية يمكن أن نوصى بالاهتمام بإنتاج التاريخ ، ماذا يجب أن يتضمن ؟ وماذا يجب أن يعزف عنه ؟ ويرى هذا الكتاب أن فحص تنظيم الثقافة تبعا لكل من الهيمنات الأربع يوضح أنه بينما كل من الهيمنات المذكورة تشيد بالتاريخ ، إلا أنها تختلف فيما بينها فى تحديد الأشكال التى يجب الأخذ بها من التاريخ .

فمثلا نجد فى نظم الطريق الروسى الاهتمام بأشكال التاريخ السياسى والتاريخ العالمى ، وغالبا مايضع المؤلف فى مثل هذه الأعمال بلاده جنبا إلى جنب مع الغرب ، ومن أمثلة هذا النهج كتابات المؤرخين السلاف والمؤرخين اللينينين ومؤرخى حزب البعث فى العراق الحديث ، وعلى العكس من ذلك فإن التاريخ الاجتماعى فى الطريق الروسى هو معاد للهيمنة فعليا ، ونتيجة لذلك فإن هناك القليل منه ، وماتزال الأفكار الرئيسية فى التاريخ الاجتماعى فى حاجة إلى الدراسة ، مثل العلاقة بين الفئة الاجتماعية والطبقة .

أما فى دول القبلية – العرقية ، فإن التاريخ الوضعى يلعب دورا أقل حتى مما يلعبه فى دول الطريق الروسى . ويُحتفظ به لدراسة الشئون الخارجية مثل الدبلوماسية أو إعداد التقاويم التاريخية ، وهنا أيضا نجد التاريخ الاجتماعى مناوئاً للهيمنة ، والإنتاج منه قليل ، أما تاريخ النوع أو العلاقة بين النوع والطبقة فهو شئ لم يولد بعد بالطبع .

فى دول الطريق الإيطالى تحظى الكتابة التاريخية بالسمعة المتصلة بالموضوعات الثقافية ، وحتى الكتابات الكلاسيكية والكتابات التى تعود إلى العصور الوسطى تنتمى إلى هذا النواع ، ولكن التاريخ الاجتماعى الذى انحاز إلى مصالح الدولة فى وقت لم يؤكد فيه نفسه .

يلقى التاريخ فى الديمقراطيات البورجوازية مقاومة أقل مما يلقى فى أى مكان آخر ، أو هذه هى على الأقل وجهة النظر العامة ، وهى وجهة من النظريمكن الخروج بها من إلقاء نظرة على بطاقات الفهرس فى أى مكتبة ، ولكن مزيدا من التدقيق يؤدى بنا إلى تبين أن الديمقراطيات تشجع على إنتاج الكثير من التاريخ السياسى ، ولكن ليس هناك جهاز يشجع التاريخ الاجتماعى الذى يعد صورتها المفضلة من التاريخ كما أوضحنا فى الفصل . وتبقى النخبة هى الجهاز الذى يكتب التاريخ فى الديمقراطيات ، وفى ضوء هذه الاتجاهات ، ألا يمكننا القول بأن حالة التاريخ الاجتماعى نصلح كمؤشر على كيفية تعامل الحكام مع مواطنيهم ؟ ولماذا يبدو أن دراسة التاريخ الاجتماعى فى مختلف الهيمنات يمكن أن تساعد المهتمين بمراقبة حقوق الإنسان على الاضطلاع بمسئولياتهم ؟ ألا تكون القطعية مع المركزية الأوربية كما اقترح هذا الكتاب إيذانا بمولد عصر ذهبى للتاريخ الاجتماعى سواء داخل الأوساط الأكاديمية أو خارجها ؟

قائمة المراجع

Abdulrahman, A. J. Iraqi National Bibliography, 1856-1972. Basra, 1978 1:

Amin, Samir. Irak et Syrie. Paris : Edition de Minuit, 1982.

Amin, Samir. Eurocentrism. New York : Monthly Review Press, 1989

Amselle, Jean-Loup and M'Bokolo, Elikia eds. Au coeur de l'Ethnie Ethnies, tribalisme et l'Etat en Afrique. Paris, 1985.

Amyot, Grant. The Italian Communist Party-The Crisis of the Popular Front Strategy. New York: St. Martin's Press, 1981.

Arico, Jose. La Cola del diablo: itinerario de Gramsci en America Latina. Caracas, 1988.

Bachrach, Peter. The Theory of Democratic Elitism-a Critique. Boston : Little, Brown and Company, 1967.

Barbara Jeanne Fields. "Slavery, Race and Ideology in the United States of America. "New Left Review. June, 1990: 95-118.

Barkan, Elazar. The Retreat of Scientific Racism: Changing Concepts of Race in Britain and the United States Between the Two World Wars. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1992.

Batatu, Hanna. The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq. Princeton: Princeton Univ. Press, 1978.

Bellah, Robert N. "Civil Religion in America." Daedalus 96, no. 1(Winter 1967): 1-21.

Bellamy, John Foster. "The Fetishism of Fordism," Monthly Review 39, no. 10(1988): 14-33.

Beneria, Lourdes and Roldan, Martha. The Crossroads of Class and Gender-Industrial Housework, Subcontracting and Household Dynamics in Mexico City. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1987.

Bernal, Martin. Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization. New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1987.

Billington, James H. The Icon and the Axe. New York: Alfred A. Knopf, 1966.

Bluestone, Barry and Harrison, Bennett. The Deindustrialization of America. New York: Basic Books, 1982.

Boserus, Ester. Women's Role in Economic Development. London: Earthscan, 1970.

Bouwsma, William J. "The Renaissance and the Drama of Western History. "American Historical Review 84, no. 1 (1979): 1-15.

Cammett, John. Antonio Gramsci and the Origins of Italian Communism. Palo Alto: stanford Univ., 1967.

Carr, Barry. "The Peculiarities of the Mexican North, 1880-1928: An Essay in Interpretation. "Univ. of Glasgow, Occasional Papers, No. 4 (1971).

Carr, Barry. "Marxism and Anarchism in the Formation of the Mexican Communist Party, 1910-1919. "Hispanic American Historical Review 63, no. 2 (1983) : 277-305.

Carr, Barry. Mexican Communism, 1968-1983: Eurocommunism in the Americas?. San Diego: Center for United States-Mexican Studies, 1985.

Cashman, Richard. "The Phenomenon of Indian Crichet," in Sports in History. eds. Richard Cashman and Michael Mckernan, Queensland: Queensland Univ. Press, 1979.

Castro, Michael. Interpreting the Indian-Twentieth Century Poets and the Native American. Albuquerque: Univ. of New Mexico Press, 1983.

Chatterjee, Partha. Nationalist Thought and the Colonial World-A Derivative Discourse. London: Zed Press, 1986.

Chaudhary, Vijay C. p. Secularism Versus Communalism-An Anatomy of the National Debate on Five Controversial History Books. Patna, 1979.

Cocihiazra, Giuseppe. The History of Folklore in Europe. Philad elphia : ISSHI, 1981

Cohen, Stephen. Rethinking the Soviet Experience: Politics and History Since 1917. New York: Oxford Univ. Press, 1985.

Cohen, Ronald. "Oedipus Rex and Regina: The Queen Mother in africa. "Africa 47, no. 1 (1977): 23.

Colls, Robert and Dodd, Philip., eds. Englishness-Politics and Culture 1880-1920. London: Croom Helm, 1986.

Cunnison, Ian. "History and Genealogy in Conquest States." American Anthropologist 59, no. 1 (1957): 20-31.

Dale, Peter. The Myth of Japanese Uniqueness. New York: St Martin's Press, 1986.

Datta, Kalinkinkar. Educational and Social Amelioration of Women in Pre-Mutiny India. Patna, 1936.

Dinnerstein, Leonard. Uneasy at Home: Antisemitism and the American Jewish Experience. New York: Columbia Univ. Press, 1987.

Dubovsky, Melvyn. We Shall be All: A History of the Industrial Workers of the World. Chicago: Quadrangle Books, 1969.

Dumont, Louis. Homo Hierarchus. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1970.

Duncan, Carol. "Who Rules the Art world." Socialist Review 13, no. 4 (July 1983): 99-119.

Ehrenreich, Barbara. Fear of Falling: The Inner Life of the Middle Class. New York: Pantheon, 1989.

Eley, G. "Reading Gramsci in English." European Historical Quarterly 14, no. 4(1984): 441-478.

Encyclopedia of Modern Iraq. Baghdad, 1978. 3 v.

Encyclopedia Judaica. New York: Macmillan, 1971. v. g.

Engelbourg, Saul and Schlachter, Gustav. "Two 'Souths': The United States and Italy Since the 1860's. "Journal of European Economic History 15, no. 3 (1986): 563-589.

Enteen, George M. The Soviet Scholar- Bureaucrat: M.N. Pokrovskii and the Society of Marxist Historians. Univ. Park: Pennsylvania State Univ. Press, 1978.

Venyvesi, Charles. Splendour in Exile-The Ex-majesties of Europe. Washington D.C. : New Republic Books, 1979.

Ferguson, Wallace K. The Renaissance in Historical Thought. Boston: Houghton Mifflin Co, 1948 (1981).

Fitzpatrick, Sheila. " New Perspectives on Stalinism, " The Russian Review 45(1986): 357-373.

Forgacs, David., ed. Rethinking Italian Fascism. London: Lawrence and Wishart, 1986.

Fredrickson, George. White Supremacy-A Comparative Study in American and South African History. New York: Oxford Univ. Press, 1981.

Friedman, Victor A. Evidentiality in the Balkans: Bulgarian, Macedonian and Albanian. Norwood, NJ: Ablex Publ Corp, 1986.

Garson, Barbara. The Electronic Sweatshop: How Computers are Transforming the Office of the Future into the Factory of the Past. New York: Simon and Schuster, 1988.

Genovese, Eugene D. "The Political Crisis of Social History: Class Struggle as Subject and Object, "in Fruits of Merchant Capital, eds. Elizabeth Fox-Genovese and Eugene D. Genovese, 179-212. New York: Oxford Univ. Press, 1983.

Gerber, Haim. Islam, Guerilla War and Revolution. Boulder: Lynn Rienner, 1988.

Geschiere, Peter. "Applications of the" Lineage Mode of Production" in African Studies." Canadian Journal of African Studies 19(1985).

Gilly, Adolfo. The Mexican Revolution. London: Verso Press, 1983.

Goldstein, Robert Justin. Political Repression in Modern America- From 1870 to the Present. Cambridge: Schenkman Publ Co, 1978.

Gorman, Robert., ed. Biographical Dictionary of Neo-Marxism. Westport: Greenweed Press, 1985.

Gorman, Robert. Biographical Dictionary of Neo-Marxism. Westport: Greenwood Press, 1985.

Gran, Peter, "Political Economy as a Paradigm for the Study of Islamic History." International Journal of Middle East Studies 12(1980): 511-526.

Gran, Peter. "The Political Economy of Aesthetics: Modes of Domination in Modern Nation States Seen Through Shakespeare Reception. "*Dialectical Anthropology* 17(1992): 171-188.

Grew, Raymond. "The Comparative Weakess of American History. "*Journal of Interdisciplinary History* 16, no. 1(1985): 87-101.

Gsovski, Vladimir and Grzybowski, Kazimierz. *Government, Law and Courts in the Soviet Union and Eastern Europe.* New York: Frederick A. Praeger, Inc., 1960 2 vols.

Gu, Xiao-rong. "Resource, Choice and Power: A Comparative Study in Social Change and Ideological Transformation of Germany (1848-1914) Italy (1861-1963) and Egypt (1919-1983). "Ph. D. diss., Temple Univ., 1988.

Hall, Stuart. "The Rise of the Representative/Interventionist State. "in *State and Society in Contemporaty Britain.* edited by Gregor Mclennan, David Held and Stuart Hall, Ch. 1. Oxford: Press, 1984.

Hall, Stuart. " The Great Moving Right Show." in *The politics of Thatcherism.* edited by Stuart Hall and Martin Jacques, 42-3 London: Lawrence and Wishart, 1983.

Harvey, David. *The Conditions of Postmodernity.* Oxford: Basil Blackwell, 1989.

Hasluck, Margaret. *The Unwritten Law in Albania.* Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1954.

Hatzimichali, Nectaire. "L'Eglise Orthodoxe Grecque et le Messianisme en Afrique. "*Social Compass*, 22, no. 1(1975) 85-95.

Heer, Nancy. *Politics and History in the Soviet Union.* Cambridge: MIT Press, 1971.

Hoare, Quintin and Nowell-Smith, Geoffrey., eds. *Selections From the Prison Notebooks of Antonio Gramsci.* London: Lawrence & Wishart, 1971.

Hodgson, Marshall. *Venture of Islam.* Chicago: Univ. of Chicago Press, 1973. 3 v.

Hoffman, John. *The Gramscian Challenge: Coercion and Consent in Marxist Political Theory.* Oxford: Blackwell, 1984.

Hoggart, Richard. *The Uses of Literacy.* London: Chatto and Windus, 1957.

Horn, Pierre L. and Pringle, Mary Beth., eds. *The Image of the Prostitute in Modern Literature.* New York: Frederick Ungar, 1984.

Iggers, Georg G. and Powell, James M., eds. *Leopold von Ranke and the Shaping of the Historical Discipline.* Syracuse: Syracuse Univ. press, 1990.

Jewsiewicki, Bogumil. "The Political Culture of Ethnicity in the Belgian Congo." in *The Ideology of Slavery in Africa.* Beverly Hills: Sage Publ, 1981.

Jewsiewicki, Bogumil. "African Historical Studies--Academic Knowledge as 'Usable Past' and Radical Scholarship. "Boulder: ACLS/SSRC, 1987.

Johnson, Richard. "Edward Thompson and Eugene Genovese, and Social-Humanist History. "*History Workshop* no. 6(August 1978): 79-100.

Kadare, Ismail. *The General of the Dead Army.* New York: Grossman, 1972.

Karouni, A. "Brecht in Irak," in *Brecht 80*, edited by Werner Hecht et al., 57-66. Berlin: Henschelverlag Kunst und Gesellschaft, 1980.

Katz, Friedrich. *The Secret War in Mexico-Europe, the United States and the Mexican Revolution.* chicago: Univ. of Chicago Press, 1981.

Keen, Benjamin. *The Aztec Image in Western Thought.* New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1971.

Kiernan, Victor. "Gramsci and the Other Continents." *New Edinburgh Review.* No. 27 (1975)19-24.

Kolsti, John. "From Courtyard to Cabinet: The Political Emergence of Albanian Women." in *Women. State and Party in Eastern Europe.* edited by Sharon L Wolchik and Alfred G Meyer. Durham: Duke Univ. Press, 1985.

Kostallari, Androkli. "Le Developpement des Etudes Albanologiques en Albanie-Problemes Nouveaux et Taches Nouvelles. "*Studia Albanica* 1, no.1 (1964) 5-46.

Levine, Lawrence W*Highbrow/Lowbrow- The Emergence of Cultural Hierarchy in America.* Cambridge: Harvard Univ. Press, 1988.

Lewin, Moshe. *The Making of the Soviet System.* New York: Pantheon. 1983.

Lyons, Gene M. *The Uneasy Partnership-Sociaul Science and the Federal Government in the Twentieth Century.* New York: Russell sage, 1969.

MacGaffey, Janet. *The Real Economy of Zaire.* Philadelphiaa : Univ. of Pennsylvania Press, 1991.

Mark, Charles C. *A Study of Cultural Policy in the United States.* Paris : Unesco, 1969.

Mattaelart, Armando. *Multinational Corporations and the Control of Culture.* Sussex: Harvester Press, 1979.

Matute, Alvaro. *La teoria de la Historiaa en Mexico, 1940-1673.* Mexico City, 1974.

McDaniel, Tim. *Autocracy. Capitalism, and Revolution in Russiaa.* Berkeley: Univ. of California Press, 1988.

Merriman, John. *Comparative Law: Western European and Latin American Legal Systems.* Indianapolis: Bobbs Merrill, 1978.

Meyer, Michael C. and Sherman, William L. *The Course of Mexican History.* New York: Oxford Univ. Press, 1987.

Mies, Maria. *Patriarchy and Accumulation on a World Scale.* London: Zed Press, 1986.

Millon, Robert Paul. *Mexican Marxist Vicente Lombardo Toledano.* Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1966.

Mollica, Richard F. "From Antoio Gramsci to Franco Basaglia (1924-1980): The Theory and Practice of Italian Psychiatric Reform. "*International Journal of Mental Health* 14, no 2 (1985).

Momigliano, A. "Historicism in Contemporary Thought" in *Studies in Historiography*, edited by A. Momigliano, 221-238. London: Weidenfeld and Nicolson, 1966.

Morrison, John. *New Ideas in India During the Nineteenth Century.* Chandigarh, 1977.

Mouralis, Bernard. *Les Contre-Litteratures.* Paris: Presses Universitaires de France, 1975.

Mudimbe, V.Y. *The Invention of africa-Gnosis, Philosophy, and the Order of Knowledge.* Bloomington: Indiana Univ. Press, 1988.

Mudimbe, V.Y. *Parables and Fables.* Madison: Univ. of Wisconsin Press, 1991.

Mukeba, Lufuluabo. "Some Aspects of Bilingualism and Bilingual Education in Zaire." in *International Handbook of Bilingualism and Bilingual Education*, edited by Christina Bratt Paulston, Ch. 27. Westport: Greenwood Press, 1988.

Nahas, Maridi. "Hegemonic Constraints and State Autonomy: A Comparative Analysis of Development in Nineteenth Century Egypt, Spain and Italy."Ph.D. diss., UCLA, 1985.

Neufeld, Maurice *F. Italy, School for Awakening Countries: The Italian Labor Movement in its Political, Social, and Economic Setting from 1880-1960.* Ithaca: Cornell Univ. Press, 1961.

Nield, Keith. "A Symptomatic Dispute? Notes on the Relation Between Marxian Theory and Historical Practice in Britain." *Social Research* 47(1980): 479-506.

Novick, Peter. *That Noble Dream-The "Objectivity Question" and the American Historical Profession.* Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1988.

Palmer, Robin and Parsons, Neil., eds. *The Roots of Rural Poverty in Central and Southern Africa.* Berkeley: Univ. of Calif Press, 1977.

Patterson, Thomas *C. Las sociedades nucleares de Mesoamerica.* Caracas: Historia General de America, forthcoming.

Pipa, Arshi. "The Political Culture of Hoxha's Albania," in *The Stalinist Legacy-Its Impact on Twentieth-Century World Politics*, edited by Tariq Ali. Boulder: Lynn Rienner Publishers, 1985.

Pleck, Elizabeth. *Domestic Tyranny: The Making of Social Policy Against Family Violence From Colonial Times to the Present.* New York: Oxford Univ. Press, 1987.

Popovic, A. "Les Ordres Mystiques Musulmans du Sud-Est Europeen dans la Periode Post-Ottomane," in *Les Ordres Mystiques dans L'Islam*, edited by A. Popovic and G. Veinstein. Paris: CNRS, 1985.

Porciani, Ilarian. *"L' Archivio storico Italiano" : organizzazione dalla ricerca ed egemonia moderata nel Risorgimento.* Florence, 1979.

Radu, Michael., ed. *Eastern Europe and the Third World.* New York: Frederick A. Praeger, 1981.

Rich, Paul B. *Race and Empire in British Politics.* Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1986.

Riepe, Dale., ed. *Asian Philosophy.* New York: Gordon and Breach, 1981.

Rowbotham, Sheila. *Hidden From History-Rediscovering Women in History from the 17the Century to the Present.* New York: Vintage Books, 1976.

Sadie, Stanley., ed.*The New Grove Dictionary of Music and Musicians.* London: Macmillan, 1980.

Sadr, Muhammad Baqir. *Our Philosophy.* London: Muhammadi Trust/KPI, 1987.

Salmeron, Fernando. "Mexican Philosophers of the Twentieth Century, "in *Main Trends in Mexican Philosophy.* Notre Dame: Notre Dame Univ. Press, 1966.: 246-287.

Salomone, William A. "The Risorgimento Between Ideology and History: The Political Myth of the 'Rivoluzione Mancata'. "*The American Historical Review.* 68(1962): 38-56.

Sarkar. Sumi *"Popular" Movement and the "middle" Class Leadership in Late Colonial India: Perspectives and Problems of a History From Below.* Calcutta, 1983.

Sarkar, Sumit. *Modern India.* New York: St Martin's Press, 1989.

Sayer, Derek and Corrigan, Philip. "Revolution Against the State: The Context and Significance of Marx's Later Writings," *Dialectical Anthropology* 12 (1987): 65-82.

Sen, S. P., ed. *The* North and the South in Indian History-Contact and Adjustment. Calcutta, 1976.

Shanin, Teodor. *Russia as a Developing Society.* London: Macmillan, 1985.

Shanin, Teodor. *Late Marx and the Russian Road.* New York: Monthly Review Press, 1983.

Simmons, Ernest J. et al. *Continuity and Change in Russian and Soviet Thought.* New York: Russell and Russell, 1955.

Skowronek, Stephen. *Building a New American State-The Expansion of National Adminstrative Capacities, 1877-1920.* Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1982.

Sorenson, Arne. "The Scandinavian Concept of History." in Torben Lunback, *African Humanism-Scandinavian Culture A Dialogue.* Copenhagen, 1970.

Sow, I. *Anthropological Structures of Madness in Black Africa.* New York: International Universities Press, 1978.

Srivastava, Gita. *Mazzini and His Impact on the Indian National Movement.* Allahabad, 1982.

Stanfield, John H. *Philanthropy and Jim Crow in American Scholarchip.* Westport: Greenwood Press, 1985.

Thomas, Jack Ray. *Biographical Dictionary of Latin American Historians and Historiography.* Westpout: Greenwood Press, 1984.

Tyrrell, Ian. *The Absent Marx.* Westport: Greenwood Press, 1986.

Vail, Leroy. ed. *The Creation of Tribalism in Southern Africa.* Berkeley: Univ. of California Press, 1991.

Vansina, Jan. *Oral Tradition as History.* Madison: Univ. of Wisconsin Press, 1985.

Verhagen, Benoit. *Introduction a L'Histoire Immediate.* Gembloux, Belgium: Duculot, 1974.

Walkowitz, Judith. *Prostitution and Victorian Society-Women, Class and the State.* Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1980.

Wilentz, Sean. "Against Exceptionalism: Class Consciousness and the American Labor Movement." *International Labor and Working Class History.* no. 26 (Fall 1984): 1-24.

Wood, Ellen Meiksins. *The Retreat From Class-A New 'True' Socialism.* London: Verso, 1986.

Woodruff, Nan Elizabeth. *As Rare as Rain-Federal Relief in the Great Southern Drought of 1930-31.* urbana: Univ. of Illinois Press, 1985.

Yates, Barbara A. "Colonialism, Education and Work: Sex Differentiation in Colonial Zaire, "in *Women and Work in Africa.* ed. Edna G Bay. Ch. 6. Boulder: Westview Press, 1982.

Yousif, 'abd Al-Salaam. "Vanguardist Cultural Practics: The Formation of an Alternative Cultural Hegemony in Iraq and Chile, 1930's-1970's. "ph. D. diss., Univ. of Iowa, 1988.

Zea, Leopoldo. *Positivism in Mexico.* Austin: Univ. of Texas Press, 1968.

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـوع | الصفحة

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	أ. د. أحمد درويش
الوثنية والإسلام	مادهو بانيكار جى. ام	أ. أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج/ جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	اتى كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : د. محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : د. سعد مصلوح/ د. وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الانطاكى
مشعلوا الحرائق	ماكس فريش	ت : د. مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : د. محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وآخرون
مختارات	فيسوافا شمبيوريسكا	ت : د. محمد هناء عبدالفتاح
طريق الحرير	ديفيد برانستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسون سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
حركات الفن المعاصر	ادوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : د. لطفى عبد الوهاب يحى/ د. فاروق القاضى/ د. حسين الشيخ/ د. منيرة كروان / د. عبد الوهاب علوب
واحة سيوة وموسيقاها		ت : محمد جمال عبد الرحيم
تجلى الجميل	هانز جورج جادامر	ت : سيد توفيق
المثنوى	جلال الدين الرومى	ت : د. إبراهيم الدسوقى شتا
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : د. بكر عباس
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى		
النظريات الحديثة للسرد	والاس فاوتن	ت : د. حياة جاسم
الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

مختارات	فيليب لاركين	ت : د. محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : د. طلعت شاهين
الأعمال الكاملة	چورج سفيريس	ت : د. نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كرواثر	ت : د. يمنى طريف الخولى د. بدوى عبد الفتاح
خوخه وألف خوخة	صمد بهرنكى	ت : د. ماجدة محمد على
مذكرات رحالة	جون أنتيس	ت : د . سيد أحمد على الناصرى
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق		ت : نخبة
الانقراض	ديفيد روس	ت : د. مصطفى إبراهيم فهمى
الرواية العربية	روجر ألن	ت : د. حصة عبد الرحمن منيف
الاغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة عبد المنعم كروان
الموت والوجود		ت : بدر الديب
نقد الحداثة		ت : د . أنور مغيث
التاريخ الاقتصادى لافريقيا الغربية		ت : ا . أحمد بلبع
الأعمال الكاملة لسفيوليس		
رسالة فى التسامح		ت : د . منى أبو سنة
ما بعد المركزية الأوروبية		ت : د . عاطف أحمد – إبراهيم فتحى – محمود ماجد

المشروع القومى للترجمة
(تحت الطبع)

قصائد حب
الدراما والتعليم
العلاج النفسى التدعيمى
تاريخ النقد الأدبى الحديث
مصر الفرعونية
ت . س . إليوت
الرواية الاسبانوامريكية

رقم الإيداع ١٣٥٩٠ / ١٩٩٧

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 977 - 2)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية